بسّام العسلي

المذهب العسكري الألماني

١٧٥٠ - ١٩٤٥ م

تقديم
العماد مُصطفى طلاس



للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـــ اوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

المذهب العسكري الألماني

١٧٥٠ - ١٩٤٥ م

الطبعة الأولى
١٩٨٧

بسّام العسلي

المذهب العسكري الألماني

١٧٥٠ - ١٩٤٥ م

تقديم
العماد مصطفى طلاس

تقديم

بقلم

العماد مصطفى طلاس

مضى زهاء نصف قرن من عمر الزمن، وذكريات الحرب العالمية الثانية حية وقوية وماثلة أمام أبصار من عاشوا تجربة هذه الحرب، حتى لو كانوا عندها أحداثاً. وليس ذلك إلا برهاناً على عنف أحداث تلك الأيام وما تضمنته من إثارة قوية للنفوس. فقد اهتزت الدنيا لوقع أقدام الجندي الألماني وهو يضرب في ميادين القتال متنقلاً من نصر إلى آخر، ما بين بروكسل وباريس ولاهاي وبلغراد واليونان وكريت والعلمين. وقد تناقل الأبناء عن الآباء والأجداد ذكريات الحرب التي سبقتها، ذكريات الحرب العظمى أو الحرب العالمية الأولى كما عرفت فيما بعد. حيث كان الجندي الألماني يقف شامخاً وسط النوائب يموت أو ينتصر. فهل كانت هذه الروح المعنوية أكثر من تعبير، أو ظاهرة، من ظواهر العسكرية الألمانية ؟ وهل لهذه الظاهرة علاقة فيما يعرف باسم (المذهب العسكري) ؟ واذا كان هناك مذهب عسكري ألماني مميز فما هي ملامحه وإلى أي عهد يعود تاريخه ؟

لا بد من القول قبل كل شيء بأن المذهب العسكري، لأي أمة، هو خلاصة التجربة التاريخية لهذه الأمة عبر ما خاضته من حروب. ولقد عاشت ألمانيا حياة الحرب طوال قرنين ونصف القرن تقريباً، واستطاعت عبر هذه الحروب توحيد شتات الشعب الألماني ــ بعد تمزق ــ ورفع رايته عالياً في

العالم. ولقد كانت هذه الحروب هي محصلة التقاء مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية والثقافية، وذلك كله في إطار الوضع الجيواستراتيجي والديموغرافي لألمانيا. ولقد عملت هذه العوامل مجتمعة على إعطاء الحروب الألمانية طابعها المميز. ولما كان المذهب العسكري هو خلاصة التجربة التاريخية للأمة، فقد كان للمذهب العسكري الألماني ملامحه الواضحة وطابعه المميز.

لم تكن ألمانيا قبل عهد فريدريك الكبير ١٧١٢ ـــ ١٧٨٦ م أكثر من مجموعات من الامارات الممزقة التي لا تربطها بعضها ببعض أكثر من روابط واهية. ولم تكن الأرض الألمانية أكثر من ممر أو معبر لجيوش الدول المجاورة والتي كانت تخوض حروبها وصراعاتها على الأرض الألمانية، كحرب الوراثة الاسبانية على سبيل المثال لا الحصر... وجاء فريدريك الكبير، فأخرج شعبه من مأزقه، ووحَّد جهود شعبه، وخاض حروباً ضارية (الحروب السيليزية)، وترك دولة تعرف هدفها وتعرف طريقها. ولقد حددت حروب فريدريك، ورسمت الملامح الأساسية للمذهب العسكري الألماني. ومن ذلك: الاهتمام بنوعية الجندي للتغلب على التفوق العددي في الدول المجاورة لألمانيا والتي قد تخوض الحرب معها، وفرض الانضباط الصارم، والعمل على الخطوط الداخلة للافادة من موقع ألمانيا المتوسط والقضاء على الخصوم واحداً بعد الآخر، وتجنب الحرب على أكثر من جبهة في وقت واحد، كلما كان ذلك ممكناً، والاهتمام بانتقاء القادة ـــ الضباط ـــ وتأهيلهم، وانتاج الأسلحة المتفوقة، والحرص على حسم الصراع المسلح بسرعة نظراً لما تفرضه الظروف الاقتصادية لألمانيا من قيود، وعدم قدرتها على احتمال حرب طويلة الأمد..

لقد استند المذهب العسكري الألماني في انطلاقته الأولى إلى معطيات

الفكر القومي (وحدة الشعب الجرماني). وكان لابد لهذا الفكر من أن يتكامل مع المعطيات الاجتماعية والاقتصادية، فجاء رجال الاقتصاد والفلاسفة وعملوا على اغناء الفكر القومي بمتطلباته ــ ولم تكن قوانين الحماية الاقتصادية والقوانين الجمركية ونظريات التوسع إلا ثمرة من عطاءات الفكر الألماني الذي أخذ في دعم المذهب العسكري الألماني في إطار تحقيق التوازن بين (الثروة والقوة). وهكذا مضى المذهب العسكري الألماني قدماً وهو يتكامل يوماً بعد يوم من خلال ما يتوافر له من رفد فكري، ومن خلال محاولات توظيف النظريات لخدمة التطبيق العملي ــ أو ضمان الربط بين ما هو نظري وما هو عملي. وقد أفسح ذلك المجال الرحب أمام الإبداع لسد الثغرات وتحقيق التطابق.

اجتاحت أوروبا بعد ذلك ريح هوجاء حملتها الحروب النابوليونية، ولم تسلم منها حتى ألمانيا. وجابه المذهب العسكري الألماني أزمة حادة، وهنا عاد رجال الفكر للنهوض بالفكر العسكري الألماني. وجاء (كلاوزفيتز) ليحتل قمة الهرم، وليقدم من موقعه المتفوق عطاء ثراً، تجاوز حدود ألمانيا إلى الأفق العالمي. وقد أفاد المذهب العسكري الألماني من عطاء مفكِّره، بقدر ما أفاد من عطاء المصلحين الألمان الذين حاولوا تطوير المذهب العسكري الألماني من الناحية العملية بما يتوافق مع متطلبات الزمن. وعادت العسكرية الألمانية فانطلقت من عقالها، وتحررت من قيودها، واستأنفت مسيرتها الشاقة والتي انتهت بالانتصار الكبير على فرنسا في حرب العام ١٨٧٠، وتحقيق الوحدة الألمانية. وانتقلت ألمانيا إلى المرتبة الدولية الأولى في أوروبا، والتي تمتلك جهازاً حربياً لابد من وضعه في كفة الميزان عند حساب التوازنات التي كانت قائمة على الساحة الأوروبية. وكان من طبيعة الأمور أن يكون هذا التحول هو نقطة البداية لما فرضته التحولات الجديدة على ألمانيا. ولم تكن

القضية بالنسبة لألمانيا هي قضية المحافظة على الدولة القوية (وقد أصبحت متوافرة لها)، وإنما باتت القضية تطوير هذه الدولة القوية بما يتناسب مع تطورات الدول القوية المماثلة على الساحة الأوروبية مثل انكلترا وفرنسا — ولم يكن باستطاعة الدولتين المذكورتين التنازل عن مواقعهما المكتسبة. وكان لابد من الاحتكاك والصدام، وكان لابد للمذهب العسكري الألماني من أخذ هذه التطورات بعين الاعتبار. وهكذا كان (شليفن) هو الرائد السبّاق في مضمار التخطيط للحرب، ووضع احتمالاتها، حتى اذا ما تفجرت الحرب العالمية الأولى كان هناك إرث ضخم تركه الأجداد والسلف، من أمثال فون مولتكه وسواه. وجابهت ألمانيا موقفاً صعباً حيث تمكنت بريطانيا وفرنسا وبقية دول الحلف من زج قوى ووسائط استنزفت القدرة الألمانية. وجاءت التطورات في غير مصلحة ألمانيا فخرجت من الحرب وهي مدمَّرة تماماً، ومستنزفة حتى آخر قطرة من دمائها.

جابه المذهب العسكري الألماني مأزقاً صعباً في أعقاب الهزيمة، إذ كان عليه حل مجموعة من المتناقضات، فهو ملزم بإيجاد الحل لأزمة الأمة الألمانية وتمزقها والمحافظة على وحدتها من خلال العسكرية. وكان عليه المحافظة على أمجاده وتقاليده رغم القيود الصارمة التي فرضها الحلفاء — انكلترا وفرنسا — على ألمانيا من حيث حجم الجيش وقوته وتسلحه. وكان عليه أيضاً بناء الصناعة الحربية بما يتوافق مع متطلبات المستقبل، وعلى ضوء الدروس المستخلصة من الحرب السابقة. وتصدى لهذا العمل الضخم بناة الجيش الألماني وقادته والذين مثلهم الجنرال فون سيكت أفضل تمثيل. ولم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى أسفر المخاض العسير عن ولادة جيش جديد في شكله وتنظيمه وتسليحه، قديم في أصالته وتقاليده. واستجاب المذهب العسكري الألماني، فأفاد من حصالة تجاربه القديمة لإيجاد الحلول الصحيحة والمناسبة

لكل مشكلة من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعسكرية. وكان الارتباط الثابت بين الجيش وبين أمته هو ثمرة من ثمار العطاء الذي قدمه المذهب العسكري الألماني.

لقد عملت معظم جيوش الدول الكبرى بعد الحرب العظمى ـــ الحرب العالمية الأولى ـــ على إعادة بناء قوتها استناداً للدروس المستخلصة من تجربة الحرب. وامتلكت كافة الجيوش الأعتدة القتالية الحديثة: كالطائرات والصواريخ والدبابات والغواصات. ولكن ما من جيش من الجيوش استطاع امتلاك المعرفة الدقيقة بطريقة استخدام هذا العتاد استخداماً صحيحاً بمثل ما أتقنها الجيش الألماني. وهذا لم يكن غريباً أن يقف العالم على قدميه وقد أذهلته المباغتة لأساليب حرب الحركة التي حملت اسم (الحرب الصاعقة). ولقد كان لدى كثير من الدول من وسائط الصراع المسلح ما زاد على ما كان متوافراً للجيش الألماني، وبالرغم من ذلك كان التفوق واضحاً للجيش الألماني. انه جيش النوعية تماماً كما تركه فريدريك الكبير، وكما تركه فون مولتكه، وكما كان عبر تاريخه الطويل. وهو جيش الإبداع المتجدد في المجال النظري كما في مجال التطبيق العملي. وأسرعت القيادات العسكرية في دول العالم العظمى فاقتبست من العسكرية الألمانية ما يمكن اقتباسه ـــ بداية من لباس الجندي وتجهيزه ـــ ومروراً بطرائقه في خوض الحرب وأساليبه ـــ ونهاية بمعطيات المذهب العسكري. وجاءت عوامل جديدة فألقت بثقلها في موازين القوى. وكان أولها حشد معظم قوى العالم، وفي طليعتها قوة الاتحاد السوفييتي وقوة الولايات المتحدة الأمريكية، فدارت الدائرة مرة أخرى على الجيش الألماني. وأسرعت دول العالم الكبرى للتعلم من تجربة القادة الألمان. وتكشفت الحقائق دفعة واحدة. لقد بقيت ألمانيا حتى وهي في حالة الهزيمة المعلم الأكبر لفن الحرب. واحتفظ المذهب العسكري

الألماني ـــ رغم قسوة الهزيمة ـــ بقيمته الرائدة في مجال فن الحرب . وقدم القادة الألمان وهم في معتقلاتهم وسجونهم خلاصة تجربتهم التاريخية . فكان في عملهم هذا رفداً رائعاً لأدب الحرب .

« تولد الهزيمة يتيمة وللنصر ألف أم وأب » هذه هي سنّة الكون من قديم الزمان ، وهي سنّة من سيتبع من الأجيال . فعندما كانت رايات الجيش الألماني ترتفع خفاقة منتصرة في كل مكان ، كان المجد والخلود وأكاليل الغار للمذهب العسكري الألماني ولما أنجبه من أجيال القادة الألمان . وعندما حلت النكسة والهزيمة شرعت الألسنة بتوجيه الاتهامات ، وشرعت الأقلام بإدانة المذهب العسكري الألماني الذي تسبب لألمانيا بهزيمة مدمرة مرة بعد مرة خلال نصف قرن من عمر الزمن . وبدأت عجلة الزمن في تجاوز هؤلاء وأولئك : المادحين والقادحين ، لتبقى الحقائق وحدها هي الشواهد الثابتة . فهل كان المذهب العسكري الألماني هو سبب ما نزل بالأمة الألمانية خاصة وبالعالم كله عامة ، من الدمار والفشل ؟ ان مراجعة أولى لوجيز أحداث الحربين العالميتين ـــ وفقاً لما هو وارد في نهاية المقدمة ـــ يشير إلى ذلك الصراع المرير الذي خاضته ألمانيا لانتزاع النصر .

لم يكن الفشل بسبب قصور في المذهب العسكري ، وإنما كان بسبب عوامل أخرى لم يكن لألمانيا قِبلٌ بدفعها . لقد تداعت أمم الأرض وشعوبها لمجابهة ألمانيا . وكما يقول المثل العربي القديم « الكثرة غلبت الشجاعة » . وانتصرت القوى والوسائط الكثيرة على العدد القليل . لقد انطلق جيش النوعية للحرب ، فأحرز انتصاراته وأسرع الأعداء للتعلم من جيش النوعية . وعندما تساوت النوعية أصبح التفوق للكم أو للعدد ، فكان في ذلك مصرع النوعية .

لقد جابهت ألمانيا في حربها الأولى أكبر دولتين استعمارتين عرفهما العالم ــ بريطانيا وفرنسا. ووقفت معهما أكبر دولتين تمتلكان القوى والوسائط وهما روسيا القيصرية والولايات المتحدة الأمريكية. وخرجت كل الأطراف من الحرب وهي ضعيفة مستنزفة. وكان الفارق زهيداً بين المنتصر وغير المنتصر. فهل كان ذلك هزيمة لألمانيا ولمذهبها العسكري؟ وجابهت ألمانيا في حربها الثانية معظم دول العالم ــ وفي طليعتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ــ علاوة على بريطانيا التي بقيت امبراطورية لا تغرب عنها الشمس، وحققت انتصارات مثيرة، بل مذهلة حقاً. فهل يمكن بعد ذلك التنكر لعطاءات المذهب العسكري الألماني أو الانتقاص من قيمته؟ ألم تتعلم كل الجيوش من ألمانيا أساليب (حرب الحركة) في تقنيتها الجديدة؟ ألم تأخذ كل الجيوش عن ألمانيا نهجها في نسب القوى وتنظيم الجيوش؟ هذا في المجال العلمي. وفي المجال النظري هل هناك مَن يُنكر ما أعطاه الفكر العسكري الألماني للعالم من نظريات احتفظت بالكثير من قيمتها وأهميتها حتى في عصر (الأسلحة الدفينة) وأزمنة (أسلحة التدمير الشامل)؟ وهل يمكن لظُلمة الهزيمة أن تزيل ضياء تلك العطاءات والانتصارات؟. وليست القضية بعد ذلك هي قضية الدفاع عن العسكرية الألمانية أو المذهب العسكري الألماني، فتلك قضية تتعلق بالأمة الألمانية وبجيشها، ولكن القضية ببساطة هي قضية التعلم من التجربة التاريخية، بعيداً عن التفسيرات الخاطئة أو الافتراءات الحاقدة.

يَظهر من خلال ذلك، أن المذهب العسكري الألماني كان خلاصة لتجربة الشعب الألماني في إعداده للحرب، وفي خوضه لها. وارتبطت هذه التجربة بخصوصية الوضع الألماني. ومن هنا كان ثمة تباين بين المذاهب العسكرية المختلفة والمميزة بعضها عن بعض بهذه الخصوصية، رغم ما يبقى

بينها من القواسم الواحدة والعوامل المشتركة. وعلى سبيل المثال: فالقصف الاستراتيجي هو إبداع مرتبط بالمذهبين العسكريين السوفييتي والأمريكي، وهذا الإبداع مرتبط بالامكانات المتوافرة للدولتين العظميين، فهل كان باستطاعة ألمانيا ذات الإمكانات المحدودة تبني هذه الاستراتيجية في مذهبها العسكري ؟ ألم تجرب ألمانيا إخضاع انكلترا بالقصف الاستراتيجي ففشلت بسبب قصور إمكاناتها ؟ وكذلك فالتطويق، والتطويق المزدوج، والبحث عن الحسم، هو من إبداعات المذهب العسكري السوفييتي. وقد عرف المذهب العسكري الألماني هذه الطرائق، ولكنه عجز عن تطبيقها في كثير من الحالات بسبب ما تتطلبه من جيوش جرارة ووسائط قتالية بكميات وأعداد مذهلة. وكذلك الأمر بالنسبة للمذهب العسكري الانكليزي الذي اعتمد على القدرة البحرية، وعلى العمل السياسي والتحالفات، ثم على الثروة التي تدعم القوة. فبالذهب انتصر الانكليز على نابليون، وبالذهب انتصروا على الألمان في حربين متتاليتين، وحاربوا حتى آخر جندي من جنود مستعمراتهم وحلفائهم حتى أنتصروا. ولكن وحتى في هذه النقطة، كان النصر للمذهب الألماني. فقد خرجت دول أوروبا جميعها من الحرب العالمية الثانية وقد انحدرت من عليائها إلى مرتبة الدرجة الثانية. أليس المتعادل بين المنتصر والمهزوم — في النقاط — هو انتصار لمن لحقت به الهزيمة ؟ وتقود هذه النتيجة بالتالي إلى حقيقة أخرى، وهي أن التعلم من التجربة التاريخية يتطلب عدم الإفادة من مذهب عسكري محدد. فلكل مذهب عطاءاته ومميزاته التي استخلصت من تجربته الذاتية على أساس ما ينفرد به من الخصوصية. ولهذا فليس هناك مذهب عسكري ينتقص من قيمة مذهب عسكري آخر. وهذه المذاهب بمجموعها لم تكن إلا ثمرة الجهد الانساني والتضحيات الانسانية في ميادين القتال. فهي بالتالي ملك لأبناء الانسانية، ينهلون من

عطائها، ويأخذ كلٌّ قدر ما يحتاجه، وبقدر ما يتوافر له من الإمكانات والقدرات .

لقد انتهت الحربُ العالمية الثانية بتقسيم ألمانيا إلى دولتين يحكمهما نظامان مختلفان . ومضى الزمن ، وإذا بالدولتين الألمانيتين تحتلان موقعاً مميزاً في موازين القوى العالمية. وإذا بجهاز الحرب الألماني — في الدولتين — يقف شامخاً من جديد. أليس ذلك برهاناً جديداً على ما تميز به المذهبّ العسكري الألماني من العطاء ؟ وهل يمكن التنكر لمثل هذا العطاء المبدع ؟

وبعد ، تلك بعض ملامح قصة (المذهب العسكري الألماني) الذي لم يضعه رجل واحد، ولم يتم صنعه في حقبة زمنية قصيرة. لقد حاول بعض الباحثين والمؤرخين ربط هذا المذهب بالأجداد المحاربين من التيوتون والقبائل الجرمانية. ولكن ومع تجاوز الجذور العميقة التي لا يمكن إهمالها تماماً، فإن فترة زادت على القرنين من الحروب المتتالية، هي فترة غنية وكافية لتجديد ملامح هذا المذهب واستقراء خصائصه. وهنا تجابه الباحث صعوبة في اختيار النهج المناسب لعرض هذا المذهب.

فهناك ارث ضخم لابد من اختزاله، واختصاره. وقد يغمض المرء عينيه، فيستعرض تاريخ حياته في ثوانٍ قليلة، ولكن كم من الدقائق الهامة والمثيرة تضيع عند استعراض هذه الصورة الإجمالية ؟ فكيف والقضية تتعلق ببحث هدفه التعلم من التجربة التاريخية الطويلة، وبما تضمه من الجزئيات والتفاصيل ؟ ولهذا فإن متطلبات البحث قد فرضت تجاوز ما هو متشابه من النظريات والممارسات العملية. هذا بالنسبة لمادة البحث. أما بالنسبة لأسلوبه فالصعوبة أكبر — إذ لا بد من ربط الأحداث. وهناك طرائق شتى لتحقيق هذا الربط، إذ بالمستطاع أخذ استراتيجية من الاستراتيجيات، أو

مبدأ من المبادىء، مثل: الحرب على الخطوط الداخلة، أو حرب الحركة، أو استخدام القدرة القتالية هجومياً، أو التنظيم القتالي، أو تطور الثقافة، والسير به قدماً منذ البداية وحتى التجربة الأخيرة من الحرب. وقد يكون هذا الأسلوب ـ أكثر فائدة للتعلم ـ من الناحية العسكرية، غير أن هذا الأسلوب ـ على ما هو معروف ـ قد ينتقص من المتعة الملازمة للبحث، وبالتالي فإنه قد ينتقص من الفائدة. فالبحث الجاف قد يصرف القارىء في كثير من المناسبات عن ارتياد المنهل الصعب، ويعيقه عن ركوب مركبه الخشن، وبذلك يضيع الهدف من البحث. وهناك أيضاً أسلوب عرض الأحداث من خلال تتابعها الزمني، من خلال عرض الأعمال القتالية واستخلاص الدروس منها، وهذا أسلوب قد يكون أكثر إثارة من سابقه، غير أنه يفصل العامل الانساني ـ المحرك للاحداث ـ من مسيرة الأحداث ذاتها. وعلى هذا فقد اعتمد المؤلف رفيق السلاح المقدم بسام العسبلي اختيار أسلوب العرض الذي يساعد على دمج الأسلوبين من خلال ربطه بصانعي الأحداث. وهنا ظهرت لديه صعوبة جديدة، وهي اختيار من كان لهم الحظ الأوفر والدور الأكبر في صنع الأحداث. ولقد أنجبت ألمانيا عبر تاريخها الحديث عدداً ضخماً من القادة المبدعين والمجددين، فكيف يمكن الأخذ ببعضهم وتجاوز بعضهم الآخر؟ غير أن بسام العسلي وافقه الحظ كذلك في حسن الاختيار، إضافة إلى الخلفية الثقافية والتاريخية التي يملكها.. ومن هذا المنطلق قرر اللجوء إلى الخيار الأفضل، وليس الخيار الكامل. فجاء البحث على النحو الذي سيراه القارىء عبر فصول الكتاب.

ولقد ارتبطت أمتنا العربية بكثير من الأحداث التي فجرتها ألمانيا. ولعل ذلك يشكل قاسماً مشتركاً يزيد من متعة البحث واستقراء ملامحه. ويبقى الهدف الثابت من البحث هو التعلم، والإفادة من التجربة التاريخية

العسكرية الألمانية، التي تعتبر نموذجاً حياً جديراً بالدراسة والتجديد، إذا كنا نريد أن نظل على هذا الكوكب «كأحسن أمة أخرجت للناس».

دمشق ١ / آب / ١٩٨٦



وجيز أحداث الحرب العالمية الأولى

عام ١٩١٤ م

٢٨ حزيران (يونيو)	اغتيال ولي عهد النمسا الارشيدوق فرانسوا فرديناند وزوجته في سيراجيفو ــ يوغسلافيا .
١ آب (أغسطس)	دخول ألمانيا الحرب إلى جانب النمسا وإعلان روسيا الحرب ضدها .
٢ آب (أغسطس)	إعلان ألمانيا الحرب على بلجيكا وفرنسا .
٤ آب (أغسطس)	إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا .
٥ تشرين الثاني (نوفمبر)	إعلان الحلفاء الحرب على تركيا .
٢٨ كانون الأول (ديسمبر)	هجوم الأتراك في القوقاز .

عام ١٩١٥ م

٣ شباط (فبراير)	الهجوم التركي الأول على قناة السويس ــ عند الدفرسوار .
٢٥ نيسان (ابريل)	حملة الحلفاء على تركيا ، وإنزال قواتهم في الدردنيل .
٥ تشرين الأول (اكتوبر)	بداية حملة الحلفاء على سالونيك .
٦ تشرين الثاني (نوفمبر)	بداية حركة السنوسي ضد الحلفاء في ليبيا .

عام ١٩١٦ م

٨ كانون الثاني (يناير)	فشل حملة الحلفاء وانسحاب قواتهم من سالونيك والدردنيل .
١٩ آذار (مارس)	تنظيم الحملة ــ التجريدة ــ المصرية بقيادة الانكليز لمحاربة الأتراك .
٦ حزيران (يونيو)	انطلاق الثورة العربية الكبرى في الحجاز .
١ تموز (يوليو)	الهجوم العام للحلفاء في السوم ــ وفشل الهجوم .

عام ١٩١٧ م

١١ كانون الثاني (يناير)	عملية رفح وبدء الهجوم العام ضد الأتراك .
٤ شباط (فبراير)	احتلال الانكليز لواحة سيوه ، والقضاء على ثورة السنوسيين .
٢٤ شباط (فبراير)	هجوم البريطانيين في العراق واستيلائهم على كوت ثم بغداد .
٦ نيسان (ابريل)	دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء الغربيين .
٦ تموز (يوليو)	استيلاء القوات العربية على العقبة . والاغارات على خطوط الأتراك .
٢٤ تشرين الأول (اكتوبر)	هزيمة الايطاليين عند كاربريتو .
٩ كانون الأول (ديسمبر)	استيلاء اللنبي على القدس. واعلان روسيا الهدنة وخروجها من الحرب .

عام ١٩١٨ م

٢١ آذار (مارس)	بدء الهجوم الألماني العام في فرنسا . وفشل هذا الهجوم .
١٤ نيسان (ابريل)	استيلاء الأتراك على باطوم وقارص .
٣٠ أيلول (سبتمبر)	دخول الجيش العربي دمشق .
٢٦ تشرين الأول (اكتوبر)	وصول قوات الجيش العربي والجيش البريطاني إلى حلب .
٣٠ تشرين الأول (اكتوبر)	اعلان تركيا الهدنة .
١١ تشرين الثاني (نوفمبر)	اعلان ألمانيا الهدنة .
١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)	سقوط السلالة الملكية النمساوية الهنغارية ونهاية الحرب .

وجيز أحداث الحرب العالمية الثانية

عام ١٩٣٩ م

١ أيلول (سبتمبر)	قيام ألمانيا والاتحاد السوفييتي باجتياح بولونيا .
٣ أيلول (سبتمبر)	اعلان انكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا .

عام ١٩٤٠ م

١٠ أيار (مايو)	اجتياح القوات الألمانية للغرب (هولندا وبلجيكا واللوكسمبورغ) .
١٠ حزيران (يونيو)	اعلان ايطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا .
١٤ حزيران (يونيو)	سقوط باريس ــ وتوقيع الهدنة مع ألمانيا (في ٢٢ منه) .

عام ١٩٤١ م

٦ نيسان (ابريل)	نهاية حملة الانكليز في الحبشة ــ ارتيريا ــ وتدمير الجيش الايطالي فيها .
٨ نيسان (ابريل)	بداية ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق .
٨ نيسان (ابريل)	وصول رومل والفيلق الافريقي إلى السلوم (وكان قد وصل إلى طرابلس الغرب في ١٩٤١/٢/٦ ، ومنها انطلق في هجومه) .
٢٠ أيار (مايو)	إنزال المظليين في كريت ــ بعد اجتياح اليونان بقوات المظليين الألمان والقوات البرية قبل شهر من ذلك تقريباً .
١ حزيران (يونيو)	نجاح الانكليز في القضاء على ثورة رشيد عالي الكيلاني ، ثم اجتياحهم لسوريا ، ضد الفرنسيين الفيشيين .
٢٢ حزيران (يونيو)	اجتياح القوات الألمانية لحدود الاتحاد السوفييتي .
٦ تشرين الأول (اكتوبر)	هجوم الألمان على موسكو ، وحصار لينينغراد .

٧ كانون الأول (ديسمبر) هجوم اليابانيين على بيرل هاربور واعلان أمريكا الحرب .

عام ١٩٤٢ م

١٥ شباط (فبراير) اجتياح اليابانيين لاقاليم آسيا واستيلائهم على سنغافورة .
٦ أيار (مايو) استيلاء اليابانيين على كوروجيدو ــ في الباسيفيكي .
٢٩ حزيران (يونيو) وصول قوات رومل إلى مرسى مطروح والهجوم الأول على العلمين .
١ تموز (يوليو) استيلاء الألمان على سيفاستوبول ــ القرم .
٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) بداية هجوم الجيش البريطاني الثامن بقيادة مونتغومري ــ في العلمين .
٧ تشرين الثاني (نوفمبر) إنزال القوات الانكلو ــ أمريكية في المغرب والجزائر .
١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) بداية هجوم القوات السوفييتية في ستالينغراد .

عام ١٩٤٣ م

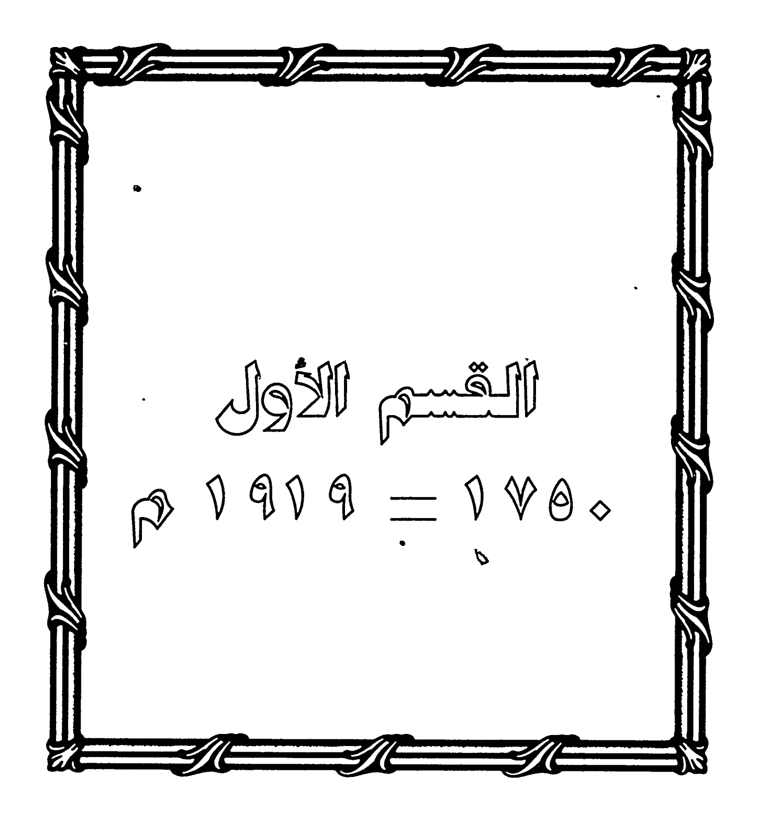
٣ كانون الثاني (يناير) انسحاب الالمان من القوزاق ــ القفقاس أو القوقاز .
٤ كانون الثاني (يناير) جلاء اليابانيين عن غادل كانال في الباسيفيكي .
٢٣ كانون الثاني (يناير) دخول الجيش البريطاني الثامن مدينة طرابلس الغرب .
٣ شباط (فبراير) استسلام الألمان في ستالينغراد (الجيش السادس) .
١٢ أيار (مايو) نهاية معركة تونس ، والقضاء على القوات الايطالية ــ الألمانية في شمال أفريقيا .
١٠ تموز (يوليو) إنزال قوات الحلفاء في صقليا وبدء غزو ايطاليا .

عام ١٩٤٤ م

٤ حزيران (يونيو) احتلال الحلفاء مدينة روما . وخروج ايطاليا من الحرب .
٦ حزيران (يونيو) إنزال الحلفاء في النورماندي .
٢٤ حزيران (يونيو) الهجوم السوفييتي العام على جبهة الشرق (خطة باغراتيون) .
١٥ آب (أغسطس) إنزال قوات الحلفاء في جنوب فرنسا .
٢٥ آب (أغسطس) تحرير باريس .
٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) بداية قصف طوكيو من ماريانا .
١٦ كانون الأول (ديسمبر) بداية هجوم الألمان في الآردين .

عام ١٩٤٥ م

١٢ كانون الثاني (يناير)	القوات السوفييتية تبدأ هجوم الشتاء على حدود ألمانيا .
١٣ كانون الثاني (يناير)	هتلر يصدر أمره بالانسحاب العام من جبهة الغرب .
٢٨ كانون الثاني (يناير)	انتهاء معركة الآردين . وانطلاق قوات الحلفاء نحو قلب ألمانيا .
٨ أيار (مايو)	استسلام ألمانيا .
٦ آب (أغسطس)	القاء القنبلة الذرية على هيروشيما .
١٢ آب (أغسطس)	استسلام اليابان وانتهاء الحرب العالمية الثانية .

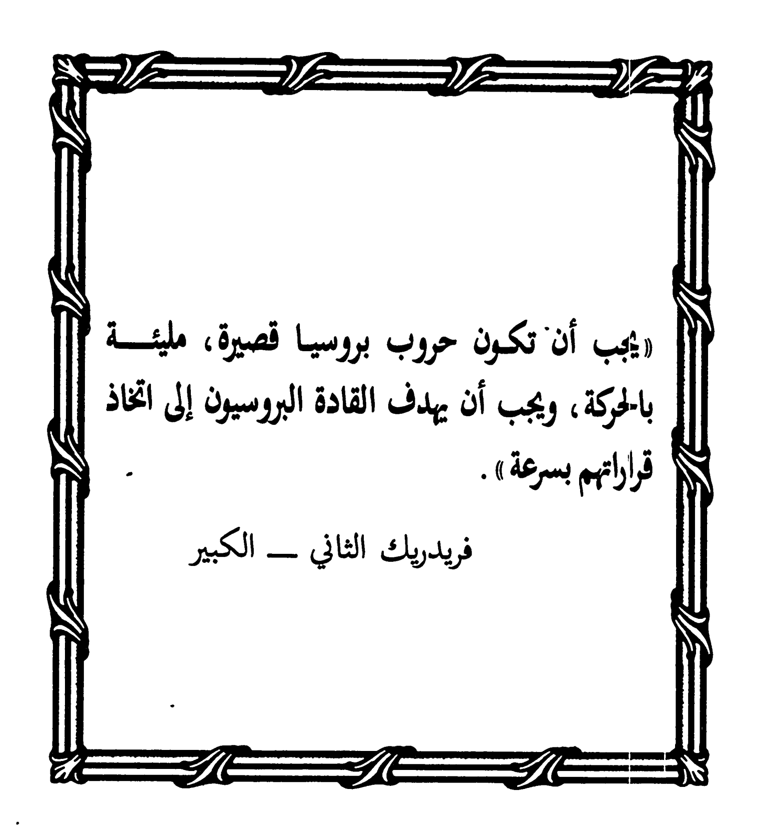

القسم الأول
١٧٥٠ = ١٩١٩ م

الفصل الأول

بنـاء الدولة البروسـية القويـة

١ ـــ فريدريك الكبير

آ ـــ بروسيا في عهد فريدريك الكبير
ب ـــ حروب فريدريك الكبير
ج ـــ الدروس المستخلصة



«يجب أن تكون حروب بروسيا قصيرة، مليئة بالحركة، ويجب أن يهدف القادة البروسيون إلى اتخاذ قراراتهم بسرعة».

فريدريك الثاني ـــ الكبير

الوجيز في حياة فريدريك الثاني ـ الكبير ـ

١٧١٢ ـ ١٧٨٦ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٧١٢	ولادة فريدريك الثاني ، ابن فريدريك وليم الأول .
١٧٢١	فريدريك يتولى قيادة سرية ، وهو في التاسعة من عمره .
١٧٢٧	تعيين فريدريك لقيادة كتيبة حرس بوتسدام ـ برتبة رائد .
١٧٣١	هرب فريدريك من بروسيا بسبب الحياة الصارمة التي فرضها والده عليه ، واعتقاله وسجنه ، ووساطة ملوك أوروبا حتى تم اطلاق سراحه .
١٧٣٢	تعيين فريدريك قائداً لكتيبة ـ غوبلز ـ بعد اطلاق سراحه .
١٧٣٣	زواج فريدريك من اليزابيت كريستينا .
١٧٣٤	قيادة فريدريك لكتيبة في حملة بروسيا ضد فرنسا .
١٧٤٠	وفاة فريدريك وليم الأول ـ وتولي فريدريك الثاني عرش بروسيا .
١٧٤٠ ـ ١٧٤٢	فريدريك يقود الجيش البروسي لغزو سيليزيا .
١٧٤٤ ـ ١٧٤٥	الحرب السيليزية الثانية .
١٧٤٦	فريدريك يكتب (الأصول العامة للحرب) وهو أشهر مؤلفاته .
١٧٥٢	فريدريك يكتب مؤلفه الثاني : (العهد السياسي) .
١٧٥٦ ـ ١٧٦٣	حرب السنوات السبع .
١٧٥٧	معركتي روزباك و لوثن أشهر معارك فريدريك .
١٧٦٨	فريدريك يصدر خلاصة تجاربه في كتابه (العهد العسكري) .
١٧٧١	فريدريك يصدر كتابه الجديد (عناصر فن اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن القتال ـ التكتيك) .
١٧٧٨ ـ ١٧٧٩	حرب الوراثة البافارية .
١٧٨٦	وفاة فريدريك الثاني ، الكبير . وصعود فريدريك غليوم الثاني لعرش بروسيا .

آ ـ بروسيا ـ في عهد فريدريك الكبير

ارتبطت عظمة بروسيا ومجدها باسم فريدريك الثاني، الكبير، غير أن الأضواء الساطعة التي سلطت على فريدريك الثاني، وحروبه، وإنجازاته، لم تخفف من أهمية ذلك التطور البطيء الذي درجت عليه بروسيا عبر أزمنة متطاولة، ثم جاء فريدريك الثاني، ليدفع به قدماً، وبخطوات متسارعة بلغت ذروتها في الحروب التي خاضها فريدريك الثاني، لبناء الدولة الجرمانية الحديثة. ويعود تاريخ بروسيا إلى براندبورغ[1] وغاباتها وبحيرتها المحاطة بسهول رملية تمتد ما بين وسط نهر البا[2] وأسفل نهر الفستولا[3]. وقد سبق للسلاف الفانديين[4] الإقامة في هذه المنطقة، وذلك قبل أن يستقر بها الجرمانيون. وقد خضعت هذه المنطقة لحكم الأمراء المنتخبون.الالكتر من البافاريين اعتباراً من سنة ١٣٢٠م. ثم جاء بعد ذلك أمراء اللوكسمبورغ فحكموا هذه المنطقة ليتركوا الحكم من بعدهم إلى السيغيسموند وإلى النمسا (الامبراطورية الرومانية المقدسة). وكان سيغيسموند اللوكسمبورغ[5] هو أبرز من حكم في هذه الفترة. ثم جاءت بعده سلالة سيغيسموند التي حكمت بوهمما. والتي اضطر حكامها للإستدانة من فريدريك آل هوهنزوليرن[6] مبلغاً من المال

---

(١) براندبورغ: Brandebourg إقليم ألماني في شرق ألمانيا وعاصمته بوتسدام. وكان شارلمان هو أول من جعل هذا الاقليم إمارة، لم تلبث أن انتقلت في القرن الثاني عشر الميلادي إلى حكم سلالة الاسكابيين Ascabienne، ثم إلى آل هوهنزوليرن، وأصبحت نواة بروسيا.

(٢) ألبا: Elbe وفي اللغة التشيكية: Labe وهو نهر ينبع من بوهيميا ويصب في بحر الشمال، ويبلغ طوله ألف ومئة كيلو متر.

(٣) الفستولا: Vistula وفي الألمانية Weichsel وفي البولونية Wisla وهو نهر بولوني طوله ١٠٧٠ كم، ويصب في بحر البلطيق، مشكلاً دلتا عند مصبه.

(٤) السلاف الفانديين: Slavonic - Wends شعب سلافي أقام في شرقي ألمانيا.

(٥) سيغسموند اللوكسمبورغ: Sigismond De Luxembourg ابن شارل الرابع ولد سنة ١٣٦٦، وأصبح ملكاً على هنغاريا سنة ١٣٨٧ وأصبح امبراطوراً للامبراطورية الجرمانية المقدسة ١٤١١ ـ ١٤٣٧ وملكاً على بوهيميا ١٤١٩ ـ ١٤٣٧ وخلفه سيغيسموند الأول الكبير: Sigismond I Le Vieux.

(٦) هوهنزوليرن: Hohenzollern إمارة ألمانية قديمة تقع على نهر الدانوب، مهد أسرة حكمت بهذا الاسم، ثم لم تلبث في سنة ١٧٠١ أن تحولت إلى أسرة ملكية، ثم امبراطورية استمرت في حكم الدولة الجرمانية حتى سنة ١٩١٨. وقد سلمت سيغمارينجن إلى بروسيا سنة ١٨٤٩.

وصل حتى ١٥٠ ألف قطعة ذهبية، ورهنوا مقابلها إمارة براندبورغ بمثابة تأمين على المبلغ الذي تمت استدانته. وقد وجد أمراء سيغيسموند أنه من المحال عليهم وفاء هذا الدين. فقرر امبراطور هنغاريا أن تنتقل إمارة براندبورغ وأراضيها وممتلكاتها وسيادتها وكل ما فيها إلى آل هوهنزولين بصورة نهائية، وذلك مقابل دفع ٢٥٠ ألف قطعة ذهبية أخرى.

لقد رغب سيغيسموند بإجراء هذه الصفقة حتى يتخلص من أعباء إقليم براندبورغ الذي لم يكن في ذلك العهد أكثر من منطقة فقيرة ومقفرة، تمتد حتى العاصمة الجديدة برلين. وكانت التربة الرملية للإقليم لا تنتج من المواد الزراعية أكثر من محصول هزيل من الجاودار ــ الشبيه بالذرة، والشوفان الذي تتم زراعته في مناطق ضيقة. أما معظم المناطق فكانت تغطيها الغابات والمستنقعات. وكان الشعب البروسي ينتشر إلى مسافة أكثر بعداً في اتجاه الشرق حيث الإقليم الممتد ما بين الفستولا و ميمل[٧] على سواحل البلطيق. وقد عرف هذا الشعب الوثني بأنه شعب محارب، ينتسب من الناحية العرقية (الاثنولوجية) إلى الليتوانيين[٨] واللاتيفان وبذلك فإنه يتميز تماماً عن شعبي التيوتون[٩] والسلاف[١٠]. وقد قاوم الشعب البروسي لفترات طويلة، وبنجاح، انتهاكات الجرمان المسيحيين وغزوات البولونيين لحدودهم. غير أن فرسان التيوتون الصليبيين انتصروا عليهم. وأصبح الإقليم بذلك خاضعاً للمستعمرين الجرمان. وأبيد البروسيون من السكان الأصليين للإقليم، أو طردوا منه، ولم يبق إلا من قبل الخضوع لهؤلاء الجرمان. وبقيت الأرض الممتدة ما بين بوميرانيا[١١] وليتوانيا معروفة حتى سنة ١٤٠٠ باسم بروسيا. ثم أصبح هذا الاسم يطلق على السكان الجرمان المستوطنين في هذا الإقليم.

حكم الفرسان التيوتون الإقليم بموافقة البابا ومباركته، وبموافقة الإمبراطور الجرماني أيضاً (وذلك على الرغم من أن بروسيا كانت تقع في الحقيقة خارج حدود الإمبراطورية الرومانية

(٧) ميمل: Memel مدينة تعرف بالليتوانية باسم: كلايبدا: Klaipeda وهي حالياً إحدى مدن ليتوانيا التابعة للاتحاد السوفييتي، وفيها ميناء على بحر البلطيق، وبقيت مدينة ليتوانية حتى سنة ١٩١٩، وحكمتها فرنسا من سنة ١٩٢٠ ــ ١٩٢٣ حيث أعيدت إلى ليتوانيا، وضمتها ألمانيا إلى حدودها سنة ١٩٣٩، ثم أصبحت تابعة للاتحاد السوفييتي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

(٨) الليتوانيين: Lithuanie أو Lituanie نسبة إلى ليتوانيا الجمهورية التابعة للاتحاد السوفييتي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وكانت دوقية كبيرة يحكمها أمراء جاغلون: Jagellon تابعون لبولونيا منذ سنة ١٣٨٦ م، ثم اتحدت مع بولونيا.

(٩) التيوتون: Teuton شعب ألماني قديم، اجتاح بلاد الغال (فرنسا) مع السيمبر. وفي سنة ١٠٢ ق. م مزقهم القائد الروماني القنصل ماريوس، وأخضعهم لحكم روما.

(١٠) السلاف: Slaves عرق من العروق الهندية ــ الأوروبية (أوراسي). انقسم إلى فروع ثلاثة: فرع غربي يمثله البولونيون والألمان والبوهيميون والمورافيون والسلوفاكيون، وفرع شرقي يمثله سكان روسيا البيضاء (بيلاروسا) والسلاف الجنوبيين، ويمثلهم سكان يوغوسلافيا.

(١١) بوميرانيا: Pomerania إقليم بولوني يحده من الشمال بحر البلطيق، ومن الشرق نهر الفستولا.

المقدسة) واستمر هذا الحكم الاستعماري إلى أن وقعت معركة تانـنبرغ[١٢] سنـة ١٤١٠، وفيها استطاع الجاغلون[١٣] البولونيون إلحاق الهزيمة بالفرسان الذين يحملون علم التيوتون. وفي سنة ١٤٦٦ أرغم الجاغلون على تسليم بروسيا الغربية للبروسيين. في حين بقيت بروسيا الشرقية فقط مرتبطة من الناحية الإدارية بملك بولونيا. واختار فرسان التيوتون بعد تمزقهم وسقوطهم الخضوع للسيد الكبير من آل هوهنزوليرن. غير أن هذا السيد الكبير أصبح بروتستانتياً اعتباراً من سنة ١٥٢٥ وذلك بتأثير من لوثر. وتبع ذلك تحول كبير حيث أصبحت إدارة الإقليم مدنية، لا علاقة للكنيسة فيها. وحولت أملاكها واقطاعاتها في بروسيا الشرقية بكاملها لتصبح ممتلكات خاصة لرئيس الدولة ولذريته من بعده. وفي سنة ١٥٦٩ اتفق كبار عائلة هوهنزوليرن في شطري بروسيا الشرقي والغربي براندبورغ وبروسيا الشرقية على ضم أراضي الإقليمين، ودمجهما في اقليم واحد، تحت إدارة حاكم واحد، وذلك في حالة وفاة ورثة أحد الفرعين الحاكمين وعدم وجود وريث شرعي. وعندما توفي الدوق البرت البروسي سنة ١٦١٨م انضمت بروسيا الشرقية بصورة نهائية إلى حكم الالكتر الذي كان يحكم براندبورغ. وعلى الرغم من بقاء بروسيا الشرقية خاضعة للتاج البولوني، فقد زادت حدود براندبورغ إلى أكثر من الضعف، وتزايد عدد سكان الإقليم. ونظراً لكون بروسيا الشرقية أغنى بكثير من المنطقة التي كان يحكمها الهوهنزوليرن فقد أدى انضمام بروسيا الشرقية إلى زيادة ثراء بروسيا الموحدة بدرجة كبيرة، وإلى تعاظم قدرتها. وجاءت بعد ذلك حرب الثلاثين عاماً[١٤] لتدمر بروسيا تدميراً شبه كامل. واضطر الالكتر الضعيف إلى الهرب من برلين، واللجوء إلى عاصمة بروسيا الشرقية القديمة كونيغسبرغ[١٥] حيث توفي فيها سنة ١٦٤٠م. ولم تستعد براندبورغ صحتها وعافيتها، كياناً

---

(١٢) تانتبرغ: Tannenberg مدينة في بروسيا الشرقية قديماً. وفي سنة ١٤١٠، انتصر البولونيـون والليتوانيـون على فرسان التيوتون. كما انتصر فيها الألمان على الروس في آب ـ اغسطس ـ سنة ١٩١٤.

(١٣) الجاغلون: Jagellons عائلة ليتوانية، حكمت بولونيا طوال الفترة ما بين سنة ١٣٨٦ وسنة ١٥٧٢م. كما حكمت بوهيميا وهنغاريا من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر.

(١٤) حرب الثلاثين عاماً: Thirty Years War ١٦١٨ ـ ١٦٤٨م: هي حرب شملت مجموعة كبيرة من الاشتباكات والمعارك، واشتركت فيها الجيوش الدانمركية والسويدية والفرنسية والاسبانية بسبب تمرد البروتستانت الألمان على حكم النمساويين في بوهيميا. وتزعم فيها ملك السويد (غوستاف أدولف ١٥٩٤ ـ ١٦٣٢) التحالف مع رئيس وزراء فرنسا لدعم البروتستانتيين الألمان. وخاضت فرنسا الكاثوليكية الحرب ضد آل هبسبورغ الكاثوليكيين أيضاً والذين كانوا ملوكاً لاسبانيا والنمسا. وزاد من ضرام الحرب ذلك العداء التقليدي بين الهولنديين والاسبانيين. وتميزت هذه الحرب بوحشية أعمالها القتالية الرهيبة، وبتدميرها للحياة. وانتهت بمعاهدة ويستفاليا التي نجح فيها رئيس وزراء فرنسا الكاردينال ريشيليو بتثبيت هيمنة فرنسا على أوروبا، وبعدم السماح لألمانيا بالاتحاد، ولكن مع السماح للأمراء البروسيين باعتناق المذهب البروتستانتي، وبممارستهم سياستهم الخارجية دون أي تدخل من امبراطور النمسا.

(١٥) كونيغسبرغ: Koenigsberg أو كالينينغراد حديثاً: Kaliningrad مدينة من مدن الاتحاد السوفييتي ولها خليج ضخم. وقد بقيت إحدى مدن بروسيا الشرقية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

بروسياً أو قدرة أوروبية، إلا في عهد خلفه جورج وليم الذي عرف فيما بعد بصفة الالكتر العظيم وهو الجد الأكبر للملك فريدريك الثاني ـــ الكبير.

كانت خزانة المالية خاوية يوم تسلم جورج غليوم ــ وليم سلطة الحكم، وكانت بلاد إقليمه مهدمة مخربة. فقد احتملت براندبورغ القسم الأكبر من أعباء الحرب. وكان عدد سكان برلين ممن نجوا من الحرب لا يزيدون على ثلاثمئة مواطن، وكان مجموع مواطني بروسيا لا يزيدون على المليون. فبدأ الالكتر العظيم بالعمل قبل كل شيء على فرض النظام والأمن والإمساك بالأمور بقبضة حديدية، مستفيداً في ذلك من سلطاته الدينية (الثيوقراطية) الصارمة، وحقه في السيادة المطلقة على رعيته، بما في ذلك حق الحياة والموت. ولم يكن يظهر تساهلاً إلا في القضايا الدينية فقط، مبتعداً عن كل ما من شأنه إعطاء الحريات البلدية للمدن والأقاليم. وأدى به ذلك إلى تكوين دولة بروسيا (الهوهنزوليرنية) مع كل ما تضمه هذه الدولة من تناقضات متنافرة وظواهر شاذة. وقد اندمجت في حكمه هيبة الدولة بفضائل الحقوق الصناعية وبتنمية الإحساس بالشرف، والقيام بالواجب، مع البربرية والقسوة لدى الحكام وموظفي الدولة، مما جعل الأقاليم الألمانية في حالة ذعر وكراهية، تجاه الإمارة البروسية. وعلى كل حال، فقد كان الالكتر العظيم مجهولاً في سنة ١٦٤٠م. ولم يكن هناك من يظهر أي اهتمام لما يحدث في بروسيا. وكان حاكمها الالكتر خاضعاً لملوك بولونيا والسويد وانكلترا، فابتعد عن السويد، واخذ في بذل جهود جبارة لتطوير إمارته بتصميم وحزم وبإدارة جيدة. وعندما تم توقيع صلح ويستفاليا، في نهاية حرب الثلاثين عاماً، استطاع أن يضم إليه الأقاليم الغنية من ألمانيا، وهي مغدبورغ[١٦] وهالبرستادت[١٧] وميندن[١٨]. وأخذ في تشجيع الهجرة من غرب ألمانيا وهولندا. واستخدم مهارات الهولنديين لردم المستنقعات، وتحويلها إلى مناطق زراعية. كما استخدم السويديين عندما ساعدهم ضد البولونيين، ثم استخدم هؤلاء ضد السويديين وأعانهم، وحصل من بولونيا بذلك على اعتراف رسمي بممارسة حقوقه الشرعية في حكم بروسيا. وضم إليه كليف[١٩] ومارك ورافينسبرغ وألحقها بإقليم براندبورغ. ومضى جورج غليوم، أو وليم ــ الالكتر العظيم في سياسته الداخلية والخارجية، حتى أصبح في نهاية حكمه معروفاً بأنه من أبرز جنود أوروبا (قادتها). فقد نجح في تطوير جيشه حتى بلغ عدد أفراده ٢٧ ألفاً من المقاتلين المدربين، بصورة جيدة، والمسلحين بأفضل أسلحة عصرهم، بحيث أنه لما تعرضت بلاده لغزو السويديين في

---

(١٦) مغدبورغ: Magdebourg مدينة ألمانية تقع على نهر ألبا وهي عاصمة الساكس.

(١٧) هاليرستادت: Halberstadt مدينة ألمانية في مقاطعة ساكس آنهالت: Saxe - An - Halt، وتقع على نهر هولتيم: Holteme.

(١٨) ميندن: Minden مدينة ألمانية في ويستفاليا على نهر الويسر: Weser.

(١٩) كليف: Cleves وفي الألمانية: Kleve مدينة ألمانية في ويستفاليا ــ في الراين الشمالي ــ تقع على قناة متفرعة عن الراين. وهي دوقية قديمة.

سنة ١٦٧٥ م، ووصل جنودهم حتى نهر يلين على مقربة من برلين، تولى قيادة جيشه مخالفاً بذلك نصائح قادته، ودمر القوات السويدية التي كانت متفوقة كثيراً في قوتها العددية. وعندما توفي الالكتر العظيم في سنة ١٦٨٨م، كان قد رفع براندبورغ وبروسيا الشرقية إلى مصاف القدرة العسكرية الأولى في أوروبا الشمالية. وترك لابنه إمارة قوية ذات نظام مستقر، له كل مميزات النظام الملكي وخصائصه، ولو أن إمارته لم تحمل اسم (المملكة). وجاء من بعده ابنه فريدريك ١٦٨٨ ـــ ١٧١٣ ليحكم بلاده بطريقة مغايرة لتلك التي نهج عليها أبوه من قبل. فكان خاضعاً لهاجس متابعة الثقافة، ومولعاً بظواهر الفخامة والعظمة، وميالاً إلى إقامة الاحتفالات والمهرجانات. ولكن دون إهمال للقدرة العسكرية.

حدث في تلك الفترة أن أصبح غليوم أو وليم أمير أورانج[٢٠] ملكاً على انكلترا، وطلب إلى فريدريك أن يصبح امبراطوراً على آل هبسبورغ، ومقابل ذلك طلب فريدريك أن يصبح بدوره ملكاً، لا على براندبورغ وبروسيا الشرقية فحسب، وإنما أيضاً على كافة الإمارات الجرمانية التابعة للامبراطورية، والتي كانت تقع خارج حدود الامبراطورية. ونظراً لما أظهره فريدريك من حرص على الاحتفاظ بأفضل العلاقات مع فيينا، ونظراً أيضاً لاقتناع الامبراطور النمساوي بأنه من المحال أن تشكل براندبورغ وبروسيا عند اتحادهما منافساً للنمسا، أو تكوّن خطراً ضدهما، فقد وافق الامبراطور النمساوي على مشروع فريدريك بتحويل إمارته إلى مملكة. **وتم تتويج فريدريك ملكاً على بروسيا في سنة ١٧٠١ م. حيث أجري احتفال التتويج في كونيغسبرغ. وعمل فريدريك على تمييز هذه المناسبة بأن وضع شعار دولته (النسر الأسود) شعاراً للدولة الموحدة.** وأخذ اسم بروسيا، اعتباراً من ذلك التاريخ، في الهيمنة التدريجية على اسم براندبورغ وسائر الإمارات الجرمانية الأخرى والتي أصبح الملك يحكمها من عاصمته برلين. وانصرف فريدريك على الفور لتطوير قواته المقاتلة، وكان هو ذاته قد خدم في الجيش وعرف حياته، وذلك في مطلع شبابه، ولكنه لم يكن من رجال الحرب أو قادتها. ولقد اعتبر أن الجيش البروسي هو ضرورة أساسية للدولة، لا من أجل الدفاع عن حدودها وسيادتها فحسب، بل من أجل المحافظة على هيبته ومكانته أيضاً. ولهذا عمل على زيادة حجم الجيش الذي كان قد تركه أبوه له وكان يضم ٢٧ ألف جندي فأصبح جيشه يضم ٥٠ ألف جندي. وقد أظهر اهتمامه بتدريب هذا الجيش. وعندما انتقل الملك سنة ١٧١٣ م إلى فريدريك غليوم ـــ وليم، اهتم هذا أيضاً بتطوير الجيش، ورصد له أكثر من نصف موازنته، وشرع في تطويع الجنود من الخارج، فارتفع عدد أفراد جيشه إلى أكثر من ٦٠ ألف جندي، ثم زاد هذا العدد إلى ٨٣ ألفاً، وكان ذلك رقماً كبيراً بالنسبة لشعب لا يتجاوز عدد أفراده المليونين ونصف المليون.

---

(٢٠) وليم أوف أورانج: Guillaume Of Orange أو: Guillaume - De Nass Au Prince P'orange (١٦٥٠ ـــ ١٧٠٢ م) خلع ملك انكلترا، وتولى الملك فيها وشكل التحالف المضاد لفرنسا والذي انتهى بحرب الوراثة الاسبانية.

كان هذا هو الجيش الذي ورثه فريدريك الثاني ــ الكبير عن والده. وكان فريدريك معجباً بجده الالكتر العظيم بقدر ما كان معجباً بوالده فريدريك غليوم ــ وليم، الذي تحدث عنه أمام مجلس بروسيا يوم توليه الملك، فقال: «لقد أراد فريدريك غليوم أن يجعل من بروسيا قوة يحسب جوارها لها حساباً. وقد تعلم من تجربة سلفه الالكتر العظيم مدى الخطر الذي يحدق به، عندما يكون محروماً من الدفاع». وتعلم فريدريك غليوم من تجربة والده الفارق المميز بين أن يتم إسناد قيادة الوحدات المقاتلة إلى الحلفاء لتعمل لمصلحتهم، وبين أن تعمل هذه الوحدات تحت قيادته المباشرة. واستخلص فريدريك الثاني ــ الكبير الدروس المستفادة من معاناة والده، عبر التجارب التي خاضها مع السويد ومع روسيا، عندما استخدمت قوات البلدين الأراضي البروسية، لإجراء الصراع فوقها كما تريدان، وما نجم عن ذلك من دمار مرعب للإقليم. الأمر الذي دفعه إلى التمسك بحدود بروسيا بصلابة وحزم. ليس ذلك فحسب، بل إنه عمل على توسيع حدود بلاده، بضم أقاليم جديدة عبر حروبه المتتالية.

ب ــ حروب فريدريك الكبير

كانت (الامبراطورية الرومانية المقدسة) هي المهيمنة على الأقاليم الجرمانية، غير أن هذه الامبراطورية التي كان يحكمها آل هبسبورغ، لم تكن مقدسة، ولا رومانية، ولا حتى مقدسة ــ كما وصفها الشاعر الفرنسي فولتير ــ لأنها لم تكن أكثر من ذكرى تقليدية للامبراطورية الجرمانية القديمة، أيام (أوتو العظيم)[٢١]. فقد كانت الواجهة الامبراطورية أو الاسم الامبراطوري هي واجهة خاضعة للانتخاب. وعلى الرغم من أن هذا الانتخاب للتاج بقي محصوراً في آل هبسبورغ منذ سنة ١٤٤٠ م إلا أن الأمراء الالكتر كانوا جميعاً وباستمرار في المواقع التي تسمح لهم بابتزاز التنازلات، مقابل منح أصواتهم عند انتخاب الامبراطور. وكان على المرشح من آل هبسبورغ تقديم الهبات المالية الضخمة، من أجل ضمان انتخابه. وكانت نفقات التاج الامبراطوري ترتفع باستمرار، في حين كانت سلطات الإمبراطور تتلاشى وتضمحل، بحيث لم يبق من الإمبراطورية إلا هيبتها التقليدية (المعنوية). ولقد كان التاج الإمبراطوري هو تاج للجرمان بصورة أساسية، وليس تاجاً للنمساويين. إذ إن النمسا ذاتها لم تكن أكثر من إمارة (أرشيدوقية) في جملة إمارات (الإمبراطورية الرومانية المقدسة). وبالاضافة إلى ذلك فقد كان الإمبراطور من آل هبسبورغ ملكاً على بوهيميا وهنغاريا.

لقد عمل امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة شارل السادس[٢٢] على تكوين حكومة مستقلة تماماً عن فيينا وبراغ وبريسبورغ وبودا. وكان للحكومة الإمبراطورية مجلسها المعروف باسم

(٢١) أوتو العظيم: Ottoni . Legrand ملك جرمانيا سنة ٩٣٦ م، وامبراطور الغرب سنة ٩٦٢ م. مارس الحكم بكفاءة عالية، وحد من سلطات الأمراء، وهزم السلاف. أوقف غزو المجر Magyare: وهو الشعب الذي قدم من الأورال سنة ٨٩٦ م واستقر في هنغاريا.

(٢٢) شارل السادس: Charle . VI ١٦٨٥ ــ ١٧٤٠ م، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة. من سنة ١٧١١ إلى سنة ١٧٤٠ م، خاض مجموعة من الحروب ضد العثمانيين المسلمين في إطار حملات صليبية متتالية، كما حارب فرنسا، ولكن الحظ لم يحالفه في كثير منها. واستطاع إقناع ملوك أوروبا وأمرائها بقبول ابنته ماري تيريز لتكون خلفاً له من بعده امبراطورة على النمسا.

(مجلس الدييت)[٢٣] في راتيسبون، والذي ضم ممثلي ثلاثة اتحادات من الامارات (الالكترات) والمدن الإمبراطورية. غير أن هؤلاء الممثلين لم يكونوا أكثر من عناصر للحوار، وتمثيل الدول الألمانية المستقلة. وبالاضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من حقيقة التسوية التي تمت في سنة ١٦٤٨ م لإعادة تنظيم الحدود بين الحكام، فإن هذه التسوية لم تتجاوز حدود السيادة الإقليمية. وبقي كل حاكم يمارس سلطته المطلقة وسيادته الكاملة على الإقليم الخاضع له. ولم تكن صلاحية الدييت ذاته، بأكثر من صلاحية محدودة، ولم يكن لمقرراته سوى تأثير قليل، ذلك لأن الدييت كان يفتقر إلى الوسائل التي تسمح له بفرض ما يتم اتخاذه من مقررات. ونتيجة لذلك، لم تكن هناك قوة دفاعية امبراطورية. إذ إن ظهور مثل هذه القوة يتطلب اشتراك الدول ومساهمتها فيها. وكانت الإمبراطورية مقسمة إلى عشر أقاليم أو دوائر. ولكن عبر إدارة الحدود هذه، كانت هناك مجموعة مختلطة تشكل مزيجاً غريباً من الدول الجرمانية الكبيرة والصغيرة، ذات السيادة، والتي زاد عددها على ثلاثمئة كيان (دولة) وكانت أكثر الدول أهمية في هذه المجموعة، بالاضافة إلى النمسا، هي دول بافاريا وساكسونيا وبروسيا.

كانت برلين تحكم براندبورغ وبروسيا الشرقية اللتين كانتا تشكلان الكتلة الرئيسة في المملكة البروسية، بالإضافة إلى كليف ومارك ورافنسبرغ وبوميرانيا الشرقية وهالبرستادت وميندن. وبذلك كان من الطبيعي أن يرتفع طموح منتخبي الالكتر في براندبورغ، وملوك بروسيا إلى مستوى توحيد هذه الدول المتعددة والتي كانت تتناثر بصورة مشوهة على الأرض الجرمانية. ولم يكن باستطاعة هؤلاء نسيان ما كان عليه وضع الجرمان تحت علم التيوتون، حيث كانت بروسيا الغربية وحدود البلطيق بين بوميرانيا وبروسيا الشرقية، وقسم من بولونيا تشكل كلها إقليماً جرمانياً واحداً. وكان فريدريك غليوم وليم والد فريدريك الثاني ـ الكبير قد عبر عن هذا الطموح بقوله: «لا خيار أمام بروسيا، فإما التوسع وإما الزوال».

لم يخلف امبراطور النمسا شارل السادس وريثاً ابناً يرث الملك من بعده. وكان مهتماً بأن تخلفه ابنته ماريا تيريزا[٢٤] في حكم ممتلكات النمسا. وقد كتب رسالة إلى فريدريك غليوم في

---

(٢٣) مجلس الدييت: Diet هو الهيئة السياسية التشريعية التي كانت تناقش أمور الخدمات العامة والشؤون الداخلية للبلاد. وقد اشتهرت مجالس الدييت في الدول الجرمانية بصورة خاصة.

(٢٤) ماريا تيريزا: Marie Therese D'autrichex امبراطورة الجرمان وملكة بوهيميا وهنغاريا، ابنة الامبراطور شارل السادس. ولدت في فيينا سنة ١٧١٧ م وتوفيت سنة ١٧٨٠ م. تزوجت أمير اللورين فرانسوا وأنجبت منه جوزيف الثاني وماري أنطوانيت. اشتهرت بحزمها وشجاعتها. تحالفت مع فرنسا وروسيا ضد بروسيا. وحاولت تدمير قدرة بروسيا في حرب السنوات السبع، غير أنها فشلت في ذلك. وأسهمت في اقتطاع جزء من بولونيا، اكتسبت حب الشعب لها بحكمتها وكفاءتها.

سنة ١٧٢٨ ، طلب فيها التزام بروسيا بحماية وضمان تنفيذ (المرسوم المبرمج)[٢٥] . ووافق فريدريك غليوم على ذلك بشرط أن تضم دوقية بيرغ[٢٦] إلى مملكة بروسيا عند وفاة ملكها . وكانت اسبانيا وروسيا قد وقعتا (المرسوم المبرمج) مسبقاً . كما تعهدت فرنسا وانكلترا بضمان تنفيذه بعد ذلك بسنوات . وعندما شعر شارل السادس بتأييد الدول الأوروبية العظمى (لمرسومه المبرمج) نكث بوعده ، وتراجع عن التزامه السابق بنقل ملكية بيرغ إلى بروسيا . وأثار ذلك غضب فريدريك غليوم ودفعه لعقد معاهدة سرية مع فرنسا ، العدوة التقليدية للنمسا . وعندما صعد فريدريك الثاني الكبير إلى سدة الملك بعد ذلك بفترة قصيرة ، ورث عن أبيه في جملة ما ورثه ، التحالف السري مع فرنسا ، والعداء البروسي ضد النمسا . ولم تمضِ على ذلك سوى بضعة أشهر حتى توفي شارل السادس ، وخلفته ابنته ماريا تيريزا ، الصبية المتزوجة بأمير اللورين ، والتي لم تتجاوز يومها الثالثة والعشرين من عمرها . **وكان عدد أفراد الشعب النمساوي الخاضع لحكم آل هبسبورغ يقارب ٢٥ مليوناً** ، منهم ١٥ مليوناً يعيشون فوق الأرض النمساوية و ١٠ ملايين يعيشون خارجها . وكان ملك بروسيا الشاب فريدريك الثاني ــ الكبير قد أخذ أهبته ، واستعد لخوض الحرب من أجل تحقيق السيادة على الشعب الجرماني . **ولم يكن عدد أفراد الشعب البروسي ، مع كل الدول والأمارات والمدن التابعة له يزيد على أربعة ملايين ونصف المليون .**

ما إن علم فريدريك الثاني الكبير بوفاة الامبراطور شارل السادس في نهاية تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٧٤٠ ، حتى قرر على الفور الاستيلاء على سيليزيا . وقد أراد ضم هذا الإقليم الغني مقابل التزامه بتنفيذ (المرسوم المبرمج) . إذ كان اقليم سيليزيا هو الإقليم المتاخم لإقليم براندبورغ ، فكان ضمه إليه يضمن له المزيد من النفوذ السياسي والمميزات الاستراتيجية . بالاضافة إلى أن ضم سيليزيا إلى بروسيا سيضعف من قدرة ملك بولونيا الذي كان في الوقت ذاته أميراً الكتراً لإقليم ساكسوني ، وبذلك يتم عزله عن حدوده الشرقية . وكانت سيليزيا تطوق بولونيا من الغرب حيث يقوم الإقليم الذي أراد فريدريك ضمه إلى بروسيا أيضاً .

أحاط فريدريك الثاني استعداداته للحرب ، بنطاق محكم من التكتم والسرية المطلقة ، وأخفى كل نشاط قواته باستخدام خطة خداعية ، يظهر منها أن الهدف من مسير القوات هو التوجه نحو

(٢٥) المرسوم المبرمج لماري تيريز : Pragmatic Sanction De Marie Therese هو مرسوم امبراطوري أصدره الملك شارل السادس ، من أجل انتقال تاج الامبراطورية إلى ابنته ماري تيريز ، وإبعاد بنات أخيه جوزيف الأول عن حق الوراثة . وهناك المراسيم المبرمجة : Pragmatic - Sanctions وهي مجموعة الإجراءات التي اتخذها ملوك فرنسا ، للحد من هيمنة البابا على الكنيسة الوطنية الفرنسية . ومنها على سبيل المثال مراسيم الملك لويس التاسع (سانت لويس ــ سنة ١٢٦٨) ، ومراسيم شارل السابع سنة ١٤٣٨ .

(٢٦) بيرغ : Berg دوقية قديمة في بروسيا ــ ديتان عاصمتها دوسلدورف وتقع على الضفة اليمنى لنهر الراين .

الغرب، لتأمين أقاليم غوليش بيرغ على نهر الراين. وهي الأقاليم التي اعترف بتبعيتها لبروسيا منذ أيام والده. واستيقظت فيينا بصورة مباغتة على الخطر الذي بات يتهددها. وكان فريدريك الثاني قد وضع في مخططه كافة الاحتمالات. فقدر تقديراً صحيحاً كفاءة القوات النمساوية ـــ الهنغارية، والتي كانت ممزقة في وحدتها، وضعيفة في قدراتها العسكرية، على الرغم مما كانت عليه من تفوق عددي كبير. وعلى الرغم أيضاً من اعتمادها على قاعدة بشرية واسعة. وكان فريدريك الثاني على حق أيضاً في تقديره الصحيح للموقف السياسي في أوروبا، إذ كان يتوقع عدم تحرك أوروبا إذا ما قام بهجومه. غير أن فريدريك الثاني كان مخطئاً في تقديره لما توافر للملكة الجديدة ماريا تيريزا من الصفات والكفاءات، التي كان من أبرزها: الحزم والقوة والحكمة. مما أبرز ظاهرة لم يعرفها حكم آل هبسبورغ من قبل وهي التفاف الشعب الهنغاري والنمساوي حول الملكة، وتأييده لها بحماسة. **الأمر الذي أدى إلى ظهور تحولات حاسمة في الحرب التي عرفت باسم (حرب الوراثة النمساوية) والتي قسمت من وجهة نظر العمليات إلى مرحلتين: الحرب السيليزية الأولى، ثم الحرب السيليزية الثانية.**

وصل فريدريك الثاني إلى مسرح العمليات في سيليزيا، وتولى بنفسه قيادة جيشه الذي ضم ٢٨ ألف مقاتل، وكان ينتظر وصول الاحتياط من قواته، والذي انطلق من برلين بقوة ١٢ ألف مقاتل. فتمكن بواسطة هذا الجيش من اجتياح سيليزيا دون قتال حقيقي، بسبب عدم وجود قوات كبيرة فيه. واستقبل السكان الذين كان معظمهم من البروتستانتيين قوات فريدريك بحماسة (حيث لبس فريدريك هنا ثوب حامي البروتستانتية). وفي نهاية شهر كانون الثاني ـــ يناير ـــ ١٧٤١، كانت القوات البروسية قد فرغت من احتلال معظم الأراضي السيليزية، ولم يبق فيها إلا حاميات صغيرة في غلوغلو وبرييغ ونيسا. فوضع فريدريك قوات لحصارها. واعتبر أن الحرب السيليزية قد انتهت. وعاد إلى برلين، وكله أمل بالوصول إلى تسوية سلمية مع النمسا عبر الطرق الديبلوماسية. ولكن ما إن وصل فريدريك إلى عاصمته، حتى علم أن النمسا قد حشدت قواتها واستعدت لمتابعة الحرب بحماسة. وسيطر القلق على فرنسا بشأن نصيبها من التركة، فطلبت إلى النمسا منحها الأراضي المنخفضة النمساوية واللوكسمبرغ. في حين أخذ أمير بافاريا الالكتر بالمطالبة بحقه في العرش النمساوي. وكانت القوات الفرنسية ـــ البافارية قد أخذت بالاستعداد لغزو النمسا وبوهيميا. بينما اتخذت انكلترا وهولندا الاتجاه المضاد لفرنسا، وأرسلتا بمساعداتهما المالية إلى فيينا. واضطر فريدريك للعودة بسرعة إلى سيليزيا، لمجابهة الموقف الخطير الذي تعرضت له القوات البروسية. حيث دارت اشتباكات عنيفة، كادت إحداها أن تقضي على الملك فريدريك ذاته لو لم يتمكن من الانسحاب في الوقت المناسب، ليقود بعدها معركة **مولويتز يوم ١٠ نيسان ـــ ابريل ـــ ١٧٤١ م**. والتي باغت فيها القوات النمساوية والهنغارية بهجومه. كما أظهر الجنود البروسيون صموداً رائعاً في مواجهة

الهجمات المضادة، مما ساعد القوات البروسية على كسب المعركة. ثم أعقبها انتصار آخر للقوات البروسية في معركة **شوتوسيتز** يوم ١٧ أيار — مايو — ١٧٤٢، **مما أرغم ماريا تيريز على عقد معاهدة برلين مع فريدريك في شهر تموز — يوليو — ١٧٤٢. وانتهت بذلك المرحلة الأولى من الحرب أو الحرب السيليزية الأولى، والتي أكدت تفوق القدرة العسكرية البروسية.**

لقد عملت ماريا تيريزا على عقد صلح مع فريدريك حتى تتفرغ للعمل على جبهة أخرى، ولقد أدى انسحاب بروسيا وساكسونيا من الحرب، لإضعاف الجبهة المتحالفة ضد النمسا. فقامت القوات النمساوية — الهنغارية بطرد القوات الفرنسية من بوهيميا. ثم قامت بغزو بافاريا وطردت حاكمها الالكتر الذي كان قد نصب نفسه امبراطوراً للامبراطورية الرومانية المقدسة، وأخرجته من العاصمة ميونيخ. ووجدت فرنسا ذاتها مرغمة على العودة إلى الدفاع، بعد أن خسرت معركة ديتنجن — في بافاريا على ضفاف نهر المين سنة ١٧٤٣. ولم يكن لفريدريك علاقة مباشرة بهذه التطورات جميعها، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في رؤية فرنسا، وهي تخرج منتصرة انتصاراً كاملاً وحاسماً، إذ إن مثل هذا الانتصار سينهي المشكلة الفرنسية فتضعه وحده في مواجهة النمسا. وكان فريدريك يشك بأن توافق ماريا تيريزا على فصل سيليزيا عنها بموجب ترتيبات اتفاقية. وأن ذلك لن يتحقق إلا إذا أمكن قهر بافاريا وفرنسا واسبانيا بقوة السلاح. ولهذا أسرع لربط نفسه من جديد بفرنسا وبافاريا وبالاتين وهيس كاسل. **وحدث ما كان يتوقعه فريدريك، فقد أعادت ماريا تيريزا تنظيم قواتها، ووجهتها لاجتياح سيليزيا. وعندها أصدر فريدريك أوامره إلى قواته باجتياح بوهيميا فوراً. وبدأت المرحلة الثانية من الحروب السيليزية. وزج فريدريك جيشاً من ٨٠ ألف بروسي في شهر آب — اغسطس — سنة ١٧٤٤ ودفعه على اتجاه براغ. واحتفظ بقوة احتياطية في سيليزيا من ٢٠ ألف مقاتل..**

لم تحتمل براغ ثقل الضربة البروسية، فسقطت في قبضة فريدريك في شهر أيلول — سبتمبر — ١٧٤٤. وتابع فريدريك تقدمه الظافر في اتجاه النمسا. وانتقلت ماريا تيريزا إلى بريسبورغ مرة أخرى لاستثارة الأمة الهنغارية وتحريضها على تقديم الدعم لها. وصدر الأمر إلى شارل — أمير اللورين — بمغادرة الألزاس، والتوجه بجيشه نحو الشرق لمجابهة القوات البروسية.

تدهور موقف القوات البروسية العاملة في بوهيميا بعد أن تدفق فرسان الهوسار، من الهنغاريين والكرواتيين. وبعد أن عملت المجر على عزل معسكرات فريدريك، وفرضت سيطرتها على تحركات أرتاله، فانعزل فريدريك، وأمضى شهراً كاملاً دون أن يتمكن من الاتصال بمملكته، أو بأي مكان آخر من أوروبا. ولم تتوافر له أية معلومات عن مواقف الأصدقاء أو الأعداء. وزاد موقفه سوءاً عندما قامت القوات النمساوية والساكسونية بالهجوم على قواته يوم ١٩ تشرين الثاني

ـــ نوفمبر ـــ فاضطر فريدريك للانسحاب بقواته إلى بوهيميا، بعد أن تعرض لخسائر فادحة بالتجهيزات والمعدات. وعندها بدأت القوات النمساوية باجتياح بافاريا من جديد، واستعدت لاقتحام سيليزيا مرة أخرى.

اخترق شارل أمير اللورين حدود سيليزيا بقوة زادت على ستين ألف مقاتل كان ثلثهم تقريباً من الساكسون. وأمام هذا الموقف، طبق فريدريك خطة ذكية، استخدم فيها الجواسيس المزدوجين الذين لا يشك فيهم، وذلك لتضليل شارل، وحمله على الاعتقاد بأن القوات البروسية ستنسحب من سيليزيا، بمجرد دخول القوات النمساوية إليها، وأنها ستكرر ما سبق لها أن فعلته، حيث ستتراجع نحو الشمال، حتى تتجنب عزلها عن قاعدتها في بريسلاو. ولم يقف فريدريك الثاني عند هذا الحد، بل عمل على دعم هذه الخطة الخداعية، وترسيخها في ذهن شارل، فقام بالجلاء عن قسم من جنوبي ـــ شرقي سيليزيا. وكان الملك فريدريك قد صمم في الحقيقة على الهجوم بقوة سبعين ألف مقاتل، وذلك بمجرد نجاح الخطة الخداعية، ووصول القوات النمساوية إلى سهول سيليزيا.

وقعت المعركة بين هونفريدبورغ وستريغو التي كانت القوات البروسية تختفي وراءها. وكانت القوات البروسية قد وصلت في الليلة السابقة للمعركة، ونظمت مواقعها على أرض المعركة. واصطدمت مع قوات حرس المقدمة الساكسونية عند أول ضوء من يوم ٤ حزيران ـــ يونيو ـــ سنة ١٧٤٥م. وأظهرت القوات البروسية كفاءة عالية في استخدام أسلحتها، وفي استخدام أساليب تكتيكية (تعبوية) جديدة. وعندما أزفت الساعة الثامنة صباحاً، أصدر الأمير شارل أمره إلى قواته بالانسحاب، بعد أن خسرت ٩ آلاف بين قتيل وجريح و٧ آلاف أسير و٨ آلاف مفقود. كما غنم البروسيون من النمساويين ٦٦ مدفعاً. ومقابل ذلك خسر البروسيون ٥ آلاف مقاتل بين قتيل وجريح.

تابعت القوات البروسية تقدمها خلف القوات النمساوية التي تناقص عدد أفرادها حتى ٤٠ ألف مقاتل. وأخذت في التحرك نحو الشمال الشرقي من سيليزيا، وهدفها الوصول إلى الحدود. وفي شهر أيلول ـــ سبتمبر ـــ أنزل فرسان الهوسار الكرواتيون ضربة موجعة بالقوات البروسية، وهددت طرق مواصلاتها، مما اضطر فريدريك الثاني لتخصيص قوة ١١ ألف مقاتل من الفرسان والمشاة لحماية قوافل الإمداد والتموين، وحراسة المعسكرات. ثم أخذ في التراجع نحو سيليزيا، وعبر نهر ألبا، وأقام معسكره الذي ضم ١٨ ألف مقاتل في سفح الجبال قريباً من قرية **سوهر أوسور**.

قرر شارل أمير اللورين مباغتة الجيش البروسي، وهو في معسكره بهجوم ليلي. وقاد جيشاً من ٣٠ ألف مقاتل. غير أن فريدريك الثاني وجيشه البروسي شعر بالهجوم في الوقت المناسب، وتحرك بسرعة أكبر من سرعة تحرك جيش الأمير شارل. ودارت معركة ضارية في ليل ٢٩ أيلول ـــ سبتمبر ـــ

١٧٤٥م. وخسر البروسيون ٤ آلاف جندي بين قتيل وجريح، وخسر النمساويون عدداً مماثلاً بالاضافة إلى خسارة ٣ آلاف أسير.

كان فريدريك على ثقة بأنه يجب عليه إرغام النمساويين على قبول شروطه لإيقاف الحرب. ولهذا أمر جيشه بالانسحاب على مهل، والعودة إلى سيليزيا. وعاد هو إلى برلين من أجل قيادة الصراع السياسي، وتفرق الجيش البروسي على معسكراته الشتوية. وافترض فريدريك أن الجيش النمساوي سيفعل مثل ما فعله، وأنه سينتشر في معسكراته انتظاراً لانقضاء فصل الشتاء. ولكن ما إن استقر فريدريك في عاصمته، حتى علم أن النمساويين والساكسون قد اتخذوا قرارهم بغزو براندبورغ، والتقدم حتى برلين للإستيلاء عليها، مستفيدين في ذلك من العطالة التي فرضها فصل الشتاء.

رجع فريدريك إلى سيليزيا فوراً، **ووجه قوة من الفرسان الخفيفة (الهوسار) أغارت على قوات الساكسون في هنرسدوروف يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٧٤٥م ودمرت ٦ آلاف من قوة فرسان الساكسون.** مما حمل شارل أمير اللورين على الانسحاب بقواته إلى بوهيميا. وقرر فريدريك تطوير الهجوم بغزو ساكسونيا، **ووقعت معركة كيسلدورف يوم ١٥ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٧٤٥ م.** التي انتهت بتمزيق القوات الساكسونية ـ النمساوية، وخسارة ٣ آلاف بين قتيل وجريح، بالاضافة إلى ٧ آلاف أسير. ومقابل ذلك خسر البروسيون ٤٦٠٠ رجل بين قتيل وجريح. **ووضعت هذه المعركة حداً نهائياً للحرب السيليزية الثانية.** واضطرت ماريا تيريزا لتوقيع معاهدة دريسدن، مع فريدريك الثاني، في يوم عيد الميلاد من سنة ١٧٤٥ م. وتخلت النمسا عن سيليزيا لبروسيا. واعترف فريدريك بالمقابل بزوج ماريا تيريزا وهو فرانسيس ستيفن على أنه امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

انصرف فريدريك لإعادة تنظيم قواته، وشكل ١٧ كتيبة من كتائب المشاة المسلحة بالبواريد القصيرة من ٣٣ إلى ٥٠ بالإضافة إلى ٥ كتائب حاملي بواريد طويلة و١٢ كتيبة حاميات القلاع والحصون. كما أعاد تنظيم قوات الفرسان الخفيفة، فشكل ٨١ كوكبة من الجرمان و٩ كوكبات من البوسنة. وكذلك اهتم فريدريك بإعادة تنظيم سلاح المدفعية. فارتفع عدد المدافع من ٦٠ مدفعاً في بداية الحرب السيليزية إلى ٥٨٠ مدفعاً. ونظمت هذه المدافع في سرايا وأفواج لضمان كثافة نارية عالية. وحظي سلاح الهندسة العسكرية بالاهتمام الذي يستحقه، حتى يواكب تطور كافة الأسلحة.

لم تكن الملكة الصلبة والجريئة ماريا تيريزا تثق بالملك البروسي فريدريك. وقد أحزنها ضياع سيليزيا. كما خاب أملها بانكلترا التي لم تقدم لحليفتها النمسا دعماً حقيقياً خلال سنوات الحرب.

فأخذت في البحث عن حلفاء جدد تستطيع أن تثق بصدق التحالف معهم. ومضت في الوقت ذاته للإفادة من فترة السلم لإعادة تنظيم قواتها استعداداً لاستئناف الحرب عندما تتوافر الظروف المناسبة.

استطاعت ماريا تيريزا أن تجد طريقة للتفاهم مع فرنسا. ومقابل ذلك، تحركت انكلترا في اتجاه روسيا، ووعدتها بتقديم مساعدة مالية ضخمة، مقابل حشد قواتها لتأمين هانوفر، وضمان الحدود الغربية. وثارت شكوك فريدريك الثاني ومخاوفه، تجاه التحركات الديبلوماسية في عواصم الدول المجاورة. وكان (يخاف روسيا أكثر مما يخاف ربه) على حد تعبيره. ولهذا فقد توافر له سبب مقنع، لاحتمال قيام روسيا بالتحالف مع النمسا، للهجوم على بروسيا الشرقية وسيليزيا. فقرر التقرب من انكلترا، وعرض عليها الضمانات المطلوبة من أجل ضمان سيادتها على هانوفر. وقبلت انكلترا العرض، وصرفت النظر عن اتفاقها الذي لم يتم توقيعه مع روسيا القيصرية. وتبع ذلك توقيع معاهدة دفاعية بين انكلترا وبروسيا في ويستمانيستر في شهر كانون الثاني ـــ يناير ـــ سنة ١٧٥٦ م. ولم تلبث فرنسا أن وقعت مع النمسا معاهدة دفاعية مماثلة في شهر أيار ـــ مايو ـــ سنة ١٧٥٦ م عرفت باسم معاهدة فرساي الأولى. ومع قدوم فصل الصيف، كانت أوروبا مقسمة إلى معسكرين متضادين، تقف فيهما بروسيا وانكلترا مقابل فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وساكسونيا. وبات الموقف العام مهيئاً لاستقبال **الحرب السيليزية الثالثة أو حرب السنوات السبع**.

علم فريدريك عن طريق جواسيسه بأن قيصرة روسيا اليزابيت بتروفنا قد أخذت في الإلحاح على ملكة النمسا ماريا تيريزا بالإسراع لإنهاء استعداداتها للحرب. ورأى أنه من الخطر الانتظار حتى تكمل النمسا إعداد قواتها، فقرر أن يسبقها بتوجيه ضربته. وعبر عن قراره بقوله: «**ليس من المهم بعد ذلك كله أن يطلق علي أعدائي اسم (المعتدي) ولا سيما أن أوروبا كلها قد توحدت ضدي**».

كان الموقع الجغرافي لبروسيا يساعد فريدريك على العمل على الخطوط الداخلية. وقد ظهرت أهمية هذا العامل الكبير، بسبب عدم وجود حدود يمكن لبروسيا الدفاع عنها، تجاه حلف قوي يتفوق عليه بالقوى، بمعدل ثلاثة إلى واحد على الأقل. فإلى الجنوب كان هناك الجيش النمساوي الذي سينضم إلى الجيش الساكسوني، على مسافة لا تبعد أكثر من أربعين ميلاً عن برلين. وفي الشمال، كانت السويد قادرة على حشد قواتها في سترالساند لتكون على بعد ١٣٠ ميلاً عن برلين. أما في الشرق فإن القوات الروسية ستصبح على بعد خمسين ميلاً من برلين، وذلك بمجرد عبورها لنهر الأودر. وفي الغرب، تصبح القوات الفرنسية على بعد ١٠٠ ميل من برلين وذلك بمجرد عبورها الحدود البروسية عند هال. ولكن بقي شرط واحد يمكن استخدامه لإنقاذ بروسيا، وهو أن هذه الجيوش جميعها لم تكن على درجة واحدة من الاستعداد لخوض الحرب. فالنمسا لم تنضم بعد إلى

ساكسونيا، وروسيا لازالت بعيدة عن غرب بولونيا في المناطق المحرومة من الطرق. ولازالت قوات السويد في البلطيق، وقوات فرنسا في الراين.

طلب فريدريك إلى النمسا في شهر تموز ـ يوليو ـ ١٧٥٦، أن تتعهد بعدم استخدام القوات النمساوية المحتشدة في بوهيميا ضد بروسيا. وجاءته إجابة غامضة وهروبية، ولم يعد باستطاعته الانتظار. فوجه قوة من ١١ ـ ألف مقاتل لمراقبة السويد. ووجه قوة أخرى من ٢٦ ألف مقاتل لمراقبة روسيا. وترك قوة من ٣٧ ألف مقاتل للدفاع عن سيليزيا. وقاد بنفسه قوة من ٧٠ ألف مقاتل، فباغت ساكسونيا بالهجوم يوم ٢٩ آب ـ أغسطس ـ ١٧٥٦ م. ودون أن يعلن الحرب. وتمكن من احتلال دريسدن يوم ١٠ أيلول ـ سبتمبر ـ ثم ألقى الحصار على بيرنا. ولم يلبث أن التقى بالجيش النمساوي الرئيسي، قرب لوبوسيتز، فمزقه وهزمه في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر.

أدى غزو فريدريك لإقليم ساكسونيا إلى انفجار عاطفي عنيف، وإلى هيجان كبير في مجلس الدييت الامبراطوري النمساوي الذي اعتقد بأن فريدريك يعمل من أجل السيطرة على النمسا، ووضعها تحت رحمته. وثارت المقاومة داخل الامارات الجرمانية ذاتها ـ داخل بروسيا ـ بسبب مخاوف الأمراء من تعاظم سيطرة فريدريك. وزاد الموقف خطورة، عندما قررت الدول المتحالفة ضد بروسيا زج قوات زادت على نصف مليون مقاتل في ميدان المعركة لسحق المعتدي البروسي.

انتظر فريدريك حتى مضى فصل الشتاء، وزالت الثلوج من على الطرق والدروب، فتقدم نحو براغ، وعندما وصلها اصطدم بالجيش النمساوي يوم ٦ أيار ـ مايو ـ ١٧٥٧، وألحق به هزيمة منكرة. ثم حاصر براغ، وتابع تقدمه نحو الجنوب، فاصطدم بالقرب من كولن بجيش نمساوي آخر يوم ١٨ حزيران ـ يونيو ـ وكان الجيش النمساوي بقيادة الماريشال دون، ويضم ٦٠ ألف مقاتل، في حين لم يكن الجيش البروسي يتجاوز ٣٣ ألف مقاتل. ودارت الدائرة على الجيش البروسي الذي خسر ١٣ ألف مقاتل، مما اضطر فريدريك للانسحاب بجيشه، ورفع الحصار عن براغ، والعودة إلى ساكسونيا.

شجع هذا النصر الحلفاء لحشد ٣٩٠ ألف مقاتل، ووضع خطة لاجتياح بروسيا من كافة الجهات ووقع ملك فرنسا لويس الخامس عشر معاهدة مع الملكة ماريا تيريزا، حملت اسم معاهدة فرساي الثانية يوم ١ أيار ـ مايو ـ ١٧٥٧، تعهدت بموجبها فرنسا بتقديم مساعدة مالية للنمسا، بقيمة ٣٠ مليون ليرة فرنسية، من أجل استخدامها في دعم روسيا واغرائها على دفع قواتها. واندفعت القوات الروسية في اتجاه برلين، وارتكبت في طريقها كافة الأعمال الشرسة: «كان جنود القوات الروسية يشنقون السكان الأبرياء على الأشجار ويبقرون بطونهم، ويمزقون أجسادهم،

ويستخرجون قلوبهم وأحشاءهم، ويجدعون أنوفهم، ويصلمون آذانهم، ويكسرون عظام أقدامهم، ويشعلون النيران بالقرى والأكواخ. ويشكلون حلقات حول البيوت المحترقة ليقذفوا بالنار كل من يحاول الفرار من سكان البيوت. وقد أثارت وحشيتهم بصورة خاصة النبلاء ورجال الدين. فعمل الجنود الروس على شد وثاق هؤلاء وربطوهم بذيول خيولهم وانطلقوا بخيولهم لسحلهم موجة بعد موجة. أو تجريدهم من كل ثيابهم، ودفعهم إلى ألسنة اللهب المحتدمة. وقد وصل انتقامهم المجرد من كل شعور إنساني إلى درجة ممارسة الأساليب الوحشية ضد الأموات. فكانوا يفتحون القبور، ويقذفون البقايا مما يجدونه فيها ليتناثر في كل مكان فوق سطح الأرض». وكان هذا هو الموقف الصعب الذي واجهه فريدريك الثاني، والذي فرض عليه بذل كل جهد مستطاع لإيقافه، وحماية مواطنيه، فوجه جيشاً من ٢٥ ألف مقاتل لمواجهة القوات الروسية التي زاد عدد أفرادها على أربعين ألف مقاتل. واصطدم الجيش البروسي بالجيش الروسي قرب غروس جاغندوروف يوم ٣٠ آب ــ أغسطس ــ ١٧٥٧. وأفادت القوات الروسية من تفوقها، فهزمت القوات البروسية. وبات الطريق إلى برلين مفتوحاً. ولكن القوات الروسية لم تتابع تقدمها بسبب النقص في المواد التموينية. وبلغ موقف فريدريك حالة اليأس في شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ــ حتى خيل للملك فريدريك الثاني أنه خسر الحرب. ولكنه رغم ذلك لم يقف جامداً. فقام بمجموعة من التحركات والمناورات ضد القوات الفرنسية والنمساوية، ولجأ إلى تقديم الرشاوي لقادة الجيوش المعادية. وفي أثناء ذلك نجحت قوة نمساوية صغيرة من ٣٥٠٠ مقاتل في الوصول إلى برلين، في ١٦ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وفرضت عليها إتاوة قدرها ٣٠٠ ألف تالر. ثم انسحبت منها. وأثناء ذلك علم فريدريك بتقدم القوات النمساوية في ساكسونيا، فقاد جيشاً من ٢٢ ألف مقاتل. وغادر مدينة ليبزيغ يوم ٣٠ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٧٥٧، وطرد القوات الفرنسية التي كانت قد عبرت نهر سال. وأقام الجسور على هذا النهر، **ومضى في تقدمه حتى أقام معسكره في روزباك يوم ٤ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٧٥٧ م.**

تميزت المواقع التي احتلتها القوات البروسية بهيمنتها على المعسكرات الفرنسية ــ النمساوية المقابلة لها. وقد انصرف فريدريك لتنظيم معسكره، وإرسال دوريات الاستطلاع. وأخذ في متابعة تحركات القوات المعادية التي ظهر في الساعة ١٤ر٠٠ من يوم ٥ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ أنها تستهدف مهاجمة أجنحة فريدريك. وسرعان ما تحرك فريدريك للعمل، وتحركت القوات البروسية، وتغير المشهد كما لو كان مشهداً في أوبرا. لقد انطلقت القوات البروسية، مستفيدة من السواتر الطبيعية لتصل إلى مجنبات أو أجنحة القوات المعادية، ولتشكل معها زاوية مائلة أو عمودية على ترتيب القوات الفرنسية البروسية. وبدأت المعركة في الساعة ١٥ر٣٠، ولم يهبط الظلام إلا وكانت المدفعية وهجمات الفرسان وهجمات المشاة المتتالية قد نجحت في تمزيق التجمع المعادي، وخسر

البروسيون في المعركة ١٦٥ قتيلاً و٣٧٦ جريحاً. في حين بلغت خسائر قوات الحلفاء ٣ آلاف بين قتيل وجريح، و٥ آلاف أسير بينهم ٨ قادة (جنرالات) و٣٠٠ ضابط بالاضافة إلى ٦٧ مدفعاً و١٤ راية و١٥ علماً، وكمية كبيرة من المتاع والمواد التموينية. وتردد هدير انتصار فريدريك قوياً في كل أنحاء أوروبا. **فقد أكدت معركة روزباك تفوق قيادة فريدريك، وتفوق القوات البروسية. واستقبلت انكلترا خاصة انتصار فريدريك بحماسة كبيرة. واقيمت الزينات ومهرجانات الألعاب النارية حتى أشرقت أرض الجزيرة الانكليزية كلها بالأنوار الباهرة. وقرر البرلمان الانكليزي العدول عن قراره الذي اتخذه في السنة السابقة بتقديم مساعدة لفريدريك بمبلغ ١٦٤ ألف جنيه، واتخذ قراراً جديداً بتخصيص مبلغ مليون ومائتي ألف جنيه استرليني لدعم فريدريك في سنة ١٧٥٨. ولكن الأهم من ذلك كله هو أن معركة روزباك قد أبعدت ولو بصورة مؤقتة الخطر الكبير الذي كان يتهدد بروسيا ووجودها.**

منح فريدريك قواته فترة أسبوع للراحة، وعمل خلاله على إعادة التنظيم والاستعداد لمتابعة الحرب، حتى إذا كان يوم ١٣ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٧٥٧ م غادر ليبزيغ ومعه ١٣ ألف رجل، وسار بهم مسافة ١٧٠ ميلاً حتى وصل بارشويتز يوم ٢٨ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ، ثم تقدم إلى نيومارکت، واستولى عليها بإغارة مباغتة نفذتها قوة من الفرسان الخفيفة. وفي أثناء ذلك كانت قوات بروسية أخرى قد انضمت إليه حتى بلغت قواته ٣٦ ألف رجل منهم ٢٤ ألف جندي من المشاة الذين نظموا في ٤٨ فوجاً. أما قوة الفرسان وعددها ١٢ ألفاً، فقد نظمت في ١٢٨ كوكبة (سرية) بالإضافة إلى ١٦٧ مدفعاً منها ٦١ مدفعاً ثقيلاً، وعشرة مدافع ثقيلة جداً.

توافرت المعلومات للملك فريدريك وهو في نيومارکت بأن القوات النمساوية بقيادة شارل أمير اللورين والماريشال دون قد تحركت إلى ليزا، وأن الجناح الأيمن لهذه القوات قد امتد حتى قرية بورن، أما جناحها الأيسر فقد امتد حتى ساغشوتز. وظهر واضحاً أن تقدم فريدريك السريع قد باغت القوات النمساوية وقيادتها التي كانت تعتقد بأن فريدريك سوف يصرف قواته للاستراحة في معسكراتها الشتوية، بعد انتصاره الحاسم في روزباك. وكان التفوق لمصلحة القوات النمساوية التي بلغت قوتها ٦٠ ألف جندي، وتذكر بعض المصادر أنه ٨٠ ألفاً، ومعها ٢١٠ مدافع.

غادر فريدريك وجيشه نيومارکت في الساعة ٠٠ر٥ من فجر يوم ٥ كانون الأول ــ ديسمبر ــ وعندما وصل إلى منتصف المسافة بين نيومارکت ولوثن، جمع ضباطه (جنرالاته) تحت شجرة من الأشجار وقال لهم: «أعتقد أنني لا أكون قد فعلت شيئاً إن أنا تركت القوات النمساوية فوق أرض سيليزيا. وأعلمكم أنني قررت مهاجمة هذه القوات خلافاً لكل ما تنص عليه مبادىء الحرب. إنني أعرف بأن قوة شارل تتفوق على قوتنا بمعدل ثلاثة أضعاف، ولكن يجب

علي أن أغامر مهما كانت النتيجة. إن علي أن أسير هذه الخطوة وإلا فقدت كل شيء. يجب علينا إلحاق الهزيمة بالعدو، أو الموت جميعاً تحت نيران بطاريات مدفعيته. هكذا أفكر وهكذا سأعمل. انصرفوا الآن، ورددوا على مسامع أفراد كتائبكم ما قلته لكم».

أصدر فريدريك أمره إلى قواته باستئناف المسير. وحدد هدف المسير بالوصول إلى بورن وكانت طليعة القوات (حرس المقدمة) تتكون من ١٠ أفواج من المشاة و٦٠ كوكبة من الفرسان. وسار فريدريك كما هي عادته، مع مقدمة القوات، في حين كانت الكتلة الرئيسة للجيش تتقدم على أربعة أرتال خلف حرس المقدمة. وكانت فرقة موسيقى الكتائب تعزف الموسيقى، فيما كان الجنود ينشدون:

تأكد أنني سأعمل ما يجب علي عمله.
أينما كان مركزي، وأياً كان واجبي.
سأنفذ مهمتي فوراً وبحماسة.
وعندما سأفعل ذلك ـــ تأكد من نجاحي.

وتقدم ضابط إلى الملك فريدريك وسأله عما إذا كان يرغب بإيقاف الإنشاد. فرد عليه: «لا! أبداً! بمثل هؤلاء الرجال سيمنحني الله النصر يقيناً في هذا اليوم».

وصلت القوات البروسية إلى بورن. وأجرت التماس مع القوات النمساوية، بينما كانت الخيوط الأولى لضوء النهار ترتسم على الأفق، وفيما كانت سحب الضباب تغطي سطح الأرض بغطاء كثيف. وشرعت القوات البروسية على الفور بتوجيه ضربتها إلى الجناح الأيمن للقوات النمساوية، وتمكنت من الاستيلاء على بورن ومزقت قوة خمس كتائب نمساوية وأسرت ٨٠٠ جندي. وأعقب ذلك فترة من الهدوء، وانقشع ضباب الصباح، وبات باستطاعة المراقب الواقف على مرتفع بورن أن يشاهد الجيش النمساوي بكامله، وأن يعد أفراده فرداً فرداً. وهكذا فإن الاستيلاء على بورن قد حسم نصف المعركة، لا لأنه ضمن لفريدريك الظروف المناسبة للإشراف على ميدان المعركة فحسب، بل لأنه ضمن الفرصة أيضاً للقوات البروسية من أجل التحرك بصورة مخفية عن أنظار النمساويين. وهكذا أيضاً تابعت الأرتال الأربعة للقوات البروسية تقدمها نحو الجنوب. وفي أثناء ذلك كان شارل أمير اللورين، ومعه الماريشال دون يقيمان في طاحونة في فروبلوتيز. ونظراً لاختفاء الجيش البروسي عن الأنظار فقد ظنا أنه يتراجع بأقصى سرعته. مما حمل الماريشال دون على القول: «يظهر أن البروسيين يبتعدون بسيرهم» فأجابه شارل: «دعهم يبتعدوا ولا تزعجهم».

وصلت القوات البروسية في الساعة ١٣٫٠٠ إلى الجناح الأيسر النمساوي، وشرعت على الفور بالهجوم تحت دعم نيران المدفعية، وانطلقت كالعاصفة الهوجاء مدمرة في طريقها كل

ما يصادفها من القوات. وما هي إلا نصف ساعة من الزمن حتى أصبح ميدان المعركة ما بين ساغشوتز ولوثن مغطى بفلول القوات النمساوية الممزقة، فيما كانت القوات البروسية تتابع مطاردتها. ودارت معركة ضارية في لوثن، كانت شبيهة بالمذبحة، وانتهت باستيلاء القوات البروسية على لوثن. وما أزفت الساعة ١٦٫٠٠ حتى كانت فلول القوات النمساوية قد انسحبت من جميع مواقعها وهي تردد: «لينج كل بجلده».

وجه فزيدريك في اليوم التالي قوة من ٩ أفواج من المشاة ونصف قوة الخيالة (الفرسان) لمطاردة القوات النمساوية المنسحبة، بقيادة شارل أمير اللورين، وانطلقت هذه القوة للمطاردة فأسرت حتى يوم ٩ كانون الأول ــ ديسمبر ــ أكثر من ألفي مقاتل نمساوي. في حين ألقى فريدريك الحصار على بريسلو أو بريسلاو حتى يوم ١٩ كانون الأول ــ ديسمبر ــ حيث سقطت المدينة في قبضة القوات البروسية، وأسرت فيها ١٧ ألف مقاتل نمساوي ومعهم ٨١ مدفعاً.

اختلفت المصادر قليلاً في تقدير حجم الخسائر. وذكر أن القوات البروسية فقدت ٦ آلاف رجل بين قتيل وجريح. وخسرت القوات النمساوية ١٠ آلاف جندي بين قتيل وجريح. بالاضافة إلى ٢١ ألف أسير و١١٦ مدفعاً و٥١ راية و٤ آلاف عربة إمداد وتموين. وبلغت خسائر الحلفاء الكاملة في هذه الحملة ما بين ٤١٫٤٤٢ رجلاً و ٥٦٫٤٤٦ رجلاً. وفي التقويمين، على ما فيهما من اختلاف، يمكن القول إن خسائر الحلفاء كانت قاتلة.

كان من أبرز نتائج معركة لوثن أنها حزرت سيليزيا بكاملها تقريباً، باستثناء غابة شويدنيتز، كما أنها أظهرت بروسيا على أنها أضخم قدرة عسكرية في أوروبا كلها. مما دفع بعض المؤرخين للقول: «... ما من معركة في التاريخ القديم أو حتى في التاريخ الحديث يمكن لها أن تضاهي معركة لوثن أو تنافسها، سواء في طريقة تنفيذها أو في نتائجها. إنها تشكل فصلاً مميزاً في العلم العسكري. ذلك لأنها تبرز النظرية المتلاحمة مع أساليب التطبيق. وهي نظرية من نتاج عبقرية الملك فريدريك وحده».

وكتب نابليون بونابرت في معرض تعليقه على معركة لوثن: «تمثل معركة لوثن لوحة رائعة من التحركات، ومن المناورات والقرارات. وتكفي وحدها لتخليد فريدريك ووضعه على مستوى أعظم القادة. وقد كانت كل مناوراته في هذه المعركة متوافقة مع مبادىء الحرب: إنه لم يعرض مجنبة قواته لمراقبة أعدائه وأنظارهم، ذلك لأن أرتاله ذاتها كانت بعيدة عن الأنظار. ولقد كان النمساويون يتوقعون له أن يعمل بعد استيلائه على بورن، من أجل احتلال المواقع على المرتفعات المقابلة لهم. ولهذا فقد مكثوا دون حراك في انتظاره، بينما عمل هو من جانبه على

الإفادة من الضباب، ومن المرتفعات الأرضية، ليدفع قوات حرس المقدمة، بصورة مختفية ومموهة. وتابع تقدمه حتى تمكن من مهاجمتهم في أقصى جناحهم الأيسر».

قد يكون من المناسب هنا التوقف قليلاً عند أسلوب (النظام المائل) الذي أبدعه فريدريك وطبقه في معركتيه الظافرتين: روزباك ولوثن. ففي روزباك، لم تكن للحلفاء قيادة موحدة، ولم يضع القادة مخططاً واحداً. وبدلاً من أن يتمسكوا بخط دفاعهم عن سال، حتى يتمكنوا من تدمير البروسيين، غادروا هذا الخط، وفعلوا ما كان يريده فريدريك، إذ قدموا له الشروط المناسبة للمعركة، حيث تقدموا تحت أنظاره، وعرضوا عليه جناح قواتهم، وخاضوا المعركة دون أي تنسيق للتعاون، وخاضوا المعركة وهم يجهلون أيضاً ما كان يفعله فريدريك، بسبب حرمانهم من عناصر الاستطلاع، وبذلك نجح فريدريك في استخدام نظامه المائل لضربهم من أجنحتهم. وفي معركة لوثن بدأ فريدريك معركته بضرب الجناح الأيمن، وانتهى بضرب الجناح الأيسر مستخدماً (النظام المائل) ذاته. وتميزت عمليات فريدريك هنا بتنسيق التعاون التام بين الفرسان والمشاة والمدفعية. وكان العامل الحاسم بعد ذلك فيما أحرزه فريدريك من انتصار هو في استحواذه على ثقة رجاله به، وانقيادهم لتنفيذ أوامره بدقة مذهلة.

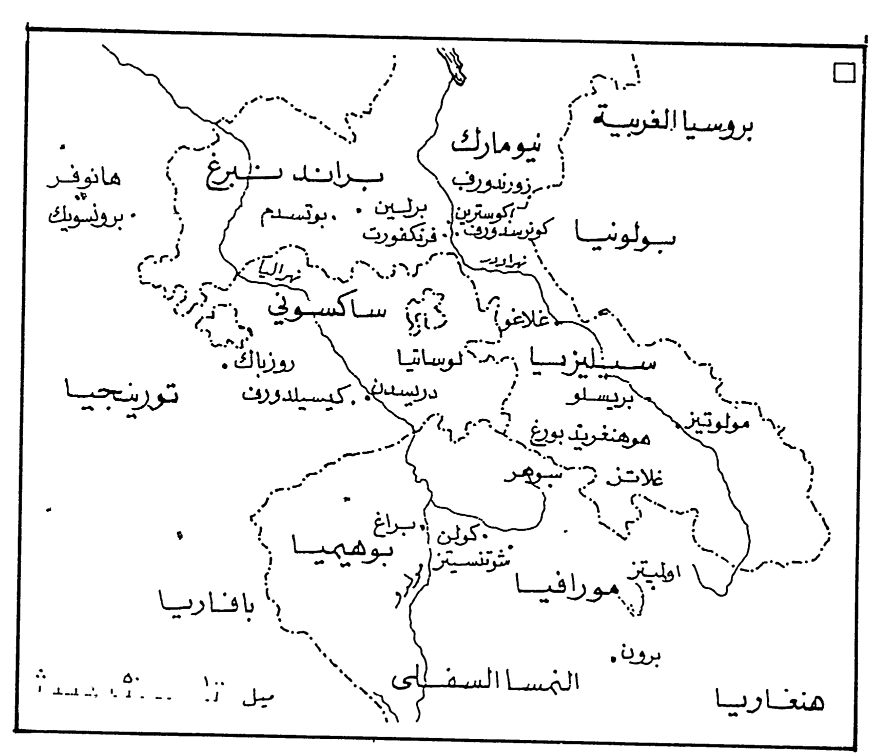
لم تتوقف الحرب بانتصار فريدريك في روزباك ولوثن. وكان عليه في ربيع السنة التالية مواجهة القوات الروسية التي استولت على كونيغسبرغ وثورن والبينغ، فقاد جيشه، وخاض معركة زورندورف يومي ٢٦ و ٢٧ آب ـ أغسطس ـ ١٧٥٨. وانتصر فريدريك، إلا أنه خسر في هذه المعركة الدموية ١٢ ألف مقاتل، وخسرت القوات الروسية أكثر من ضعف هذا العدد. ثم قاد ٣٠ ألف مقاتل ضد النمساويين الذين حشدوا لمجابهته جيشاً من ٦٠ ألف مقاتل. وخسر النمساويون في المعركة التي دارت في هوشكيرش ٦ آلاف مقاتل، ولكن فريدريك خسر بالمقابل أكثر من ربع جيشه، وخسر أيضاً عدداً من كبار قادته.

كان على فريدريك في السنة التالية ١٧٥٩. خوض الحرب ضد جيش روسي ـ نمساوي مشترك بلغت قوته ٦٠ ألف محارب يدعمهم ٢٤٨ مدفعاً. واستطاع فريدريك حشد ٤٨ ألف مقاتل ومعهم ٢٠٠ مدفع، وخاض معركة كونرسدورف يوم ١٢ آب ـ أغسطس ـ ١٧٥٩. ودارت الدائرة على الجيش البروسي الذي خسر على أرض المعركة ١٩ ألف رجل بين قتيل وجريح، فيما خسرت القوات الروسية والنمساوية ١٤ ألف رجل، بين قتيل وجريح. وكانت هذه أسوأ نتيجة واجهها فريدريك الذي كتب بعد المعركة: «أنا لست محظوظاً لأني لا أزال على قيد الحياة، ومن جيشي الذي كان عدد أفراده ٤٨ ألف رجل، لم يبق معي إلا ثلاثة آلاف فقط. الكل يهربون، وليست لي سلطة على أحد». ولكن، وبالرغم من ثقل الكارثة التي نزلت بفريدريك، فقد سارع

للعمل، ولحشد القوى، وإدارة الحرب. وخاض في السنة التالية ١٧٦٠ مجموعة من المعارك غير الحاسمة، والتي لم تتمكن من الوصول بالحرب إلى نهايتها. ولكن هذه الحروب استنزفت قوى الجميع. وقامت انكلترا بدور حاسم لإيقاف الحرب بعد أن حققت جميع أهدافها التوسعية، فيما وراء البحار، وجردت فرنسا من كثير من مستعمراتها. وجاءت وفاة قيصرة روسيا اليزابييت لتضعف من التحالف المضاد لفريدريك. فقد كان قيصر روسيا الجديد بطرس الثالث معجباً بفريدريك. ووجدت ماريا تيريزا أن الحرب لم تحقق لها ما تريده، فجنحت إلى السلم. وخرج فريدريك منتصراً وقد ضم سيليزيا إلى بلاده. واعترفت ماريا تيريزا بانضمام سيليزيا لبروسيا في معاهدة هيبرتسبورغ، التي وقعت في شباط ـــ فبراير ـــ ١٧٦٣. وضمت بروسيا إليها مليون مواطن، من أبناء العمومة الجرمان. وكان وصول فريدريك لهذه النتيجة، وما حققه لبلاده من المنعة والقوة، **هو الذي حمل نابليون بونابرت على القول: «كان فريدريك فوق كل شيء، وقبل كل شيء، عظيماً وهو في أشد اللحظات ضيقاً وحرجاً. وتلك هي أرفع فضيلة يمكن للمرء أن يتطلع إليها، عندما ينظر إلى الملك فريدريك العظيم... ... لم تكن مناوراته هي التي ميزته، وإنما الجرأة والإقدام اللذان كانا** من أبرز صفاته وميّزاه عن سواه من القادة. لقد أقدم على تنفيذ أعمال لا أجد حتى **الجرأة للإقدام عليها. لقد تخلى عن خط عملياته، وغالباً ما كان يعمل، وكأنه لا يعرف شيئاً عن فن الحرب... ليس الجيش البروسي هو الذي دافع عن بروسيا طوال سبع سنوات ضد أقوى الدول الأوروبية الثلاث، وإنما الذي دافع عن بروسيا هو شخص فريدريك العظيم».**

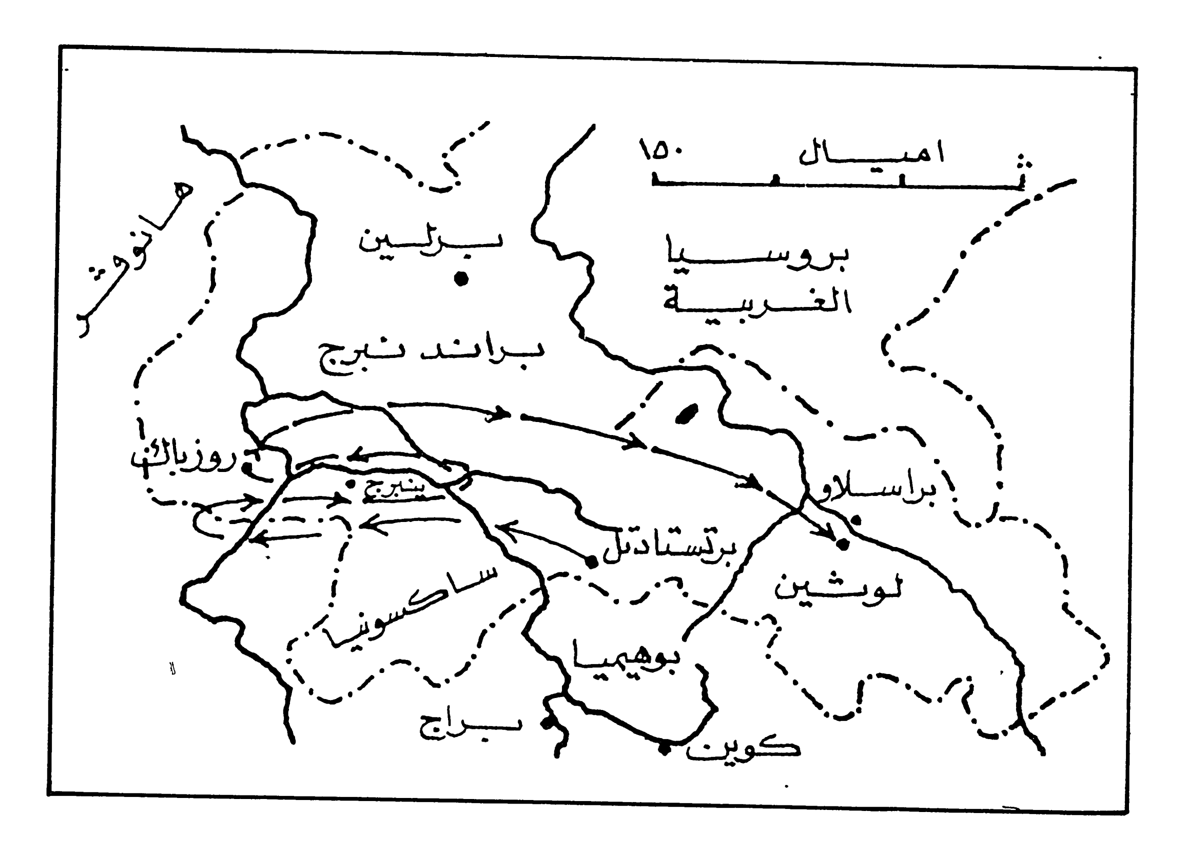
لقد كان من أبرز أعمال فريدريك ـــ علاوة على إنجازاته في تنظيم القوات المسلحة البروسية، وإدارة حربها ـــ اتجاهه إلى صياغة الفكر العسكري، وفق أسس ثابتة، وقواعد واضحة، تتوافق مع خصوصية التكوين البروسي. فكان من أول أعماله في هذا المجال كتابه: (الأصول العامة للحرب)، والذي كتبه في العام ١٧٤٦ معتمداً في صياغته على تجاربه في الحربين السيليزيتين الأولى والثانية. وقد نشر هذا المؤلف في طبعة محدودة سرية بين قادته. وقد أدى استيلاء الفرنسيين على نسخة منه في العام ١٧٦٠ إلى طبعه وانتشاره. وقد أوضح فريدريك بعد هذا كل آرائه في كتابه (العهد السياسي) الذي كتبه في العام ١٧٥٢، للاستخدام الشخصي لمن يخلفونه على العرش البروسي. وقد ألحق كتابه (الأصول العامة للحرب) بكتابه (العهد السياسي) على أنه ملحق له. وفي العام ١٧٦٨ وعندما انتهت كل حروبه، أصدر كتابه (العهد العسكري) قاصداً به أيضاً توجيه خلفائه وإفادتهم من تجربته الذاتية في الحرب وبناء الدولة. ثم عاد في العام ١٧٧١، فأصدر لقادته كتابه: (عناصر فن اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن القتال ـــ التكتيك). وقد كتب باستمرار، وعلى امتداد حكمه، تعاليم خاصة لفروع الجيش المختلفة، وقد جمعت هذه التعاليم مع كتاباته الأخرى، ونشرت في العام ١٨٤٦. ومن بين مؤلفاته التي تركها تنشر للناس عامة قصيدة

طويلة حملت عنوان (فن الحرب) وتضمنت معالجة عدد من الموضوعات السياسية المرتبطة بالمسائل العسكرية. كما تحدث فيها عن تاريخ حكمه وذكرياته. وإذا كان من الصعب عرض جميع وجهات نظر فريدريك في الحرب والسياسة، فقد يكون من المناسب التعرض لبعض مقولتها. وهي قد تكون كافية لإيضاح ملامح الفكر العسكري البروسي في بداية تشكله، عبر الدروس المستخلصة من تجربة فريدريك العظيم.

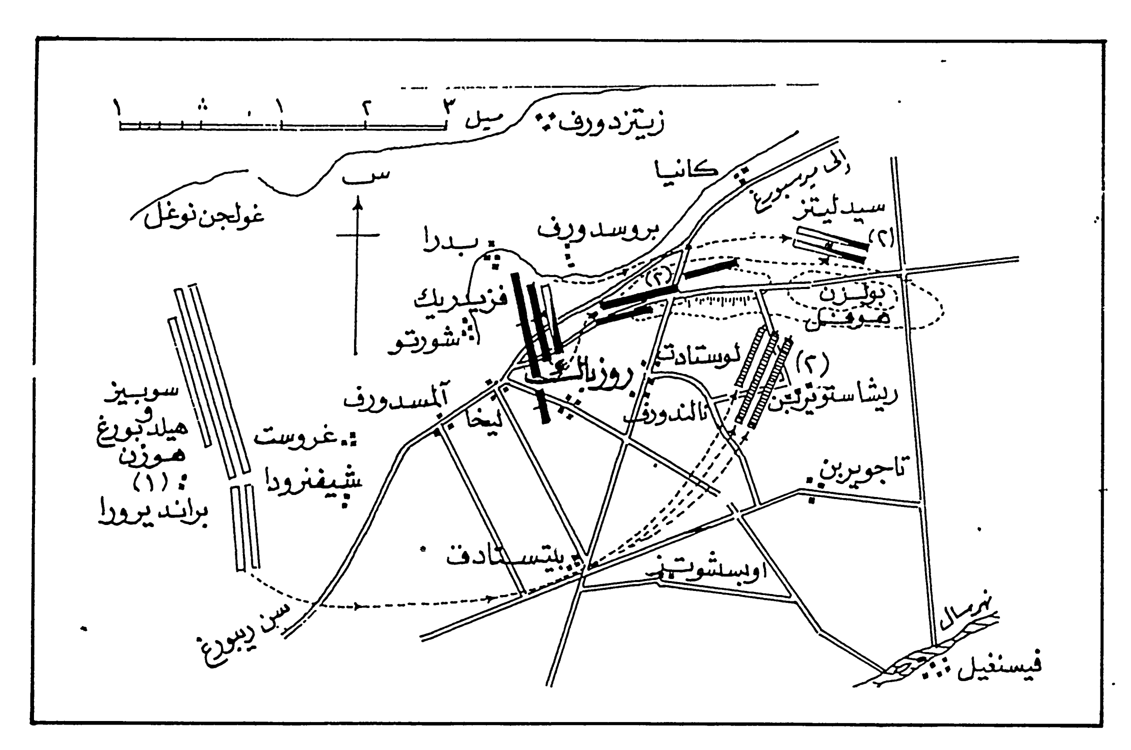


ميادين الحروب السيليزية

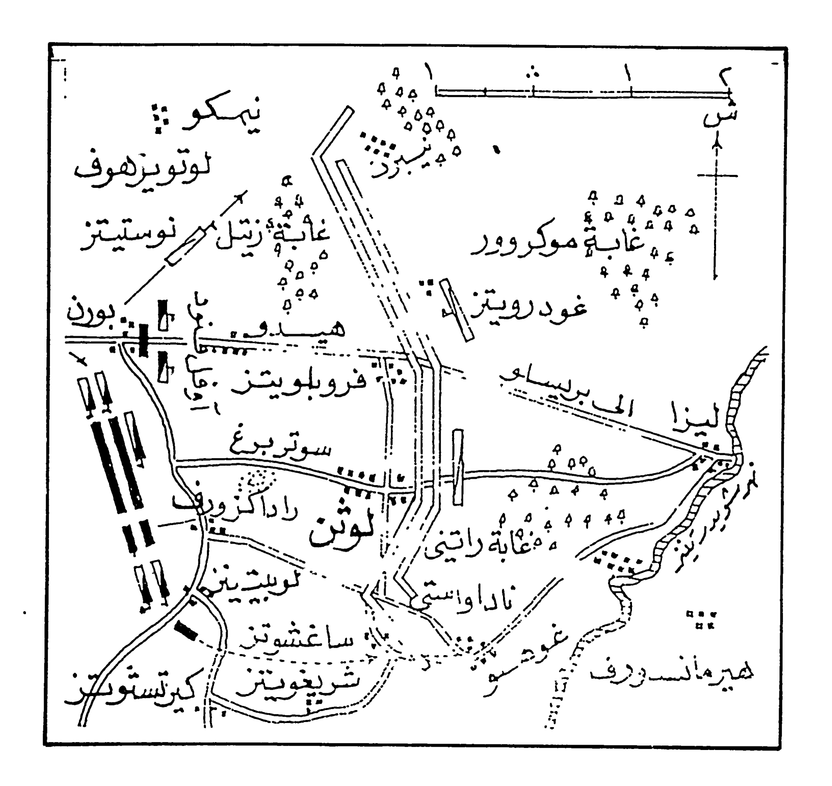
براندنبرغ ــ سيليزيا وبوهيميا ــ مورفيا



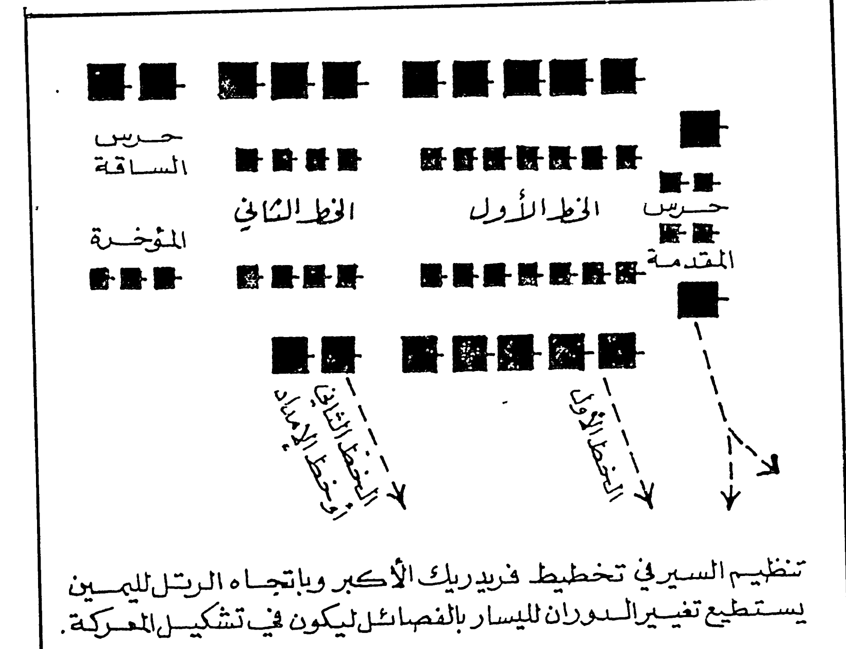
خط سير فريدريك في حملة خريف ١٧٥٧



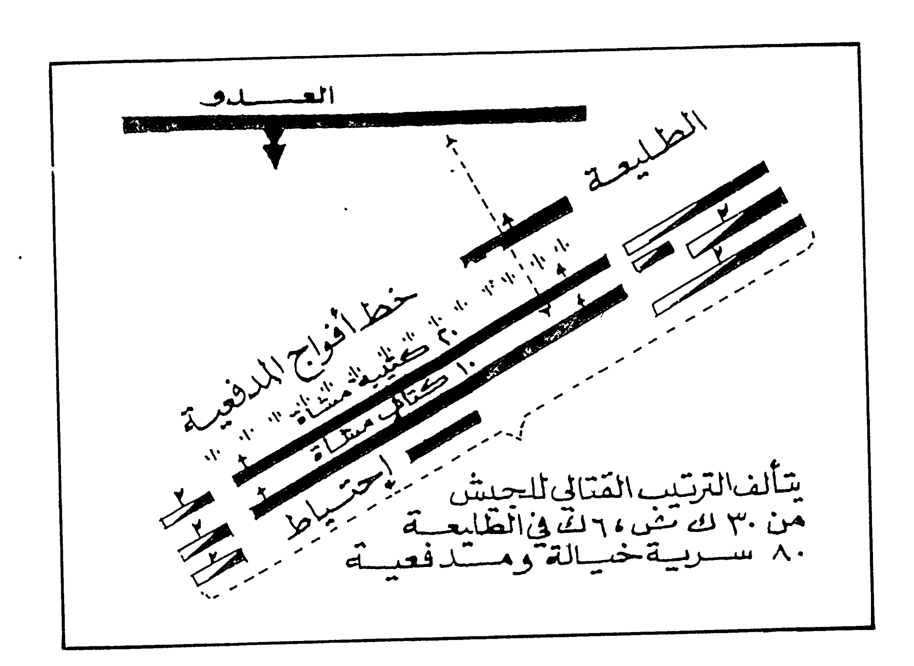
معركة روزباك ١٧٥٧



معركة لوثن ١٧٥٧



تنظيم السير في تخطيط فريدريك الأكبر وباتجاه الرتل لليمين يستطيع تغيير الدوران لليسار بالفصائل ليكون في تشكيل المعركة.



يتألف الترتيب القتالي للجيش من ٣٠ ك تش، ٦ ك في الطليعة ٨٠ سرية خيالة ومدفعية

ج ــ الدروس المستخلصة

١ ــ تحدث فريدريك الثاني عن والده الملك فريدريكِ غليوم، فقال: «كان الملك يختلط بضباطه بحرية مطلقة، ويعامل ضباطه في الميدان باعتبارهم رفاقاً له. كما كان يعامل مرؤوسيه من الجنود بأبوة حقيقية. ولقد احتجز نفسه مرة في السجن، لمجرد اكتشافهُ أنه ظهر بمظهر غير مناسب، وأنه ارتدى معطفه بصورة غير صحيحة، وبما لا يتوافق مع الأنظمة بدقة».

٢ ــ تكمن القوة، كل القوة، بالقدرة الهجومية لوحداتنا. ونكون من أشد الحمقى لو أننا لم نوجه هذه القدرة من أجل دعم قضية جيدة.

٣ ــ لم يعتمد النظام في بروسيا أبداً على تشاور الأفراد وتعاونهم. ولو أن نيوتن قد استشار ديكارت، وليبينتز، لما وصل أبداً إلى ما وصل إليه من نظرياته العلمية والفلسفية.

٤ ــ إن الفلاحين هم أكثر جهلاً من أن يكونوا ضباطاً، وإن اختيار الضباط من بين البورجوازيين معناه القيام بالخطوة الأولى لاضمحلال الجيش وسقوطه.

٥ ــ من الضروري العناية بالعاملين الكادحين من أفراد الشعب عناية الانسان بعينيه، ولا يجوز في وقت الحرب جمع الجنود من المواطنين إلا عندما تفرض الضرورة القصوى، والحاجة الملحة لذلك.

٦ ــ إن أقل تهاون بالانضباط سيؤدي إلى الشراسة والتوحش.

٧ ــ يجب أنْ يفهم الضباط والجنود أن كل قرار إنما هو من عمل رجل واحد، ولا يجب أن يناقش أحد الأسباب، بل يجب على كل فرد أن ينفذ ما أمر بتنفيذه دون تردد.

٨ ــ كل ما يجب على الجنود عمله هو التزود بحب الوحدة، وأن تنصهر شخصياتهم وتذوب في ألويتهم.

٩ ــ مادام شرف القتال لا يؤثر في الجنود، ولا يعتبر دافعاً لهم، فمن الضروري أن يخافوا قادتهم أكثر من خوفهم من أخطار الحرب. وإلى جانب ذلك فإن الإنسانية تتطلب تزويد الجيش بعناية طبية جيدة.

١٠ ــ ما لم يكن كل رجل مدرباً من قَبْلُ، في وقت السلم، على ما سيقوم به في الحرب، فإنه لن يكون لدى القائد إلا جماعة من الأهلين يحملون اسم صناعة أو حرفة، لا يعرفون كيف يقومون بممارستها.

١١ ــ كسبك للمعركة معناه أن تضطر عدوك ليسلم لك موقعه.

١٢ ــ إن حصولك على جملة قليلة من الأرباح يجعلك قادراً على جمع ثروة طائلة، وإن كل المناورات التي يقوم بها القائد في الحرب، تعود بالنفع على المواقع التي يحتلها ويستخدمها قواعد للعمل منها، كما تعود بأقل خسارة على المواقع التي قد يهاجمها.

١٣ ــ لقد لاحظت أن كل الحروب التي وقعت بعيداً عن حدود بلاد أولئك الذين خاضوا غمارها، كانت أقل نجاحاً من تلك التي خاضوها على مقربة من حدود بلادهم. ألا يمكن أن يكون هذا بسبب الشعور الطبيعي لدى الإنسان بأنه أكثر عدالة عندما يدافع عن نفسه، أكثر مما يشعره عندما يسبب خسارة لجاره ؟...

١٤ ــ إن عقيداً (كولونيلاً) شجاعاً يمكن له تشكيل كتيبة من الشجعان. وإن القرار الذي يتخذه قائد برتبة عقيد (كولونيل) في لحظة حرجة، قد يؤثر في مستقبل الدولة. ومن واجب الملك أن يتأكد من توافر هذه الروح لدى هؤلاء الضباط الارستقراطيين النبلاء.

١٥ ــ إن حرباً لابد لها وأن تنهك موارد بروسيا، وتحطم الانضباط الرائع الذي يميز الجندي البروسي. هذا إذا كانت مثل هذه الحرب طويلة. وهذا ما يجب على بروسيا تجنبه.

١٦ ــ يخدع القائد نفسه عندما يفكر بأنه يستطيع إدارة حرب دفاعية بصورة جيدة. وأن يبقى سلبياً طوال الحملة، دون أن ينتفع بقوى المبادأة والابتكار. إن مثل هذا الدفاع ينتهي دائماً بطرد الجيش عن الأرض التي قصد أن يحميها.

١٧ ــ أعرف عن ثقة أن الدول الصغيرة قادرة على حماية سيادتها، والمحافظة عليها، ضد الدول الملكية الكبيرة، وذلك إذا ما وضعت هذه الدول الصغرى الصناعة والنظام في أعمالها.

١٨ ــ تتوقف نتيجة المعركة إلى حد كبير على الفرص والظروف، وهي الفرص والظروف التي تتناقض مع التقدير الحسابي الدقيق الذي يعتمد على منطق الواقع ومعطياته المادية. وإن القدرة على التخطيط الجيد وقوة القيادة لفرض الانضباط، هما عاملان لا يمكن الاعتماد عليهما في خضم الاشتباكات العنيفة والواسعة المدى. ويجب أن يلاحظ بالاضافة إلى هذا، أن أغلب القادة إنما يتجهون هذا الاتجاه تبعاً للحاجة وللافتقار إلى موارد أخرى. وليس هذا خاصة ممتازة فيهم، بل هو عادة علامة على الإجداب والقحل في مواهبهم.

١٩ ــ قد يحاول أي جندي الفرار، أو الهرب، من المعركة، أو قد يحاول مجرد محاولة لوضع قدمه خارج خط القتال. وعلى ضابط الصف الذي يقف وراءه أن يطعنه على التو برمحه

(حربته) ، وأن يقتله في مكانه . وإذا فرّ العدو فإن الخط المنتصر أو النسق الأول ، يبقى في مكانه ، ويحرم من سلب القتلى والجرحى ، وإذا فعل ذلك فإن عقوبته هي الإعدام .

٢٠ ـــ كون فريدريك جيشاً يتمتع بحب المواطنين وثقتهم ، في حين كانت المقاهي الفرنسية تضع على أبوابها لافتات كتب عليها : « يمنع دخول الكلاب والخدم والبغايا والجنود » .

٢١ ـــ تعتمد بروسيا في بناء عظمتها على قدرة الجيش البروسي ، بأكثر من اعتمادها على استناد حدودها إلى المحيط الأطلسي .

٢٢ ـــ لقد حملت الخيول على أعناقها الأوسمة والأشرطة التقديرية ، وذلك على الرغم من أن المشاة قد وصلت إلى ذروة تقدمها ، فكان حرياً بها أن تحمل تلك الأوسمة والأشرطة . وقد يكون السبب في ذلك هو عدم استخدام المشاة ، مما أظهر قوة الفرسان على أنها السلاح الجدير بالتكريم والتقدير . كما قد يكون السبب في ذلك أيضاً هو الأسلوب الخاطىء في تقويم الجندي ، هذا الأسلوب الذي يعتمد على تلميع الأحذية ، وتنظيف السلاح ، بأكثر مما يعتمد على المهارة في الميدان . وعلى هذا فقد أعطيت القيمة في التقويم إلى علبة أدوات النظافة ، وإن أي زيادة أو مبالغة في هذا التقويم ستؤدي إلى إدخال علب المساحيق وأقلام أحمر الشفاه إلى القطعات .

٢٣ ـــ ترتفع الأعمال جميعها في النهاية إلى السماء ، غير أن كل عمل منها يسلك طريقاً خاصاً به .

٢٤ ـــ يتوقع ضباطي الإفادة من أخطائي ، فليكونوا على ثقة من أنني سأبذل جهدي قدر المستطاع حتى أصحح تلك الأخطاء .

٢٥ ـــ وصلت مع شعبي إلى تفاهم متبادل ، هم يقولون ما يريدون وأنا أفعل ما أريد .

٢٦ ـــ يجب على الطامع في الحرب أن يقدر قبل كل شيء بأن التسليح والنظام العسكري متماثلان في أوروبا كلها . وأن قيام الأحلاف قد مكن من المساواة في القوة بين الأطراف المتضادة . وكل ما يمكن أن يحصل عليه الأمراء الحكام من نفع كبير في الوقت الحاضر ، هو الاستيلاء على مدينة صغيرة على الحدود ، أو قطعة من الأرض لا يمكن أن تساوي نفقات الحرب ، ولا يمكن أن يتعادل سكانها مع عدد المقاتلين الذين يهلكون في الحرب .

٢٧ ـــ هذه الرؤوس النحاسية ، رؤوس الشياطين ، التي تطلب الحرب ، وتتعطش للدماء والدمار . علينا عدم إيقاد جذوة الحرب ، والعمل على التخلص منها ، تماماً كما يتخلص الطبيب من الحمى ، وهو يعالجها ويقضي عليها .

٢٨ ـــ يحتاج السلم حتى يكون حقيقياً وواقعياً وناجحاً إلى اتفاق أوروبا كلها ، وهو أمر لا يمكن له أن يحدث ، هذا بالاضافة إلى ضرورة تحقيق بعض التفاهات المشابهة الصغرى .

٢٩ ــ علينا تركيز انتباهنا على جيش العدو ، وأن نجعل القضاء عليه هو هدفنا الأساسي .

٣٠ ــ عندما لا تكون هناك ضرورة لإهراق دم جنودك فعليك تجنب ذلك ، أما إذا فعلت فكأنك تقود جندك بلا شفقة إلى المسلخ (المذبح) .

٣١ ــ علينا بذل كل جهد ممكن للعناية بالجرحى من جنودنا ، والإهتمام بتقديم المساعدة لهم بالمقام الأول . غير أن ذلك يجب ألا ينسينا واجبنا تجاه العدو .

٣٢ ــ إنك لا تستطيع تقويم ما أنجزته من الأعمال إلا إذا عرفت ما لم يتم إنجازه منها .

٣٣ ــ علينا أن نرتدي قناع المدافعين عن المذهب اللوثري ، عندما نعلم أننا نعمل في إقليم بروتستانتي . وأن نظهر الحماسة لما يظهره الشعب من التزام بأعرافه وقوانينه الصلبة ، ما دام أن ذلك لا يتعارض ببساطة مع أهدافنا وأعمالنا . أما عندما نكون في إقليم كاثوليكي ، فعلينا ارتداء ثياب المبشرين بالاعتدال والتساهل ، مع التشديد على شتم الرهبان واحتقارهم ، باعتبارهم سبب العداء والأحقاد كلها ، فيما بين المذاهب المختلفة ، ذلك أنه على الرغم من كل مناقشات الرهبان ورجال الاكليروس ، فإنهم يتفقون جميعاً على الأمور المادية ــ الجوهرية المتعلقة بالإيمان .

٣٤ ــ يجهد الأمير للاعتناء بهندام جنوده الذين يرتدون الثياب الزرقاء الجميلة ، ويزينون قبعاتهم بالأشرطة البيضاء . ثم يبذل الجهد لتدريبهم النظام المنضم ، والدوران إلى اليمين والدوران إلى اليسار ، فكيف له بعد ذلك أن يقودهم للحرب دون أن يقنعهم بالقتال من أجل قضية مشرفة ؟ وهل يشرف هذا الأمير الذي يقود لواء أن يعمل مثله مثل قاطع الطريق ، بمجرد أن تتوافر له الفرصة ، لقيادة قطيع من الحمقى الذين يصبحون بالضرورة قتلة مأجورين ؟ وهل نسيت كوارث تلك الحرب التي ضمتهم جميعاً ، وأضافت إليهم كل تلك الجرائم ؟ إنك ترى بعد قراءة هذه السطور ، أن من واجب كل رجل يحرص ولو على القليل من كرامته وسمعته ، العمل لتجنب الحصول على الألقاب التي لا تمنح إلا لأقذر الأوغاد ، وأتفه الأنذال (من رسالة فريدريك للشاعر الفرنسي فولتير) .

٣٥ ــ لقد وجدت الامبراطوريات العظيمة ، وفي بنائها وتكوينها الكثير من العوامل الضارة ، ولكنها تستطيع البقاء فقط بسبب مواردها الكبيرة ، وبسبب القوى المتوافرة لها لحشد جموع سكانها . إن المفاسد والمؤامرات التي يزخر بها بلاط كل دولة من هذه الدول الكبيرة ، ستدمر كل الحكام الذين لا تتوافر لهم القوة والمقدرة . وهؤلاء في العادة ليسوا تواقين إلى الضرر ، ولكن هذا لا يحول بينهم وبين الاحتفاظ بجيوش كبيرة على أتم الأهبة والاستعداد للحرب .

٣٦ ــ إذا ما تم تدريب الجيش تدريباً جيداً ، فإنه سيسمح بتطبيق كل مبادىء فن القيادة إلى أقصى حد .

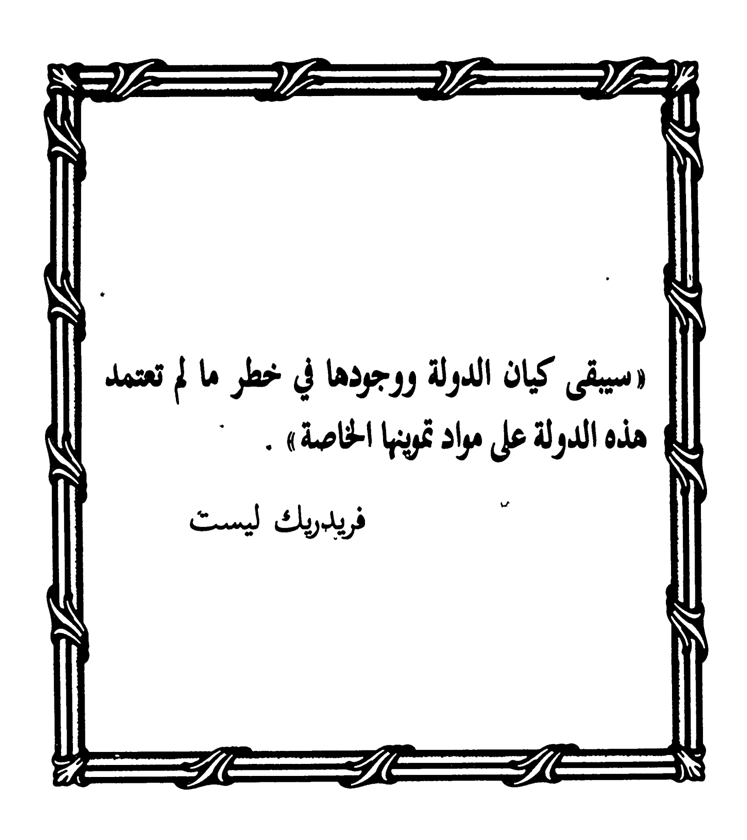
الفصل الثاني

الفكر العسكري البروسي

٢ ـ فريدريك ليست

٣ ـ شارنهورست غيرهارد جوهان دافيد

٤ ـ جينسيناو اوغست نيتهاردت



«سيبقى كيان الدولة ووجودها في خطر ما لم تعتمد هذه الدولة على مواد تموينها الخاصة» .

فريدريك ليست

الوجيز في حياة فريدريك ليســت

التاريخ	وجيز الأحداث
١٧٨٩	ولد فريدريك ليست في فرتنبورغ .
١٨١٥	درس في جامعة تونبغن ، ثم عمل مدرساً فيها (للاقتصاد والسياسة) .
١٨٢٥	أبعد عن ألمانيا بسبب آرائه المتطرفة ، وحماسته للاتحاد الجمركي بين بعض الولايات الجرمانية .
١٨٣٢	عاد إلى جرمانيا قنصلاً لأمريكا في بادن بادن .
١٨٣٤	نقل إلى ليبزيغ قنصلاً لأمريكا .
١٨٣٧	نقل إلى شتوتغارد ، في السلك القنصلي الأمريكي أيضاً .
١٨٤٦	مات منتحراً للتخلص من آلامه . ورغم الاختلاف في تقويم أفكاره وآرائه ، فقد اعتبر رائداً في الفكر الاقتصادي العسكري البروسي .

List _ Friedrich

٢ ــ فريدريك ليست

توفي فريدريك الكبير وقد حقق لبروسيا مكانة مرموقة بين دول الغرب، وأفسح المجال أمام خلفائه لمتابعة الجهد، وتفجرت الطاقات المبدعة في كل المجالات، غير أن هذه الطاقات كانت تصب في النهاية في جدول واحد، هو جدول (بناء الدولة القوية العظمى). وقد احتل فريدريك ليست، الذي ولد بعد وفاة فريدريك الكبير بثلاث سنوات، مرتبة متقدمة في تقديم نتاجه الفكري. ولم يكن فريدريك ليست عسكرياً، ولا عرف رائحة البارود، ولكنه تلمس طريقه نحو بناء مستقبل بلاده عبر مجال آخر هو مجال السياسة والاقتصاد، وقد اختار العمل في هذا المجال بعد أن رأى المستوى المنخفض للحياة في بلاده، فقرر تعليم مواطنيه أصول (**السياسة القومية التي يمكن لها النهوض برفاهية ألمانيا وقوتها وثقافتها**). وقد انتهى إلى أن مفتاح كل مشاكل ألمانيا هو في دعم مبدأ القومية. وعبر عن ذلك بقوله: «لقد رأيت بوضوح أن المنافسة الحرة بين أمتين في أعلى مستوى من المدنية، يمكن أن تكون نافعة إذا ما كانتا على درجة متقاربة من التطور الصناعي. وأن أي أمة تكون لسوء الحظ متخلفة عن غيرها في الصناعة والتجارة والملاحة، يجب عليها قبل كل شيء تنمية قواها الفردية، ودعمها حتى تعد نفسها للدخول في منافسة حرة مع الأمم الأكثر تقدماً. وقد قدرت بإيجاز الفرق بين السياسة العالمية التي لا عاطفة قومية لها[٢٧] وبين الاقتصاد السياسي. وشعرت أنه يجب على ألمانيا الغاء رسومها الداخلية، وأن تتبنى سياسة تجارية متحدة تجاه الأجانب، حتى تصل بالتطور الصناعي والتجاري إلى ذات المستوى الذي وصلته الأمم الأخرى نتيجة لسياستها التجارية».

ويظهر واضحاً اهتمام ليست، وتركيزه، على الربط بين (عامل القوة) من جهة وبين (الرفاهية والثقافة) من جهة ثانية. وكتب ليست لتدعيم فكرته هذه: «إن الأمة، أي أمة، هي مجتمع منفصل يتكون من أفراد لهم حكومة واحدة، وقوانين عامة واحدة، وحقوق ومصالح متماثلة، ولهم تاريخهم

---

(٢٧) ورد هذا الإصطلاح في الأصل الانكليزي بكلمة Cosmopolitical والتي تنقسم إلى كلمتين Cosmo وتعني العالم و Polite وتعني المواطن. والاصطلاح بكامله يعني الشيء الذي يتبع العالم كله، ولا يرتبط بالعادات المحلية أو القومية.

ومجدهم، ولهم دفاعهم الموحد، ووسيلة تأمين حقوقهم وحياتهم وثرواتهم، وهم بهذا يشكلون جسداً واحداً حراً، ويتبعون فقط السبيل الذي تمليه عليهم مصالحهم، بالنسبة لغيرهم من المجتمعات المستقلة، كما تتوافر لهم القوة لتنظيم مصالح الأفراد، حتى يمكن توفير أكبر قدر من الرفاهية والرخاء في الداخل، وأقصى ما يمكن من الأمن والسلامة من جانب الأمم الأخرى».

ويشرح ليست أفكاره بوضوح أكبر بقوله: «إن الغرض من اقتصاديات هذا الجسم الموحد الحر، ليس فقط الحصول على الثروة، على نحو ما هي الحال بالنسبة للفرد، ولا في الاقتصاد العالمي في جملته، بل القوة والثروة. لأن الثروة الأهلية تزداد وتؤمن بواسطة القوة الأهلية. كما أن القوة الأهلية تزداد وتؤمن بواسطة الثروة الأهلية. ولهذا فإن مبادئها الرئيسة ليست فقط اقتصادية بل وسياسية أيضاً. وقد تتوافر للأفراد ثروة كبيرة، ولكن إذا لم تتملك الأمة القوة لحماية مواطنيها ووقايتهم، فإنهم قد يفقدون في يوم واحد ما جمعوه في عصور طويلة، كما يفقدون أيضاً حقوقهم وحريتهم واستقلالهم.... **وهكذا، وكما يتم تأمين الثروة بالقوة، فإن الثروة تزيد من القوة. وبذلك تنتفع القوة والثروة، على قدم المساواة، من التنسيق بين الصناعة والزراعة والتجارة في داخل حدود الدولة**. ولا يمكن أن تتوافر للدولة القوة والثروة إذا لم يتوافر هذا التنسيق». ولما كانت القوة الانتاجية هي مفتاح سبيل الأمن القومي والسلامة الأهلية فقد رأى ليست: «أنه ليس من حق الحكومة، وليس من واجبها، أن تنهض وحدها بكل شيء يمكن أن يزيد من ثروة الأمة وقوتها. ولكن إذا لم يكن باستطاعة الأفراد تحقيق هذا الهدف يصبح من واجب الحكومة الاضطلاع به. وعلى سبيل المثال؛ فإن من واجب الحكومة حماية التجارة بقوة الأسطول، لأن التجار لا يستطيعون حماية أنفسهم. ومن واجب الحكومة حماية نقل التجارة بالقوانين البحرية، لأن التجارة المنقولة تعاون قوة الأسطول، كما يحمي الأسطول التجارة المنقولة. ولهذا يجب أن تدعم مصالح التجارة وصناعة السفن بكل الصناعات الأخرى، وأن تنشأ من أجلها الجسور والقنوات والخطوط الحديدية. وأن تحمي المخترعات الجديدة بإصدار القوانين التي تسجلها وتحميها. وهكذا حتى تصل إلى وجوب حماية الصناعات بواسطة فرض الضرائب الجمركية، وذلك متى كان رأس المال الأجنبي والكفايات الأجنبية تمنع وتعطل المواطنين من تولي هذه الأعمال والنهوض بها. **والثروة لا نفع لها ولا فائدة تجنى منها ما لم تتوافر معها وحدة الأمة وقوتها**. ولهذا فإن إخفاق ألمانيا في تحقيق الوحدة السياسية، أو في إيجاد سياسة تجارية موحدة قد جعلها عاجزة، ولأجيال متتالية عن الاحتفاظ بمكانتها بين الأمم، وللبقاء في الوضع الذي تستحقه من الأخذ بأسباب المدنية. ولقد وصلت ألمانيا عدة مرات إلى حافة الإنهيار الاقتصادي، نتيجة للمنافسة الحرة مع الدول الأخرى. وتبعاً لهذا، وعلى ضوء الظروف الحالية للعالم، فإنه يجب على كل أمة كبيرة أن تعمل للحصول على الضمانات التي تؤكد استمرار رخائها واستقلالها. وهي لا تصل إلى هذا إلا عن طريق تحسين مواردها بصورة مستقلة وزيادة قوتها بصورة مستمرة».

ويعود ليست لقضية الرسوم الجمركية، فيتحدث عنها بقوله: «لم تكن الرسوم الجمركية وقوانين الحماية التي وضعت لتطور مثل هذه القوى والموارد، هي وليدة عقول مخاطرة، ولا هي صورة عن التدرج الطبيعي لاختلاف المصالح وتباينها، ولا هي أيضاً ظلال صور الكفاح المرير للأمم بعد استقلالها، وبعد أن تتحرر من المؤثرات العنيفة، أو من النفوذ القوي، إنها ليست هي وليدة شيء من ذلك كله، بل إنها إذا ما حاولنا التعبير عنها بكلمات قليلة، فإنه من الممكن القول: **بأن الحرب، أو حتى احتمال الحرب، هي التي تجعل المنشآت الصناعية من ألزم الضروريات لكل أمة تقف في المرتبة الأولى بالنسبة لغيرها من الأمم**. كما أنه من الحماقة ـــ بل ومن الغباء ـــ أن تعمل أمة من الأمم في هذا العصر الحديث على تسريح جيوشها، وتدمير أسطولها، والقضاء على حصونها. ذلك لأنه يكون من الخراب المدمر أن تضع أمة سياستها الاقتصادية على أساس تقديرات غير ثابتة ولا مؤكدة، لقيام حالة سلم واستقرار وتفاهم عالمي، الأمر الذي لا وجود له إلا في عقول أصحاب مدرسة (التجارة الحرة). **إن قدرة الأمة على الاشتباك في حرب، إنما تقاس بمعيار قدرتها على الوصول إلى الثروة. ولهذا فإن كل أهداف الوحدة القومية وسياسة الحماية إنما تتلخص بحشد الإمكانات لتطوير القدرة الانتاجية**. وقد ينجم عن سياسة الحماية لبعض الوقت، ولبعض الوقت فقط، حدوث انخفاض في مستوى المعيشة، ذلك لأن الرسوم والحواجز الجمركية تؤدي إلى ارتفاع الأسعار. ولكن هؤلاء الذين يناقشون رخص أثمان البضائع الاستهلاكية، على أساس أنها وسيلة عامة لتقدير نفع التجارة الأجنبية، لا يجهدون أنفسهم ولا يعنون إلا قليلاً بالتفكير في قوة الأمة، وشرفها، ومجدها. ويجب أن يدرك هؤلاء أن الصناعات التي تحميها الدولة، إنما هي جزء أساسي من الشعب الألماني، ومن هو الذي يتعزى عن فقد ذراعه عندما يعرف أنه في سبيل هذا قد حصل على قميصه بسعر أقل بأربعين بالمائة عما كان يشتريه من قبل ؟!... لا بد لنا من أن ندرك بأنه كلما تعاظمت القدرة الانتاجية للأمة، كلما تعاظمت قدرتها الدولية، وكلما تزايدت علاقاتها بغيرها من الدول. مما يؤدي بالتالي، وفي الوقت ذاته إلى تزايد قدرتها الاستقلالية وقت الحرب. وعلى هذا فإن المبادىء والأسس الاقتصادية لا يمكن أن تنفصل عن النتائج السياسية المرتبطة بها».

لاحظ ليست تأثير العلم والتقنية على الصناعة والحرب، فكتب ما يلي: «في الوقت الذي بات فيه للعلم الفني والآلي مثل هذا التأثير الكبير على أساليب الحرب، وفي الوقت الذي ارتبطت فيه كل العمليات الحربية بالحالة الاقتصادية للدولة، وفي الوقت الذي توقف فيه الدفاع الناجح، بدرجة كبيرة على ما إذا كان أفراد الأمة في جملتهم موسرين أو فقراء، موفوري الذكاء أو بالغي الغباء، نشيطين أو متكاسلين، وعندما يكون ولاء الأفراد متجهاً كله إلى الوطن الأم، أو متجهاً بعضه إلى الدول الأجنبية، وعندما تتباين القدرة على إعداد الأفراد للدفاع عن البلاد بين الكثرة والقلة، في مثل هذا الوقت الذي هذه هي صفاته، يجب أن تقدر الصناعات من وجهة النظر السياسية.

إن حال الأمم اليوم إنما هي نتيجة تجمع كل الاختراعات والمكتشفات والتطورات التي جاءت بها الأجيال السابقة. وإذا ما تم النظر إلى كل أمة وحدها، فإنه بالمستطاع اعتبارها منتجة فقط في الناحية التي عرفت كيف تنتفع بما جاءت به الأجيال السابقة فيها، ثم زادت من هذا بإمكاناتها الخاصة. هذه الإمكانات التي يمكن تطويرها، بما يتوافر في أرضها من الموارد، وما لموقعها الجغرافي من أهمية، **ثم أن تزيد بعد هذا مما يتوافر لها داخل حدودها من سكان وثروة وقوة سياسية، وأن تبسط نفوذها السياسي والتجاري والثقافي، على غيرها من الأمم التي تقل عنها تقدماً وحضارة، وعلى الأخص في الشؤون ذات الصبغة العالمية.**

لقد كانت هذه الآراء والمعتقدات هي التمهيد الفكري لسياسة التوسع الاقليمي سواء في قارة أوروبا ذاتها أو في مجال ما وراء البحار. وكان لِيْست في الواقع من الدعاة لإقامة دولة ألمانية متحدة، تمتد من الراين حتى الفستولا، ومن البلقان حتى البلطيق. وكان ذلك تعبيراً عما يعتقده من أن أسس البناء المعنوي للأمة، مع ما يرافق ذلك من تطور ثقافي ونهضة علمية فنية، بل ان أساس التطور الاقتصادي والقوة السياسية الملازمة له، إنما يكمن بما هو متوافر لهذه الأمة القوية بوفرة عدد سكانها، وباتساع حدودها الجغرافية، وبمواردها الطبيعية المختلفة والثابتة. هذا في حين لا تتوافر للأمة المحدودة في عدد سكانها، وبمساحتها الجغرافية، الفرصة لامتلاك آداب مميزة وثقافة خاصة بها أو مؤسسات للنهوض بالفنون والعلوم. كما لا يمكن للأمة الصغيرة أن تزيد من تطوير مواردها الانتاجية المختلفة إلى أقصى مدى لهذا التطور. **ومن هنا كانت الأمم الصغرى عاجزة عن الاحتفاظ باستقلالها إلا بصعوبة كبيرة. إلا أنها تستطيع العيش بالتحالف مع الدول الكبرى، الأمر الذي يفرض عليها التضحية بسيادتها القومية.**

وضع ليست برنامجاً مقترحاً لإقامة ألمانيا الكبرى في إطار مفهومه (للمجال الحيوي). وتضمن هذا البرنامج المقترح ضم الدانمارك، وهولندا، وسويسرا، وبلجيكا لألمانيا المتحدة، وقد بنى هذا بالنسبة للدول الثلاث الأولى، على أساس الجنس واللغة وعلى أساس الاقتصاد والاستراتيجية. كما أن الحاجة ملحة إلى الدانمارك وبلجيكا وهولندا، حتى تستطيع ألمانيا السيطرة على مصاب الأنهار الألمانية مع الساحل البحري، من مصب الراين إلى بروسيا الشرقية. ويضمن هذا للأمة الألمانية ما تحتاجه من مصائد للأسماك، ومن قواعد للأسطول، ومراكز للتجارة البحرية، ومنافذ للمستعمرات. كما أن ضم هذه الدول الثلاث، مضافاً إليها سويسرا، يضمن لألمانيا حدوداً طبيعية من البحار والجبال. وهذا أمر ضروري من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ويجب على ألمانيا أيضاً القيام بالتسرب السلمي في أرض الدانوب، وفي القسم الأوروبي من تركيا. وهذه المناطق هي الحدود الطبيعية لألمانيا. ثم إنه من مصلحتها أن يتوافر الأمن والنظام في هذه المناطق. ذلك أنه لأمر أكثر فائدة لألمانيا أن يهاجروا " الدانوب، بدلاً من الهجرة إلى بحيرة ايريه في بنسلفانيا. وتنفيذاً لهذا

البرنامج المقترح، فإنه يجب أن يتوافر للأمة ما يكفي من القوة والقدرة، للتأثير في حضارة الأمم الأقل تقدماً. ويجب أن تستطيع الإفادة من الزيادة في تعداد سكانها، وبالفائض في رأس المال المادي والمعنوي، والذي ينصرف من هذه الأمم إلى أمم أخرى تتوافر فيها إمكانات العمل، فإن كل هذه الزيادة تضيع على الأمة الأصلية، وتتحول إلى فائدة القوميات الأخرى. **وهذه حقيقة واضحة لا شك فيها بالنسبة للهجرة الألمانية إلى الولايات المتحدة. فأي نفع إذا ما توافر الرخاء بدرجة كبيرة للمهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية ؟!.. إنهم من ناحية العلاقات الشخصية يعتبرون قد فقدوا القومية الألمانية تماماً. ولا تحصل ألمانيا من انتاجهم المادي إلا الثمار التي لا أهمية لها. إن من الخطل أن يظن الناس بأن اللغة الألمانية تظل هي لغة الألمان الذين ينتقلون للعيش في الولايات المتحدة، أو أنه من الممكن بعد وقت ما إقامة ولايات ألمانية هناك.** وبالتالي، فلا مندوحة من أن يكون لألمانيا مستعمرات خاصة بها في جنوبي ــ شرقي أوروبا، وفي الأمريكيتين الوسطى والجنوبية، وأن تدعم هذه المستعمرات بكل موارد الأمة، بما في ذلك تنظيم شركات استعمارية قوية، مع تنظيم جهاز قنصلي وديبلوماسي قوي. ذلك أنه من المحال تنفيذ مثل هذا البرنامج التوسعي في القارة الأوروبية، وفي مستعمرات ما وراء البحار، إلا عن طريق الحرب. وقد يجيء المستقبل بحروب قومية، تسمح بتعبئة الموارد المعنوية للأمة الألمانية، ودعم الاقتصاد الوطني.

لقد كانت انكلترا هي الدولة الأوروبية التي يمكن لها مجابهة الأطماع الألمانية وإحباطها. وقد عملت انكلترا على إقامة توازن في القوى، وعبأت إمكانات الدول الأقل قوة، حتى تقف في وجه أي تدخل من جانب الدول الكبرى في أراضيها وشؤونها. وبذلك استطاعت بريطانيا العظمى البقاء بمنجاة من أي تهديد، ضد مصالحها الاستعمارية، واحتفظت بمواقعها، بفضل تطورها الصناعي. وعلى هذا، فقد رأى ليست بأنه إذا ما أرادت الدول الأوروبية الأخرى القيام بدورها لزراعة الأراضي المهملة، وتمدين الشعوب المتبربرة (المتخلفة) أو الشعوب التي كانت متمدينة يوماً ما ثم انحدرت إلى هوة التخلف، فإنها يجب أن تبدأ بتطوير قدراتها الصناعية الداخلية، مع تطوير تجارتها البحرية وأسطولها البحري، ثم تتحد معاً لدعم سيادتها الصناعية والتجارية والبحرية وبذلك تستطيع مجابهة انكلترا، التي وقفت كالجلمود الصخري الضخم، وهي تسد الطرق البحرية للعالم، جاعلة من الصعب على أية أمة أخرى الحصول على القوة البحرية الضرورية لتحقيق أهدافها. لقد تملكت بريطانيا مفتاح كل بحر، ووضعت حارساً على كل أمة، فعلى الألمان هيلوجولاند، وعلى الفرنسيين غيرنسي وغيرسي، وعلى سكان أمريكا الشمالية وضعت نوفاسكوتيا وجزر برمودا. ووضعت أيضاً على أمريكا الوسطى جزيرة جامايكا. وكذلك فقد وضعت على كل الدول المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط جبل طارق ومالطة وجزر الايونيان. فامتلكت كل المواقع الاستراتيجية على طريقي الهند. إنها تسيطر على البحر الأبيض المتوسط بجبل طارق، وتسيطر على البحر الأحمر بعدن، وتسيطر على

الخليج العربي ببوشير وكراتشي. ولا تستطيع أي أمة أن تنجح في تهديد بريطانيا وذلك لقوتها التجارية وقدرتها البحرية العظيمة، ونفوذها الاستعماري، اللهم إلا إذا حصلت على مساعدة كبيرة من الأمم الأخرى. وتستطيع الدول التي هي أقل قدرة بحرية من انكلترا، أن تقف معها على قدم المساواة، إذا ما أمكن لها تجميع قدراتها البحرية معاً وحشدها في مجموعة واحدة. ولما كانت لكل أمة من هذه الأمم مصلحة في صيانة وحماية القوى البحرية للأمم الأخرى، فإنه يجب عليها العمل معاً لتشكيل قدرة بحرية متحدة، هادفة فيما تهدف إليه، منع هذه السيطرة البحرية الانكليزية على الطرق البحرية العالمية، وبصورة خاصة منها السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. ومن الحكمة أن تعمل دول القارة الأوروبية، على تكوين كتلة أوروبية هدفها وقف قوة بريطانيا عند حدها، وتجنب الحروب التي تدور في قلب القارة الأوروبية. وقد أكّد تاريخ القرن الثامن عشر أن كل حرب قد أثارتها دول القارة، بعضها ضد بعض، قد أدت لنتيجة واحدة، وهي زيادة قدرة الصناعة البريطانية، وزيادة ثروتها وقدرتها البحرية، وامتلاكها للمزيد من المستعمرات.

تطلع ليست ببصره نحو أفق المستقبل، فرأى أن العلم الذي سيخفق هو العلم ذو الأشرطة والنجوم (العلم الأمريكي) وليس العلم البريطاني الذي يخفق على البحار. فقال مقولته: «إن الأسباب التي رفعت بريطانيا العظمى إلى مكانتها الحالية، هي الأسباب ذاتها التي سترفع من مكانة الولايات المتحدة، وقد يتم ذلك في القرن التالي. وستمتلك الولايات المتحدة من الصناعة والثروة والقوة، ما يزيد على ما تمتلكه بريطانيا حالياً. وسيكون الفرق بين الولايات المتحدة وبريطانيا يومذاك أكبر من الفرق بين بريطانيا وهولندا الصغيرة اليوم. وسيزداد مع الأيام تعداد سكان الولايات المتحدة إلى مئات الملايين. وستنشر الولايات المتحدة معاهدها وتعليمها وحضارتها في الأمريكيتين الوسطى والجنوبية، كما انتشر هذا كله الآن في المكسيك — الأرض التي تجاورها تماماً — وسيتمكن مئات الملايين الذين يسكنونها من تحسين موارد القارة الأمريكية، هذه الموارد التي تزيد بدرجة كبيرة عما في قارة أوروبا من موارد الثروة الطبيعية. وستتفوق القدرة البحرية للعالم الغربي كذلك على بحرية بريطانيا بذات الدرجة، التي تزيد بها سواحل وأنهار العالم الجديد على سواحل بريطانيا وأنهارها في الطول والامكانات. **وهكذا فإن الحاجة التي تفرض الآن على الألمان والفرنسيين ضرورة تكوين تحالف قاري ضد السيادة البريطانية، ستفرض هذه الحاجة ذاتها على الانكليز في المستقبل غير البعيد بضرورة إنشاء اتحاد أوروبي ضد السيادة الأمريكية. وهكذا تضطر بريطانيا أن تتلمس، وأن تجد، في قيادة القوى المتحدة في أوروبا ما تحتاجه من الأمن والوقاية ضد سيطرة أمريكا**. وستجد في هذا ما يعوضها عن سيادتها التي تكون قد فقدتها. ولهذا فإن من صالح انكلترا أن تعمل لاكتساب صداقة الدول الأوروبية، وأن تعتمد على أن تكون الدولة الأولى في وسط مجموعة من الدول، تقف بعضها مع بعض موقف المساواة».

هكذا، وببساطة متناهية، قرر فريدريك ليست بأن سيادة بريطانيا على البحار ليست سيادة ثابتة ولا دائمة، ليس ذلك فحسب، بل إنه توقع أيضاً قيام اتحاد بين الشعوب اللاتينية والسلافية، عن طريق حلف فرنسي — روسي. وآمن بأن بريطانيا وألمانيا يجب أن تعملا للموازنة ضد مثل هذا الارتباط، بأن تتوليا قيادة الشعوب الألمانية. واستخلص ليست بأن القوة المتحدة والتي تكونها روسيا وفرنسا معاً ستهدد مصالح بريطانيا في أوروبا والشرق، وأنها ستعمل على تدمير ألمانيا. وعلى هذا فإن اتحاد ألمانيا وبريطانيا معاً هو الذي سيمكن بريطانيا من استثمار القوة البرية الألمانية في القارة الأوروبية. كما أن ألمانيا ستثمر بدورها القدرة الانكليزية لتأمين إمداداتها. وكل ما تطلبه ألمانيا من بريطانيا هو أن تتفهم مصالحها، وأن تعاونها في فرض ضريبة معتدلة وقائية، لحماية ألمانيا المتحدة، الأمر الذي بدا لليست أنه ثمن صغير تدفعه بريطانيا من أجل الصداقة الألمانية. وإذا كان هذا الهدف سيصطدم بمقاومة أصحاب رؤوس الأموال التي تستغل في الصناعة الانكليزية، فإنه من الضروري أن تدرك بريطانيا الحقيقة الأكثر أهمية، وهي أن مركزها العالمي سيتزايد ثباتاً.

○

أظهر فريدريك ليست اهتماماً كبيراً بتنظيم شبكات الخطوط الحديدية في ألمانيا، وخصص لها أكثر من مجلدين في أبحاثه ودراساته، وذلك على أساس أنها هي التي تتجمع في تنظيم أهلي وطني، لتكون واحدة من القوى التي تدعم الوحدة الألمانية، والتي سيكون لها تأثير اقتصادي كبير على الحياة في ألمانيا، علاوة على ما لها من تأثير استراتيجي كبير. ومما ذكره فريدريك ليست في هذا المجال: «لقد كان الموقف الاستراتيجي لألمانيا أضعف المواقف في قارة أوروبا. وتبعاً لهذا كانت هي ميدان القتال التقليدي لأوروبا. وإن الخطوط الحديدية هي التي ستعدل هذا الموقف، إذ أنها ستجعل من موقع ألمانيا الجغرافي، مصدر قوة، بدلاً من كونه العامل الأساسي لضعفها العسكري. وستتحول ألمانيا بفضل شبكة الخطوط الحديدية إلى موقع دفاعي حصين في قلب القارة الأوروبية. وستصبح سرعة التعبئة، وسرعة نقل الجنود، من وسط ألمانيا إلى أي منطقة على حدودها المختلفة، ذات فائدة كبيرة لألمانيا، بأكثر مما تستفيده أية دولة أوروبية أخرى. هذا فضلاً عما للخطوط الحديدية من فائدة كبيرة».

«إن شبكة جديدة من الخطوط الحديدية، ستحول كل الأرض الألمانية إلى حصن قوي كبير، يمكن الدفاع عنه بواسطة الكتلة البشرية التي تعيش فيها بأقل النفقات، وبالحد الأدنى من الاضطراب في الحياة الاقتصادية للبلاد. وسيساعد ذلك على إعادة الجنود إلى بلادهم بذات السهولة. وسيتمكن جيش ألمانيا المتحدة في حالة الغزو، من الانتقال من أي مكان في داخل

البلاد، إلى أي موقع على الحدود، بسرعة تزيد من القدرة الدفاعية للبلاد. وبذلك يمكن إيقاف عمليات الغزو، التي استمرت طوال المائتي سنة الماضية. وإذا كان هذا سيجعل ألمانيا أقوى عشر مرات في الدفاع، فسيجعلها أيضاً أقوى عشر مرات في الهجوم، إذا ما قامت بحرب هجومية. ولو أن هذه الحرب الهجومية غير متوقعة من جانب ألمانيا ؟!».

«إن كل ميل من الخطوط الحديدية تمده قبلنا أي دولة مجاورة، يعطيها أفضلية علينا ولذلك من الضروري أن نقرر بسرعة، ما إذا كنا سنستخدم الأسلحة الدفاعية التي جاءتنا، عن طريق التقدم الفني المتواصل، أم نظل كما نحن ؟ وكما ترك لجيل الآباء الأولين أن يقرروا ما إذا كانوا سيستخدمون البنادق، أم يحتفظون بأسلحتهم المتوارثة، وهي القوس والسهم».

لقد كان فريدريك ليست هو صاحب فكرة الخط الحديدي إلى بغداد. وقد اقترح في مشروعه للحلف البريطاني ــ الألماني أن تدعم مواصلات بريطانيا إلى الهند والشرق الأقصى، بواسطة شبكة من الخطوط الحديدية التي تصل ما بين القنال الانكليزي وبحر العرب. وقد كتب أن النيل والبحر الأحمر يمكن أن يكونا قريبين جداً من الجزر البريطانية. وأن يكون الطريق إلى بومباي وكالكوتا سهلاً وميسوراً، مثل الطريق إلى لشبونة وقادس. ويمكن أن يدعم هذا بمد شبكة الخطوط الحديدية البلجيكية ــ الألمانية إلى البندقية، ثم عن طريق البلقان والأناضول إلى وادي الفرات، والخليج العربي، فإلى بومباي. وأن يتجه خط فرعي عبر سوريا ليربط الخط الرئيسي مع القاهرة والسودان، وعلى أن يسير خط للمواصلات البرقية موازياً للخط الحديدي. ويصبح مركز رئيس الوزراء البريطاني في داوننغ ستريت بلندن على اتصال مباشر بجزر الهند الشرقية. وأن ضمان الأمن السياسي للأراضي التي ستمر عبرها هذه الخطوط الحديدية المقترحة، يفرض على ألمانيا وبريطانيا الدخول في تحالف إيجابي، يتم فيه تحديد مناطق مصالحهما. كما أن امتداد حكم ألمانيا إلى القسم الأوروبي من تركيا بكامله، هو الذي سيمنع أي دولة معادية لبريطانيا من تعطيل مواصلاتها مع الهند والشرق الأقصى. وإن الملايين السبعين أو الثمانين من الألمان، سيتمكنون من ضمان هذا الموقف. وعلى بريطانيا من جانب آخر، أن تسيطر على كل آسيا الصغرى، ومصر، ووسط آسيا والهند، وهذه كلها منطقة فسيحة أكثر من أن توازن التهديد الذي ستجيء به قوة العالم الأمريكي.

لقد كان مشروع فريدريك ليست لسيطرة ألمانيا على القسم الأوروبي من تركيا مرتبطاً بمشروع الهجرة الألمانية الواسعة، إلى مناطق الدانوب والبلقان. وكذلك فإن مخططاته لتنظيم شبكة الخطوط الحديدية، قد ارتبطت بإقامة ألمانيا الكبرى الموحدة. وقد كتب عن ذلك: «إن شبكة الخطوط الكبرى الحديدية، والضرائب الجمركية هما التوأمان السياحيان: يولدان معاً ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً بروح واحدة، ويدعم كل منهما الآخر، ويتجهان إلى ذات الهدف العظيم، ألا وهو توحيد القبائل الألمانية في آمة ألمانية قوية موفورة الثروة. ولا يمكن دون الضرائب الجمركية حتى مناقشة

الخطوط الحديدية الألمانية، فضلاً عن إنشائها. وسيمكن بمعاونة الخطوط الحديدية الألمانية وحدها أن يتقدم الاقتصاد الاجتماعي للألمان حتى الذروة. وعن طريق هذه العظمة القومية وحدها يمكن لشبكة الخطوط الحديدية أن تحقق إمكاناتها كاملة».

○

لقد حاول فريدريك ليست نقل مشاريعه ومخططاته من النظرية إلى التطبيق، فارتحل إلى بريطانيا على أمل التمهيد لإقامة حلف ألماني ــ بريطاني، وحمل معه مذكرة طويلة عن هذا الحلف، قدمها إلى البرنس آلبرت، وإلى السير روبرت بيل رئيس الوزراء إذ ذاك، وإلى اللورد كلارندون وزير خارجية بريطانيا يومذاك، كما قدم نسخة من مذكرته لملك بروسيا. وقد لقي ليست تشجيعاً من سفير بروسيا في لندن دي بنسين بل ومن بعض الدوائر البريطانية أيضاً. ولكن بيل لم يقبل الفكرة، وهكذا رجع ليست إلى ألمانيا في الخريف وهو معتل الصحة، متهدم القوى، محطم الروح المعنوية، وعلى حافة المرحلة التي أدت إلى انتحاره يوم ٣٠ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ سنة ١٨٤٦.

لقد مات ليست، وذلك بعد أن قضى حياته في صراع مرير لنشر أفكاره وآرائه، وحظي بتقدير كبير في أمريكا، وبتقدير خاص من الرئيس الأمريكي اندرو جاكسون[٢٨]. غير أن مشاريعه لم تظهر إلى النور في حياته، كما أن بلاده ألمانيا لم تنتفع بما قدمه لها من المشاريع وما وضعه لها من المخططات، التي أفرغ جهد حياته في صياغتها ووضعها.

لقد كان أمام ألمانيا طريق شاق وطويل حتى تصل إلى ما تمناه لها فريدريك ليست. ولقد ظهرت باكورة ثمار الجهود التي بذلها ليست في حياته بعد سنتين من وفاته، عندما اجتاح لهيب الثورة بلاد ألمانيا. وكان هذا ميلاد الأمل حتى يشكل الشعب الألماني دولة ديموقراطية تحت إدارة متحررة، وهو أمر كان ليست يبشر به ويدعو له، إذ كان مؤمناً بحكومة دستورية حرة، من الطبقة الوسطى مع ضمانات كافية لحرية الأفراد. ولكن ثورة عام ١٨٤٨ م أخفقت، وأفسحت الطريق لسياسة الدم والحديد، ذلك أن أكثر المواطنين الألمان كانوا محافظين، وقد قبلوا تعاليم ليست الاقتصادية، إلا أنهم رفضوا في الوقت ذاته نصائحه السياسية عن (التحرر وحقوق الفرد). كما أن

---

(٢٨) أندرو جاكسون: Jackson - Andrew ولد في واكسهو Waxhaw في كارولينا الشمالية ١٧٦٧ ــ ١٨٤٥، أصبح رئيساً للولايات المتحدة ١٨٢٩ و ١٨٣٧، وقد صوت الناخبون لجاكسون على أساس أن اختياره هو نصر للرجل الأمين ضد جماعة الارستقراطيين والسياسيين الفاسدين. وقد عمل أندرو جاكسون على تعيين ليست قنصلاً لأمريكا في ألمانيا ــ بلده التي أبعدته ــ وعمل ليست وهو في أمريكا على تحرير مجلة ريدنغ آدلر الاقتصادية، كما عمل رئيساً لكلية لافاييت، مما أفسح المجال له للتعرف على كبار الصناعيين، في بنسلفانيا خاصة. وحظي باحترام السياسيين الأمريكيين ممن عرفهم.

عدداً كبيراً من رجال الصناعة الألمانية ــ بغض النظر عن الآراء السياسية أو القومية ــ قدروا ما لمسوه من فائدة في مشاريع ليست. ولكن ما إن مضى جيل على وفاة ليست، حتى ازداد تيار تمجيد القومية الألمانية قوة، وقبلت كافة الآراء التي جادل ليست من أجلها طويلاً. وفي العام ١٨٨٠، كانت الحكومة الألمانية تحت القيادة الأسمية لبسمارك تسير بقدم ثابتة في الطريق الاقتصادي الذي حدده فريدريك ليست. والحقيقة هي أن بسمارك وخلفاءه قد ساروا شوطاً أبعد مما كان باستطاعة ليست أن يسيره، على اتجاه القومية الاقتصادية، والكفاية الاقتصادية الذاتية. لقد كان ليست يعارض دائماً فرض رسوم على الواردات من المواد الغذائية، ولكن النظام الجمركي الألماني في تطوره، طوال حكم الامبراطورية استهدف، بصورة عامة، حماية ملاك الأراضي اليونكرز ورجال الصناعة، الذين كانوا يقفون جنباً إلى جنب، متعاونين في الاقتصاد القومي، وفي سياسة الجندية والبحرية والاستعمار. ولربما كان ليست قد فكر في فرض رسوم جمركية على الحبوب. ولكن من الصعب أنه كان يعترض على روح وأغراض خطاب المستشار كابريفي في الرايخستاغ يوم ١٠ كانون الأول ــ ديسمبر ــ سنة ١٨٩١ عندما قال:

«إن كيان الدولة ووجودها سيكونان في خطر عندما لا تكون في موقف يمكنها من الاعتماد على مواد تموينها الخاصة، وأعتقد جازماً أننا لا نستطيع العيش إن لم ننتج من القمح لما يكفينا في حالة الطوارىء، أي في حالة الحرب، من أجل تأمين الطعام لمواطنينا الذين يتزايدون. وأعتقد بأن السياسة الحكيمة لألمانيا هي أن تعتمد على زراعتها الخاصة، أكثر من اعتمادها على تقديرات غير موثوق بها، لمساعدات من طرف ثالث في حالة الحرب. إن اعتقادي الذي لا أتردد في التمسك به هو أنه في حال أي حرب قادمة، ستمارس تغذية الجيش والشعب دوراً حاسماً فيها». وقد وضع الكثير من اتجاهات السياسة الاقتصادية للرايخ الثاني[٢٩] على أساس الحقيقة التي لا شك فيها: وهي أن ألمانيا ستشتبك عاجلاً أم آجلاً في حرب لتدافع عن كيانها، ولتحتل لنفسها مكاناً لائقاً بها تحت الشمس. واستعداداً لمثل هذه الحرب فقد اعتقد القادة الألمان اعتقاداً ثابتاً بأنه يجب عليهم الاعتماد على قدرات ألمانيا، أكثر من اعتمادهم على النوايا الطيبة لجيرانهم، وأكبر من اعتمادهم على ارتباطاتهم غير الثابتة مع عالم ما وراء البحار.

هكذا، وضع فريدريك ليست أسس الأفكار الرئيسة (للعقيدة الألمانية) و (للاشتراكية

(٢٩) يقسم التاريخ لألمانيا (الرايخ) كما يلي: الرايخ الأول: الامبراطورية الرومانية المقدسة منذ انشائها في القرن التاسع الميلادي إلى انتهائها سنة ١٨٠٦. ثم الرايخ الثاني: وهو عصر الامبراطورية الألمانية من العام ١٨٧١ حتى العام ١٩١٩. ثم جمهورية الويمر: وهي الجمهورية الألمانية من العام ١٩١٩ حتى العام ١٩٣٣. ثم الرايخ الثالث: وهي الدولة الألمانية من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٥.

القومية ــ النازية)[٣٠] مثل: (المجال الحيوي) و (التوسع الاستعماري) و (عدم أبدية الحدود) و (ضرورة ارتباط المهاجرين بوطنهم الأصلي في ألمانيا) و (الرغبة في تكوين كتلة في قارة أوروبا ضد القوة الانكليزية ــ الأمريكية).

لقد اعتبر فريدريك ليست بأنه منظر استراتيجي عالمي، ولو أن أبحاثه قد تركزت على معالجة القضية الألمانية، واعتبر من كبار المفكرين العسكريين، ولو أنه لم يعرف حياة الجندية. لقد نظر إلى ألمانيا من خلال (السياسة والاقتصاد)، فعرف الاستراتيجية بكامل أبعادها، وعرف العسكرية بعمق متطلباتها واحتياجاتها. وقد أفاد يقيناً من معاناته، ومن تجربته في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أفاد من كتابات الاقتصاديين الذين عرفهم العالم بنظرياتهم وآرائهم من أمثال آدم سميث والكسندر هاملتون. ولكن رغم ذلك، فإن فريدريك ليست يبقى نموذجاً فكرياً مختلفاً عمن سبقوه أو تبعوه. ولقد نالت أبحاثه ودراساته ومخططاته شهرة واسعة، إذ برزت واقعاً حقيقياً، سواء من خلال أعمال القادة الألمان، أو من خلال ما تحقق من توقعات مثل: زوال شمس الامبراطورية البريطانية، وإشراقة شمس الولايات المتحدة الأمريكية، وتكتل أوروبا ضد أمريكا، إلا أن هذا التكتل بقي تحت جناح أمريكا بسبب التوسع السوفييتي.

ترى ماذا كان سيصبح عليه العالم لو تحقق ما أراده ليست من تحالف بريطاني ــ ألماني؟ ليس بالمستطاع الإجابة على الافتراضات بافتراضات مماثلة، أخذت على أرض الواقع شكلاً مغايراً. ولقد انتهت كثير من افتراضات فريدريك ليست إلى مصير قاتم. غير أن افتراضات أخرى لازالت تحتفظ بكامل قيمتها وأهميتها وفائدتها.

---

(٣٠) لقد اعتبر فريدريك ليست في نظر الكثيرين من دعاة التوسع الألماني، وفي نظر النازيين بصورة خاصة، بمثابة القديس الذي يحمي الدولة. وقد ظهرت هذه الحقيقة في كثير من الأعمال الفكرية والأدبية. ومنها ما كتبه كارل كويمان ــ طبع توبنجن عام ١٩٤٦ تحت عنوان: (فريدريك ليست مبشر ألمانيا الحديثة **Friedrich List Als Prophet Des Neuen Deut Schland**)، كما يمكن الرجوع إلى الرواية التي كتبها وولتر فون مولو ــ طبع برلين وفيينا وليبزيغ سنة ١٩٣١ تحت عنوان: (ألماني ليس ألماني الجنسية. **Ein Deutscher Ohne Deutschland**) وقد عمد فون مولو في سرده لحياة فريدريك ليست على ما تركه من تأثير في أندرو جاكسون وفون مولتكه وسواه من القادة الألمان.

٣ ــ فون شارنهورست غيرهارد جوهان دافيد
١٧٥٥ ــ ١٨١٣ م

الوجيز في حياة فون شارنهورست غيرهارد جوهان دافيد

التاريخ	وجيز الأحداث
١٧٥٥	ولد شارنهورست بالقرب من مدينة هانوفر .
١٧٩٣	التحق في خدمة الجيش الهانوفري ــ الانكليزي .
١٨٠١	انضم إلى الجيش البروسي ، وعين مدرساً في الكلية الحربية .
١٨٠٤	أصبح مديراً للكلية الحربية .
١٨٠٦	عين رئيساً لهيئة الأركان في برونزويك .
١٨٠٦	خاض معركة اورستيدت (رئيساً لهيئة أركان بلوخر) .
١٨٠٧	تولى قيادة الفيلق البروسي في معركة ايلو .
١٨٠٧	أصبح رئيساً للهيئة العسكرية المكلفة بإعادة تنظيم الجيش البروسي .
١٨٠٩	عين وزيراً للحرب في بروسيا ، إضافة لعمله رئيساً لهيئة الأركان .
١٨١٠	عزل عن منصبه بضغط من نابليون على ملك بروسيا .
١٨١١	عين رئيساً لهيئة الإصلاح التكتيكية ، مما مكنه من متابعة تأثيره في الجيش البروسي .
١٨١٣	أصيب بجراح قاتلة في معركة لوتزن في ٢ أيار ــ مايو ــ فتوفي يوم ٢٨ حزيران ــ يونيو ــ واشتهر بأنه من كبار المصلحين ، ومن قادة الفكر العسكري .

Von Scharnhorst , Gerhard Johann David

٤ ــ فون جنيسناو اوغست نيتهاردت

١٧٦٠ ــ ١٨٣٦ م

الوجيز في حياة فون جنيسناو اوغست نيتهاردت

التاريخ	وجيز الأحداث
١٧٦٠	ولد جنيسناو في ساكسونيا .
١٧٧٨	خاض حرب الوراثة البافارية ضد بروسيا .
١٧٨٢	عمل مع القوات البريطانية في الأيام الأخيرة للثورة الأمريكية .
١٧٨٣	انضم إلى الجيش البروسي .
١٨٠٦	اشترك في حملة اورستيدت .
١٨٠٧	عين جنيسناو في الهيئة العسكرية البروسية المكلفة بإعادة تنظيم الجيش تحت رئاسة شارنهورست .
١٨٠٨	رفع جنيسناو مخططه إلى الامبراطور فريدريك غليوم الثالث لاستئناف الحرب ضد فرنسا لطردها من بروسيا .
١٨٠٩	حاول تنظيم لواء (بروسيا الحرة) لمحاربة النمساويين .
١٨١١	رفع مذكرة للامبراطور طلب فيها إجراء التعبئة العامة .
١٨١٣	ترك الجيش البروسي احتجاجاً على تحالف الامبراطور البروسي مع نابليون ، ثم عمل في هيئة أركان بلوخر ، ولم يلبث أن خلف شارنهورست .
١٨١٣	اعتمد بلوخر اعتماداً كبيراً على جنيسناو في معارك بوتزن وكاتزباك وليبزيغ ، ضد نابليون بونابرت .
١٨١٤	اشترك جنيسناو في الحملة على فرنسا .
١٨١٥	اشترك في معركتي ليني ، وواترلو .
	انصرف إلى الكتابة العسكرية ، واعتبر من كبار المصلحين والمفكرين العسكريين .

Von Gneisenau August Neithardt

٣ ـ شارنهورست غيرهارد ٤ ـ فون جنيسناو

ما ذكر أحدهما إلا وذكر الآخر، حتى كأنهما شخص واحد في ثوبين، أو حتى كأنهما شخص واحد يحمل اسمين مختلفين. لقد خلقا من نسيج واحد، وعملا معاً بتفاهم تام وتكامل غريب رغم الاختلاف في نشأتهما والتباعد في موطن ولادتهما. انحدر أولهما شارنهورست من أسرة هانوفرية، بينما انحدر الآخر جنيسناو من أسرة نمساوية. فلم يكونا بروسيين لا في موطن ولادتهما ولا في نشأتهما، ورغم ذلك فقد قدما للجيش البروسي خدمات قصر عن تقديمها الآخرون. ولقد قدر للقائدين شارنهورست وجنيسناو أن يعيشا فترة الأحداث العاصفة التي اجتاحت أوروبا بانفجار الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية التي أعقبتها. فعكفا على دراسة التجربة التي كانت تقع أحداثها تحت بصرهما وسمعهما، وانصرفا للبحث والدراسة لزيادة نصيبهما من الثقافة العسكرية ومن العلم العسكري. في حين انتاب الجمود وهيمن الذهول على الآخرين من القادة فوقفوا في حالة من الجمود، ولم يتمكنوا من متابعة الأحداث المتفجرة من حولهم، وإدراك الأسباب العميقة للتحولات التي طرأت على فن الحرب.

كان شارنهورست خلال المرحلة الأولى من الثورة الفرنسية يعمل في تحرير إحدى الصحف الألمانية، وينشر دراسات قصيرة عن حوادث الحرب وعن التطورات الجديدة. وقد أتاح له عمله هذا إدراك عمق الثورة التي هزت الأسس التقليدية لفن الحرب. أما قرينُه جنيسناو فكان قد التحق بالحرب الأهلية الأمريكية، واستخلص من تجربته العملية فيها بعض الأفكار الهامة ووجهات النظر القيمة، عن الجنود المواطنين (جيش الأهلين)، وعن تشكيلات القتال، والتقنيات الحديثة، فلما عاد إلى بروسيا وعين قائداً في حامية إحدى مدن سيليزيا، انصرف إلى تطبيق التجارب التي جاء بها من أمريكا في تنظيم الجنود وتدريبهم. ولهذا فإنه لم يباغت بما حملته الثورة الفرنسية من تطورات، وعبر عن رأيه بقوله:

«هناك سبب واحد يتجاوز في أهميته كل ماعداه، وهذا السبب هو الذي وصل

بفرنسا إلى ذروة العظمة. لقد أيقظت الثورة كل قوى الدولة، وقدمت لكل فرد ميداناً صالحاً ليعمل فيه بنشاطه الكامل وفعاليته المطلقة».

كان فريدريك الكبير قد ترك ارثاً ضخماً من الانتصارات الباهرة، والأمجاد العسكرية الضخمة. وكان هذا الارث يشكل المورد الذي استمد منه الجيش البروسي وأفراده ومواطنوه، الثقة بأنفسهم وبقدراتهم، وبقي فكر فريدريك العسكري هو المهيمن على خلفائه من القادة، الذين تعلموا أنه لا بد من إعداد الجيش إعداداً عنيفاً، وتدريبه تدريباً شاقاً ومتواصلاً، في أيام السلم، حتى يستطيع أداء دوره بنجاح في فترات الحرب. ولعل من أهم ما تركه فريدريك في نهج الجيش وحياته، هو ذلك الاهتمام العميق بدقائق الحياة العسكرية، حتى ما كان منها بسيطاً. غير أن ما جاء به نابليون بونابرتِ من تطورات، أحدث هزة عنيفة تركت أثرها العميق في كافة الجيوش الأوروبية، وفي الجيش البروسي منها بصورة خاصة، بعد أن أصبح هذا الجيش مركز الثقل في أوروبا الغربية، وكان لزاماً أن يفرض الطابع الفرنسي وجوده على الجيش البروسي. فكان نابليون ـــ بحق ـــ هو الرجل الثاني بعد فريدريك الذي عمل بشكل غير مباشر على إثارة الحوافز، لانطلاقة الجيش البروسي انطلاقة جديدة، حيث أخذ القائدان شارنهورست وجنيسناو على نفسيهما، بعد معركة يينا،[٣١] إعادة تنظيم الجيش البروسي طبقاً للطابع الجديد للحرب. وقد عرف المصلحان البروسيان أن أساليب الحرب الحديثة إنما هي نتاج التطورات الاجتماعية والسياسية العميقة الأثر، والتي جاءت بها الثورة الفرنسية. لقد كان جيش فريدريك الكبير، هو جيش من المأجورين، ولهذا كان أفراده معزولين تماماً عن المجتمع وعن المواطنين. وكان الضباط ينحدرون من طبقة النبلاء (الأشراف) فكانوا بحكم ارتباطهم هم وحدهم الذين يعرفون شرف الجندية، وأهمية الفضائل الحربية ومعنى الولاء. في حين كان الجنود وأفراد الجيش لا يعيشون متماسكين إلا بالقوة، وبفرض الانضباط الصارم والعنيف. وقد تولى المصلحان العسكريان البروسيان تحويل الجيش الملكي الأوثوقراطي[٣٢] إلى جيش المواطنين (أو جيش الشعب) وذلك عن طريق تطبيق التجنيد الإلزامي في طابع أكثر تحولاً نحو التغيير الاجتماعي، من أية محاولات سابقة. وقد عطلت (معاهدة

---

(٣١) يينا: Iéna مدينة ألمانية في إقليم تورينغ Thuringe على نهر سال Saale، انتصر فيها نابليون بونابرت على الجيش البروسي، الذي كان يقوده بلوخر.

(٣٢) الجيش الملكي الأوثوقراطي ـــ وفي الأصل: Dispotism وتعني الوضعي أو الحكم الذي تتولاه طبقة خاصة من الحكام Despot، كما كان الحال في حكم الروم والبيزنطيين الذين كانوا أساقفة في الكنيسة اليونانية القديمة، والذين كانوا يستمدون سلطتهم من حقهم الديني.

تيلسيت)[٣٣] التي فرضها نابليون على بروسيا فرصة التفهم المباشر لآراء شارنهورست غير أن مشروع القانون العسكري البروسي الذي صدر بعدئذ في سنة ١٨١٤، جعل تخطيط شارنهورست هو الصورة الدائمة والثابتة للنظام العسكري البروسي. وكان التجنيد قد بات هو القاعدة العامة بالنسبة لكل الدول في قارة أوروبا. غير أن نظام التجنيد بقي محصوراً في هذه الدول جميعها بطبقة الفقراء، إلا في بروسيا. فقد سمحت الدول الأوروبية جميعها بدفع بدل (نقدي) بدلاً من الخدمة الإلزامية، هذا في حين عملت بروسيا على فرض التجنيد على كافة الطبقات، وبذلك أسهمت كل طبقات الشعب البروسي في خدمة الجندية، فكان جيش بروسيا بحق هو الجيش الذي تميز بطابعه القومي، وذلك على الرغم من بقاء الحكم ملكياً اوتوقراطياً. واحتفظ النبلاء البروسيين في كافة الأقاليم بمكانتهم المميزة في الجيش وفي دوائر الدولة، كما بقيت طبقة الاقطاعيين الزراعيين (اليونكرز أو الجونكرز)[٣٤] هي الطبقة التي احتكرت تقديم الضباط للجيش. فأضحت الخدمة الإلزامية، والتي كانت التعبير المنطقي عن الثورة، والمظهر الفكري المتحرر للدولة في كل من أمريكا وفرنسا، أضحت هذه الخدمة في بروسيا هي عامل الدعم لقوة الدولة الملكية، وهي وسيلة ثباتها واستقرارها بل عامل تفوقها.

انطلقت الاستراتيجية البروسية الجديدة، بفضل شارنهورست وجنيسناو، من قاعدة الفهم العميق لفن الحرب النابوليوني. وقد استطاع جنيسناو، خاصة، بفضل ما توافر له من المنطق السليم، أن يقدر بعدالة، كفاءة نابليون، والحوافز الغريزية التي كانت هي القوة الخفية والمحركة لأعماله. وبرز ذلك واضحاً أيضاً في الشروح والتفاسير التي جاء بها شارنهورست لإيضاح استراتيجية نابليون، والتي وجهت جنيسناو في إدارته لعمليات ١٨١٣ ــ ١٨١٥م. وقد قامت هذه الاستراتيجية على أساس طريقة تاريخية استدلالية، جعلت مرجع الأمر كله إلى تصورات القائد والنشاط المعنوي لجنوده.

(٣٣) تيلسيت: Tilsit وتعرف اليوم باسم سوفييتيسك Sovietsk في ليتوانيا على نهر نييمن Niemen. كانت في بروسيا الشرقية قبل أن تضمها روسيا إليها وتبدل اسمها. وصلح تيلسيت هو الصلح الذي عقده نابليون بونابرت مع قيصر روسيا الكسندر الأول سنة ١٨٠٧م، وذلك بعد هزيمة القوات الروسية في فريدلاند Friedland. وقد وجد نابليون أن من مصلحته عقد صلح مشرف مع روسيا على أمل الحصول على دعمها في الحصار القاري فأطلق يدها في السويد وتركيا، فكان من نتيجة ذلك أن فقدت بروسيا ممتلكاتها غربي الألب، كما فقدت ما ضمته إليها من بولندة ١٧٩٣ ــ ١٧٩٥. وفرض عليها أيضاً غرامة مالية كبيرة، مع تخفيض جيشها العامل إلى ٤٢ ألف جندي.

(٣٤) اليونكرز أو الجونكرز: هو اصطلاح استخدم للتعريف بأفراد طبقة ملاّك الأرض في بروسيا وشمال ألمانيا عامة. وقد بقي لهذه الطبقة نفوذها القوي في الحياة العسكرية في ألمانيا حتى سنة ١٩١٨ (ثورة الويمر) واستخدم هذا الاصطلاح أيضاً للتعريف بكبار رجال التجارة في مدينة دانتزيغ، الميناء الحر بعد الحرب العالمية الأولى، وأحد أسباب الحرب العالمية الثانية. وقد استخدمت الكلمة بالانكليزية في عهد الملكة اليزابيت (اليصابات ١٥٣٣ ــ ١٦٠٣) للتعريف بالرجل الفارس الشجاع، ذي المروءة.

لقد وضعت المدرسة البروسية الجديدة للاستراتيجية عمدها في داخل هيئة أركان الحرب البروسية التي كانت عصب الجيش، ورأسه المفكر. على أن تكوين هيئة أركان الحرب البروسية يرجع في الواقع إلى حقبة من السنين قبل العام ١٨٠٦، وإن كانت لم تصل إلى مكانتها البارزة والمرموقة قبل عهد شارنهورست، فلما أعاد شارنهورست تنظيم وزارة الحرب في العام ١٨٠٦، أوجد إدارة خاصة أوكل إليها مهمة التخطيط لتنظيم الجيش وتعبئته في وقت الحرب، على أن تتولى هذه الإدارة أيضاً — في وقت السلم — كل ما يختص بالتعليم والتدريب في الجيش. ولم تقف واجبات هذه الإدارة ومسؤولياتها عند هذا الحد، فقد جرى تحت إشرافها أيضاً كل ما يختص بالإعداد للعمليات الحربية، من أعمال المخابرات والاتصالات والمساحة العسكرية وكذلك كل ما يختص بالإعداد والتوجيه في (التكتيك) و (الاستراتيجية). واحتفظ شارنهورست لنفسه، باعتباره وزيراً للحرب، برئاسة هذه الإدارة. وبذلك كان تأثيره كبيراً في التفكير التكتيكي والتفكير الاستراتيجي للضباط العاملين بهذه الإدارة، لأنه كان هو الذي يتولى تدريبهم في مباريات الحرب ومناورات هيئة أركان الحرب. ولما كانت العادة المتبعة هي أن يعين هؤلاء الضباط في مراكز هيئات أركان الحرب لمختلف وحدات الجيش وتشكيلاته، فقد امتدت سيطرة رئيس هيئة أركان الحرب بوساطتهم ومن خلالهم على كافة القيادات. فكان الضباط الشبان الذين يرتدون السراويل القرمزية هم المراسلون الذين ينقلون التوجيهات الاستراتيجية إلى كل أقسام الجيش وفروعه. وكانت هيئة أركان الحرب، في إدارة شارنهورست، تشكل قسماً من وزارة الحرب. وكان من الضروري أن يظل الأمر كذلك، حتى لو كانت ألمانيا قد عرفت الحكم الديموقراطي (النيابي) ولكن تنظيم الحكومة البروسية، قد سمح بتقسيم المسؤولية العسكرية التابعة للقيادة العليا، والتي يتولاها الملك ذاته. وفي العام ١٨٢١ عين رئيس هيئة أركان الحرب ليعمل مستشاراً أعلى للملك في كل المسائل العسكرية، وحدد دور وزارة الحرب بالمسائل السياسية وإدارة الجيش فقط، وكان لهذا القرار تبعاته البعيدة المدى، إذ أنه مكّن من أن تكون لهيئة أركان الحرب اليد الطولى الموجهة لكل المسائل العسكرية، ليس فقط بعد إعلان الحرب، بل وحتى في مرحلة الإعداد للحرب، وطوال أيام السلم. وكان ذلك من نتائج تجربة شارنهورست وجنيسناو فقد كان الإثنان من رجال السياسة، كما كانا قائدين عسكريين. ولقد اتجهت إصلاحاتهما العسكرية مباشرة إلى إصلاح حياة الأمة، وهذا مما وضعهما في موقع شك المحافظين من رجال البلاط البروسي، بل موضع الريبة والشك في كل دوائر البلاطين النمساوي والبروسي، ولهذا فعندما وضحت هزيمة نابليون، وبدا أن الثورة الفرنسية بدورها قد قهرت، أطلق على شارنهورست وجنيسناو اسم (اليعقوبيين). وأحيل جنيسناو على التقاعد، ظناً من دوائر البلاط أنهم بذلك يضعون حداً لتدخل العسكريين في السياسة، متجاهلين أن ما جاء به شارنهورست، ومن بعده جنيسناو، لم يكن إلا تعبيراً عن روح العصر، وأنه من المحال إعادة عجلة الزمن إلى الوراء.

لقد ضاع حلم المصلحين العسكريين البروسيين شارنهورست وجنيسناو اللذين أرادا، وعملا، على تنظيم جيش المواطنين. فقد جاءت الأعمال السياسية المضادة بعد سنة ١٨١٥، لتحبط كل الجهود التي بذلت على هذا الاتجاه. وكان كل ما خلفاه وراءهما من معرفة استراتيجية وتكتيكية، قد حظي من الناحية العملية بدرجة كبيرة من التقدم، وحصلت المدرسة القديمة على بعض النجاح. وعندما صدر قانون خدمة الميدان البروسي لسنة ١٨٤٧، أعاد إلى الحياة التكتيكات التي ظهرت في أيام فريدريك، والتي كانت أوامر شارنهورست لسنة ١٨١٢ قد استبعدتها. إلا أن آراء شارنهورست وجنيسناو الاستراتيجية لم تغفل تماماً في الجيش البروسي.

هكذا كان المصلحان البروسيان شارنهورست وجنيسناو هما الضابطان الوحيدان تقريباً اللذان عاشا التجربة النابوليونية، واللذان يمكن أن يقال عنهما أنهما كانا في ذات مرتبة نابليون في صناعة الجندية وفن الحرب. وقد حالت وفاة شارنهورست المبكرة والتي حدثت في صيف سنة ١٨١٣، دون توليه القيادة العليا في الميدان. على أن رئاسة جنيسناو لهيئة أركان الحرب البروسية من ختام سنة ١٨١٣ حتى صيف سنة ١٨١٥، قد أثبت أن المدرسة البروسية الجديدة للفكر العسكري لا يمكن فقط أن توجد فلسفة جديدة، بل وأن هذه المدرسة قادرة على تخريج قادة يستطيعون أن يضعوا نظرياتهم موضع التطبيق العملي. لقد حدث نقاش طويل لتقدير أي من الرجلين كان القائد الأكبر والأعظم. وقد أعطى كلاوزفيتز الذي كان صديقاً وتلميذاً للإثنين، تاج الامارة لشارنهورست، بسبب امتزاج عقليته الناضجة المفكرة، بالتعمق ودقة العمل. ولكن شليفن قرر أن جنيسناو هو أقدر الاثنين وأعظمهما، بسبب ما توافر له من عمق التفهم، ودقة الحكم، مع العزيمة في ميدان القتال. ومع هذا فإنه من وجهة النظر التاريخية، قد يكون من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن كلاً من الضابطين، سواء شارنهورست الهادىء الطبع أو جنيسناو الكريم، والسريع التفكير والعمل، إنما يمثلان طابعاً جديداً للقادة، فقد ولد كل من الرجلين قائداً للرجال، وربما كان أولهما أقدر على إعدادهم للحرب، وثانيهما أقدر على قيادتهم في ميدان القتال، ولكن كلا الرجلين اللذين ولدا في ألمانيا في العصر الفلسفي ـــ العصر الذي جاء فيه كانت وجوته ـــ قد آمن بأن التفكير يمكن أن يعير العمل التنفيذي الأجنحة التي تمكنه من الانطلاق.

لقد عاشت بروسيا، بعد شارنهورست وجنيسناو، حالة الكمون الحربي إذا ما جاز التعبير، فقد ابتعدت عن الحرب، وامتنعت عن الإشتراك الإيجابي في الصراعات المسلحة التي اجتاحت أوروبا، خلال مدة نصف قرن كامل، بعد صلح فيينا. وما لبث أن ظهر الجيش البروسي في سنة ١٨٦٠، باعتباره أكبر قوة عسكرية في قارة أوروبا. وكان هذا الجيش قد عاش هذه الفترة محروماً من التجربة العملية في الحرب، وإن كان قد نفذ بعض الحملات الثانوية، خلال فترة ثورة ١٨٤٨ ـــ ١٨٤٩. كما كان قد عبىء أكثر من مرة، بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٥٩، حيث توقع

اندلاع حرب لم تقع. وفي هذا الوقت كانت الجيوش الروسية والنمساوية والفرنسية والانكليزية تخوض حروباً متتالية (في إطار الحروب الاستعمارية التوسعية). على أن الأفضلية التي توافرت للجيش البروسي، إنما اعتمدت على تنظيمه الجيد، وعلى تدريبه الرائع في وقت السلم. هذا علاوة على الدراسات النظرية للحرب ومشكلاتها، وهي الدراسات التي وصلت حد الكمال مدة النصف القرن الذي جاء بعد المصلحين الكبيرين شارنهورست وجنيسناو. وفي الواقع، فإن أكبر فضل خلفه هذان القائدان، هو بحثهما الدائم عن الكفاءات القيادية، وصدق فراستهما في معرفة الرجال، ثم تعهد هؤلاء بالرعاية والعناية، ووضعهم في المكان الصحيح. فلا غرابة أن يستمر تأثير شارنهورست وجنيسناو على امتداد نصف قرن من عمر الزمن، وذلك من خلال الجهد الذي قدمه تلامذتهما، والذين كان من أبرزهم كلاوزفيتز، و فون مولتكه. وكان كلاوزفيتز قد استرعى انتباه شارنهورست منذ أن كان طالباً سنة ١٨٠١، فلما عاد من الأسر سنة ١٨٠٧، عينه شارنهورست مساعداً له، في إعادة تنظيم الجيش البروسي وإصلاحه. وبذلك اتيحت له فرصة التعلم على العمل القيادي، وممارسته، والنظر إلى الأمور بصورتها الإجمالية، مما أتاح له بالتالي فرصة متابعة التجربة النابوليونية، بصورتها الشاملة، وبدقائقها التفصيلية، فاستطاع بذلك، وبفضل ما توافر له من المواهب، ترسيخ (جذور مدرسة شارنهورست وجنيسناو) وتعميق أبعادها ومد ظلالها.

الفصل الثالث

رائد الفكر العسكري البروسي

٥ ــ كلاوزفيتز كارل ماري

آ ــ التجربة المبدعة .
ب ــ فون كلاوزفيتز ــ وقراءة (في الحرب)



«ينبغي أن تكون كل القوات المتأهبة التي تتوخى هدفاً استراتيجياً، مكرسة لهذا الهدف في آن واحد. ويغدو استخدام القوات بهذا الشكل أكثر كمالاً عندما تنصب كل جهود هذه القوات لصالح عمل واحد، في وقت واحد».

كلاوزفيتز

الوجيز في حياة فون كلاوزفيتز كارل ماري
١٧٨٠ ـــ ١٨٣١ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٧٨٠	ولد في بورغ في بروسيا .
١٧٩٢	تطوع للخدمة في الجيش البروسي رغم صغر سنه .
١٧٩٣	نقل للخدمة في مينز .
١٧٩٤	نقل للخدمة في الراين .
١٧٩٥	دخل الكلية الحربية في برلين .
١٨٠٦	خاض معركة اورستيدت ووقع في أسر القوات الفرنسية .
١٨٠٧	أطلق سراحه فعاد للخدمة في الجيش البروسي ، حيث خدم على اتصال وثيق بالقائدين الكبيرين شارنهورست وجنيسناو .
١٨١٢	ترك الجيش البروسي ، والتحق بالجيش الروسي لقتال الفرنسيين (نابليون) حيث ألحق بهيئة الأركان الروسية .
١٨١٣	عمل ضابط اتصال لتنسيق التعاون بين هيئتي الأركان الروسية والبروسية في معركتي لوتزن وبوتزن .
١٨١٥	عمل رئيساً لهيئة أركان الجيش البروسي في معركة واترلو .
١٨١٨	عين مديراً للكلية الحربية في برلين ، حيث تفرغ للبحث والدراسة حتى وفاته وأصدر مؤلفاته الضخمة (في الحرب ـــ وهي عشر مجلدات) .
١٨٣١	وفاة كلاوزفيتز ، أكبر الكتّاب العسكريين في القرن التاسع عشر .

Von Clausewitz Carl Marie



فون فولتكة



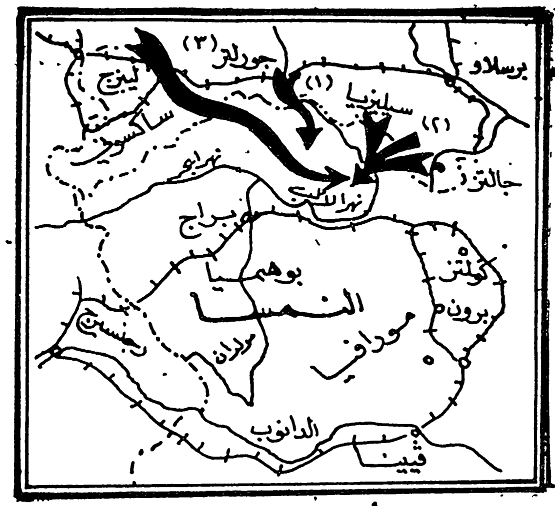
فون كلاوزيفتز



جبيساو ١٧٦٠ ــ ١٨٣١



دي رون وزير حربية ألمانية



١ ــ جيش سيليزيا الأول ٢ ــ جيش سيليزيا الثاني ٣ ــ جيش الألب

« منطقة معركة بوهيميا عام ١٨٦٦ توضح الخطوط الحديدية الرئيسية وتقدم الجيوش البروسية الثلاثة »

آ ــ التجربة المبدعة

ولد كارل ماري كلاوزفيتز وبلاده تعيش نشوة الأمجاد والانتصارات التي أنجزها فريدريك الكبير. وكانت بروسيا قد برزت دولة كبيرة في أوروبا، بعد أن ضمت إليها دانتزيغ وسيليزيا، وأصبحت تمتد ما بين البلطيق والكاربات، وبين وديان النيمين والفستول وجبال السوديت، مع استطالاتها البعيدة على الراين. وانصرف المجتمع في إطار هذه الدولة بكليته إلى خدمة العمل الديبلوماسي والعسكري لمليكه. وكانت طبقة النبلاء تقوم بدور خاص في الجيش الذي قيل عنه بأنه قام قبل قيام الدولة. فكان على الشباب النبلاء إذن أن يضعوا سيوفهم في خدمة مثلهم، كمثل فلاحيهم الذين يعملون جنوداً تحت إمرتهم وقيادتهم. وكان النبلاء يملكون تجاه هؤلاء الجنود السلطة المطلقة ذاتها التي يمتلكونها في إقطاعياتهم. وكان الجيش البروسي جيشاً فريداً تمتزج فيه مزايا الحسب والنسب مع أحدث تنظيم إداري.

انحدر كلاوزفيتز من عائلة لوثرية من سيليزيا، أنجبت عدداً من الأساتذة، وعلماء اللاهوت. وقد أثرت العظمة والهيبة البروسيتان في طفولة كلاوزفيتز، وطبعتاها بطابعهما. وكان والد كلاوزفيتز مثلاً حياً لكثير من البروسيين الشبان الذين فرض عليهم القدر أن يضعوا أنفسهم في خدمة الدولة. فقد كان ضابطاً لملك بروسيا، ثم جرح، فأضحى موظفاً يخدم الدولة مراقباً في جهاز مراقبة الضرائب. وقد انتسب كارل إلى المدرسة الابتدائية في بورغ، مسقط رأسه، حيث تعلم القراءة والكتابة والحساب، وبعض أوليات اللغة اللاتينية، وبعض الأغاني التي كان من الواجب الترنم بها في المعبد أيام الآحاد. وفي العام ١٧٩٢، انتسب كلاوزفيتز للجيش، ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره. ولم يكن انتسابه إلى الجيش مفاجأة له، فقد سبقه إلى الانضمام إليه شقيقاه الأكبر منه. واقتيد كارل فون كلاوزفيتز إلى بوتسدام حيث كان يعسكر لواء الدوق دو برونزويك★. وهو من

★ الدوق دو برونزويك: Duc Charles - Guillaume - Ferdinand De Brunswick جنرال بروسي ١٧٣٥ ــ ١٨٠٦ وهو ابن أخ فريدريك الكبير، كان مثقفاً إلى حد كبير، اكتسب شهرة واسعة في حملته على هولندا سنة ١٧٨٧ التي حقق فيها انتصاراته، دون أن يهرق نقطة دم واحدة. واعتبر في نظر معاصريه من أكبر العسكريين في أوروبا. أصبح قائداً للقوات المتحالفة ضد فرنسا سنة ١٧٩٢. ووجه يوم ٢٥ تموز ــ يوليو ــ سنة ١٧٩٢، إنذاراً شهيراً، استثار به الباريسيين ومجلس ←

أشهر ألوية المملكة مجداً وفخاراً وشهرة. وكان انتسابه إلى هذا اللواء امتيازاً يطمح إليه كلاوزفيتز. وقبل فيه برتبة صابط صف حامل للعلم، وهي أصغر رتبة في ذلك اليوم، سوى أنها أكثر الرتب زهواً ومجداً في الجيش البروسي. وهكذا ارتدى كلاوزفيتز البزّة العسكرية، وأضحى جندياً من جنود صاحب الجلالة ملك بروسيا، وهو لا زال في سن الأطفال. حيث كان على أطفال النبلاء واجب إلزامي في خدمة الجيش. ولقد بدأت المغامرة بالنسبة لكلاوزفيتز في ربيع سنة ١٧٩٢، عندما أعلنت الحرب ضد فرنسا. غير أن حرارة الحرب لم ترتفع حتى نهاية فصل الصيف. وفي ٢٠ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٧٩٢ م، التقت القوات في فالمي، حيث جرى تراشق بنيران المدفعية، أعقبه انسحاب اللواء البروسي بقيادة الدوق برونزويك. وكان قائد الفرنسيين دومورييه يخشى مخاطر معركة جديدة، كما كان يأمل فصل بروسيا عن النمسا، فقام بإجراء مفاوضات سرية، انتهت بانسحاب جيوش التحالف إلى ما وراء نهر الراين في ٢٣ تشرين الأول ــ اكتوبر. وقد شهدت ضفة رينانيا اليسرى الأمراء وهم يفرون فراراً محموماً. وقيام المؤتمرات واللجان والنوادي، حيث كان يلتقي الألمان الميالون إلى الثورة. ولكن ليس هناك شيء أصعب من تصدير الثورة برؤوس الحراب. فعندما احتل الجيش الفرنسي كل الضفة اليسرى للراين، ومعها مايانس، كانت جماهير المدن والقرى تحبذ السير مع الثورة الفرنسية، لتقويض امتيازات الاقطاعيين على الفور. غير أن هذه الجماهير سرعان ما اتخذت مواقف الحذر، بعد ما لمسته من المصادرات وزيادة الضرائب، وسوء تصرفات الجنود. ومنيت الانتخابات التي ارتجلها الفرنسيون بالفشل التام. ثم انهار كل شيء عندما أعلنت انكلترا الحرب على فرنسا بعد ٣١ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٧٩٣. ولم يبق في رينانيا إلا موقع فرنسي واحد.

كان كلاوزفيتز في هذا الوقت، وكما وصف نفسه، لايزال فتى غض الإهاب. وكان يتبع المسيرات والمسيرات المعاكسة للواء الدوق برونزويغ. فشهد ما بين صيف ١٧٩٣ و ربيع ١٧٩٤ مجموعة المعارك الغامضة، التي كانت عبارة عن تحركات ومسيرات متتالية. وقد شعر كلاوزفيتز بالنشوة وهو يخوض هذه التجارب، ويحاول أن يكتشف من خلالها آفاق التحولات الجديدة. وقد دلت الذكريات التي نقشت في ذاكرته خلال تلك الفترة، إلى أي مدى كان هذا الفتى ابناً لعصره، ووريثاً لتلك الحساسية الأوروبية، التي عرفها القرن الثامن عشر. وقد برزت صورة الأحلام التي عبرت عن طموحات ذلك القرن فيما كتبه حامل العلم الصغير كارل فون كلاوزفيتز عن معركة

الثورة التشريعي*. هزمه دو موريه DuMouriez وكليرمان Kellerman في معركة فالمي، حيث انسحب من المعركة متجنباً الإشتباك بعد أن جمع مجلسه الحربي فجأة لإبلاغه بالقرار الوحيد الذي اتخذه في أثناء الحملة: «إننا لن نقاتل هنا»: Hier Schlagen Wir Nieht. كما هزمه الجيش الفرنسي بعد ذلك في اوستادت، وأصيب بجراح قاتلة في المعركة، لم يلبث أن توفي على أثرها.

الفوج: «**ليس هناك ما هو أكثر أهمية من اللحظة التي يخرج فيها الانسان من كتلة من الجبال الوعرة، ليجد نفسه أمام سهل خصيب، حسن الزرع، ويكتشفه ويكتشف غنى ثروته الواسعة. إني لأتذكر مع مزيد من السعادة مثل هذا المنظر الذي لاح لي، عندما ترك الجيش البروسي جبال الفوج في العام ١٧٩٣. لقد قضينا ستة أشهر في هذه الجبال، الكثيرة الغابات، الوعرة والفقيرة... وأخيراً وبعد مسيرة منهكة مضنية، وجدنا أنفسنا فجأة على السلسلة الأخيرة من الجبل. وامتد أمامنا وتحت بصرنا وادي الراين الجميل. وبدت لي الحياة وقد تبدلت، فقد كانت هذه الحياة حتى تلك اللحظة جدية وقاتمة. ثم ها هي تصبح جميلة بهيجة، وانتقلت من الدموع إلى الابتسامات. وكنت غالباً ما أطمح إلى أن أعيش مرة أخرى مثل هذه اللحظة. ولم يكن ينقصها مثل هذا المنظر فحسب، بل كان ينقصها أيضاً الظروف ذاتها حتى تعطي لانطباعاتنا وأحاسيسنا القوة والتجدد ذاتهما**».

عادت رينانيا إلى قبضة الفرنسيين بين آب ـ أغسطس ـ وتشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٧٩٤، وانسحب لواء الدوق برونزويغ إلى ويستفاليا. وهناك تلقى كلاوزفيتز رتبة (مرشح) وهي أصغر رتبة من رتب الضباط. وتمركز لواؤه في نوروبين، وبقي كلاوزفيتز في هذا المكان حتى سنة ١٨٠١ م.

لقد فقد القرن العشرين ذكرى حياة الضباط الأوروبيين في القرن الثامن عشر. إن مرحلة التجنيد البشري الهائل، ومرحلة المدافن الكبرى في فردان و ستالينغراد، لم تستطيعا الحفاظ على اي أثر من آثار المجتمع العسكري للقرن الثامن عشر، ذلك المجتمع الارستقراطي والمهني في آن واحد. ففي ذلك العصر كانت الجيوش جيوشاً دائمة وقليلة العدد، ولم تكن هناك مصادر لزيادة تعدادها ولتغذيتها. لذا، كانت قيمة هذه الجيوش تنهض على أساس قيمة قادتها، بصفاتهم وميزاتهم وعددهم وإخلاصهم وولائهم. هكذا خرج الجيش البروسي إلى العالم كله، ليحظى بدهشة العالم وإعجابه. بعد أن استطاع تكوين أجيال متتالية من القادة (الضباط) الذين لا يستطيع أحد منافستهم في اختصاصهم. كان الجيش في القرن الثامن عشر، يجتذب إليه نخبة المثقفين وأفضل الموهوبين. وكانت ندرة المعارك، وابتعاد الجيوش بعضها عن بعض، وبطء التقدم الفني (التقني)، تدفع قيادات هذه الجيوش إلى التأمل والتفكير، والدراسة العميقة، للاندماج في مجتمع القرن الثامن عشر. وها هو ذا كلاوزفيتز بعد أن عاد إلى موقع من المواقع البروسية، يفعل ما يفعله زملاؤه. إنه يقرأ، ويلتهم المبادىء العامة للحرب، التي كتبها فريدريك الثاني الكبير، ونشرها سراً بين ضباطه، ثم طبعها النمساويون والفرنسيون، بعد أن استولوا عليها من آحد الجنرالات. وقد أغرق كلاوزفيتز نفسه في دراسة الرياضيات والفلسفة، متجاوباً مع ميله العميق إلى التجريد، واستخدام الأفكار الفلسفية. وكان فكره المشرق وذكاؤه الوقاد، محط أنظار رؤسائه، حين كانت تعتبر الثقافة الزاد الأصيل للفكر

البروسي عامة، وللجيش البروسي خاصة، إذ كان هذا الجيش يستقطب نخبة الشعب وخيرة أبنائه.

لقد قدر شارنهورست ما توافر لكلاوزفيتز من الذكاء والقدرة، فكتب اسمه في رأس قائمة تصنيف الضباط من رتبته، في العام ١٨٠٣، ووصفه بقوله: «يتمتع بقابلية نادرة لالتقاط التحليلات العامة بصورة صحيحة». وفجأة، أصبح كلاوزفيتز المرافق العسكري لابن عم الملك الدوق أوغست، ورقي إلى رتبة نقيب. إلا أن ساعة الاختبارات الكبرى لم تكن قد حانت أمام الجيش البروسي، إذ لم يكن الملك فريدريك الثالث قد فكر، حتى تلك الفترة، بمجابهة نابليون. مما أتاح لكلاوزفيتز فرصة لمتابعة قراءاته بنهم. وقد تأثر خاصة بقراءته لماكيافيللي. وقد ذكر ذلك بقوله: «**ليست هناك قراءة أكثر ضرورة من قراءة ماكيافيللي... لقد فقدت بعض صفحات هذا الكتاب قيمتها، ولكن صفحات أخرى بقيت محتفظة بقيمة ثابتة. لقد كتب فريدريك الثاني كتابه المعاكس لماكيافيللي، إلا أنه بقي تلميذاً له» وذكر كلاوزفيتز هذه الكلمة التي قالها سيد فلورنسا ماكيافيللي: «إذا كنت تقوم بعمل، فلا تنجز نصفه فقط»**.

لم يكن هناك ما يصرف كلاوزفيتز عن هدف ذكائه المتميز، وعن ميله للحرب. وقد حفلت السنوات التي سبقت النزاع بين بروسيا ونابليون، بالمناقشات الحامية بين المدارس العسكرية المختلفة، في استخدام المشاة. وفي هذا المجال، تطورت العقائد العسكرية من (النظام المائل) الذي طبقه فريدريك الثاني إلى (النظام المنضم) النابوليوني. وكان استخدام الخطوط الأولى للمقاتلين مهماً جداً، لأن سلوك القطعات مرتبط بصورة أساسية، في معظم الأوقات، بأثر الصدمة الأولى. وكان السؤال المطروح هو: هل ينبغي أن يستخدم الصف الأول والثاني البنادق، أم من المفضل أن يخفف حملهما، ويزودا برماح تقليدية؟ كان ذلك هو موضوع المناقشات في العام ١٨٠٠ م. ولكن كيف يمكن زج المقاتلين المزودين بالبنادق من خلف هذين الصفين الأولين؟ هذا هو السؤال الذي طرح في العام ١٨٠٤، وهو العام الذي انتسب فيه كلاوزفيتز إلى مدرسة الحرب. وقد وقف كلاوزفيتز في صف اولئك الذين أيدوا فكرة تشكيل الصف الثالث من رماة البنادق. وكان صاحبا هذه الفكرة من أصدقائه الدائمين والذين دعموه في حياته العسكرية وهما: **شارنهورست وجنيسناو**. ومنذ ذلك الوقت بدأ كلاوزفيتز في دراسة كل منظّري الحرب، وكبار القادة في التاريخ.

بلغ كلاوزفيتز في العام ١٨٠٥، الخامسة والعشرين من عمره. وفي هذا العام، وبين جدران القصر الملكي، وفي الأعياد التقليدية لطبقة النبلاء البروسيين المختلطة بالمحيط الديبلوماسي الأوروبي، تعرف كلاوزفيتز على ماري دوبروهل، ابنة وزير الساكس. ولأول وهلة ارتبط كلاوزفيتز بماري، وارتبطت به بحب غريب عنيف. فقد كانت ماري متأثرة بذكاء كلاوزفيتز وعبقريته، إلا أن الحرب أجلت زواجهما حتى ١٧ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٨١٠. لقد كان ارتباطهما عميقاً ومتبادلاً، كما لم يكن خالياً من الروعة الرومانسية. وعندما

أعلن الملك فريدريك غليوم التعبئة العامة يوم ٩ آب ــ اغسطس ــ ١٨٠٦ ، ذهب كلاوزفيتز إلى الميدان مع لوائه ، يزين أصبعه خاتم الخطوبة .

كان الدوق اوغست يقود فوجاً من الرماة ، وكان مرافقه كلاوزفيتز يقف إلى جانبه ، وقد أتيحت له مرة أخرى فرصة التمتع بمنظر الجيوش الجميل في الميدان ، وهي تتحرك عبر السهول ، وتحت أشعة الشمس المحرقة في براندبورغ . وفجأة تولدت في نفسه المشاعر التي أثارته عندما عبر تلال الفوج وهو يحمل علم لواء الأمير برونزويغ ، فعاد للكتابة بأسلوبه السابق ، الذي انطبع به منذ الطفولة : « **إنك لترى الرجال وهم يمرون واحداً وراء الآخر ، بأسلحتهم اللامعة ، عبر أغصان الغابة الخضراء . وعندما يصبح من الصعب تمييزهم ، فإنك ترى أسلحتهم اللامعة عبر سحابة من الغبار ، وهي ترتفع فوق مجرى الوادي ، فتواكب الجيش في سيره . إن تعب الرجال الذين يتسلقون المنحدرات ببطء ، بأسلحتهم وتجهيزاتهم ، يضيف بسمة جميلة إلى هذه اللوحة . وعندما أفكر أن هؤلاء الرجال يسيرون جنباً إلى جنب ، في رحلة طويلة منهكة ، حتى يصلوا معاً إلى مكان واحد ، حيث يلقون آلاف الأخطار ليبلغوا هدفاً كبيراً ونبيلاً ، تؤثر فيَّ هذه الأفكار وتسبغ على هذه اللوحة معنى من الأعماق** » .

استطاع كلاوزفيتز بهذا الأسلوب الشاعري ، إخفاء ما كان يشعره من القلق . لقد كان صغير السن ، وكان مقتنعاً حقاً بقيمة الجيش البروسي . إلا أنه كان حذراً من المستشارين العسكريين للملك . فقد لمس فيهم جمودهم الفكري ، وتمسكهم بالظواهر ، والأساليب القديمة . فكتب إلى خطيبته في أيلول ــ سبتمبر ــ رسالة ضمنها مدحاً جميلاً لفريدريك الثاني الكبير ، وكشف فيها عن تقديره لمبدأ من المبادىء التي سيطورها بعد ذلك تطويراً عبقرياً ، إذ قال : « **لقد كان مصمماً على خسران كل شيء أو ربح كل شيء . مثله كمثل اللاعب الذي يغامر بآخر ما لديه . وإني أعتقد أن هذه الشجاعة العظيمة ، التي هي بكل تأكيد وببساطة غريزة الدول القوية ، وهي منتهى الحكمة . فهل يستطيع رجال دولتنا أن يوجهوا الملاحظة ذاتها لصالحهم ؟** » .

لم تلبث أن تكشفت في شخصية كلاوزفيتز صورة الرجل الموهوب ، الذي يتملكه العمل تملكاً كاملاً . ففي ليلة المعركة ، انصرف انصرافاً كاملاً للاستمتاع بها . كان نقيباً صغير السن ، وكان مجرد مرافق عسكري لأمير يقود فوجاً . ومع ذلك فقد تابع تطورات المعركة حتى كأنه هو المسؤول عن الجيش البروسي بكامله . فكتب : « **إن الخطط الواسعة هي روح الحرب** » . وكشف بسرعة خطة هجوم الفرنسيين فكتب : « وصل الفرنسيون إلى غيرا ، وسيلتفون على البروسيين من الشمال الشرقي . إذن ، من الواجب أن نسير إلى السال ، وأن نجتازه ، لنقطع الفرنسيين ، ونعزلهم » وأحس كلاوزفيتز بأنه يتحرك بأجنحة الحماسة ، وهو يجري تماسه بالحقائق الاستراتيجية التي لم يكن قد عرفها إلا من خلال الكتب . ولكن الأمور سارت ضد مصلحة البروسيين ، فقد هزم البروسيون في

اورشتادت، في ذات اليوم الذي انهار فيه جيش الملك البروسي أمام نابليون في يينا. وعاش كلاوزفيتز أثناء التراجع مرحلة مأساوية، أثرت في فكره العسكري تأثيراً عميقاً، لازمه طوال حياته. وكان فوجه الذي تقلص إلى مائتي جندي، محصوراً في مستنقعات الأوكر. فشكله على مربع ليجابه انقضاضات الخيالة الفرنسيين. وفرض الضباط البروسيون على جنودهم عدم إطلاق النار، قبل أن تصل الخيالة الفرنسية إلى مدى نار البندقية. وهكذا انهزمت الخيالة الفرنسية، بعد حصدها بنيران البنادق قبل أن تستطيع اقتحام جبهة المشاة البروسيين. واستطاعت المشاة البروسية أن تتجنب الخطأ التقليدي الذي تقع به المشاة عندما تجابه انقضاض الفرسان، فتبدأ بالرمي عليها، من بعيد، قبل أن يصبح مدى الرمي فعّالاً ومؤثراً. وقد انصرف كلاوزفيتز بعد الاستسلام انصرافاً كاملاً لتحليل الهزيمة والإمساك بعواملها. وقد تميز رد فعله بنبل الأصالة وعمقها. فقد كان يعتقد بضرورة متابعة الصراع المسلح من أجل الثأر. كان يفخر بانتمائه لبروسيا، ويؤمن بفكرة المقاومة مهما بلغ الثمن، باعتبار أن هذه المقاومة هي الوسيلة الوحيدة لإيقاظ الشعور الوطني. وكان ينتابه الغضب ضد القادة البروسيين الذين كانوا يدافعون عن مواقع قوية، والذين قادهم جمودهم في المحاكمة والتحليل إلى الاستسلام دون قتال. على حين كان يحس بالاحترام والتبجيل للجنرال بلوخر★ المحاصر في لوبيك والذي رفض إلقاء سلاحه على الرغم من وصول الفرنسيين إلى برلين ولجوء فريدريك غليوم إلى كونيغسبورغ. «**لقد كانت مقاومة يائسة، إلا أنها تضمنت آمالاً كبيرة في الغد القريب، لأنها ستذكي روح المقاومة لدى أولئك الذين سيحملون السلاح في المستقبل. ومقابل ذلك، فلابد من السخرية بأولئك الذين يقدمون الحجج الواهية لإثبات عقم مقاومة بلوخر، وما فيها من جنون في رأيهم. هؤلاء جديرون بالإحتقار**».

قضى كلاوزفيتز السنوات الخمس التالية في الدراسة والرحلات السياحية مع الأمير أوغست، ورافقه إلى نانسي وسواسون وباريس. وكان ينصرف بعد انتهاء المآدب والحفلات في المساء، ليكتب خطة المعركة التي كانت تبدو له حتمية بين النمسا وفرنسا. إلا أن كل هذا لم يخفف من معاناته للألم الذي كان يشعره، تجاه بلده الذي أضحى تابعاً لفرنسا.

كان كلاوزفيتز من أولئك الرجال الذين يشعرون في أعماق نفوسهم بأن مصيراً كبيراً ينتظرهم، ومادام هذا المصير لم يتحدد بعد، ولم يتوضح، فهم يشعرون بالشيخوخة المبكرة، ويتملكهم إحساس لا يقاوم بأن حياتهم قد انتهت قبل أن يعيشوها كما كانوا يريدون. وقد ظهر هذا الشعور واضحاً في رسائل كلاوزفيتز إلى خطيبته في تلك الفترة. كان عمره في ذلك الوقت

★ بلوخر: Von Blucher Gebhard - Leherecht جنرال بروسي ١٧٤٢ ـــ ١٨١٩ برز خلال الحملة ضد فرنسا سنة ١٨١٤، هزمه نابليون في معركة ليني Ligny إلا أنه استطاع بنجدة القائد البريطاني ولينغتون في واترلو، حيث استطاع الوصول في الوقت المناسب للمعركة، مما أسهم إسهاماً كبيراً في هزيمة نابليون هزيمة حاسمة سنة ١٨١٥.

سبعة وعشرين عاماً، وهي سن يكاد يبدأ الشبّان فيها حياتهم العملية. إلا أن كلاوزفيتز في هذه السن المبكرة، رأى ثلاث معارك، وعاصر انهيار النظام الأوروبي. لذا كانت رسائله في هذه الفترة إلى خطيبته تعبر عن الحزن الذي كان يعيشه، بعد خبرة خمسة عشر عاماً في الجيش. كما كانت مزيجاً من اليأس والأمل في تحقيق أحلامه الجميلة. لكنه سيطر على نفسه، وقرر أن يقود مصيره بنفسه بدلاً من الاستسلام إلى أحلام عقيمة لا جدوى منها. فكتب إلى خطيبته يوم ٢٧ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٠٧ مايلي:

«يبدو أن الإرادة البشرية هي القوة الكبرى على الأرض».

عبر كلاوزفيتز في رسالته هذه عن شعوره بأن كبرياءه كلها تستيقظ، فتحمله على عدم القناعة بمصيره، وتدفعه إلى عدم تبديد طاقته سدى. وفي نهاية شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٠٧، اختار كلاوزفيتز نهائياً ساحة عمله الوحيدة التي وقف نفسه عليها وهي: الحرب وإعدادها وقوانينها وقيادتها حتى النصر. ثم التحق بالحاشية الملكية في كونيغسبورغ. **وهناك التقى بشارنهورست. واتحد مصيره بمصير بروسيا منذ ذلك اليوم. لقد كان واضحاً للجميع أن (انعدام التضامن بين الشعب والحكومة انعداماً تاماً) هو السبب العميق لهزيمة بروسيا.** ذلك أن شيئاً لم يتغير في بروسيا منذ إصلاحات فريدريك الثاني الكبير. فالفلاحون بؤساء، على حالهم السابق. والبورجوازية تنتقض على طبقة النبلاء، التي احتكرت كل إطارات الدولة ووظائفها الهامة. **وكان لابد من تحريك الروح الجماعية، ومشاعر الإخلاص والوفاء للوطن، والإحساس بالاستقلال والشرف القومي.** وكان هذا يستدعي بالضرورة تدمير روح الجشع والشراهة، وروح الآلية التي هي السمة المميزة للبيروقراطية. مع إجراء ما هو ضروري لتعويد الشعب على إدارة شؤونه الخاصة بنفسه، وإخراجه من هيمنة إدارة تفتقر للكفاءة والفضائل. وكان شارنهورست أكثر القادة وفاء لهذه المشاعر، وأكثر التزاماً بها، بحكم عدائه للإقطاع ولامتيازات النبلاء.

ووقف كلاوزفيتز إلى جانب شارنهورست وأنصاره من الدعاة الذين طرحوا مقولاتهم:

«التضحية بكل شيء للخروج من تحت الأنقاض، وذلك بإعطاء الشعب الشعور باستقلاله الذاتي، وتعليمه على اكتشاف ذاته ومعرفتها، حتى يكون واعياً بها، عندئذ فقط يحترم ذاته ويجبر الآخرين على احترامه... والقضاء على الأشكال العتيقة، وتحطيم كل الأوهام السابقة وتطوير بعث الأمة الألمانية بإبعاد كل الحواجز عن طريقها». وقد تشكلت منظمة ألمانية سرية لإعادة قيام الجيش البروسي، إلا أن شارنهورست وكلاوزفيتز رفضا الإنضمام إليها لعدم إيمانهما بالجمعيات والتنظيمات السرية. وفكر بعضهم في اللجوء إلى خارج البلاد، وخدمة الأمم التي ما زالت تحارب نابليون، وعرض ملك انكلترا على شارنهورست استلام مسؤوليات كبرى في قيادة الجيش البريطاني، **إلا أن شارنهورست رفض ذلك، لإيمانه بأن واجب الألماني هو أن يعمل في**

ألمانيا ذاتها. ووقف شارنهورست كل جهوده على إعادة تنظيم الجيش البروسي، وإجراء ما هو ضروري من الإصلاحات التي لم يتمكن كثيرون من فهمها. فأصدر شارنهورست أمره إلى كلاوزفيتز في أيلول ــ سبتمبر ــ ١٨٠٨، وكلفه بمهمة إفهام الجماهير معنى هذه الإصلاحات وروحها ومضمونها. ولم يلبث كلاوزفيتز أن ترك خدمة الأمير أوغست في شباط ــ فبراير ــ ١٨٠٩. وأصبح أميناً للسر (سكرتيراً) في دائرة شارنهورست. فعمل معه في دفع الحركة الفكرية الكبرى، والإصلاحات، التي حاولت زعزعة الدعائم التقليدية التي قامت عليها الاقطاعية البروسية. وقام هاردنبرغ★ بتمثيل الاتجاهات الفكرية الجديدة، عندما قدم للملك مذكرته في العام ١٨٠٧، والتي جاء فيها:

«إن الثورة الفرنسية التي تمثل الحروب الحالية امتداداً لها، قد أعطت لفرنسا وسط العواصف العنيفة والمسرحيات الدامية، دفعاً غير متوقع. فقد أيقظت كل القوى التي كانت غارقة في سباتها. ولقد توهمنا بأن من الممكن مقاومة الثورة، عن طريق التمسك بشكل أوثق بالتنظيم القديم. وهكذا عاضدنا الثورة، ودعمناها دعماً عجيباً، من حيث لا ندري. إن قوة هذه المبادىء مدعومة الآن حقاً. وهي منتشرة ومعترف بها اعترافاً رسمياً واسعاً، حتى إن الدولة التي لا تعترف بها، تجد نفسها مرغمة على تحملها، أو التعرض للفناء. لذا ينبغي أن يكون هدفنا ومبدؤنا الموجه هو القيام بثورة بكل معنى الكلمة. تحققها حكمة الحكومة، دون أن تنتج عن دفع عنيف من الداخل أو من الخارج».

أصبح هاردنبرغ مستشاراً للملك في حزيران ــ يونيو ــ سنة ١٨١٠ بعد أن نفي لفترة من الزمن بأمر من نابليون بونابرت. وهكذا وبرجال من أمثاله في طليعتهم شارنهورست، وجنيسناو، وكلاوزفيتز وجدت بروسيا طريقها مرة أخرى نحو القوة. إلا أن نابليون تدخل من جديد لدى ملك بروسيا فريدريك غليوم الثالث، لإبعاد شارنهورست، فجرى اتفاق سري بين الملك ورئيس الوزراء هيك وشارنهورست والمستشار هاردنبرغ. فكان هؤلاء الخمسة الوحيدين في بروسيا، الذين يعرفون كل التدابير السرية المتخذة لإدارة وزارة الحرب. واطلع على هذا السر رجل سادس هو كلاوزفيتز، الذي كلف بمهمة تنظيم الإتصال الدوري بين شارنهورست والوزارة.

عين كلاوزفيتز مدرباً للأمير ولي العهد، الذي أصبح فيما بعد الملك فريدريك غليوم الرابع. وقد أتاح هذا العمل لكلاوزفيتز الفرصة لكتابة بعض آرائه في الحرب. إلا أن كل هذه الاهتمامات لم تكن لتحوله عن هدفه الأساسي وهو تحرير ألمانيا بقوة السلاح. وكان يعتبر محاولات الثورة أو التمرد

★ هاردنبرغ: Von Prince Hardenberg Karl August ديبلوماسي بروسي ١٧٥٠ ــ ١٨٢٢ م، قاد حركة إصلاحية في بروسيا في عهد الملك البروسي فريدريك غليوم الثالث ١٧٧٠ ــ ١٨٤٠، ومثل بروسيا في مؤتمر فيينا ١٨١٤ ــ ١٨١٥، والذي كان هدفه إعادة تنظيم أوروبا بعد القضاء على نابليون بونابرت، وإزالة حكمه.

اليائسة، ضد الامبراطورية الفرنسية محاولات غير واقعية. وكان يأمل أيضاً في استمرار المقاومة النمساوية ضد نابليون. ولكن انتصار نابليون في واغرام، وتوقيع اتفاقية فيينا، التي وضعت حداً للحرب بين فرنسا والنمسا، قد أحبطت أمله. وفكر بتنظيم حرب شعبية في بروسيا، ووضع خطة للمعركة ليعرضها على شارنهورست والحكومة. غير أنه أدرك أن إمكانات النجاح أمام هذه الحرب هي إمكانات ضعيفة. وظلت فكرة الحرب ضد نابليون وضرورتها بالنسبة لأوروبا، حية في ذهن كلاوزفيتز. وكانت بروسيا في أثناء ذلك، في سنة ١٨١١، تقترب من المنعطف الحاسم. فقد كان الجميع في برلين يعرفون أن قيصر روسيا الكسندر الأول، لن يخضع للحصار القاري الذي فرضه عليه نابليون، وضد انكلترا، وأن البورجوازية الروسية تدفعه لمقاومة ضغوط نابليون وإغراءاته. وهكذا اتجه البروسيون إلى التحالف مع روسيا، لأنهم كانوا يعدون لمعركة الثأر منذ سنة ١٨٠٦م. **وهكذا كان شارنهورست وجنيسناو يعملان على الالتقاء وتنسيق الجهد مع روسيا. في حين انصرف كلاوزفيتز لرسم ملامح المعركة المقبلة، وكان يعرف أن الجيش الفرنسي سيكون هو الأقوى من خصومه عند بداية الحرب. لهذا لا بد من إضعافه بتطويل خطوط مواصلاته، ودفع القوات لتعمل على مؤخراته، وتشتيت جهوده في مجموعة من المعارك المتفرقة. وكان كلاوزفيتز يأمل أن يضطر جيش نابليون لخوض حرب جديدة في بروسيا كالحرب في إسبانيا. وبعد ذلك، يشن الجيشان البروسي والروسي، وهما مدعمان بتجنيد الاحتياط، حربهما في الوقت والمكان اللذين يختارهما ضد قطعات نابليون، التي تكون قد ضعفت واستنزفت بحرب الأنصار.**

هكذا، وضع كلاوزفيتز خطة الحرب في سنة ١٨١١، وضمنها مفهومه الكامل للحرب الدفاعية. وما تتميز به هذه الحرب الدفاعية من تفوق على الحرب الهجومية، وهو المفهوم الذي طوره فيما بعد، وجدده في كتابه (في الحرب). ولم يلبث شارنهورست أن سافر سراً إلى روسيا في تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ بهدف إجراء مفاوضات أولية، لقيام حلف عسكري غند تجدد الحرب مع فرنسا. إلا أن المفاوضات لم تنجح، فقد اشترط قيصر روسيا عدم اجتياز نهر الأودر، وإقامة دولة بولندية تابعة لروسيا، الأمر الذي يمنع بروسيا من استعادة الأراضي التي حرمها منها نابليون في الشرق، لحساب دوقية فارصوفيا الكبرى. واستفاد من هذا الفشل دعاة الاتفاق المؤقت مع فرنسا. فاتفق ملك بروسيا مع نابليون في شباط ـــ فبراير ـــ ١٨١٢ اتفاقاً تضمن قيام بروسيا بمساعدة نابليون، وذلك عن طريق دعم بعض القلاع لحماية مواصلاته، وتقديم المؤن الضرورية لجيشه، مع تقديم عشرين ألف جندي لمساعدة جيش نابليون الكبير، عند اندلاع الحرب.

كتب كلاوزفيتز في شباط ـــ فبراير ـــ ١٨١٢ ثلاثة تصريحات أولها: دعوة إلى التمسك بالشرف الألماني الذي يمنع عقد أي تحالف مع فرنسا، أو مساعدتها للسيطرة على أوروبا. وثانيها: تعداد لنتائج الحصار القاري السلبية وحتمية فشله. وثالثها: إجراء موازنة بين القوى المتصارعة، مع

إبراز نقاط الضعف في تنظيم القوى الفرنسية، واستند في تحليله إلى نتائج حرب الفاندي، والحرب الإسبانية. وعاد فأكد ميزات الحرب الدفاعية. وهكذا وقف كلاوزفيتز إلى جانب التحالف مع روسيا في الوقت الذي كانت فيه حكومة بروسيا تعقد اتفاق التحالف مع فرنسا. وقد تسبب هذا التناقض في قلب نظام حياته رأساً على عقب.

أنهى كلاوزفيتز خلال هذه الفترة كتابه عن (المبادىء الأساسية لفن الحرب) وهي الدروس التي أعطاها لولي العهد الملكي، وفي مقدمته توجيه لولي العهد جاء فيه:

«إن هناك شعوراً عظيماً يحرك قائد الجيش. فالطموح هو الذي كان يحرك يوليوس قيصر، والكراهية لعاطفة الحب هي التي كانت تحرك هاني بعل، والتصميم العظيم بأن ينتصر أو ينهزم بشرف وعزة، هو الذي كان يحرك فريدريك الكبير. فافتح قلبك يا سيدي لمثل هذا الشعور. كن شجاعاً وذكياً في خططك. كن قوياً وعنيداً ومصمماً في التنفيذ. وإذا ساءت الأمور، صمم على الهلاك مع المحافظة على الشرف».

استقال كلاوزفيتز وعشرين ضابطاً من الجيش البروسي بعد إعلان التحالف بين بروسيا وفرنسا. وكان أمراً صعباً على كلاوزفيتز أن يتخلى عن المؤسسة التي كبر وترعرع فيها، والتي كانت عزيزة على قلبه. كما كانت استقالته تعني حمل السلاح ضد أبناء وطنه، ممن سيتم تجنيدهم في جيش نابليون الكبير. غير أنه أحس بنوع من الراحة، هي راحة الرجل الذي منح نفسه إجازة بمحض اختياره وإرادته. والتحق بشارنهورست الذي كان يقضي إجازته في لينيتز. ولم يلبث أن تسلم أمراً من ملك بروسيا في ١٨ نيسان ــ ابريل ــ ١٨١٢، بصرفه من الخدمة، مع شهادة تصدق على منحه رتبة عقيد. وفي ٦ حزيران ــ يونيو ــ ١٨١٢ وصل إلى فيينا، وارتدى البزة العسكرية الروسية، وانفصل عن زملائه الضباط البروسيين الذين اتهمهم: «بأنهم ضباط بروسيون اسماً». وكان قيصر روسيا قد وجه إنذاراً لنابليون يتعلق بالحصار القاري. ورد نابليون بالزحف على روسيا. وفي ٢٤ حزيران ــ يونيو ــ اجتاز الجيش الكبير الذي ضم (٥٣٠) ألف جندي نهر النييمن. وكان اتحاد الراين قد دعم هذا الجيش بقوة ١٠٠ ألف جندي، كما دعمته بروسيا بقوة ٢٠ ألف جندي والنمسا بقوة ٣٠ ألف جندي ودوقية فارصوفيا الكبرى بأكثر من ٤٠ ألف جندي. وكان هناك عدد كبير من جنود رينانيا وبلجيكا وهولندا وايطاليا بين الجنود الذين قيل عنهم أنهم فرنسيون.

أصدر قيصر روسيا أمره بتعيين كلاوزفيتز مرافقاً عسكرياً للجنرال فول. وكلفه سراً بالحكم على قرار قائده. ولما عرف كلاوزفيتز أن قائده، الجنرال فول، يريد تحسين الدفاع عن دريسا، وأنه يعتمد على خوض معركة حاسمة، بالقرب من الحدود لإيقاف الجيش الفرنسي الكبير، أرسل إلى القيصر يعلمه بهذا القرار، واقترح عليه خطة مضادة للإنسحاب الشامل من أمام القوات الفرنسية الزاحفة. وأفاد القائد الروسي كوتوزوف من هذا الإقتراح، الذي كان على ما يظهر يتوافق مع قراره،

فأصدر أمره بالإنسحاب الشامل. وتنقل بعد ذلك لمساعدة عدد من القادة الروس. وشهد معارك فنتبسك وسمولنسك وبورودينو وسان بيترسبورغ. وحانت الفرصة أمام كلاوزفيتز للعمل على نطاق أوسع. فقد تم تكليفه لإجراء الإتصال مع قائد القوات البروسية في الجيش الكبير، الجنرال يورك. ولم يعلم الامبراطور البروسي فريدريك غليوم بهذا الاتصال في بداية الأمر، وعندما علم به أنكره، إذ كان يخشى من التحرك بتهور مما قد يؤدي ببروسيا إلى انتكاسة جديدة مماثلة لانتكاستها في معركة يينا. إلا أن الجنرال يورك استجاب لكلاوزفيتز. **ووقع مع القيادة الروسية اتفاقية توروجن في ٣٠ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٨١٣، التي ضمنت لروسيا حياد القوات البروسية.** ووافق قيصر روسيا الكسندر الأول على هذه الاتفاقية. وتم الإعلان عن استفتاء هدفه الموافقة على قانون عسكري للجيش البروسي في ٧ شباط ــ فبراير ــ ١٨١٣. وتضمن هذا القانون تنظيم تشكيلات الحرس الوطني، والحرس المحلي، وأصبحت هذه التشكيلات هي الاحتياط لتنظيم الجيش البروسي الجديد، الذي يعتمد على الخدمة العسكرية الإلزامية. وكان مغزى ذلك هو تأكيد عودة بروسيا على حساب نابليون في غد قريب مباشر. أما بالنسبة للمستقبل، فكان هذا الاتفاق يعني وضع حجر الأساس للتحالف الجرماني ــ الروسي، الذي عقد مباشرة على مستوى الجيوش، لا على مستوى الحكومات. ولقد أصبح هذا الاتفاق بعدئذٍ بمثابة قدوة تحتذى، كلما طرح موضوع تقارب ألماني مع روسيا، وذلك بالتذكير (**بروح توروجن**).

اضطلع كلاوزفيتز بدور كبير وحاسم في هذه الأحداث، فصدر القانون العسكري. وأضحى الحرس الوطني ــ كما أراده له كلاوزفيتز ــ هو الاحتياط الدائم للجيش البروسي. فمنه يتزود الجيش باحتياجاته البشرية طبقاً لمطالبه ولتعويض خسائره. أما الحرس المحلي، فكان مخصصاً للقتال المحلي، ويستهدف شل العدو، وذلك إما بالقتال على مؤخراته أو بإنهاكه في معارك لا تنتهي، يخوضها رجال فوق أرضهم الخاصة، ودفاعاً عن قراهم ومزارعهم. ثم حان وقت العمل. فقد أعلن ملك بروسيا فريدريك غليوم انضمامه إلى معسكر الحلفاء المعادي لنابليون. ووقع يوم ٢٨ شباط ــ فبراير ــ ١٨١٣ معاهدة التحالف مع روسيا في بريسلاو. وتبع ذلك إقدام ملك بروسيا فريدريك غليوم على إعلان الحرب ضد نابليون، وتوجهه بنداء إلى شعبه شرح فيه ما عانته بروسيا من آلام طوال سبع سنوات، ونظم جيشاً من ٤٠ ألف مقاتل، ارتفع عدده حتى ١٢٠ ألفاً. وقام المثقفون الألمان بدعوة مواطنيهم للقيام بحرب التحرير.

عاش كلاوزفيتز حلاوة هذا التحرك الذي مثل انتفاضة قومية. غير أن الدنيا لم تلبث أن أظلمت في عينيه، بوفاة صديقه وحاميه شارنهورست في ٢٢ حزيران ــ يونيو ــ ١٨١٣. وكان لزاماً على كلاوزفيتز الإضطلاع بما حلم به شارنهورست وأراده. فتولى قيادة فيلق بروسي ــ روسي. ولقد كان هذا التحول انتصاراً لاتجاه كلاوزفيتز، وانتصاراً لبروسيا، وبالرغم من ذلك، فقد كان

لا بد من بذل كثير من الجهد للحصول على قرار بإعادته إلى صفوف ضباط الجيش البروسي. فقد كان الملك غاضباً على الضباط الذين تركوا الجيش البروسي. ولكن مساعي أصدقاء كلاوزفيتز نجحت في إزالة غضب الملك، وتسلم كلاوزفيتز يوم ١١ نيسان ــ ابريل ــ ١٨١٤ م، شهادة عقيد في الجيش البروسي. وبهذه الرتبة، اشترك في معارك سنة ١٨١٥ م. وقد استخلص من هذه المعارك انطباعاً سيئاً عن قادة الحلفاء، إذ عرف فيهم قادة متوسطي الكفاءة، ضعيفي المناورة. وكان تفوقهم العددي كافياً لتأمين نصر لم تساهم فيه العبقرية العسكرية أو الإبداع إلا بقسط ضئيل. وأضاع قسماً كبيراً من حماسته إلتي كانت لديه سنة ١٨١٣، عندما كانت تحركه مشاعر الثأر والتحرير. فهو يرى الآن جيوش الحلفاء على نحو ما كانت عليه من قبل. جيوشاً شرسة، تقوم بعمليات النهب، ولا تتفوق على جيوش خصمها، ولا حتى على الشعب الذي اجتاحت أرضه وبلاده. وعلى النقيض من ذلك، فقد كان يشعر بنوع من الإعجاب بالكبرياء والعزة لدى الفرنسيين.

انتهت الحروب النابوليونية، وانتهى وقت العمل بالنسبة لكلاوزفيتز. ورفع إلى رتبة جنرال، ابتداء من العام ١٨١٥ م، وعين مديراً لمدرسة الحرب العامة ببرلين. وقد رغب جنيسناو تعيينه في هذا المنصب الملائم لنضج فكره العسكري. وحتى يتيح له فرصة الاتصال المستمر بالأفكار والمخترعات الأوروبية. وانصرف كلاوزفيتز للتأمل والتفكير. وقد وصفه معاونه الكابتن ستيمان فون فريدريس الذي لازمه طوال الخمسة عشر عاماً، والتي أنتج فيها أعظم إنتاجه (في الحرب). فقال: «كان الجنرال الذي لم يرزق أولاداً، يعيش بتفاهم كامل وزوجته التي كانت لطيفة المعشر، ومثقفة جداً. وكان يعمل إلى جانبها منذ الصباح في المؤلف الذي طلب ألا ينشر إلا بعد وفاته. وكان المخطوط يتضمن عدداً من الأوراق بخط زوجته التي كان قد أملى عليها محتواها. وكان هذا العمل يتوقف للحظة قصيرة في الساعة التاسعة، حيث يعلن البواب وصول المساعد العسكري. وكانت أعمال مدير المدرسة في الواقع قليلة الأهمية، ومع ذلك، كانت تسير يومياً بانتظام. وهكذا فإن العمل العلمي الذي كان يقوم به الجنرال، لم يكن يتعرض إلا لإنقطاع بسيط كل صباح، ثم يعاود العمل حتى الظهر، حيث كان يقوم باستقبال بعض الضيوف أو يقوم ببعض الزيارات. وكان الجنرال جنيسناو يزوره عدة مرات في الأسبوع، ويبقى حتى الساعة الثانية. وفي هذه الساعة يتناول طعام الغذاء. وغالباً ما كان لدى الجنرال مدعوون، لم يكن عددهم يتجاوز أبداً ستة أو ثمانية الأشخاص. وكان المدعوون عادة من الرجال الذين اشتهروا بفكرهم الرفيع، وثقافتهم العالية. وكان الجنرال يتكلم، ويفسح المجال في مناقشاته الفكرية لسخرياته الخبيثة. ولقد رأيت في أثناء هذه اللحظات رجالاً استلموا فيما بعد مناصب هامة، وهم يستمعون إلى الجنرال بإصغاء وانتباه. وكان يبدو لي أنهم أكثر تواضعاً بوجوده مما هم عليه عادة. وكان يبرهن عن لطف ودماثة في

أحاديثه، مع الأشخاص الذين كان يعرفهم، ومع من كان يراهم ظرفاء. وكانت فترة ما بعد الظهر مخصصة من جديد للكتابة. إلا أنه عادة ما كان يقضي الأمسيات عند عائلة الكونت جنيسناو أو عند عائلة الكونت كريستيان فون برنستورف، ونادراً ما كان يقضي الأمسيات في القصر، أو في أماكن عامة. وكان الجنرال يعود وزوجته بانتظام في الساعة الحادية عشرة. وكان يذهب مع زوجته إلى الجبال البعيدة في أرمانسدوف الجميلة، عند بدء الإجازات المدرسية في شهر آب ــ اغسطس، ثم يعودان إلى برلين. وكانت السنة تنقضي مشابهة للسنة التي سبقتها».

إن اهتمام كلاوزفيتز بدراسة الحرب دراسة نظرية، لم يبعده عن متابعة الأحداث التي كانت تجري في أيامه. وكانت السنوات التي عاشها منذ واترلو حتى وفاته، أليمة قاسية، إذ أنها زادت من خيبة أمله في الإصلاح الذي كان ينشده، وغذت حزنه الطبيعي. لقد كان يشعر في أعماق نفسه بالقدرة على القيام بالأعمال الكبرى. فكان هروبه من المجتمع نحو الأعمال النظرية، يملؤه بالمرارة والحزن. وفي العام ١٨١٩، أي بعد واترلو بأربع سنوات، شارك في المناقشات التي دارت بشأن إصلاح المؤسسة العسكرية. وهاجم في إحدى مقالاته، التي لم تنشر إلا في العام ١٨٥٨، هجوماً عنيفاً أولئك الذين كانوا يشكون من أن الحرس الوطني هو مدرسة للثورة، يتعلم فيها الشعب استخدام السلاح. كما أبرز أن الحروب الحالية، تجعل مصير الأمم مصيراً خطيراً. وأن على الشعوب أن تساهم في المعركة. وقد كان يرى أن معارضي الحرس الوطني هم طبقة الاقطاعية العسكرية. وقد كتب كلاوزفيتز في هذه الفترة كثيراً من المقالات. وتعرض فيها إلى تحليل أسباب الثورة، وعارض بشدة عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه في العام ١٧٨٩. كما أبرز في مقالاته أهمية المساواة بين المواطنين، مع المطالبة بحرية التعبير، التي يصبح الفكر ذاته بدونها جامداً متخلفاً.

عاش كلاوزفيتز منذ معركة واترلو سنة ١٨١٥ وهو يحلم بمعركة حاسمة مع فرنسا، حتى أنه وضع خطة للحرب ضدها سنة ١٨٢٨. وذكر بعض عناصرها في كتابه (في الحرب)، ثم عدلها مرة أخرى، إلا أن الحرب لم تقع. وحدثت في تلك الفترة أحداث هامة في أوروبا. إذ استقلت بلجيكا، وسقطت الأسرة الحاكمة في فرنسا، وثارت بولونيا ضد روسيا. ثم مات صديقه وحاميه جنيسناو في ٢٨ آب ــ اغسطس ــ وتبعه صديق آخر هو الفيلسوف هيغل في ١٤ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ وكان كلاوزفيتز قد أصيب بالكوليرا. فلحق بهم يوم ١٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٨٣١، ودفن في المقبرة العسكرية في ميلناركيرشهوف وقامت زوجته بتنفيذ وصيته، فنشرت مؤلفاته ما بين سنة ١٨٣٢ وسنة ١٨٣٥، ثم لحقت بزوجها بعد خمس سنوات من وفاته ١٨٣٦.

لقد اكتسب كلاوزفيتز شهرة واسعة في حياته، غير أن هذه الشهرة بقيت محصورة في نطاق بروسيا والدوائر العسكرية فيها. حتى إذا ما مات، بدأت شهرته في الانطلاق على المستوى العالمي.

وقد ساعد على انتشار هذه الشهرة عاملان على الأقل، أولهما تأثر القادة الألمان تأثراً عميقاً بكتابات كلاوزفيتز وآرائه، بداية من فون مولتكه، وشليفن، وهندنبرغ، ولودندوروف، ونهاية بهتلر والنازية. وثانيهما ذلك الجدل العالمي الذي أثاره كتاب (في الحرب)، منذ ظهوره وحتى اليوم، بحيث يمكن القول بأنه ما من كتاب حظي بالمناقشات والشروح والتفاسير والتعليقات مثل هذا الكتاب الذي ترجم إلى معظم لغات العالم.

لقد كان كتاب (في الحرب) في الواقع، اسهاماً فلسفياً كبيراً لفهم الحرب، قدمه كارل فون كلاوزفيتز للأجيال التالية. فأثر في معظم العقائد العسكرية التي ظهرت بعده. غير أن معظم هذه العقائد ونتائج التأثير جاءت مختلفة متباينة، بسبب اختلاف فهم أنصار كلاوزفيتز لآرائه، وتباين نزعاتهم واتجاهاتهم في تفسيرهم لها. وكان هذا سبباً من أسباب المناقشات الكثيرة التي دارت حوله. وبالرغم من هذا الاختلاف والتباين، فقد اعتبر ما تضمنه (في الحرب) تحليلاً عميقاً، لجوانب ظاهرة الحرب المختلفة. هذه الظاهرة التي عاصرت المجتمعات منذ نشوئها، وأثرت على تطورها أو انقراضها. وهو كتاب — أو مجموعة كتب في الواقع — حافظت على قيمتها وجدتها بما تضمنته، رغم انقضاء ما يزيد على قرن ونصف القرن على كتابتها وظهورها. وهناك بالتأكيد مجموعة من الآراء، ووجهات النظر التي تجاوزها الزمن، بتأثير التطورات التقنية المتسارعة. وما نجم عن ذلك من تطورات في فن الحرب وإدارتها وقيادة الجيوش. غير أن هناك بالمقابل آراء ووجهات نظر لا زالت تحتفظ بقيمتها الكاملة، وأهميتها الحاسمة، في تطوير الفكر العسكري. **فهل ينبغي بعد ذلك الأخذ برأي هتلر، الذي كان ينصح الذاهبين إلى مسارح العمليات في الشرق، أن يحملوا معهم في حقائبهم كتاب كلاوزفيتز (في الحرب)؟ أم هل ينبغي الأخذ برأي ستالين الذي طلب إلى مواطنيه في الاتحاد السوفييتي: إلى أن يدمروا نهائياً هذا الاحترام الذي التزم به العسكريون في العالم للمنظرين الألمان، وهو احترام لا يستحقونه، وبخاصة كلاوزفيتز، الذي قال عنه ستالين: من المضحك اليوم أن نطلب من كلاوزفيتز اعطاءنا دروساً في الحرب؟»**. لو كانت التجربة قادرة على حسم مثل هذه المناقشات، لكان حقاً موافقة ستالين على ما قاله، وهو القائد الأول في تصنيع هزيمة ألمانيا، مع إدانة عقيدة عسكرية لم تثبت للاختبار خلال حربين عالميتين هي (العقيدة الألمانية). ولكن إذا كان رأي ستالين صحيحاً، فإنه من الواجب إزالة الإعجاب بهاني بعل الذي قهره سيبيون الأفريقي. وكذلك الغاء الدروس المستخلصة من تجارب الحروب النابوليونية، والتجارب المقابلة التي يستفاد منها ويستشهد بها حتى اليوم، والتي قادها كوتوزوف وبلوخر وويلينغتون.

لا غرو إذا كان هذا الكتاب (في الحرب) والذي وضع في بداية القرن الماضي، قد تضمن أجزاء كثيرة قد شاخت وهرمت، وهي عاجزة عن تقديم كافة الإجابات على الأسئلة التي تواجه

القائد العسكري اليوم، في عصر الدبابة والطائرة والقنابل الهيدروجينية. غير أن ما رفد به آمبير و اورشتدت من قوانين الكهرباء، لا يمكن أن يلقى جانباً، لأن المعلومات عن بنية الذرة قد تبدلت. وليس هناك في العالم من ادعى تأليف شيء له صفة الاستمرار والديمومة. كما أن طموح كلاوزفيتز ذاته، لم يكن ليتجاوز وضع كتاب لا ينسى بعد سنتين أو ثلاث سنوات من ظهوره. وإذا كان كلاوزفيتز قد نجح في ذلك، فالحكم للأجيال المتتالية من القادة العسكريين والسياسيين الذين لا زالوا يشيرون إلى آراء كلاوزفيتز، ونصائحه، وتوجيهاته، بكثير من التقدير والإعجاب. ومهما كان عليه الموقف، فكثيرون هم الذين يستشهدون بأقوال كلاوزفيتز، ولكنهم قليلون هم الذين قرؤوا له، وقليل هم الذين فهموه من بين الذين قرؤوا له. وعلى سبيل المثال، فكثيراً ما تتردد مقولته: **بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى**. ولكن كم هي الأشياء التي لا تذكر مما تتضمنه هذه المقولة؟ لقد اعترف جميع الذين قالوا هذه المقولة، وطبقوها، بعبقرية كلاوزفيتز الفذة. ولكن يكاد لا يوجد شخص واحد، من بين الذين استوحوا من آرائه وأفكاره، قد حفظها حفظاً تاماً. ولقد كانت هيئات الأركان العامة، هي الهيئات التي اهتمت بهذا الكتاب (في الحرب) ولا سيما هيئة الأركان العامة الألمانية. ومع ذلك فإن كل من يتأمل كلاوزفيتز ملياً، في أثناء التطبيق. يجد أن مولتكه وشليفن ولوندورف وهتلر مجتمعين، كانوا هم الأسوأ من بين تلاميذه. ذلك أن القادة الألمان الذين اعتبروا: أن الحرب ليست إلا وسيلة لسياسة معينة، لم يستخلصوا من حكمة كلاوزفيتز بعد انهيار نابليون، والقضاء على ثورة ١٨٤٨، إلا استنتاجاً واحداً، وهو ضرورة إخضاع الدولة للجيش. لأن الحرب والسياسة تتشابكان. وكان هذا في نظرهم: «هو التقليد البروسي لكلاوزفيتز». أما القادة الفرنسيون، فقد أعرضوا عن دراسة فكر الاستراتيجي الكبير، قبل العام ١٨٧٠، باستثناء قلة منهم. وكان ذلك بسبب رفضهم لما قيل عن فلسفته الضبابية، وحتى لا يروا فيه إلا قدوة سيئة في الأركان العامة الألمانية. ثم ليتذكروا بعد ذلك، أن كلاوزفيتز قد بنى نظريته في عصر نابليون بونابرت. وأصبحوا لا يرون فيه إلا الرجل الاستراتيجي الذي كان يريد دوماً شن المعركة، والإغراق في الدماء. وهكذا، أمكن القول بأن كلاوزفيتز لم تفهمه قط، بكل امتداده وشموله، لا الشعوب ولا الدول. ولعل أحد الأسباب في ذلك هو أن كلاوزفيتز ذاته لم يتمكن من ملاحظة المشكلة التالية: وهي أن عصر الثورات الوطنية البورجوازية قد انتهت إلى الزوال في أوروبا على الأقل، لتفسح المجال أمام حركة التوسع الاستعماري. ومقابل ذلك فقد انتقلت الدول والشعوب التي كان يستشهد بها كلاوزفيتز، بسرعة لتخضع لحكم النظام الاستعماري. ولم يكن لدى هذه الدول الرغبة، أو القدرة والاهتمام، لتشرب مبادىء، كان باستطاعتها اللجوء إليها، واستخدامها من أجل حل مشكلاتها الخاصة، وأزماتها. ولهذه الأسباب ذاتها، فقد أخذ اسم كلاوزفيتز يظهر تدريجياً في الطبقات الثورية الجديدة من المجتمعات المختلفة. **وقد كتب أنجلز رسالة**

إلى صديقه ماركس في سنة ١٨٥٨ ما يلي: «إني أقرأ الآن ــ من جملة ما أقرأ ــ كتاباً (في الحرب) لكلاوزفيتز، إنه طريقة جديدة في التفكير. وهو كتاب ممتاز في الواقع، إذ أنه يجيب على السؤال التالي: هل ينبغي علينا استخدام اصطلاح الفن العسكري، أم العلم العسكري؟ إنه قد أجاب بما يلي: «إن الحرب تشبه التجارة على أفضل شكل. فالقتال في الحرب، هو كالدفع نقداً في التجارة. ومع أن هذا الدفع لا يحتاج إلى التدخل في الحقيقة، إلا أن كل شيء يتجه إليه، وينبغي التوصل إليه في النهاية، وهو الذي يشكل العنصر الحاسم». **وأجاب ماركس: «... لقد تصفحت كلاوزفيتز بعض الوقت. إن لهذا الرجل إحساساً سليماً يسترعي الانتباه». وكان لينين بعد ذلك هو المفكر الاشتراكي الذي أظهر اهتماماً أكبر بدراسة كلاوزفيتز وكتب عنه كثيراً. وكان في جملة ما كتبه:**

«إن كلاوزفيتز هو من أعمق المفكرين العسكريين، ومن فلاسفة الحرب العظام ومؤرخيها. إنه كاتب أضحت أفكاره الأساسية اليوم هي الزاد الذي لا يستغني عنه أي مفكر».

وجاء الاشتراكي الفرنسي جوريس، فكان الاشتراكي الوحيد الذي عرف ما يمكن اقتباسه من كلاوزفيتز للرد على أولئك الذين يمتدحون النابوليونية والبورجوازية الضيقة والرجعية، ويدعون لها، وذلك في معرض دعم وجهة نظره من قضية الدفاع الوطني الديموقراطي، فكتب في مجلة الجيش الجديد ما يلي: «إن القائد الفرنسي جيلبير وتلاميذه، لا يدرسون نابليون بالموضوعية وانفتاح الفكر اللذين يدرسه فيهما كلاوزفيتز، والنظريون الألمان المعجبون به. إنهم يدعون أن كلاوزفيتز يناقض نفسه، لأنه بعد أن حلل النتائج الباهرة التي أحرزها نابليون في الهجوم السريع المركز والجريء، خرج بنتيجة تؤكد تفوق الدفاع على الهجوم. ومما لا شك فيه أنه تأثر إلى حد كبير بذكريات الحملة على روسيا، التي تركت أعمق الأثر في تفكيره. لقد قاتل في الجيش الروسي وهو جنرال بروسي، لأنه كان يعاني ويقاسي من التحالف المخزي والمشين بين نابليون وبلاده، التي جهزت قطعات لدعم جيش نابليون الكبير، ثم خدم بعد ذلك في الأركان الروسية. وقد قاتل الجنود البروسيين مدفوعاً بوطنيته البروسية. وقد وصف في كلمات مؤثرة، فيها كثير من الاعتدال، في تعليق له عن الحرب في روسيا، كيف كان شعوره وتأثره عندما اصطدم في ساحة المعركة بجيش يرفرف فوقه علم وطنه، حيث كان يقاتل أخوه من لحمه ودمه. لقد كان في خضم الدفاع الروسي الهائل والثقيل، يرى بأم عينه الحظ وهو يتخلى عن نابليون. لكن، ألم تبرهن إسبانيا أيضاً على ما تستطيع أن تفعله العبقرية الدفاعية، في شعب يريد أن يبقى مستقلاً، ضد أجرأ عبقرية هجومية وأذكاها؟ قد يكون من المحال إهمال مثل هذه الدروس في الواقع. ومن الغريب، أن المدرسة الفرنسية الهجومية الجديدة، قد قضت على هذه الدروس والتعاليم قضاء تعسفياً ظالماً. ولقد استمدت هذه المدرسة عقيدتها من تعاليم كلاوزفيتز، إلا أنها لم تحفظ إلا جزءاً يسيراً من حلوله. إن جهود هذا

المنظّر الألماني، لم تستهدف فرض خطة كاملة موضوعة على العقول، بل كان يدعو إلى استخلاص قواعد للعمل من خلال تعقيد الحوادث، تتيح الحصول على أحسن نتيجة ممكنة ضمن فرضية معينة. وبقدر ما كان يوضح فاعلية الهجوم، والوسائل التي تسمح بتطويره إلى أقصى حد ممكن، كان يقف ضد التمسك بالهجوم، ويرفض التعصب النظري والمجرد له ...».

تظهر هذه السطور كيف انساق القادة العسكريون في فرنسا وألمانيا إلى تشويه كلاوزفيتز، منذ منتصف القرن التاسع عشر، وإلى تشويه الاستراتيجية التي صاغ كلاوزفيتز فلسفتها، ووضع أسسها ومبادئها. ذلك لأن هذه الفلسفة هي، قبل كل شيء وبعده، فلسفة الجماهير الوطنية التي أظهرت لأول مرة فضائلها الحربية الظافرة، تحت أمرة القيادة الثورية. هذا مع العلم أن كلاوزفيتز لم يكن ثورياً، فقد قدر العبقرية النابوليونية، ورآها أفضل مما رأتها الجماهير الثورية في الجمهورية الفرنسية، والتي كان يعيب عليها حرمانها من أي فكر خلاق ومبدع. وقد كتب قبل موته بقليل، في العام ١٨٣٠، خطة سحق الثورة الأوروبية. ورأى في الأيام الظافرة الثلاثة★ الإعلان عن سياسة فرنسا للفتوحات (فتح الجزائر)، ولكن قوة عبقرية مثل عبقريته، تكمن في تجاوزها لنقاط ضعفها الخاصة، وفي التعبير عن ذاتها بأكثر مما قصدت إليه. وليست الحرب في مفهوم كلاوزفيتز نزاعاً أو صراعاً بين عناصر الطبيعة: إنها قبل كل شيء واقع بشري، وبتعبير أكثر وضوحاً، هي شكل من أشكال العلاقات البشرية. وبهذا الشكل، شملت الحرب المفهوم الإجمالي للنزاعات البشرية الممكنة، والتي يميل فيها عامل العنف دوماً إلى الاندفاع حتى أقصى حدود الاندفاع. وتمثل الحرب بهذا الشكل أحرج لحظات النزاع بين الرجال، ولا يمكن لامتدادها وتصعيدها إلا أن يكونا من طبيعة تناسب طبيعتهم ولا تخالفها.

لقد كان كلاوزفيتز يفكر إذن بالسياسة الوطنية للدولة خاصة، عندما أكد أن الحرب هي امتداد للسياسة، بوسائل أخرى عنيفة ودموية. وقد استخلص الفكر العسكري البروسي هذا الشيء بصورة دائمة، من هذه المقولة. غير أنه لا بد من التأكيد مرة أخرى، أنه لا ينبغي أن تؤخذ السياسة فقط بشكلها الواقعي أو الحقيقي، بل لا بد من فهمها بشكلها المطلق، وعلى أساس أنها مجال للصراع بين المصالح في حد ذاته. فإذا لم يغب عن النظر المفهوم الخالص للسياسة، كما ألح على ذلك كلاوزفيتز في عدة مناسبات، وإذا لم يغب عن النظر أيضاً مفهوم الحرب، فإنه بالمستطاع ملاحظة أن سياسة الدولة، أو بالتالي السياسة البورجوازية، ليست إلا شكلاً من الأشكال التي ترتديها السياسة الحقيقية. **ولا بد من ظهور أشكال سياسية جديدة، وهي السياسات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر: لقد انتقلت روح السياسة من محيط الشعوب، إلى مجال الطبقات في**

★ الأيام الظافرة الثلاثة هي أيام ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ شباط ـ فبراير ـ ١٨٤٨، والتي ثار فيها الشعب الفرنسي في باريس، وسقط بعدها الملك لويس فيليب، وأعلنت الجمهورية الثانية.

الشعب الواحد. ومن الصراع بين الشعوب إلى الصراعات الاجتماعية. حتى إن نظرية الحرب الأهلية بدأت تتجاوز بالتدرج، نظرية الحرب الوطنية. وكان لينين هو أول من قام بتحليل هذا التشابك بعمق، بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ عن إفلاس الأممية الثانية ما يلي:

«إن تطبيق القاعدة الرئيسية للديالكتيك ـ الجدلي ـ على الحرب يعلمنا أن الحرب ليست إلا امتداداً للسياسة بوسائل أخرى ـ لنوضح بواسطة العنف ـ ذلك هو تعبير كلاوزفيتز أحد كبار كتّاب التاريخ العسكري». وقد توقف ماركس وانجلز عند هذه النقطة بالذات، وعند وجهة النظر هذه، فاعتبرا أن كل حرب إنما هي امتداد لسياسة القوى، أو الدول المعنية بها، ولمختلف الطبقات الاجتماعية الموجودة في هذه الدول، في مدة معينة. وهنا لا بد من ملاحظة ما أفادته الحركة الاشتراكية من كتابات كلاوزفيتز: إن الحرب لا تهم فقط سياسة الدول، لأنها دول، ولكنها تهم أيضاً مختلف الطبقات الاجتماعية التي تتصادم ضمن إطار الدولة، والتي لها طابع دولي. وبناء على ما تقدم، فسيكون هناك تظاهرات للعنف، وحروب، ستؤلف الشكل الذي ستستمر ضمن إطاره السياسات الطبقية، حتى ولو كانت متطابقة مع سياسة الدولة. إن نظرية الصراع المتعلقة بالحروب الوطنية الصرفة، تجد تطورها بهذا الشكل في نظرية الحروب الطبقات، وفي صراع الطبقات بصورة أكثر شمولاً. ولكن لا ينبغي أن يغيب عن الفكر أن هذا الاستمرار قد احتفظ بكل شدته، بقدر ما كان يرجع إلى مفهوم (الحرب المطلقة) التي هي مفتاح التحليل الكلاوزفيتزي. وإن تبعية الحرب للسياسة، والتمييز بين (حرب حقيقية) و (حرب مطلقة) يقتحمان ساحة المحاكمة في إطار عالم المصالح، و المهل الزمنية، و التوازن، أي أنهما يدخلان أنماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ويكون العنف، من وجهة النظر هذه، هو الذي يقوم بالدور الرئيسي في صنع الأحداث التاريخية، بعيداً عن أن يصبح المحرك الأول، أو أداة الاستخدام الدائم، في خدمة المصالح المتعارضة أو المثل العليا المتناقضة: إن العنف المسلح لم يتدخل ولن يتدخل إلا كوسيلة أخيرة لحسم الصراعات التي استعصى حلها، أو للعب بورقة قد تربح أو قد تخسر. كما أن الحياة السياسية والاجتماعية، لم تكن ولن تكون بدورها مصنوعة من العنف الخالص.

لقد خدع بهذه النظرة السابقة كثير من رجال الفكر والسياسة والفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاديين، غير أن ماركس وانجلز استطاعا أن يفعلا ما عجز الآخرون عن عمله، عبر محاولتهما الكشف عن القوى المتصارعة وحركات العنف في تاريخ المجتمعات. وأمكن لهما باستمرار التمييز بين مختلف مظاهر العنف والقوة، والتي لا يشكل فيها الصراع المسلح سوى التعبير المتقطع والنهائي. وقد أظهر انجلز في أكثر من مناسبة، أن العنف المسلح، وهو أداة الحسم القاطعة في بعض الصراعات الاجتماعية، لم يكن الأساس الوحيد للحياة الاجتماعية، ولكنه نابع من نمو المصالح الاقتصادية وتضاربها واختلافها، هذه المصالح، التي لها في الأصل

طابعها السلمي نسبياً . وإن ضرورة سحق الخصم للاستيلاء على خيراته أو على موقعه ، تتطلب أن يكون مفهوم الملكية موجوداً من قبل . ولا يمكن أن يبنى واقع الملكية ومفهومها إلا بأسلوب اقتصادي واجتماعي لا يخلو من الضغط والإكراه . ولكنه لا يعتمد بالتأكيد ــ أساساً ــ على العنف الدموي ضد الخصم ، أي على القتل أو الاستعباد .

هكذا ، تبلغ نظرية الحرب أقصى قوتها وذروة شدتها في نظريات السياسة والاقتصاد ، أو بمعنى آخر ، ينبغي أن تستند الحرب الحقيقية إلى الحياة الاجتماعية الحقيقية . وتتعلق قواعد الاستراتيجية والمستويات التقنية ببنية المجتمع ، وبموارده ، وبطاقاته الانتاجية ، وبعبقريته المبدعة . وقد يكون من المحال قيادة أي حرب واسعة النطاق بعض الشيء ، قيادة جيدة تصل إلى نهاية سعيدة ، ما لم يتم تقدير هذه العوامل الحاسمة تقديراً صحيحاً ودقيقاً . وهذا هو ما يفسر الخطوات الدقيقة والبطيئة في الشؤون الإدارية ــ اللوجيستيكية ــ مع التطور المتتابع للتسليح ، ومع حالة التوتر المستمر التي تسببها هذه الخطوات ، وعنف الضربات والضربات المضادة التي يتبادلها الخصوم في المعارك ، وقصر مدة هذه الضربات .

لقد استطاعت الحركة الاشتراكية هضم مفاهيم كلاوزفيتز الأساسية ، وتمثلتها بنجاح ، واستخدمتها بشكل رائع . ومقابل ذلك ، فإن الدول البورجوازية جنحت باستمرار إلى الانتقاص من قيمة هذه المفاهيم ، بإرجاعها وإعادتها إلى مستوى بعض الحكم الأولية ، أو المسلمات الأساسية ، مثل : (ينبغي أن يكون العسكري تابعاً للمدني) ومثل (ينبغي أن يكون لدينا جيش ملائم للسياسة التي نرسمها) . وقد حاولت البورجوازية قبل كل شيء ، وعن طريق إسناد السياسة إلى العنصر المدني ، حماية نفسها من سلطة القيصرية ، مع استثمار هذه القيصرية بقدر ما تسنح لها الفرص . وإن هذا التمييز في الواقع لا يحمل أي هدف . إذ يستطيع المدني أن يصبح قائداً حربياً حقيقياً ، يتخذ القرارات الاستراتيجية الكبرى ، مثلاً : هتلر في ألمانيا ، وتشرشل في بريطانيا ، وستالين في الاتحاد السوفييتي .... كما أن باستطاعة العسكري ممارسة عمل المدني في إدارة الدولة (ايزنهاور) . كما أن الرجال الذين تجسدت فيهم ثورات كبرى ، وصاغوا أفكاراً جديدة من أمثال : كرومويل ولينين ، كانوا مدنيين بقدر ما كانوا عسكريين أيضاً . واستطاعوا بالتالي ممارسة السيطرة الكاملة على العمل السياسي ، وعلى العمل الحربي للصراعات التي كانوا يقودونها . ولم يكن فريدريك الكبير ونابليون بونابرت ، سوى نموذجين للرجال السياسيين والعسكريين في آن واحد . أما عن الحكمة البسيطة القائلة : « **بضرورة إنشاء جيش يلائم السياسة التي نرسمها** » فيفهم منها عادة أنه إذا ما كانت الموارد ضعيفة ، وإذا ما كان الجيش صغيراً ، فإن على الدولة أن تقتصر في سياستها العالمية على ممارسة دور متواضع . بينما تستطيع الدولة الغنية بمواردها ، وبتسليحها ، وباحتياطيها من الرجال والإمكانات ، أن تكون ذات سياسة كبرى . وقد تظهر وجهة النظر هذه للوهلة الأولى بأنها وجهة نظر تعبر عن

إحساس سليم، إلا أنها في الواقع تقود إلى أخطار قاتلة. لقد كان لدى هتلر الجهاز الملائم لسياسته في العام ١٩٤٠. ومع ذلك فقد قاد هذا الجيش ألمانيا إلى الكارثة. ومقابل ذلك، لم يكن ماوتسي تونغ يمتلك في العام ١٩٤٧، الجيش الملائم لتنفيذ سياسته، ومع ذلك استطاع هذا الجيش أن يخوض حرباً كان الانتصار فيها انتصاراً لسياسته. والسبب في هذا هو أن الرأي العادي يرى نوعاً من التوازي البسيط بين الحرب وبين السياسة. بينما طور كلاوزفيتز، في هذا المجال، نوعاً من الديالكتيك القوي والمعقد، (**أي منطق الأعمال المتحركة المتداخلة في ما بينها**). ذلك لأن الجيش ليس أداة للسياسة في المعنى ذاته الذي تكون فيه المطرقة أداة في اليد. إنه كل مفهوم الحرب والصراع الذي هو أعلى شكل من أشكال السياسة في بعض الأحيان. وقد تبتدىء السياسة بجيش ضعيف. إن السياسة تحتل واجهة المسرح، أو تتخلى عنه، كالحرب ذاتها. وإن امتزاجهما هو الذي يصنع النصر. فليست الحرب في الواقع تابعة للسياسة، كما يتبع العسكري المدني. إن الحرب هي أعلى أشكال السياسة، وقد أكد كلاوزفيتز بقوة، أن الحرب عبارة عن تطور للسياسة المنتقاة، من قبل بلد من البلدان، وأنه يتم اللجوء إلى الحرب عندما تعجز السياسة عن تحقيق هذا الهدف الذي وضعه هذا البلد ذاته. وينبغي لكل حرب أن تأخذ بعين الاعتبار السياسة التي كانت سبباً لها. كما ينبغي أن تتلاءم قيادتها وإدارتها والسياسة التي يفترض أنها تخدمها تلاؤماً تاماً. ومعنى هذا أن السياسة هي التي تحدد أساساً، إنشاء خطة الحرب، التي تنبع منها إدارة الحرب. وقد ألح كلاوزفيتز على أنه لا ينبغي لإدارة الحرب في أية لحظة من اللحظات أن تصبح غريبة عن السياسة التي من الواجب أن تتطابق معها. إلا أن هذا يفرض التذكير دائماً بأن إدارة الحرب تبقى هي المسؤولة، مسؤولية كاملة، عن العمل العسكري. وإن أي تدخل للسياسة، على هذا المستوى، يشكل خطيئة حقيقية في المحاكمة والتفكير. وقد يقود إلى نتائج أليمة. وقد رأى كلاوزفيتز أن على الحكومة واجب تحديد خطة الحرب، باعتبارها الجهاز السياسي الأعلى. ويجب على القائد العام إعطاء رأيه، حتى يكون الحكام على اطلاع بالنتائج العسكرية لقراراتهم، غير أن دوره خلال هذه المرحلة يبقى دوراً استشارياً. وعلى العكس، يجب ألا يشاركه أحد في سلطته، عندما يتعلق الموضوع بخطة العمليات، والقوات المسؤولة عن تنفيذها، وواجباتها. وهذا مما يفرض على القائد العام أن يكون مزوداً بثقافة سياسية كافية.

لقد مضى على كتابات كلاوزفيتز زهاء ثلاثين عاماً ومائة عام، عندما وقف أحد الباحثين الفرنسيين الشهيرين ريمون آرون لإلقاء محاضرته عن الاستراتيجية الذرية والتي بدأها بمقولة كلاوزفيتز فقال: «إنكم تعرفون جيداً كلمة كليمانصو: **إن الحرب تبلغ من الجدية مبلغاً لا يجوز معه أن تترك للعسكريين وحدهم**» ولكنكم ربما كنتم تجهلون كلمة أخرى للجنرال ديغول. فقد كتب رئيس الوزراء البريطاني السابق المستر آتلي بمناسبة ظهور مذكرات الجنرال ديغول: «إن ديغول كان

بالتأكيد رجلاً عسكرياً كبيراً، سوى أنه كان سياسياً سيئاً» فرد ديغول على ذلك بقوله: «**إن السياسة هي مسألة أكثر جدية من أن تترك للسياسيين وحدهم**». ويبدو أنه لا يوجد بين الفكرتين أي خلاف أو تناقض. والطريقة الوحيدة للتوفيق بينهما هي إعطاء ثقافة سياسية للضباط، وعدم ترك رجال السياسة جاهلين بمعطيات الاستراتيجية، وتطبيقات الفن العسكري. وهذه فكرة صحيحة شاعت مع ظهور فكرة الحرب الشعبية الشاملة، والثورة الشاملة، التي تعتمد على جعل العسكريين سياسيين، وجعل السياسيين مقاتلين ثوريين. ولكن ما إن تنشب الحرب حتى تصبح السياسة بالضرورة سياسة القوة. فإما أن نجبر الخصم على الخضوع لقانوننا، أو نكون مضطرين إلى الخضوع لقانونه. وتصبح السياسة التي كنا نتبعها سياسة فاشلة كل الفشل. ولقد كتب كلاوزفيتز بهذا الصدد ما يلي:

«إن الحرب عمل من أعمال العنف. وليس هناك من حدود للتعبير عن هذا العنف. فكل خصم من الخصمين يصنع قانون الآخر. ومن هنا ينتج عمل متبادل، يصعد الصراع إلى الحدود القصوى». لذا، فإن البلد يحكم على نفسه بالهزيمة عندما يمتنع عن استخدام جزء من وسائله، في الوقت الذي يصمم فيه خصمه على استخدام وسائله كلها.

لقد تعرض كلاوزفيتز لنقد معاصريه في هذه النقطة كما في سواها، وممن عارضه الجنرال جوميني★. ومن المعروف أنه لم يكن لمفاهيم كلاوزفيتز إلا أنصار ومؤيدون فقط. فكتابه لم يطبع ولم ينشر إلا بعد وفاته، كما سبق ذكر ذلك، فلم يستطع كلاوزفيتز أن يشهد اعتراضات معاصريه. وإن فكراً بقوة فكر كلاوزفيتز، حري بأن يتوقع مثل هذا النقد، الذي جاء على لسان جوميني كالتالي:

«لقد دمر كلاوزفيتز في الواقع كل نظرية، وأعاق إنشاء أية نظرية في المستقبل. إنه ترك القائد ورجل الدولة وهما معلقان بين تجريدات واحتمالات، وبين مجموعة متعددة من المفاهيم، اعتماداً منه على حدسهما الشخصي. ولقد انصهرت نظرية الحرب ذاتها، وقواعد تكوين الجيوش وإدارة حربها، في نماذج غير مؤكدة من القوانين الضخمة والتفاصيل المتروكة لعبقرية القائد. ونحن نرى أنه من الممكن فهم وجهة نظره، لأن السياسة العليا تبقى خارجة عن محيطه. لقد لاحظ كلاوزفيتز عن قرب، وعلى الطبيعة، مسيرة نابليون. وكان نابليون مناقضاً للنظريات، لأنه كان هو التجسيد للنظريات».

★ جوميني: Jomini Henri Antoine ١٧٧٩ ــ ١٨٦٩ كاتب عسكري فرنسي من أصل ايطالي، عمل في الجيش النابوليوني وكان رئيساً لهيئة أركان الماريشال ني، في معركة اوسترليتز. اشتهر بكتاباته العسكرية، وبنظرياته التي استندت إليها المدرسة العسكرية الفرنسية خاصة. ونافست كتاباته في شهرتها كتابات كلاوزفيتز، وهي الكتابات التي صدرت في ٢٧ مجلداً، جمعت خبرات حروب فريدريك الكبير وحروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية.

هكذا، يعتبر جوميني إذن، أنه لا جدوى من محاولة إيجاد فلسفة الحرب، وأنه يكفي أن نفسر فن الحرب، بالاستناد إلى أحسن معلميها وأفضل قادتها. فالنظرية ليست نظرية إلا في حدود تعليم المجندين على استخدام الأسلحة، وتدريبهم التدريب الأولي على القتال. في حين تصل النظرية إلى أكثر العمليات الاستراتيجية تعقيداً، وهي العمليات التي وجه عليها جوميني كثيراً من الأضواء الهامة. ولقد تمسك جوميني بالأمثلة والقواعد، بينما ذهب بعيداً جداً إلى جوهر الحرب، متجاوزاً الشروط الضرورية والمحددة للحرب، إلى أن يصل إلى كل شروطها الضرورية من جهة، وليربط العمل العسكري بالعمل السياسي من جهة ثانية. وهو ما كان جوميني يراه عملاً خاصاً بنابليون. ومن الطبيعي أن يبدو المنظر الذي يشبه الحرب بالتجارة، أمام عيني جوميني منظراً غير مألوفٍ. ولقد اتهم كلاوزفيتز بعدئذ بالتخلف عن ركب الزمن. وهذا ما عبر عنه ستالين، عندما استند إلى فشل ألمانيا في حربين عالميتين، ليضع وزر الفشل على عاتق الألمان وقادتهم، وعلى صاحب نظريتهم كلاوزفيتز. غير أن هذا الاتهام يفتقر للدقة، ذلك أن القيادة الألمانية العليا قد زجت نفسها في طريق لم تعرف فيه سوى الانتصارات الأولى والهزائم النهائية. ذلك لأنها قلصت الفكر العسكري لكلاوزفيتز، وفقاً لمبادئها الخاصة، وأخضعته لوسائلها الخاصة. إن كلاوزفيتز هو الذي يتيح الفرصة لتفسير الهزائم العسكرية الألمانية، بأفضل مما يتيح الفرصة لتفسير انتصاراتها الأولية. لأن أساس فكر كلاوزفيتز يعتمد على التحليل لكشف الارتباط المؤدي إلى الفشل الجزئي والمؤقت، أو إلى الهزيمة النهائية. فمثلاً: يحتوي تحليل كلاوزفيتز في ذاتيته نقداً للحرب الخاطفة. كما أنه أعطى الأعمال الدفاعية المقام الأول، فهل يمكن القول أن الحرب العالمية الثانية قد برهنت على خطئه في هذه النقطة الرئيسة؟ ليست الخطيئة هي خطيئة كلاوزفيتز إذا ما ترجمت مقولاته وكتاباته ترجمات مبتكرة، أو غير أمينة. وليست القضية على كل حال هي قضية دفاع عن كلاوزفيتز وآرائه، وإنما هي قراءة في فكره العسكري، وما تركه من أثر في فن الحرب.

ب ـ فون كلاوزفيتز وقراءة (في الحرب)

لعله ما من كتابات عسكرية، احتلت تلك المرتبة الرفيعة التي احتلتها كتابات الكاتب العسكري البروسي كلاوزفيتز، وبصورة خاصة منها كتاب (فن الحرب)، والذي صدر في عشرة مجلدات، بالإضافة إلى دراسته التي صدرت في ثمانية كتب بعنوان (في الحرب)، عالج في أولها ما هو متعلق بطبيعة الحرب، وثانيها في نظرية الحرب، وثالثها في الاستراتيجية، ورابعها في الإشتباك أو المعركة. وخصص الكتابين الخامس والسادس للبحث في القوات المسلحة، والدفاع، ثم خصص الكتابين الأخيرين السابع والثامن لموضوعي الهجوم، وخطة الحرب.

وليس أدل على المرتبة الرفيعة التي احتلتها كتابات كلاوزفيتز من ذلك الجدل الكبير الذي امتد لأكثر من قرن ونصف القرن من عمر الزمن. ولقد اعتبرت كتابات كلاوزفيتز (في الحرب) مرجعاً يرجع إليه الباحثون والدارسون في كل دول العالم، يستشهدون بأقواله، أو يحاولون نقضها ومعارضتها، أو يعملون على شرحها وايضاح مضامينها. وكثيراً ما حملت تلك الأقوال من الإضافات والايضاحات بأكثر مما كان يقصده كلاوزفيتز ذاته، أو انتقصت قيمتها بسبب سوء فهمها على غير ما كان يريده كلاوزفيتز أيضاً. وعلى كل حال، **ومهما قيل بشأن كلاوزفيتز وآرائه، فإن كتابه (في الحرب) يعتبر بحق أول دراسة متكاملة ذات طابع فكري يمكن أن يطبق في كل مراحل التاريخ**. ولقد امتزجت كتابات كلاوزفيتز بالفلسفة، وتأثرت بها، مما أدى بها في كثير من الأحيان إلى الغموض والإفتقار إلى الوضوح. وقد قيل في ذلك بأن وفاة كلاوزفيتز المبكرة سنة ١٨٣١ م، قد حالت بينه وبين مراجعة ما كتبه، وأنه لو أتيحت له الفرصة لمراجعة كتاباته، أو أمكن مناقشته لأفكارها، لكان بالمستطاع حل كثير من الآراء التي بقيت كالألغاز المستعصية على الحل. ولكن مهما قيل بشأن كلاوزفيتز وكتاباته، خارج بروسيا وجرمانيا خاصة، فيكفيه ما قاله عنه القائد الألماني شليفن الذي ذكر: «**بأن كلاوزفيتز قد استطاع إبقاء فكرة الحرب الحقيقية حية وماثلة في أذهان الضباط البروسيين**». فهل كتب كلاوزفيتز لبروسيا[٣٥] وللبروسيين فقط؟ ولقد قيل أيضاً

(٣٥) البروسية Prussianism هي العقيدة التي استندت إلى مبدأ سيادة بروسيا ووضعها في مركز القيادة للاتحاد الجرماني، الذي شكل الانبراطورية الألمانية. وكان لبروسيا طابع استقلالي مميز في تشكيل ألمانيا الكبرى. وظل هذا حتى سنة ١٩٣٣. ثم فقدت بروسيا موقعها القيادي بأنتصار النازية.

بأن «**قادة النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد انتشوا بخمرة الدم الأحمر الذي أنبته كلاوزفيتز**» **فهل كان كلاوزفيتز من دعاة (جنون المعركة)**[٣٦] ؟

وإقراراً بالحقيقة؛ فقد أجمعت كافة الدراسات على أن كلاوزفيتز كان خصماً عنيفاً لدعوة (البروسية)، كما كان خصماً عنيداً، بالقدر ذاته لمبدأ (جنون المعركة). وعلى هذا فقد يكون من الظلم لكلاوزفيتز، باعتباره الداعية إلى الحشود الكبيرة، هو المسؤول عن اتجاه القادة العسكريين بعناد إلى الأخذ بفكرة خوض الحرب في عنف وقسوة، وذلك على نحو ما التزم به القادة الألمان خاصة، وقادة الجيوش الأخرى ـــ بالتقليد والمحاكاة ـــ منذ أيام كلاوزفيتز وحتى اليوم. وإذن فالقضية ببساطة هي أن كلاوزفيتز قد لاحظ عمق التغييرات التي أحدثتها قوانين التجنيد في المجتمعات الأوروبية، كما لاحظ التطورات التقنية المتسارعة في إنتاج الأسلحة، فقرر واقعاً ثابتاً، واستخلص منه ما يمكن أن تكون عليه حروب المستقبل، من الاتساع والشمول، مما يستدعي بالتالي خوض الصراع، بعنف وضراوة، لحسم الصراع على أرض المعركة، بكافة الوسائل المتاحة. غير أن استراتيجية كلاوزفيتز لم تكن بحال من الأحوال (**استراتيجية ذات اتجاه وحيد**). وإذا ما اختار القادة على التتابع، منذ أيام كلاوزفيتز، السير على اتجاه وحيد، وهو اتجاه تصعيد العنف حتى أوج شدته، فذلك يعود لظروف الحرب ذاتها. وإذن فقد اختار القادة الأخذ من تعاليم كلاوزفيتز وتوجيهاته، ما يتناسب مع ظروفهم الخاصة في أثناء إدارتهم للحرب. ولقد أراد كلاوزفيتز أن يفعل ما هو أكثر من مجرد الكتابة، حتى يفيد منها الجيل التالي لعصره، أو للمدرسة العسكرية البروسية. وعلى هذا فقد اندفع متعمقاً بروح البحث للصورة المطلقة للطبيعة الحقيقة الكاملة للحرب، وللفكرة المنظمة للمواضيع التي يمكن أن يعالجها في البحث، هذه الروح التي كانت تسود الفلسفة الألمانية إذ ذاك. وكلاوزفيتز، مع اختصاصه في المجال العسكري، فإنه قد تعمق أيضاً في دراسات أوسع مدى للبحث في أساليب المعرفة، وفي صلاحية المبادىء النظرية وإمكان تطبيقها على الفنون العملية الأخرى بالإضافة إلى تلك الخاصة بالحرب. وعندما بدأ كلاوزفيتز بإعداد كتابه الأساسي في العام ١٨١٦ أو ١٨١٧م، ذكر أن طابعه الفني إنما يجيء في: «**المحاولة والسعي للكشف عن طبيعة الظاهرة العسكرية لإظهار إمكان تمشيها مع طبيعة الأشياء التي تكونها، ولهذا فإن البحث والملاحظة والفلسفة والتجربة يجب ألاّ تطغى أي منها على غيرها، بل يجب أن تتعاون كلها معاً تعاوناً تاماً**». وقد أشار إلى ذلك كلاوزفيتز قبل وفاته بقليل، عندما قال: «**بأن الأصول في كتاباته**

(٣٦) جنون المعركة: اصطلاح استخدم كثيراً في القرن الثامن عشر، في إطار محاولات حصر القتال في نطاق ضيق من العنف، ولأقصر فترة ممكنة، والاستعاضة عن ذلك بكثرة المناورات والتحركات، لحصر الخصم، ووضعه أمام مواقف تدفعه للاستسلام. وكان هذا في الواقع اتجاهاً مضاداً لاتجاهات القادة الذين يسارعون للالتحام، والتعرض للخسائر الكبيرة في الأرواح والأعتدة، دون كسب عاجل أو آجل للحرب. وأصبح اصطلاح (جنون المعركة)، يمثل تصعيد العنف في القتال البري، أو البحري، أو الجوي حتى درجته القصوى، سواء أكان حجم القوات كبيراً أو صغيراً.

الرئيسة صحيحة تماماً، لأنها نتيجة انعكاسات مختلفة موجهة دائماً إلى الحياة العملية». وكتب في مقدمته لكتاباته عام ١٨١٦ ــ ١٨١٧ ما يلي: «**يجب للفنون العملية ألا تندفع أوراقها وزهورها ــ النظرية ــ لمسافة بعيدة، بل يجب أن تبقى قريبة من تربتها الصحيحة، وهي التجارب. وذلك على نحو ما يحدث للأشجار التي تحمل الثمار، عندما لا ترتفع ارتفاعاً كبيراً عن سطح التربة»**. ولقد كان هذا التنسيق بين الفلسفة والتجربة هو الظاهرة البارزة المميزة في تحليلات كلاوزفيتز للحرب. لقد كان في الواقع يقف بين عصرين، فبينما كان لا يزال يتبع دنيا الألمان للقرن الثامن عشر، والتي تقوم على التفكير الثقافي والأدبي، فإنه طالب بمكانة الرجل العملي الذي دربه التاريخ، وصقلته التجارب، وهذا ما مكّنه من الوصول إلى تلك المرتبة العقلية والمكانة الثقافية.

لقد استخلص كلاوزفيتز تجربته من الثورة الفرنسية، والحروب النابوليونية. وقد حدد الخطوط العامة للتغييرات التي لاحظها، والتي بنى عليها استنتاجاته بقوله: «كانت الحرب لوناً من المحاضرات، إلا أنها ظهرت من جديد بصورة مخيفة من صور العنف. لقد قلبت النظام الإقليمي، بل والنظام الاجتماعي لأوروبا رأساً على عقب، فلم تقم حروب هذا العصر تبعاً لمطالب محدودة الأهداف للرأسمالية الحاكمة، بل إنها انغمرت في كيان الأمم المعنية بها، وفي وجودها. وكما حدث في الحروب الدينية للقرن السادس عشر، فقد اختلطت ــ بعضها في بعض ــ مبادىء متضادة، وفلسفات متباينة من الحياة، وتشابك هذا الجهد الجديد مع التغييرات الأساسية في البناء الاجتماعي والسياسي لأوروبا. وقد عملت هذه بدورها في الوسائل المادية والمعنوية للحرب. لقد كانت جيوش العصر القديم ــ السابق للثورة ــ تتكون من جنود محترفين يخدمون لمدد طويلة، وكانت الجيوش محدودة العدد، دُرِّب أفرادها تدريباً جيداً. وكان كل من هؤلاء الجنود يعتبر جزءاً من رأس مال الدولة يستخدم بحذر، وبالإضافة إلى هذا فإن نسبة كبيرة من هؤلاء الجنود المحترفين، كانت من الأجانب، أو من الأفراد الذين يستدعون لخدمة الجندية، من الطبقات السفلى للسكان، وبلا شك، إن جيشاً مشكلاً بهذه الصورة، ومن هذه الطبقات، لا يمكن أن تتوافر لأفراده العاطفة القومية، ولا أن يكون له نصيب كبير من الفضائل الحربية. وكان بالمستطاع الاحتفاظ بالجيش متماسكاً، بضغط الإنضباط العنيف، وكان الجيش يدرب على السير والقتال في تشكيلات محددة، وتحت رقابة أو سيطرة شديدة من ضباطه، ولم يكن بالمستطاع إرسال جماعات للإشتباك (المناوشة) أو لجمع الكلأ والمواد التموينية. فقد كان خطر هروب الجنود أكبر من خطر العدو. وكانت الجيوش لهذا كله تعتمد إلى حد كبير على المستودعات التي تمون منها. ولذا لم يكن بالمستطاع أبداً القيام بسير سريع، ولا بإجراء توغل بعيد المدى في العمق، ولا القيام بمطاردة حاسمة، أو على الأقل، كان يعتبر تنفيذ أي من هذه الصور، أمراً خطيراً للغاية. وقد عملت هذه القيود على ممارسة تأثيرها بشكلين متباينين: فبينا كان القائد لا يستطيع إلا بصعوبة أن يسمح لقواته بالإنفصال عن قاعدة

تموينها، بمسيرة ما يزيد على يومين أو ثلاثة أيام، فإنه كان يجد خط مواصلات خصمه هدفاً جيداً صالحاً للإنقضاض عليه. ولهذا فإن الصورة العادية لحروب القرن الثامن عشر هي تقدم متباين لألوان المناورات المعقدة لعمليات السير على مختلف صورها، وقد اضطلعت الحصون والقلاع، التي تضم مستودعات التموين، بدور هام وأساسي في ضمان أمن الجيوش وسلامتها. وكانت عمليات الحصار، ومحاولات الإنقاذ لرفع الحصار، أكثر عدداً من المعارك العادية. وكانت الجيوش يواجه بعضها بعضاً عادة في مواقع محصنة، وتبقى غير نشطة، ودون حركة، لفترات طويلة جداً... **وهكذا كان الجيش المقيم في حصن أو قلعة، مع بعض المواقع المحصنة في أجنابه، يمثل دولة في داخل دولة. ويسير عامل الحرب بالنسبة للدولة الداخلية في بطء وتمهل**. وكانت هناك بالطبع بعض الشواذ لهذه الصورة العادية. وكانت القيادة التي تجيء بالهبة، كما كان التصادم بين المصالح السياسية الهامة يزيد من عنف الحرب. ولكن لم يكن باستطاعة القائد الموهوب أن يصل إلى فهم حقيقة الأحوال الفنية والاجتماعية للعصر الذي يعيش فيه، برغم أنه كانت هناك بداية تفهم جديد للعوامل غير المادية والتي تؤثر في الحرب، مثل (روح الجيش) وهو عامل غير التدريب الآلي للجيش. كما صحب هذا أيضاً إيجاد صور جديدة للتنظيم، كما أوجدت أساليب استراتيجية وتكتيكية يمكن أن تزيد من خفة الحركة. إلا أن مجرى أحداث العصر، كان يعطل من التقدم في هذا كله. **لقد فتحت الثورة الفرنسية الطريق لكافة التحولات، ولم تكن جيوش الثورة قادرة على القيام بالمناورات المعقدة، إلا أنها كانت قادرة على القتال كلما بدت لها فرصة خوض المعركة، لتحقيق مغنم أو الحصول على فائدة. كانت تقوم بالهجوم من غير أي تقدير للخسائر في الرجال**. فقد كان بالمستطاع حشد كل الموارد للأمة، من أجل إمداد جهاز الحرب بما يحتاجه من الرجال. وقد مكّن هذا التغيير للأصول الاجتماعية من إيجاد استراتيجية تستفيد من خفة الحركة للقوات. واعتمدت أساليب الإمداد والتموين، على أساس تقدير الاحتياطات من قبل، وإعدادها بصورة مسبقة، وتقديمها في الوقت المطلوب. وبات بالإمكان الاعتماد على الفرد في المعركة. ودعمت نيران الأسلحة الفردية بالنيران الإجماعية (المدفعية) واستخدمت الإشتباكات الفردية، ومهرة الرماة، في مرحلة التمهيد لهجوم القوات الضخمة (الرئيسة).

وقد وصل نابليون إلى كل هذه الخاصيات، واستطاع تفهمها واستخدامها، ثم اضاف إليها عبقريته الشخصية أو إبداعه في القيادة. وقد كشف في البداية عما يمكن عمله بهذه الجموع الجديدة من الجند، وبدت الحملة الإيطالية (١٧٩٦ ـــ ١٧٩٧ م) لأعين المعاصرين وكأنها انفجار بركان، أو هيجان لقوى أولية، تضرب حيث لم يكن بالمستطاع توقع ضرباتها، بدلاً من أن تصطدم حيث كانت (النوايا الطيبة) يمكن أن تشير إلى مكان الإصطدام المحتمل، وهنا كان عامل المباغتة وتأثيره الكبير. ولقد عمل نابليون ضد كل القواعد التقليدية المألوفة، فقد وضع جيشه على الخطوط

الداخلية بين النمساويين والسردينيين دون ما تقدير لخطوط مواصلاته، ودون أن يضع موضع التقدير تغطية أي أرض أو غزوها. **كان هدفه الوحيد إجراء المعركة وتدمير القوات التي تواجهه، ولم يدخل نابليون بعدها حرباً إلا وهو يفكر في قهر خصمه مرة واحدة وفي المعركة الأولى. وكان هذا اسلوباً مليئاً بالعنف والقسوة**. ولكن هذه الجرأة البدائية، قد صحبتها عناية خاصة بالتفاصيل الفنية. كما صحبتها قوة نفاذة مليئة بالمنطق والتقدير الحسابي لكل العوامل المؤثرة، وقد مارس عامل المباغتة دوراً كبيراً، وسواء أكان نابليون قد حشد كل فرقة في حركة سريعة، وسقط كالصاعقة على أضعف نقطة في جبهة العدو، أو كان قد طوى جناح العدو، ووضع حشد قواته مقاطعاً لخطوط تقهقر العدو (السد الاستراتيجي)، سواء أكان هذا أو ذاك، فإن نابليون كان يصل إلى النصر في ميدان المعركة، ثم يقوم بمطاردة لا هوادة فيها. على أن حروب نابليون الخاطفة أو الصاعقة، لم تلبث أن تثاقلت، سواء بسبب اطراد الزيادة في حجوم الجيوش الفرنسية، أو عدم زيادة القدرة على إدارة هذه الجيوش، وقيادتها، بذات الدرجة. وبالإضافة إلى هذا، فإن خصوم نابليون كانوا قد تعلموا من الدروس التي تلقوها على يديه في البداية، واستخدموا هم أيضاً بدورهم الكثير من الأساليب والأهداف الجديدة، وعلى الأخص استراتيجية اتخاذ القرار الحاسم. على أن الأهم من ذلك كله هو أن قارة أوروبا كلها أخذت ــ في صورة ما ــ بالأحوال الاجتماعية والمعنوية التي جاءت بها الحروب النابليونية، فأثرت في أعماقها. وسواء أكان هذا قد جاء في صورة بدائية أم في صورة جديدة مستحدثة، فإن مقاومة السيادة الفرنسية قد أصبحت عملاً للشعوب الأوروبية في إسبانيا وروسيا، وفي النمسا وبروسيا. على أن هذا الايقاظ لهذه القوى التي كانت تغط في النوم قبل الثورة، سبب إيجاد الجيوش الأهلية، الوطنية، في أوروبا كلها. وأنتجت بهذا جهداً لا يقارن، وفي حملات سنتي ١٨١٣ و ١٨١٤، كان هناك ما يقارب من نصف مليون من الجنود الروس والبروسيين يعملون في صفوف الجنود. فأمكن خلال ثمانية أشهر نقل مسرح الحرب من شرق ألمانيا إلى قلب فرنسا. وهكذا وبينما كانت التصورات الاستراتيجية لا تزال تتأرجح، وضح من طبيعة الصراع ذاته أنه لا يمكن الوصول إلى حل جيد إلا بعد تدمير جيوش فرنسا تدميراً كاملاً». وقد تأثر كلاوزفيتز ــ طبيعياً ــ وإلى حد بعيد بهذه المحاضرات العملية التي قدمتها الحرب. فما دامت الحرب قد كشفت عن ذاتها في صورتها المطلقة، فقد تنبأ كلاوزفيتز بأن هذا الاندفاع إلى النهاية، وحتى أبعد الحدود الممكنة، هو اندفاع لا يمكن له أن يختفي ثانية أو يزول، وأشار إلى هذه الحقيقة بقوله: **«وسيوافقني كل فرد بأن تحطيم القيود التي طالما حددت حرية العمل بين ما هو ممكن وما هو مستطاع، وأن عدم توافر القدرة لإعادة فرض هذه القيود من جديد، سيجعل من الأعمال العدائية المقبلة صورة عما ظهر منها في عصرنا»**. وكان كلاوزفيتز على حق عندما ربط بين هذا الاندفاع إلى أقصى حد ممكن، وبين الحقيقة القائلة بأن: «الحرب قد أصبحت منذ أيام نابليون عملاً من أعمال الشعوب». وأن هذا التجديد والاستكمال للقوى الاجتماعية الناتجة عن الحرب،

إنما يقترب من الوصول إلى حال الكمال المطلق. **وقد كان كلاوزفيتز تواقاً إلى ألا ينسى أحد في بلاده هذا الدرس.** وقد عاود المرة بعد الأخرى في كتاباته تقديم الأمثلة المستخلصة من الحروب النابوليونية، فكان كلاوزفيتز يسير إلى مدى بعيد في حديثه عن نابليون، إذ اعتبره (إله الحرب). وليس غريباً بعد ذلك القول بأن كلاوزفيتز قد وضع حروب نابليون «على أنها القانون الذي يجب اتباعه، أو أنها المدرسة التي يجب السير على نهجها ومبادئها».

قد يكون من الصعب في الواقع فهم كلاوزفيتز فهماً صحيحاً من خلال اللمحة الوجيزة السابقة. ويعني ذلك الذهاب بالبحث بعيداً في محاولة لفهم نظرياته. وقد أظهر العرض السابق أن كلاوزفيتز قد استطاع فهم الأصول الأساسية للحرب، وأدرك هذه الأصول إدراكاً عميقاً، وهو متحرر من أي اتجاه أو ميل خاص، وأنه انصرف لعمله متجاوباً مع الحوادث الأخيرة التي عاشها وعاصرها. وتبدو هذه الحقيقة واضحة عند مقارنة كلاوزفيتز بأي من القادة والكتّاب العسكريين، أصحاب النظريات ممن عاشوا في القرن الثامن عشر. لقد كانت الصورة العامة للحرب في القرن الثامن عشر ترضي على التخصيص رأي وفكر أهل عصر عاشوا حياة التفاؤل، إذ لم يعرف نظام الحكم السابق للثورة الفرنسية أو النظام القديم، ذلك الجو غير المنطقي للحقد الدفين، والكراهية البدائية، والعداء العنيف. ولم يكن الجذب والدفع بين الدول كبيراً إلى الحد الذي يدفع الحرب إلى أبعد من الجو التقليدي المألوف. وكان توازن القوى، قد أوجد اتجاهاً تحفظياً. وكما كان هناك عرض أو تظاهر سياسي، كان مثل هذا عرض أو تظاهر عسكري، وكان الاثنان صنوين للأسلوب المعاصر لفن العمارة، مع ما صحبه من اهتمام بالزخرفة والتنميق والتذويق. بل إن المجتمع ذاته قد سار في إطار من الزخرفة والبهرجة، حتى إن الحرب ذاتها قد امتدحت بسبب ظواهر الفروسية التي تميزت بها، وبسبب أن الفلاحين كانوا يستطيعون حراثة أرضهم، وأن تسير صور الحياة المدنية على طبيعتها بالقرب من ميدان القتال أو على مقربة من المعسكر المسلح. وبدا أن السيف الثقيل قد استبدل بحسام خفيف أنيق في ذات الصورة التي للأسلحة الخفيفة والمستخدمة في ألعاب المبارزة الرياضية (الشيش). وكانت الحرب في النظام القديم تتمشى أيضاً مع الروح الفنية للعصر، كانت هناك في عصر النضوج العقلي[٣٧]، معارضة حقيقية للحرب من حيث المبدأ، وكانت هذه المعارضة قائمة يقيناً على أساس من المشاعر الإنسانية، وعلى أساس من الاعتبارات الاقتصادية، ولكن وجد كثير من المفكرين في ذات الوقت أن صورة الحرب المعاصرة قد هذبت منها هذه القيود التي نتجت عن تكوين الجيوش، وعن غير هذا من الوسائل الفنية المانعة من الانطلاق، فأضحت الحرب مسألة فنية. وتبعاً لذلك ظهر الإصرار الكبير على القيام بالمناورات المعقدة، والمسيرات

(٣٧) عصر النضوج العقلي ـــ ترجمة اصطلاح: Enlightenment - Age وتعني عصر روح الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر.

الطويلة التي يمكن لها أن تحدّ من القتال. وبرزت اصطلاحات (زوايا العمليات ــ على النقط الجغرافية المعينة مثل خطوط تقسيم المياه)، هذه النقط التي قد يجعل احتلالها الوصول إلى النصر مسألة آلية على الأغلب. وفي هذا العصر ذاته، سيطرت الرياضيات والطبوغرافيا على تفكير القائد العسكري. وهذا ما عبرت عنه نظرية انكليزية قالت: «**إن القائد الذي يعرف هذه الأشياء يستطيع إدارة العمليات الحربية بإجراءات هندسية، ويستطيع الاستمرار في الحرب من غير حاجة ملحة للإشتباك في معركة حاسمة**» بالاضافة إلى نظرية مماثلة نصت على ما يلي: «**ما دامت الحرب قد باتت علماً، فمن الطبيعي أن تنشأ أكاديمية عسكرية دولية لدراستها**».

تصدى كلاوزفيتز لمعارضة نظريتي القرن الثامن عشر. فالحرب في رأيه ليست مباراة علمية، ولا هي برياضة دولية، بل هي عمل من أعمال العنف، وليس في طبيعة الحرب شيء معتدل، ولا شيء له علاقة بالإنسانية. وفي كتابه (فن الحرب) فقرة كثيراً ما وضعت موضع المراجعة والمناقشة، وهي: «**إننا لا نحب أن نسمع عن قادة ينتصرون دون سفك الدماء، وإذا كانت المعارك الدامية مخيفة المنظر، فإن هذا يجب أن يكون السبب حتى نقدر الحرب حق قدرها.. لا أن نسمح لسيوفنا أن لا تكون حادة، وأن تصدأ بمرور الأيام بعامل الإنسانية، حتى يثب فرد ما ويقطع بسيفه الحاد أذرعنا عن أجسامنا**». ولقد جاءت هذه الكلمات تعبيراً عن التجربة المؤلمة التي عاشها كلاوزفيتز، إلا أنها عبرت في الوقت ذاته عن حقيقة ثابتة أكدتها تجارب الحروب المتتالية، وهي: «إنه من المحال على العلم أن يجعل الحرب شيئاً معتدلاً، أو أن يجعل للحرب صلة بالروح الإنسانية». وكان من رأي كلاوزفيتز أن الناحية العلمية من الحرب، وهي الناحية التي يمكن قياسها أو تقديرها بالمقاييس المادية، إنما هي ناحية تحتل المرتبة الثانية من الأهمية. على أنه لم ينتقص من أهمية خدمات الإمداد والتموين، ولا من أهمية الطبيعة الجغرافية لمسرح الحرب، وقرر أن العوامل الحسابية (الرياضيات) والطبوغرافية، لها أهمية في التكتيك من فن القتال. إلا أن هذه العوامل الحسابية والطبوغرافية تحتل مرتبة أقل أهمية في الاستراتيجية. ومما قاله في ذلك: «ولهذا فإننا لا نتردد في اعتبارها حقيقة مؤكدة، وهي أنه في الاستراتيجية، يكون الاعتماد على حجوم القوات المنتصرة، أكثر من الاعتماد على الخطوط التي تربط بينها». وأحب كلاوزفيتز أن يسخر من المصطلحات المضللة والتي فرضت فرضاً مثل (الأرض الحاكمة أو المسيطرة) و (المواقع الساترة) و (المفتاح إلى أرض الدولة) وما إلى هذا من المصطلحات التي كانت تعني من وجهة نظره «إعطاء مظهر براق لهذه الصورة العادية للمركبات العسكرية المرتبطة معاً، لقد نظر الناس خطأً إلى الأحوال والظروف المحيطة بالشيء، بدلاً من أن ينظروا إلى الشيء ذاته. نظروا إلى الجهاز أو الآلة بدلاً من أن ينظروا إلى اليد التي تمسك بها. لقد اتجهوا دائماً إلى التفكير في احتلال مكان أو آخر، إن كان هذا إنما هو علامة للزيادة أو النقص في التفكير الذي تعوزه المادة، هذه المادة التي هي المعركة

الناجحة». وقد تعرض كلاوزفيتز لهذه الناحية في دراسة مبكرة له ظهرت سنة ١٨٠٥ عندما انتقد واحداً من اولئك الذين سبقوه، والذي حاول أن يجعل من الحرب مسألة فنية، فأصر كلاوزفيتز على تأكيد تفوق العوامل المعنوية والعوامل غير المادية، فتحول من العلاقات الهندسية بين الأشياء، إلى الإنسان وأعمال هذا الإنسان، في غمرة هذه المسائل الغامضة، وذات النتائج غير المؤكدة، والتي تشكل العناصر الهامة في الحرب. لقد كان هذا في صورة ما يماثل كوبرنيك(٣٨) في الفلك. كما كانت في الوقت ذاته تعبيراً عن تأثر كلاوزفيتز، بالأسلوب النقدي الذي جاء به الفيلسوف كنت(٣٩). هذا مع حرص كلاوزفيتز على تدمير أية عقيدة تفرضها أو تدعمها القوة تدميراً كاملاً حتى يفسح المجال لقبول نظرية صحيحة أخرى بدلها. وقد أشار في المرحلة الأخيرة من كتابه (في الحرب) إلى أن أية نظرية ليست مثلها كمثل، المرتقى الخشبي أو درجات السلم، التي توضع عند مدخل الأبنية حتى يصعد عليها عمال البناء، بهدف مساعدة الأفراد في العمليات. وهي ليست كذلك توجيهاً موضعياً في العمليات. بل إن النظرية تعني: «تحقيقاً وبحثاً تحليلياً للموضوع تؤدي إلى المعرفة الصحيحة. فإذا ما جيء بها للوصول إلى ثمار نتائج التجربة والتي هي في حالنا هذه، التاريخ العسكري، بل وللوصول أيضاً إلى الانتفاع التام من التاريخ العسكري، تبدت الحقيقة، من أنه كلما ازداد تعمق النظرية إلى المعرفة، أمكن الوصول إلى الناحية الموضوعية، ألا وهي المهارة في العمليات الحربية». وأضاف كلاوزفيتز:

«**يجب أن تعلم النظرية فكر الرجل الذي سيكون قائداً عسكرياً في المستقبل، أي أن تقوده وتوجهه في تثقيفه لنفسه، لا أن تصحبه إلى ميدان المعركة، وأن يكون مثلها مثل المدرس الحصيف الذي ينير ويفتح مغاليق عقل الشاب، الذي يأخذ عنه العلم دون أن يبقى ممسكاً بخيوط توجهه مدى حياته**». والنظرية الصحيحة لا يمكن أن تتعارض أو أن تتناقض مع التجربة المبدعة والمبتكرة، كما تفعل أية عقيدة تفرضها سلطة أو قوة عاجلاً أو آجلاً. ولهذا فإن كلاوزفيتز قد أشار إلى ذلك بقوله: «**ما يفعله العبقري يجب أن يكون هو أفضل القواعد والأصول، ولا يمكن أن تكون (النظرية) أحسن من أن توضح كيف ولماذا يكون هذا صحيحاً**». وتكشف

---

(٣٨) كوبرنيك نيكولاس: Copernic - Nicolas عالم فلكي بروسي شهير، ١٤٧٣ ــ ١٥٤٣، ولد في ثورن من بروسيا الشرقية عندما كانت جزءاً من بولندة. تعلم في جامعة كراكوف ثم في جامعة بولونا. درس الفلك والطب وأصول الدين ولكنه انصرف إلى الفلك والرياضيات. وفي العام ١٥٠٠ كان يدرس الرياضيات في جامعة روما ثم في جامعة بادوا. وكتب في السنة الأخيرة من حياته رسالة إلى البابا بول الثالث ضمنها دراسة برهن فيها على أن الشمس هي مركز الكائنات، وأن الأرض وغيرها من الكواكب تدور حول الشمس.

(٣٩) كنت: Kant - Emmanuel فيلسوف ألماني من مواليد كونيغسبرغ ١٧٢٤ ــ ١٨٠٤م، من أشهر مؤلفاته: نقد السبب المجرد، ونقد السبب العملي، ونقد التقويم أو الحكم على الأشياء، ونقد أسس الميتافيزيك والعادات. وكان ناقداً مثالياً. أكد في أبحاثه فكرة أن الأشياء التي نعرفها ليست إلا ظواهر لما تدركه الحواس عبر البعدين الزمني والمكاني، في حين تبقى الأشياء التي لا ندركها بحواسنا غامضة ومجهولة. وإن الشرائع الأخلاقية تفترض وجود الحرية والخلود ووجود الله.

وجهة النظر هذه عن حقيقة ضلة كلاوزفيتز بتجربة الحروب النابوليونية. فلقد مكنت هذه التجربة من اتساع مجال التحليل، كما زادت من إيضاح العامل الانشائي، أو التركيبي الذي شكل فكرة الحرب. وهذا ما عبر عنه كلاوزفيتز بقوله: «**وقد نشك فيما إذا كانت فكرة (الحرب المطلقة) قد وجدت حقاً، لو لم نكن قد رأينا الحرب الحقيقية، تبدو واضحة في عصرنا هذا الذي نعيش فيه، ودون هذه الأمثلة المنذرة المحذرة بهذا الانطلاق والتحرر للقوى المدمرة، ما كان فرد ليصدق، ما عشنا لنرقبه، حقيقة ملموسة وواضحة لأعيننا**». ولقد كان هذا المديح للعبقرية في الحرب، مع اتجاهات كلاوزفيتز الفلسفية، هو العامل الذي منعه حتى من أن يذكر رأيه، ووجهة نظره في أي نظرية، أو فكرة تكتيكية، أو استراتيجية استخدمها نابوليون.

لقد اتبع كلاوزفيتز نهجاً ناقض فيه جميع أصحاب النظريات الذين سبقوه، وقد تميز عمله بالجمع بين تحليل العوامل الانشائية للحرب، وبين المرونة الايجابية، والقدرة على التمييز والمفاضلة بين هذه العوامل. وقد قادته التجربة، كما وجهه التفكير الفلسفي إلى ما أطلق عليه اسم (الحرب المطلقة). على أن هذا الاسم أو الإصطلاح، يتطلب بعض الإيضاح، ذلك لأنه لم يجيء طليقاً متحرراً من المعاني المليئة بالشك، أو على الأقل غير المؤكدة والمليئة بالاحتمالات، كما أنه ليس مطابقاً، ولا مماثلاً لإصطلاح (الحرب الشاملة). ولو أن الاثنين يجيئان معاً في الاستخدام العادي، إنْ قليلاً أو كثيراً. وقد رأى كلاوزفيتز أن هذه الصورة للحرب المطلقة، إنما تجيء من طبيعة الحرب ذاتها. فالحرب ــ في التعريف الصحيح لها ــ هي عمل من أعمال العنف، هدفه إرغام الخصم على الخضوع لإرادة خصمه. وقد عرف كلاوزفيتز الحرب من حيث تبعيتها للمجتمع بقوله: «**إنها صراع بين المصالح الكبرى التي تتقرر نتائجها بسفك الدماء. وهذا وحده هو الذي يفرق بينها وبين غيرها من صور الحياة الاجتماعية. ومن أجل ذلك كانت القوة هي الوسيلة ذات الخاصية الواضحة في الحرب. ومن غير الصحيح إدخال ــ مبدأ الاعتدال ــ في فلسفة الحرب ذاتها. إن عدونا لا يخضع لرغباتنا أو إرادتنا إلا إذا أجبر على نزع سلاحه. أو وضع في موقف يكون فيه مهدداً بأن ينتزع منه سلاحه**» ومن هنا جاء المبدأ القائل بأن يكون الهدف من الحرب هو «نزع أسلحة العدو، أو تدمير قواته». ولما كان كل طرف من الطرفين المتصارعين، أو الأطراف المتصارعة، يحرص على بلوغ الهدف ذاته. فقد كان من الطبيعي أن يحتدم الصراع المسلح بينهما، وأن تصبح الحرب «**عملاً من أعمال العنف إلى غاية ما يمكن من مدى أو حدود**».

هكذا طرح كلاوزفيتز وجهة نظره في (الحرب المطلقة) ببساطة ووضوح. وهو عندما قدم رأيه، قدمه على أساس أنه (نظرية) لها أهميتها: «وأن من واجب هذه النظرية إبراز أقصى مدى للصورة المطلقة للحرب، واستخدام هذه الصورة باعتبارها توجيهاً عاماً، وأن من يريد أن يتعلم شيئاً من هذه النظرية، فإنه يجب عليه تعويد نفسه على ألاّ تغيب هذه النظرية أبداً عن عينيه، وأن يعتبرها

دائماً المقياس الطبيعي لقياس آماله ومخاوفه، وذلك حتى يستطيع الإفادة منها، والانتفاع بها كلما وجب عليه ذلك».

على أن كلاوزفيتز في تعريفه للحرب، وفي تقديره للحرب المطلقة، وتأكيده أهمية وضعها دائماً نصب العينين، يعود للحديث عنها في أكثر من مكان، من كتابه (في الحرب)، فمرة ثانية يقول: «**إن الحرب التي توجه للوصول إلى قرارات عظيمة ليست أبسط من غيرها وحسب، بل وأكثر، تمشياً مع الطبيعة، وأكثر تحرراً من الاضطراب وعدم الانتظام. وعلى ذلك، وعن طريق النظر إلى الحرب في صورتها المطلقة يمكن الوصول إلى ما في الحرب من تماثل وتطابق، وفيها وحدها يمكن رؤية كل الحروب كأشياء من نوع واحد متماثل، وعن طريقها وحدها يمكن الوصول إلى القواعد الكاملة والأسس الحقيقية. كما يمكن إدراك الخطط العظيمة والعمل على تنفيذها**».

لقد اعتبر كلاوزفيتز يقيناً، بأسلوبه الفلسفي، أن (الحرب المطلقة) هي الطابع المثالي، وأنها هي النظرية التي تؤكد التماثل، و الموضوعية، في هذه الظاهرة ذات الصور المختلفة. وقد احتضن كلاوزفيتز مبدأ (الاندفاع إلى أقصى ما يمكن)، فرأى في هذه الصورة كمال الحرب. فكانت (الحرب المطلقة) من وجهة نظره هي الصورة المجردة للحرب. وتبع هذا التعريف المنطقي للحرب بالإشارة التالية: «يأخذ كل شيء شكلاً متبايناً عندما ننتقل به من التجرد المعنوي إلى الحقيقة». وقدم كلاوزفيتز عدداً من العوامل المعدلة التي لا تجعل الحرب عملية فردية توجهها قوانين الاحتمال، لا قواعد المنطق، فالحرب ليست عملاً منفصلاً عن غيره. ولا تتكون الحرب من عملية واحدة، ولهذا توجد الفرص لتأثير هذه العوامل، فوصول الجنود الجدد، وزيادة اتساع مسرح الحرب، وتكوين الاتحادات والأحلاف، كل هذه قد تجيء وراء بعضها بعضاً، لتقوم بدورها على التوالي للتأثير في الحرب: «**وأي شيء يغفله أحد الجانبين المتقاتلين، بسبب ضعفه عن إدراكه، أو الاحتفاظ به، يكون بالنسبة للجانب الآخر غرضاً حقيقياً تتحدد جهوده تبعاً له. وبذلك فإن كل تدابيره البعيدة المدى، والواسعة الأهداف، تتضاءل وتنتهي إلى جهود بسيطة في نطاق محدود**». وقد ناقش كلاوزفيتز مجموعة هامة من هذه العوامل المعدلة بصورة واقعية، مما أعطى هذه العوامل قيمتها الثابتة في كل الحروب، حتى الحروب الحديثة منها. وكان من هذه العوامل التي ناقشها بإسهاب: الخطر، و النشاط الجسماني، و المعلومات في الحرب، وعدد آخر من العوامل غير المؤكدة، والتي تتأثر بالفرص والاحتمالات، والتي تفصل التفكير عن التنفيذ. وأجمل هذه العوامل تحت عنوان (عدم التوافق) أو (تصادم الرغبات)، وهو اصطلاح قد باتت له قيمة هامة في معجم المصطلحات العسكرية. وهذا التصادم هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن من التمييز والفصل بين (الحرب الحقيقية) و (الحرب المجردة، أو الحرب على الورق كما تسمى أحياناً). حيث تظهر مجموعة لا نهاية لها من

الأحداث الصغيرة التي تجعل الخطط قاصرة عن إدراك أهدافها. ويقدم كلاوزفيتز في هذا المجال تعبيراً قد لا يخلو منه مرجع عسكري وهو:

«**إن كل شيء بسيط في الحرب، ولكن أبسط الأشياء هي أصعبها وأكثرها تعقيداً. إن النشاط في الحرب هو التحرك في وجه مقاومة متوسطة. وكما أن الانسان المغمور في الماء قد لا يستطيع القيام في يسر بأبسط الحركات العادية ألا وهو السير، فإن الفرد في الحرب لا يستطيع بالقوى العادية أن يحتفظ بقدرته على القيام بما هو عادي أو بما هو ثانوي الأهمية**».

على أن أهم هذه العوامل المعدلة إنما تنتج من الربط بين الحرب والسياسة. ومن الضروري قبل الاقتراب من المشكلة الوسطى لنظرية كلاوزفيتز أن تقال بعض الكلمات عن (المعركة الأساسية). وقد يكون من الضروري التأكيد على أن العلاقة بين الوسيلة وبين الغاية، قد احتلت مكانة ممتازة في تفكير كلاوزفيتز، وأوضح مثال على ذلك هو تعريفه للتكتيك والاستراتيجية، إذ قال: «**التكتيك هو نظرية استخدام القوات المسلحة في القتال. أما الاستراتيجية فهي نظرية استخدام القتال لأغراض الحرب**». وقد جاء كلاوزفيتز بهذا التعريف، عندما اعترض على وجهة النظر التي تميز بين إدارة التحركات في مدى رؤية العدو، والتي في خارج هذا المدى. ومهما كانت القيمة الفنية للتعريف الذي جاء به كلاوزفيتز فإن هذا التعريف يتميز بإصراره على العامل الانشائي، وعلى العلاقة المرغمة بين الوسيلة والنهاية. وكما قال كلاوزفيتز: «**حيثما توافر الجنود يجب أن تتوافر دائماً الفكرة للقتال. فكل نشاط في الحرب يجب أن يرجع إلى القتال، سواء أكان مباشراً أم غير مباشر. فالجندي يجند ويكسى ويسلح ويدرب وينام ويأكل ويشرب ويسير، وكل هذا فقط ليقاتل في الوقت والمكان المناسبين**». ولقد تكررت هذه الصورة للعلاقة بين الوسيلة والغاية على كافة المستويات. فالقتال ليس وسيلة في حد ذاته، كما أن الجنود لم يعودوا كذلك، وما دام الجنود يستخدمون للقتال، فإن القتال يجب أن يوجه لإدراك هدف الحرب وغايتها. وهذه الغاية هي تدمير إرادة القتال للعدو. ولهذا كان من الضروري أن يعتبر إرغام العدو على القاء أسلحته، عن طريق هزيمته في معركة حاسمة، هي أبرز وسائل الحرب. وقد تحدث كلاوزفيتز في أكثر من مناسبة، بهذا الصدد فقال: «**ويبدو أن تدمير قوة العدو المسلحة قد اعتبر دائماً هو الوسيلة الأفضل والأكبر تأثيراً، والتي يجب أن تفسح كل الوسائل الأخرى السبيل لها. إن الحل الدامي، أي الجهد الذي يبذل لتدمير قوة العدو، هو المولود الأول للحرب**».

يظهر هنا أن كلاوزفيتز لم ينظر نظرة صحيحة، وبعيدة المدى إلى حقيقة لها قيمتها، وهي أنه على امتداد مراحل التاريخ، لم يوضح سوى عددٍ من الحروب لهذا الارتباط القوي بين الوسيلة والغاية. وأن (الحرب الحقيقية) لم تصل إلا نادراً إلى ذروة التطور في معركة أساسية واحدة، كما لم يحدث قتال قوي اطلاقاً في كثير من الحروب. وقد جابه كلاوزفيتز، هذا التناقض، أو التعارض،

بين (الحرب الحقيقية) و (الحرب المعنوية). فتقدم برأيه القائل بأن فكرة (المعركة المحتملة أو المتوقعة) قد تكون مركزاً لتقابل الاشعاعات، حتى في الحرب التي لا يكون فيها أي وجود للكيان المادي. ويستطيع أي جيش تجنب القتال، عندما يتأكد أن خصمه لن يتقدم إلى المحكمة العليا، أي أنه لن يحتكم إلى القوة المسلحة، أو أن يثق خصمه بأنه سيفقد قضيته إذا احتكم إليها. ويمكن أن يقال بأن كلاوزفيتز قد فكر في أن المعركة الأساسية، هي شيء آخر، مثلها كمثل الأسطول الانكليزي الذي كان في الماضي يسيطر على الأحداث، حتى ولو لم يظهر فعلاً على مسرحها. وقد قدم كلاوزفيتز ذاته شيئاً مقابلاً آخر في مقولته: «إن القرار الذي يجيء بقوة الأسلحة في كل عمليات الحرب الصغيرة والكبيرة، مثله كمثل الاتفاق النقدي في التجارة».

بقيت العلاقة بين الوسيلة والغاية، وهي القاعدة الأساسية أيضاً في الايضاحات السياسية لكلاوزفيتز عن الحرب. وقال في ذلك: «إن المعارك والحروب والمعاملات السياسية تكون صورة من الكيان الإجمالي الذي يسيطر فيها الكل على الجزء، وتسيطر فيها الغاية على الوسيلة، ويبدو هذا النظام معكوساً في بعض الأحيان، وذلك أن المعركة تبعاً لصورتها الحاسمة، تبدو متحكمة في الغرض من الحرب». وقد أشار كلاوزفيتز في حديثه الدراسي عن الحرب المطلقة، إلى أن الهدف العسكري بتدمير قوات العدو، يحل مكان الغرض النهائي والهدف السياسي.

لقد أصر كلاوزفيتز على أن يكون للقائد موقفه في التأثير على مجريات الحرب، بفضل ما يفترض أن يتوافر له من الكفاءة الشخصية والفضائل الحربية، وذلك على أساس القاعدة ذاتها من العلاقة بين الوسيلة والهدف، بين الحرب والسياسة، عندما قال: «**ليس الهدف السياسي مشرعاً جامد التفكير، ولا ديكتاتوراً يتحكم في كل شيء، بل لا بد من تنسيق هذا الهدف ليتوافق مع طبيعة الوسائل المستخدمة. وغالباً ما يتغير الهدف السياسي بجملته. ذلك أن الاستراتيجية من ناحية عامة، والقائد العام من ناحية خاصة، قد يتطلبان أن لا تتعارض الاتجاهات والأهداف السياسية مع الطبيعة الخاصة للوسائل العسكرية، وليس هذا الطلب من الأمور البسيطة في كل الأحوال**». لعل كلاوزفيتز قد طرح مقولته هذه وهو يفكر في محترفي السياسة من رجال البلاط، أو ربما كان يفكر في الهيئات التي كانت غالباً ما تتدخل في إدارة الحرب أيام القرن الثامن عشر، أو لعله كان يفكر أيضاً في الحقيقة الواضحة من أن السياسة، كما هي الحال بالنسبة للحرب، إنما تعتمد على ما هو ممكن من الناحية العسكرية. ولكن من المؤكد أنه كان يفكر في الطابع الحاسم الذي للقرارات العسكرية، والتي كانت تؤثر بطبيعتها في الرجال تأثيراً كبيراً من الناحية المادية. وقد انتهى كلاوزفيتز بالتأكيد في هذا الأمر إلى الحقيقة الأساسية التي ثبتت صحتها في أية صورة من صور الحكم. ولقد واجهت –حتى الأنظمة الديموقراطية– وستواجه مواقف كانت المطالب العسكرية الملحة فيها هي المسيطرة على الاعتبارات السياسية بدرجة كبيرة. على أنه يجب أن يضاف

إلى ذلك كله، بأن اتجاه فكر كلاوزفيتز، قد سار نحو التنظيم المضاد للأشياء. وهو ما أبرزه في مقولته التالية:

«**ليست الحرب إلا جزءاً من التكامل الاجتماعي. وهي تختلف عن الكل بسبب الوسائل الخاصة المميزة المستخدمة فيها، ومهما كان تأثير المطالب العسكرية في أحوال معينة على الأهداف السياسية، فإنها يمكن أن تعتبر معدلة فقط لهذه الأهداف. ذلك لأن الأهداف السياسية هي الغاية، والحرب هي الوسيلة. ولا يمكن أن تحقق الوسائل أغراضها دون الوصول إلى الغاية**». وهذه هي وجهة النظر الأساسية التي تكشف عنها واحدة من أشهر مقولات كلاوزفيتز: «**ليست الحرب إلا استمراراً للسياسة، ولكن بوسائل مختلفة**».

وقد عاد كلاوزفيتز لمعالجة هذه الفكرة بوضوح أكبر، فقال: «ليست الحرب شيئاً آخر غير استمرار المعاملات السياسية متداخلة مع وسائل أخرى. وأقول متداخلة أو مشتبكة مع وسائل أخرى، لكي أقول أن هذه المعاملات السياسية، في الوقت ذاته، لا تتوقف بسبب الحرب، ولا تتغير أو تتبدل، بل تستمر وتستمر، مهما كانت الوسائل المستخدمة. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا؟ فهل يمكن أن تتوقف العلاقات السياسية بين الشعوب والحكومات؟ أليست الحرب وسيلة أخرى للتعبير عن آراء الشعوب والحكومات، بوسيلة تختلف في اللغة والكتابة؟» «**إن للحرب قواعدها الخاصة، ولكن ليس لها منطقها الخاص**».

لقد فهمت مقولة كلاوزفيتز هذه بصورة سيئة أحياناً، فقيل بأنه قالها وهو مستغرق في التفكير بكسب الحرب، وأنه لم يستغرق في تفكير مماثل لكسب السلم. وبأنه لم يتدخل في مجال السياسة على أساس أنه عمل من أعمال الحكومات. ولكنه عندما عرف بأن الحرب هي استمرار للعلاقات السياسية المتداخلة مع الوسائل الأخرى، فإنه زاد من تأكيد الحقيقة القائلة بأنه ليس هناك توقف أو جمود في عمل القوة السياسية. ولا بد أنه ما كان ليوافق على الرأي الذي انتشر في ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية: بأن على السياسة انتظار نتائج الأعمال القتالية. ففي رأي كلاوزفيتز أنه لا وجود للعزلة السياسية. ولهذه الفكرة أهميتها في نظرية الحرب ذاتها، إذ إنها تنسق بين (الحرب المطلقة) و (الحرب الحقيقية). وإن سياسة الدولة هي الرحم الذي تتطور داخله الحرب لاستكمال نموها. ولهذا فإن السياسة هي التي تضع الخطوط الأساسية التي تسير فيها الحرب. وحتى يتوافر التنظيم الصحيح للأشياء، فإن السياسة لا تتطلب أي شيء ضد طبيعة الحرب. والواقع، أنه من السخف القبول بأن القادة يمكن أن يضعوا الخطة العامة للعمليات في ذاكرتهم، دون أن تتأكد حقيقة وجود هذه المخططات عملياً أو مادياً. على أن الأكثر سخفاً أن يطلب النظريون وضع كل الوسائل الممكنة للحرب أمام القائد، حتى يضع خطته العسكرية. ومن الواضح، أنه ليست هناك خطة ذات طابع عسكري فقط. وأن كل حرب إنما هي تطور متتابع

للأحداث الفردية. فإذا كان الجهد السياسي ذا طابع قوي جداً، وإذا أمكن الوصول إلى وسائل مادية كافية، فإن الهدف السياسي قد يختفي وراء الهدف العسكري، بنزع سلاح العدو. أو أن يجيء تابعاً له. وفي مثل هذه الحال، فإن (الحرب الحقيقية) تقترب من (الحرب المطلقة). وكان كلاوزفيتز مقتنعاً ــ كما ذكر من قبل ــ بأن هذا النوع من الحرب سيعود إلى الظهور المرة بعد الأخرى في عصر انتشار الروح القومية. إذ قال: «**وكلما عظمت وقويت دوافع الحرب، زاد أيضاً عنف الجهد الذي يسبقها، وزاد تأثيرها في وجود وكيان الأمم التي يعنيها الأمر. وبهذا فكلما اقتربت الحرب من صورتها المجردة، زاد ظهور الطابع العسكري لها، وقل ظهور الطابع السياسي**». يبقى الواجب الأساسي للنظرية، وهو تأكيد هذا الاتجاه الأساسي للحرب والذي هو «القياس الطبيعي لكل الآمال والمخاوف». كما يجب على النظرية أيضاً أن تضع في تقديرها أنه كلما تناقص الجذب والدفع بين القوات، كلما باتت الحرب سياسية بدرجة أكبر. إن مداها يمتد في كل درجات الأهمية والنشاط، من مجرد القتال التعرضي، وحتى تدمير قوة العدو. إن الحرب في الواقع لهي أشبه بالحرباء لأنها تغير لونها وطبيعتها تبعاً لكل حال.

قام كلاوزفيتز بدراسته لكل التاريخ العسكري، على ضوء هذا الإيضاح المرن، فأكد أنه من المحال عزل حادثة واحدة عن كل الأحوال الاجتماعية ــ السياسية التي سبقتها، ولا أن تفصل عن كافة الجهود التي أحاطت بها. فعندما قامت الدول الملكية بغزو فرنسا سنة ١٧٩٢، وعندما وقفت المبادىء يتصارع بعضها مع بعض، كان تراشق المدفعية في فالمي[٤٠] حاسماً بدرجة أكبر مما كانت عليه في أية معركة دامية من معارك حرب السنوات السبع.

عني كلاوزفيتز عناية خاصة بالمشكلات الناشئة عن حروب الأحلاف، وهي حروب الدول التي وقفت ضد فرنسا الثورة. وأشار إلى أن دولة تشتبك في حرب، ضد حلفاء من عدة دول، فإنها تواجه مشكلة تقرير من هي الدولة الأقوى، ومن هي الدولة الأضعف في هذا الحلف، والتي يجب البدء بتدميرها قبل غيرها. وأشار أيضاً إلى أنه مهما كان القرار الخاص بهذا، فإن الدولة لا بد لها من أن تضع في اعتبارها تلك الرابطة التي تربط حلف الدول المعادية كغرض، أو هدف، عسكري ــ قانوني. وقد تعدل بعض الحوادث من الهدف الأولي بتدمير جيش العدو. على أنه لما كان غزو الأرض، مثلاً، يعتبر في حد ذاته سلاحاً قوياً تبعاً لأنه يدمر قدرة العدو، ويحرمه من فرصة إعادة بناء جيشه، فإن فقدان الأرض مع الهزيمة العسكرية التي تلحق بالعدو، سيكون مؤثراً في

(٤٠) فالمي: Valmy قرية في المارن، قريبة من سانت مينهولد. انتصر فيها جيش الثورة الفرنسي بقيادة دو موريبه وكليرمان، على البروسيين يوم ٢٠ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٧٩٢. وعلق جوته (غوته) الشاعر الألماني، على المعركة التي شهدها، فأطلق مقولته الشهيرة: «من هذا المكان، وفي هذا اليوم، يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم. وفي وسعكم جميعاً أن تقولوا أنكم كنتم حاضرين عندما أشرق هذا العصر».

إضعاف إرادة القتال وتدميرها لدى هذا العدو. وعلى هذا فإن استهداف نزع سلاح العدو، قد يستبدل بنزع السلاح المعنوي الذي يحدث عندما يتحقق العدو من أن النصر غير مؤكد، أو أنه غالي الثمن. ولهذا، فإن المشكلة الأساسية التي تواجه رجل الاستراتيجية إنما هي مشكلة (مركز الثقل)، هذا المركز الذي يجب أن توجه إليه قوة الدفع العسكري، والذي يتغير موقعه تبعاً لتبدل مجرى الأحداث. وغالباً ما يكون هذا المركز هو (قوات العدو المسلحة). وقد كان هذا صحيحاً ليس فقط في حروب نابليون، بل في حروب الاسكندر المقدوني، وغوستاف أودولف، وشارل الثاني، وفريدريك الكبير. على أن مركز الثقل هذا قد يكون (عاصمة البلاد)، بدلاً من قواتها المسلحة. وهذا إذا ما تقسمت الأرض نتيجة للتمزق المدني، وفي حروب الأحلاف التي واجهت فرنسا. كان هذا المركز في جيش أقوى الحلفاء الذين وقفوا ضد فرنسا. أو كان في جملة المصالح التي ربطت بين هؤلاء الحلفاء. ويكون **(الرأي العام) هو مركز الثقل** الأكثر أهمية في الحروب الأهلية. فيشكل بالتالي هدفاً عسكرياً هاماً. وبتقدير هذه النقطة الأخيرة، يبدو أن كلاوزفيتز قد أنعش نظرية القرن الثامن عشر عن الحرب غير الدامية. ومع هذا، فقد يكون من الأكثر دقة القول بأنه تعرض لأحداث نظرية عن الحرب النفسية التي تسبق القتال الفعلي، أو ترافقه، أو حتى تحل محله. **ولكن ألا يسبب هذا التحليل المرن للحرب ضياعاً للخطوط الواضحة للدراسة، وسط ظلال الفكر؟... ثم أليس هناك احتمال بأن يسبب ذلك أيضاً ارتباكاً واضطراباً لمن يحاول دراسة كلاوزفيتز وفهمه؟ بدلاً من أن يمهد له السبيل وينير له الطريق؟..**

للإجابة على هذا السؤال بشقيه لا بد من الإشارة إلى نقطتين: أولاهما ضرورة تجنب النظرية العامة المقيدة والتي تجعل تحليلات كلاوزفيتز غير محدودة الزمن. بل وتجعل لها أهمية حتى في الأزمنة الحديثة، وإن كانت هي أصلاً تتطلب المهارة في تقدير حلول المشكلات والتي تتطلب دقة التقدير والحكم، وهو العامل المميز لقدرة السياسيين وكفاءة القادة. وليس هذا بالأمر السهل: «**فلا يستطيع غير ذاك الذي اعتاد تقدير ما في الحلول الممكنة من قيم، أن يندفع اندفاع السباح الماهر للانغمار في مياه المجرى المائي**». هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن هذا الاكتمال للإمكانات ليس بالاضطراب غير المنظم، ذلك لأن دعامته هي طبيعة الأشياء، وفكرته المنظمة هي الحرب المطلقة في وجودها الموروث. وهذا ما أشار إليه كلاوزفيتز بقوله: «**لا يمكن أن نجد خطأً في عمل القائد الذي يستخدم بمهارة أساليب حذرة، تضمن أن الأصول التي يعمل على أساسها، هي أصول مقدرة تماماً، ومدروسة بعناية**» ولكنه يجب أن يحذر حقيقة لها قيمتها وهي: «أنه وهو يفعل هذا، يكون مثله كمثل من يسير في طرقات جانبية، حيث يحتمل أن يباغته إله الحرب. إذ إن تدمير قوات العدو ليس قانوناً مرغماً من الواجب تنفيذه، بل كما أشير من قبل، يعتبر نقطة عامة للتوجيه. فإذا ما وصل القائد إلى هذه الحقيقة، **وجب عليه أن يدرك بأن أحسن استراتيجية هي**

أن يكون قوياً جداً من ناحية عامة أولاً، ثم أن يكون كذلك على التخصيص في النقطة الحاسمة. ويجب على القائد أن يزج في هذه النقطة الحاسمة كل جندي يكون قد أعده للمعركة».

لقد حاول كلاوزفيتز بعدة وسائل متباينة وأساليب مختلفة، أن يجعل طريقته المفتوحة هذه، أكثر نفعاً للدراسة، وذلك على أساس اتجاهين معينين: فقد أراد أولاً التمييز بين نوعي الحرب، أحدهما الذي يكون القصد منه تدمير قوات العدو. وثانيهما الذي يكون الغرض منه فقط القيام ببعض الغزوات، على حدود مملكة، للاستيلاء عليها دائماً، أو لتكون موضع التبادل في اتفاقية السلم. وقد رغب كلاوزفيتز في الأمر الثاني أن يؤكد الحقيقة القائلة بأن الحرب هي استمرار للسياسة. وقد قصد بهذه النقطة من وجهة النظر، أن يقدم وحدة وارتباطاً أكثر لكل نظرية الحرب. وقد فكر كلاوزفيتز بأنه في محاولته هذه قد أزال كثيراً من التعقيدات من رؤوس السياسيين والاستراتيجيين. وقد راجع كلاوزفيتز أجزاءاً من عمله الأساسي على قاعدة هذين الاتجاهين. ففي مناقشته لخطة الحرب، قد ميز بين نوعي الحرب: (**الحرب لتدمير قوات العدو**) و (**الحرب المحدودة**). وأشار إلى أن للعملية الاستراتيجية معنى مختلفاً عندما تطبق في النوع الأول عما يكون لها من معنى عندما تطبق في النوع الثاني. ففي النوع الأول تكون للنتائج النهائية قيمتها. أما في النوع الثاني، فقد تتراكم النتائج الجزئية، ويكون الاعتماد على عامل الوقت أساسياً لإضعاف إرادة القتال لدى العدو. فبينما يكون غزو الأرض معدوم الفائدة، في النوع الأول، ما لم تدمر قوات العدو تدميراً تاماً، يكون تملك أي قطعة من الأرض كافياً لتغيير ميزان القوى في النوع الثاني.

لم يكن القصد من هذا التمييز، أو من إيضاح هذا التباين، أن يكون الأمر تاريخياً كما أريد به. ولعل كل ما أراده كلاوزفيتز هو المقارنة بين الحرب في نظام الحكم القديم، وبين الحرب في القرن التاسع عشر. ففي الأولى، كانت (استراتيجية الإحتكاك) وفي الثانية كانت (استراتيجية التدمير والإفناء). ولو أن كلاوزفيتز لم يستخدم هذه المصطلحات. كما أن دراسته الفردية للحالات التاريخية لم تتماشَ مع أي بحث مزدوج المبادىء والقوى من هذا النوع. لقد كانت الحرب، آنذاك، محدودة، وسيتكرر حدوثها من جديد في حالتين: أولاهما أن يكون الجذب السياسي، أو أن تكون الأهداف السياسية صغيرة. وثانيتهما، عندما تكون الوسائل العسكرية ذات طابع يجعل من المحال الوصول إلى تدمير قوات العدو. ويظهر من ذلك أن نظرية كلاوزفيتز لم تبتعد أو تنحرف عن مجالها، فهي لم تستبعد من بحثها التقاليد المميزة، والخاصة بالدول التي لا تتوافر لها حشود قومية. كما أنها لم تستبعد أيضاً الوسائل والأساليب التي تتوافر للقوى البحرية الكبيرة، التي تعمل في المحيطات. ذلك أن القوات الصغيرة والحرب الاقتصادية لا يمكّنان من تدمير قوات العدو تدميراً عسكرياً كاملاً. ومع ذلك يبقى رأي كلاوزفيتز الثاني، وهو أن الحرب استكمال للسياسة، هو الأساس لبحثه. وقد عاد

فجمع نوعي الحرب في تطور تدريجي واحد، من خلال تعبيره الشائع: «كلما قويت دوافع الحرب وعظمت، كانت الحرب أقرب إلى صورتها المجردة».

يظهر أن هذه الفكرة تنطبق على الكثير من الصراعات المسلحة، في الماضي كما في الحاضر، فقد بقي نوعا الحرب منفصلين متباعدين. والمسألة هي ما إذا كانت الأساليب العسكرية أو السياسية الواجب تأكيدها، قد زج بها في الجدل والنقاش اللذين دارا حول الاستراتيجية الشرقية والغربية، واللذين قسما الرأي العام في ألمانيا وانكلترا إبان الحرب العالمية الأولى. وإذا كانت هذه المناقشة العنيفة التي دارت حول ما إذا كان تدمير قوات العدو، أو كانت مسألة مجرد الإحتكاك به، قد استُهدِفا في هذا الصراع العالمي إذ ذاك، وقالت إلى أبسط صورها، فلا شك أن هذا الامتداد للحرب الحديثة، وهذا الضغط الكبير للمبادىء المتضادة قد جعلا هذا الربط بين نوعي الحرب يصل إلى أقصى مداه. وسواء أكان الرأي الأصلح هو القيام بالعمل غير المباشر مع جمع الانتصارات الجزئية بعضها مع بعض، أم كان الأصلح هو الاعتماد على عامل الوقت والقيام بمجرد الاحتكاك بالعدو، فإن مرجع هذا ومرده إلى المهارة في العمل، الأمر الذي لا يؤثر في الهدف الأساسي. وإن مجرد الاحتكاك في حال معينة قد يشمل (التدمير والإفناء) في حالة أخرى، إذا لم يذكر شيئاً عن الأسلحة والحصار والعمل المضاد للحصار. وقد يمكن تطبيق وجهة النظر هذه، ذاتها، على المناقشات المتعلقة بعدة موضوعات، مثل: الجيش الصغير الذي تتوافر له الوسائط الآلية (الميكانيكية)، والجيش الكبير الوافر العدد، وقضية الحرب الجوية، وقضية المبدأ القاري للقتال، حتى النهاية (نسبة إلى قارة أوروبا). وعلى هذا، واستناداً للطابع الحاسم الذي أخذته الحرب العالمية الثانية، باعتبارها حرباً توافرت لها الوسائل العسكرية وإن لم تتوافر لها النهاية العسكرية أو الغاية العسكرية، فإنه يمكن القول أنه لم يعد للحرب إلا القليل من الطابع الذي كان لها في القرن الثامن عشر، وهو الطابع الذي كان يعني: القتال لأقل وقت ممكن.

تعود المشكلة الحرجة والحاسمة من جديد متصلة بناحية من نواحي التباين التي أثارها كلاوزفيتز من خلال موازنته بين الدفاع وبين الهجوم. وهذه في الواقع ناحية سياسية استراتيجية تكتيكية. ولكن كلاوزفيتز نسجها كلها معاً في تحليله لطبيعة الحرب، وأعطاها اتجاهاً جديداً. إذ إن نظرته إليها قد اختلفت عن وجهة النظر التي كان من المتوقع أن تكون له، باعتباره (الأسقف الأكبر المبشر بصناعة الحرب النابوليونية). وذلك لسبب واحد، وهو أنه أعطى قيمة كبيرة للدفاع. وهي حقيقة اعتبرها الكثيرون من الكتّاب العسكريين للقرن التاسع عشر بأنها نقطة سوداء في فكر كلاوزفيتز. **أليس المهاجم هو الذي يسيطر دائماً على قانون العمل؟ أليس هو الذي يتمتع بكافة الفوائد التي تمتلكها المبادأة؟ فكيف يتنكر كلاوزفيتز في صورة أخاذة لكل هذه الفوائد والمنافع التي تجيء مؤكدة الأفضلية المعنوية للهجوم؟**

لقد اعترف كلاوزفيتز بالأهمية الكبرى لمبدأ، المباغتة في العمليات التكتيكية، ولم ينكره، غير أنه انتقصَ من قيمة المباغتة في العمليات الاستراتيجية. فبينما يكون للمهاجم حرية العمل للتحرك أولاً، تظلّ الفائدة في جانب الدفاع أو اليد الأخيرة. ومن هنا فقد أصر كلاوزفيتز على أن الدفاع هو أول صور الحرب، وانطلق من هذه الصورة، فقدم حديثاً أخاذاً عن الدفاع. وقد استندت نظريته استناداً كبيراً للبرهان على أن باستطاعة الدولة الضعيفة الإفادة مما يتوافر لها من الفرص لمقاومة قوى العدو المتفوقة. وهي تستطيع ذلك (**لأن الدفاع هو أقوى صور الحرب**). ولم يتمكن كلاوزفيتز بل إنه لم يكن قادراً، على معرفة ما ستقدمه نظريته في الدفاع على مستوى العمليات التكتيكية، نتيجة للتطور الكبير في الأسلحة التي تنتج كثافة نارية عالية. وقد أبرزت النقاط التي قدمها، والتي رأى أنها في مصلحة الدفاع، ما هو مفيد ليس على المستوى التكتيكي فقط، وإنما على المستوى الاستراتيجي وحتى السياسي. فالدفاع يتمتع بدعم سياسي، وتشجيع معنوي يستمد جذوره من مبدأ (الدفاع عن الوطن). وهو يتمتع أيضاً بالفوائد التي يمكن اكتسابها من طبيعة مسرح العمليات، مثل الموانع والتحصينات، ومثل الإفادة من الأرض. ويستفيد المدافع أيضاً من عامل الوقت ومن الحوادث غير المتوقعة، ومن القدرة على إجهاد العدو، واستنزافه إلى غير ذلك من العوامل. وقد دعم كلاوزفيتز وجهة نظره بقوله: «**إن الاحتفاظ بالشيء أسهل من تطلبه والحصول عليه. وإن كل شيء لا يحدث، يكون في جانب المدافع ولمصلحته، ذلك لأن المدافع إنما يحصد ما لم يزرع**».

على أن فوائد الدفاع يمكن أن تعادل تعادلاً مضاداً تبعاً للعلاقة المنطقية التي تجمع بين الدفاع و الهجوم. فالدفاع هو الصورة الأقوى، إلا أن الغرض منه سلبي. أما الهجوم فهو الصورة الأضعف إلا أن الغرض منه إيجابي. وإن متابعة المهاجم لهذا الغرض الإيجابي هي التي تدفعه لاتخاذ القرار: فإذا كان الغرض عظيماً، وجب على المهاجم أن يبذل أقصى الجهود للحصول على القرار في أسلوب الحرب المطلقة

ويعتبر العمل الدفاعي في نطاق الهجوم ذاته ثقلاً معطلاً، بل في الحقيقة خطيئة قاتلة، **إذ إنه من الضروري أن يشتمل الدفاع على وجوب التحول إلى العمل الهجومي**. فالحروب لا تكسب بعمليات التقهقر الناجحة، وأعمال الانسحاب المنظمة الرائعة: «**إن الهجوم السريع والعنيف، مثله كمثل بريق السيف المصقول، وبهذا فهو أشد النقاط ألقاً ولمعاناً في العملية الدفاعية**».

لقد تركزت العلاقة المنطقية بين الهجوم والدفاع في واحدة من فكر كلاوزفيتز التعليمية، وهي الفكرة أو النظرية التي أسماها (**النقطة الكبرى للتطور**). فإذا أخفق الهجوم الاستراتيجي في الوصول إلى قرار، فإن الاندفاع الأمامي يتأثر بالجهد الذي يناله. على أن بعض الموارد المادية والمعنوية للمهاجم تتزايد بصورة مطردة مع تقدمه، ولكنه من ناحية عامة، ولأسباب كثيرة، يحدث أن

تضعف قوى المهاجم، وتظهر عوامل كثيرة تلقي بثقل أعبائها على الجيش المتقدم، فتزيد من متاعبه مع كل خطوة يتقدمها. فتنقلب كفتا الميزان، وراء (**النقطة الكبرى للتطور**) ويصبح عنف الحركة المضادة، أعظم من حركة الاندفاع الأمامي. وهنا يتوافر الاختبار الصحيح للقيادة، حيث يتوقف كل شيء على اكتشاف وتحديد (**النقطة الكبرى للتطور**) والتي تبرز الدقة في تقدير القيادة ومهارتها في الحكم. ومع استمرار حركة التقدم، فإن المهاجم يتقدم بتأثير قوة الدفع، إلى ما وراء خط التوازن، ويكون مثله كمثل الجواد الذي يجر ثقلاً صاعداً جبلاً، فإنه قد يجد الصعود والتقدم أقل صعوبة من التوقف. وقد يقدر المهاجم موقفه على أساس انهيار إرادة العدو، في اللحظة التي يندفع فيها هذا العدو للهجوم، في غضبة الثور الجريح.

كان كلاوزفيتز يميل بصورة طبيعية لتأييد القائد الذي يحاول الوصول إلى هدفه باستخدام الحد الأدنى من القوى. إلا أنه كان ضد الإفراط في الحذر، وكان يرى أن هذا الحذر الشديد يعادل الطيش والتهور من حيث النتيجة، وهو يطلق مقولته الشهيرة في هذا المجال إذ يقول: «**وكل شيء في الغالب يتعلق بخيوط رفيعة مرجعها إلى الخيال والتصور**».

إن مناقشة كلاوزفيتز لنظرية (**النقطة الكبرى للتطور**) قد حظيت باهتمام كبير في الواقع نظراً لتطابقها مع متطلبات الحرب الحديثة، ومع مسيرة أحداثها في الحربين العالميتين الأولى والثانية. وقد حدد كلاوزفيتز بوضوح تام العلاقة المتبادلة بين الدفاع والهجوم، عند الوصول إلى النقطة الكبرى للتطور، بقوله: «... **وهنا، يجب أن يثبت المدافع قدرته على القيادة، وذلك بالإسراع للإمساك بالفرصة التي ظهرت أمامه. فإذا أرغم المهاجم على العودة للدفاع بعد تقدمه الطويل، فإن هذا المهاجم يخسر الكثير من فوائد ـــ الصورة الأقوى ـــ ذلك لأن العوامل المعنوية والسيكولوجية، تكون ضده، إلا أنه بعودته إلى الدفاع يحتفظ لنفسه بفائدة على الأقل، وهي قدرته على العمل. وإنه إذا ما فشل في تحقيق هدفه، وهو الوصول إلى تدمير قوات العدو، فإنه لا أقل من حرمان العدو بالمقابل من فرصة تدميره له**».

ولقد برزت من خلال مناقشة كلاوزفيتز لنظرية (**النقطة الكبرى للتطور**) مسألة هامة وهي مسألة (العوامل المعنوية والسيكولوجية) والتي خصص لها قسماً غير قليل من أبحاثه ودراساته. وقد حلل كلاوزفيتز الخواص التي يجب أن تتوافر للقائد العام، من جهة، وللقائد العادي، من جهة أخرى. وقد وضع في المرتبة العليا قدرة القائد على الربط والتنسيق في مقدمة الخواص الواجب توافرها، بالاضافة إلى الجرأة والإقدام وسواها، من الدوافع ذات الطابع العسكري. وكذلك الخواص التي تجيء من عمل الفرد، دون أي تأثير لعاطفته ومشاعره والتي لها طابع ثابت رصين. وأبرز كلاوزفيتز في تعاليمه لولي عهد بروسيا أهمية القرارات التي تقوم على الأسباب، بقوله:

«من الواجب أن نفضل ترك أمر رفاهية إخواننا وأطفالنا في وقت الحرب، للرؤوس الهادئة **لا** للرؤوس الثائرة المضطربة... **إن العقل القوي ليس هو العقل القادر فقط على إنتاج الإنفعالات القوية، بل هو العقل القادر على الاحتفاظ بالتوازن في غمرة الإنفعالات القوية**. ذلك أنه رغم الثورة العاصفة التي تملأ الصدر، ورغم الإدراك الحسي ودوافع الحكم، فإن العقل القوي يستطيع العمل في تحرر كامل، على نحو ما تعمل الإبرة المغناطيسية وسط البوصلة التي تعلو ظهر سفينة، تعبر البحر المتلاطم الأمواج. إن قوة الإبداع هي القوة التي تمكن من التغلب على دوافع المقاومة الطبيعية، وعلى الشكوك والمخاوف وسواها من الإنفعالات المؤثرة». **إن الفضائل الحربية لأي جيش تتطلب ما هو أكثر من الشجاعة. فليست ـ السجية أو الطبع ـ بالنسبة للفرد هي التي تقاس وتقدر، بل إن ـ روح الجيش ـ هي التي يجب أن توضع موضع التقدير، ومن المؤكد بأن العدو ليس هو الأمر الأهم بالنسبة للجيوش.**

ومع أن كلاوزفيتز قد أبرز أهمية التفوق العددي بصورة عامة، والتفوق في النقطة الحاسمة بصورة خاصة، فإنه أكد باستمرار على أهمية التفوق المعنوي: «تتطلب المعركة الأساسية قتل معنويات العدو أكثر مما تتطلب قتل جنوده... إن المعركة لا تفقد من الناحية المادية، ما لم تهزم روح القائد أو روح الجيش هزيمة منكرة». «وإذا كانت القوى المادية هي قبضة السيف الخشبية، فإن القوى المعنوية هي الحد اللامع والقاطع للسيف».

الفصل الرابع

عمل هيئة الأركان

٦ ـ فون مولتكه

آ ـ الحرب البروسية ـ النمساوية (معركة سادوفا)
ب ـ الحرب البروسية ـ الفرنسية (معركة سيدان)

«يجب أن لا يترك الجيش محتشداً بدون هدف واضح ومهمة محددة».

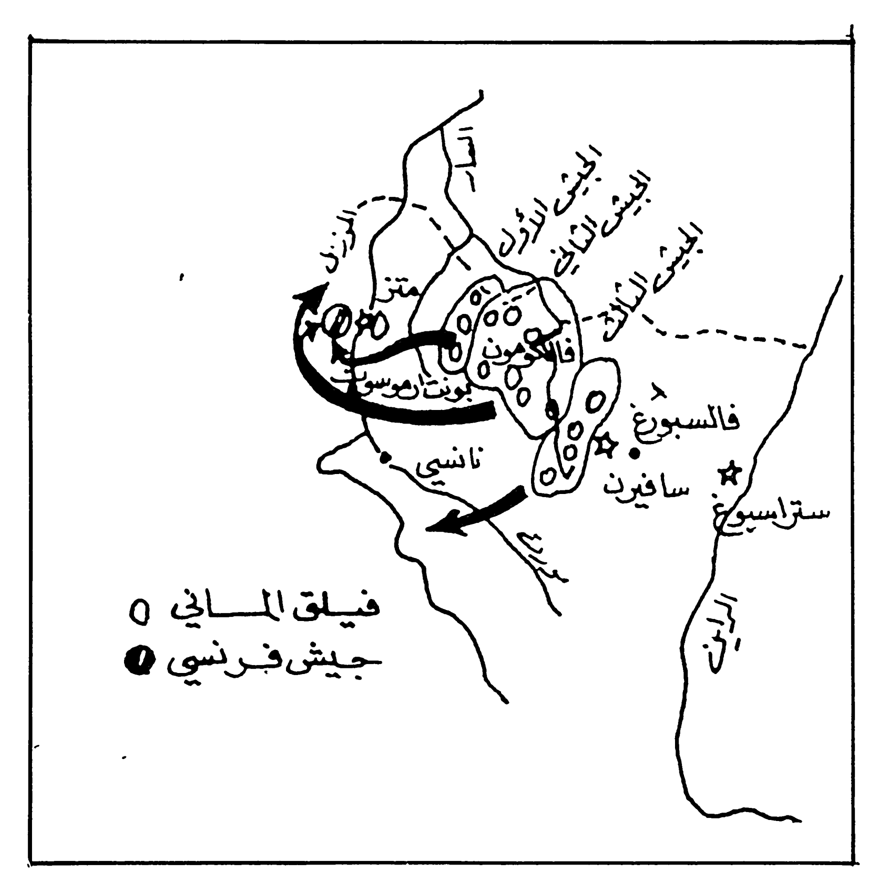
فون مولتكه

الوجيز في حياة الماريشال فون مولتكه

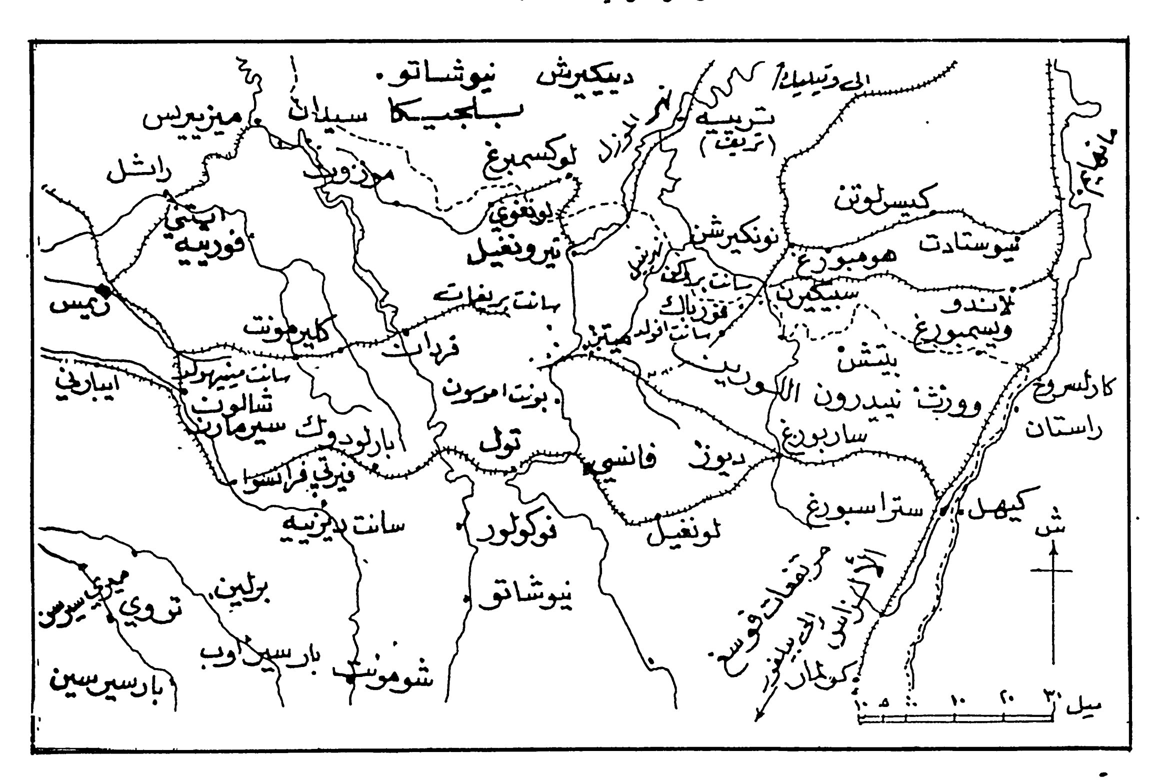
١٨٠٠ ــ ١٨٩١ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٠٠	ولادة فون مولتكه في بارشيم .
١٨١٩	تخرج مولتكه ضابطاً في الجيش الدانماركي برتبة ملازم .
١٨٢٦	التحاقه بالجيش البروسي ، وتخرجه من كليتها الحربية برتبة ملازم .
١٨٢٨	نقله إلى هيئة الأركان العامة .
١٨٣٥	تعيين مولتكه مستشاراً عسكرياً لدى الباب العالي في استانبول .
١٨٣٩	عودة مولتكه من البلاط العثماني إلى برلين .
١٨٤٠	اشتراك مولتكه في دعم خطة انشاء خط حديد برلين ـــ هامبورغ .
١٨٥٥	ملك بروسيا فريدريك غليوم الرابع يعين مولتكه مرافقاً لابن أخيه فريدريك غليوم الذي أصبح فيما بعد امبراطوراً باسم فريدريك الثالث .
١٨٥٧	فريدريك الثالث يعين مولتكه رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش البروسي . وبدء مولتكه بإعادة التنظيم الشامل للجيش البروسي .
١٨٦٤	اشتراك مولتكه في وضع مخططات الحرب ضد الدانمارك .
١٨٦٦	الامبراطور البروسي يصدر أمره بأن يتولى مولتكه كل شيء لقيادة الحرب البروسية ضد النمسا .
١٨٧٠ ــ ١٨٧١	مولتكه يتولى إدارة الحرب ضد فرنسا ، ويلحق الهزيمة بنابليون الثالث في سيدان ويتابع توجيه الجيوش حتى الوصول إلى باريس ، حيث تم الاحتفال في قاعة المرايا في فرساي بقيام الاتحاد الألماني . وتتويج الامبراطور غليوم ، ملك بروسيا ، امبراطوراً للاتحاد الألماني ـــ الجرماني .

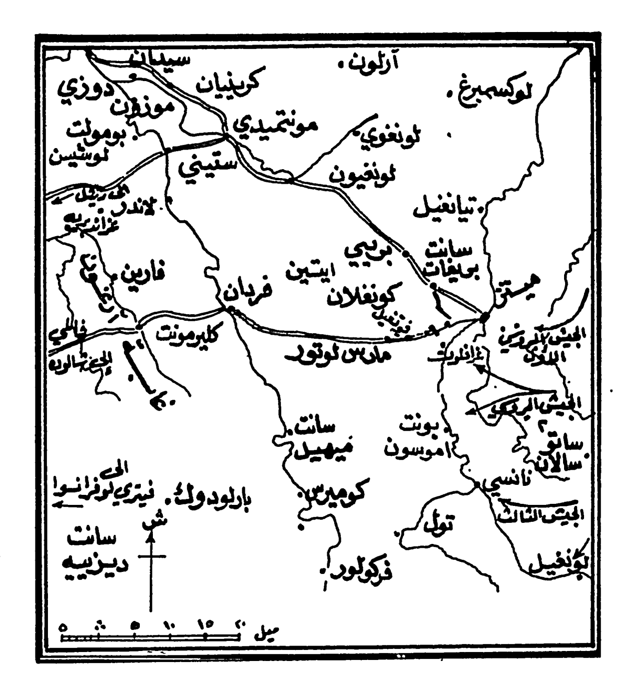
Von Moltke Helmuth (The Elder)



انتشار مولتكو في ١٠ آب ١٨٧٠

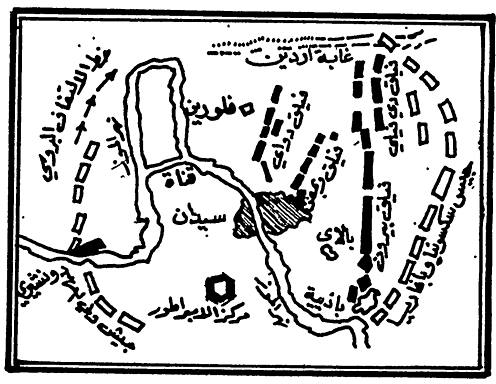


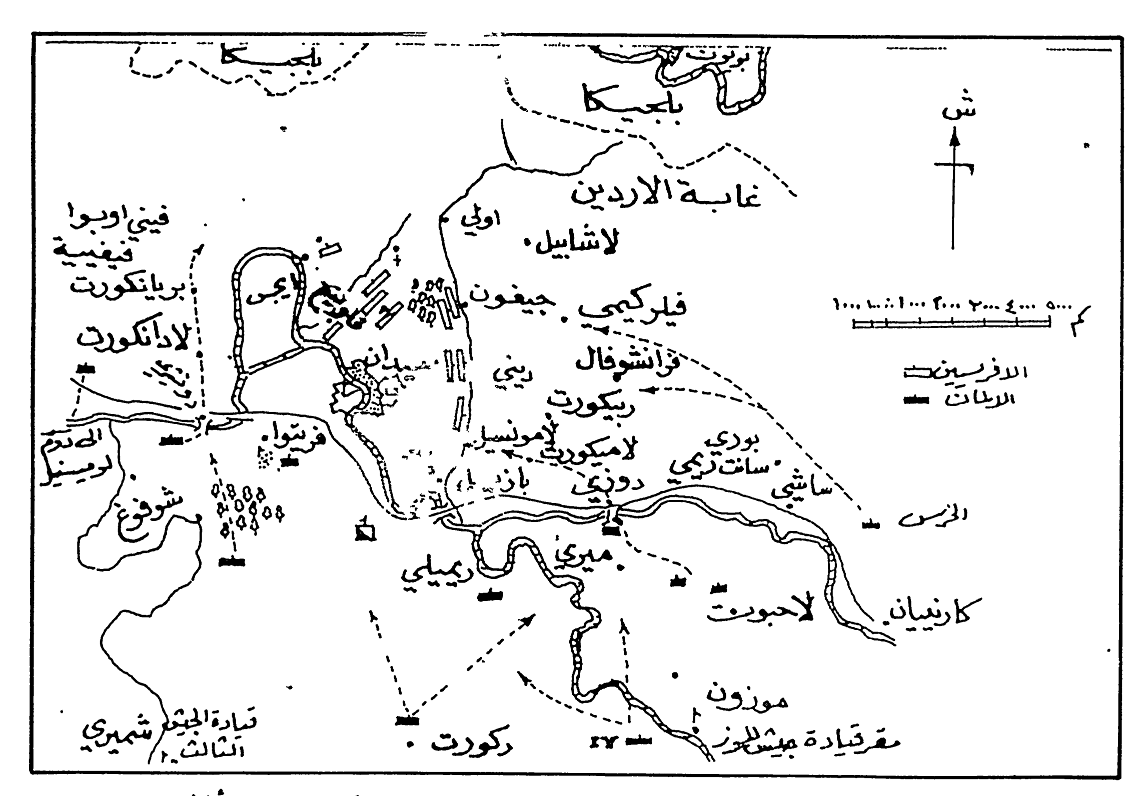
الحرب البروسية الافرنسية ١٨٧٠ — ١٨٧١



معارك فيونفيل وغرافلوت ١٨٧٠

ميدان سيدان





معركة سيدان — أيلول — ١٨٧٠

٦ ــ فون مولتكه

ما إن وضعت الحروب النابوليونية أوزارها، وخرج الحلفاء بانتصارهم الذي يمكن اعتباره بحسب المفاهيم الحديثة انتصاراً للقوى التقليدية على القوى الثورية، حتى تداعى ملوك أوروبا وقادتها إلى مؤتمر فيينا ١٨١٤ ــ ١٨١٥، بهدف إعادة تنظيم أوروبا التي قلبها نابوليون رأساً على عقب. وظن المشتركون في مؤتمر فيينا أنه بات باستطاعتهم إقرار السلام على أسس ثابتة ووطيدة، وضمان الاستقرار في أوروبا الوسطى، التي كانت تعيش على سطح بحر مضطرب الأمواج، نتيجة تحلل الامبراطورية الرومانية المقدسة[٤١]، وتفككها. وقرر مؤتمر فيينا ــ فيما قرره ــ إقامة الاتحاد الجرماني من ٣٨ دولة ذات سيادة، وكان ذلك على أمل ضمان السلم للدويلات الجرمانية ضد كل عدوان خارجي، أو اضطراب داخلي. وتبع هذا الإجراء تأسيس (**مجلس نواب الاتحاد ــ الدييت**) واتخذ المجلس من فرانكفورت ــ أون ماين[٤٢] مقراً دائماً له. وكان مجلس الدييت يضم ممثلاً عن كل دولة. غير أنه كان عاجزاً عن القيام بأي عمل لمصلحة الاتحاد، لأن أعضاءه من الشيوخ (السيناتور) كانوا يفتقرون للصفة التمثيلية، ولهذا كان المجلس عبارة عن مؤتمر للتشاور، وليس برلماناً له حق اتخاذ القرارات. ومقابل ذلك، فقد تشكل في الاتحاد الجرماني تنظيم أقامته بروسيا تحت اسم (**الاتحاد الجمركي**). وقد اعتمدت بروسيا في تنظيمها هذا على **نظرية فريدريك ليست القائلة: «تقف الحواجز الجمركية سداً فاصلاً أمام الدول المختلفة، وما لم يتم رفع حواجز هذا السد،**

---

(٤١) الامبراطورية الرومانية المقدسة: Holy Roman Empire هي الامبراطورية التي كانت تضم النمسا ــ حالياً ــ وبعض المقاطعات الألمانية. وكان شارل الخامس (شارلكان) قد أسند إلى أخيه فرديناند حكم البلاد الألمانية والنمساوية سنة ١٥٢٢. وقد ورث فرديناند في سنة ١٥٢٦ بوهيميا وهنغاريا من زوجته. وضعف أمر الامبراطورية الرومانية المقدسة بنتيجة حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ ــ ١٧٤٨ م وحرب السنوات السبع ١٧٥٦ ــ ١٧٦٣، غير أنها تمكنت في سنة ١٧٧٢، وفي سنة ١٧٩٥ م من استعادة بعض الأقاليم، نتيجة تقسيم بولونيا الأول والثالث. وفي سنة ١٨٠٤، ضم فرانسوا الثاني كل الدول تحت اسم (الامبراطورية النمساوية)، مع احتفاظه بلقب الامبراطور المنتخب للامبراطورية الرومانية المقدسة، التي باتت تضم ايليريا ودالماتيا ولومبارديا وفينيتيا، مع ممارسة الهيمنة على الدول الجرمانية.

(٤٢) فرانكفورت أون ماين: Francfort - Sur . Le Main مدينة ألمانية تقع على نهر ماين، وكانت عاصمة القوط.

فستستمر بريطانيا بغمر أسواق الدول الجرمانية، وإغراقها ببضائعها، مما يحرم هذه الدول من التحول إلى دول صناعية».

عملت بروسيا على مجابهة هذا الموقف في سنة ١٨١٨، فألغت كل الضرائب الجمركية داخل بروسيا، حتى شمل الإلغاء ٦٧ ضريبة كانت مفروضة على أكثر من ثلاثة آلاف سلعة (مادة). وتم في شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ــ سنة ١٨١٩ توقيع أول اتفاقية جمركية بين بروسيا وبين دولة شوارزبورغ ــ سوندرهوزن الصغيرة. ونجم عن ذلك ظهور اتحادين جمركيين بصورة فورية، الاتحاد الشمالي والاتحاد الجنوبي، وهما الاتحادان اللذان اتفقا في سنة ١٨٢٩ على إلغاء كافة الضرائب الجمركية في المبادلات بين المنتجات. واستمر ذلك حتى سنة ١٨٤١. حيث عاد الاتحاد الجمركي، فأكد التزامه بالإجراءات السابقة. وفي سنة ١٨٤٤ شمل إلغاء الضرائب الجمركية كافة الدول الجرمانية، ما عدا الاتحاد النمساوي. وكان لا بد بالتالي من أن تؤدي الوحدة التجارية بالدول الجرمانية إلى التقارب السياسي، وإلى التعاون العسكري المتبادل للمحافظة على أمن الدول الجرمانية. وواجهت النمسا هذه التطورات بالجمود. وتشبث امبراطور النمسا بمواقعه، فلم يبذل أية محاولة للتقدم نحو الأمام أو التراجع إلى الخلف، في حين كان رئيس وزرائه مترنيخ[٤٣]، ينظر إلى قضية توحيد الدول الجرمانية على أنها عمل شائن. وكانت الاضطرابات والهيجانات والثورات تجتاح أقطار أوروبا، وامتدت هذه الاضطرابات إلى أمارتي هانوفر[٤٤] و هيس كاسل[٤٥]. غير أن ثورة العمال الألمان أخذت اتجاهاً مغايراً لثورة العمال الفرنسيين. فقد هيمن على العمال الألمان الشعور بضرورة بناء بروسيا العظمى. كما أن مشاركة أرباب العمل لعمالهم بنصيبهم من الأرباح، جعل الثورة في الأمارات الجرمانية ودويلاتها، تتخذ نهجاً قومياً أكثر منه نهجاً اجتماعياً. وقد برز هذا النهج عندما قام ملك بروسيا فريدريك وليم الرابع[٤٦] باستدعاء المجلس البروسي الموحد (الدييت) في شهر شباط

(٤٣) مترنيخ: Prince De Metternich - Winneburg Klemens Lothar رجل دولة نمساوي، من مواليد كوبلنز Coblentz ١٧٧٣ ــ ١٨٥٩ م، عمل سفيراً Wenzel للنمسا في باريس ١٨٠٦ ــ ١٨٠٩، وهو الذي أجرى المفاوضات لزواج نابليون بونابرت من ماري لويز بعد هزيمة الامبراطورية النمساوية. وأصبح مهندس السياسة الأوروبية، والمتحكم بأمورها من خلال تنظيمه للتحالف المقدس. وحكم بلاده ــ النمسا ــ حكماً فردياً مطلقاً.

(٤٤) هانوفر: Hanovre مملكة ألمانية قديمة، تكتب بالألمانية Hannover، وانضمت إلى بروسيا من ١٨٦٦ حتى سنة ١٩٤٤، وهي تشكل اليوم قسماً من الساكس السفلى. أما مدينة هانوفر فهي تقع على نهر لين: Leine، فهي عاصمة الساكس السفلى.

(٤٥) هيس كاسل: Hesse - Cassel هي إحدى الدول الجرمانية القديمة التي انضمت إلى الاتحاد الجرماني سنة ١٨٦٦. وهي تشكل اليوم إقليماً في ألمانيا الغربية.

(٤٦) فريدريك وليم (غليوم) الرابع: ملك بروسيا ١٧٩١ ــ ١٨٦١ م، تولى الملك سنة ١٨٤٠ غير أنه لم يتكيف مع النظام البرلماني. وحدثت اضطرابات حملته على التنازل بالوصاية لأخيه غليوم الأول بعد ١٨٤٨ م.

ــ فبراير ــ ١٨٤٧ . وهو المجلس الذي عمل فوراً على إلغاء مجلس الدييت القديم، والذي بقي قائماً منذ سنة ١٨١٥ . وقرر إقامة (برلمان جرماني وطني) يتخذ من فرانكفورت مقراً له، ويعمل على إقامة (ألمانيا جديدة) من مجموع الدول المكونة لها. ولكن، وبينما كان الجدل مستمراً بشأن التنظيم الجديد، اجتاحت الثورة شيلز و هولشتين[٤٧] ضد التاج الدانماركي. وقامت روسيا بدعم الدانمارك. وشعر فريدريك وليم بالخوف من تدهور الموقف، فتجاوز البرلمان الوطني، ووافق على الهدنة. وأصدر أمره إلى الجيش الذي أرسله لدعم شيلزويغ بإيقاف الحرب. وعلى الرغم من ذلك، فقد جاء البرلمان الوطني التالي، وعرض عليه اقتراحاً بتنصيبه امبراطوراً على الدويلات الجرمانية. وقبل فريدريك وليم الاقتراح، وذلك على أمل ألا تقوم النمسا بالتصدي له أو مقاومته بسبب انصرافها لمعالجة الاضطرابات التي كانت تجتاحها. غير أن نفور فريدريك وليم من الأساليب الديموقراطية، التي كان يتبعها البرلمان الوطني، حمله على تعليق المشروع، وذلك إلى أن تحصل الدويلات والأمارات الجرمانية على حريتها أولاً، وإلى أن يوافق الأمراء، حكام المدن والمقاطعات، على إصدار قانون بتنصيبه إمبراطوراً، وكان ذلك بمثابة الضربة القاضية لآمال المواطنين الألمان وطموحهم. ولم يكن باستطاعة الوصي على العرش غليوم الأول[٤٨] أن يعترض على إرادة أخيه فريدريك وليم ــ غليوم. وعلى كل حال، فقد حاول فريدريك وليم بمعالجة الإحباط الناجم عن موقفه، فوقع مع ملوك هانوفر و ساكسوني، معاهدة تضمنت الموافقة على تنظيم مجلس تشريعي جديد، ويتم بموجبه اختيار رئيس أعلى، يعاونه زملاؤه من أمراء الأقاليم، وذلك كحل بديل عن الامبراطور. وقد تمت الموافقة على هذا الحل الذي حمل عنوان (الاتحاد). غير أن اللحظة المناسبة للانتقال بهذا الحل إلى مجال التنفيذ، كانت قد مضت وانقضت، لسوء حظ فريدريك وليم، ذلك لأن النمسا تمكنت خلال هذه الفترة من معالجة مشكلاتها، وتجاوزت أزمتها، وأمكن لها فصل هانوفر و ساكسوني عن الاتحاد، فقسمت بذلك جرمانيا إلى قسمين متصارعين: أحدهما يدعم بروسيا، والآخر يدعم النمسا، ووصل العداء بين القسمين إلى حافة الحرب، عندما اجتاحت الاضطرابات هيس كاسل ولما لم يكن فريدريك وليم على استعداد أبداً لخوض غمار الحرب. فقد عمل في ٢٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٨٥٠ م، ومن مدينة أولمتز، على التسليم طوعاً بكل مطالب النمسا، فتم حل الاتحاد، وباتت بروسيا ملزمة

---

(٤٧) شيلزويغ وهولشتاين: Schleswig - Holstein مقاطعة جرمانية عاصمتها كييل Kiel ومساحتها ١٥٦٦٧ كم مربع. وتقع حالياً في ألمانيا الغربية.

(٤٨) غليوم الأول: Guillaume 1er De Hohenzollern ملك بروسيا ١٧٦٧ ــ ١٨٨٨ م، أصبح ملكاً لبروسيا سنة ١٨٦١ م، خلفاً لأخيه فريدريك وليم الرابع. اشتهر بالحزم والجرأة. اعتمد في الحكم على وزيره بسمارك. وأولى اهتماماً كبيراً للجيش. تحالف مع النمسا لسحق الدانمارك سنة ١٨٦٤ م ثم وجه جيوشه ضد حليفه النمساوي، فهزمه في معركة سادوفا سنة ١٨٦٦ م. وانتصر على فرنسا فانتزع منها الألزاس وقسماً من اللورين سنة ١٨٧١ وتم له في هذه الحروب الثلاثة تحقيق وحدة الأقاليم الجرمانية. وتوج امبراطوراً في باريس سنة ١٨٧١.

بالاعتراف بمجلس الدييت القديم في فرانكفورت، وكانت الأيام التالية لذلك هي أسوأ أيام عاشتها بروسيا، منذ معركة يينا في سنة ١٨٠٦ م.

لم تعش بروسيا طويلاً حياة العزلة والإحباط بعد استسلامها المخجل والشائن في أولمتز[٤٩] وتحولت فترة النكوص إلى انتعاش سريع بصعود غليوم الأول ــ وليم لسدة الملك يوم ٢ كانون الثاني ــ يناير ــ سنة ١٨٦١ م. وقد عرف عن غليوم الأول، منذ طفولته المبكرة أنه خلق ليكون جندياً بطبعه. ثم جاءت ثقافته العسكرية لتسهم في تطوير موهبته. وقد ظهر ذلك واضحاً عندما اشترك في معركة آركيس ــ سير ــ أوب[٥٠]. ثم تأكد ذلك عندما تولى أمور الملك، فتضمنت كلمته الأولى ما يلي: «**سيكون الجيش البروسي في المستقبل هو الأمة البروسية المسلحة**». وقد جاءت هذه المقولة لتقلب مصير أوروبا، ولتقلب بعدئذ مستقبل العالم ومصيره. وقد باشر غليوم الأول فور تسلمه لمقاليد الحكم، بإعادة تنظيم الجيش البروسي، حتى يجعل منه قوة حربية ضخمة، تضم ٣٧١ ألفاً من المقاتلين، تدعمهم قوة احتياطية من ١٢٦ ألفاً، مع قوة برية تضم ١٦٣ ألفاً من المقاتلين. وعين الكونت فون رون[٥١] وزيراً للحرب. والكونت فون مولتكه رئيساً لهيئة الأركان العامة. ثم عين في سنة ١٨٦٢ أوتو ــ فون ــ بسمارك[٥٢] رئيساً لوزرائه.

وضع بسمارك أسس سياسة واضحة وبسيطة ومباشرة، هدفها إخراج النمسا من الأقاليم الجرمانية، حتى تتمكن من استرداد قوتها. وبما أن فرنسا كانت رغم قدراتها الجبارة، منصرفة لمتابعة مشاريعها الحمقاء التي لا طائل تحتها في المكسيك، فقد ظهر أن الطريق أمام بسمارك ممهدة للسير

---

(٤٩) أولمتز: Olomouc وباللغة الألمانية: Olmutz مدينة في تشيكوسلوفاكيا، إقليم مورافيا على نهر مورافا. تنازل فيها فرديناند الأول ــ ملك النمسا ــ عن العرش سنة ١٨٤٨ على أثر ثورة في فيينا.

(٥٠) آركيس سير أوب: Arcis - Sur - Aube مدينة تقع على نهر الأوب. وهي مدينة فرنسية اشتهرت بالمعركة التي شنها نابليون بونابرت على جيوش الحلفاء.

(٥١) فون رون: Von Roon Emile جنرال بروسي، ورجل دولة ١٨٠٣ ــ ١٨٧٩ م، عمل وزيراً للحرب في عهد غليوم الأول، وأسهم مع بسمارك في صنع (الاتحاد الجرماني).

(٥٢) بسمارك: Prince De Bismarck , Otto رجل دولة بروسي ١٨١٥ ــ ١٨٩٨، عينه ملك بروسيا غليوم الأول رئيساً لوزرائه. فكان واحداً من أبرز مؤسسي الاتحاد الجرماني. انتزع من الدانمارك إقليمي شيلزويغ وهولشتاين. وأعطى بروسيا بنتيجة معركة سادوفا المكانة التي كانت تحتلها النمسا بين الدول الجرمانية. ثم انتقل للصراع مع فرنسا فمهد الظروف السياسية للحرب البروسية ــ الفرنسية. وانصرف بعد ذلك لدعم مكانة الامبراطورية. ووجه الدولة توجيهاً اشتراكياً، بهدف اكتساب الطبقة العاملة فيها. وحدد سياسته الخارجية على أساس عزل فرنسا عن أوروبا، فأقام مع النمسا وايطاليا (الحلف الثلاثي)، وما لبث أن حول ألمانيا إلى إمبراطورية استعمارية. غير أنه اضطر للاعتزال ــ مكرهاً ــ وذلك بعد أن تولى غليوم الثاني سلطاته الامبراطورية بفترة قصيرة. وكان السبب في ذلك هو تعاظم نفوذ بسمارك وسلطته، وتحديه للامبراطور غليوم الثاني الذي أكد على قدرته بعزل بسمارك، رغم ما كان يمتلكه من رصيد شعبي هائل. وعندما اقترب بسمارك من نهاية حياته، أوصى بدفنه من غير مراسم. وكان مما قاله: «لا أريد كذباً رسمياً على قبري».

قدماً في مشاريعه، فقرر المضي في تنفيذ سياسته، واغتنام أول فرصة. وقد توافرت له هذه الفرصة بسرعة. إذ صعد شارل التاسع إلى سدة الملك في الدانمارك سنة ١٨٦٣م. فمضت الوحدات الساكسونية والهانوفرية نحو هولشتاين[٥٣] وقامت باجتياحها. وتقدم بسمارك إلى النمسا وطلب إليها الإنضمام إليه لضمان السلم. ونجح في ذلك، فوقعت الحرب في سنة ١٨٦٤ على أرض اقليمي شيلزويغ و هولشتاين. وهي الحرب التي انتهت في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٨٦٤ بالتوقيع على معاهدة فيينا التي وضعت الاقليمين تحت هيمنة بروسيا و النمسا.

وضع بسمارك حساباته الدقيقة والصحيحة. فقدر أن شيلزويغ و هولشتاين ستكونان محور الصراع المقبل مع النمسا. ونتيجة لذلك فقد قرر عزل النمسا عن طريق قطع الوعود لنابليون الثالث، بإطلاق يده في بلجيكا، أو قسم من أقاليم رينان، وذلك مقابل قيامه بإقناع النمسا ببيع فينيتيا إلى ايطاليا. وكان بسمارك على قناعة تامة بأن النمسا سترفض هذا العرض. وفي الوقت ذاته، وحتى يقوم بإزعاج النمسا وإثارة غضبها، فقد عمل على إعادة طرح قضية (الاتحاد الجرماني). وبما أن النمسا لم تكن مستعدة للخروج من فينيتيا، فقد مضت بروسيا في طريقها، ووقعت مع ايطاليا معاهدة هجومية ــ دفاعية في يوم ٨ نيسان ــ ابريل ــ ١٨٦٦. ووقف نابليون الثالث يرقب تجمع الغيوم العاصفة، معتقداً بأن الوقت قد حان لإلغاء المعاهدة التي فرضت على فرنسا سنة ١٨١٥م، فعرض على بروسيا الانضمام إليها، ودعمها بقوة ٣٠٠ ألف جندي، مقابل حصوله على اقليم رينان. غير أن بسمارك لم يكن راغباً في إشراك فرنسا في مشاريعه، ولا سيما أن ايطاليا قد باتت في قبضته وتحت رحمته، ولهذا فقد أصدر أوامره إلى قواته الموجودة في هولشتاين بدخول المعركة. وقامت النمسا بقطع علاقاتها الديبلوماسية مع بروسيا يوم ١٢ حزيران ــ يونيو ــ ١٨٦٦، واندلعت الحرب التي لم تكن حرباً عدوانية، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني، كما أنها لم تكن حرب غزو وفتوح، وإنما كانت حرباً تصحيحية (ديبلوماسية). ولهذا لم تكن بروسيا راغبة في إذلال النمسا أو إضعافها، وإنما كان هدفها محدداً بإقناع النمسا بقوة الروح الوطنية ــ القومية في جرمانيا، وأنها روح حية متوثبة تشكل قوة متعاظمة، مطلبها هو تحقيق الوحدة. وقد وضع بسمارك سياسته على هذا الأساس، فكان هدفه عدم تحويل النمسا إلى (عدو حاقد)، لأنه كان يرى ويعرف بأنه سيأتي يوم تقف فيه بروسيا في مواجهة فرنسا. وستكون بروسيا عندئذ في حاجة لوضع النمسا على الحياد. ومقابل ذلك، فقد كانت أسباب الصراع مع فرنسا مغايرة لما كانت عليه مع النمسا. فقد كانت بروسيا مصممة كل التصميم على توحيد كل الدول والأمارات الجرمانية تحت قيادتها، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا مصممة أيضاً على منع إقامة هذه الوحدة. ويجب أن يضاف إلى ذلك العداء

---

(٥٣) هولشتاين: Holstein دوقية قديمة، ودولة من الدول التي شكلت الاتحاد الجرماني. ألحقت في بروسيا سنة ١٨٦٤ مع شيلزويغ: Slesvig وهي حالياً في ألمانيا الغربية.

التاريخي والتقليدي بين الغول جدود الفرنسيين و التيوتون جدود الألمان. حتى إنه قد يكون من الصعب العثور على كيانين متجاورين بينهما من سوء الجوار، ومن درجة العداء، ما كان بين هؤلاء الغول و التيوتون. وقد عاشت رواسب الأحقاد حتى وقت متأخر، بحيث أن القوات الفرنسية قامت باجتياح الأقاليم الجرمانية أكثر من ١٤ مرة ما بين سنة ١٦٧٥ م وسنة ١٨١٣ م، أي بمعدل غزوة في كل عشر سنوات. وإلى جانب ذلك، فقد بقيت فرنسا على امتداد مئات السنين، وهي تمارس دور (الأمة العظمى) و (الشعب العظيم) و (القدرة المهيمنة) على أمور أوروبا وشؤونها. وقد بات ينتابها خوف ضمني من انحلال مجدها، وانحسار عظمتها، فباتت شديدة الحساسية، وذات مزاج سيء تعبر عنه بشدة الغضب (الحماقة). وزاد من سوء موقفها انفجار الثورة الفرنسية، إذ أخذ مهندسو السياسة الأوروبية في التحرك المستمر ضدها، منذ سنة ١٧٨٩ م. وانتقلت السلطة فيها من البلاط والملوك إلى الديماغوجيين ورجال المجالس النيابية، الذين كانوا مثلهم كمثل كرة المضرب، حيث يتقاذفها الشعب من جهة، والصحافة من جهة مقابلة، وفتح بذلك المجال للصراع على امتلاك الثروات الضخمة والاستثمارات الصناعية. وكانت هذه كلها من الأسباب غير المباشرة التي وضعت فرنسا في موقع العدو الشرس ضد تطلعات بروسيا وأهدافها. وقد عرف بسمارك هذه الحقيقة واستوعبها جيداً، وحدد على أساسها سياسته الواضحة، وأخذ في انضاج الأسباب المباشرة لتطوير الصراع البروسي — الفرنسي، على نار هادئة من أجل الوصول إلى الوحدة. ولقد تحققت هذه الوحدة الجرمانية بفضل التوازن المحكم بين الصراع السياسي الذي قاده ووجهه بسمارك، والصراع المسلح الذي قاده ووجهه فون مولتكه. غير أنه من المحال التصديق بأن ذلك الجهاز العسكري البروسي الضخم، قد برز بصورة مباغتة إلى الوجود، ليلحق الهزيمة بأكبر الجيوش الأوروبية، وأوفرها عدداً وعتاداً (الجيش الفرنسي بعد الجيش النمساوي). ومن هنا فقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند مدرسة الحرب البروسية. فقد ابتعدت بروسيا في الواقع عن المشاركة الايجابية في الحروب الأوروبية، طوال نصف قرن كامل من عمر الزمن، بعد مؤتمر فيينا. وعندما ظهر الجيش البروسي، وهو أكبر قوة في القارة الأوروبية، كان قد مر بمرحلتين، من غير أن يخوض خلالهما أية تجربة عملية في الحرب. في حين كانت الجيوش الروسية والنمساوية والفرنسية والانكليزية تخوض حروباً متتالية. على أن الأفضلية التي توافرت للجيش البروسي في العقد السادس من القرن التاسع عشر، إنما كانت بسبب تنظيمه وتدريبه في أيام السلم، ثم بسبب الدراسة النظرية للحرب، هذه الدراسة التي وصلت إلى الكمال في نصف القرن الذي سبق معركتي سادوفا و سيدان.

○

توافرت أمام مولتكه الظروف الملائمة حتى ينتفع بكافة آراء الذين سبقوه، وخبراتهم التي

تشكلت بصورة أساسية في ظروف الحروب النابوليونية. وكان مولتكه مثله كمثل شارنهورست وجنيسناو، غريباً عن بروسيا بحكم مولده. وقد جاء إلى بروسيا من منطقة مجاورة، هي منطقة مكلنبورغ. وكان أبوه ضابطاً في جيش ملك الدانمارك. إلا أنه كان أميراً ألمانياً مثله كمثل دوق شيلزويغ و هولشتاين. وقد نشأ مولتكه وهو يطلب العلم في معاهد الدانمارك، حتى تخرج من الكلية الحربية سنة ١٨١٩ م، وقد حمل رتبة ملازم. غير أن كافة العوامل كانت تدفعه لهجرة البلاد، إذ أنه لم يكن سعيداً في حياته المدرسية، كما أن صلته بأبيه لم تكن صلة جيدة وقوية. وعلاوة على ذلك —وهذا هو العامل الأكثر أهمية— فإنه لم يجد في خدمة الجيش الدانماركي الفرصة التي كان يتطلع إليها، أو الظروف التي تستجيب لطموحاته وحوافزه القوية. وهكذا تقدم مولتكه بطلب للخدمة في الجيش البروسي. وهو الجيش الذي سبق أن بدأ أبوه ذاته حياته العسكرية فيه، قبل أن ينتقل للخدمة في الجيش الدانماركي.

كان البروسيون يشجعون من يريد الالتحاق بجيشهم، وعلى الرغم من ذلك، فقد وضعوا الملازم الشاب في مواجهة اختبار عسير، إذ فرضوا عليه أن يعود من جديد ليبدأ بتسلق درجات السلم العسكري من أولها، ومنحوه بعد سنة كاملة فرصة الالتحاق بالكلية الحربية، التي كان يتولى إدارتها كلاوزفيتز. على أن كلاوزفيتز ذاته لم يكن يلقي على طلاب معهده العسكري أية محاضرات. ولهذا فإن مولتكه لم يتأثر به من قريب أو بعيد، حتى كان العام ١٨٣١ م، عندما طبعت مؤلفات كلاوزفيتز التي قربت الرجل ودراساته إلى المتعلمين. غير أن مولتكه أفاد من مدة بقائه بالكلية الحربية البروسية، للإنصراف لدراسة علوم الجغرافيا والطبيعة والتاريخ العسكري، وهي العلوم التي كانوا يتقنون تدريسها وعرضها في الكلية، فلما رجع مولتكه إلى وحدته سنة ١٨٢٦، قضى سنتين في دراسة نظرية، وفي تدريس هذه العلوم الثلاثة لضباط وحدته. ونقل في سنة ١٨٢٨ إلى هيئة أركان الحرب. فظل من ضباطها طوال أكثر من ستين سنة. على أن مولتكه فيما عدا السنوات الخمس التي قضاها برتبة ملازم في الجيشين الدانماركي ثم البروسي، لم يعمل في الوحدات المقاتلة أبداً. ولم يتول قيادة سرية ولا وحدة مماثلة، حتى تولى وهو في الخامسة والستين من عمره قيادة الجيوش البروسية كلها. **قضى مولتكه الفترة من سنة ١٨٣٥ حتى سنة ١٨٣٩ في تركيا، حيث عمل مستشاراً عسكرياً لدى الباب العالي وهو برتبة نقيب (كابتن). وقد أعاقه صغر رتبته عن فرض مقترحاته وآرائه على كبار قادة الجيش التركي (العثماني). ولهذا فما من أحد اهتم بنصائحه وآرائه. فكان لا بد للنقيب مولتكه من أن يشهد الحروب التي قام بها حاكم مصر محمد علي باشا ضد العثمانيين، ليعيش أسوأ أيام حياته في وسط جنود مهزومين.**

عاد مولتكه من جديد إلى برلين ليقف على عتبة عهد جديد من الرخاء، بالنسبة له، وكان قد عاش في الواقع ظروفاً عسيرة، عندما كان برتبة ملازم. إذ أنه لم يكن يجد بين يديه ما يغطي

نفقاته، الأمر الذي حمله على كتابة بعض القصص القصيرة لمجلة شعبية. وأن يكتب بعض القصص والأبحاث التاريخية لمجلة أخرى. وعندما أراد أن يشتري جواداً ليعد نفسه للعمل في هيئة أركان الحرب، اضطر لترجمة ستة مجلدات من تاريخ جيبون. على أنه لم يلبث أن اكتشف إفلاس الناشر الذي تعاقد معه على نشر الكتب. ومن الغريب أن الرجل مع هذه المشكلات المادية التي كانت تأخذ بخناقه، قد استطاع أن يحصل على ثروة طيبة من العلم والمعرفة، ولا سيما في العلوم الثلاثة التي استهوته من البداية، الجغرافية والطبيعة والتاريخ العسكري. وهكذا اكتسب قدرة تعبيرية كبيرة، جعلت منه واحداً من عظماء الكتاب الألمان.

لم يكن مولتكه من رجال السياسة، ولم تكن له صلة قريبة أو بعيدة بالاتجاهات السياسية. فكان على النقيض من شارنهورست و جنيسناو، اللذين كانا من رجال السياسة، بقدر ما كانا قائدين عسكريين. غير أن عدم اشتراك مولتكه اشتراكاً ايجابياً بالشؤون السياسية، وعدم اهتمامه بأمر السلطة القائمة على الحكم، لم يكن يمنعه من إدراك العلاقة الوثيقة القائمة بين السياسة والقيادة العسكرية. ولهذا فقد عمل على إجراء دراساته الشخصية للاتجاهات والآراء السياسية. وكان مقتنعاً بسيادة الحكومة الملكية، مقدراً لها تركها العسكريين أحراراً في إدارة المسائل الخاصة بالجيش، دون أي تدخل من غير المختصين المحترفين. وكان مولتكه راضياً عن هزيمة الأفكار التحررية الألمانية التي حملتها ثورة سنة ١٨٤٨ ـــ ١٨٤٩ م. أو تلك التي رافقت ثورة سنة ١٨٦٠ م. وكان من الطبيعي أن يرحب البلاط البروسي بضابط له مثل هذه النظرة السياسية، مع ما يتوافر له من سعة الاطلاع، وغزارة العلم، والمعرفة العميقة في أمور اختصاصه العسكري. فعمل فريدريك وليم ـــ غليوم ـــ الرابع على تعيينه في سنة ١٨٥٥ مرافقاً لابن أخيه فريدريك غليوم ـــ وليم الذي أصبح فيما بعد امبراطوراً باسم فريدريك الثالث، ومكّنه هذا من الاتصال بالأمير الجندي. ويظهر أن غليوم الأول ـــ وليم قد كشف عن مواهب مولتكه، وما يتوافر له من إمكانات تؤهله للاضطلاع بأعباء رئاسة هيئة أركان الحرب. فكان أول عمل قام به غليوم في العام ١٨٥٧، عندما تولى الوصاية على عرش بروسيا، أن عين مولتكه في الوظيفة التي رشحته لها مواهبه، وهي رئيس هيئة الأركان. ولما كان غليوم يهتم بالسياسة، قدر اهتمامه بتنظيم الجيش وتدريبه، فقد وجد نفسه أكثر قرباً إلى وزير الحرب فون رون، الذي طغت شخصيته الصاخبة على شخصية الرجل الصامت، مولتكه، رئيس هيئة أركان الحرب، الذي كان صمته وعزلته سبباً في ابتعاده عن الكثير من المجالس الحكومية. وقد حدد الامبراطور غليوم، ووزير حربيته رون، الهدف من الإصلاحات التي اقترحاها وعملا على تنفيذها، وكان هذا الهدف هو زيادة كفاءة الجيش، وتطوير قدراته. وشملت هذه الإصلاحات ـــ فيما شملته ـــ إلغاء كافة التنظيمات شبه العسكرية، التي كانت تعتمد على الروح التحررية الشعبية. وهكذا بترت وضغطت قوات التريتوريال و الحرس الوطني، وتم هذا كله من أجل زيادة قدرة الجيش العامل، وقد

مكن هذا فيلق الضباط المحترفين من السيطرة على كافة التشكيلات العسكرية للأمة. وقد تصدى البرلمان البروسي لمقاومة هذه الإصلاحات، غير أن بسمارك لم ينتظر موافقة المجلس النيابي (البرلمان) على الإجراءات الإصلاحية، ووضع مخطط إعادة التنظيم موضع التنفيذ بصورة مباشرة وفورية، وتحت إشرافه. وقررت استراتيجية فون مولتكه الناجحة أمرين أساسيين هما:

أولاً: نهضة الاتحاد الجرماني (الألماني) على كل أمم أوروبا.

ثانياً: انتصار الملكية البروسية على المعارضة الديموقراطية التحررية في الأقاليم الجرمانية، تبعاً للاحتفاظ بالسلطة (مركز القوة) في الجيش البروسي.

مارس وزير الحرب فون رون دوره بنجاح كبير في سنوات الصراع السياسي، الأمر الذي جعل منه أكبر وأقوى شخصية في الجيش قبل العام ١٨٦٦ م. وقد اعتاد الامبراطور غليوم الأول أن يلجأ إلى استشارة وزير حربيته فون رون، في كافة الشؤون العسكرية، وحتى السياسية. الأمر الذي حجب رئيس الأركان مولتكه، وابتعد به عن دائرة الضوء. وهو ما كان ملائماً كل الملاءمة لشخص مولتكه العزوف عن المظاهر البراقة. غير أن ذلك جعله في الوقت ذاته مغموراً مجهولاً، حتى في دوائر الجيش. **ويذكر أن مولتكه بعث بأحد ضباطه في هيئة الأركان لنقل أوامره إلى أحد قادة الفرق أثناء معركة سادوفا وأصغى قائد الفرقة إلى الأمر، وقرأ الرسالة المحمولة إليه متمهلاً، ثم قال: «هذا جميل... ولكن من هو الجنرال مولتكه هذا؟»**. كان وصول مولتكه إلى مركز الصدارة بين مستشاري الملك مباغتة غير متوقعة. ولو أنه بات أمراً طبيعياً في تاريخ العسكرية البروسية، منذ أيام شارنهورست و جنيسناو.

أفاد مولتكه من ابتعاده عن دائرة الصراع السياسي طوال الفترة من سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٦٦. فأمكن له بذلك تركيز كل جهده لإعداد متطلبات الأعمال القتالية المقبلة. وكانت ثورات عام ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩، وقيام الامبراطورية الثانية في فرنسا (نابليون الثالث)، ثم اندلاع حرب القرم ١٨٥٤ ــ ١٨٥٦ م، قد أوضحت كلها معالم العهد الجديد الذي وقفت أوروبا على عتبته، كما أوضحت إمكان استخدام القوة العسكرية بحرية مطلقة في هذا العهد الجديد. وقد بدأ مولتكه فور استلامه لعمله، بإعادة النظر، ومراجعة كافة المخططات التي وضعتها هيئة أركان الحرب الجرمانية، قبل توليه رئاستها. وكان سلفه الجنرال رايهر واحداً من القادة البروسيين القلائل الذين جاؤوا من الصفوف. والواقع أنه كان قائداً خصب الخيال، واسع التصور، وكان أستاذاً ممتازاً للاستراتيجية. فكان بوسع مولتكه الاعتماد على كفاءة الضباط البروسيين، وحسن إعدادهم، وقدرتهم على إيجاد الحلول الصحيحة للمشكلات التعبوية (التكتيكية) التي قد تصادفهم في ميادين القتال. ولا بد من الإشارة إلى حقيقة معروفة، وهي أن الضباط البروسيين، قد أسقطوا من أيديهم في صمت كتاب (تعليمات خدمة الميدان) الذي كان قد صدر سنة ١٨٤٧، وذلك بمجرد

اجتيازهم حدود بوهيميا للقتال ضد النمسا ، وأخذوا يعملون وفقاً لاجتهاداتهم الخاصة وآرائهم في فن القتال .

مسألة أخرى . لقد كانت تشكيلات السلم للجيش البروسي أكثر تطوراً وتقدماً من تشكيلات أي أمة أوروبية أخرى . وكانت كل وحدات الجيش البروسي ، عدا وحدات الحرس ، تجمع جنودها وقوتها الاحتياطية من المناطق المحلية التي تقيم فيها وتعسكر على أرضها ، وهو أمر لم تتمكن من أن تفعله امبراطورية آل هبسبورغ ، بسبب مشكلاتها الخاصة بالقومية ، وتبعاً لتباين أصول السكان . **كان الجيش البروسي أيضاً قد احتفظ منذ سنة ١٨١٥ م بتشكيل (الفيلق) وهو التشكيل الذي جاء به نابليون بونابرت في حملاته الحربية ، والذي أغفلته فرنسا في حكم آل بوربون ونفضت يديها منه . وإن كان هذا التشكيل في الحقيقة يتأثر بسرعة التعبئة ، كما يتأثر بقدرة الجنود والقادة على القيام بالأعمال القتالية الكبرى .**

وكانت التعبئة في الجيش البروسي سريعة نسبياً ، وقد استطاع مولتكه زيادة هذه السرعة . إلا أن الاتساع الجغرافي الكبير للأقاليم البروسية ما بين إكس لاشابيل شرقاً وتيلسيت غرباً : كان يشكل عقبة ، تزيد من مشاكل بروسيا عسكرياً . وقد جاء عصر الخطوط الحديدية ، ليحمل معه الحل لهذه المشكلة ، والذي حاول مولتكه الإفادة منه قدر المستطاع لتطوير حركة القوات .

كان مولتكه قد بدأ دراسة الخطوط الحديدية ، قبل أن يبدأ العمل في تمديد أول خط حديدي في الأقاليم الجرمانية . وكان مؤمناً بفوائد الخطوط الحديدية وأهميتها ، حتى إنه عندما بدأ العمل لإنشاء الخطوط الحديدية وتمديدها سنة ١٨٤٠ ، جازف فأسهم بكل ما كان يدخره من المال في خط برلين ـــ هامبورغ . وقد قيل بأن اهتمامه بهذا الخط الحديدي إنما كان ناجماً عن تطلعه لتقصير المسافة بينه وبين زوجته الصغيرة التي كانت تعيش في هولشتاين . ولكن ما من شك في أن تفكيره بالخطوط الحديدية ، وإمكان الإفادة منها عسكرياً ، كان كبيراً جداً .

كانت دول أوروبا المختلفة قد استخدمت الخطوط الحديدية لنقل جنودها في الفترة من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٥٠ م . وعندما تمت تعبئة الجيش البروسي أثناء الحملة الايطالية سنة ١٨٥٩ م . لجأ مولتكه إلى اختبار ما تقدمه الخطوط الحديدية من مساعدات لنقل القوات . وأمكن له بفضل هذا الاختبار إدخال تحسينات كثيرة على عمليات النقل . وبات بالمستطاع نقل القوات بسرعة وصلت إلى ستة أضعاف السرعة التي سارت بها جيوش نابليون . **وظهر أن الوقت ، و السرعة ، و المسافة ، هي العوامل الأساسية لكل استراتيجية ، في ضوء جديد له أهميته .** وقد حصلت الدولة التي توافر لها نظام جيد للنقل بالخطوط الحديدية على تفوق حاسم في الحرب ، ذلك لأن سرعة التعبئة ، وسرعة الحشد ، قد باتا عاملين ضروريين لهما أهميتهما في التقديرات الاستراتيجية . ومما لا ريب فيه هو أن الجداول الزمنية للتعبئة ، وترتيبات الحشد ، وأوامر السير ، أوجدت العمود

الفقري للخطط الإستراتيجية التي تضعها هيئات أركان الحرب للمستقبل لتنفيذها عند قيام الحرب .

اقترح مولتكه بالاضافة إلى الانتفاع بالخطوط الحديدية الجديدة، استخدام شبكة الطرق البرية الكثيفة التي تطورت كثيراً مع تطور الثورة الصناعية . وكان نابليون بونابرت قد وجه الأنظار إلى هذا، بتقسيمه لجيشه أثناء التحرك على الطرق (المسير) . وفي حملته لعام ١٨٠٥ م، أفاد نابليون من ذلك لإلحاق الهزيمة بالجيش النمساوي في أولم، فقدم نموذجاً جيداً للإستخدام الاستراتيجي لقوات منفصلة تسير كل منها بأمر تحرك خاص بها . وكان الجيش الذي يتقدم، مع عدم استعداده للمعركة، يحتاج يوماً كاملاً للقيام بعملية الفتح لكل فيلق يتكون من ثلاثين ألف جندي (الانتقال من تشكيل السير أو التحرك إلى تشكيل القتال) . وكانت هذه العملية تتطلب وقتاً . لهذا كان لا بد من حشد الجيوش قبل المعركة بأيام عديدة . ولقد تحسنت الحالة العامة لشبكات الطرق البرية تحسناً كبيراً بعد سنة ١٨١٥ م . وبذلك أمكن استخدام أساليب تعبوية (تكتيكية) جديدة . وكتب مولتكه في ذلك ما يلي :

« تتزايد الصعوبات التي تواجه خفة الحركة تبعاً لزيادة حجم التشكيلات العسكرية . ولا يمكن في اليوم الواحد نقل أكثر من فيلق واحد من فيالق الجيش، إذا ما استخدم طريق واحد في عملية النقل هذه . ثم تزداد هذه الصعاب، كلما اقتربنا من الهدف، وذلك تبعاً لتحديد عدد الطرق التي يمكن استخدامها . وعلى هذا فإن من الأمور العادية أن يقسم الجيش إلى فيالق . وقد ظهر واضحاً أن حشد هذه الفيالق معاً في كتلة واحدة هو خطأ يجب تجنبه، إلا إذا كان الهدف من هذا التكتل محدداً بدقة . ولا يستطيع الجيش المحتشد (المتكتل)، السير على الطرق . ويمكن تحريكه فقط في ميادين القتال . ولكي يسير الجيش، يجب أن يقسم إلى وحدات صغرى، الأمر الذي له خطره إذا ما حدث في مواجهة العدو . ولكن لما كان حشد الجنود من جهة أخرى ضرورياً للمعركة، فإن محور الإستراتيجية هو تنظيم عمليات سير منفصلة، على شرط أن يضمن هذا التحرك، تأمين حشد القوات وجمعها في اللحظة المناسبة » .

من المحتمل أن مولتكه قد عني العناية كلها بالعمليات التي يتم فيها احتشاد الجيش في ميدان المعركة . ولذلك فقد أغفل المبدأ الذي تحدث عنه نابليون بضرورة حشد الجيش قبل المعركة . غير أن مولتكه لم يغفل تماماً مبادىء نابليون، عندما أرسل توجيهاته للعمليات قبل معركة سادوفا . والواقع، فإنه رأى ضرورة تجميع الجيوش قبل المعركة، ثم عاد في تاريخ متأخر، وقرر استمرار فصلها، على أن يتم تجميعها في مسرح القتال . ولخص نظريته بعد سادوفا بقوله :

« من الأفضل أن تحرك القوات يوم المعركة من عدة نقاط منفصلة، وأن توجه لتحشد في ميدان المعركة » . وفي كلمة أخرى : « إذا أمكن أن تؤدي عمليات المسير القصيرة القادمة من

اتجاهات مختلفة إلى حشد القوات في الجبهة، وعلى جنب العدو، فإننا بذلك نحصل على خير ما يمكن إدراكه. ويجب أن نتوقع الحصول بهذا على نتائج عظيمة، لم يكن بالمستطاع الوصول إليها بجيوش تعمل منفصلة. ذلك لأن هذا لا يتوقف، وحسب، على العوامل التي يمكن تقديرها وحسابها، بمثل ما يتم تقدير وحساب عاملي الوقت، و المسافة. بل ويتوقف أيضاً على المعارك الصغرى السابقة، وعلى حالة الجو، كما يتوقف على الأنباء والمعلومات الكاذبة. وبإيجاز، يتوقف على كل ما يقال عنه: فرصة الحرب، أو الحظ، في حياة البشر العادية. ومع هذا، فإن النجاح الكبير في الحرب لا يمكن إدراكه دون القيام بمغامرات كبيرة».

لقد ساعدت هذه المقولات على فهم نظرية مولتكه في الحرب. فهو باعتباره تلميذاً شديد الإخلاص لنظريات كلاوزفيتز، قد حاول تأكيد العلاقة السببية بمشكلات الحرب حتى أبعد الحدود. وقد أدرك جيداً أن مشكلات الحرب لا يمكن إضعافها أو الإنقاص منها بالعمليات الحسابية، أي بالعوامل التي يمكن قياسها، ذلك لأن الحرب خاضعة للمؤثرات السياسية. وبالرغم من أن مولتكه بقي مؤمناً بضرورة تحرر القائد في إدارته للحرب. فقد اعترف بأن الأهداف السياسية المتأرجحة في صعود وهبوط، مثلها كمثل الظروف، و الأحوال الجوية، تتجه إلى تعديل الاستراتيجية في كل الأوقات، وتبسيطها. ولكن، وبالرغم من حالة الشك، الناجمة عن تأثير السياسة على الاستراتيجية أو الضغط عليها، فقد أدرك مولتكه، أن العمليات الأولية للتعبئة والحشد، هي عمليات يمكن حسابها، ويمكن إعدادها قبل اندلاع الحرب بوقت طويل. «**ولكن الخطأ الذي يحدث عند حشد الجيوش يصعب تصحيحه على امتداد مسير الحملة**». ومع هذا فإن الأوامر الضرورية للحشد يمكن أن توضع في وقت مبكر، وما دامت الوحدات متأهبة للحرب، وما دامت وسائل النقل منظمة تماماً، فمما لا شك فيه أنه يجب توقع نتائج جيدة. وإلى ما وراء هذه المرحلة، تكون الحرب مزيجاً من الجرأة، أو المجازفة، بينما يقف في الجانب المقابل (التقدير الحسابي للعوامل المادية). فإذا ما بدأت العمليات فعلاً: «**اصطدمت رغباتنا لتوها بالرغبات المستقلة للعدو. ومن المؤكد أننا نستطيع وقف رغبات العدو عند حد معين، نظراً لتأهبنا لملاقاته، ولاعتزامنا الحصول على قوة المبادأة، ولكننا لا نستطيع أن نحطم رغباته بأية وسيلة أخرى غير القتال، وغير المعركة.** ثم تكون معقبات هذا من العوامل المادية والمعنوية، مع ما ينتج عنها من مواقف مختلفة تماماً، تكون قاعدة لتدابير جديدة. وعلى أية حال، فإن أي تخطيط للعمليات لا تكون له صورة مؤكدة، قبل الالتقاء الأول بقوات العدو الأساسية. ولهذا، فإن القائد يضطر طوال الحملة أن يضع قراراته على أساس مواقف، لا يستطيع توقعها، أو تقديرها قبل هذا الاصطدام. ومن هنا فإن كل الأعمال التي تحدث، لا تكون تنفيذاً لخطة معدة ومجهزة من قبل، بل تكون نتيجة طبيعية لضغط الحوادث. وتكون المشكلة التي تواجه القائد هي ضرورة تقديره لهذا العدد الكبير من الصور المختلفة، للموقف الحقيقي الذي يغطيه ضباب الشك. ثم تقدير القيم

الحقيقية لهذه الصور، واستخدامها استخداماً صحيحاً. وكذلك تقدير العوامل غير المعروفة للوصول إلى قرار سريع، ثم العمل بقوة ودون هوادة. ومن الواضح أن المعرفة النظرية ليست كافية، بل إن هناك مؤثرات للفكر وخواص للإبداع، تمكن بدورها من الوصول إلى ما يمكن الانتفاع به، نتيجة للتدريب العسكري، والتجارب المستخلصة من التاريخ العسكري، بل ومن صميم الحياة ذاتها».

أنكر مولتكه أن تكون الاستراتيجية علماً من العلوم. وأنه بالإمكان وضع القواعد العامة لها، بحيث يصبح بالمستطاع أن يستخلص منها استخلاصاً منطقياً. واعتقد أن هذه القواعد مثلها كمثل ما كان معروفاً من فائدة خط العمليات الداخلي، أو وقاية الجنب، أو غير ذلك من المعارف، أو المسلمات الكثيرة، والتي تتمتع بقيمة نسبية فقط. إذ أن كل موقف يتطلب فهماً للظروف المحيطة به. كما يتطلب حلاً تتجمع فيه التجربة والمعرفة والجرأة والتصور. وفي رأي مولتكه أن هذا هو الدرس الأساسي الذي يمكن اكتسابه من التاريخ. ولدراسة التاريخ أيضاً فائدتها في جعل من يعد نفسه للقيادة في المستقبل، على معرفة بالظروف المعقدة، التي تهيمن على العمل العسكري. وأكد مولتكه بأن تدريبات هيئة أركان الحرب، أو حتى مناورات الجيش، هي أقل قدرة من أن تقدم الصورة الحقيقية لمراحل الحرب، بمثل ما تقدمها وتصورها دراسة التاريخ العسكري.

جعل مولتكه دراسة التاريخ العسكري من مسؤولية هيئة أركان الحرب البروسية، والأقسام التابعة لها. ووضع دراسته عن الحرب الايطالية لعام ١٨٥٩، والتي طبعت للمرة الأولى سنة ١٨٦٢ م مستهدفاً الوصف الموضوعي لمسيرة الأحداث، قاصداً استخلاص الدروس العملية منها. ثم كتب فيما بعد، الدراسات الخاصة بحربي سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ م، بالأسلوب ذاته. **وكانت وجهة نظره تتلخص بأن الاستراتيجية يمكن لها أن تستفيد من التاريخ، ما دامت تدرس بالأسلوب الصحيح الذي يعنى بالعلاقة الوطيدة بين أطراف الموضوع. وتوضح تجارب مولتكه ذاته مدى الفائدة التي حققها، والتي وصل إليها بفضل دراساته التاريخية.**

كان مولتكه يعرف يقيناً باستخدام نابليون لنظام الأرتال المنفصلة للهجوم على أجناب العدو ومؤخراته. ولكن هذه العمليات للوحدات المستقلة لم تؤثر في اعتقاده الكبير بأهمية الهجوم المركز. ولقد كان لهذه الاستراتيجية فائدتها الكبرى، وقيمتها العظمى في عصر نابليون، غير أنها لم تمنع هزيمته في واترلو. وأوضحت معركة ليبزيغ الإمكانات المتوافرة لتحركات الجيوش المنفصلة، عند الحشد، وفقاً لما تنبأ بها شارنهورست، وأوصى بها بقوله: «يجب عدم ترك أي جيش محتشد دون هدف، بل يجب أن يقاتل دائماً بقوات محتشدة». وفي رأي مولتكه «بأن التقدم الفني والتطور في النقل قد مكنا من التخطيط للعمليات في حشد أوسع مدى مما كان متوافر قبل قرن، أو حتى نصف قرن، من الزمن».

أشار مولتكه إلى أن أهمية دراسة الضابط للتاريخ العسكري لا تقل عن أهمية دراسته للاستراتيجية. «فالاستراتيجية هي مجموعة من الوسائل التي تستخدم للوصول إلى غرض محدد، إنها أكثر من أن تعتبر معلومات بالنسبة للضابط. إنها تطبيق المعرفة في الحياة العامة. إنها تطور الفكرة الأساسية الأصلية بالتمشي مع الحوادث الدائمة التغير. إنها فن العمل تحت ضغط أصعب الظروف وأقساها».

احتلت قضية (تنظيم القيادة) مكانة الصدارة في جهد مولتكه وتفكيره. وقد عالج القضية بوضوح وإسهاب في تأريخه للحملة الايطالية إذ قال: «لا يمكن لأي مجلس حرب أن يتولى توجيه جيش ما» ويجب أن يكون رئيس هيئة أركان الحرب هو المرجع الوحيد للقائد العام في التخطيط للعمليات، وحتى لو كانت الخطة التي يضعانها فيما بينهما خاطئة، فإن تنفيذها بعزيمة وإصرار يجعلها أفضل من الخطة التي تجيء نتيجة تخطيط وتفكير عدد من الأفراد لكل رأيه وتوجهاته. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإنه من المحال توقع كل ما يعترض مسار الحرب من تغيرات وتحولات غير منتظمة، مهما بلغت الخطة الأساسية من الكمال، ومهما تضمنته من احتمالات، إذ يبقى هناك مجال للحظ أو الصدفة، كما يبقى هناك مجال للمبادءات الفردية في اتخاذ قرارات تعبوية (تكتيكية) يقتضي الموقف اتخاذها آنياً وتنفيذها فورياً. ولا بد لهذه وتلك من أن تدخل تعديلات جوهرية على المخطط الأساسي. ولهذا أيقن مولتكه بأن إرغام القائد على تنفيذ خطة ما للعمليات هو خطيئة قاتلة. ويجب بذل كل جهد مستطاع من أجل تشجيع القادة على المبادأة والإبداع، مهما كانت رتبهم في سلم التسلسل العسكري، ومهما كان نوع العمل الذي يمارسونه. وهكذا بقيت القرارات والأحكام الاستقلالية الخارجة عن التعليمات، والتي يصدرها الضباط في المسائل العسكرية، موضع التقدير الدائم والتشجيع المستمر. ولم يكن في ذلك ما يناقض أسس الانضباط الصارم، الذي اشتهرت به العسكرية البروسية. يمكن على هذا الأساس فهم الأسباب التي دفعت مولتكه لعدم إصدار الأوامر، إلا لما هو ضروري جداً منها، وفي رأيه: «**إن الأمر يتضمن كل شيء لا يستطيع القائد أن يفعله بنفسه، ثم لا شيء غير هذا... ويجب على القائد العام ألا يتدخل إطلاقاً في التدابير التعبوية ــ التكتيكية**». وقد ذهب مولتكه إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. إذ كان على استعداد دائم لإجراء أي تعديل على مخطط العمليات، إذا ما استطاع القائد التابع له تحقيق نجاح على مستوى العمليات أو على المستوى التعبوي ــ التكتيكي». وقد احتفظ برأيه هذا، ولم يتحول عنه، حتى عندما كاد بعض قادته في الأسابيع الأولى من الحرب البروسية ــ الفرنسية، أن يسببوا الفشل الكامل لخطة عملياته. وقد جاءت الانتصارات بعدئذ في ميادين القتال، لتدعم من وجهة نظره، ولتؤيد صحة رأيه.

لم يرغب مولتكه في أن يربك روح القتال التي توافرت للجيش البروسي، ولا أن يعطل ظاهرة

الإقبال على العمل، أو العمل المضاد طواعية، من جانب القادة التابعين. فقد وضعت التطورات الحديثة على عاتق القادة التابعين مسؤوليات جساماً لم يكونوا يعرفونها في العهود السابقة. والواقع، فإن من أهم الأسباب التي جعلت نابليون يحتفظ دائماً بجيشه متجمعاً، هي رغبته في أن يبقى جنوده على مقربة منه قدر المستطاع، لينفذوا أوامره مباشرة. ولكن طريقة مولتكه للتوزع في الاتجاه الأفقي ـــ الجبهي ـــ جعلت من غير الممكن الاعتماد على التوجيه المركزي. ولو أن عمليات السير قبل المعركة بقيت خاضعة للسيطرة، بفضل استخدام أجهزة الاتصال (اللاسلكية). وهكذا وجه مولتكه معظم التحركات في الحرب البروسية ـــ النمساوية سنة ١٨٦٦ من مكتبه في برلين، ووصل إلى ميدان القتال قبل معركة سادوفا بأربعة أيام فقط. ولا ريب أنه تصرف بحكمة عندما احتفظ لنفسه بحق إصدار الأوامر الاستراتيجية فقط. وقد نظم هيئات الأركان للجيش وترك لقادة الفيالق والفرق حرية العمل لمجابهة المشكلات التي تعترضهم على مستوى العمليات وعلى المستوى التعبوي (التكتيكي) وبذلك ضمن لنفسه فرصة التنفيذ الدقيق للأهداف الاستراتيجية. تلك هي القيادة البروسية التي قدر لها أن تمارس أخطر دور، في أصعب مرحلة عاشتها بروسيا، مرحلة إقامة الاتحاد الجرماني تحت زعامة بروسيا وملكها غليوم. **واجهت قيادة مولتكه أول اختبار لها وأعظمه في الحملة ضد النمسا سنة ١٨٦٦ م**. إذ أن دوره في الحرب النمساوية ـــ البروسية ضد الدانمارك لسنة ١٨٦٤ لم يكن دوراً كبيراً. وقد جعله تدخله السريع في المرحلة الأخيرة من الحرب، لوقف الاضطراب الذي سببه الفيلد مارشال الشيخ رانجل ومجلس مستشاريه، يبدو لعيني الامبراطور غليوم الأول قائداً استراتيجياً محنكاً، يتجنب الاندفاع والتهور. ثم زادت من مكانته مناقشته لخطط القتال ضد النمسا، حتى أن الامبراطور غليوم أصدر توجيهاته يوم ٢ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٨٦٦ م وتضمنت ما يلي: «يجب أن تصدر جميع الأوامر عن طريق مولتكه».

وبات الامبراطور منذ هذا التاريخ يتقبل نصائح مولتكه وتوصياته دون تردد. ووجد القائد الذي كان قد بلغ الخامسة والستين، والذي كان قد بدأ يفكر في التقاعد، وجد نفسه يتولى فعلاً القيادة العامة للجيش البروسي. ولقد كان أول اختبار لقيادة مولتكه هو في ذات الوقت أعظمها أثراً في حياته. إذ كانت القوات تقريباً متماثلة أو متوازنة بدرجة أكبر مما كانت فيما بعد، في الحرب الفرنسية ـــ البروسية. وكان على مولتكه أيضاً أن يتغلب على مشاكل جغرافية وسياسية متعددة. وتصور حرب ١٨٦٦، وعلى الأخص حملة بوهيميا، الجانب الاستراتيجي من الحرب، في صورة أوضح مما تصوره الحرب البروسية ـــ الفرنسية، بل أكثر مما تصوره أغلب الحروب الأخرى.

○

آ ـــ الحروب البروسية ـــ النمساوية (معركة سادوفا)

كان الامبراطور غليوم الأول يرغب عملياً بتجنب خوض الحرب ضد النمسا، وكان يشعر بأن رئيس وزرائه بسمارك يدفعه إليها دفعاً. فبدأ البروسيون بتعبئة قواتهم، بعد أن بدأ النمساويون التعبئة بوقت طويل، وحتى إذ ذاك، كان من المشكوك فيه، ما إذا كان الامبراطور سيوقع أمر إعلان الحرب، حتى يمكن الجيش البروسي من القيام بعملياته الهجومية ؟. وكانت المشكلات الاستراتيجية الأصلية، بالتبعية أو بالضرورة، مشكلات دقيقة جداً. إذ كان باستطاعة النمساويين العمل ضد سيليزيا العليا، أو سيليزيا الوسطى، أو أن يتقدموا في ساكسونيا، ليهددوا برلين، بعد الاتصال مع الجيش البافاري في بوهيميا الشمالية، أو في ساكسونيا. وكان توقع أي من هذه الاحتمالات يتوقف تماماً على تحديد التوقيت لبدء الحرب. وكان أمراً طبيعياً، ومتوقعاً، أن يعمل مولتكه على دعم بسمارك، لإقناع الامبراطور بضرورة العمل الفوري. غير أن مولتكه تجنب أن يدفع العمل السياسي عن طريق العمل العسكري، على نقيض ابن أخيه مولتكه الصغير(٥٤)، الذي أخبر الامبراطور غليوم الثاني في آب ـــ اغسطس ـــ سنة ١٩١٤، بأن التخطيط الاستراتيجي لهيئة أركان الحرب، قد حرم الحكومة من حرية العمل السياسي.

كان هدف مولتكه من تحرك القوات البروسية، هو أن يعوض عن التعطل الذي نجم عن التأخر في بدء التعبئة. وبالإضافة إلى هذا، فقد رغب أن تحقق هذه التحركات النجاح ضد التقدم النمساوي المحتمل، سواء في ساكسونيا وبرلين، أو في بريسلاو (في سيليزيا الوسطى). على أن تبقى سيليزيا العليا محرومة من أي حماية.

لم يكن باستطاعة النمساويين استخدام غير خط حديدي واحد، لنقل قواتهم إلى مورافيا(٥٥).

---

(٥٤) مولتكه الصغير : Moltke , Helmuth - Johannes - Ludwig ابن أخ فون مولتكه، وقد أطلق عليه اسم (الصغير) تمييزاً له عن عمه. وكان مولتكه الصغير بدوره قائداً بروسياً (جنرالاً) ١٨٤٨ ـــ ١٩١٦، تولى رئاسة هيئة أركان حرب الجيش الألماني سنة ١٩١٤. وكان الفشل نصيبه على جبهة المارن.

(٥٥) مورافيا : Moravie إقليم تشيكوسلوفاكيا يشكل قسماً من مسطح بوهيميا عاصمة برون Brunn أو برنو Brno ويخترقه نهر موراف.

في حين كان باستطاعة مولتكه استخدام خمسة خطوط حديدية لنقل قوات بروسيا، من كل أنحاء البلاد إلى مسرح الحرب. وتبعاً لهذا فقد انتشرت القوات البروسية يوم ٥ حزيران ــ يونيو ــ ١٨٦٦ م على امتداد نصف دائرة قطرها ٢٧٥ ميلاً، من هال(٥٦) و تورغو(٥٧) إلى غورليتز و لاندشوت(٥٨). وكان الوضع الأساسي للقوات البروسية سليماً، ما بقيت القوات بعيدة عن الجنوب في بوهيميا، كما كان يعتقد مولتكه، غير أن هذه القوات النمساوية كانت في الواقع في مورافيا لا في بوهيميا. وعلى كل حال، فإن مولتكه لم يضع في اعتباره، ولا في مخططاته للعمليات، إبقاء جنوده حيث هم في نقاط إنزالهم، وإنما شرع على الفور بسحبهم إلى مركز متوسط حول غورليتز. وقد رفض أن يصدر أمره بحشد كل قواته في منطقة صغيرة. مخالفاً بذلك كل اقتراحات القادة البروسيين، وحتى بعض أفراد هيئة أركان حربه. على أنه من جهة أخرى شعر بالفزع، والقلق، عندما عرف أن القوات النمساوية الرئيسة، قد تجمعت في مورافيا لا في بوهيميا، مما كان يشير إلى أن النمسا قد اتخذت ترتيباتها للقيام بالهجوم على سيليزيا العليا.

قرر مولتكه عندئذ اجتياح بوهيميا بقوة جيشين: الجيش الأول بقيادة الأمير فريدريك شارل(٥٩) ومهمته التقدم إلى موشنغراتز، والجيش الثاني بقيادة ولي العهد فريدريك غليوم الثالث(٦٠) ومهمته التقدم إلى توتنو ــ ناشود. على أن يلتقي الجيشان بعد ذلك في جيتشن. وقد وقع اختيار مولتكه على مدينة جيتشن لتكون مركزاً لهذا الحشد، لا بسبب الأهمية الاستراتيجية المميزة لها، وإنما لأنها كانت في موقع متوسط، وعلى مسافة متساوية من تورغو و اولمتز. أي على مسافة واحدة من الجيشين البروسيين الرئيسين. وهي في الوقت ذاته على مسافة متساوية من جيش الألب البروسي، ومن الجيش النمساوي الأساسي. فإذا ما تحركت الجيوش البروسية لإكمال عملية الحشد في اليوم ذاته، والذي ينطلق فيه الجيش النمساوي من مورافيا، فإن حشد الجيوش البروسية، سيتم قبل وصول النمساويين إلى جيتشن. على أن الضباط البروسيين في المقدمة لم يسلموا الضباط النمساويين قرار بروسيا بإعلان الحرب على النمسا، قبل يوم ٢٢ حزيران ــ يونيو ــ ١٨٦٦ في حين كانت بروسيا

---

(٥٦) هال: Halle أو Hal مدينة بلجيكية في إقليم برابان Brabant.

(٥٧) تورغو: Torgau مدينة ألمانية في إقليم ساكس آنهولت Saxe - Anhalt تقع على نهر ألبا Elbe. وفيها التقت الجيوش الروسية بالجيوش الأمريكية في ٣٠ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤٥.

(٥٨) لاندشوت: Landshut مدينة ألمانية تقع على نهر ايسر Isar في بافاريا السفلى.

(٥٩) فريدريك شارل: Frederic Charles أمير بروسي، ولد في برلين ١٨٢٨ ــ ١٨٨٥ م، ابن أخ الامبراطور البروسي غليوم الأول، وهو أحد قادة بروسيا الشهيرين، اشترك في الحربين البروسيتين ضد النمسا ١٨٦٦، وضد فرنسا ١٨٧٠، اشتهر بالحزم والكفاءة قدر شهرته بالقسوة الوحشية ــ اللاإنسانية.

(٦٠) فريدريك غليوم الثالث: ملك بروسي من مواليد بوتسدام ١٨٣١ ــ ١٨٨٨ م، برز اسمه في الحربين البروسيتين ضد النمسا وفرنسا. تولى الملك سنة ١٨٨٨، ومات بعد ثلاثة أشهر فقط من استلامه للملك.

قد بدأت أعمالها العدوانية، ضد الولايات الألمانية الأخرى منذ يوم ١٦ حزيران ــ يونيو ــ حيث بدأ جيش الألب باحتلال ساكسونيا في ذات اليوم الذي بدأ فيه الجيش النمساوي سيره من أولمتز نحو جوزيفستادت. وقد تحرك الجيش النمساوي من مورافيا على شكل ثلاث أرتال متوازية. وقد بذلت هذه الأرتال جهداً كبيراً إلى أن وصلت أهدافها بسرعة، وفي نظام جيد. ولكن بعد وصول الحرس الأمامي إلى جوزيفستادت يوم ٢٦ حزيران ــ يونيو ــ كان لا يزال الجيش النمساوي في حاجة لمدة ثلاثة أيام حتى يعيد حشد قواته ثانية، وتنظيمها في كتلة واحدة. ولعل ضياع الوقت هنا من قبضة النمساويين هو الذي أنقذ الجيش البروسي. ذلك أن جيش فريدريك شارل تقدم بصورة بطيئة جداً رغم تحذيرات مولتكه المستمرة، لأن فريدريك شارل أراد أن ينضم إليه جيش الألب، بعد احتلاله لساكسونيا. وقد أعطى هذا قائد الجيش النمساوي بينديك(٦١) فرصة استخدام خط العمليات الداخلي، للمناورة بين الجيشين البروسيين على التتابع.

كان الأمير فريدريك شارل قد أخذ في التحرك نحو موشنغراتز، وعندما اقترب منها تراجع الجيش النمساوي الذي كان يقوده كلام غالاس(٦٢) نحو جيتشن. وفي هذا الوقت ذاته، كان ولي العهد فريدريك غليوم يلحق بالجيش النمساوي الآخر هزيمتين في ناشود و سكاليتز. فأصدر القائد العام النمساوي الفيلد مارشال بينديك أمره بسحب كافة القوات النمساوية إلى سادوفا(٦٣). وفي يوم ٣٠ حزيران ــ يونيو ــ كان الجيشان البروسيان على مسافة قريبة كل من الآخر، بحيث أن الاتصال بينهما لم يكن يتطلب جهداً كبيراً. وبدأ مولتكه عندما وضح له أن خطر الهجوم النمساوي على واحد من الجيشين البروسيين قد انتهى، ولم يعد من سبيل لتحقيقه، يؤجل من حشد جيشيه، مبقياً كلاً منهما على مسيرة يوم من الآخر ليضمن اتحادهما معاً فوق أرض المعركة. وقد صدرت الأوامر النهائية ليلة ٢ تموز ــ يوليو ــ ١٨٦٦، وكانت الأوامر أكثر جرأة مما ظهر في أثناء تنفيذها. ووفقاً لتقدير مولتكه كان الجناح الأيسر للجيش الثاني، والجناح الأيمن للجيش الأول، سيعملان

(٦١) بينيديك: Benedek - Louis جنرال نمساوي ١٨٠٤ ــ ١٨٨١ م، عرفت عنه كفاءته القيادية العالية، وله سجل عسكري حافل في خدمة آل هبسبورغ، خاض معركة سادوفا، ووجه جنوده بجرأة وبصورة صحيحة (سواء في مرحلتي التراجع أو أثناء المعركة). وقد نشأ بينيديك في المدرسة التقليدية للفكر الاستراتيجي (الكلاسيكي). وكان مستشاره الجنرال كريسمانيك Krismanic، والذي لم يكن له رأي في اختياره، رجلاً عاش في الفكر العسكري للقرن الثامن عشر. وكان لهذه العوامل كلها الأثر الأكبر في توجيه القيادة النمساوية العليا لاستراتيجية الحرب. إذ هدفت القيادة النمساوية ضمان العمق في تشكيلاتها، مع إصرارها على التمسك بمواقع طبيعية قوية. على حين أوضح مولتكه من جانبه أن (المسافة) يمكن أن تقهر بعامل (الوقت أو الزمن).

(٦٢) كلام غالاس إدوار: Clam - Gallas Edouard جنرال نمساوي من مواليد براغ ١٨٠٥ ــ ١٨٩١ م، ارتبط اسمه بعدد من المعارك التي خاضتها النمسا في هنغاريا وايطاليا.

(٦٣) سادوفا: Sadova أو Königgrätz بلدة في بوهيميا، تقع على نهر بيستريس Bistrice، اكتسبت شهرتها بسبب المعركة التي وقعت فيها بين النمسا وبروسيا.

لا ضد جناحي النمساويين فحسب، بل ضد مؤخراتهما أيضاً. وقد فكر مولتكه في سادوفا بجعل المعركة معركة تطويق كامل. غير أن القادة البروسيين لم يتقيدوا بتوجيهاته وتعليماته.

انطلقت القوات البروسية لخوض معركتها مع إشراقة شمس يوم ٣ تموز ــ يوليو ــ فاشتبك الجيش البروسي الأول مع النمساويين في فترة الصباح، ثم انقض الجيش البروسي الثاني على الجناح الأيمن للقوات النمساوية. ولم يلبث الجيش النمساوي الضخم حتى تمزق شر ممزق في ساعات قليلة، وترك على أرض المعركة ٤٥ ألفاً بين قتيل وجريح وأسير. (وهو ما يعادل ربع قوة الجيش تقريباً). واضطر بينديك لقيادة الجيش الممزق الذي بات يضم ١٥٠ ألف جندي مبتعداً به عن مسرح القتال. وعلى الرغم من أن البروسيين قد حققوا نصراً حاسماً على القوات النمساوية، إلا أن ما هيمن عليهم من اضطراب وفوضى، جعلهم عاجزين عن استثمار النصر، ومطاردة خصومهم النمساويين بصورة فورية. وبعد اسبوعين، أصدر فون مولتكه أوامره يوم ١٨ تموز ــ يوليو ــ باستئناف التقدم نحو واغرام لتهديد العاصمة النمساوية. غير أن الحكومة النمساوية أسرعت لطلب الهدنة، ووافقت بروسيا على طلب النمسا.

عندما لحقت الهزيمة بالقوات النمساوية في سادوفا، أرسل الامبراطور النمساوي فرانسيس أو فرانسوا جوزيف برقية إلى امبراطور فرنسا نابليون الثالث طالباً إليه التدخل. غير أن صدمة نابليون الثالث في المكسيك جعلته غير راغب في ركوب مركب الحرب خلال تلك الفترة، وبالاضافة إلى ذلك، فإن النصر الحاسم والسريع الذي أحرزته القوات البروسية جاء مضاداً لكل توقعاته. فكان لا بد للنمسا من اللجوء إلى الصلح الذي تم التوقيع على معاهدته في براغ. **وقد نصت بنود المعاهدة على أن فيينا وبرلين تتفقان على احترام سيادة العرش النمساوي. ولكن ذلك لم يمنع من إعطاء فينيتيا لايطاليا، كما حصلت بروسيا على حق ضم أقاليم هانوفر وشيلزويغ وهولشتاين وهيس وناسو ومدينة فرانكفورت سيرماين الحرة. وتركت ساكسوني من غير أي مساس بوحدتها. وتشكلت الدول الواقعة إلى شمال نهر الماين ضمن اتحاد (الشمال الجرماني) تحت رعاية بروسيا. أما الدول الواقعة إلى الجنوب من نهر الراين، فقد ضمها (اتحاد الجنوب المستقل).**

ما إن رجع الامبراطور غليوم ظافراً إلى برلين حتى أقام المجلس النيابي الاتحادي (البرلمان) بهدف تأكيد اتجاهه التحرري ــ الليبيرالي ــ الوطني. كما تم تشكيل حزب جديد عرف باسم الحزب الوطني الليبيرالي، وهدفه دعم مسيرة الاتحاد بين الاتحادين الشمالي والجنوبي. وتمت الموافقة على الاتحاد الجمركي من قبل مجلسي البرلمان الاتحاديين. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الطريق أمام الاتحاد الجرماني لا زال طويلاً وشاقاً، وذلك بسبب الضغوط التي أخذ امبراطور فرنسا بممارستها على الدول الجرمانية كلها، بهدف إعاقتها عن بلوغ هدفها. وكان بسمارك يتوقع كل ذلك، حتى من قبل أن يتم التوقيع على معاهدة براغ بين النمسا وبروسيا، وقد طلب نابليون الثالث أن

يضم إليه كل ما وراء الضفة اليسرى من نهر الراين، وذلك بمثابة تعويض له، مقابل ما حققته بروسيا من مغانم، وذلك قبل التوقيع على معاهدة براغ. وها هو الآن يعود للمطالبة بها. وهيمنت على اتحاد الجنوب البروسي المخاوف من وقوع عدوان فرنسي. فقام هذا الاتحاد بالتوقيع على معاهدة هجومية ـــ دفاعية مع ملك بروسيا بصورة سرية. وبات كل شيء جاهزاً للقيام بحرب مشتركة ضد عدو مشترك، تسهم في صهر دول الاتحاد الجرماني. وكان هذا هو بدقة ما كان يسعى إليه بسمارك ويعمل له بدأب مستمر وجهد متواصل.

○

انتهت معركة سادوفا بانتصار بروسيا انتصاراً حاسماً. وقد كان هذا الانتصار ثمرة جهد مشترك، تزعمه الملك غليوم، وأشرف على إعداده بسمارك، وخطط له ونفذه فون مولتكه. ولقد تعرضت معركة سادوفا لبحث دقيق شمل كافة عوامل الصراع السياسي والعسكري. بما في ذلك إدارة الحرب، وعملياتها، والأسلحة التي استخدمت فيها، وأساليبها التعبوية (التكتيكية)، وطرائق عملياتها. وكان مولتكه هو أستاذ معركة سادوفا وهو تلميذها أيضاً. إذ ما كادت الحرب تصل إلى نهايتها الظافرة، حتى انصرف مولتكه إلى استخلاص الدروس المستفادة من المعركة التي خطط لها، وعمل على إدارة حربها، وذلك من أجل الاستعداد للحرب القادمة.

تجدر الإشارة قبل كل شيء إلى تلك المذكرة، الطويلة جداً، والتي كان مولتكه قد كتبها منذ سنة ١٨٦٠ م، وعالج فيها قضية الصراع المحتمل مع النمسا. وقد يكون من الصعب هنا التعرض لكل ما تضمنته تلك المذكرة، وقد يكون ذكر بعض المقاطع المنتقاة منها هو أمر كاف لإبراز الطريقة التي كان يعالج فيها مولتكه مشكلات الصراع المسلح. ومن هذه المقاطع المنتقاة ما يلي:

« **... يجب أن لا تترك الحرب بين النمسا وبروسيا أي دولة من دول أوروبا وهي غريبة عن النزاع، أو لا مبالية فيه. لأن نتيجة انتصار أحد الخصمين، ستضع حداً للتجزئة الحالية لألمانيا ... وستتشكل في وسط أوروبا دولة موحدة تعادل في قوتها ونفوذها، أو تفوق، على قوة نفوذ كل دولة من الدول المجاورة لها** ... إن انكلترا هي من بين الدول الكبرى التي تحتاج بالضرورة إلى حليف قوي في القارة الأوروبية. ولن تجد دولة من الدول تتجاوب مع مصالحها بصورة مثلى أفضل من ألمانيا الموحدة، والعاجزة عن الطموح في السيادة على البحار. ولكن من المحتمل أن تقف انكلترا، كما كانت تقف في الماضي، إلى جانب الطرف الذي يتعرض للهجوم، لتعارض أية تسوية سياسية لأوروبا، ليس من السهل توقعها والتكهن بنتائجها وآثارها على المدى البعيد ... أما فرنسا، فإنها لا تستطيع أن تقبل بإقامة امبراطورية ألمانية، عدد سكانها سبعون مليون نسمة ... إلا أنها

تستطيع أن تطمح إلى استخلاص أفضل الميزات لنفسها من النزاع، كأن تضم إليها بلجيكا، والمقاطعة الرينانية، وهولندا أيضاً، وأن تكون واثقة كل الثقة من عملية ضمها، إذا جمدت القوات البروسية الرئيسة على الألب والأودر. ومن المحتمل أن تنتصر روسيا لبروسيا، وذلك حتى تتمكن من الحصول على القسطنطينية، التي تستطيع النمسا وحدها أن تمنعها من الحصول عليها. بالإضافة إلى الدول البحرية. ولكن لدعم روسيا لبروسيا محاذيره المضاعفة، مثل وصول الدعم متأخراً عن الوقت الملائم، أو أن يكون دعماً قوياً جداً، فما يكاد الجيش الروسي يصل إلى حدودنا، إلا ونكون إما منتصرين، وعندئذ لا نهتم بمساعدته، وإما مهزومين ومضطرين عندئذ إلى دفع ثمن هذا الدعم من الغزو الذي تتعرض له مقاطعاتنا، **لأن روسيا عندما تتدخل في نهاية الحملة بجيش نشيط يضم ٣٠٠ ألف جندي، تصبح سيدة الموقف، وفي وضع يسمح لها بفرض شروطها علينا، وتحديد المدى الذي نستطيع توسيع حدودنا إليه في حالة النجاح، أو الحد الذي ينبغي أن نعيد إليه حدودنا في حالة الهزيمة**».

تعتبر هذه المذكرة في الواقع، نموذجاً واضحاً للمحاكمة المنطقية التي مارسها مولتكه بصورة منتظمة خلال السنوات التالية (١٨٦٠ ـــ ١٨٦٦) وليس من الغريب بعد ذلك أن تنتصر الإرادة المصممة على بلوغ النصر، والتي أعدت لهذا النصر عدته، طوال سنوات كانت حافلة بالعمل والجهد، ضد أقوى الجيوش الأوروبية. لقد كان الجيش النمساوي في سنة ١٨٦٦ م مصنفاً على أنه من أفضل الجيوش الأوروبية. إذ كان يتم تطويع الجنود فيه لمدة سبع سنوات. وكانت خيالته (فرسانه) على درجة عالية من الكفاءة والتدريب، وكانت مدافعه الميدانية المحلزنة متفوقة على مدافع البروسيين التي كانت تنتجها مصانع كروب، ويصل مداها حتى ٣٫٥ كم. ومع ذلك فقد تمكن الجيش البروسي من إلحاق الهزيمة بالجيش النمساوي خلال مدة سبعة أسابيع. وقد عزيت هذه النتيجة، أولاً، إلى عدم كفاءة هيئة الأركان النمساوية، لدى مقارنتها بهيئة الأركان البروسية. الأمر الذي لاحظه مولتكه عن قرب، وأدرك نقاط ضعفه في أثناء معركة شيلزويغ ـــ هولشتاين في العام ١٨٦٤ م. وثانياً، بسبب ضعف مشاة النمساويين، والتي كانت مسلحة ببندقية لورنز، التي تلقم من السبطانة، والتي لم تكن تسمح بالرمي إلا واقفاً. في حين كانت البارودة البروسية تتفوق عليها تفوقاً واضحاً، لأنها كانت تلقم من المغلاق، كما كان تلقيمها يتم بقطعة واحدة تضم الرصاصة والبارود والكبسولة التي تتفجر بإبرة القدح، وكانت هذه البارودة التي حملت اسم دريزة مجهزة بموجه يسمح لها بالرمي حتى أربعمئة متر. وكان باستطاعة الرامي نتيجة لذلك أن يستخدمها في وضع (الرامي منبطحاً) وهذا ما ساعد الرماة البروسيين على استخدام أسلحتهم بكفاءة أكبر من كفاءة النمساويين (الرماة). رغم أن بواريد هؤلاء لورنز، كانت مجهزة بموجه يسمح لها بالرمي حتى ألف متر (أي ضعف مدى البارودة البروسية تقريباً). وهكذا كانت نيران البروسيين تحدث

دماراً في تشكيلات النمساويين الضخمة. ولقد تمكنت ست كتائب ونصف كتيبة من قوات البروسيين في معركة ناشود أن تجمد من مسافة بعيدة، قوة ٢١ كتيبة نمساوية، خلال ساعتين كاملتين، بواسطة نيرآن البنادق فقط، وألحقوا بها خسائر تعادل خمسة أضعاف الخسائر التي لحقت بهم. وفي معركة سادوفا ومع النمساويين قاتلوا قتالاً دفاعياً طوال يوم المعركة ٣ تموز — يوليو — ١٨٦٦ بتفوق لصالحهم يعادل خمسة مقابل ثلاثة، إلا أنهم خسروا ١٨ ألف قتيل وجريح مقابل ٩ آلاف قتيل وجريح من الجانب البروسي. وبالإضافة إلى ذلك، كان للتلقيم السريع والسهل للبندقية المزودة بإبرة القدح في وضع الرامي منبطحاً، أثر مثبط للعزيمة على المشاة النمساوية، التي كانت مضطرة إلى إتخاذ وضعية الرامي واقفاً لتلقيم بنادقها. وقد أكد عقيد نمساوي هذه الحقيقة بقوله: «إن رجاله كانوا يشعرون بأنهم عزل من السلاح في القتال، معظم وقت المعركة. على حين كان البروسيون مستعدين دوماً للرمي». وقد طبع مولتكه تعليماته التي استخلصها من تجاربه في العام ١٨٦٩ م، ووجهها إلى قادة الوحدات والتشكيلات، وجاء فيها ما يلي:

«... مما لا شك فيه، هو أن الجندي الذي يرمي بثبات، يتفوق على الجندي الذي يرمي وهو يتقدم، لأنه يجد حماية له في الأرض، على حين لا يجد الآخر المتقدم أمامه سوى الحواجز، وإنه إذا ما واجهنا أقوى اندفاع لجندي من الجنود المتقدمين، بثبات جنان هادىء، فإن أثر النار الذي أصبح قوياً جداً في أيامنا هذه، هو الذي يحصل على النصر. وإذا كان بالمستطاع بالنسبة إلينا أن نحتل موقعاً من المواقع، نضطر خصمنا، احتمالاً، إلى مهاجمته لسبب سياسي، أو عسكري، أو بدافع الكرامة القومية، يبدو من المعقول استخدام مميزات الدفاع أولاً، قبل الانتقال إلى الهجوم».

لقد أكدت موقعة سادوفا رأي مولتكه القائل بأن البندقية التي تلقم بواسطة المغلاق، جعلت من الدفاع شكل الحرب الأقوى، وأن من الواجب تطويق الخصم إذا كنا نريد هجوماً حاسماً. وقد كتب في هذا الصدد: «**ينبغي أن نتذكر بأن هجوماً يشن من الجبهة فقط، لا يتضمن فرصاً كبيرة في الفوز، وقد يسبب بسهولة خسائر كبيرة. وهكذا فإنه يتعين على القائد أن يحول جهوده ضد أجنحة الموقع المعادي**». لم يحصل أي تبديل في تراتيب قتال الطرفين في معركة سادوفا. فقد استخدمت القوات البروسية الصفوف المنتشرة من أجل استخدام كل الأسلحة في الرمي عند صد هجمات أرتال الكتائب النمساوية. وكانت القوات البروسية بدورها تنطلق في الهجوم بأرتال الكتائب.

أفاد مولتكه من معركة سادوفا وما رافقها من قصور عن استثمار النصر مباشرة، بمطاردة القوات النمساوية. وكان السبب في ذلك هو أن جنود الجيش الثاني، تقدموا في مواجهة الجيش الأول، فسببوا اضطراب الصفوف، وتشابكت وحدات الجيشين بعضها مع بعض، مما وضح معه

أن هذا الموقف المضطرب يتطلب وقتاً لفصل القوات، وإعادة تنظيمها. وقد عمل مولتكه على معالجة هذا الموقف، خلال مرحلة الإعداد لحربه القادمة ضد فرنسا.

لقد تعرضت عمليات سادوفا للكثير من الجدل والمناقشة، ومما قيل فيها: «لقد وقف الجيش النمساوي بين الجيشين البروسيين الأول والثاني، فأي من الجيشين كان على بينديك أن يهاجمه أولاً ؟» وربما كان تقدير بينديك صحيحاً عندما قدر أساسياًالهجوم على الجيش البروسي الأول، ولكنه مع هذا قد فشل أن يقدّر، في الوقت المناسب، أن أمامه فقط يوماً واحداً وربما يومين اثنين لا أكثر، ليبدأ الهجوم ضد أحد الجيشين البروسيين، دون أن يخشى أن يجيء الجيش الثاني إلى مؤخرته. ولكن الفرصة أفلتت بسبب إيمان القيادة النمساوية العليا في الفائدة التعبوية (التكتيكية) للمواقع القوية، أكثر من إيمانها بالقيمة التي لا تقدر لعامل الوقت، ثم بسبب أن الحشد المبكر للجيش قد عطل من خفة حركته. وعندما اكتشف القائد النمساوي بينديك خطأه، كانت حتى فرصة التقهقر وراء الألب عند جوزيفستادت وكورينجراتز قد أفلتت، وكان عليه أن يتقبل المعركة والنهر في مؤخرته. وأفاد مولتكه من هذه التجربة، فأوضح أن أهمية (خط العمليات الداخلي) هي أهمية نسبية، وأوجز تجربته للرد على أولئك الذين أكثروا من الحديث عن فائدة العمل على هذا الخط، والتفاخر به، فقال:

«لا تتوافر فوائد خط العمليات الداخلي، ما لم تتوافر لك المسافة الكافية لتتقدم ضد عدو واحد، أو قوة واحدة من قوات العدو، على عدد من خطوط السير، وبذلك تحصل على الوقت الكافي لتنتصر على هذا العدو، وتطارده. ثم تتحول نحو عدو آخر، على شريطة أن يكون هذا العدو الثاني، طوال قتالك للعدو الأول، تحت مراقبتك. فإذا ضاقت هذه المسافة بحيث لا يمكنك مهاجمة العدو الأول، دون أن تجازف بمواجهة هجوم العدو الثاني، على جنب قواتك ومؤخرتها، فإن الفائدة الاستراتيجية ــ لخط العمليات الداخلي ــ تتحول لتكون ضرراً تعبوياً (تكتيكياً) ناجماً عن عملية التطويق في أثناء المعركة».

لقد فسرت كلمات مولتكه على أنها قضاء حاسم ضد العمليات على الخطوط الداخلية، وأنها توصية للقيام بمناورات مركزة، أي مناورات تستند كلها إلى مركز واحد. ولكن هذا التفسير لم يكن هو ما يعنيه مولتكه أو يقصده، ذلك لأنه في الحرب الفرنسية ــ البروسية ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ م، استخدم الطريقتين بنجاح وبحرية تامة، مستنداً أساساً إلى ما يقوم به العدو، فيعمل هو تبعاً لذلك. وقد امتازت استراتيجية مولتكه بتحرر تفكيره، وتحوله المرن من تطبيق نظرية إلى استخدام أخرى، بسرعة، تبعاً لما يتطلبه الموقف.

ولقد قيل أيضاً أن استراتيجية مولتكه إنما هي انعكاس للقوة العسكرية التي توافرت لبروسيا في ذلك الوقت. ويعتبر مثل هذا القول صحيحاً مع بعض التحفظات، ففي سنة ١٨٦٦، كان

على مولتكه أن يوجد الأفضلية القليلة في قوة الجيوش البروسية في بوهيميا. وقد جازف عندما سحب الجنود من كل الولايات الألمانية، تاركاً جيشاً صغيراً جداً للعمل ضد حلفاء النمسا من الألمان، ولو كانت حملة بوهيميا قد استمرت لوقت أطول، أو كانت قد توقفت، دون نتيجة حاسمة، لكان باستطاعة نابليون الثالث الاستيلاء على أرض الراين، ولكان باستطاعته أن يقرر مستقبل القارة الأوروبية، وهذه إمكانات لم تتوافر له إبان الحرب ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ م.

لقد انصرف مولتكه بعد معركة سادوفا لإجراء إعادة تنظيم شامل، فكري وتنظيمي، وعني عناية خاصة بإعادة تنظيم جهاز هيئة الأركان العامة، استعداداً للحرب القادمة مع فرنسا. وفي أثناء ذلك لم تكن فرنسا تتجاهل ما كان يحدث في عاصمة بروسيا برلين من استعدادات وتطورات. ولقد كشف تقرير الملحق العسكري الفرنسي في برلين البارون ستوفل الذي بعثه إلى حكومته في شباط ــ فبراير ــ ١٨٦٨ م ما يلي: «**إن تكوين هيئة الأركان البروسية هي أكبر ميزة، من بين كل عناصر التفوق، التي ستفيد منها بروسيا في أي حرب قادمة. وهي ميزة حتمية ومؤكدة، فهيئة الأركان العامة البروسية هي أول الهيئات في أوروبا وأكثرها كفاءة... ولا يمكن مقارنة هيئة أركاننا معها أبداً. ان تنظيم هيئة الأركان العامة البروسية، سيشكل في الحرب المقبلة أكثر عناصر التفوق لصالح الجيش البروسي**». ولقد حفظت وثائق ومحفوظات القيادة الألمانية النظام الرتيب الذي كان متبعاً في القيادة الألمانية، والذي يمكن تلخيصه بالكلمات التالية:

«**كان يعقد في كل صباح مؤتمر لهيئة الأركان، تحت إشراف رئيس هيئة الأركان بهدف مناقشة الموقف، واتخاذ القرارات المناسبة له. ثم تحمل هذه القرارات إلى الملك، حتى إذا ما وافق عليها، تم توزيعها على شكل أوامر إلى القادة المعنيين**». ولم يكن أسلوب العمل هذا، والمميز بدقة متناهية مثل دقة عمل الساعة، خالياً من النقائص أو العيوب، ذلك أنه كان يتجاهل الأمور المباغتة التي هي من طبيعة الحرب، ولا يضع حساباً كبيراً لما هو غير متوقع، تاركاً للقادة المحليين حرية اتخاذ القرارات المناسبة، لمجابهة مثل هذه الأمور عند وقوعها، وعلى ضوء الموقف. مما كان يعرض، في بعض الأحيان، المخطط العام الذي وضعته هيئة الأركان للتغيير والتبديل. ومقابل ذلك، كانت هيئة الأركان العامة الفرنسية تضم مجموعة من الشبان (الأساتذة الصغار)، الذين لم تكن لهم علاقة، تقريباً، بالجيش ومشكلاته، إلى جانب مجموعة من كبار القادة الطاعنين في السن والذين تحولوا إلى ضباط مكاتب (بيروقراطيين) بعد أن استنزفت قدرتهم ضغوط العمل الرتيب (الروتيني). وكان الماريشال بازين[٦٤] نموذجاً للقادة هؤلاء، وكان حذراً جداً من هيئة أركانه العامة، حتى أنه منع ضباطها من

(٦٤) بازين: Bazaine - Achille ماريشال فرنسي، من مواليد فرساي ١٨١١ ــ ١٨٨٨ م، برز اسمه في أثناء حرب القرم، وعين قائداً أعلى في المكسيك، كلف سنة ١٨٧٠ بتولي القيادة العليا للجيش الفرنسي في اللورين. لم يستخدم المبادأة، فترك قواته تحت رحمة حصار القوات البروسية في ميتز. صدر عليه حكم بالإعدام حتى الموت سنة ١٨٧٣ م. هرب من سجنه إلى اسبانيا، حيث أمضى الأيام الأخيرة من حياته في العاصمة الاسبانية مدريد.

الظهور فوق أرض ساحة المعركة. وكانِ يثق في هيئة أركانه الشخصية، مثله كمثل نابليون بونابرت قبل ستين عاماً. وكان هذا الفارقِ الأساسي بين عمل هيئتي الأركان البروسية والفرنسية ذا نتائج كبيرة في الحرب.

ب ــ الحرب البروسية ــ الفرنسية (معركة سيدان)

تجمعت السحب القاتمة في سماء بروسيا وفرنسا منذرة باقتراب العاصفة، وقد كان لتلك الغيوم عوامل تشكلها الخارجية منها والداخلية، البعيدة منها والقريبة. وعلى هذا فلم تكن الحرب التي انفجرت بعد ذلك هي مجرد انحراف في مزاج الملك البروسي، والامبراطور الفرنسي، ولا كانت مجرد حدث طارىء نجم عن ظروف طارئة. وقد يكون من المناسب هنا المرور سراعاً على مسيرة تلك الأحداث التي أدت للحرب، والتي تعتبر بدورها نموذجاً واضحاً لانفجار الحروب، في بداية تشكل (عصر الديموقراطيات الغربية)، وفقاً لما هو مصطلح على تسميته.

وقع عصيان في الأسطول الإسباني في شهر أيلول ــ سبتمبر ــ سنة ١٨٦٨ م، أدى إلى إقصاء الملكة الإسبانية ايزابيلا الثانية[٦٥] عن الحكم وتعيين الماريشال بريم[٦٦] وصياً على الملك. ولما كانت جماهير الشعب الإسباني غير راغبة في تبني النظام الجمهوري، وليست على استعداد لقبوله، فقد مضى الماريشال بريم في البحث عن ملك يقبل تسلم تاج المملكة، حتى أعيته الحيلة، وسدت في وجهه السبل. وأخيراً قام بإجراء مباحثات سرية مع بسمارك في شهر شباط ــ فبراير ــ ١٨٧٠، واقترح بسمارك مرشحاً مناسباً هو الأمير ليوبولد ــ السيغماني الذي يمت بصلة قرابة بعيدة تربطه بالأسرة المالكة البروسية آل هوهنزولين[٦٧]. واتصل بريم بالأمير المرشح للملك، فرحب هذا بالعرض، غير أنه اشترط لقبول العرض موافقة امبراطور فرنسا نابليون الثالث، وملك بروسيا

(٦٥) ايزابيلا الثانية: Isabelle II - Marie Louise ابنة فرديناند الثامن، وهي من مواليد مدريد ١٨٣٠ ــ ١٩٠٤، سميت ملكة وهي طفلة سنة ١٨٣٣ م، ثم قامت حركة تمرد في الأسطول، امتدت إلى الجيش، وعزلها قادتها عن الملك سنة ١٨٦٨ م.

(٦٦) الماريشال بريم: Prim - Juan قائد اسباني ورجل دولة ١٨١٤ ــ ١٨٧٠ م، وهو أحد مؤلفي قصة عزل ايزابيلا الثانية عن الملك، وأصبح بعد عزلها وزيراً للحرب، ووصياً على الملك.

(٦٧) آل هوهنزولين: Hohenzollern كانت هوهنزولين قديماً منطقة ألمانية تقع على نهر الدانوب، مهد الأسرة المالكة التي حملت الاسم ذاته، وتولت الملك من سنة ١٧٠١ إلى سنة ١٩١٨، في ألمانيا، وكانت إلى جوارها سيغمارينغن Sigmaringen، التي ألحقت ببروسيا سنة ١٨٤٩ م، وهي تؤلف اليوم مع قسم من وورتمبرغ Wurtemberg إقليماً في ألمانيا الغربية وقسمت إلى أقسام، تقع في وسط البلاد، وعاصمتها توبنجن Tubengen.

غليوم. وكتب بريم رسالة إلى الملك غليوم الذي بوغت مباغتة تامة بالأمر، إذ لم تكن لديه أية معرفة بالمباحثات السرية التي أجراها رئيس وزرائه بسمارك مع الوصي على الملك الإسباني بريم. ورفض الملك غليوم العرض الإسباني رفضاً قاطعاً. وأرسل إلى بريم رسالة أبلغه فيها معارضته لهذا الترشيح. وتبع ذلك المزيد من المباحثات بين بريم وبسمارك. وقامت الصحيفة الإسبانية إيبوكا بالكشف عن تلك المباحثات السرية بصورة مباغتة في يوم ٣ تموز ـــ يوليو ـــ ١٨٧٠ م. وعندما علم نابليون الثالث بالأمر، بوغت مباغتة زادت على تلك التي أصابت غليوم يوم علم بأمر المباحثات السرية، فما كان منه إلا أن أرسل برقية احتجاج شديدة اللهجة إلى كل من بروسيا وإسبانيا. وصدرت صحف باريس في اليوم التالي، وقد حملت العناوين المثيرة، والمقالات العنيفة، التي تحدثت عن إحياء امبراطورية شارلكان (شارل الخامس) واجتاحت العاصمة الفرنسية نوبة من الجنون الأحمق (الهستريا) مما دفع أحد السياسيين الفرنسيين إلى الكتابة في مذكراته اليومية: «**يبدو لي بأن هذه هي الحرب أو ما يشبهها**». وفي اليوم التالي، استدعى الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث المجلس الاستشاري للدولة، ونوقشت قضية التعبئة العامة. واقترح وزير الخارجية الفرنسي الدوق غرامونت[٦٨] تكليف السفير الفرنسي في برلين الكونت بينيديتي[٦٩] بمقابلة ملك بروسيا غليوم والتماس وساطته لإقناع ليوبولد بسحب ترشيحه للمملكة الإسبانية. وكان الملك البروسي خلال هذه الفترة مقيماً في ايمس[٧٠] يستريح في حماماتها المعدنية الدافئة. فتوجه بينيديتي إليها، وقابل الملك غليوم في يوم ٩ تموز ـــ يوليو ـــ ١٨٧٠ فقال الملك غليوم: «**بأنه لا يعتزم تشجيع ليوبولد، وأن القضية تخص مدريد وحدها**». غير أن هذه الإجابة لم تقنع نابليون الثالث، ولم تحظَ برضاه. فعاد غرامونت وأبرق إلى بينيديتي بما يلي: «**نطلب إلى الملك البروسي بأن يمنع الأمير من الاستمرار في ترشيح نفسه**». وعندما نقل السفير بينيديتي إلى الملك غليوم ما تضمنته البرقية، اهتاج كثيراً، وأظهر ضيقه وضجره، غير أنه وافق بالرغم من ذلك على السماح للسفير الفرنسي، بالإتصال مباشرة مع الأمير ليوبولد وإرسال برقية له بهذا المضمون. وكان ليوبولد في أثناء ذلك مقيماً في سويسرا وقد تلقى والده البرقية، وأجاب عليها مباشرة: «بأنه يسحب الترشيح باسم ابنه وبالنيابة عنه». وكان للوالد كل الحق في اتخاذ هذا القرار باعتباره رئيس عائلة الأمراء. وعندما علم الملك غليوم برد

---

(٦٨) الدوق غرامونت: Gramont Agenor - Prince De Bidache, Duc De Guichet De Gramont ديبلوماسي فرنسي، من مواليد باريس ١٨١٩ ـــ ١٨٨٠ م.

(٦٩) الكونت بينيديتي: Benedetti-Vincent ديبلوماسي فرنسي من مواليد باستيا Bastia ١٨١٧ ـــ ١٩٠٠ م. كان سفيراً لفرنسا في برلين عندما أعلنت حرب سنة ١٨٧٠.

(٧٠) ايمس: Ems مدينة ألمانية في إقليم هيس Hesse قريبة من غوبلز، وهي مركز استحمام بالمياه المعدنية الدافئة. اشتهرت بالبرقية التي أرسلت منها يوم ١٣ تموز ـــ يوليو ـــ ١٨٧٠ م، والتي نقلها بسمارك للصحافة، فكانت السبب المباشر لإعلان الحرب البروسية ـــ الفرنسية.

والد الأمير ليوبولد ابتهج له، وغمرته السعادة، واعتبر بأن القضية باتت منتهية، غير أن الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث لم يقنع بذلك، فطلب إلى وزير خارجيته غرامونت أن يرسل تعليماته إلى سفيره بينيديتي لمقابلة ملك بروسيا مرة أخرى، «**والحصول منه على تأكيد شخصي بأنه سيمنع ليوبولد في المستقبل من العودة لترشيح نفسه**».

قابل الملك البروسي غليوم السفير الفرنسي بينيديتي في الساعة التاسعة من صباح يوم ١٣ تموز — يوليو — في استراحة إيمس. وكان اللقاء ودياً وأخوياً. وقال الملك البروسي: «إنه يشعر بالبهجة لأن ليوبولد نشر في الصحافة الألمانية تنازله عن ترشيح نفسه لملك إسبانيا». عندئذ تقدم بينيديتي إلى الملك غليوم بالطلب الجديد الذي أرسله نابليون الثالث، فرد عليه الملك غليوم بما يلي: «**إن أبناء عمومتي هم رجال شرفاء، وهم لم يسحبوا مرشحهم وفي نيتهم العودة لإحيائه من جديد**». وأوقف الملك غليوم محادثاته على الفور، وأنهى المقابلة.

علم بسمارك عن طريق ممثله في إيمس بما حدث من مناقشة في المقابلة بين الملك غليوم والسفير الفرنسي. فاستأذن الملك، والتمس منه إيقاف هذه المقابلات والمباحثات غير النظامية. والعودة إلى قنوات الإتصال الرسمي في المحادثات — عن طريق السفراء والوزراء — ووافق الملك على ذلك. غير أن بينيديتي عاد بناء على طلب وزير الخارجية الفرنسي غرامونت فطلب مقابلة الملك البروسي مرة أخرى. ورفض الملك غليوم مقابلته، وأرسل إلى رئيس وزرائه بسمارك تقريراً بما جرى، وترك له حرية اتخاذ القرار المناسب لنقل ما حدث، سواء إلى السفارات أو إلى الصحافة. واستلم بسمارك برقية الملك مساء يوم ١٣ تموز — يوليو — ١٨٧٠ م. وأفاد من سماح الملك له بنشر نصها، فعمل على إدخال بعض التعديلات واللمسات، حتى صارت مقروءة على الشكل التالي:

«**طلب السفير الفرنسي إلى الملك في إيمس إذناً لإرسال برقية إلى باريس تذكر أنه يرفض شخصياً ضمان عدم العودة للترشيح، وقد رفض صاحب الجلالة مقابلة السفير، وأبلغه عن طريق رئيس التشريفات (كبير المرافقين) بأنه ليس لديه من جديد ليبلغه إياه**».

بذلك يكون بسمارك قد زوّر برقية إيمس أو أنه بالأحرى اخترعها. وكل ما فعله من أجل ذلك هو تكثيف رسالة الملك، وتحويلها إلى شكل برقية. وعلى كل حال، فإن الرسالة التي بعثها الملك لم تكن من أجل النشر. لقد كان بسمارك يعرف بأن فرنسا تتجه نحو الحرب. وقد أوضح بسمارك بعدئذ موقفه هذا بقوله: «**إنه لأمر أساسي بأن يقع الهجوم علينا. ولهذا فقد عملت على نشر الرسالة، كما هي، وأرسلت نصها برقياً إلى السفراء لتعرف باريس مضمونها فوراً. وسيكون لها تأثيراً على الفرنسيين، الغاليين، الذين سيثورون غضباً**».

ما إن نشر نص البرقية في باريس حتى أسرع الامبراطور نابليون الثالث فدعا مجلسه

الاستشاري للاجتماع. وعندما كان المجلس يناقش الموقف، تسلم الامبراطور برقية سفيره في برلين بينيديتي، وقد كان نص البرقية أكثر اعتدالاً مما أذاعه بسمارك. وقد حاول وزير الخارجية الفرنسي غرامونت تجنيب بلاده الإنزلاق نحو الحرب، فاقترح طلب عقد مؤتمر أوروبي، يتم فيه الاتفاق فيما بين العائلات المالكة، على منع أفرادها من قبول التاج في ممالك أجنبية. وقد وافق الامبراطور نابليون الثالث على هذا الاقتراح فوراً، إلا أن الامبراطورة رفضت ذلك، واعتزلت المجلس، ولم يتقدم أحد بأي اقتراح تبادلي. وجاء بعد ذلك دور الشارع ليتولى قيادة الموقف. وبدأ الجمهور بترديد نشيد (المارسيليز) الذي بقي محظوراً إنشاده منذ سقوط نابليون بونابرت سنة ١٨١٥، وحتى ذلك اليوم. كما أخذ الجمهور في برلين يردد صيحات (تحيا الحرب). وفقد المجلس الفرنسي كل اتزان له، وأخذ في الإنزلاق وراء ما يطالب به الجمهور في الشارع. **وسارت فرنسا على طريق الحرب التي أعلنت يوم ١٩ تموز ــ يوليو ــ ١٨٧٠ م.**

كانت فرنسا تأمل في إقامة تحالف معها يضم النمسا وايطاليا، وأخذت في التقرب إليهما خلال سنة ١٨٦٩، غير أنها لم تتلقَ أكثر من إجابات مبهمة وغامضة. وعندما كادت العاصفة تنفجر، أرسل نابليون الثالث ممثلين شخصيين عنه إلى فيينا، للتفاوض في أمر إقامة الحلف في يوم ٢٠ تموز ــ يوليو ــ أي بعد يوم واحد من إعلان الحرب على بروسيا، وهم يحملون في عودتهم الرد الرسمي (الحياد). وقررت الدانمارك بدورها أيضاً البقاء على الحياد. ولم تكن انكلترا في موقف يشجعها على دعم فرنسا، بالرغم من أنها كانت تعارض قيام الحرب. ولا سيما أن بسمارك قد أقدم في يوم ٢٥ تموز ــ يوليو ــ على نشر رسالة في صحيفة التايمز ــ اللندنية، ففضح فيها مشروع الامبراطور الفرنسي لعام ١٨٦٦، والذي كان يريد من خلاله ضم بلجيكا إلى فرنسا. وهكذا وجدت فرنسا نفسها وحيدة في مواجهة الحرب، وكان أسوأ ما في موقفها أنها كانت لا تزال تتمسك بإصرار بالأسطورة النابليونية القائلة بأن (فرنسا لا تهزم). وقد أخفى هذا الحلم الخادع عن أنظار الشعب الواقع الذي كانت تعيشه فرنسا، من انقسام داخلي، وبحث عن المغانم، وانعدام في الإحساس بالمسؤولية وصل حتى اللامبالاة. وهو ما كان قد أبرزه الملحق العسكري الفرنسي في برلين العقيد البارون ستوفل، لدى مقارنته بين الموقفين البروسي والفرنسي، فكان مما كتبه محذراً:

«٢٦ أيار ــ مايو ــ ١٨٦٨: يرتفع مفهوم الخدمة السماوية أو الواجب المقدس-فوق الملك والجيش والوزير، ورائد الجميع هو البحث عن المجد... ثم تأتي أجهزة الدولة المختلفة لتحتل مرتبتها بعد ذلك، من أجل تنفيذ إرادة الملك، وتأمين متطلبات الجيش، والاستجابة لرغبات الوزير. وهذا ما يناقض الموقف الذي يضطلع الجيش الفرنسي بممارسته، والذي أصبح عبارة عن مجرد ثروة مهملة، وعن كتلة من الرجال الذين يخسرون يوماً بعد يوم انضباطهم وروحهم

العسكرية». وتقرير آخر بعث به العقيد ستوفل يوم ١٢ آب ــ اغسطس ــ ١٨٦٩ م جاء ما يلي:

١ ــ ليس بالمستطاع تجنب الحرب التي باتت تحت رحمة أي حدث طارىء.

٢ ــ لا تعتزم بروسيا مهاجمة فرنسا، وهي لا تبحث عن الحرب، وستحاول تجنبها قدر استطاعتها.

٣ ــ غير أن بروسيا تمتلك قدراً كافياً من بعد النظر، الأمر الذي يسمح لها بأن تدرك أن الحرب التي تحاول تجنبها، ستتفجر بصورة حتمية. وهي لذلك تبذل كل جهودها حتى تتجنب كل مباغتة ممكنة أو محتملة، عندما يقع الحدث الخطير.

٤ ــ لا تمتلك فرنسا بعد النظر، أو صحة التوقعات المتوافرة لبروسيا، وذلك بسبب عدم المبادرة والطيش والجهل بطبيعة الأشياء، قبل كل شيء، مما هو مهيمن على فرنسا».

كانت القيادة الفرنسية قد وضعت خطة عملياتها، فكانت طبعة محرفة عن خطة نابليون بونابرت، في معركة يينا سنة ١٨٠٦ م. وقد قرر نابليون الثالث القيام بهجوم مباغت، مع علمه بأن البروسيين يتفوقون على جيشه عددياً، وقبل أن ينهي تعبئة كل قواته المسلحة. فلم يكن هناك من قرارات يمكن أن تكون أكثر أذى، ولا أشد ضرراً من هذا القرار. وكان نابليون الثالث يؤمن بفكرة ثابتة تتلخص بأن هجوماً مباغتاً باتجاه الشرق، يتجه إلى ما وراء الراين، سيضطر (الاتحاد الجرماني الجنوبي) إلى التخلي عن بروسيا، مما يتيح له فرصة الحصول على دعم النمسا، وربما إيطاليا أيضاً، مما يساعده على الوصول إلى برلين عن طريق يينا. ولقد كان بالمستطاع تحقيق النجاح لهذه الخطة الخيالية الطموح ــ بشكل أو بآخر ــ لو عملت فرنسا على تعبئة قواتها، واستنفارها بصورة أسرع، ولو أنها أعدت للحرب إعداداً أكثر دقة وإحكاماً. ولو أنها وضعت لعملياتها أيضاً جدولاً زمنياً يتضمن أدق التفاصيل. غير أن الفرنسيين لم يفعلوا شيئاً من ذلك على الإطلاق. وكان ذلك تعبيراً عن تدهور مستوى هيئة الأركان الفرنسية.

ومقابل ذلك، وضعت هيئة الأركان العامة البروسية مخططها الأولي للحرب منذ سنة ١٨٦٧ م ثم أخذت بعد ذلك في إعادة تدقيقه ومراجعته وتعديله بصورة مستمرة. وكان هذا المخطط مميزاً بروحه الهجومية، بقدر ما كان مميزاً ببساطة فكرته: (الاتجاه العام: باريس. الهدف: تدمير العدو في كل مكان. الوسائل: ثلاثة جيوش). ووزعت الواجبات أو المهام على النحو التالي:

الجيش الأول: بقيادة الجنرال فون ستيغمنز، ويضم الفيلقين السابع والثامن وفرقة خيالة، وقوته ٦٠ ألف رجل.

الجيش الثاني: بقيادة الأمير فريدريك شارل، ويضم الفيالق الثالث والرابع والعاشر وقوة الحرس وفرقتي خيالة، وقوته ١٣١ ألف رجل.

الجيش الثالث: بقيادة ولي عهد بروسيا، ويضم الفيلقين البروسيين الخامس والحادي عشر والفيلقين البافاريين الأول والثاني، بالاضافة إلى فرقة وورتمبورغ و بادن وفرقة خيالة، وقوته ١٣٠ ألف رجل.

الاحتياط: بقيادة ملك بروسيا، ويضم الفيلق البروسي التاسع والفيلق الساكسوني الثاني عشر، وقوته ٦٠ ألف رجل. ومركزه ميتز. وإلى جانب هذه القوى تم تخصيص الفيالق الأول والثاني والرابع، ويضم كل فيلق فرقة نظامية وأربع فرق احتياطية، لمهمة مراقبة السواحل الدانماركية والحدود النمساوية.

أجرى مولتكه حساباته بدقة، وقدر الموقف بصورة صحيحة. ووصل إلى نتيجة وهي أنه ليس بإمكان فرنسا أن تزج في المعركة بأكثر من ٢٥٠ ألف رجل ضد ٣٨١ ألف رجل بروسي. كما أن فرنسا ستكون مرغمة على حشد قواتها حول ميتز[٧١] وستراسبورغ[٧٢] مما يعني انفصال القوات بعضها عن بعض بحاجز الفوسغ[٧٣]. ولم يكن أمام الفرنسيين خيار آخر بسبب ارتباط تحركاتهم بالخطوط الحديدية.

وضع مولتكه قراره على أساس تقديره للموقف. وقد تلخص قراره بالتالي: «حشد الجيوش الثلاثة خلف تحصينات وسط الراين وقلاعه القوية» بحيث ينتشر الجيش الأول حول ويتليش، والجيش الثالث بالقرب من لاندو، أما الجيش الثاني فينتشر بين هامبورغ و نونكيرشن، للعمل على تأمين الاتصال بين الجيشين الأول والثالث. وعلى الرغم من الشك الذي انتاب مولتكه بشأن احتمال قيام الفرنسيين بهجوم مباغت قبل أن يكملوا استعداداتهم، وقبل أن يفرغوا من حشد قواتهم، إلا أنه لم يسقط ذلك من حسابه. وكان تجمع الجيشين الفرنسيين في موقعين منعزلين تفصل

---

(٧١) ميتز: Metz المدينة الرئيسة في إقليم الموزل Moselle وتقع على نهر الموزل، وهي تبعد ٣١٢ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من باريس. وكانت ميتز مدينة هامة أيام الميروفنجيين، كما كانت عاصمة الاوستراسيين Austrasie. ضمتها فرنسا إليها أيام هنري الثاني، وصمدت في وجه هجمات شارلكان ١٥٥٢ م. استسلم فيها بازين للبروسيين سنة ١٨٧١. ودخلها الفرنسيون منتصرين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٤٤.

(٧٢) ستراسبورغ: Strasbourg عاصمة إقليم الألزاس. تبعد ٤٤٧ كيلو متراً عن باريس. وهي غنية بآثارها التاريخية القديمة. تعرضت للقصف المدفعي سنة ١٨٧٠. كما عانت كثيراً في الحرب العالمية الثانية.

(٧٣) الفوسغ: Vosges هي سلسلة الجبال الواقعة إلى الشرق من فرنسا. تبدأ من بلفورت (ميناء بورغوني)، وترتفع بين نهري الراين والموزل، وتنتهي في هاردت بألمانيا. وتشكل السفوح الشرقية منها كتلة (الغابة السوداء). كما حدث انهيار في هذه السلسلة تشكل منه سهل الألزاس. ويتراوح ارتفاع القمم بين ١٤٢٦ م في غيبويللر و ألف متر في بوهيميا.

بينهما جبال الفوسغ، يجعله في موقف مناسب لدعم مركز ثقل قواته أو مجنباتها بسرعة أكبر من سرعة تحرك قوات الفرنسيين، سواء اتجهت هذه القوات إلى الألزاس، أو إلى اللورين، وقد عبر عن ذلك بقوله:

«اعتمد مخطط الحرب بصورة أساسية، وقبل كل شيء، على فكرة ايقاف هجوم العدو ـــ الفرنسيين ـــ فوراً، أياً كان مصدر هذا الهجوم، مع المحافظة على القوى الألمانية مجمعة (محتشدة)، حتى يمكن الحصول على التفوق بصورة مستمرة على أرض المعركة. ويجب تحقيق مضمون هذه المخططات بأية وسيلة ممكنة، وقد تركت قضية تحقيقه للقرارات التي ستتخذ في حينها. ولم تصدر الأوامر مسبقاً، وبكل تفاصيلها إلا من أجل التحرك حتى الحدود».

هنا، قد يكون من الضروري العودة مرة ثانية للطرف المقابل حيث الجانب الفرنسي وإمبراطوره الذي يمكن وصفه (بالهجين النابوليوني) والذي كانت أفكاره تظهر مقبولة عندما ترتسم على الورق، إلا أنها لا تلبث عند تأملها حتى تظهر على صورة أفكار انتحارية. وكان وزير الحرب الفرنسي لوبوف[٧٤] قد أجرى حساباته، أو بالأحرى تخميناته، على أساس أنه سيكون بالمستطاع حشد قوات في اليوم التاسع من الحرب حتى تصل إلى ١٥٠ ألف جندي في اللورين و ١٠٠ ألف في الألزاس. وأنه بالإمكان زيادة هذه القوات بسرعة حتى تصل إلى أكثر من ٣٠٠ ألف جندي. وذلك لأن الامبراطور الفرنسي يعرف بأن الجيش البروسي يتفوق على قواته بما يقارب ١٠٠ ألف رجل. وقرر لوبوف القيام بهجوم مباغت قبل أن ينهي استعداداته لحشد القوات. فقرر حشد ١٠٠ ألف رجل في ميتز و ١٠٠ ألف رجل في ستراسبورغ و ٥٠ ألف رجل في شالون، وتحريك القوتين الأولى والثانية نحو الأمام حتى يتم اللقاء بينهما، وتعبران نهر الراين، لتفرضا الحياد على (اتحاد الجنوب الجرماني) وتأمين الاتصال مع النمسا. والسير بعدها إلى برلين في حين يقوم الأسطول الفرنسي بتهديد ألبا و البلطيق.

بدأت الاستعدادات للحرب تسير في المعسكر البروسي بدقة مذهلة، في حين لم يقم المعسكر الفرنسي باتخاذ أي من الإجراءات الضرورية. وعلى سبيل المثال، فإن الخيمات لم تنظم لأنه ما من أحد كان يعرف مكان الخيام، كما لم يُحدَد جدول زمني للتحرك على الخطوط الحديدية (في القطارات). وكانت بعض التشكيلات تفتقر للمدافع، في حين كانت تشكيلات أخرى تفتقر لوسائط النقل، وبقيت تشكيلات بدون مركبات للإسعاف، وظهر أن بعض المستودعات فارغة من مواد الإمداد والتموين. وقد بقيت بعض القلاع والتحصينات محرومة من الإمدادات. وأبحر الأسطول

(٧٤) لوبوف إدمون: Leboeuf - Edmond ماريشال فرنسا. من مواليد باريس ١٨٠٩ ـــ ١٨٨٨ م، برز اسمه أثناء الحملة الايطالية سنة ١٨٥٩، وأصبح وزيراً للحرب سنة ١٨٦٩ م.

الفرنسي وليس معه أية قوة من الجنود، وكان لا بد أمام هذا الاضطراب الفاضح، والفوضى المزرية، من العدول عن فكرة غزو دول (اتحاد الجنوب الجرماني).

توجه الامبراطور نابليون الثالث إلى الجبهة يوم ١٠ آب ـ اغسطس ـ ١٨٧٠ م وبرفقته وزير حربيته الماريشال لوبوف، وتم استدعاء الكونت باليكاو إلى باريس لإشغال منصب وزير الحرب. وقد وجد نابليون الثالث أنه من الضروري إعادة تنظيم الفيالق المتفرقة ودمجها في جيشين اثنين[٧٥] يضم أحدهما الفيلق الأول وفرقة من الفيلق السابع ٣٥ ألف رجل، ويعمل تحت قيادة ماكماهون في منطقة ستراسبورغ. ويضم ثانيهما الفيالق ٢ و ٣ و ٤ و ٥ مع قوات الحرس ١٢٨ ألف رجل، وأعطي اسم جيش الراين، على أن يعمل هذا الجيش تحت قيادة الامبراطور ذاته في منطقة ميتز. وتبقى هناك قوة احتياطية من الفيلق السادس ٣٥ ألف رجل، وتعمل تحت قيادة الماريشال كانروبيرت في منطقة شالون. وتركت بقية قوة الفيلق السابع في بلفورت بمهمة مراقبة ما بقي من منطقة الغابة السوداء.

حدثت الإشتباكات الأولى بين القوات الفرنسية والبروسية في ساربروكن و فيسمبورغ و وورث. ولم تلبث هذه الإشتباكات أن تحولت إلى معركة عنيفة، مما اضطر ماكماهون[٧٦] إلى إصدار أمره بسحب قواته عبر الفوسغ، للوصول إلى نوفشاتو ثم إلى شالون. وخسرت كل من قوات الطرفين ما بين ١٠ و ١١ ألف جندي ما بين قتيل وجريح. وفي الفترة ذاتها وقعت معركة سبيشرن التي ذهب ضحيتها، من كل من الطرفين، ما بين ٤ إلى ٥ آلاف بين قتيل وجريح. واضطرت القوات الفرنسية للإنسحاب والتجمع في شالون، يوم ١٩ آب ـ اغسطس. وأمام هذا الموقف، هيمن الذعر على القيادة الفرنسية التي كانت متمركزة في ميتز، فقررت هذه القيادة، برئاسة الامبراطور ذاته، الإنسحاب من ميتز إلى شالون. ولكن ما إن علمت حكومة باريس التي كانت تعمل بإشراف الامبراطورة، ببدء تراجع القوات، حتى أعلنت بأن العاصمة ستثور ثائرتها، إذا ما انسحب الجيش. وهكذا كان الشارع الباريسي الذي هيمنت عليه الغوغاء منذ البداية، هو الذي

---

(٧٥) كانت هناك اسمياً سبعة فيالق وقوة الحرس، غير أن الفيلقين السادس والسابع لم يتحدا أبداً. فكان الفيلق الأول تحت قيادة ماكماهون في ستراسبورغ، والثاني تحت قيادة فروسارد في فورباك، أما الفيلق الثالث فكان تحت قيادة بازين في سانت آفولد، والفيلق الرابع تحت قيادة باليكاو في ليون، والخامس تحت قيادة دوفايي في بيتش، والسادس تحت قيادة كانروبيرت في شالون، والسابع تحت قيادة فيليكس دواي في بلفورت وكولمار، والحرس تحت قيادة بورباكي في ميتز.

(٧٦) ماكماهون: Patrice De Mac-Mahon Marie Edme ماريشال فرنسا. برز اسمه أثناء حرب القرم حيث تمكن من الاستيلاء على مالاكوف Malakof. كما انتصر في معركة ماغنتا في إيطاليا سنة ١٨٥٩، ومنح على أثرها لقب دوق ماغنتا Duc De Magenta، وأصبح حاكماً عاماً على الجزائر ١٨٦٤ ـ ١٨٧٠ م، وتولى في الحرب البروسية ـ الفرنسية سنة ١٨٧٠ قيادة أحد الجيوش. فسحقت القوات البروسية المتفوقة قواته في معركة ايخ هوفن. ثم أصيب بجراح بالغة في معركة سيدان. ثم انتخب رئيساً للجمهورية الفرنسية الثانية من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٧٩ م.

يرسم للجيش الفرنسي استراتيجيته، وهو الذي يحدد له تحركاته. وتقرر تغيير مخططات الحرب. وصدرت الأوامر إلى كافة القوات في شرقي ميتز، بالتوقف عن الإنسحاب، والدفاع عن ميتز مهما بلغ الثمن. وسقطت حكومة أوليفييه[٧٧] وعمل الحزب الامبراطوري الذي كانت تترأسه الامبراطورة أوجيني دو مونتيغو[٧٨] على تعيين الجنرال الكونت باليكاو رئيساً للحكومة. وأخذ باليكاو في إدارة الحرب. وأصبحت الاستراتيجية الفرنسية اعتباراً من هذا اليوم، يوم ١٠ آب ــ اغسطس ــ لعبة في يد الساسة وسياساتهم المتناقضة. وقد نشر باليكاو ما أطلق عليه اسم (المعاذير) في سنة ١٨٧١ على شكل كتاب رائع أوضح فيه القصور الكامل، والضعف المطلق لتلك الاجتماعات الديموقراطية التي كانت تتولى إدارة الحرب. وكان مما قاله باليكاو في معاذيره: «**كان مجلس الوزراء يعقد اجتماعه اليومي في الساعة الثامنة صباحاً ليبدأ مناقشاته المستفيضة والتي لا تنتهي. وقد تم الاتفاق في يوم ٩ آب ــ اغسطس ــ على تجنيد ٥٠٠ ألف جندي خلال ثمانية أيام. غير أن المخاوف هيمنت على المجلس من تسليح هؤلاء المجندين، إذ اعتبروا أكثر خطراً من البروسيين. وفي يوم ١١ آب ــ اغسطس ــ اتخذ قرار بالتضحية حتى آخر قرش في الخزانة المالية، وبالدفاع حتى آخر جندي. غير أن يوليوس فافر[٧٩] رفع عقيرته يومي ١٨ و٢٣ آب ــ اغسطس ــ مستمراً في صراخه: نريد السلاح، فيما كان اليسار يردد باستمرار: السلاح ــ السلاح. وكان هدفه الوحيد هو الإنقلاب على الحكومة والإطاحة بها. وتلك هي الأداة السياسية التي كانت توجه العمليات وتعمل على إدارة الحرب**».

كان نابليون الثالث لا يزال مع جيشه في يوم ١٢ آب ــ اغسطس ــ غير أنه عمل في هذا اليوم على تسليم أمور القيادة العليا إلى الماريشال بازين. وقد حدث هذا التغيير في لحظة حرجة جداً. ذلك أن الجيش البروسي الأول، والذي كان يعمل على الجناح الأيمن للجيوش البروسية، استطاع الوصول يوم ١٣ آب ــ اغسطس ــ حتى نهر نييد، إلى الشرق من ميتز. كما كان الجيش البروسي الثاني قد نجح في إقامة رأس جسر على نهر الموزل، عند بونت ــ آ ــ موسون، في حين كان الجيش الثالث قد وصل إلى مسافة قريبة من نانسي و لونفيل. وهكذا كانت الجيوش البروسية الثلاثة

---

(٧٧) أوليفييه: Olivier - Emile سياسي فرنسي، من مواليد مارسيليا ١٨٢٥ ــ ١٩١٣، عمل وزيراً في الحكومة الامبراطورية، ثم أصبح رئيساً للوزراء في سنة ١٨٧٠ م.

(٧٨) أوجيني دو مونتيغو: Eugenie - Marie De Montijo De Guman، من مواليد غرناطة ١٨٢٦ ــ ١٩٢٠، زوجة نابليون الثالث، وامبراطورة فرنسا من سنة ١٨٥٣ حتى سنة ١٨٧٠ م، اشتهرت باللياقة والكفاءة، وكان لها دور كبير في التأثير على سياسة فرنسا وسياسة العالم.

(٧٩) يوليوس فافر: Favre - Jules محام، ورجل دولة فرنسي، وهو من مواليد ليون ١٨٠٩ ــ ١٨٨٠ م، عرف بأنه شديد الحماسة للنظام الجمهوري. طلب في سنة ١٨٧٠ م إسقاط النظام الامبراطوري، وأصبح عضواً ــ وزيراً ــ في حكومة الدفاع الوطني. وكلف بإجراء المباحثات لعقد معاهدة فرانكفورت مع بروسيا.

متجهة للإلتقاء عند المواقع الشرقية والجنوبية لقوات بازين. ولم يكن بازين يدرك حتى تلك اللحظة خطورة الموقف الذي بات يقترب منه. غير أن معرفته بضعف الدفاع في ميتز وحرمانها من الإمدادات، حمله على اتخاذ قرار بالإنسحاب من الموزل، والتراجع إلى الموز ومنطقة فردان. وأصدر أوامره بتدمير الجسور القائمة على نهر الموزل، بهدف حماية عملية الإنسحاب لقواته. غير أن أمطاراً غزيرة تدفقت من السماء — لسوء حظه — فغمرت النهر بمياه الفيضان، التي جرفت معها عدداً من الجنود. وكان من نتيجة ذلك بقاء القسم الأكبر من جيشه في يوم ١٤ آب — اغسطس — إلى الشرق من ميتز، حيث تعرض هذا القسم لهجمات قوات الفيلق البروسي السابع في كولومبي وبورني، واستطاع بازين الإفادة من ظلمة الليل، فأمكن له العبور ببقية قواته لنهر الموزل، والتمركز على خط مواز لطريق ميتز — فردان مقابلاً للاتجاه الجنوبي — الغربي. وكان ذلك يعني أنه إذا لم تتمكن القوات الفرنسية من إلحاق الهزيمة بالقوات البروسية، فإن على هذه القوات (الفرنسية) التخلي عن فكرة الإنسحاب إلى فردان. وبقي خط الإنسحاب الوحيد المفتوح أمامها هو محور طريق ميتز — بريي — مونتميدي، والذي يصل إلى ريثل وسيدان. غير أن الموقف الحقيقي هو أن بازين بات نصف محاصر، ولو أنه لم يكن يدرك ذلك. ولهذا فإنه لم يكن قادراً على التراجع أو الإنسحاب، إلا إذا خاض معركة تضمن له التحرك على محور طريق بريي — مونتميدي، وهو التحرك الذي كان أكثر من مغامرة، وأكثر من عملية خطرة، بسبب تعرض جناح هذا التحرك في مواجهة عدو منتصر. وقد عمل بازين على إعادة تنظيم قواته، غير أن القوات البروسية لم تمهله، بل شنت على قواته هجوماً حاسماً يوم ١٦ آب — اغسطس — ودارت معركة ضارية، اضطرت القوات الفرنسية إلى الإنسحاب من **فيونفيل**★. وكان مولتكه راغباً في عدم تمكين الفرنسيين من الإنسحاب، غير أن ما حققته القوات البروسية كان على كل حال انتصاراً حاسماً لاستراتيجيته. لا سيما بعد أن أصبح بازين مرغماً على إسقاط كل فكرة لإنسحاب جديد نحو نهر الموز. فأصدر أوامره إلى جيشه بالتراجع إلى المواقع المحصنة ما بين سانت بريفاد وغرافلوت★★. **وخسر كل طرف من الطرفين المتصارعين ١٦ ألف جندي بين قتيل وجريح**. وتبع ذلك قيام كل طرف من الطرفين بحشد ما يستطيع حشده من القوى. فاستطاع البروسيون حشد ٢٠٠ ألف مقاتل مقابل ١٤٠ ألفاً من الفرنسيين. وكان كل طرف من الطرفين على قناعة تامة بأنه يخوض معركته المصيرية. وأن الهزيمة تعني (كارثة وطنية). ولهذا تميزت المعركة بالصراع العنيد الذي رافقه الدمار، والذي استمر طوال ساعات الصباح من يوم ١٨ آب — اغسطس — في معركة غرافلوت، ونجحت القوات البروسية في فترة بعد الظهر في إحراز نصر حاسم. واضطر بازين للإنسحاب بجيشه إلى ميتز والإحتماء

★ فيونفيل: Vionville وتعرف باسم مارس لاتور Mars - La - Tour.

★★ غرافلوت: Gravelotte وتسمى أيضاً سانت بريفات St. Privat وهي تقع إلى غرب ميتز وإلى الشمال الغربي منها.

بتحصيناتها. غير أنه بات معزولاً عن أي اتصال بالعاصمة باريس، كما بات معزولاً عن جيش ماكماهون. **وخسر البروسيون في معركة غرافلوت أكثر من ٢٠ ألف جندي بين قتيل وجريح مقابل ١٣ ألف جندي فرنسي و ٥ آلاف أسير.**

لم يكن المخطط البروسي الأساسي للحملة قد تضمن احتمال انسحاب الفرنسيين بالكتلة الرئيسة من قواتهم إلى قلعة ميتز. وكل ما كان يتوقعه مولتكه هو زج عدد من فرق المشاة الفرنسيين لحماية القلعة والدفاع عنها. ولهذا فقد تم وضع الجيش البروسي الأول بكامله مع كتلة من الجيش الثاني، جيث وصل مجموع المقاتلين حتى ١٥٠ ألف جندي تحت قيادة الأمير فريدريك شارل لتثبيت بازين وجيشه، وحصاره في ميتز وإبقائه معزولاً عزلة تامة.

أعاد مولتكه تنظيم القوات، وبقي الجيش البروسي الثالث تحت قيادة ولي العهد ومعه ٨٥ ألف جندي. وتحرك الجيشان على اتجاه باريس، بهدف إرغام فرنسا على الدخول في معركة حاسمة إلى الشرق من عاصمة بلادهم. ووصل جيش الموز في يوم ٢٣ آب ـ اغسطس ـ إلى الضفة اليمنى لنهر الموز حول فردان. وحاول الاستيلاء على التحصينات بهجوم مباغت ففشل في ذلك.

كان القائد الفرنسي ماكماهون قد تلقى أمراً بإعادة تنظيم جيش جديد حمل اسم جيش شالون، وضم ١٦٦ فوجاً و ١٠٠ سرية و ٣٨٠ مدفعاً. وبلغ عدد أفراده ١٣٠ ألفاً. غير أن قوات هذا الجيش، أو بعضها على الأقل، وفي طليعتها الحرس المتحرك الباريسي، كانت في حالة ثورة وتمرد، وكانت تفتقر للخبرة حتى أن بعض القادة خصص لكل جندي ٥ طلقات لتدريبه على استخدام السلاح وتلقيم البارودة وإطلاق النار. وكان ماكماهون قد قرر الإنسحاب بجيشه إلى باريس، للدفاع عنها، ووافقه الجنرال تروشو، كما وافق الامبراطور على خطة الانسحاب. ولكن الجنرال باليكاو، رئيس الحكومة في باريس، تمكن من إيقاف حركة الجيش، ومنع الإنسحاب. واجتمع الامبراطور نابليون الثالث بقيادته يوم ١٦ آب ـ اغسطس ـ وأعلن قراره عن ضرورة عودته إلى باريس للإشراف على عمل الحكومة. وعين تروشو حاكماً لمدينة باريس. وعندما وصل تروشو إلى باريس، قابل الامبراطورة أوجيني على الفور، فعلمت منه تفاصيل المعلومات التي حملها، وقرار الامبراطور. وبعد ذلك هتفت:

«كلا أيها الجنرال، يجب ألا يعود الامبراطور إلى العاصمة، يجب أن يبقى في شالون. وستقوم أنت بالدفاع عن العاصمة. وإن باستطاعتك تنفيذ مهمتك بدون وجود الامبراطور. إن أعداء الامبراطور وحدهم هم الذين يقترحون عودته لأنه لن يدخل التويلري حياً».

كان ماكماهون أثناء ذلك يتابع انسحابه فوصل إلى ريمس يوم ٢١ آب ـ اغسطس. وفي

اليوم التالي، وصل رئيس مجلس الشيوخ روهر ومعه ممثل رئيس مجلس الوزراء باليكاو إلى مقر قيادة الامبراطور نابليون الثالث: «بهدف إقناع الامبراطور بعدم العودة إلى باريس، وإقناع ماكماهون بالتحرك إلى ميتز». واضطر ماكماهون إلى إيقاف تحركه، والاتجاه إلى مونتميدي. وحاول القيام بحركة استدارة واسعة نحو الشرق للابتعاد عن الجناح الأيمن للقوات البروسية. ولكن القوات البروسية كانت تتابع تقدمها، حتى وصلت إلى شالون يوم ٢٤ آب ــ اغسطس ــ فوجدت بأن القوات الفرنسية قد انسحبت منها. وبوغت مولتكه مباغتة كاملة عندما علم بانسحاب القوات الفرنسية إلى ريمس وعزمها على الوصول إلى ميتز للاتصال بجيش بازين. إذ لم يستطع مولتكه أن يصدّق بأن عدوه سيرتكب مثل هٰذا الخطأ الشائن في تركه لباريس من دون تغطية، بقوات كافية للدفاع عنها، والسير عبر جبهة معادية، مع وجود الجبهة البلجيكية القريبة من جناحه الأيسر. غير أن ما نشرته الصحف الباريسية من معلومات عن تحرك القوات الفرنسية، وما ورد لمولتكه من معلومات من لندن، بالاضافة إلى ما حصل عليه من الأسرى (القادة) أكد له صحة المعلومات. فأصدر أوامره إلى الجيشين البروسيين بالتحرك على اتجاه الشمال. وفي يوم ٢٩ آب ــ اغسطس ــ انتشرت قوات الجيشين البروسيين بين بومونت و لوشاسن.

عرف ماكماهون بأن تقدم القوات البروسية قد بات يتهدد خطوط مواصلاته، فقرر التوقف عن محاولات التقدم. وأصدر أوامره إلى جيشه بالانسحاب إلى ميزيير. ثم وصلته برقية عاجلة من باريس أقنعته بضرورة استئناف تحركه إلى مونتميدي. وكان لهذه الأوامر، والأوامر المضادة، أثرها الكبير في إحباط الروح المعنوية لجنود الجيش الفرنسي. وتبع ذلك حدوث اشتباك بين القوات البروسية والقوات الفرنسية يوم ٣٠ آب ــ اغسطس. وقد بوغتت القوات الفرنسية مباغتة تامة بظهور القوات البروسية، فخسرت ٥ آلاف رجل و٤٢ مدفعاً. وأصدر ماكماهون أمره بالانسحاب إلى سيدان.

وأصدر مولتكه أوامره في تلك الليلة ذاتها:

«تتابع القوات تحركها إلى الأمام. ويستأنف التقدم مبكراً قدر المستطاع. وتهاجم قوات العدو أينما كان، وحيثما توقفت على الجانب الغربي من نهر الموز، ومتابعة الضغط عليها بهدف حصارها ضمن حدود أضيق مسافة ممكنة فيما بين النهر والحدود البلجيكية».

تلقت قوة من جيش ولي عهد ساكسونيا مهمة منع الجناح الأيسر للقوات الفرنسية من الانسحاب نحو الشرق. وتنفيذاً لذلك، قام قائد الجيش بدفع فيلقين نحو الضفة اليمنى لنهر الموز، لمهاجمة جناح القوات الفرنسية ومؤخرتها عند الطرف المقابل لمدينة موزون. وقام الجيش البروسي الثالث بتنفيذ المهمة ذاتها على جبهة الفرنسيين ومجنبتهم. فيما قامت المدفعية البروسية باحتلال المواقع الحصينة والمرابض المنيعة على ضفة نهر الموز، بمهمة تدمير أرتال القوات الفرنسية أثناء تحركها،

أو إقامتها في المعسكر على سهل الوادي ــ على الضفة اليمنى من نهر الموز ، وإلى الأسفل منه . أما إذا تمكنت القوات الفرنسية من المرور إلى داخل الحدود البلجيكية من غير أن تتمكن القوات البروسية من تجريدها من أسلحتها فوراً ، فإنه يجب مطاردتها إلى هناك دون أي تأخير أو اضطراب .

وصل الامبراطور نابليون الثالث إلى سيدان مساء يوم ٣٠ آب ــ اغسطس ــ وأصدر أوامره على الفور ــ ومن غير استشارة القائد العام ماكماهون ــ بنشر القوات على التلال المجاورة ، واحتلال المواقع الهامة . وكان الوضع التمويني سيئاً للغاية . وما من أحد ، باستثناء ماكماهون ، كان يتصور إمكانات بقاء الجيش في سيدان ، التي شبهها أحدهم (بعش القنابل) .

استيقظت الوحدات البافارية من الجيش البروسي الثالث في صباح يوم ٣١ آب ــ اغسطس ــ وكلها متحفزة للقتال ، تدفعها حماسة لا توصف للقتال . وأخذت في عبور نهر الموز . وقد حاولت القوات الفرنسية تدمير الجسور القائمة على نهر الموز غير أن محاولاتها باءت بالفشل . وبذلك اكتملت حلقة الحصار حول القوات الفرنسية في سيدان .

لم يكن مولتكه يصدق أن ماكماهون يقبل الدخول في معركة وهو في مثل هذا الموقف السيء . وفكر بأن ماكماهون سيعمل على الانسحاب خلال الليل إلى ميزيير أو أن يتقدم إلى كارينيان ، أو أنه سينسحب عبر الحدود البلجيكية . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لم يصدر أي أمر جديد . وترك لقائدي الجيشين البروسيين حرية متابعة تقدمهما على الاتجاهات التي حددها لهما في تعليماته وأوامره يوم ٣٠ آب ــ اغسطس : **وقد اتخذ ولي العهد البروسي قراره بإجراء الترتيبات التالية لجيشه الثالث :**

ــ يتحرك الفيلقان الخامس والحادي عشر فجراً ، على محور دونشيري ــ فيني أوبرا .
ــ تقوم فرقة وورتمبرغ بعبور نهر الموز من نقطة دوم ــ لومونسيل ثم تبقى في الاحتياط .
ــ يدفع الفيلق البافاري الثاني فرقة من قوته للتقدم إلى جنوب دوزي ، بينما تنتشر بقية قوة الفيلق بين فرينوا و لادانكورت .
ــ يبقى الفيلق البافاري الأول في ريميلي ، ويتعاون مع الجناح الأيسر لجيش الموز .

وأصدر ولي عهد ساكسونيا أوامره إلى جيش الموز بما يلي :
ــ تتحرك فرقة من قوة الحرس إلى فيلركيمي ، وتتحرك الفرقة الثانية إلى فرانشوفال .
ــ يتحرك الفيلق الثاني عشر إلى لامونبسيل عن طريق لادانكورت .
ــ يرسل الفيلق الرابع فرقة من قوته إلى ريميلي ، للتعاون مع الفيلق البافاري الأول . ويحتفظ بالفرقة الثانية في الاحتياط في ميري .

أفادت القوات البروسية من ظلمة الليل، ليل ٣١ آب ــ اغسطس ــ لإجراء تحركاتها. ووصلت أهدافها المحددة لها. لكن القوات الفرنسية قامت بهجمات مضادة قوية نجحت فيها بتمزيق قوات الهجوم. ولكن القوات البروسية تابعت تدفقها على ميدان المعركة، وتمكنت في الساعة الثامنة من صباح اليوم الأول من شهر أيلول ــ سبتمبر ــ ١٨٧٠ من إسكات المدفعية الفرنسية. وأصيب الماريشال ماكماهون خلال هذه الإشتباكات بجراح بالغة وضعته خارج المعركة. فتولى الجنرال دوكرو القيادة. ولكنه لم تمض أكثر من ثلاث ساعات حتى وصل الجنرال ويمبغن الذي عينته باريس، فتولى القيادة. وحدث تناقض بين الأوامر والأوامر المضادة. وكأن الجيش الفرنسي كان بحاجة لما يزيده اضطراباً على اضطراب، فيما كانت القوات البروسية تتابع تقدمها.

وقف ملك بروسيا على التل المجاور لبلدة فرينوا يرقب المعركة العنيفة وتحركات القوات، فيما كان يحيط به بسمارك ومولتيكه ورون والأمراء وزعماء الأقاليم (الدوقات) ورجال البلاط وقادة المدفعية، والمبعوث العسكري البريطاني العقيد ووكر، والجنرال الأمريكي شريدان.

أظهرت القوات البروسية كفاءة عالية في استخدام مدفعيتها. فيما كانت أرتال قوات المشاة تتحرك بكفاءة مماثلة لتحكم دائرة الحصار، وهي تمزق قوات الفرنسيين على التتابع. وقد حاولت القوات الفرنسية الخروج من دائرة الحصار، غير أن محاولاتها فشلت المرة بعد المرة. واستمر الصراع المرير حتى إذا ما كانت الساعة ١٣٫٣٠ من يوم الفاتح من أيلول ــ سبتمبر ــ اتخذ الامبراطور نابليون الثالث قراره الحاسم: الاستسلام.

كان الامبراطور غليوم لا يزال يراقب المعركة في الساعة السادسة والنصف، عندما وقع بصره على حرس الشرف يتقدم نحوه، وأمامه جنرال فرنسي (ريل) وهو يحمل علم نابليون، وترجل الجنرال الفرنسي عن حصانه على بعد عشر خطوات من غليوم، وتقدم إليه فسلمه رسالة ممهورة بخاتم كبير أحمر اللون، وفض غليوم الرسالة وقرأ فيها:

سيدي الأخ

لم أتمكن من الموت وسط قواتي. ولم يبق لي إلا أن أضع سيفي بين يدي جلالتكم.

سيدان ــ الفاتح من أيلول ــ سبتمبر ــ ١٨٧٠

وأنا لجلالتكم الأخ المخلص

التوقيع: نابليون

عقد الملك غليوم مؤتمراً مع مستشاريه، ثم كتب إجابته عن الرسالة. وعاد الجنرال راي وبرفقته ضابط بروسي، يتقدمهم قارع الطبل، وحامل العلم الأبيض. وركب الجميع خيولهم عائدين إلى سيدان، فوصلوها مع غروب شمس ذلك اليوم.

خسر الجيشان البروسيان ٤٦٠ ضابطاً و٨٥٠٠ جندي بين قتيل وجريح. وخسر الفرنسيون ٣ آلاف قتيل من بينهم ٧٩٩ ضابطاً بالاضافة إلى ١٤ ألف جندي جريح و٢١ ألف أسير، أضيف إليهم ٨٣ ألف أسير ممن استسلموا في سيدان، علاوة على ٣ آلاف ممن تم أسرهم وتجريدهم من أسلحتهم في بلجيكا، فبلغ المجموع بذلك ١٢٤ ألف جندي. وكان من بين ما غنمه البروسيون: علماً ورايتين و٤١٩ مدفعاً ورشاشاً، و١٣٩ مدفعاً ثابتاً من مدافع القلاع والحصون، و١٠٧٢ عربة نقل، و٦ آلاف حصان.

تابعت القوات البروسية تقدمها نحو باريس وضربت نطاقاً من الحصار حولها اعتباراً من يوم ١٩ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٧٠. وأخذت المدفعية البروسية الضخمة في قصف باريس. حتى إذا ما كان يوم ١٨ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٧١ م، استسلمت باريس، وتم تتويج غليوم الأول امبراطوراً على جرمانيا الموحدة، بحضور صانعي النصر: بسمارك ورون ومولتكه، وأمراء الأقاليم البروسية. وتوج انتصار بروسيا بمعاهدة فرانكفورت في يوم ١٠ آذار ـ مارس ـ ١٨٧١ م والتي تضمنت:

١ ـ أن تدفع فرنسا غرامة قدرها ٢٠٠ مليون جنيه استرليني.

٢ ـ أن تعترف فرنسا بحق ألمانيا في التعامل معها باعتبارها الأمة التي لها الأفضلية على بقية الدول.

٣ ـ ضم الألزاس وشرقي اللورين إلى جرمانيا (ألمانيا).

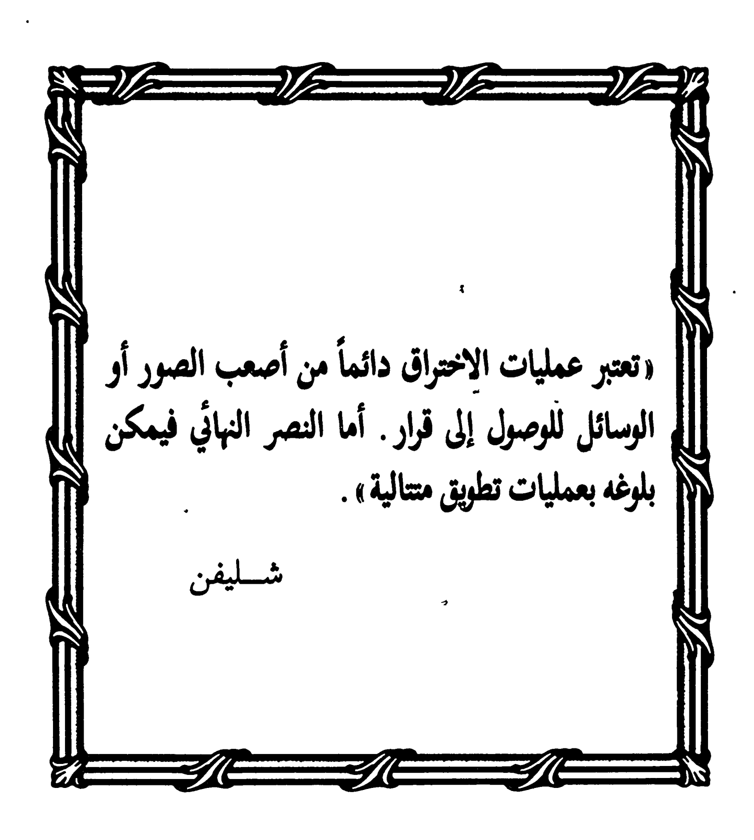
لقد كان الانتصار في سيدان، تتويجاً للجهود المشتركة التي بذلها القادة الألمان ورجالهم، فحققوا نجاحاً لا يضاهيه نجاح في التاريخ. ولقد أدت الهزيمة الكاملة التي لحقت بالجيش الفرنسي إلى انهيار الأمبراطورية النابوليونية الثالثة، وتدحرجها إلى الوحل. وقد انتشر خبر ذلك فوراً، كما لو كان شعاعاً من برق خاطف، فأذهل العقول، لا في ألمانيا وحدها، وإنما في أوروبا كلها.

لقد حقق مولتكه أهدافه، ولم يبقَ له ما يفعله أكثر مما فعله.

الفصل الخامس

مخطط الحرب

٧ ــ فون شليفن الفرد



«تعتبر عمليات الإختراق دائماً من أصعب الصور أو الوسائل للوصول إلى قرار. أما النصر النهائي فيمكن بلوغه بعمليات تطويق متتالية».

شـــليفن

الوجيز في حياة فون شليفن الفرد

١٨٣٣ ــ ١٩١٣ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٣٣	ولد فون شليفن في أسرة من نبلاء بروسيا .
١٨٥٨	التحق في الكلية الحربية ببرلين .
١٨٦١	تخرج من الكلية الحربية .
١٨٦٦	خدم في هيئة الأركان أثناء الحرب النمساوية ــ البروسية .
١٨٧٦	عين قائداً للواء الحرس الأول (أوهلن) في بوتسدام .
١٨٨٣	نقل للعمل في هيئة الأركان العامة .
١٨٩١	عين رئيساً لهيئة الأركان ، خلفاً لفون مولتكه .
١٨٩٣	وقعت فرنسا وروسيا حلفاً دفاعياً . فانصرف شليفن لوضع المخططات لمجابهة الحرب على جبهتين . واستمر في هذا العمل حتى آخر يوم من حياته .

Von Schlieffen , Alfred

٧ ــ فون شليفن

حققت بروسيا أهدافها، وظنت أنها باتت قادرة على الانصراف لبناء دولتها العظمى، وتطوير اقتصادها، والاستناد إلى معاهدة فرانكفورت من أجل منع أي تحالف بين عدوتيها التقليديتين: روسيا من الشرق وفرنسا من الغرب. ولكن لم تمض أكثر من سنوات معدودة، واعتباراً من سنة ١٨٧٩ م، على وجه التحديد، حتى ظهر هذا الخطر واضحاً في الأفق. وما لبث هذا الخطر حتى تحول إلى واقع حقيقي، عندما عقدت فرنسا حلفاً دفاعياً مع روسيا، في بداية العقد التاسع من القرن التاسع عشر. وألقى هذا التحالف بثقله على صدر هيئة الأركان العامة البروسية.

جابه مولتكه هذا الموقف، وأخذ في وضع المخططات ــ ذات الاتجاه الواحد ــ وذلك على ضوء استراتيجيته الناجحة لتجربته، فافترض إمكان خوض الحرب ضد عدو واحد بأقل جهد ممكن، من أجل الاحتفاظ بأكبر قدرة قتالية، حتى يستطيع بعد ذلك الانتقال لتدمير العدو الآخر. وقد وضع مولتكه في اعتباره، أن امتلاك ألمانيا لإقليمي الألزاس واللورين سيتيح لها الفرصة للدفاع عن حدودها الغربية بقوات صغيرة، ولا سيما أن التحصينات الفرنسية القوية ستمنع ألمانيا من إجراء انتصار حاسم ضدها. بينما تستطيع إحراز هذا النصر الحاسم على الجبهة الشرقية ضد روسيا. وهكذا كانت مخططات مولتكه دفاعية ضد فرنسا وهجومية ضد روسيا.

تولى الكونت شليفن رئاسة هيئة الأركان سنة ١٨٩٤، فعمل على قلب الموقف رأساً على عقب. ووضع مخططات جديدة على أساس خوض الحرب على الجبهتين، وعلى أساس الهجوم أولاً في الغرب.

لقد مكنت السنوات التي عاشها شليفن، قبل توليه رئاسة هيئة الأركان، من الاتصال الوثيق بحياة الجنود، ومعرفة طبيعة الحياة في الوحدات والتشكيلات المقاتلة، وهو ما لم يتوافر لمولتكه، الذي قضى معظم حياته في مراكز القيادة. وقد خاض شليفن التجربة العملية للحرب، بأكثر مما عرفها مولتكه في سنة ١٨٦٤، وفي سنة ١٨٦٦ م، حيث كان شليفن يعمل في هيئة أركان الحرب لفيلق الفرسان، وخاض معه معركة سادوفا التي تركت أثراً عميقاً في نفسه. ولكن الحظ خانه، إذ لم تتح

له فرصة الاشتراك في معارك الحدود (في الحرب البروسية ـــ الفرنسية ١٨٧٠ م) ، إلا أن الفرصة واتته ليكشف عن مواهبه عندما خدم في هيئة أركان حرب أحد الجيوش في حملة اللوار . ثم عندما تولى قيادة الحرس الأول (الأوهلن) ، في بوتسدام من سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٨٨٣ م . وقد ساعدته تجربته في الحملات التي اشترك فيها ، وفي القيادة التي مارسها ، على جمع حصيلة طيبة من الآراء والنظريات عن الحرب والقيادة . وتظهر المقارنة بين مولتكه وشليفن مدى الفارق المميز للظروف التي أحاطت بهما ، خلال عملهما في رئاسة هيئة الأركان العامة . فقد شق مولتكه طريقه وسط صعوبات كثيرة ، في حين تم ارتقاء شليفن إلى رئاسة هيئة الأركان بسهولة ويسر . ثم إن شليفن لم يفكر أبداً بإمكان إقدام أحد على رفض نصائحه ، أو تعطيل أوامره ، وهو أمر لم يتوافر لمولتكه منذ أن تولى رئاسة هيئة الأركان سنة ١٨٥٧ ، وإلى أن أصدر الامبراطور غليوم أمره في سنة ١٨٦٦ : « بأن يتولى مولتكه كل شيء » . ولقد دعمت سلطات رئاسة هيئة الأركان العامة وتوطدت بعد معركتي سادوفا وسيدان . وكان ذلك كله من نصيب شليفن « **الذي بات باستطاعته ممارسة دوره في ثوب مولتكه** » . فصار أكثر قدرة من سلفه مولتكه على الإفادة من حرية العمل المتوافرة له لحل المشكلات العسكرية ، وتجاهل جوانبها السياسية .

قد يكون من المناسب هنا التعرض لمسألة تستحق الذكر ، وهي أن زيادة الاحتـراف والتخصص في أواخر القرن التاسع عشر ، قد انعكست بصورة واضحة على تفكير قادة الجيش الألماني وعلى نمط حياتهم العسكرية . وعندما درس شليفن في الكلية الحربية ، في منتصف القرن التاسع عشر ، كان تأثير الفنيين والمختصين قد بدأ يطغى على تأثير النظريات الفلسفية والأفكار التاريخية ، والتي شكلت الغذاء الروحي لمولتكه ، وأثرت تأثيراً كبيراً في اتجاهه الفكري . فكان للطابع الجديد تأثيره في شليفن ، وتوافرت له بذلك طبيعة خالصة أصيلة ، دفعته للبحث عن تحقيق ما كان من المحال التفكير في تحقيقه . وأبقت جهوده في نطاق الجو الفني الذي يعمل فيه . فهو لم يتعمق إلى حد بعيد ، في دراسة الأسباب السياسية للحرب ، ولا في بحث نتائجها . وإذا كان مولتكه قد بقي بعيداً عن الانغمار أو الغوص في السياسة ، إلا أنه كان مدركاً للقوى السياسية ، فعمل على تكييف تطلعاته الاستراتيجية تبعاً لها . بينما بقي شليفن على نقيضه ، مركزاً جهده كله ، ووقته بكامله ، لحل المشكلات العسكرية وحدها . ثم تركته وفاة زوجته الصغيرة ، بعد حياة زوجية قصيرة ، عازفاً عن كل شيء ، إلا واجباته العسكرية ، وإلا عمله في رئاسة هيئة الأركان . وقد كان هذا الانصراف من شليفن للعمل العسكري والتفرغ له ، شيئاً غير إنساني ، بالرغم من أنه ظهر لطلبته ومريديه على أنه مثالي في إنسانيته ، كما أوضح عقله وتفكيره لأولئك الذين يتوقون لمعرفة أسرار القيادة الحديثة ، ما توافر له من قدرة مسيطرة أخاذة .

لم يتغير الدور التعليمي ـــ الثقافي لهيئة الأركان العامة البروسية في عهد شليفن ، وذلك

على الرغم من اتساع نطاق هيئة أركان الحرب وتزايد عدد أعضائها. وبقيت واجباتها وخواصها مركزة على تعليم الحرب للحرب، والإعداد للعمليات. وكان أهم ما أسهم به شليفن من الناحية الفنية هو ازدياد التطور والتحسين في النقل البري بالخطوط الحديدية، وإيجاد المدفعية الثقيلة، ذات المرونة الحركية العالية، برغم معارضة المحافظين المتزمتين من أفراد الجيش، ثم إيجاد وتكوين بعض الفروع العسكرية الجديدة: مثل فرع مهندسي الجيش للخطوط الحديدية، ومثل السلاح الجوي.

أظهر شليفن اهتماماً خاصاً ببحث كل المسائل الفنية الحديثة، إلا أنه لم ينجح بدرجة كبيرة في حمل الضباط أنصاف الاقطاعيين على الاعتقاد بضرورة استثمار المكتشفات الحديثة، والإفادة منها إلى أقصى الحدود. فقد بقي الشك بفاعلية المستحدثات الفنية مهيمناً على هؤلاء الضباط (القادة) مما كان يدفعهم إلى عدم إسناد دور رئيسي في المسائل العسكرية إلى الفنيين والمهندسين. وقد عني شليفن عناية كبيرة بالمسائل الفنية الحديثة، لا بسبب اعتقاده أن هذا التطور الفني سينزل الاستراتيجية عن عرشها، بل لأنه رأى فيه تحدياً جديداً للقيادة العسكرية. وقد أشار بأسلوبه الساخر ذات مرة إلى تقدم التطور الفني الحديث قائلاً: «... إننا لو قدرنا الفوائد الغالية للتطور الفني، وأجرينا موازنة عادلة بين كل العوامل، دون التحيز إلى أي واحد منها، لوجدنا أن هذا التطور الفني قد أوجد أعظم الصعاب، كما أنه سبب الكثير من الأضرار». والواقع أنه من بين النتيجتين الرئيستين للعصر الصناعي، ألا وهما (**السرعة**) و (**الوفرة في الانتاج**)، فإن الوفرة في الانتاج وحدها، هي التي أثرت في صناعة الحرب، إذ أنها ساعدت على حشد الجيوش الضخمة، وزادت من قدرة نيرانها زيادة كبيرة، وانعكس ذلك على استراتيجيته (خفة الحركة في الحرب) فعملت على تبسيط إجراءاتها بالمقارنة مع ما كانت عليه أيام نابليون بونابرت أو حتى مولتكه. وانتقد شليفن بشدة أولئك الضباط الذين خضعوا لفكرة (فقدان خفة الحركة، وانعدام قيمة المناورة) فلم يفكروا في حلول أخرى غير العودة إلى المواقع الدفاعية، أو الهجمات الجبهية ــ الأمامية ــ وقد كتب شليفن: «**لقد برهنت الحرب الروسية اليابانية لعام ١٩٠٥، أنه ما زال بالمستطاع تحقيق النجاح في الهجمات الجبهية، برغم كل الصعاب. إلا أن نجاحها في أحسن الأحوال يكون صغيراً، فمن الممكن إرغام العدو على التقهقر للخلف، ولكنه بعد وقت قصير، يعود ثانية للمقاومة التي يكون قد تنازل عنها بصورة مؤقتة**. وهكذا تستمر الحرب بين توقف مؤقت، وبين العودة إليها من جديد. ومن المحال لمثل هذه الحرب أن تستمر إذا ما كان وجود الأمة قائماً على التقدم الصناعي، والتطور التجاري. إن استراتيجية الإعياء[٨٠] هي استراتيجية فاشلة، إذا كانت مطالب ملايين الناس

---

(٨٠) استراتيجية الإعياء Strategy Of Attrition وتعني إجهاد العدو بالضربات المستمرة والمتتالية، مع تجنب القيام بهجوم كبير، أو الاشتباك مع العدو اشتباكاً عنيفاً. وتعتبر أعمال الحصار صورة عن استراتيجية الإعياء عندما تستند إلى عامل الوقت، من أجل إجهاد العدو، بحرمانه من موارد إمداده وتموينه، دون التعرض لخسائر كبيرة باقتحام مواقعه. وقد كانت ـ

تحتاج إلى فقد البلايين، أو المليارات منهم». **وفي رأي شليفن أن استراتيجية الإفناء والتدمير، هي وحدها التي يمكن أن تبقي على النظام الاجتماعي، وأن تحفظ له وجوده.**

لقد أبرز عقد الحلف الفرنسي ـ الروسي لسنة ١٨٩٣ م إمكان قيام الحرب على جبهتي ألمانيا الشرقية والغربية. ولم يكن لدى ألمانيا الأمل في امتلاك القدرة لمنافسة الكتلة الفرنسية ـ الروسية من حيث تعداد الجيوش ووفرة العدد. ولم يكن باستطاعة النمسا والمجر تطوير تسليحهما تطويراً كبيراً لأسباب سياسية، كما لم يكن باستطاعة ألمانيا الاعتماد على التحالف مع إيطاليا، وبالاضافة إلى ذلك، فقد كان هناك احتمال تحول بريطانيا تحولاً تدريجياً، مع مرور الوقت، لتصبح خصماً عسكرياً لألمانيا. ولم يبق أمام ألمانيا إلا الإفادة من موقعها المتوسط في القارة الأوروبية، وتقسيم قواتها تقسيماً غير متعادل، أو متوازن، لتشكيل قوة ضاربة كبيرة جداً، وزج هذه القوة على أحد ميداني القتال في المرحلة الأولى من الحرب. وكان في رأي شليفن أن هذه الأفضلية المؤقتة التي تتوافر لألمانيا، يجب أن تستخدم لا من أجل كسب المعارك فحسب، بل من أجل الحصول على نتائج حاسمة وسريعة في الحرب. وكانت توصية مولتكه قد نصت على: «القيام بحرب دفاعية ضد فرنسا وبحرب هجومية ضد روسيا» ورأى شليفن أن مثل هذه الحرب لا تضمن فرصاً جيدة للنجاح. إذ ستكون العمليات في الشرق مضيعة للوقت، ذلك لأن السهول الشرقية الفسيحة، ستسمح للروس باستخدام (تكتيكات التملص ـ أي تكتيكات تجنب المعركة لإجهاد قوات الهجوم)[81]. ثم إن القتال غير الحاسم في الغرب، والذي لا يسمح لأي من الجانبين المتحاربين بالوصول إلى نتيجة نهائية للحرب، والقتال الطويل الأمد على جبهة الشرق، سيجعل بريطانيا هي سيدة الموقف في أوروبا. وقد حذر مولتكه ـ حتى لو لم تتدخل بريطانيا في الحرب ـ من أن حروب

نظرية تجنب الاصطدام بالمواقع القوية، والتسلل إلى ما وراءها بعد عزلها، هي أساس عمليات (الحرب الخاطفة) أو (الحرب الصاعقة). كما كانت أساس إيجاد نظريات الدفاع السطحي أو العميق، حيث تستطيع كل نقطة في المنطقة الدفاعية متابعة القتال وحدها، باعتبار أنها تمتلك القدرة لتشكيل (جزيرة مقاومة).

(٨١) تكتيكات التملص: Evasive Tactics وكلمة Evasive تعني التملص أو التحايل لفصل القوات، وإيقاف الاشتباك، وتجنب القتال. والاصطلاح في جملته من الناحية العسكرية يعني تكتيكات التملص، أي عدم الاشتباك الجاد والعنيف، بل الاصطدام، أو الاشتباك مع سرعة التخلص، ثم الانسحاب نحو الخلف لمسافة بعيدة، وإعادة التنظيم للقيام بهجوم جديد، حتى حدود الاشتباك للتخلص من جديد، والانسحاب مرة أخرى وهكذا. ويتابع الجيش الذي يقوم بهذه العمليات الانتقال من تشكيل المسير إلى تشكيل المعركة، ثم إلى تشكيل المسير، دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، ودون محاولة سحق قوات العدو التي تنتقل من مواقع إلى مواقع أخرى بصورة مأمونة ـ نسبياً ـ لأن المساحات الواسعة والمسافات البعيدة، تمكنها من هذا الإجراء. وقد استخدم الروس هذه التكتيكات ضد نابليون بونابرت سنة ١٨١٢، ولكنهم لم يستخدموها في سنة ١٩١٤، لأنهم قاموا بالهجوم في بروسيا الشرقية. ولولا تقدمهم بالجيشين الأول والثاني اللذين فصل بينهما امتداد بحيرات المازوريان، لما نجح هندنبورغ في تدمير كل من الجيشين على حدة في معركة تاننبرغ.

المستقبل ستكون على خلاف حروب سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٤ و ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، إذ أنها ستكون حرباً طويلة الأمد ، وقد قرر شليفن سنة ١٨٩٤ ، أنه للتغلب على الخطر الذي ستسببه الحروب الطويلة الأمد ، يجب في حالة الحرب القيام بالهجوم أولاً ضد فرنسا . **وقد بنى شليفن أسباب هذا ، على أساس حقيقة ثابتة ، وهي أن فرنسا تعتبر الخصم الأقوى ، وأنها هي الخصم الذي تحتشد قواته ، ومن الممكن الاصطدام به ، مع التأكد من الحصول على نتيجة حاسمة ضده ، في وقت مبكر من الحرب . وستجعل السيطرة على فرنسا التدخل البريطاني غير متوقع ، أو عديم الأثر . ولكن ، وللحصول على نتيجة حاسمة في الحرب الأوروبية ، نتيجة للقتال ضد فرنسا ، فإنه يجب عدم التوقف عند حدود إرغام الجيش الفرنسي على التقهقر إلى داخل البلاد الفرنسية ، أو حتى القيام باحتلال باريس . ولا بد من القضاء تماماً على كل القوات المسلحة التي تقف ضد ألمانيا في الغرب ، والعمل على تحطيمها وسحقها .**

وضع شليفن خطته الأولى للهجوم على فرنسا في سنة ١٨٩٤ م . غير أن هذه الخطة لم تكن صالحة تماماً للوصول إلى نتيجة حاسمة تكون مماثلة لما أمكن تحقيقه في سيدان ولكن على نطاق أوسع . فقد كانت الخطة قائمة على أساس شن هجوم جبهي واسع في اللورين . ثم جاءت القوة المتعاظمة للتسليح الفرنسي لتجعل من هذه الخطة مشروعاً باهظ الثمن . فانصرف شليفن للتعديل من خطته الفضفاضة الواسعة للهجوم الألماني ، والذي كان سيكتسب قوة الدفع القوية من ثقل الجناح الألماني الأيمن ، الذي يقوم بعملية استدارة عبر اللوكسمبورغ ، وبلجيكا ، وجنوب هولندا . ولقد استمر العمل في هذا التعديل طوال الفترة من سنة ١٨٩٤ م حتى سنة ١٩٠٥ م .

أصدر شليفن مذكرة عن خطته في سنة ١٩٠٥ م . وقد أعطت هذه المذكرة للآراء الاستراتيجية الخاصة بالقتال في الغرب صورتها التقليدية (الكلاسيكية) . غير أن شليفن تابع بعد ذلك ، وحتى آخر يوم من حياته ، دراسة خطته ، واختبارها وإعادة بحث مشكلاتها . وقد وافقت هيئة أركان الحرب الألمانية ، كما وافقت الحكومة الألمانية على مبدأ الحرب في جبهتين ، مع هجوم خاطف ضد فرنسا ، برغم ما في هذا من مخاطرة سياسية عظيمة ، تبعاً لاختراق حياد بلجيكا وهولندا . وكان التخطيط يتضمن أيضاً حراسة الجبهة الشرقية ، بقوات صغيرة ، على أن تستخدم ثمانية أتساع الجيش الألماني للقضاء على قوات فرنسا المسلحة . ومع هذا فإنه كان على الجيش الألماني في الشرق — تبعاً لآمال شليفن — ألا يرتد فوراً إلى ما وراء قلاع نهر الفستولا ، بل يجب أن يحاول مهاجمة الجيوش الروسية التي ستضطرها بحيرات المازوريان إلى أن تقسم قواتها التي تغزو بروسيا ، بدلاً من التقدم في كتلة واحدة قوية . وقد تستطيع القوات الألمانية الأقل عدداً تحقيق نصر حاسم ، باستخدام أسلوب العمل على الخط الداخلي ، مع أسلوب أو استراتيجية التطويق . ولقد عمل شليفن

بعد ذلك مع ضباط هيئة أركان الحرب، لاستخدام خطته في (المباريات الحربية على الخرائط)[٨٢] بهدف اختبار هذه الخطة، والتأكد من صحة معطياتها. وقد بدت لشليفن استراتيجية هذه المعركة في الشرق، على أنها أفضل ما يمكن أن تبدعه القيادة، إلا أن المؤرخ العسكري فون هانز دولبروك لم يجد فيها إلا صورة عن معركة كاني، والتي استطاع فيها هاني بعل أن يلحق الهزيمة بالجيش الروماني سنة ٢١٦ ق.م برغم تفوق الجيش الروماني تفوقاً عددياً كبيراً على الجيش القرطاجي، الذي كان يقوده هاني بعل. وقد أمكن لهاني بعل الوصول إلى هذه النتيجة، عندما قبل بشجاعة هزيمة قواته في الوسط بصورة مؤقتة، ليكون في قوة تكفي لتدمير جناحي العدو، وتطويق قواته كلها وتدميرها. وقد رأى شليفن أن كل كبار قادة التاريخ، قد استهدفوا القيام بصور مماثلة لما حدث في كاني. ولم يكن لدى فريدريك الأكبر القوات الكافية لتوجيه مثل ضربات الإفناء هذه، ولكن انتصارات فريدريك تعتبر في رأي شليفن مثلها كمثل معركة كاني، ولكن بصورة غير كاملة. وقد قدم نابليون بونابرت بدوره، وهو في ذروة مجده، صورة مشابهة لهاني بعل في حملة سنة ١٨٠٥ عندما تمكن من جيش النمساويين، وأمسك به في أولم. كما أن هزيمة نابليون بدورها لم تكن إلا نتيجة لتطبيق استراتيجية مماثلة لاستراتيجية معركة كاني، ولا سيما في معركتي لايبزيغ و واترلو. وينطبق ما سبق ذكره أيضاً على معركة سادوفا ولو أن التنفيذ فيها لم يصل إلى درجة كبيرة من المهارة. ثم جاءت بعد ذلك معركة سيدان لتبرز بدورها النموذج الكامل والصحيح لمعركة كاني.

كان شليفن يميل إلى تبسيط التاريخ العسكري. وقد كون آراءه الاستراتيجية من خلال دراسته للأساليب التكتيكية الحديثة، ثم استطاع، وبسهولة كبيرة، أن يربط بين هذه الآراء الاستراتيجية، وبين جذورها في التجربة التاريخية. ويمكن هنا التساؤل عما إذا كانت استراتيجية

(٨٢) المباريات الحربية: War - Games وأصلها في الألمانية Kriegspiel وهي نوع من المباريات أو المساجلات، اخترعها الماريشال الألماني كيث مقلداً بها طراز الشطرنج، وأسماه (شطرنج الحرب) على أن مباريات الحرب في صورتها الحديثة هي من وضع ضابط بروسي اسمه فون رايزوتيز ١٧٩٤ ــ ١٨٢٦ م، وقد وضعها سنة ١٨٢٤ م. وانتشرت هذه المباريات بسرعة في البلاط الألماني على أنها وسيلة للتسلية، ثم أدخلت في الجيش البروسي على أنها وسيلة للتدريب، ثم انتشرت في كل جيوش العالم. وفي سنة ١٨٩٨، أوجد ف. ت. جان، نموذجاً منها للحرب البحرية. وقد بدأت المباريات بدراسة معارك معروفة من التاريخ، ووضع الجنود طبقاً للأوضاع المعروفة عند بدء المعركة. ولهذا كانت الخرائط تعد كلها بمقياس واحد. فلما استخدمت هذه المباريات لأغراض التدريب، أعدت الخرائط بمقياس كبير، حتى يتوافر المكان لإيضاح التفاصيل الضرورية، مثل المرتفعات والطرق والمباني، ومجاري المياه، وسياج الأشجار، وغير ذلك من الموانع الطبيعية التي تؤثر في التحركات. ولما كانت الخريطة هي ميدان المعركة، فقد مثلت القوات بقطع خشبية ملونة، لإيضاح قوات الطرفين المتحاربين وتمييزها. وقد استخدم في البداية اللونان الأحمر والأزرق فقط. وقد وضع قانون لهذه المباريات، وظهر مع الزمن أنه من الضروري وجود جماعة تحكم المباراة، فأغفلت القوانين، وترك للحكام تقدير المواقف في المباريات. ومن هنا نشأت فكرة الاستعانة بثلاث خرائط، يستخدم الحكام واحدة منها، يقدرون عليها المواقف، ويصدرون تبعاً لها الأوامر والتعليمات. ومع هذا، فإن المباريات لا زالت تتبع الأسلوب نفسه الذي وضعه لها الألمان، منذ الربع الأول للقرن التاسع عشر.

نابليون بونابرت باختراق وسط الجبهة، هي استراتيجية تبرز أبسط الصور لعبقريته العسكرية وإبداعه ؟

لقد ظهر واضحاً أن الهجوم الجبهي قد أصبح أقل فاعلية وتأثيراً، واكبر كلفة مما كان عليه في الماضي، بسبب تعاظم القدرة النارية للأسلحة الحديثة. ولكن هذا الموقف كان هو المهيمن في عصر مولتكه أيضاً، ولهذا فإنه بالمستطاع القول بأن تقدم الفن العسكري في نصف القرن الذي جاء بعد سادوفا، قد جعل الدفاع التكتيكي أكثر قدرة مما كان عليه من قبل. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن الحاجة الملحة لإمداد الجيوش الحديثة والكبيرة بمتطلباتها من الذخائر، حتى تستطيع الاستمرار في القتال، قد جعلت خطوط مواصلاتها أكثر تعرضاً. فأصبح الهدف الحقيقي للهجوم الجانبي هو توجيه الضربة إلى خطوط العدو الخلفية. ولم يعد التوقف عند حدود طي أجنحة العدو نحو قلب أو وسط تنظيمه القتالي، إذ أن هذا سيؤدي فقط إلى ما أطلق عليه شليفن وهو يستخدم أحد اصطلاحات نابليون (بالنصر العادي). وبات لزاماً توجيه الضربة إلى مؤخرة العدو، من أجل الوصول إلى تدمير قوات العدو تدميراً تاماً، وإبادتها.

لقد آمن شليفن بأن أقوى ما تستطيع الاستراتيجية تحقيقه هو توجيه معركة التطويق توجيهاً صحيحاً للإحاطة بجانبي العدو. ولما كانت هذه الاستراتيجية هي الأمل الوحيد لانتصار جيش أقل عدداً من الجيش الذي يحاربه. فقد ظهر أنه من الضروري بأن تتوافر للجيش الأقل عدداً القدرة على حل مشكلات مثل هذه المعركة. وهذا ما عبر عنه فريدريك الأكبر بقوله: «لا مجال لليأس عند مواجهة عدو أكبر عدداً، مادام باستطاعة القائد أن ينظم أوضاعه للتغلب على النقص العددي في قوته». وقد استخدم شليفن هدا القول، وعمل على أساسه، ليبعث في نفوس الضباط الألمان هذا الأمل الذي يملؤهم بالثقة، في إمكان التغلب على النقص العددي في قواتهم. وقد كان من السهل استخدام استراتيجية كاني في أي موقف تتوافر فيه مساحات شاسعة، تسمح بإجراء المناورات، وذلك على نحو ما كان عليه الموقف في بروسيا الشرقية، حيث كان من المتوقع أن تقتصر الأعمال القتالية في المراحل الأولى للحرب الألمانية ــــ الروسية على جيوش محدودة، وكان بالمستطاع استخدام الخط الحديدي لعمليات مباغتة بجيوش صغيرة نسبياً. ومقابل ذلك، فإن الزيادة العددية الكبيرة في الجيوش المحتشدة، والمسافات الكبيرة التي تحتاجها هذه الجيوش، نتيجة التوسع في استخدام الأسلحة الحديثة، قد جعلتا هذا المشروع غير عملي في مسرح عمليات الجبهة الغربية الأوروبية، حيث ستغطي جيوش بالملايين كل منطقة على الحدود الألمانية ــــ الفرنسية. وستنتشر هذه الجيوش من القنال الانكليزي إلى سويسرا. وهذا يجعل من المحال الهجوم على جانبي الجيش الفرنسي، حيث تقوم قلعة بلفورت بحماية الجانب الأيمن للفرنسيين، بالاضافة إلى تحصينات الجورا السويسرية.

ويبقى الهجوم عبر بلجيكا ضد الجانب الأيسر للفرنسيين ، هو وحده الذي يساعد على توجيه الضربة لمؤخرة الفرنسيين .

لقد قورنت خطة شليفن بتنظيم فريدريك الكبير ، للسير المائل في معركة لوثن ١٧٥٧ ، حيث استطاع أن يهزم بجيشه المكون من خمسة وثلاثين ألفاً ، جيشاً نمساوياً تعداده سبعون ألفاً ، بالرغم من أن قوات فريدريك كانت في الواقع أضعف من أن تمكنه من الاستثمار الكامل لتكتيكاته الجانبية ، للقيام باستراتيجية التطويق ، على حين كان شليفن يستطيع أن يجمع القوة الكافية ، للقيام بمعركة إبادة وتدمير ، بالإغفال المؤقت للتهديد الروسي لولايات ألمانيا الشرقية .

قدر شليفن في مذكرته التي وضعها سنة ١٩٠٥ ، آن باستطاعته استخدام ثمانية جيوش ضد فرنسا . وهذه الجيوش تضم ٧٢ فرقة من المشاة و ١١ فرقة من الفرسان ، ثم ستة وعشرين لواءً ونصف لواء من الاحتياطي الأول (اللاندفير) . وأضاف إلى هذا تصميمه على استخدام ثمانية فيالق من الاحتياطي الثاني (الارساتز) بمجرد أن تتم تعبئتها ، وأن يكون الحشد الأكبر لهذه الجيوش بين ميتز و اكس لاشابيل ، على أن تكون القوة الأكبر في الجناح الألماني الأيمن ، وأن يوضع جيش واحد من تسع فرق من المشاة ، وثلاث فرق من الفرسان ، ولواء واحد من اللاندفير ، بين ميتز و ستراسبورغ ، وأن يترك الألزاس بلا حراسة ، إلا من ثلاثة ألوية ونصف لواء من اللاندفير ، لتغطية الضفة اليمنى للراين . وأن تكون قوة الجناح الألماني الأيمن بالنسبة لقوة الجناح الأيسر هي سبعة إلى واحد . وكان الهجوم الذي يصل في مرحلته الأولى إلى الخط من فردان إلى دنكرك ، يدور حول المحور في ميتز . وقد قدر شليفن بأنه من الواجب أن يتم في اليوم الحادي والثلاثين للتعبئة ، الوصول إلى خط السوم ، وأن تكون القوات قد اجتازت أميان وآبفيل . وأن توجه المرحلة التالية والحاسمة بالعمليات ضد السين الأسفل ، والذي يؤدي عبوره إلى المرحلة النهائية للمعركة ، وفي تلك اللحظة ، يدور الجناح الألماني الأيمن نحو الشرق ، ويعمل جنوب باريس ضد السين الأعلى . وبذلك يلقي بالجيوش الفرنسية ، ويدفعها نحو القلاع الفرنسية والحدود السويسرية .

كانت جرأة خطة شليفن تكمن في المجازفة التي كان راغباً في القيام بها ، بجمع القوة الأكبر في الجناح الألماني الأيمن ، إذ كان من الضروري أن يمتلك هذا الجناح القوة الكافية ، لا من أجل تمزيق وتدمير أية مقاومة يجابهها خلال سيره في بلجيكا فحسب ، بل من أجل الاستمرار في اندفاعه خلال خمسة وحتى سبعة أسابيع ، مع اتساع حركة الدوران للشمال وللغرب . وكان من المتوقع أن يكون الجيشان الألماني والفرنسي متساويين في القوة من الناحية العامة . ولهذا كان بالمستطاع جمع قوة كافية لتنفيذ هذا المشروع الطموح ، ولو أدى ذلك إلى إهمال الألزاس ، أو حتى السماح للفرنسيين بفرصة عبور الراين الأعلى . وقد توقع شليفن ألا يترك الفرنسيون قوات كبيرة في قلاعهم ، وأن يعملوا على زج قواتهم لغزو الألزاس أو جنوب ألمانيا ، إلا أن هذه القوات ستضطر إلى الانسحاب فوراً

عندما تتعرض لضغط الجناح الألماني الأيمن الذي يقوم بحركة الدوران، وحتى إذا ما فعل الفرنسيون هذا، فإنهم سيفعلونه متأخرين إلى الحد الذي لا يجعله مؤثراً على نتيجة الحملة.

كان شليفن قد أشار في عرضه للمباريات الحربية لسنة ١٩٠١ إلى التعارض بين آرائه الاستراتيجية وبين آراء مولتكه، بقوله: «**لقد كنا في سنة ١٨٧٠ م قادرين على مهاجمة جبهة العدو، وقد مكنتنا الأفضلية العددية التي توافرت لنا يومذاك، من الاشتباك بالعدو، والاستدارة حول جناحه الممتد، ثم ضرب جنبه. ولكننا الآن لا نستطيع الاعتماد على عامل التفوق العددي. وسنتساوى معه في القوة العددية، ضمن أفضل الظروف. بل قد يكون من الضروري أن نقنع بأننا سنكون أقل منه عدداً، وبذلك تضطرنا الحاجة إلى التفكير في طريقة نستطيع بها قهر العدو، بقوات أقل عدداً من قواته. وليس هناك علاج وحيد للموقف، بل وليس هناك مشروع واحد، بل هناك فكرة واحدة فقط تعتبر صالحة، ألا وهي: عندما يكون الفرد أضعف من أن يهاجم الكل، وجب عليه أن يهاجم الجزء**». وهنا تبرز إلى الضوء عدة صور توضح مضمون هذا الحديث. ومن هذه الصور أن الجنب يمكن أن يكون جزءاً من جيش العدو الذي يجب مهاجمته. ولهذا فليهاجم شليفن جنب العدو. وقد يكون الهجوم على الجنب صعباً، عندما لا تتجاوز قوة العدو سرية، أو حتى كتيبة من المشاة، أو ما يماثلها من الوحدات الصغرى التي تنفصل وحدها. ولكن الهجوم يكون أفضل، وأكثر سهولة، كلما زادت قوة العدو، وكلما امتدت خطوطه، وكلما تزايد الوقت الذي يحتاجه لدعم هذا الجنب الذي يتعرض للهجوم، بقوات يسحبها من الجنب الآخر. ولكن كيف يهاجم جيش العدو؟ إنه ليهاجمه ولكن لا بفيلق، أو فيلقين، بل بجيش أو أكثر. وأن يوجه هذه الجيوش، لا ضد جنب العدو، بل ضد خط تراجعه وانسحابه. الأمر الذي يماثل ما حدث في أولم، وما حدث في حملة شتاء سنة ١٨٠٧، ثم ما حدث في سيدان. ونتيجة لهذا سيحدث الاضطراب في صفوف العدو، وتسنح الفرصة لمعركة ذات مواجهة ـــ معكوسة الاتجاه ـــ معركة الإفناء، معركة تكون في مؤخرة العدو والمواقع والعوائق التي تعطله. وتتضمن هذه الكلمات خلاصة فكرة شليفن الاستراتيجية للتغلب على مشكلة: «**كيف يمكن القيام بحروب قصيرة وحاسمة ضد عدو متفوق عددياً؟**». ولقد ألح شليفن لزيادة عدد أفراد الجيش الألماني. وجاءت هذه الزيادة على فترات بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٩٠٦ م. ومع هذا فإن ألمانيا لم تكن قد دربت حتى تقاعده أكثر من ٥٤ بالمئة من شبابها على الحرب، بينما كانت فرنسا قد دربت ٧٨ بالمئة من مجموع شبابها الصالحين للتجنيد. والواقع أن شليفن لم ينصح قط بالتعبئة العامة لكل الرجال الألمان، بل كل ما أوصى به هو إعداد القوات الكافية للعمليات. **ذلك أن الفكرة الاستراتيجية، وكفاءة الأفراد، كانتا في تقديره أكثر أهمية من التفوق العددي**. وبهذه الروح، حاول شليفن تدريب أعضاء هيئة أركان الحرب الألمانية، هادفاً إلى زيادة أعدادهم على مر السنين واستكمالها. وإن دراسة المجلدين الأول والثاني من كتاباته العسكرية، واللذين طبعا

سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨، تبرز مدى التطور والتقدم في آرائه الاستراتيجية وتعاليمه، خلال الخمس عشرة سنة التي احتل فيها، وكان شارنهورست و مولتكه في الجيش الألماني.

كانت أغلب آراء شليفن هي التكملة المنطقية للتقاليد العسكرية التي بدأت بفريدريك الكبير، وتطورت حتى عهد مولتكه، مع تطبيقها في ظروف الحرب الحديثة. ومع هذا، فقد وصل شليفن إلى أبعد مما وصله أسلافه العظام، بتخطيطه المسبق لموعد التنفيذ، ليس فقط لعمليات التعبئة والنقل والحشد، ولا لتوجيه الهجوم وحسب، بل وللمعركة الحاسمة ذاتها. وبذلك أكسب ما قيل في الحديث عنها، خطة شليفن لسنة ١٩٠٥، مكانها الصحيح في تاريخ الاستراتيجية. وإن كان من الضروري ملاحظة أن القول في الحديث عن خطة شليفن لسنة ١٩٠٥، هو قول ليس دقيقاً تماماً، لأن الوثيقة لم تكن أكثر من مخطط، أو مشروع لخطة، تعتمد على وجود قوات لم تكن موجودة آنذاك تحت إمرة القيادة الألمانية العليا.

لقد كان نابليون بونابرت يفخر دائماً بأنه كان يخطط لكل حملاته قبل أن يبدأ بتنفيذها. ولكن ما حدث فعلاً كان مناقضاً لذلك. وكان نابليون على كل حال يتفق مع مولتكه في قوله: «**بأن رغبة العدو تحول دون إمكان تخطيط سير الحرب قبل بدئها**». ولكن شليفن كان يؤمن بإمكان تعطيل رغبة العدو ونواياه. وذلك بإرغامه على الوقوف منذ البداية في موقف الدفاع. وكان هذا يتطلب الإسراع في العمليات، أي أن تتوافر للعمليات غاية ما يمكن تحقيقه من السرعة. ولم يكن هذا جديداً في تاريخ الحرب، فقد كانت خفة الحركة الكبيرة في كافة العصور، هي العامل الأساسي للنجاح العسكري، وإن كل ما فعله شليفن هو أنه طبق المبادىء الثابتة والأسس القديمة في بلاد توافرت لها الوسائط الجيدة للمواصلات والنقل. ولقد أكد شليفن بالإضافة إلى هذا، أن نجاح مثل هذه العمليات الاستراتيجية يتوقف على تحقيق السيطرة الكاملة على المنطقة الأرضية بكاملها، لمسرح العمليات، أي السيطرة على عامل المسافة، وذلك لحرمان العدو من فرصة القيام بأية عمليات استراتيجية. وكانت خطة شليفن لغزو شمال فرنسا عن طريق بلجيكا وجنوبي هولندا، تستند استناداً كبيراً إلى الرغبة في إبقاء الجيش الفرنسي محاصراً، ما بين القنال الانكليزي وجبال الألب السويسرية. وقد حذر المرة بعد الأخرى بأنه من الضروري أن يصل الجيش الألماني الأول إلى القنال وإلى آبفيل، وإلا كان من الصعب تجنب عمليات التطويق التي قد يحاول العدو تنفيذها، لتطويق جنب القوات الألمانية. وسيجد الجيش الفرنسي، عندما يواجه بجيش ألماني يحمي الساحل الفرنسي جنبه الأيمن، بأنه من الصعب أن يمد جناحه الأيسر، في الوقت المناسب، وبالقوة الكافية، لوقف الهجوم الألماني، بخاصة إذا ما شغل في الوقت ذاته قلب الجيش الفرنسي بالمعركة. وهكذا، لم تترك خطة شليفن للجيش الفرنسي فرصة للاختيار الاستراتيجي، بل تركت له وسيلة واحدة للعمل هي: الهجوم في الألزاس واللورين. وإن كان هذا الهجوم سيزيد من متاعب الفرنسيين، فضلاً عن

أنه لن يمكنهم من الحصول على نتائج حاسمة. ولم يستطع شليفن الإفادة من أخطاء العدو، غير أنه أمل في أن أخطاء العدو قد تساعد على تنفيذ عمليات ناجحة. وتوقع شليفن ارتكاب الفرنسيين للأخطاء نتيجة ما قد يقومون به من تحركات متضادة ومتسرعة، لمواجهة توزيع القوات الألمانية وأوضاعها غير المتوقعة. لقد كان شليفن جريئاً، وكان على استعداد كامل للمجازفة، ولكنه لم يكن مقامراً ولا مغامراً. ولهذا فقد رفض أن يقدر من البداية خطة فرنسية خاطئة، يجعلها أساساً لوضع مشروعه الاستراتيجي.

كان شليفن يريد تحويل الحرب كلها إلى معركة واحدة، يضع تخطيطها قبل موعد تنفيذها، وأن يضع هذا التخطيط متوافقاً مع خطط التعبئة والنقل، ومنسقاً مع الحشد الأولي للجيش. وعلى هذا الأساس فإنه قدّر مدى حاجته إلى تنظيم كامل مدرب تماماً، ليتولى قيادة الجيش، ويكون قادراً على تنفيذ هذا المخطط. وقد نجح شليفن في وقت مبكر في ما يجب أن يكون عليه القائد العام للجيش، في أول حرب عالمية إذ قال: « ... **لا يمكن للقائد العام في المعركة الحديثة الوقوف بمثل ما كان يقف نابليون في ثيابه الزاهية فوق التل، ولن يمكنه أقوى منظار مكبر من رؤية الكثير من أرض المعركة. ثم إن جواده الأبيض سيكون هدفاً سهل الإصابة من نيران عدو لا حصر له من بطاريات المدفعية. إن القائد العام في العصر الحديث، سيكون في منزل صغير في الخطوط الخلفية، به عدد من الغرف المستخدمة للمكاتب، وتتوافر في متناول يده أجهزة البرق والهاتف، وأجهزة الاتصال السلكية واللاسلكية. على حين يقف رتل من السيارات والدراجات النارية في انتظار الأوامر للتحرك لمسافات طويلة. وفي هذا المنزل سيجلس ــ الاسكندر ــ الحديث، على مقعد مريح، وأمامه خارطة كبيرة، وهو يطل على أرض المعركة، كما توضحها له الخارطة. وفي هذا المنزل، ينقل له الهاتف كل الأحاديث المشجعة، ويتلقى فيه تقارير قادة الفيالق والجيوش، وتقارير المناطيد التي تراقب تحركات العدو، وتكشف مواقع قواته**».

لقد أوضح شليفن لضباطه: «بأنه سيكون من الصعب إصدار أوامر محددة للمعركة، بصورة دائمة. ولهذا فقد استبدلت أوامر الهجوم بأوامر السير. وليس معنى هذا أن أوامر السير هي التي تقود مباشرة إلى أرض المعركة، وإنما هي تنظم التحركات التي يبدأ بها الجيش، منذ أن يتم احتشاده، ثم تقوده في النهاية فقط إلى الاصطدام بالعدو. وفي القبول لتصوير عادي لمسيرة الأحداث، فإن الفيالق ستشكل خط المعركة في بساطة، عندما تقابل العدو، وتقوم بالهجوم. وسيتضمن أمر السير توجيه العمليات للقيام بالتطويق، أو الاختراق أو غير ذلك. وبمعنى آخر، فإن صورة المعركة ستأتي مطابقة لما خططه لها القائد العام. ولكن من الصعب تقدير كل شيء إلى حد أن تسير الحوادث في هذا المسار الهين البسيط. فقد تقع حوادث مختلفة تتطلب تحولاً عن

الخطة الأصلية. ولن يكون بالمستطاع هنا وهناك، وفي مثل هذه الحالة، العودة دائماً إلى القائد العام، وطلب الأوامر منه، إذ قد تتعطل وسائط الاتصالات ـــ البرق واللاسلكي ـــ وسيجد قائد الفرقة أو الفيلق ذاته مرغماً على اتخاذ القرار المناسب. ويجب أن يكون هذا القرار منسجماً، ومتوافقاً، مع فكرة القائد العام ومخططه، ولهذا يجب أن يعمل القائد العام على اطلاع قادته دائماً على تطورات الموقف، وفي الوقت ذاته، يجب على قائد الفيلق استيعاب الآراء الأساسية لكل العمليات، وأن يصل إلى عمق عقل القائد العام وتفكيره».

تركت خطط مولتكه المرنة، مجالاً رحباً لوقوع أخطاء كثيرة عند تنفيذ العمليات. وعلى النقيض من ذلك، فقد تطلبت استراتيجية شليفن درجة كبيرة من الدقة. وقد سبقت الإشارة إلى أن مولتكه لم يكن في الواقع، في موقف يمكنه من فرض رغبته، ومخططاته، إلى ذات الدرجات التي توافرت للسعداء ممن خلفوه وجاءوا بعده. وعلى أية حال، فإن الجيوش الحديثة تبعاً لاحتشادها وتكتلها تتطلب تنسيقاً أكثر دقة، إذا ما بقيت تتولى عمليات خفيفة الحركة، وعلى الأخص عندما تستعيض بقوة المناورة عن النقص النسبي في القدرة العددية للمقاتلين.

كان من الطبيعي، نتيجة لذلك، أن يوجه شليفن عناية كبيرة إلى الاستراتيجية في تدريبه لأعضاء هيئة أركان الحرب. وقد دهش الكثير من الضباط عند رؤيتهم لبعض صغار الضباط في هيئة الأركان، وقد سمح لهم بإدارة المناورات لتشكيلات مقاتلة كبيرة من الجيش. على أن هذا لم يسبب إغفال المعرفة التكتيكية في الجيش الألماني، ولكنه تسبب في تناقص درجة الاحترام للقادة الكبار السن والذين ابتعدوا، أو أبعدوا، عن الأبحاث والدراسات الاستراتيجية. وقد برزت هذه الحقيقة، على سبيل المثال، في الدور الذي اضطلع به المقدم هنتش في أثناء معركة المارن ـــ في الحرب العالمية الأولى ـــ عندما أصدر أوامره للجيوش الألمانية العاملة على الجناح الأيمن بالتراجع والانسحاب، مناقضاً بذلك القرار الحكيم الذي كان قد وضعه قائد الجيش الأول، ورئيس هيئة أركان حربه. وعلى كل حال، فإن هيئة القيادة العليا للجيش الألماني كانت قد تغيرت تماماً تحت قيادة مولتكه الصغير خليفة شليفن، إلى حد أنه بات من المحال إجراء مقارنة مباشرة بين الوضعين. وكان شليفن قد أشار دائماً في كثير من أحاديثه إلى مستقبل القيادة الألمانية. فكان يردد: «**بأنه سيكون للجيش قائد حقيقي، يتولى السلطة كلها**». ولكن شليفن لم يقصد إطلاقاً، وبالتأكيد، أن يكون هذا القائد متردداً في آرائه الاستراتيجية، ولا أن يترك في اللحظة الحرجة ضابطاً صغيراً يصدر قراراً تاريخياً حاسماً، نيابة عنه وباسمه، على نحو ما فعل المقدم هنتش، عندما أصدر باسم مولتكه الأوامر بتقهقر الجيوش الألمانية العاملة في أقصى الغرب. ولا يمكن كذلك القول بأن الحملة الفرنسية في شهر آب ـــ اغسطس ـــ سنة ١٩١٤، كانت اختباراً لخطة شليفن، فإن الموقف في سنة ١٩١٤ كان يختلف تماماً عما كان عليه الموقف في سنة ١٩٠٥. ذلك أن روسيا كانت قد حصلت منذ

سنة ١٩٠٥ على قوى جديدة. كما كانت فكرة (الحرب الهجومية) قد تغلغلت إلى عمق كبير في عقول أفراد هيئة أركان الحرب الفرنسية.

التزم مولتكه الصغير بفكرة شليفن؛ في القيام بدفاع ضعيف في الشرق، مع عمليات هجومية قوية في الغرب، إلا أنه أدخل تعديلات كثيرة على خطة شليفن، فعمل على إضعاف الجناح الأيمن الذي ينفذ عملية الاستدارة. وبينما كانت النسبة بين الجناحين الأيمن والأيسر في خطة شليفن هي بنسبة سبعة إلى واحد، جاء مولتكه الصغير فجعلها بنسبة ثلاثة إلى واحد. وسبب ذلك هو أن مولتكه الصغير كان يخشى من اندفاع القوات الفرنسية في إقليمي الألزاس واللورين. ومع أن تقدير مولتكه للموقف كان له نصيبه من الصحة والصواب، إلا أنه لم يكن هناك من سبب لتقوية الجناح الألماني الجنوبي إلى هذه الدرجة، ولا سيما أنه يتمتع بالفوائد الدفاعية التي كانت تضمنها له التحصينات القوية في تلك المنطقة. ولا ريب أن مولتكه الصغير كان سيوزع قواته توزيعاً آخر، لو أنه اعتقد بأن الهجوم الفرنسي سيمكنه من الوصول إلى فرصة القيام بمعركة حاسمة في الألزاس واللورين. إذ لو ترك الفرنسيون قلاعهم، وأرسلوا نصف جيشهم إلى اللورين؛ لأمكن دفع جناحهم الجنوبي ضد الفوج و الراين، ولأمكن تدميره، فيضيع بذلك كل أمل للفرنسيين في المقاومة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد وقعت معركة اللورين — في الحرب العالمية الأولى، قبل أسابيع ثلاثة، أو أربعة، من الموعد المحدد للقرار الحاسم المتوقع، تبعاً لخطة شليفن لسنة ١٩٠٥ م. وهكذا نظر مولتكه الصغير إلى الجناح الألماني الأيمن نظرة أخرى. كان واجبه الرئيسي هو إغراء الفرنسيين لتوجيه هجومهم إلى اللورين. وفي هذه الحال، فإن الجيوش الألمانية تسير في طريقها عبر بلجيكا، ولكن استمرار السير نحو باريس قد يصبح أقل أهمية، إذا استطاع الجناح الألماني الأيسر أن يقوم بضربة حاسمة. وقد اختار مولتكه الصغير — في تقليد غير كامل لعمه مولتكه الكبير — أسلوباً طليقاً من أساليب الاستراتيجية. وعلى حين أراد شليفن إعطاء الفرنسيين فرصة تثبيت سير الاستراتيجية الألمانية، نتيجة لتصرفاتهم هم ذاتهم. فإن مولتكه الصغير جعل توجيه العمليات يستند جزئياً إلى رغبة العدو. وقد سبب هذا الاتجاه ظهور عوامل غير مؤكدة في الأهداف الاستراتيجية للقيادة الألمانية العليا. وبات من الضروري، لضمان التنسيق، ولوضع القرار النهائي عن سير العمليات، أن يبقى مولتكه الصغير على اتصال دائم ومباشر بالقوات، وأن ينظم لها عملياتها تبعاً لتفكيره العسكري.

لقد كان باستطاعة مولتكه الصغير تحقيق حلمه بالحصول على معركة حاسمة في اللورين، لو أنه أصر على أن يعمل الجيشان السادس والسابع وفقاً لما تضمنته خطة شليفن الأصلية، والتي كانا بموجبها سيعملان على التراجع نحو الخلف ليسحبا الفرنسيين بعيداً عن قلاعهم. أو لو كان قد قام في الوقت ذاته بإجراءات صحيحة لإبطاء سرعة تقدم الجناح الألماني الأيمن، أو حتى لو عمل على

نقل القوات الكبيرة من اللورين. ولكن مولتكه بدلاً من ذلك كله، سمح بإجراء هجوم (جبهي) سابق لوقته المناسب. وقد أدى هذا إلى إرغام الفرنسيين على التقهقر، ولكنه تقهقر أوصلهم إلى منطقة أمن وسلامة في داخل حصونهم القوية. ومع هذا فإنه لم يمنع القيام باقتحام مباشر للخطوط الفرنسية، وهو الاقتحام الذي أوقع الجيش السادس في صعاب لها خطرها، وحال دون سحب أي قوات من يسار الخط الألماني، لاستخدامها في الجنب الأيمن. ويحتمل أن يكون مولتكه الصغير قد وجد في مذكرات عمه مولتكه الكبير ما يجعله محقاً في ليونته ورقة معاملته لقادة الجيوش. وإن كانت بساطة شخصيته، وافتقاره إلى الحزم والتصميم هما السبب الحقيقي لما حدث.

كان الجناح الألماني الأيمن في سنة ١٩١٤، من البداية، أضعف من أن يحقق الأهداف التي أوكلها إليه شليفن. ولم يكن باستطاعة الجيوش الألمانية الوصول إلى القنال، وأن تعمل إلى الغرب من باريس وجنوبها. ثم عاد مولتكه الصغير وأضعف من الجناح الأيمن بنقل فيلقين من بلجيكا إلى بروسيا الشرقية في ٢٥ آب ــ اغسطس ــ ١٩١٤. وافتقد الألمان هذين الفيلقين في معركة المارن. وفي ذلك التاريخ مازالا في طريقهما إلى الشرق، للإشتراك في معركة كانت قد انتهت وانقضت، وهي معركة تاننبرغ. وكان من الضروري أن تسحب القوات التي احتاجها الجيش الألماني الثامن في بروسيا الشرقية، من قوات الجناح الألماني الأيسر، حيث كانت القوات الاحتياطية متوافرة، بعكس ما كان عليه موقف الجناح الألماني الأيمن، والذي كان بحاجة للدعم بكل جهد ممكن.

لقد عمل مولتكه في الفترة من ٢٠ إلى ٢٣ آب ــ اغسطس ــ ١٩١٤ على جبهة الغرب، وهو خاضع للنتائج الأولية لمعارك اللورين، والتي أظهرت له أن المجال قد بات مفتوحاً أمامه، للحصول على نتائج حاسمة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن تقدم الجيوش الألمانية عبر بلجيكا، كان سريعاً ومستمراً، وكانت هذه الجيوش في ذلك الوقت قد اجتازت خط بروكسل ــ نامور، وهو الخط الذي يلي ليبج من حيث الأهمية، باعتباره أخطر منطقة في (عنق الزجاجة). ولكن الواجب الحقيقي لهذه الجيوش لم يكن قد بدأ بعد، لتدمير القوى المعنوية لجيوش الحلفاء. كما أن هذه الجيوش لم تحقق أي نجاح في تطويق أي وحدة للعدو كانت تعمل منفصلة، مثل قوات الحملة الانكليزية، أو الجيش الفرنسي الخامس، ومما لا شك فيه أن الحاجة لقوات جديدة كانت ستزداد في الأسابيع القادمة، تبعاً للسير القسري الذي كانت تقوم به القوات. ومع ذلك، وعلى الرغم من نقل فيلقين ألمانيين إلى الشرق في ٢٥ آب ــ اغسطس، وعلى الرغم أيضاً من استخدام فيلق آخر، دون ما سبب لحصار موبيج، فقد كان باستطاعة القيادة الألمانية دعم الجناح الألماني الأيمن، بنقل القوات من الجناح الأيسر بالخطوط الحديدية، أو بتوجيه عمليات وسط الخط الألماني إلى اليمين بدرجة أكبر.

حافظ مولتكه الصغير على اعتقاده، بأن الجناح الألماني الأيسر، وإن كان غير قادر على

تنفيذ واجبه الاستراتيجي الأصلي، إلا أنه قادر على تجميد أو تثبيت قوات فرنسية كبيرة في مواقعها، ومنعها من الانتقال إلى منطقة باريس. وهذا مما يساعد الجناح الألماني الأيمن على تحقيق ما هدفت إليه خطة شليفن.

لقد كان الايمان بخطة شليفن، والذي كان مولتكه الصغير قد أضعفه، قد أصبح في ذلك الوقت مدعاة لليأس. فلقد ظهر واضحاً أن الهجوم القوي ضد الجناح الغربي، هو الفرصة الوحيدة الباقية في هذه المرحلة لتأكيد النجاح الألماني. وبالتبعية، كان من الواجب القيام بكل ما يمكن من الإجراءات لدعم الجيوش الألمانية: الأول والثاني والثالث، بقوات ضخمة كانت تحتاجها لتوجيه الضربة الحاسمة للحلفاء. بل وحتى كان من الممكن أن يعطي مولتكه هذه الجيوش الثلاثة وقتاً قصيراً للراحة التي كان الجنود يحتاجونها حقاً، وكان بالمستطاع مع هذا القيام بكل التدابير التي تضمن القوة الأكبر للمعركة القادمة. ولكن شيئاً من هذا لم يفعله. ومقابل ذلك، كانت القيادة الفرنسية العليا، تقوم بتوجيه جيد وقوي لعمليات الجيوش الفرنسية كلها، حتى في التقهقر الطويل والشاق الذي قامت به. وقد استخدمت القيادة الفرنسية شبكة الخطوط الحديدية في أرض فرنسا على أكمل وجه، وإلى أكبر درجة يمكن الانتفاع بها لمواجهة الموقف، وللتأهب للعودة إلى الهجوم في الوقت المناسب. وفي هذا الوقت ذاته، كان مولتكه الصغير قد فقد الاتصال بحقيقة الموقف على طول الجبهة. فوسائل المواصلات ضعيفة، والنقل بالخطوط الحديدية أصبح مهملاً. وكان السبب الرئيسي لتعقد الموقف، ولتزايد الصعوبات، هو عدم معرفة قادة الجيوش للخطط الاستراتيجية التي كان يضعها رئيس هيئة الأركان مولتكه الصغير مما كان يمنعهم من التجاوب مع هذه الخطط والتكيف معها. ولقد وقع قادة الجيوش الألمانية في أخطاء كثيرة، بعضها فيما أغفلوا، وبعضها فيما نفذوا من الأعمال. ومع هذا، فإنه لا يمكن تعنيفهم أو لومهم بشدة، لأن رئيس الأركان هو الذي تركهم في الظلام، فلم تتبين لهم الصورة العامة لخطة العمليات. ولقد حقق الجيش الألماني الأول نجاحاً رائعاً بسبب شجاعة أفراده وإقدامهم على تحقيق ما ظهر أنه من المحال تحقيقه، حيث أمكن له التخلص من الخطر الأكبر الذي كان يتعرض له، وبدا أنه سيبدأ في قطف بعض ثمار نجاحه التي حققها على ضوء خطة شليفن القديمة، ولكن حدث عندها أن أصدر المقدم هنتش ـــ الذي بعث به مولتكه الصغير لبحث الموقف على الجناح الغربي ـــ الأمر بالتقهقر. والغريب أن مولتكه الصغير الذي حاول أن يتبع أسلوباً استراتيجياً طليقاً (حراً)، وأن يتجنب التفكير الصلب المقدر من قبل، كما يتجنب السيطرة التامة التي فرضتها خطة شليفن، بل وتقبل ما ينتج عن ابتكار قادة مختلف الجيوش، الغريب أن مولتكه الذي فعل هذا كله، جاء في أحرج الساعات وحاول إعادة تنسيق التعاون بين الجيوش، بإعطاء سلطات واسعة لعضو صغير السن والرتبة من هيئة أركان حربه. لقد كان هنتش في الحقيقة ضابطاً ذا كفاءة عالية. وقد برهن على كفاءته القيادية الممتازة عندما عمل

رئيساً لهيئة أركان الحرب في الحملة الصربية سنة ١٩١٥ م. ولكن القرار الذي أصدره يوم ٨ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٩١٤، كان إلى حد بعيد نتيجة للمباغتة، عندما وجد أن حقيقة أحوال معركة الجناح الألماني الأيمن هي أخطر بكثير مما قدرت القيادة الألمانية العليا التي كانت في مقرها في اللوكسمبرغ.

لقد كانت خطة شليفن في أضعف صورها (وبالرغم من التوجه المضطرب، غير الواضح، والمتعدد المعاني للاستراتيجية الألمانية) تعطي الهجوم الألماني لسنة ١٩١٤ قوة دافعة لها خطرها، ولم يكن هناك احتمال بأن تتعرض للفشل، لو أن القيادة الألمانية العليا قد آمنت بها، والتزمت بها منذ البداية التزاماً تاماً، بدلاً من التأرجح بين فكرة الحرب في بروسيا الشرقية، وفكرة الوصول إلى الحسم في اللورين. ولقد كان شليفن على حق عندما تنبأ بأنه من الصعب تحقيق أكثر من نجاح عادي في اللورين، بسبب قدرة الفرنسيين على العودة إلى تحصيناتهم. وهو لم ينكر بأن تحمل الحرب معها مواقف جديدة، تجعل القائد العام مضطراً لإجراء إعادة تنظيم جديد لتوزيع قواته. غير أنه جعل الحشد كله في الجناح الأيمن، وكان سيعمل على توحيد الجهد، وتنسيق كل العمليات، وكان بالمستطاع لو تم هذا أن يقنع القائد العام بضرورة ترك العمليات العادية لرؤساء هيئات أركان حرب الجيوش المختلفة، وحتى في حال اضطراب وسائل الاتصال، كان باستطاعة قادة الجيوش أن يعملوا طبقاً للخطة العامة للعمليات. وعلى كل حال، فإن خطة شليفن لسنة ١٩٠٥ لم تكن هي إجابة شليفن الأخيرة لحل مشكلات الحرب القادمة، فهو ـ كما سبق ذكره ـ كان على استعداد للأخذ بفكرة إقدام الفرنسيين على ترك تحصينات حدودهم، والتقدم إلى الأمام. وكان هذا بلا شك صحيحاً. فقد وضعت القيادة الفرنسية (خطة التعبئة ـ رقم ١٥)[٨٢] على أساس القيام بدفاع استراتيجي. وقد لاحظ شليفن في سني تقاعده تعاظم نفوذ المدرسة النابوليونية الحديثة في فرنسا أي (مدرسة الحرب الهجومية). وقد خشي أن تعمل هيئة أركان الحرب الفرنسية لمواجهة الهجوم الألماني بهجوم فرنسي في بلجيكا، وذلك بالاحتلال المسبق لخط نامور ـ بروكسل ـ أنتويرب، ولم يكن شليفن محقاً في كل مخاوفه. ولكن من الصحيح أيضاً أن الجنرال ميتشل، الذي ظن بأنه سيعين رئيساً لمجلس الحرب الفرنسي الأعلى، قدم في سنة ١٩١١، خطة كادت تكون هي الخطة الألمانية لسنة ١٩١٤، وكانت خطة ميتشل هذه هي التي طبقها الحلفاء تقريباً في سنة ١٩٤٠ م.

لم ينصرف شليفن وهو يعيش سنوات التقاعد من عمره، إلى حياة الدعة والخمول، ولم يبتعد عن التفكير في الخطة التي صرف سنوات في وضعها وتنقيحها وتعديلها. وتابع التطورات على جبهتي

(٨٢) وضعت القيادة الفرنسية الخطة سنة ١٩٠٣، ثم عدلت تعديلاً بسيطاً في سنتي ١٩٠٦ وسنة ١٩٠٧. وهناك أيضاً الخطة المعروفة باسم (خطة ميتشل) التي رفضت سنة ١٩١١، وطبقت بعدئذ سنة ١٩٤٠، بالإضافة إلى (الخطة ١٧) التي وضعت على أساس قيام الألمان بالهجوم عبر بلجيكا.

الصديق والعدو ، وبقي سباقاً إلى كشف انعكاسات التطورات الحديثة على ميدان التكتيك ، ومجالات البحوث الفنية . وانتابته المخاوف من قيام الفرنسيين باحتلال خط انتويرب ــ نامور مع ما يتبع ذلك من هجوم فرنسي على اللورين ، فألح على إعداد قوات احتياطية ضخمة يتم حشدها وراء الجبهة الألمانية . وقد اقترح زج هذا الاحتياطي منذ بداية الحرب لدعم قوات المعركة . كما أوصى القادة الألمان بالإسراع لإمساك (المبادأة) منذ البداية ، وعلى طول الجبهة ما بين بلفورت ولييج . وبقي شليفن مؤمناً إيماناً راسخاً بأن نجاح الجناح الألماني الأيمن ، هو وحده الذي يضمن الحصول على نتائج استراتيجية عظيمة . وظن في الوقت ذاته أنه اكتشف فرصاً إستراتيجية جديدة ، أتاحتها تطورات النقل بواسطة الخطوط الحديدية . وكانت الفكرة التي تحدث عنها ، مولتكه الكبير ، من «أن أي خطأ يحدث في عملية الحشد الأصلية ، هو خطأ لا يمكن تصحيحه طوال الحملة» قد أصبحت فكرة قديمة تجاوزها الزمن ، على ضوء المستجدات التي اقتحمت حياة غربي أوروبا ووسطها : ذلك أن كثافة الخطوط الحديدية قد ضمنت للقائد قدرة على نقل قواته من جبهة إلى جبهة أخرى . وقد تمت تجربة هذه العملية على نطاق واسع في المباريات الحربية ، ومناورات هيئة الأركان العامة ، عندما كان شليفن رئيساً لها . ولكن أظهرت القيادة الألمانية العليا في سنة ١٩١٤ ، أن كل هذه الآراء لم تترك أثراً عميقاً في عقل خليفة شليفن . وبرهن الفرنسيون على أنهم أوفر قدرة وأكثر نجاحاً في استخدام هذا المورد الجديد لخفة الحركة ، وأنهم أيضاً أول من اكتشف إمكان استخدام النقل الآلي (الميكانيكي) بالسيارات عندما نقلوا القوات في سيارات (التاكسي) من باريس إلى خطوط القتال في المارن . وعندما استخدم فوش السيارات لنقل ستين ألف جندي إلى الفلاندرز في شهر أيلول ــ سبتمبر ــ سنة ١٩١٤ .

لم تهدم معركة المارن من مكانة شليفن بين القادة الألمان ، بل على النقيض من ذلك . فقد ظهر واضحاً أن (حرب المواقع) وهي الحرب الطويلة الأمد ، والمعدومة الأمل ، في الغرب ، مع ما يصاحبها من تأثير في النظامين الاجتماعي والاقتصادي لألمانيا ، إنما كانت نتيجة لإغفال تعاليمه التي دلت على عبقريته العسكرية . وقد أدى اتباع هذه التعاليم في الميدان الشرقي إلى الكثير من الانتصارات الرائعة، مثل تانبرغ ، وحملة شتاء سنة ١٩١٤ عند بحيرات المازوريان ، وفي هيرمانستادت في باكورة الحملة الرومانية لسنة ١٩١٦ م ، حيث استطاع الجيش الألماني بفضل هذه الانتصارات ، خوض الحرب ضد اتحاد دولي ، على نطاق واسع طوال أربع سنوات ، وأن يصل في هذه الحرب إلى حدود النصر . **وكذلك فإن هزيمة ألمانيا في سنة ١٩١٨ ، لم تضعف من الاعتقاد بعبقرية شليفن وسيادته على الفن العسكري. حتى في ضوء الحرب الحديثة التي كان طابعها يقوى ويشتد مع خطى ألمانيا الواسعة للعودة إلى التسلح** . فقد ظهرت خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، مدرسة فكرية ألمانية تدين بعقيدة شليفن . ولقد عمل رجال الفكر

الاستراتيجي في الجيش الهتلري (النازي) على توجيه النقد لنظريات شليفن، وقاموا بإجراء التعديلات الضرورية على ضوء ما وجهوه إليها من النقد، ثم عملوا على تطبيقها.

ظهرت في الجيش الألماني الهتلري اتجاهات جديدة كثيرة تحفز إلى الابتكار والإبداع في المجال الاستراتيجي وإلى تقدير القيمة الكبرى لخفة الحركة والمناورة وعمليات التطويق. إلا أن هزيمة سنة ١٩١٨ قد أعطت في الوقت ذاته أهمية كبيرة للدروس المستخلصة من تجربة الحرب العالمية الأولى. ولقد أدى توقف الهجوم الألماني ضد فرنسا في أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩١٤، إلى ظهور مشكلة (الحرب الدفاعية) التي اتخذت في الواقع طابعاً بالغ الأهمية، لأن أغلب القتال الذي دار على الجبهة الشرقية كان في الحقيقة قتالاً دفاعياً. ونظراً لبقاء الجيش الألماني سنة ١٩٣٣ وهو على حالة من الضعف، فقد احتلت مشكلات الدفاع، المكانة الأولى في تفكير هيئة أركان الحرب الألمانية. ولقد توافرت يقيناً لأفراد هيئة أركان الحرب الألمانية آراء وأفكار عن الدفاع، بأكثر مما تم تطبيقه وتنفيذه خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. ولقد ظهر واضحاً خلال سنوات الحرب بعدئذ ميل الضباط الألمان للاستناد إلى التحصينات بدرجة أكبر مما كان لهم من قبل، مع التوسع في أساليب التحصين ووسائله.

على أن الأهم من ذلك كله هو تلك الخبرة التي أمكن الحصول عليها، من استخدام الهجمات الجبهية. فقد أرغمت (حرب الخنادق) ١٩١٤ ــ ١٩١٨، القيادة الألمانية العليا للبحث عن اقتراب استراتيجي جديد، للوصول إلى المعركة الحاسمة. وقد أكد الاقتحام التكتيكي الجبهي ما سبق أن تنبأ به شليفن: «من أن هذا الاقتحام قد يرغم العدو على التقهقر، إلا أنه رغم تقهقره يبقى قادراً على العودة إلى القتال في مواقع جديدة». وإذن، فإنه من الضروري للحصول على نتائج حاسمة، اختراق خطوط العدو حتى العمق الذي يهدد طرق مواصلاته الخلفية بالخطر، وأن يحرم العدو من حرية العمل العسكري. وكان أول نموذج لاستراتيجية الاختراق الناجحة هو معركة جورليستارنو في أيار ــ مايو ــ ١٩١٥، إذ أمكن الوصول إلى نتائج كبيرة، وكان بالمستطاع أن تكون هذه النتائج أجل وأعظم لو سبقها إعداد للعمليات إعداداً كاملاً. وجدير بالذكر أنه لم يكد يمر اسبوع واحد على معركة جورليستارنو حتى قام الحلفاء بعملية اقتحام جبهي في آراس و لاباسيه. وهكذا كان الجانبان الحلفاء والألمان يمارسان في وقت واحد تجربة عمليات الاختراق، على ضوء ما يمكن تحقيقه منها، وعلى ضوء إمكان استثمار نتائجها في المجال الاستراتيجي. وكانت أكبر محاولة في هذا المضمار هي التجربة الطموحة لهجوم لودندورف في فرنسا، خلال فصل الربيع من سنة ١٩١٨، وهو الهجوم الذي حاول فيه لودندورف الوصول إلى نتيجة حاسمة قبل أن تجف موارد ألمانيا وتتفتت قوتها. إلا أنه لم يحقق نجاحاً استراتيجياً، وكل ما أمكن له إنجازه هو تشكيل جيب عميق داخل جبهة الحلفاء، وعجز عن إحداث أي تمزق خطير في هذه الجبهة. وكان فشل هجوم

الربيع لسنة ١٩١٨، وانهيار خطة شليفن سنة ١٩١٤، هما الموضوعين الرئيسين اللذين تركزت عليهما المناقشات العسكرية التي جرت في ألمانيا بعد سنة ١٩٢٠م. وقد أوجز رئيس مختصي المدفعية في عهد لودندورف كرافت فون ديلمنسجين هذا النقاش قبيل اندلاع نار الحرب العالمية الثانية بسنتين في كتابه (عملية الاختراق). وقد نشر هذا الكتاب بين كتب التعليم في الجيش الهتلري. وقد أبقى كرافت عقيدة شليفن القائلة: «بأن عملية الاختراق هي دائماً من أصعب الصور أو الوسائل للوصول إلى نتيجة حاسمة». ووضعها في نطاق محدود عندما قال: «**الاختراق هو تحرك تمهيدي قد ينزل بالعدو خسائر فادحة، إلا أن عمليات التطويق المتتالية هي التي تحقق النصر النهائي**». ومع هذا فقد أضاف كرافت: «**بأنه قد يكون من الصعب تجنب اللجوء إلى محاولة الاختراق في المستقبل، وعلى هذا، فإنه لن يكون هناك جيش، أي جيش، يستطيع احتكار نظريات الاختراق، واستثمارها حتى أبعد الحدود**». وكان الحل في هذه الدراسة، كما في سواها من الدراسات والأبحاث الألمانية، هو استعادة عامل المباغتة وتطوير القدرة الحركية بواسطة القوات الآلية (التكتيكية) والقوات المحمولة بالطائرات. وقد تعلم الجيش الألماني من خصومه في هذا المجال، أكثر مما تعلمه منهم في أي مجال آخر. إذ لم يتمكن الألمان من نسيان (اليومين الأسودين، ١٨ تموز ــ يوليو ــ و ١٨ آب ــ اغسطس ــ ١٩١٨) حيث اندفعت دبابات الحلفاء للأمام عند سواسون وأميان. وأكدت بهذا هزيمة ألمانيا. ولقد كان اقتحام الدبابات نصراً تكتيكياً عظيماً للحلفاء، بالرغم من أن مداه، أو بعده، الاستراتيجي بقي محدوداً. وقد عملت هيئة أركان الحرب الألمانية في سنة ١٩٣٠ على زيادة مثل هذه الإمكانات التكتيكية، باستخدام القوى الجوية مع قوات المدرعة. وكان الهدف الرئيسي هو تطوير التكتيك، حتى يؤدي هذا إلى إحياء استراتيجية شليفن للاختراق والإبادة، والتي بدا أنها فقدت قوتها في حرب المواقع ما بين أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩١٤ وسنة ١٩١٨م. **كان الهجوم الألماني على فرنسا سنة ١٩٤٠ لا يزال يتبع آراء شليفن في هذه الصورة ذاتها، ولو أن خطة شليفن لم تبعث إلى الحياة**. ذلك أن خطة الهجوم لسنة ١٩٤٠ تضمنت القيام بعملية اختراق لوسط جبهة الحلفاء (وهذا ما تم تنفيذه في سيدان يوم ١٤ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠) على أن يتبع الاختراق القيام بعمليتي تطويق: أولاهما في القتال ضد الجيوش الفرنسية والانكليزية التي في الشمال، حيث يتم دفع هذه الجيوش إلى الساحل البلجيكي وإلى منطقة القنال الانكليزي، والثانية هي توجيه الهجوم على خط سيدان ــ آبفيل بهدف دفع الجيوش الفرنسية إلى تحصينات خط ماجينو والحدود السويسرية. وكان هتلر على حق عندما أكد أمام الرايخستاغ على وجود فروق بين حملة سنة ١٩١٤ وحملة سنة ١٩٤٠. والواقع أن المرحلة الثانية من الحرب الفرنسية قد تضمنت بعض الملامح المماثلة لما جاء في خطة شليفن. على حين تماثل المرحلة الأولى ــ معركة بلجيكا ــ إلى حد معين ما تضمنته استراتيجية مولتكه الكبير في سيدان. ومع هذا فقد اعتمد تنفيذ المرحلتين على الاختراق الذي حققته الأفضلية الكبيرة التي للهجوم على الدفاع،

خلال تلك المرحلة التاريخية. **ولقد أثرت هذه الفرصة النادرة في الصورة العامة للاستراتيجية الألمانية. وكانت نظريات شليفن هي التي وجهت الفكر العسكري الألماني نحو اتجاه جديد للحرب الخفيفة الحركة. وبقي نفوذ شليفن وتأثيره في التاريخ العسكري الألماني للنصف الأول من القرن العشرين تأثيراً ممتازاً لا مثيل له.** ومع أن التقاليد العسكرية الألمانية قد وصلت في صعودها وارتقائها إلى مستوى عال جداً عن طريق جهوده ونشاطه الشخصي، إلا أنه توافرت مجموعة من الشواهد التي دلت على أن المدرسة الاستراتيجية الألمانية، قد فقدت أرضيتها المثالية، وأسسها الواقعية التي كانت دعامتها في حروبها السابقة. ولقد كان شارنهورست وجنيسناو مصلحين عسكريين، بقدر ما كانا مصلحين قوميين. لقد أرادا إصلاح الجيش البروسي، ليس فقط للاضطلاع بأعباء حرب التحرير ضد نابليون، بل لبناء (بروسيا الجديدة) أكثر تحرراً. وقد نظر هذان المصلحان إلى مشكلات الحرب من خلال تطلعاتهما إلى السلم الذي يتبع هذه الحرب. فوضعا في تقديرهما الاتجاهات الاجتماعية لأي تنظيم عسكري. كما جاء كلاوزفيتز ووضع نظريته: بأن الحرب ما هي إلا عمل سياسي، وأن السياسة والحرب لهما منطق واحد متماثل، وإن كان لكل أسلوبه اللغوي المغاير لأسلوب الآخر ــ متوافقاً في ذلك كل التوافق مع شارنهورست وجينسناو.

لقد أوقفت الفترة التي تلت مؤتمر فيينا ١٨١٥، كل المحاولات للإبقاء على الاتصال المباشر بين الجيش وبين القوى السياسية والاجتماعية الجديدة. واستعاد النبلاء البروسيون سيطرتهم على الجيش، هذه السيطرة التي كانت الدعامة الأساسية للملكية المحافظة في ألمانيا. والواقع أنه فيما عدا الاحتفاظ بالسلطات الملكية، وعلى الأخص الحقوق التي للملك في المسائل الغسكرية، فإن الضباط لم يسهموا بأي قسط في الشؤون السياسية، وبقوا بعيدين تماماً عن الآراء الجديدة لهذا القرن، القرن العشرين. وقد توافر لمولتكه الكبير الكثير مما توافر لكلاوزفيتز من موارد الثقافة العامة. وقد أثرت تلك الحقبة العاصفة من سنة ١٨٤٨ حتى سنة ١٨٧١ تأثيراً عميقاً في فكره. وكانت إجاباته على المشكلات السياسية التي عاصرها قد التزمت بالأسس المحافظة (التقليدية) بل كانت أكثر إغراقاً في هذا الاتجاه المحافظ من سياسة بسمارك الانتهازية. وقد عمل مولتكه الكبير على دعم سلطته ضد تدخل رئيس الوزراء في المسائل العسكرية، ولكنه تقبل في الوقت ذاته الزعامة السياسية لبسمارك. ولقد أسهم نجاح بسمارك في سياسته الداخلية والخارجية إسهاماً بعيداً في إعادة الجيش ثانية إلى مواقعه المحافظة القديمة، بعد أن حرره من الخوف من سيطرة البرلمان، ومن السيطرة الشعبية. وتبعاً لهذا، كان الجيش راغباً في أن يتبع الحكومة الامبراطورية في انقياد أعمى حتى بعد سنة ١٨٩٠، عندما تولى غليوم الثاني كل السلطات التي كان يمارسها غليوم الأول وبسمارك معاً. وكان من واجب شليفن، وهو المستشار العسكري الأول للتاج، أن يرفع صوته ضد ما يعرض سلامة ألمانيا وأمنها للخطر. وهو الخطر الذي أوجدته سياسة غليوم الثاني، من خلال (البرنامج البحري)، والذي دفع

بريطانيا للوقوف مع المعسكر المضاد لألمانيا . ولكن شليفن لم يحذر الحكومة من هذه السياسة ، مع أن موقف التسلح الألماني مثله كمثل خطط ألمانيا الحربية ، كان يفرض عدم تجاهل الموقف الدولي . وكانت خطة شليفن ـــ كما سبق ذكره ـــ قد استندت على أساس توقع أو افتراض أن تؤدي هزيمة فرنسا إلى دفع بريطانيا لالتماس طريق السلم. ولم يكن هذا التوقع أو الافتراض سوى أمل خادع . ولا سيما أن هيئة أركان الحرب الألمانية لم تضع أي احتمال للقيام بغزو انكلترا. ولو استمرت الحرب بين ألمانيا وروسيا بعد إتمام هزيمة فرنسا ، فإن بريطانيا تستطيع شل تجارة ألمانيا وصناعتها. فترغم ألمانيا بذلك إلى تعديل نظامها الاقتصادي والاجتماعي ، الأمر الذي كان شليفن يخشاه إلى حد بعيد .

لعل مما يثير الدهشة بدرجة أكبر ، هو أن شليفن لم يكن مسؤولاً عن دور الأسطول الألماني في برنامج الدفاع الوطني ، ولا معنياً بهذا الدور ، ذلك لأنه لم يكن من دور للأسطول في طابع الحرب التي وضع شليفن خطتها . وكان بناء الأسطول بهذا الحجم الكبير هو مضيعة للمال وللأفراد ، بل وكان هذا هو شعور الجيش في كل وقت ، ذلك لأن الجيش لم يكن يستطيع الحصول على كفايته من الاعتمادات المالية لتنظيم وتشكيل الفرق الجديدة ، وإمدادها بحاجتها من الضباط ، هذه الفرقة التي كانت لازمة لتنفيذ خطة شليفن. ولم يشك شليفن كما لم يبد قلقه من الاتجاهات الدولية التي أثارها برنامج بناء الأسطول ، هذا البرنامج الذي كان من المحتمل آن يدفع بريطانيا للتدخل عسكرياً في قارة أوروبا ، وإنزال جيش بريطاني على أرض القارة. ولقد فكر شليفن بدرجة أقل في مشكلات النظام القائم للحكومة الألمانية ، وعلى الأخص فيما إذا كان من الضروري للجيش أن يكون أقوى اتصالاً بالقوى الاجتماعية الجديدة ، حتى يكون له تأثيره القوي عندما تصبح الأمة في حاجة إليه . ولم يناقش شليفن إطلاقاً هذا الحكم (الأوتوقراطي لغليوم الثاني) . وقد عزف ـــ حتى في محيطه العسكري ـــ عن تقرير أن افتقار الامبراطور للمعرفة بالمسائل العسكرية ، قد يتسبب في تفتيت المملكة التي شكلها فريدريك الكبير .

لقد أحب غليوم الثاني أن يقود مناورات ناجحة بواسطة اقتحام القوات الراكبة (الفرسان) التي يتولى هو قيادتها. ولم يكن هذا هو كل شيء ، بل إن انتقاداته للتمارين التي كانت تقوم بها هيئة أركان الحرب ، قد كشفت عن قصور كفاءته العسكرية ، وقلة خبرته بشؤونها . وقد أوجدت آراء غليوم الثاني وأقواله نوعاً من القلق والخوف في صفوف الضباط ، وكانت محوراً للجدل الطويل ، والمناقشة المستمرة فيما بينهم. وعمل شليفن جاهداً لإيقاف سيل هذا الجدل والنقاش ، بحجة أن توجيه النقد للإمبراطور سيضعف من هيبة الملكية ، وهي الهيبة التي تستند إليها الروح المعنوية للجيش البروسي. ولم يهتز إيمانه الراسخ بالملكية حتى بعد تعيين مولتكه الصغير رئيساً لهيئة أركان الحرب . وإن كان هذا التعيين قد حمل شليفن على توجيه النصح والتحذير ، من أن خطورة الموقف

الاستراتيجي، بالنسبة لألمانيا، لا تسمح بأي إجراء عسكري ارتجالي، وغير دقيق التوجيه. وقد تسبب هذا الايمان الأعمى بالملكية المطلقة، في إبعاد شليفن عن إدراك الحقيقة القائلة بأن مشاكل الحرب هي أكثر عمقاً واتساعاً من أن يتم الاعتماد في حلها على الكفاءة العسكرية وحدها، وأنه ليس باستطاعة أي قائد حديث أن يقلد مارلبورو، أو فريدريك الكبير، أو نابليون في تولي السلطة السياسية والقيادة العسكرية في آن واحد، وبصورة مباشرة. ولقد باتت الشؤون السياسية والمسائل العسكرية على درجة عالية من التعقيد، فصارت المهارة في كل منهما تتطلب تجربة عملية طويلة، ولو أن حقيقة الحرب لم تتغير باعتبارها امتداداً للعمل السياسي. وليست الاستراتيجية العليا إلا محصلة للمهارة العسكرية المقترنة بالقدرة السياسية المبدعة. ولقد غابت هذه الحقيقة عن شليفن وتلاميذه، بينما عرفها تماماً أولئك الذين أوجدوا (الفكر الاستراتيجي الألماني). ولقد كان فشل (حرب الحركة) على الجبهة الغربية بعد معركة المارن، سبباً في دفع القادة العسكريين للإمبراطورية الألمانية الثانية (نظام حكم هتلر) إلى مواجهة ضغط السياسية والأحوال الداخلية والخارجية، وأثر هذا كله في إدارة الحرب. إذ ظهرت ضرورة استحداث نظام للتعبئة على أساس الحرب الشاملة مع إعداد نظام جديد لاقتصاد الحرب. ولقد استند شليفن في خطته للحرب على أساس (استراتيجية الحرب البرية). ولهذا لم يتدرب تلاميذ شليفن على فهم حقيقة الحرب عندما تأخذ بعدها العالمي، وهي الحرب التي يتم خوضها بأسلحة سياسية، واقتصادية، وسيكولوجية، جنباً إلى جنب مع أسلحة المشاة والمدفعية وسواها، سواء بسواء.

لقد ظن لودندورف أنه يستطيع بسهولة توجيه هذه القوى الجديدة، كما يستطيع توجيه الجيش. ولكنه باخضاعه الحكومة لأوامر القيادة العليا، قد حول ألمانيا إلى طريق (الديكتاتورية العسكرية). ومع هذا، فقد فشل الجيش في دعم الجبهة الداخلية، وإبقائها متماسكة.

لقد جعلت الثورة الألمانية لسنة ١٩١٨، ضباط الجيش الهدف المنطقي للحملات الشعبية، ومع أن الجيش لم ينس أبداً الإذلال الذي لحق به، فقد بقي القوة المحافظة المضادة للفترة القصيرة التي عاشتها الجمهورية الألمانية (جمهورية الويمر). ولقد آمن أصحاب العقول المتفتحة في الجيش الألماني، بأن خطأ لودندورف يجب ألا يتكرر ثانية. ولم يكن هذا في رأيهم يعني أن يتعاون الجيش مع هذه القوى الشعبية الجديدة، بل كان يعني أن يتعاونوا مع أية حركة سياسية، تمكنهم من حشد كل الجهود في إطار الاستراتيجية التي كانت هي المهيمنة أيام شليفن أي «الواجب غير السياسي». ولقد أدت هذه النظرية إلى إفساح المجال أمام هتلر لبلوغ القوة والسلطة في ألمانيا. والواقع أن القادة الألمان حصلوا من هتلر على كل الوسائل الكفيلة بإعادة حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨، ولكن بثوب جديد. غير أنهم لم يلبثوا أن تعلموا: «أن الحرب هي عمل من أعمال السياسة». وقادتهم السياسة النازية في هذه المرة إلى الهزيمة في حرب أعدوا لها العدة، على أساس تخطيط ناجح لاستراتيجية

(كاني)، ذلك لأن شليفن وأتباعه قد أغفلوا الحقيقة التاريخية، وهي أن قرطاجنة قد هزمت رغم انتصارات هاني بعل.

لم يتنبأ شليفن بالحرب الشاملة، ولو أنه خشي من أن تؤدي التغييرات الاجتماعية الأساسية إلى نوع من الحرب طويلة الأمد. كما انتابه القلق من أن تؤدي هذه التغييرات إلى أن يفشل الاستراتيجيون المعاصرون في المحافظة على أفكارهم ومكانتهم، مما أضاف ظلاً قاتماً على أفكاره وتعاليمه. ولقد اكتسب شليفن مكانته في التاريخ العسكري بفضل ما قدمه للفكر العسكري وبدوره باعتباره استاذاً للاستراتيجية، بالاضافة إلى قدرته القيادية في الحرب. لم يرتبك تفكيره قط بالاعتبارات الثانوية التي تجيء على هامش الحرب، ولم ينتابه الاضطراب في زحمة الأحداث، واستطاع المحافظة أبداً على هدوء طباعه. فكانت شخصيته المشعة تبعث قوة تلهب الحماسة في نفوس كل أولئك الذين كانوا يحيطون به. ولم يكن بين قادة الحرب العالمية الأولى من يمكن أن يتارن أو يوازن بعظمته. وكما حدث لشارنهورست فقد مات شليفن في وقت كانت تعد فيه ألمانيا أمراً هاماً شغله حتى آخر لحظة من حياته، في كانون الثاني — يناير — ١٩١٣، وهو حل المشكلات العسكرية لألمانيا. وليس غريباً أن يصفه الجنرال بيك رئيس أركان الحرب الألمانية، في الفترات التي أعادت فيها ألمانيا تسلحها من جديد، إذ قال: «لقد كان شليفن، الأول بين عمداء أساتذة الاستراتيجية».

الفصل السادس

إدارة الحرب

٨ ــ فون اريك لودندورف

آ ــ موقعة تاننبرغ واينستربورغ
ب ــ على جبهة الغرب

«برهنت تجارب الحرب على أنه لا يمكن الحصول على نصر حاسم وسريع، إلا إذا أمكن مهاجمة جانبي العدو دفعة واحدة» .

لودندورف

الوجيز في حياة الجنرال لودندورف
١٨٦٥ ــ ١٩٣٧ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٦٥	ولد لودندورف في كريزونيا من إقليم بوزتانيا .
١٩١٦	عين مساعداً للماريشال هندنبرغ .
١٩١٧	تولى قيادة الجبهة الغربية ، ونظم مجموعة الأعمال الهجومية ضد الحلفاء .
١٩٢٣	اشترك في ثورة مونيخ الفاشلة .
١٩٢٥	رشحه الحزب النازي لانتخابات الرئاسة ، وفشل ، فتولى قيادة الحرب الصليبية ضد (الكاثوليك واليهود والماسون) غير أن هتلر لم يدعمه . واستمر في صراعه هذا حتى وفاته .

Von Erich Ludendorff

٨ ــ فون اريك لودندورف

خرجت بروسيا من الحرب البروسية الفرنسية ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ م وقد حققت أهدافها في توحيد الشعب الجرماني (الألماني). وانتقل مركز الثقل من باريس إلى برلين. وفقدت فرنسا مكانتها القيادية التي احتفظت بها طوال قرون عديدة. وباتت ألمانيا هي قاعدة النشاط السياسي والاقتصادي والعسكري لأوروبا كلها. ولم تكن القضية بالنسبة لبروسيا هي قضية الوصول إلى هذا المركز القيادي، بقدر ما كانت قضية المحافظة عليه. فكانت الوحدة الألمانية هي وسيلة القوة لألمانيا وليست هدفاً في حد ذاتها، وانطلقت الحكومة الألمانية لتطوير قدراتها وإمكاناتها استجابة منها لمتطلبات الواقع الجديد، وتحقيقاً لتطلعات الشعب الألماني وأهدافه. وأخذت الجهود المبذولة في إعطاء ثمارها اليانعة، إذ لم يكد يمض عقد من الزمن، حتى وصلت ألمانيا إلى مركز متقدم في مجال الصناعة والتجارة[٨٣]. واقتحمت مجال المنافسة الخطرة مع باقي الدول الأوروبية، وخاصة انكلترا ــ التي نجحت باستمرار، وبفضل سيطرتها على مفاتيح البحار ــ في احتكار مركز الصدارة في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وبات من المتوقع أن تتحول المنافسة إلى عداء، والعداء إلى صدام، والصدام إلى حرب[٨٤]. وقد أدركت مدرسة الحرب الألمانية ــ التي كانت أداة قيام

---

(٨٣) تجدر الإشارة إلى أن مجموع القيمة لحجم عمليات التصدير والاستيراد الألمانية قد بلغ سنة ١٨٨٠ ــ أي بعد عقد من الزمن على قيام الوحدة ــ إلى ٥٠٠,٠٠٠ر٢٩٠ جنيه استرليني، ثم قفز هذا الرقم في سنة ١٨٩٠ حتى ١٠٠,٠٠٠ر٣٨٤ جنيه استرليني. وأصبح في سنة ١٩٠٠ ٨٠٠,٠٠٠ر٥٣٩، وفي سنة ١٩٠٧ ٩٠٠,٠٠٠ر٨٠٤، وتجاوزت هذه الأرقام الميزان التجاري الفرنسي ٢٠٠ر٢٠٠ر٥٠٦ جنيه استرليني، والولايات المتحدة ٢٠٠ر٩٠٠ر٦٨٣، وتقاربت مع بريطانيا التي كانت ٨٠٠,٠٠٠ر١٦٣ر١ جنيه استرليني. (إدارة الحرب ــ فوللر ــ ص٢٢٨ ــ ٢٢٩).

(٨٤) أكد الرئيس الأمريكي ويلسون هذه الحقيقة بقوله: «هل هناك بيننا هنا رجل أو امرأة، بل هل هناك طفل أيضاً، يجهل بأن سبب الحرب في عالمنا المعاصر هو التنافس الصناعي والتجاري؟ إن هذه الحرب ــ العالمية الأولى ــ لم تكن منذ بدايتها إلا حرباً تجارية وصناعية. إنها ليست حرباً سياسية». وكذلك ما قاله العقيد ويليام روبرتسون الذي أصبح ماريشالاً فيما بعد، عندما كان رئيساً للقسم الأجنبي في مخابرات وزارة الدفاع البريطاني: «إن أقوى دافع هو التنافس بين المشروعات التجارية والاستعمارية» المرجع السابق.

الوحدة الألمانية ــ هذا الواقع، فأخذت في العمل لتطوير مخططاتها واستعداداتها، لمجابهة كافة الاحتمالات، على نحو ما سبق عرضه.

كانت سياسة بسمارك منذ نهاية الحرب البروسية ــ الفرنسية ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ م وحتى استقالته في سنة ١٨٩٠، هي سياسة المحافظة على السلم الذي ربحته ألمانيا. ولقد حاول بسمارك تأمين هذا السلم عن طريق دعم الصداقة مع روسيا. كما عقد معاهدة دفاعية مع النمسا في سنة ١٨٧٩، بهدف عزل فرنسا، وهي المعاهدة التي عرفت باسم (التحالف المزدوج). وانضمت ايطاليا إلى هذه المعاهدة بعد عامين بسبب ضيقها من احتلال فرنسا لتونس. وأصبح التحالف المزدوج يحمل اسم (التحالف الثلاثي). وفي العام ١٨٨٨ م جلس غليوم الثاني على عرش ألمانيا، وأقال بسمارك بعد سنتين. ثم دخلت فرنسا في محادثات سرية مع روسيا، بسبب سياسة غليوم الثاني[٨٥] العدوانية تجاهها، واستمرت هذه المحادثات من سنة ١٨٩٣ حتى سنة ١٨٩٥ م، حيث تم الوصول إلى ما عرف باسم (التفاهم المزدوج أو الاتفاق المزدوج)★. وهكذا نشأ حلفان متعارضان. غير أن السلم استمر في القارة الأوروبية، لأن بريطانيا لم تنضم إلى أي حلف منهما. غير أن هذا الوضع الهادىء لم يستمر، بسبب تطور التجارة الألمانية بسرعة فيما وراء البحار، وبسبب نمو بحريتها التجارية التي أخذت في منافسة التجارة الانكليزية بدرجة كبيرة. وبالإضافة إلى هذا، فقد أقدم الامبراطور الألماني غليوم على زيادة القدرة البحرية ــ الحربية لألمانيا، ثم عزز قوتها من جديد سنة ١٩٠٠ لحماية التجارة الألمانية فيما وراء البحار، ولينتزع من فرنسا تفوقها البحري. وقد تم ذلك عندما كانت انكلترا غارقة في حرب جنوبي أفريقيا (حرب البوير). وقد أثارت هذه التدابير ضجة كبيرة في الصحافة البريطانية. فكانت تلك المنافسة هي أحد الأسباب الأولى للحرب، وكانت الثورة الصناعية هي العامل المحرض للمنافسة، إذ أن هذه الثورة، قد زادت إلى حد كبير من سكان البلدين المتنافسين، حتى أصبح سيف البطالة والمجاعة يتهدد الأقطار الصناعية لو أنها حرمت من التجارة.

عمل ملك بريطانيا ادوارد السابع[٨٦] على كسر طوق العزلة الذي طوق بريطانيا في أثناء حرب البوير، فقام في ربيع سنة ١٩٠٣ بزيارة رسمية لباريس، واستطاع كسب الباريسيين إلى جانبه. وتلت زيارته مفاوضات أدت إلى عقد اتفاق فرنسي ــ انكليزي في سنة ١٩٠٤، ثم إلى إبرام

---

(٨٥) غليوم الثاني: GuillaumeII ملك بروسيا وامبراطور المانيا، وهو ابن غليوم الاول. ولد في برلين ١٨٥٢ ــ ١٩٤١، تنازل عن الملك بعد الحرب العالمية الأولى. والتجأ إلى البلاد المنخفضة (هولندا).

★ الإتفاق المزدوج: Double-Entente.

(٨٦) إدوارد السابع: Edouard VII من مواليد لندن ١٨٤١ ــ ١٩١٠ م، أصبح ملكاً لبريطانيا سنة ١٩٠١، وهو ابن الملكة فيكتوريا. انتهت في عهده حرب الترانسفال (البوير)، وكان المحرض للتفاهم مع فرنسا.

معاهدة صداقة تحولت إلى حلف عسكري سري. وذكر السير ويليام روبرتسون[٨٧] بأنه قد نوقشت خطط التعاون مع فرنسا بين مدير العمليات العسكرية البريطاني، وبين الملحق العسكري الفرنسي في لندن سنة ١٩٠٥. ومما قاله: «أصبحت المباحثات بداية من سنة ١٩٠٦ وثيقة جداً ومستمرة، وتقوم بها هيئات الأركان العامة للجيشين بصورة مباشرة، حتى إن أعضاء الحكومة لم يكونوا هم وحدهم الذين يجهلون موضوعات هذه المحادثات، فحسب، بل إن وزارة الخارجية ذاتها لم تكن تعلم شيئاً عن نتائجها أيضاً، مع أنها هي التي أمرت بذلك». وهذا ما أكده وزير الخارجية البريطاني عندما كتب إلى رئيس الوزراء في سنة ١٩١١ مايلي: «إنني لا أعرف أبداً ما قرروه، فالموقف الذي تبنيناه هو منح الحرية المطلقة للحكومة، ولكن العسكريين يعرفون ما ينبغي عليهم عمله إذا أعطي لهم الاذن بذلك».

لقد عملت الحكومتان البريطانية والفرنسية، بموجب أحكام هذا الاتفاق، على تسوية خلافاتهما الاستعمارية. فقد تلقت بريطانيا العظمى حرية كاملة للعمل في مصر، مقابل حصول فرنسا على حرية العمل الكاملة في المغرب العربي الاسلامي. على أن تحترم سلامة مراكش ــ المغرب. ومع ذلك وقعت في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ سنة ١٩٠٤، اتفاقية كان الغرض منها تقسيم مراكش ــ المغرب بين فرنسا واسبانيا، وأرسلت نسخة منها إلى وزارة الخارجية البريطانية. وظهر بعدئذ أن هذا الاتفاق المشبوه كان هو المصدر الحقيقي لكل الشرور والمتاعب. ذلك أنه لم تمض فترة طويلة، حتى أخذت الصعوبات في الظهور تباعاً. ففي آذار ــ مارس ــ ١٩٠٥ م، اشتبه الامبراطور الألماني بأن تتحول المغرب إلى تونس جديدة، فضلاً عن أنه كان يجهل أمر المعاهدات والاتفاقات السرية، فسافر في زيارة رسمية لطنجة. وقد أثارت هذه الزيارة حملة صحفية عنيفة جداً، لدرجة اضطرت الرئيس الأمريكي إلى دخول الساحة الدولية، واقتراح عقد مؤتمر لحل المشاكل، وذلك في محاولة لمنع تدهور الموقف، ومنع قيام حرب بين الأطراف المتصارعة. وانعقد هذا المؤتمر فوق أرض الجزيرة في اسبانيا في كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٠٦ م، وتم فيه تأكيد تعهدات الدول الأوروبية بالمحافظة على استقلال المغرب. وتمكنت بريطانيا بعد ذلك بقليل من عقد اتفاق مع روسيا، حرر هذه الأخيرة من التهديد الذي كانت تجابهه في الشرق الأقصى، وسمح لها بتوجيه كل جهدها نحو أوروبا. وهكذا تشكل تحالف ثلاثي في مواجهة الحلف الثلاثي، الأمر الذي كان يعني أن ألمانيا ستواجه الحرب على جبهتين في حال اندلاع الحرب. وأثناء ذلك أثيرت في بريطانيا ضجة إعلامية أرهبت الحكومة والمعارضة والشعب بشأن تعاظم القدرة البحرية ــ الحربية

---

(٨٧) ويليام روبرتسون: Robertson William Robert قائد بريطاني (مشير ــ فيلد مارشال) وهو من مواليد ويلبون Welbourn ١٨٦٠ ــ ١٩٣٣، تولى قيادة الجيوش البريطانية من سنة ١٩١٦ حتى بداية سنة ١٩١٨ م.

الألمانية. الأمر الذي دفع الأميرال السير جون فيشر[88] إلى تحرير رسالة طويلة إلى الملك، جاء فيها: «هناك واقع مؤكد، وهو أن ألمانيا لم تضع أية بارجة ثقيلة في الترسانة البحرية، حتى هذا الشهر آذار ــ مارس ــ ١٩٠٧، كما أنها لم تبدأ منذ ثمانية عشر شهراً ببناء أية سفينة قتال أو طراد كبير. وإن كل الأسطول الحربي الألماني لا يكاد يعادل نصف قوة الطرادات المدرعة البريطانية». ثم عاد جون فيشر فكتب رسالة أخرى للملك في ٢١ آذار ــ مارس ــ ١٩٠٩ م جاء فيها: «لقد تحقق الآن الهدف الذي عملنا له بحزم طوال السنوات الأربع الماضية. وبات لدينا في مياهنا الإقليمية أسطولان كاملان. ويستطيع كل أسطول منهما التفوق بصورة مؤكدة على الأسطول الألماني الذي سيزج في الحرب. ولن يتغير هذا الوضع خلال سنوات. وأرجو أن تنام قرير العين في سريرك».

اطلع زعيم المعارضة البريطانية آرثر بالفور[89] على هذا الموضوع، ومع ذلك، فإنه قام بهجوم عنيف ضد ألمانيا، بهدف تحريض الشعب في أثناء الانتخابات العامة التي جرت في شهر كانون الثاني ــ يناير ــ سنة ١٩١٠ م، حتى يعطي الشعب أصواته لحزب المحافظين. وقد وجه إليه ونستون تشرشل حملة مضادة: «لأنه خلق التوتر بين دولتين كبيرتين دونما سبب». وعلى كل حال، فقد مات الملك ادوارد السابع يوم ٦ أيار ــ مايو ــ ١٩١٠، وخلفه على العرش ابنه جورج الخامس[90] غير أن الموقف عاد فتفجر في المغرب قبل أن يتم تتويجه، وذلك لأن فرنسا احتلت فاس فأكدت بذلك تصميمها على ضم المغرب لحكمها. فما كان من امبراطور ألمانيا ــ الذي لا زال يجهل المعاهدات والاتفاقات السرية ــ إلا أن أعلن بأن هذا العمل هو خرق فاضح لمعاهدة الجزيرة[91] وقد كان كذلك فعلاً. وعندما أرسل في اليوم الأول من تموز ــ يوليو ــ زورقاً مسلحاً (البانتر)★ إلى أغادير لحماية المصالح التجارية والرعايا الألمان في المغرب، اندفع لويد جورج البريطاني، في هجوم عنيف ضد ألمانيا. وتسارعت الأحداث، وظهر احتمال نشوب حرب عامة، غير أنه أمكن الوصول إلى اتفاق في تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ حصلت فيه فرنسا على حرية العمل في المغرب. وحصلت ألمانيا على جزء من الكونغو الفرنسي. وخرجت ايطاليا غاضبة، فأعلنت

---

(٨٨) جون فيشر: Fisher , Lord-John, Arbuthnot بارون كليفرستون أمير انكليزي ١٨٤١ ــ ١٩٢٠، تولى قيادة الأسطول البريطاني في بداية الحرب العالمية الأولى.

(٨٩) آرثر بالفور: Comte De Balfour, Arthur James رجل دولة انكليزي من مواليد ويتينغهام Whittingehame في ايقوسيا ١٨٤٨ ــ ١٩٣٠. أول رئيس مجلس وزراء من حزب المحافظين في بريطانيا ١٩٠٠ ــ ١٩٠٥، ووزير الخارجية البريطانية ١٩١٦ ــ ١٩١٩، وهو صاحب الوعد المشؤوم بمساعدة اليهود للهجرة إلى فلسطين.

(٩٠) جورج الخامس: Georges V من مواليد لندن ١٨٦٥ ــ ١٩٣٦ م، وهو ابن إدوارد السابع. تم تتويجه على ملك بريطانيا يوم ٢٢ حزيران ــ يونيو ــ ١٩١٠ م.

(٩١) الجزيرة: Algesiras هي المنطقة التي نزلتها قوات المسلمين جنوبي الأندلس، وأعطوها هذا الاسم وبها مدينة قادس، ولها خليج يطل على مضيق جبل طارق، وعقد بها مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ لمعالجة قضية المغرب.

★ البانتر: Panthers.

الحرب على الدولة العثمانية، ودفعت قواتها لاجتياح طرابلس وبرقة (ليبيا) واحتلت رودس وبعض جزر الدوديكانيز، حتى لا تقوم فرنسا باحتلال ليبيا بحجة حماية تجارتها ورعاياها، **هذا الاحتلال الذي كان يتم باستمرار تحت هذه الذريعة على حساب أقطار العالم العربي الإسلامي في معظم الأحيان؟... وبما أن روسيا هي عضو في التحالف الثلاثي الآن، فإن أطماعها التوسعية على حساب الدولة العثمانية الإسلامية، باتت تجد ظروفاً أكثر ملاءمة مما كانت عليه في سنة ١٨٧٧ م. وكانت أطماعها موجهة لتحقيق ثلاثة أهداف: القضاء على وجود المسلمين في أوروبا، والاستيلاء على القسطنطينية (اسلام بول)، وإضعاف النمسا معنوياً، بتخريب رصيدها في البلقان، الأمر الذي يضعف ألمانيا في الوقت ذاته.** وكانت الوسيلة التي صممت على استخدامها هي الدولة البلقانية وبخاصة صربيا وبلغاريا، وكانت الأولى قد حصلت على استقلالها عن الدولة العثمانية سنة ١٨٧٨، أما الثانية فقد بقيت تابعة للدولة العثمانية. غير أن استمرار التحريض الأوروبي — الروسي دفع أمير بلغاريا فرديناند إلى إعلان استقلال بلاده في ٥ تشرين الأول — اكتوبر — ١٩٠٨، كما أعلن نفسه ملكاً. وقامت النمسا — هنغاريا بضم البوسنة والهرتسك إليها. وأفادت روسيا من الفرصة التي عملت من أجلها، فأخذت في العمل لتوحيد الدول البلقانية تحت زعامتها. ونشرت بين صفوفهم المخاوف من امتصاص النمسا التدريجي لهم، إلا إذا تخلوا عن صراعاتهم الداخلية، واتحدت قواتهم للدفاع المشترك. وحققت روسيا هدفها بتشكيل (عصبة البلقان). وبما أن تركيا وايطاليا كانتا في حالة حرب في هذه الفترة، على أرض طرابلس وبرقة (ليبيا)، فقد أعلنت مونتينيغرو[٩٢] الحرب على العثمانيين، وانضمت إليها بلغاريا وصربيا واليونان. واستطاعت قوات هؤلاء الانتصار على قوات العثمانيين. وعقدت هدنة في ٣ أيلول — سبتمبر — ثم وقعت معاهدة للسلم في لندن يوم ٣٠ أيار — مايو — ١٩١٣. وما إن تم ذلك حتى تخاصم المنتصرون على اقتسام أسلاب المهزوم. فانقض البلغاريون على الصربيين واليونانيين، ودخل الرومانيون حلبة الصراع، واستعاد العثمانيون أندرينوبل[٩٣] وهزمت بلغاريا. وعندما انتهت حرب البلقان الثانية بمعاهدة بخارست في ١٠ آب — اغسطس — كان ظل العثمانيين قد انحسر عن أوروبا، بحيث لم يبق لهم فيها سوى أندرينوبل والقسطنطينية (اسلام بول) وضاحيتها، وشبه جزيرة غاليبولي.

استمر التوتر في تصاعد مستمر، حتى أن العقيد هاوس السفير المتجول للرئيس الأمريكي

(٩٢) مونتينيغرو: Monténègro إقليم قديم في البلقان، استقل عن الدولة العثمانية بموجب معاهدة برلين لسنة ١٨٧٨، ثم أصبح مملكة سنة ١٩١٠ م، وانضم إلى يوغوسلافيا سنة ١٩١٩، وأصبح اليوم إحدى الجمهوريات الاتحادية اليوغوسلافية، وعاصمته تيتوغراد، ومساحته ١٤ ألف كيلو متر مربع.

(٩٣) أندرينوبل: Andrinople وفي اللغة التركية أدرنه Édriné وهي مدينة تقع في تراقيا الأوروبية. بقيت من بلاد العثمانيين المسلمين منذ سنة ١٣٦٠ م. واستولى عليها الروس في سنة ١٨٢٩ م، وأرغم قيصر روسيا العثمانيين فيها على التوقيع على معاهدة الاعتراف باستقلال اليونان.

ويلسون نقل إلى رئيسه أثناء إقامته في برلين في ربيع سنة ١٩١٤ ما يلي: «إن ألمانيا كلها مشحونة بالكهرباء، وأعصاب الناس متوترة للغاية. وستنقض فرنسا وروسيا على ألمانيا والنمسا بمجرد موافقة بريطانيا على ذلك». وكانت روسيا تخشى أن تسحب بريطانيا موافقتها. فكتب سفير روسيا في لندن بنكندورف إلى وزير خارجيته سازانوف ما يلي: «قد يكون من المحال بقاء التفاهم الانكليزي ـــ الروسي، إذا ما عادت انكلترا وتفاهمت مع ألمانيا». وقد استشهد في الوقت ذاته بالمحاولات الألمانية، لخرق التفاهم الروسي ـــ الانكليزي. وكان الشيء الوحيد الذي تخشى روسيا حدوثه، هو التأجيل، بعد أن وصل التوتر ذروته.

كان امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف(٩٤) قد بلغ الرابعة والثمانين من عمره. وكان ولي عهده الأرشيدوق فرانسوا فرديناند(٩٥) يعارض بشدة قيام صربيا الكبرى في حين كانت روسيا مصممة على اجتذاب الصربيين، واخضاعهم لروسيا، وإبعادهم عن فيينا، مهما بلغ الثمن. وكان هذا هو الموقف عندما اغتيل الأرشيدوق فرانسوا وزوجته في يوم ٢٨ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩١٤ من قبل فدائيين صربيين في سيراجيفو(٩٦). وكانت صربيا قد تلقت تأكيداً من روسيا بأنها لن تتخلى عنها في هذه المرة، وفقاً لما ذكره بوغيتغيتش القائم بأعمال صربيا في ألمانيا، والذي كتب بالاضافة إلى ذلك: **«وإن ما هو أكثر أهمية من كل هذا، هو أن صربيا كانت قد تلقت تأكيداً بأن الحرب ضد ألمانيا والنمسا قد تقررت، وأن اغتيال ولي عهد عرش النمسا قد أتاح الفرصة الملائمة لبدء الحرب، لأن انكلترا وفرنسا كانتا قد قبلتا أن تقودهما روسيا في النزاع فقط. وهو بذاته، ومن ذاته، ليس إلا نزاعاً محلياً بين النمسا وصربيا».**

كان باستطاعة بريطانيا وحدها ايقاف الوضع المتدهور، ومنع وقوع الحرب، لو أن وزير خارجيتها حذر روسيا وفرنسا من أن بريطانيا لا تهتم بالنزاع، وأنها تحتفظ بحرية عملها في كل ميدان من ميادين الصراع. غير أن ذلك كان يتطلب من بريطانيا ألا تكون متورطة بالتزامات، تجعل من المحال عليها التراجع والانسحاب. ولكنها في الواقع كانت متواطئة ومتورطة منذ سنة ١٩٠٤، عندما تحالفت بصورة سرية مع فرنسا وروسيا، وهو التحالف الذي لم يكن، حتى البرلمان البريطاني، يعرف عنه شيئاً. وعلى كل حال، فقد وقع في بلغراد إنذار نمساوي يوم ٢٣ تموز ـــ يوليو ـــ ١٩١٤

(٩٤) فرانسوا جوزيف: Francois - Joseph امبراطور النمسا وملك هنغاريا، ولد في فيينا ١٨٣٠ ـــ ١٩١٦، تولى الملك في بلاده سنة ١٨٤٨. وقد ثارت ضده إيطاليا وهنغاريا سنة ١٨٤٩، ثم وقعت الحرب الإيطالية سنة ١٨٥٩، واستقلت إيطاليا. ثم وقعت الحرب البروسية ـــ النمساوية، ثم شكل الحلف الثلاثي سنة ١٨٧٨ حتى جاءت الحرب العالمية الأولى.

(٩٥) فرانسوا فرديناند: François - Ferdinannd الأرشيدوق وريث عرش النمسا ١٨٦٣ ـــ ١٩١٤. اغتيل وزوجته في سيراجيفو، فكان اغتياله هو السبب المباشر لإندلاع نار الحرب العالمية الأولى.

(٩٦) سيراجيفو: Saraïevo = Sarajevo مدينة يوغوسلافية، عاصمة البوسنة والهرسك Bousnie - Herzégovine على نهر البوسنة، اشتهرت بحادثة اغتيال ولي عهد النمسا.

مدته ٤٨ ساعة. وأعلن وزير خارجية روسيا: «إن هذا الإنذار هو عمل عدواني لا سابقة له، وأن الوسيلة الوحيدة لمنع وقوع الحرب مع ألمانيا هو إفهامها بأنها ستواجه القوى المتحدة للتحالف». واستنفرت روسيا قواتها جزئياً، وألحت ألمانيا على تسوية هذه المشكلة بين النمسا وصربيا فقط. وفي يوم ٢٥ تموز ــ يوليو ــ ردت صربيا على إنذار النمسا. وبما أن الرد لم يكن كاملاً، فقد أصدرت النمسا مرسوماً بإعلان النفير العام. وفي اليوم التالي تم استدعاء سفير بريطانيا في برلين لمقابلة مستشار ألمانيا، حيث تم إبلاغه: «بأن ألمانيا ستحترم سلامة فرنسا، لو انتصرت في الحرب، إذا ما وقفت بريطانيا على الحياد» غير أن الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح، وكلفت ألمانيا سفيرها في بيترسبورغ في يوم ٣١ تموز ــ يوليو ــ بتوجيه إنذار إلى الحكومة الروسية، للمطالبة بوقف النفير العام خلال ثماني عشرة ساعة، وإلا فإن ألمانيا ستستنفر كل قواتها. غير أن روسيا لم ترد على هذا الإنذار. ودخلت ألمانيا وروسيا الحرب في الأول من آب ــ اغسطس ــ ١٩١٤. وأصدرت فرنسا المرسوم بإعلان النفير العام. وفي ٢ آب ــ اغسطس ــ أعلنت ايطاليا حيادها، وأعادت بهذا الحلف إلى شكله البدائي (الأولي). واخترقت دورية من الخيالة الألمانية (الفرسان) حدود اللوكسمبورغ. وقدم وزير ألمانيا في بروكسل إلى الحكومة البلجيكية مذكرة، طلب فيها السماح للقوات الألمانية بالمرور من بلجيكا. ورفضت بلجيكا هذا الطلب. وفي صبيحة اليوم التالي، وجه ملك بلجيكا نداء شخصياً إلى ملك انكلترا لحماية بلاده. وفي الساعة ١٨٫٤٥ من هذا اليوم ٣ آب ــ اغسطس ــ أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا. وبعد ساعات أعلنت الحرب على بلجيكا. فما كان من بريطانيا إلا أن أعلنت الحرب على ألمانيا في منتصف ليل ٤ آب ــ اغسطس، وأعلنت النمسا الحرب على روسيا يوم ٦ آب ــ اغسطس، ثم انضمت الدولة اليابانية إلى دول الاتفاق يوم ١٥ آب ــ اغسطس، ثم انضمت الدولة العثمانية إلى جانب الدول المركزية (ألمانيا والنمسا) في ٩ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩١٤. وبدأ العالم يحترق بلهيب الحرب الكونية العظمى التي شملت ٣٣ دولة ضمت معظم سكان العالم.

كانت الدول التي اشتركت في الحرب قد نظمت قواتها وأعدتها، وفقاً للمبادىء والنظريات التي كانت هي المهيمنة في القرن التاسع عشر. وكانت تعبئة القوات بالرجال تتم على أساس الخدمة الإلزامية العامة التي كانت تتراوح مدتها ما بين السنتين والأربع سنوات، حسب أوضاع الدول، وما يتوافر لها من قدرات بشرية. وبعد انتهاء الخدمة الإلزامية للمكلفين، كان يجري تسجيلهم في صفوف الاحتياطيين. وقد سمح أسلوب التعبئة هذا بالاحتفاظ بجيوش غير كبيرة نسبياً في أيام السلم، وبتكديس احتياطات كبيرة ومدربة لاستخدامها في حالة الحرب. وكانت بريطانيا تعبىء جيشها في أيام السلم عن طريق التطويع. وتألفت القوات المسلحة في معظم البلدان من قوات برية، ومن أسطول حربي. وكانت نسبة كل صنف داخل القوات البرية كما يلي: المشاة من ٧٠ إلى ٧٥ بالمئة

والخيالة من ٥ إلى ٨ بالمئة، والمدفعية من ١٥ إلى ١٧ بالمئة، والهندسة والقوات المساعـدة من ٢ إلى ٧ بالمئة. ومن هنا يظهر أن كافة الجيوش كانت تعتمد على المشاة بالدرجة الأولى لتنفيذ كافة الواجبات والأعمال القتالية. ولقد توافر لدى الدول الكبرى عشية الحرب العالمية الأولى القوات المسلحة التالية:

اسم الدولة	تعداد الجيش في السلم	الاحتياطات المدربة	ملاحظات
انكلترا	١٧٢,٠٠٠ رجل	١,٠٢٣,٠٠٠ رجل	ـ جديـــر بالذكـــــر أن امبراطـــــور النمسا
فرنسا	٨١١,٠٠٠ رجل	٥,٠٦٧,٠٠٠ رجل	فرانسوا جوزيف قد عمل في سنة ١٨٦٧ على
روسيا	١,٣٦٠,٠٠٠ رجل	٥,٦٥٠,٠٠٠ رجل	تقسيم السلطة بين النمسا ـــ هنغاريا وأوجد النظام
النمسا ـــ هنغاريا	٤١٠,٠٠٠ رجل	٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل	الثنائي تحت التاج الامبراطوري
ألمانيا	٧٨٨,٠٠٠ رجل	٤,٩٠٠,٠٠٠ رجل	-- فن الحرب (ستروكوف) ١/٣٢٣

أعارت الدول الكبرى اهتماماً كبيراً لتطوير القوات البحرية، واعتبرت أن القدرة القتالية للأسطول تتعلق قبل كل شيء، بعدد البوارج الثقيلة وبالغواصات، علاوة على بوارج السطح المختلفة. وكان الأسطول البريطاني من أقوى الأساطيل قبل الحرب. وكانت الأساطيل التابعة لدول حلف التفاهم (انكلترا وفرنسا وروسيا) أقوى بكثير من أساطيل دول الحلف الثلاثي. الأمر الذي سمح لدول الحلف الأول بالحصول على السيطرة البحرية. ولم تعرف حتى تلك الفترة أنواع أخرى من القوات المسلحة غير القوات البرية والقوات البحرية. فالطيران كان حديث العهد، ولهذا فإنه لم يعتبر من صنوف القوات، بل اعتبر على أنه سلاح فني واجبه الاستطلاع والارتباط. وكانت البنية التنظيمية لمعظم الجيوش الأوروبية قائمة على التنظيم الثنائي: فاللواء يتألف من فوجين والفرقة من لواءين والفيلق من فرقتين. وكانت فرقة المشاة مكونة في الدول المختلفة، على النحو التالي:

الفرقة	التعداد	الكتائب	الرشاشات	المدافع الطويلة	المدافع القصيرة (قذاف)
الروسية	٢١,٠٠٠	١٦	٣٢	٤٨ (٧٦ مم)	—
الفرنسية	١٦,٠٠٠	١٢	٢٤	٣٦ (٧٥ مم)	—
الألمانية	١٦,٦٠٠	١٢	٢٤	٥٤ (٧٧ مم)	١٨ (١٠٥ مم)

وقد وجد في فيلق المشاة بالإضافة إلى فرقتي المشاة، فوج خيالة، وفوج مدفعية، ومفرزة

طائرات مؤلفة من ست طائرات أو أكثر، ووحدات إشارة وهندسة وشؤون إدارية. وكان فوج المدفعية العائد للفيلق مسلحاً بمدافع قذافة (هاوتزر) من عيار ١٢٢ مم في الفيلق الروسي و١٥٠ مم في الفيلق الألماني. وأما في الفيلق الفرنسي فكان يتألف من ٤٨ مدفعاً عيار ٧٥ مم. أما أفواج المشاة فلم تكن تملك مدفعية خاصة بها. وكانت كل وحدات المشاة في جميع الدول مسلحة بالبنادق المجهزة بالمخازن، وذات العيار ٧٫٦٢ وحتى ٨ مم، والتي يصل مداها حتى ٤ أو ٥ كم. بالإضافة إلى عدد قليل من الرشاشات الثقيلة. وقد تدرب الجنود على خوض الأعمال الهجومية في تراتيب قتال متراصة، ودون مطابقة بين هذه التراتيب والأرض. أما عند الهجوم على دفاع محضر، فكان المشاة يزيدون من عمق الترتيب القتالي. فكانت فرقة المشاة تضع فوجين في الخط الأول، وفوجاً أو فوجين، إذا كان تشكيلها رباعياً، في الخط الثاني. وتكون الترتيب القتالي لأفواج الخط الأول من عدد من سلاسل المشاة المتراصة والتي كانت تتحرك خلف بعضها على مسافة ٥٠ متراً تقريباً. وقد شكلت الاحتياطات للتعويض عن الخسائر، وللاحتفاظ بالقوة الدافعة لقوات الهجوم. وقد دعي هذا التنظيم القتالي باسم (موجات سلاسل المشاة).

○

سبقت الحرب العالمية الأولى (الكونية العظمى) مجموعة من التطورات التقنية التي كان لها تأثيرها الكبير على مسيرة الأعمال القتالية، ولعل من أهمها ثلاثة اختراعات في مجال السلاح وهي: استخدام بندقية التكرار ذات العيار الصغير، والتي ترمي دون دخان، وتحسين الرشاش، واستخدام مدفعية الرمي السريع. ففي حوالي سنة ١٨٧١ م، حققت البندقية ذات الطلقة الواحدة، والتي تلقم من المغلاق، درجة كبيرة من الفاعلية، حتى كانت المرحلة التالية التي حولتها إلى بندقية تكرار أو بندقية ذات مخزن للطلقات. وكانت الفكرة قديمة جداً، غير أنها لم تتحقق بكاملها إلا باستخدام الغلاف المعدني للطلقات، الذي أنقص إلى حد كبير الاستعصاءات التي كانت تحدث في المغلاق. وكانت ألمانيا هي أول دولة أوروبية استعملت البندقية ذات الرمي التكراري، إذ زودت في سنة ١٨٨٤ بندقية الموزر★ نموذج ١٨٧١ بمخزن للطلقات. وكان المخزن عبارة عن أنبوب أدخل في الحاضن تحت السبطانة، وكان يحتوي على ثماني طلقات. وفي سنة ١٨٨٥، وضعت فرنسا بندقية شبيهة لها، وهي بندقية لوبيل★★ التي استخدمت البارود دون دخان. ثم استخدم النمساويون في سنة ١٨٨٦ بارودة المانليشر* وهي مزودة بعلبة (مخزن) أمام الجسير وتحت علبة المغلاق. وقد تبنى

★ الموزر: Mauser.

★★ لوبيل: Lebel.

* المانليشر: Mannlicher.

الانكليز بعد سنتين بارودة لي ـ متفورد** عيار ٧٫٥ مم، وهي بندقية ذات مخزن تتسع لثماني طلقات (أصبحت عشرة فيما بعد). وفي حوالي سنة ١٩٠٠، كانت كل الجيوش تملك بنادق ذات مخازن، متقاربة الفاعلية والتأثير، وتتراوح عياراتها بين ٦٫٥ و ٧٫٨ مم، وكانت كلها مجهزة بالمغلاق المتحرك، وتستخدم البارود عديم الدخان، ومزودة بموجه للمدى من أجل الرمي حتى مسافة ألفي متر. وفي هذه الفترة ذاتها تم تطوير الرشاش والمدفع إلى جانب التوسع باستخدام القاطرات، وأجهزة الاتصال، مما قدم للحرب وسائطها الحديثة.

---

* * لي متفورد : Lee - Metford .

آ ـ موقعة تاننبرغ واينستربورغ

لقد كان لودندورف هو من خيرة القادة الألمان الذين استوعبوا تماماً انعكاس هذه التطورات على ميدان المعركة، هذا إلى جانب استيعابه الكامل لمعطيات المذهب العسكري الألماني. فمضى يشق طريقه في القيادة، منتظراً اللحظة المناسبة، لوضع دراساته وخبراته موضع التجربة العملية. وعندما تلبدت سماء أوروبا بغيوم الحرب، كان لودندورف يعمل في قيادة الجيش الألماني الثامن. وفي يوم ٢٢ آب ـ اغسطس ـ ١٩١٤، وبينما كان ينتقل من نامور إلى فافر وصلته رسالة سرية خاصة من القائد العام فون مولتكه الصغير أبلغه فيها خبر تعيينه رئيساً لهيئة أركان هذا الجيش في بروسيا الشرقية. وتضمنت رسالة مولتكه ما يلي: «**إنها لمهمة جديدة عسيرة الوضع في حالتها الراهنة، ألقي بها على عاتقك. إنها في الواقع مهمة أصعب من المهمة التي كنت قد أوكلتها إليك فيما سبق، أي مهمة الاستيلاء على موقع لييج الحصين. وإنني لا أستطيع حقاً أن أعهد بها إلى شخص آخر غيرك، فأوليه مثل هذه الثقة المطلقة التي أوليتك إياها في ظروف أحسبها جد خطيرة. ويقيني إنه لربما، بما عهدته فيك من الصفات، أو الميزات، تستطيع إنقاذ الموقف الراهن والدقيق، على جبهة الشرق. ومعذرة إن أنا استدعيتك من مهمة يبدو فيها تنفيذ القرار أكيداً، بمعونة القدر، لأكلفك بهذه المهمة الخطرة. بيد أن واجبك الوطني والعسكري يفرضان عليك الاضطلاع بهذه المسؤولية الكبرى، وأن تتحمل أعباء مثل هذه التضحية الجديدة بعزم وإقدام، من أجل عظمة الوطن الألماني الكبير**».

وصل لودندورف في الساعة الثامنة عشرة من اليوم ذاته إلى مقر القيادة العليا في كوبلنز حيث اجتمع بالقيصر الامبراطور غليوم الثاني والقائد فون مولتكه الصغير وعرف أن الفيلد ماريشال هندنبورغ، قد استدعي إلى الخدمة من جديد، ليتولى قيادة الجيش الثامن. وشاهد لأول مرة في محطة هانوفر يوم ٢٣ آب ـ اغسطس ـ الساعة الثالثة صباحاً، فون هندنبورغ وهو يصعد عربة القطار التي كان يستقلها هو بالذات. ووصل القائدان إلى مارنبورغ في الساعة الرابعة عشرة،

حيث تسلما قيادة الجيش الثامن الذي كان قد مني بهزيمة أولى في معارك كومبيين[٩٧] على أيدي القوات الروسية، وتراجع منسحباً إلى ما وراء نهر فيستول.

لقد كانت خطورة الموقف الذي جابهه لودندورف على جبهة بروسيا الشرقية، ناجمة عن التباين الكبير في موازين القوى، فبينما كان عدد أفراد الجيش الألماني الثامن لا يزيد على ١٦٠ ألف جندي، كانت روسيا قد نجحت في زج جيشين عبرا حدود بروسيا في ١٥ آب ــ اغسطس ــ الجيش الأول بقيادة سامزانوف وقوته ٢٥٠ ألف مقاتل. ووصل في تقدمه حتى جنوب حدود البحيرات. أما الجيش الثاني فكان بقيادة زيننكامف وقوته ٣٠٠ ألف مقاتل، ووصل في تقدمه حتى الأطراف الشمالية للبحيرات (بحيرات مازوري)[٩٨]. وكان مما زاد من خطورة الموقف العوامل التالية:

أولاً: ضعف القوات النمساوية ــ الهنغارية، والناجم عن سوء تقدير الموقف لقدرة القوات الروسية. ذلك أنه عندما أعلنت الحرب في بداية شهر آب ــ اغسطس ــ كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش النمساوي الهنغاري واثقاً كل الثقة من قدرة قواته وكفاءتها. ولذا بادر فوراً إلى إطلاق هجومه باتجاه مدينة لوبلن. غير أن حشد القوات الروسية جاء بأسرع مما كان متوقعاً له. ونجح القائد العام للجيوش الروسية الغراندوق نيقولاي بزج جيشين كبيرين ضد القوات النمساوية ــ الهنغارية، ودفعها على اتجاه لمبرغ ثم تابع التقدم ــ بناء على طلب فرنسا ــ لمواجهة القوات الألمانية.

ثانياً: سرعة تحرك القوات الروسية، إذ أن روسيا استثمرت بصورة جيدة كل القروض الفرنسية لتنظيم شبكة حديثة من الخطوط الحديدية، من أجل سرعة حشد القوات ضد ألمانيا.

ثالثاً: ضعف الستارة الدفاعية في بروسيا الشرقية؛ ويذكر أن فون مولتكه الصغير كان قد اقترح زج أربعة فيالق من المشاة وفرقة من الفرسان وثلاث فرق احتياطية، علاوة على قوات بروسيا الإقليمية. غير أن الحكومة رفضت طلبه، واكتفت بتخصيص مبلغ ٣٠٠ مليون مارك، في موازنة سنة ١٩١٣، لدعم المواقع المحصنة الكبرى ومنها في تورن وغراودنز، مع تنظيم خط دفاعي في منطقة البحيرات، شمال موقع لوتزن الصغير وجنوبه.

---

(٩٧) كومبيين: Compiegne مقاطعة في واز، تقع على نهر واز Oise اشتهرت بغابتها الجميلة، وبها قصر تاريخي جميل شيد في معظمه أيام الملك لويس الخامس عشر، وأكمل في عهد نابليون بونابرت. ويذكر أن جان دارك قد أسرت وسجنت في غابة كومبيين من قبل البورغونيون سنة ١٤٣٠ م. كما تزوج نابليون بونابرت من زوجته ماري لويز في غابة كومبيين. ووقعت فيها المعاهدة الفرنسية ــ الهولندية لغزو بلجيكا سنة ١٦٣٥ م. كما وقعت فيها اتفاقية بيع جزيرة كورسيكا لفرنسا ــ من قبل إيطاليا ــ سنة ١٧٦٨ م. وأقام فيها الألمان معسكراً لاعتقال السياسيين في الحرب العالمية الثانية.

(٩٨) مازوري: Mazurie = Masurie إقليم بولوني، وكان فيما مضى من أقاليم بروسيا الشرقية، ويشكل مع إقليم وارمي Warmie ما يعرف باسم إقليم بوميرانيا المازوري Poméranie - Mazorienne.

ولقد ظهرت خطورة هذا الموقف بكل أبعاده عندما برز احتمال تقدم الجيش الروسي الجنوبي نحو دويتش آيلو ليقطع حتماً خطوط إمداد القوات الألمانية، وطرق مواصلاتها. مع احتمال تقدم قوات روسية أخرى أيضاً من فارصوفيا (وارسو) باتجاه سيليزيا، مهددة بذلك هذه المنطقة الصناعية، ومواردها الغنية، ومصانع الأسلحة والذخائر فيها. وكان هذا هو الموقف الذي جابهه لودندورف يوم وصوله إلى مقر قيادته في دويتش آيلو يوم ٢٤ آب ــ اغسطس.

كان الجيش الألماني الثامن الذي تولى لودندورف رئاسة هيئة أركان حربه يتشكل من: الاحتياط العام لكونيسبرغ، والفيلق الأول والفيلق السابع عشر، وفيلق الاحتياط الأول، وفرقة الاحتياط الثالثة، وفرقة الفرسان. وكانت هذه القوات كلها تراجعت أمام ضغط جيش ريننكامف. أما الفيلق العشرون المعزول، فكان قد تراجع بدوره من أمام جيش سامزانوف، واتجه نحو غلغنبورغ. غير أن الفيلق الأول كان قد تقدم لدعمه بعد وقت قصير، بعد نقله بالقطار، ووقف إلى جانب الفيلق العشرين. وجدير بالذكر أن هذا الإجراء قد تم بناء على أمر أصدره لودندورف، عن طريق القيادة الألمانية العليا، لدى مروره في كوبلنز، وذلك بعد أن بحث الموقف على الجبهة الشرقية بصورة دقيقة.

عندما وصل هندنبورغ ولودندورف إلى مقر قيادة الجيش الثامن، اطلعا على خطة العمليات الروسية والتي تم الحصول عليها من أحد الضباط الروس الأسرى. وكانت هذه الخطة تتضمن ما يلي: «يجب على جيش ريننكامف الالتفاف من حول بحيرات مازوري من الشمال، ثم السير باتجاه اينستربورغ ــ انغربورغ، للهجوم على القوات الألمانية، فيما وراء نهر انغراب. بينما يجتاز جيش النارو خط اورتلسبورغ ــ لوتزن لضرب القوات الألمانية من الجانب». وظهر واضحاً أن الروس يعتمدون على القيام بحركة تطويق للجيش الألماني. **ودرس القائدان هندنبورغ ولودندورف موقف القوات الروسية فتبين لهما ما يلي: «كانت هذه القوات منهكة للغاية بسبب قيامها بمسيرات شاقة وطويلة عبر بولونيا، وكانت معداتها وسدنة أسلحتها تتقدم بصعوبات كبيرة على الطرق الرملية والدروب الضيقة والصعبة. وكان من العسير عليها الحصول على تموينها من البلاد التي كانت تمر فيها. وقد نفذ ما لديها من الخبز وحتى علف الرواحل»**. ووضع لودندورف فكرته للإفادة من انفصال الجيشين الروسيين وتباعدهما المؤقت، لدحرهما إفرادياً، وعلى التتابع. وكتب عن ذلك: «**لقد تبدت فطرياً لكل ضابط من ضباط هيئة الأركان الألمانية فكرة استغلال واقع الانفصال الطارىء بين الجيشين الروسيين، وإمكان الإفادة من هذا الوضع الجديد**». ولما كان جيش سامزانوف أكثر تهديداً وأشد خطراً على سلامة الجيش الألماني، من الجيش الروسي الآخر، لأن تقدمه كان من شأنه عزل الجيش الألماني الثامن عن خطوط إمداده ومواصلاته، فقد كان لزاماً مبادرة العمل أولاً ضد هذا الجيش، وذلك بحشد أقصى ما يمكن حشده من القوات الضاربة، ولهذا

قرر لودندورف ألا يترك أمام جيش ريننكامف سوى ستارة وقائية . وعمد بالتالي إلى حشد كافة قوى الجيش الثامن ضد جيش سامزانوف الذي تعاظم خطره ، وأوعز إلى جهاز هيئة أركانه باعتماد هذه الخطة والإعداد لها . وقد كتب لودندورف عن ذلك :

« لم تكن فكرة الموقعة مهيئة أو جاهزة بصورة مسبقة ، ولكنها تدرجت في وضعها ونظامها وترتيبها وتفصيلها رويداً رويداً حتى اكتملت تفاصيلها في أثناء المدة الواقعة بين ٢٤ و ٢٦ آب ــ اغسطس ــ والأمر المعروف والمألوف هو أن الإحاطة بالموقف ، واتخاذ الاجراءات ، لا تتوافر للقائد في الحرب إلا تباعاً ، بحسب الظروف والأحوال المتدرجة . فتراه يقرر موجات العمل الصاعدة ، بحيث تتبدى المهنة العسكرية ، وكأنها فن متكامل الحدود والأبعاد » .

وكانت المسألة كلها تدور حول الإمكانية الحقيقية التي يمكن بموجبها سحب الفيلق الأول الاحتياط ، والفيلق السابع عشر من وجه جيش ريننكامف وضمها إلى الجيش الثامن ، ثم المبادرة بتوجيه ضربة عنيفة إلى جيش النارو ، وبالتالي معرفة ما إذا كان في نية ريننكامف أو باستطاعته ، استغلال النجاح الذي حصل عليه في كومبيين ، أو أنه سيتقدم مسرعاً إذا عول مصمماً على استئناف الانطلاق قدماً .

كتب هندنبورغ في وصفه للموقف ما يلي : « إذا أخذنا بعين الاعتبار تقدير قوات الخصمين المتحاربين ، مع اعتبار إضافة لواءي اللاندوير اللذين كانا مكلفين بحراسة سواحل شبيلزويغ وهولشتاين ، واللذين ما زالا يتحركان للوصول في الوقت المناسب للاشتراك في المعركة . ثم عملنا على إجراء موازنة بين قواتنا وقوات العدو ، فإنه يظهر لنا بوضوح ، وبما لا يقبل الشك ، أن ميزان التفوق ليس في جانبنا أصلاً ، حتى لو اعتبرنا أن جيش ريننكامف قد توقف عن الحركة والعمل . مع العلم بأن قواتنا تضم وحدات اللاندشتورم ذات التدريب العالي . **والواقع أنه بالرغم من ضعف قواتنا العددي ، فإن هذا الضعف لم يسبب لنا شيئاً من القلق . فالقائد الذي لا يضع في اعتباره غير القيم المرئية ، أو المحسوبة ، يقع في خطأ كبير ، ذلك أن القيمة المعنوية للجندي تؤثر تأثيراً كبيراً في تحديد عوامل النجاح ، وتحقيق النصر** . ولقد وضعت ثقتي في الواقع بهذه القيم العتيدة التي أبعدت عني أخطاء الحساب والتقدير . إني أعرف يقيناً بأن الضابط الروسي والجندي الروسي لم يبرهن أيهما حتى الآن عن ميزات عسكرية أفضل من تلك التي أظهرها على الجبهة الآسيوية ــ في الحرب الروسية اليابانية لسنة ١٩٠٥ ــ ولذا كنت على ثقة تامة بأن ميزان القوى القائم بين الطرفين المتصارعين سيكون لمصلحتنا . وما كان إعتباري هذا واقع إفلاس بحكم ضعف قواتنا العددي ، ولكن اعتماداً على ثقتنا بقيمنا المعنوية الثابتة » .

انطلق لودندورف من هذا الواقع ، فأمر بإيقاف قوات الجيش الثامن في مواقعها التي وصلت إليها . ووضع الفيلق الأول إلى الجنوب من الفيلق العشرين ــ في منطقة دويتش آيلو ــ وفرض بالتالي

نقل العناصر الشاغرة من مواقع تورن وكولن وغراودنز وماربنبورغ. وكانت هناك في جنوبي ــ غربي بروسيا الشرقية مجموعة قوية يمكن بمعاونتها إطلاق الهجوم المتوقع، بينما تتراجع مجموعة الشمال على الاتجاه الجنوبي ــ الغربي. وفي النهاية، اقتصرت قوات خط القتال المقابلة لجيش رينكامف على فرقة الفرسان الأولى، في جوار شينابل، وتلقى اللواء الأول أيضاً بتاريخ ٢٦ آب ــ اغسطس ــ أمراً بالتحرك عبر روسيل إلى سينسبورغ. ولم يبق بعدئذ، في يوم ٢٧ آب ــ اغسطس ــ إلا لواءان من الفرسان كانا ينتشران بين بحيرة مازور ونهر البريغل؛ وفي مواجهتهما ٢٤ فرقة مشاة روسية؛ بالاضافة إلى عدد من فرق الفرسان. وكتب لودندورف عند تعرضه لهذا الموقف ما يلي:

«بدأ فيلق الاحتياط الأول والفيلق السابع عشر حركتهما على مؤخرة جيش النارو الذي كان يتقدم على اتجاه ألنشتاين. وكانا في تحركهما يديران ظهرهما لجيش رينكامف من غير أية تغطية تذكر. وكانا على بعد مسيرة يومين أو ثلاثة أيام فقط، عندما بدأت أحداث الموقعة تتسارع بأقصى حدتها. وما كانت لتنتهي في يوم واحد؛ بل استمرت حتى يوم ٣٠ آب ــ اغسطس ــ ولقد ظهر جيش رينكامف في الشمال، وهو أشبه ما يكون بزوبعة مستديرة أحاطت بها غيوم سوداء قاتمة. وكان يكفي هذا الجيش أن يندفع بانطلاقته ليسحق الجيش الألماني بصورة مؤكدة. وكنت أشعر بالقلق، وأعيش في محيط وساوسه المتلاطمة، خلال هذه الأيام الطويلة. وما انفك نظري عن مراقبة جيش النييمن، وهو يوجه بالفعل تهديداً خطيراً لو أنه تحرك بصورة أكثر اندفاعاً وقوة».

كانت القيادة الألمانية قد التقطت يوم ٢٤ آب ــ اغسطس ــ برقية صادرة عن القيادة الروسية، تضمنت نظام مسير جيش سامزانوف الذي سيبدأ تحركه يوم ٢٦ آب ــ اغسطس ــ على النحو التالي: «يتقدم جيش سامزانوف على جبهة عرضها مئة كيلو متر، ما بين سولداو و بيشوفسبورغ، ويتحرك الفيلق الأول في سيره من مالافا باتجاه سولداو، على جناحه نحو الغرب، وهو على بعد ما بين ٢٥ و ٣٠ كيلو متراً من الفيلق الثالث المجاور على نهر النييمن».

وكتب لودندورف تعليقه على هذا الموقف: «كان الجيش الروسي يتقدم بالأرتال، وميمنته متجهة قدماً إلى الأمام، وهي تضم الفيلق السادس، الذي عبر اورتلسبورغ على بيشوفسبورغ، والذي كان يمكن الوصول إليه في يوم ٢٦ آب ــ اغسطس. وكان الفيلق الثالث عشر والفيلق الثالث والعشرون، على مسافة أبعد إلى الجنوب، في جوار فالمتز في يوم ٢٦ آب ــ اغسطس ــ أيضاً. كما كان الفيلق الأول إلى مسافة أبعد إلى الوراء، نحو اليسار، ومتجهاً نحو الغرب، وهو يسير على اتجاه ملافا و سولداو، وتغطي هذا التحرك مجموعة من فرق الفرسان على اتجاه لدتنبرغ وستراسبورغ. وكان يجب مباغتة هذه الحركة من الغرب بقسم من قوات الجنوب التابعة للجيش الثامن. وكان من شأن هذه المحاولة إحاطة مدينة سولداو من الجنوب، والعمل في الوقت ذاته على

تطويق الفيلق الروسي الأول. وكان من المحتمل أن يتحول اندحار الجيش الروسي إلى هزيمة كاملة، ولكن الجيش الألماني لم يكن يمتلك ما يكفي من القوة لتحقيق مثل هذه الغاية الكبرى». وأوجز لودندورف خطته للمعركة بالتالي: «لم نوجه في بداية الأمر ضد كتلة جيش سامزانوف الكثيفة سوى قوة ضعيفة هي قوة الفيلق العشرين فقط. وكان واجب هذه القوة تشكيل قوس قابل للالتواء أمام ضغط كتل العدو، بشرط ألا يؤدي هذا الالتواء إلى تصدع الفيلق العشرين أو انهياره. وبينما تستمر قوات هذا الفيلق بالقتال، تتجمع مجموعتان قويتان على جناحيه للقيام بالهجوم الحاسم. ويقوم على الميمنة الفيلق الأول تدعمه قوات الدفاع الإقليمي، وعلى الميسرة يهبط من الشمال والشمال الشرقي الفيلق السابع عشر، وفيلق الاحتياط الأول مع لواء من الدفاع الإقليمي. في حين تعمل قوات القائد فون موهيلمان على أقصى اليمين مع عناصر حاميات المواقع وتحصينات نهر الفستول، تحت قيادة الفيلق الأول لمهاجمة خيالة العدو». وقال لودندورف في مذكراته: «لقد اقترحت على الفيلد مارشال فون هندنبورغ مهاجمة الفيلق الروسي الأول بقوات الفيلق الأول عبر آيلو — مونتوفو وبمعاونة الفيلق العشرين الأيمن، تعززه فرقة الاحتياط الثالثة عبر غليغونبورغ وباتجاه سولداو، ثم يندفع الفيلق الأول باتجاه نايدنبورغ، للإحاطة بكتلة جيش النارو، وذلك بالتنسيق مع الفيلق السابع عشر وفيلق الاحتياط الأول». وبقي هدف لودندورف الوحيد، هو اغتنام فرصة التباعد بين القوات الروسية، وخاصة الفيلق الأول، لتدميره ثم القضاء على كتلة الجيش الروسي الكبيرة.

بدأت الأعمال القتالية يوم ٢٦ آب — اغسطس — بسحق الفيلق الروسي الأول. وكان لودندورف قد حشد في مواجهة الجيش الروسي الأول، قوات الفيلق الألماني الأول الذي كان عليه ملاقاته من الجنوب، بينما تقوم نصف قوة الفيلق العشرين، ومعها الفرقة الاحتياطية الثالثة، بمواجهته وملاقاته من الشمال. وأثناء ذلك، تتحرك بقية قوة الفيلق العشرين، ومعها فرقة الدفاع الإقليمي المنتشرة على ميسرة الفيلق الروسي الأول ومؤخرته، بإيقاف كتلة جيش سامزانوف وتثبيتها نهائياً. وقد سقطت أوسداو في صباح هذا النهار، في قبضة الفيلق الألماني الأول، الذي دحر الفيلق الروسي ورده باتجاه سولداو. **عندها شرعت القوات بالالتفاف على كتلة جيش سامزانوف**. وكان الغراندوق نيقولاي قد أصدر أوامره يوم ٢٦ آب — اغسطس — إلى سامزانوف للإنطلاق في هجومه بفيالقه الخمسة، في ملافا وسولداو، بهدف إرغام الألمان على زج قوات جديدة على هذا الاتجاه، لأن نجاح القوات الروسية في هجومها باتجاه مدينة ألنشتاين من شأنه أن يحقق غايتين أساسيتين: ١ — فتح طريق دانزيغ. ٢ — قطع طريق تراجع الجيش الألماني الثامن الذي سبقت هزيمته في جوار كومبيين. وقد أصدر الغراندوق نيقولاي أمره بناء على إلحاح فرنسا لتخفيف الضغط عن جبهتها — الجبهة الغربية — وذلك على الرغم من معارضة القيادة الروسية، التي رأت في هذه العملية تشتيتاً للقوات الروسية في مناطق يصعب فيها تأمين النقل والمواصلات، وتكثر فيها الأنهار والبحيرات،

بحيرات مازوري، وتكثر فيها الغابات الكثيفة. ومقابل ذلك، كان فيلق الاحتياط الأول، بقيادة فون بولو، قد انضم يوم ٢٦ آب ـ اغسطس ـ إلى كتلة الجيش الثامن، بعد أن تقدم من الشمال إلى منطقة ريبورغ. كما كان الفيلق السابع عشر، بقيادة فون ماكنزن، قد أنهى مهمته الأولى بالهجوم على الفيلق الروسي السادس، ودفعه باتجاه بيتشهوفسبورغ. كما كان لواء الدفاع الإقليمي السادس قد اقترب يومي ٢٤ و ٢٥ آب ـ اغسطس ـ من مشارف بيتشهوفسبورغ الشمالية ـ الشرقية. واشترك في معركة دحر الفيلق الروسي السادس. ووصل الفيلق الاحتياطي الأول إلى فارتنبورغ في مساء يوم ٢٧. وكان الفيلق الروسي السادس الذي أصبح يشكل ميمنة جيش سامزانوف، يتابع تراجعه بأقصى سرعته في اتجاه اورتلسبورغ، وفي أعقابه الفيلق الألماني السابع والعشرون الذي خيم في المساء إلى جوار مينيسغبورغ. وكان الموقف مساء يوم ٢٧ آب ـ اغسطس ـ كما يلي:

تراجع الفيلق الروسي السادس منهزماً أمام هجمات الفيلق الاحتياط الأول، والفيلق السابع عشر، واستولى الفيلق الأول على المواقع الروسية في اسداو. وكانت الفيالق الروسية في الوسط (المركز) وهي الفيلق ٢٣، والفيلق ١٥، والفيلق ١٣، ماتزال تتقدم بين ألنشتاين و غليغنبورغ. وكانت تتوغل في نطاق الشبكة التي أعدها لها لودندورف للإطباق عليها بكاملها، إذا لم تحاول اختراقها والإفلات من الحلقة المفرغة حولها. ولقد أدرك لودندورف النتيجة المتوقعة للمعركة، من قبل أن تقع، فكتب ما يلي: «**لم يعد باستطاعة العدو أبداً أن يحقق النصر الذي كان يريده، ولم يعد أمامه إلا الخسارة المتوقعة، وبات الموقف الراهن واضحاً، جلياً، وأعطينا أوامرنا للإحاطة بكتلة العدو الرئيسة، وتطويقها**». وتضمنت أوامر لودندورف:

ـ الاستيلاء على مدينة نايدنبورغ بقوات الفيلق الأول بقيادة فرانسوا الضارب على الجناح الأيمن.

ـ يتوقف الفيلقان الأول الاحتياط والسابع عشر عن مطاردة فلول الفيلق الروسي السادس، وينحدران نحو الجنوب الغربي باتجاه مدينة ألنشتاين، التي يحتلها الفيلق الروسي الثالث عشر، وباتجاه مدينة باسنهام، مع تأمين التغطية اللازمة باتجاه اوتاسبورغ. ويندفع الفيلق العشرون، من وسط التشكيل، ويتقدم إلى الأمام وحده بقوة، للهجوم على مدينة هوهنشتاين.

ـ بينما يقوم الفيلق العشرون وفرقة الحرس الإقليمي باستيعاب كتلة القوات الروسية المكونة من فيالق الوسط ٢٣ و ١٥ و ١٣، يعمل الجناحان الألمانيان على تأمين التلاقي عند فيلنبرغ، ويقفلان عليها حلقة الالتفاف والتطويق نهائياً.

كان الموقف العام للجيش الألماني الثامن لايزال مضطرباً في صباح يوم ٢٨ آب ـ اغسطس ـ وذلك على الرغم مما حققه من انتصارات متتالية. فقد نجح الفيلق الأول الذي يشكل الجناح الأيمن للقوات الألمانية باحتلال مدينة نادينبورغ. ولكن الكتلة الرئيسة في

الوسط لم تتقدم. في حين مضى الجناحان الألمانيان في تقدمهما بثبات. وظهر لفترة أن المركز (الوسط) بات مهدداً بخطر الاختراق. وكتب لودندورف مستعرضاً هذا الموقف بقوله: «**كان الموقف في هذا المكان يظهر بصورة شديدة الخطورة، نتيجة احتمال قيام العدو بهجمات مركزة ومتلاقية. وكانت الموقعة تتدرج قدماً بتصاعد مستمر. وكان باستطاعة ريننكامف التوغل بعيداً لو أراد ذلك، وعمل بعزم وتصميم، بيد أنه ظل ساكناً؛ معدوم النشاط؛ في مواجهة الفرقة الواحدة والأربعين. ولم يحاول جيش النيمن التقدم.** وأخذ الموقف عند الظهيرة في التحول لمصلحتنا. إذ تمكنت فرقة الاحتياط الثالثة من تنفيذ واجبها، واكتسبت كذلك الفرقة السابعة والثلاثون أرضاً جديدة. ونجحت فرقة الدفاع الاقليمي، بقيادة فون درغولتز، في احتلال هوهنشتاين. ومن ثم فقد أخذت جبهة العدو في التداعي والانهيار. وعندما حل المساء، لم نكن نعرف بدقة الموقف الخاص لكل فيلق من الفيالق. غير أننا كنا على ثقة تامة بأننا ربحنا الموقعة نهائياً. ولم يكن باستطاعتنا حتى الآن القول إننا نجحنا في تنفيذ معركتنا على صورة مماثلة لمعركة كاني. لقد تلقى الفيلق الأول أمراً بزج قواته من جهة فيلبنبرغ، حيث كان يعمل الفيلق السابع عشر على قطع خط التراجع عن الجيوش الروسية. وقد علمنا في أثناء الليل أن الفيلق الروسي الثالث عشر قد تقدم من ألنشتاين باتجاه هوهنشتاين، حيث مارس ضغطاً قوياً على فرقة الدفاع الاقليمي، التي كانت بقيادة فون درغولتز. وما لبث أن وصل فيلق الاحتياط الأول، بقيادة فون بولو، إلى المشارف الواقعة جنوبي ــ غربي ألنشتاين. وتقدم لإغلاق الحلقة المتلاقية على الفيلق الثالث عشر من جهة الشمال، بينما كان الفيلق الأول، بقيادة فون فرانسوا، يحكم إغلاق طوق الحلقة في الجنوب. وذلك فيما كان يتابع الفيلق السابع عشر، بقيادة فون ماكنزن، عمله في الشمال أيضاً، لقطع طريق تراجع الجيش الروسي نحو الشرق».

علم لودندورف في صباح يوم ٢٩ آب ــ اغسطس ــ أن فيلقاً روسياً قادماً من الجنوب يقترب من نايدنبورغ مهدداً بتقدمه هذا مؤخرة الفيلق الألماني الأول الذي كان يندفع باتجاه فيلينبرغ لإحكام حلقة الحصار حول الجيش الروسي. فوجه لودندورف على الفور كافة القوى الاحتياطية باتجاه نايدنبورغ لمجابهة الخطر المحتمل. غير أن قائد الفيلق الأول فون فرانسوا، تمكن بوسائله الخاصة من القضاء على هذا التهديد الخطير، وإنهاء الأزمة الطارئة. وبذل لودندورف بعد ذلك جهده لسحب الفيلق الاحتياطي الأول والفيلق العشرين من ميدان القتال، والاحتفاظ بهما في الاحتياط لمجابهة أي احتمال جديد. وكان الموقف يوم ٣٠ آب ــ اغسطس ــ ١٩١٤ كما يلي:

حاولت القوات الروسية تحطيم دائرة الحصار بمهاجمتها من الخارج بقوات جديدة. فوجه من ميسرنيك قوات جديدة قدمت من استرلنكا إلى نايدنبورغ و اورتلسبورغ، فجابههما القائدان فرانسوا و ماكنزن بقوات احتياطية. وما لبثت هذه القوات الروسية حتى اختفت. ولم تفلح في فك

الحصار المضروب. ورفع لودندورف تقريره عن الموقف إلى القيادة العامة، يوم ٣١ آب ــ اغسطس ــ وتضمن ما يلي:

«تم البارحة إحكام حلقة التطويق على القسم الأكبر من قوات الجيش الروسي. ودمرت الفيالق ١٣ و ١٥ و ٢٣ تدميراً تاماً. ووقع في أيدينا حتى الآن أكثر من ستين ألف أسير بينهم قائد الفيلق ١٣ وقائد الفيلق ١٥. وما تزال المدافع الكثيرة متروكة في الغابات تنتظر جمعها. وليس بالإمكان الآن إعطاء بيان تفصيلي كامل عن مقادير الغنائم الحربية التي وقعت في أيدينا. ولو أنها تبدو غنائم ضخمة. أما الفيلق الأول والفيلق السادس، وهما الفيلقان اللذان استطاعا الإفلات من تطويقنا وحصارنا، فقد أصيبا بخسائر فادحة جداً. وهما ينسحبان الآن عبر ملافا و مسنيك».

لقد انتحر القائد الروسي سامزانوف ودفن قريباً من فيلمبرغ دون أن تعرف هويته. وأضاف لودندورف إلى تقريره السابق: «تجاوز عدد الأسرى تسعين ألف أسير. ووصلت خسائر الروس في القتلى والجرحى إلى درجة كبيرة جداً. وبات لزاماً إعطاء اسم مجيد لهذه الموقعة الكبرى الظافرة. وأقترح إعطاءها اسم (موقعة تاننبرغ) تخليداً لذكرى الموقعة التاريخية التي خاضها فرسان التيوتون ضد جحافل البولونيين والليتوانيين، وما كانت هذه الموقعة مختلفة عن سابقاتها من المعارك التاريخية، ولكنها اليوم معركة حاسمة أخرى تدور بين أحفاد التيوتون القدماء وبين الجحافل الزاحفة من السلافيين».

لقد دحض لودندورف مرة أخرى مقولة نابليون: «بأن إله الحرب مع الأفواج الكبرى». وبرهن أنه باستطاعة ١٦٠ ألف مقاتل ألماني تدمير ٥٥٠ ألف مقاتل روسي، أي تحقيق النصر رغم التفوق الساحق للعدو، والذي بلغ نسبة أربعة إلى واحد تقريباً. وقد كتب لودندورف معلقاً على هذه النتيجة بقوله: «**كانت موقعة تاننبرغ من أروع المواقع التي عرفها التاريخ العسكري، وهي تؤلف في وقائعها، وأحداثها، أثراً عسكرياً خالداً مدى الدهر. وستظل رمزاً لأمجاد القيادة الألمانية العارفة والمدركة، كما أنها ستظل أيضاً فخراً مشرفاً للجيوش والقوات الألمانية التي خاضت غمارها بشجاعة فائقة وتدبير محكم، وساهمت في كسبها مساهمة كبيرة. لقد كان الفخر يملؤنا بهذه الموقعة الرائعة الظافرة. وكانت عملية الالتفاف كما كانت عملية الاختراق، حصيلة إرادة مقدامة جريئة حققت النصر، هذا مع اعتدال حذر ضمن لنا الفوز، وسلمنا زمام الغلبة. ولقد استطعنا على الرغم من تفوق العدو؛ وضعف قوتنا؛ أن نجابه العدو في مختلف المعارك التي خاضتها قواتنا ضد عدو متفوق. ولا يسعني إلا أن أرفع أسمى مشاعر الشكر والعرفان بالجميل لذكرى استاذي العبقري الفذ، ومعلمي الماهر الكونت فون شليفن**».

○

لم يكن باستطاعة لودندورف التوقف عند حدود ما وصل إليه من نتائج معركة تاننبرغ، بل بات لزاماً عليه السير مع تيار الأحداث المتسارع. ففي يوم ٣٠ آب ـــ اغسطس ـــ ١٩١٤، ولما يكد غبار المعركة ينجلي عن انتصار تاننبرغ، حتى طلب رئيس هيئة أركان حرب الجيش النمساوي ـــ الهنغاري كونراد إلى القائد لودندورف، إطلاق هجوم باتجاه فارصوفيا (وارسو) بهدف تخفيف الضغط الروسي عن القوات النمساوية ـــ الهنغارية. ولكن كان لا بد قبل كل شيء من القضاء على خطر الجيش الروسي الثاني، جيش ريننكامف، ووضعه خارج ميزان القوى في دائرة الصراع. إذ أن وجوده كان يتضمن خطراً باحتمال انطلاقه عبر ألنشتاين لتهديد مؤخرة الجيش الألماني الثامن. وأثناء ذلك تلقى لودندورف برقية من القيادة الألمانية العليا أعلمته فيها عن إرسال قوات دعم تكونت من الفيلق الحادي عشر، وفيلق الحرس الاحتياطي، وفرقة الفرسان الثالثة، للعمل في بروسيا الشرقية من أجل الاشتراك في عمليات طرد جيش ريننكامف من هذا الإقليم، وبالتالي استئناف الهجوم باتجاه فارصوفيا.

كان ريننكامف، على ما ظهر من تصرفاته، راغباً في البقاء بين بريغل و بحيرة مازور. ومقابل ذلك كان على الجيش الألماني الثامن حشد كل قواته لزجها في الموقعة الجديدة. وعلى هذا، فقد حشدت قوات الدعم القادمة من الغرب في المنطقة المجاورة إلى ألنشتاين ـــ البينغ. كما حشدت قوات الجيش الثامن الأساسية للتقدم على خط فيلينبرغ ـــ ألنشتاين. ولم يبق في مواجهة جيش سامزانوف الممزق، في سولداو، سوى بعض عناصر تغطية الحدود.

كلف لودندورف أحد الفيالق بالتوجه نحو ليك لتغطية الجيش الثامن على اتجاه اوغستوفو ـــ اوسوفيتز حيث كان من المتوقع أن تزج القوات الروسية قواتها في هذه المناطق. وذكر لودندورف وهو يعالج الموقف ويصف العملية القتالية: «لقد كان خوض العملية يتطلب جرأة كبيرة، لأن جيش النييمن كان يضم ١٤ فرقة، متفوقاً على ١٦ فرقة ألمانية كان يضمها الجيش الألماني الثامن. ذلك أن الفرقة الروسية كانت مشكلة من ١٦ فوجاً، بينما كانت الفرقة الألمانية مشكلة من ١٢ فوجاً. وكان من المتوقع أن تنضم إلى الفرق الروسية الآنفة الذكر أربع أو خمس فرق جديدة بدأ حشدها على اتجاه اوغستوفو ـــ اوسوفيتز. كما كان باستطاعة الروس حشد قواتهم في أي وقت وفي أي مكان لتوجيه ضربة مدمرة ضد القوات الألمانية. وكان الجيش الألماني المرابط شرقي البحيرات معرضاً بصورة مكشوفة لتهديدات العدو، فكان من السهل دحره وتدميره، **إلا أن جيوشنا كانت أكثر تدريباً وأوفر خبرة، لاسيما بعد أن دعمت موقعة تاننبرغ الظافرة من عزائمها، ورفعت من معنوياتها إلى حد كبير. أجل! لقد كنا من هذه الناحية مستحوذين على التفوق التام**... لقد كنا في الواقع نجهل ما كان يخفيه العدو من قواته في منطقة جنوبي بحيرات مازوري. وكان ريننكامف يتلقى بصورة مؤكدة نجدات جديدة. وكانت الفرق الروسية الاحتياطية

في الداخل جاهزة تنتظر الحشد لزجها في القتال. فهل كانت هذه القوات مجهزة بالفعل لدعم جيش ريننكامف؟ أم كانت محتشدة للعمل في مكان آخر من أجل مهاجمتنا بغتة في اتجاه غير متوقع؟ **لقد قدرنا إمكاناتنا بدقة. وكنا نعتقد أن قوات ريننكامف تزيد على العشرين فرقة. فلماذا يظل هذا الجيش ساكناً ومن غير أن يمارس أي نشاط؟ ولماذا لا يحاول استثمار الموقف الملائم لمباغتتنا، مع التأكيد بأننا كنا أضعف قوة وأقل عدداً؟ لقد كانت جيوشنا متعبة مستنزفة، ومازالت محتشدة بكثافة عالية في ميدان موقعة تانبرغ».**

لقد ظهر أن ريننكامف كان شديد التأثر بهزيمة سامزانوف وانتحاره. ولهذا فقد أعرض عن ممارسة أي عمل هجومي. واتخذ له مواقع دفاعية بين كوريتشيف ومنطقة البحيرات، ليقطع على الجيش الثامن طريق إمداده وتحركه. وبذلك فقد انتشرت قواته على امتداد جبهة طولها ثمانون كيلو متراً، وتمتد من رافد نهر دمير أو الدايم على نهر بريغل ونهر اللي ومن بريغل إلى اينبورغ. وأقفلت المسافة الفاصلة بين اينبورغ و انغربورغ، قاطعة عمودياً الطريق الحديدية تون ــ اينشربورغ. وكانت القوات الروسية تشغل أيضاً خط البحيرات في أقصى الجنوب.

كان لودندورف مصمماً على الهجوم بفرقه الست عشرة ضد جيش ريننكامف الذي بات يضم أربعاً وعشرين فرقة، ولكن هذا الجيش بات منتشراً على جبهة متطاولة تعتمد على تحصينات قوية، في منطقة البحيرات، الأمر الذي كان يمنع لودندورف من إعادة تطبيق (خطة كاني) أو (حركة التطويق المزدوجة من الطرفين) لاسيما وأن القوات التي كانت متوافرة له، لم تكن لتتناسب مع هذه الخطة. وأمام هذا الموقف بدأ لودندورف بالتفكير في تثبيت قوات العدو على امتداد الجبهة، مع إطلاق هجوم يقوم بحركة دورانية (التفاف) عبر لوتزن، منطقة البحيرات، ليصل إلى مؤخرة الجناح الأيسر للقوات الروسية باتجاه الطريق العام الرئيسي، والخط الحديدي اينستربورغ ــ فيربالن وهما الطريقان المعتمدان للإمداد والتموين وخط التراجع لجيش ريننكامف.

كان هدف لودندورف من حركة الالتفاف هو إرغام القائد الروسي ريننكامف على قبول أحد أمرين: فإما أن يعمل على إخلاء مواقعه الدفاعية التي يتمركز فيها، وينسحب بعيداً عنها، وإما أن يسحب قوات كافية من جناحه الأيسر لمجابهة القوات الألمانية وصدها، الأمر الذي من شأنه أن يحدث نقطة ضعف على الجناح الأيسر. وهذا مما يساعد على القيام بعملية اختراق لنقطة الضعف، ومن أجل ذلك أعد لودندورف كتلة اختراق قوية تشكل قوة الهجوم الرئيسي. وكتب لودندورف يوم ٥ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩١٤ ما يلي: «تقرر القيام بالهجوم ضد جيش النييمن على النحو التالي:

ــ تتقدم الفيالق الأربعة: الفيلق العشرون والفيلق الحادي عشر العاملان، وفيلق الحرس الاحتياط، واحتياط عام كونيسبرغ، نحو خط انغربورغ ــ دمير باتجاه العدو.

ــ يكلف الفيلق الأول والفيلق السابع عشر بالانطلاق عبر ممرات البحيرات، بينما تمر الفرقة الاحتياط لتشكل رتل جناح الالتفاف في جنوب بحيرات مازوري. وتتحرك الفرقة الأولى وفرقة الفرسان الثانية وراء فيلقي الميمنة، وتستعد للانطلاق حالما تنكشف ممرات البحيرات، وهذه هي القوات المعدة للعمل ضد جناح رينكامف الأيسر. **وإن ترتيباتنا المعتمدة هذه تختلف عن الترتيبات التي اتخذناها سابقاً في موقعة تاننبرغ التي أدت إلى النصر الحاسم. وقد فرضت علينا الضرورة اعتماد هذه الخطة للاحتفاظ بقوات كافية من أجل العمل ضد قوات رينكامف الاحتياطية الكبيرة، ومن أجل مجابهة المباغتات المحتملة**». وعلى كل حال، فلقد شرح لودندورف الأسباب التي دفعته لاتخاذ هذا التشكيل القتالي، بقوله: «كان من الأفضل تنظيم الجناح الأيمن ليكون أكثر قوة ومتانة. وبالفعل، فقد وضعنا تحت تصرفنا فرقة واحدة من الفيلق العشرين في غربي البحيرات، ولكن الضرورة تطلبت إعادتها إلى فيلقها من جديد. وكانت الفرق الأربع المهاجمة تغطي جبهة طولها خمسين كيلو متراً، وهي سعة كبيرة بالنسبة لعدد الفرق العاملة في مواجهتها. وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد خشي فيلق الحرس الاحتياطي وقوع هجوم روسي، فاضطر إلى تضييق جبهته أكثر من اللازم. وكان مفروضاً على الجناح الشمالي الصمود بثبات على نهر البريغل، وإلا فإن الجيش بكامله يتعرض لخطر مدمر من هذه الناحية. وما كان جناح الالتفاف ليستطيع أن يكون أقوى مما كان عليه. وكان يجب عليه انتظار نجاح ما يمكن أن يحققه هجومنا. إن هذا النجاح المتوقع؛ متوقف على عمل المقاتلين وجهدهم فقط. وكان لزاماً علينا أن نبذل كل جهد مستطاع، وأن نلجأ إلى كل إجراء فعّال من أجل تحقيق النصر».

يظهر من ذلك أن لودندورف كان يعتزم دعم كتلة الالتفاف، ومضاعفة قوتها، بواسطة القوات الاحتياطية التي يتم سحبها من قوات الجبهة، عندما تبتدىء مقاومة الجبهة الروسية بالتداعي والانهيار. وبكلمة أخرى: الاحتفاظ بالقوة الكافية لدعم كل نجاح يتحقق في أي قطاع من القطاعات.

انتشر الجيش الألماني الثامن يومي ٦ و ٧ أيلول ــ سبتمبر ــ في مواجهة القوات الروسية، التي لم تحاول القيام بأي نشاط فعّال لمجابهة القوات الألمانية المتقدمة للهجوم. وكانت كتلة الالتفاف هي البادئة بالهجوم، بعد أن مرت عبر قلعة لوتزن وسدود خط البحيرات، كما انطلقت الفرقة الثالثة الاحتياط لخوض معركة رائعة قرب مدينة بيالا، حيث أمكن لها دحر نصف الفيلق الروسي الثاني والعشرين. وكتب فون هندنبورغ يوم ٨ أيلول ــ سبتمبر ــ ما يلي: «لقد وقفنا أمام مأزق العمليات الحرج، وسنرى في الأيام القليلة القادمة ما إذا كان رينكامف سيقوم بهجوم مضاد من أجل إيقاف هجومنا الجبهي ومنعه من الاندفاع. هذا وقد استمر جناحنا الأيمن في تقدمه بصورة

أجدى وأفضل، ونجح فيلقنا في هذه المنطقة في التغلب على سدود منطقة البحيرات، وظل سائراً باتجاه الشمال والشمال الشرقي، وظهر هدفنا واضحاً منذ الآن وهو قطع مواصلات العدو. وكانت كتل الفرسان في هذه المنطقة تمارس نشاطها بصورة جيدة».

استمرت الموقعة الدائرة على أشدها وبكل قسوتها على امتداد الجبهة ما بين فهلاو و انغربورغ، ولكن الصراع لم يصل إلى مرحلة الحسم، بينما تابعت كتلة الالتفاف تقدمها شرقي البحيرات، ولم تتمكن فرقتا الفرسان من الاندفاع بكل سرعتهما نتيجة المقاومة التي اصطدمت بها. وتمكنت فرقة الاحتياط الثالثة التي كانت تشكل كتلة الالتفاف من دحر قوات متفوقة تفوقاً كبيراً، إلى جوار مدينة ليك، فأنقذت لودندورف مؤقتاً، من الاهتمام بالجانب الجنوبي من الجبهة. وانتظر هندنبورغ ولودندورف يوم ١٠ أيلول — سبتمبر — بفارغ الصبر لمعرفة ما يرغبان معرفته. إذ تبين لهما في هذا اليوم ما يعتزم رينكامف القيام به من إجراءات، حيث شرع في ليل اليوم التاسع من أيلول — سبتمبر — بإخلاء مدينة جيردوان نهائياً، وفقاً لما أكدته دوريات الاستطلاع الألمانية. وكتب لودندورف عن هذا الموقف ما يلي:

«كان من الصعب التصديق بصحة هذه المعلومات، غير أننا اضطررنا إلى تصديقها رغم أنها جاءت بعيدة عن الواقع، ومخالفة لما هو متوقع، ولم نكن نرغب يقيناً في حدوث عملية الانسحاب. لقد بدأ العدو حركة تراجعه العام في وقت كنا لانزال نصطدم بالمقاومات الضارية هنا وهناك. وكان العدو يوجه ضدنا كتلاً قوية للقيام بهجمات مضادة عنيفة، ولو أن هذه الهجمات لم تكن متلاحمة. وكان لا بد لنا عندها من توجيه وحدات فرساننا التي تؤلف الجناح الأيمن، إلى الجهة الشمالية الشرقية، للإنقضاض على خطوط مواصلات العدو المتجهة من اينتسبربورغ إلى كوفنو».

عاد لودندورف فكتب ما يلي: «وصلت في صبيحة اليوم العاشر من شهر أيلول — سبتمبر — معلومات هامة جديدة تؤكد انسحاب العدو ليلاً من مواقعه المقابلة لفيلق الاحتياط الأول في شمالي جيردوان. ولقد انتابنا فرح لا يوصف لدى تلقي هذه المعلومات السارة في المقر العام. إذ حصلنا من جديد على نتيجة كبرى. بيد أن الجيش الروسي لا يزال بعيداً عن الهزيمة. ولو أن بواكير هذه الهزيمة قد بدأت في الظهور واضحة على أفق المعركة. أما في شمال شرقي لوتزن فلم نحقق أكثر من نجاح موضعي محدود. وكان لابد من مطاردة العدو بأقصى سرعة ممكنة في أثناء تراجعه، بينما يتقدم جناح الالتفاف شرقي سهل رومينتر، باتجاه طريق فيربالن — كوفنو. وكنا نبغي دفع الروس على هذا المنوال، بعيداً قدر المستطاع عن نهر النييمن. وكان لزاماً علينا في الوقت ذاته أن نضع باعتبارنا أن رينكامف ما يزال في موقف يساعده على القيام بهجوم كبير على أي اتجاه يريده، وذلك بفضل قوات الدعم التي كانت تصل تباعاً إلى قطاعات الجنوب. وكانت خطوطنا ضعيفة في

كل مكان. وبالرغم من التقاء المجموعتين اللتين بقيتا مفترقتين حتى الآن بسبب وجود بحيرة مازوري، فقد بقيت الوضعية الراهنة شديدة التأزم».

هكذا، فشل مخطط لودندورف لتطويق القوات الروسية وتدميرها. وانسحبت فيالق جيش النييمن الروسي على شكل ثلاثة أرتال منتظمة ومتجاورة، غير أن حركة الانسحاب كانت تسير بصورة بطيئة جداً. وعمد ريننكامف في يوم ١١ أيلول ــ سبتمبر ــ إلى تغطية الانسحاب بتنظيم هجمات ضارية، قامت بتنفيذها قوات كبيرة على امتداد الجبهة من غولداب حتى نهر البريغل. واصطدمت القوات الألمانية المتقدمة للمطاردة بأرتال عديدة، بقدر ما سمحت به الطرق والدروب، وكانت القوات الألمانية قد تلقت الأوامر: «**بمطاردة العدو مطاردة مستمرة، ومن غير توقف، مع تأمين الارتباط الوثيق فيما بين القوات المتقدمة للمطاردة، والاستعداد الدائم لمهاجمة العدو من قبل الأرتال المجاورة بصورة فورية فيما إذا حاول هذا العدو التوقف للقيام بالهجوم المضاد**».

استمرت المطاردة حتى ظهر يوم ١٣ أيلول ــ سبتمبر ــ وتخللتها معارك ضارية واشتباكات عنيفة، واختفت القوات الروسية من منطقة المستنقعات والغابات الواقعة إلى الغرب من مجرى نهر النييمن. وانتقل القائدان هندنبورغ ولودندورف يوم ١٤ أيلول ــ سبتمبر ــ إلى دساورهوف حيث كان هنا ــ بالأمس فقط ــ مقر قيادة ريننكامف. **ووقع في قبضة القوات الألمانية ٤٥ ألف أسير**. ونجح الجيش الروسي في الانسحاب، غير أن خسارته الكبيرة جعلته في حاجة لفترة أسابيع على الأقل، من أجل إعادة تنظيم قواته، ومن أجل تلقي قوات دعم إضافية للتعويض عن خسائره. **ولقد كان النصر في اينستربورغ أقل وهجاً من نصر تاننبرغ. إلا أن القوات الألمانية نجحت في إلحاق الهزيمة بالقوات الروسية التي كانت متفوقة قبل الموقعة بمعدل ثلاثة إلى واحد تقريباً**.

○

استمر الصراع على جبهة الشرق. فقد كانت روسيا تمتلك مخزوناً هائلاً من القدرة البشرية الذي ساعدها على تعويض خسائرها بسرعة. وكان الموقف يتدهور بسرعة على جبهة مقاطعة سيليزيا ولهذا، فما إن فرغ لودندورف من طرد القوات الروسية من إقليم مازوري، يوم ١٤ أيلول ــ سبتمبر ــ حتى أصدر أمره بنقل الجيش الثامن إلى سيليزيا العليا(٩٩)، وذلك بعد أن

(٩٩) سيليزيا: Silésie وفي الألمانية Schlesien إقليم في أوروبا الوسطى، يخترقه نهر الأودر Oder، ضمه الامبراطور فريدريك الكبير إلى بروسيا الشرقية عندما انتصر على النمسا سنة ١٧٤١ م، باستثناء قسم صغير منه ضمته إليها تشيكوسلوفاكيا فيما بعد. وحصلت بولونيا في سنة ١٩١٩ على القسم الجنوبي من سيليزيا البروسية. وتشكل فيما بقي من الإقليم البروسي (سيليزيا العليا) وعاصمتها أوبلن Oppeln، و(سيليزيا السفلى) وعاصمتها براسلاو Breslau، وضمت بولونيا إليها منذ

وافق رئيس هيئة الأركان العامة الجديد فالكنهاين[100] الذي حل محل فون مولتكه على اقتراح لودندورف بنقل الجيش الثامن إلى سيليزيا وترك قوة رمزية في بروسيا الشرقية. وفي الوقت ذاته تم دعم لودندورف بالجيش التاسع. وقام لودندورف بتنسيق التعاون مع القيادة النمساوية ــ الهنغارية، وعمل على دراسة الموقف معها. وتم الاتفاق على أن «يقوم الجيش النمساوي ــ الهنغاري بحسم الصراع في جنوبي نهر الفيستول الأعلى، وإرغام الروس على إخلاء برزميزل، واجتياز نهر السان. بينما يقوم الجيش الألماني التاسع بتثبيت العدو في شمالي نهر الفيستول الأعلى».

كان القائد الأعلى للقوات الروسية الغراندوق نيقولاي قد حشد ثلاثين فيلقاً ضد الجناح الأيمن للقوات الألمانية، وحدد مهمة هذه الفيالق بعبور نهر الفيستول بين فارصوفيا وروافد نهر السان. وكانت الفرق الألمانية الخمسة بقيادة ماكنزن تجابه أربع عشرة فرقة روسية. واستطاعت القوات الروسية بما تمتلكه من تفوق ساحق، أن تتغلب على المقاومات المتتالية، فيما اضطرت القوات النمساوية ــ الهنغارية للتراجع باستمرار مما وضع لودندورف أمام موقف صعب، فأقدم على تنظيم الأعمال التخريبية لتدمير الخطوط الحديدية والجسور، لإعاقة تقدم الجيوش الروسية. وقد حققت هذه الأعمال نتائج جيدة. فقد التقطت القيادة الألمانية برقية لاسلكية روسية يوم ١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٤ م، تضمنت ما يلي: «... بعد مطاردة العدو لمسافة ١٢٠ كم، وتعذر الاستمرار في هذه المطاردة، نرى أن الوقت قد حان لتكليف وحدات الفرسان بهذه المهمة. لقد تعبت قوات المشاة إلى حد كبير، وباتت عاجزة عن متابعة مهمتها. كما بات من العسير جداً تأمين المواد التموينية». وتمكن الجيش الألماني التاسع بذلك من تجنب الكارثة التي كانت تتهدده بالدمار والضياع.

تلقى لودندورف في هذا اليوم ذاته، الأول من تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٤، أمر تعيينه قائداً عاماً للقوات الألمانية على الجبهة الشرقية، أي قيادة الجيشين الثامن والتاسع. وفي الوقت ذاته، تم تعيين ماكنزن قائداً للجيش التاسع، وفون فرانسوا، قائداً للجيش الثامن.

سنة ١٩٤٥، كافة أقاليم سيليزيا، باستثناء ما ضمته تشيكوسلوفاكيا إليها. وقد اغتنت بولونيا بضم سيليزيا إليها، لأن هذا الاقليم أغنى من كل أقاليم بولونيا بثروته الطبيعية، وقدرته الصناعية وتقدمه العلمي.

(١٠٠) فالكنهاين: Von Erich Falkenhayen جنرال ألماني ١٨٦١ ــ ١٩٢٢ م، حل محل فون مولتكه في رئاسة هيئة الأركان الألمانية يوم ١٤ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩١٤. وأمر بدفع الخطوط الألمانية نحو الشمال، مما أدى إلى تسارع السباق نحو بحر الشمال. وكان يعتقد بأنه يجب ربح الحرب على جبهة الغرب، وذلك بدلاً من تركيز الجهد على جبهة الشرق لإلحاق الهزيمة بالقوات الروسية، وفقاً لما كان يطالب به هندنبورغ ولودندورف. وعلى كل حال، فقد انتقل الألمان إلى الدفاع في جبهة الغرب طوال سنة ١٩١٥ م. وعاد الجهد الرئيسي للألمان على جبهة الغرب في سنة ١٩١٦ م بهجوم فالكنهاين على فردان، وعندما فشلت حرب الاستنزاف، جاء هندنبورغ فحل محل فالكنهاين يوم ٢٩ آب ــ اغسطس ــ ١٩١٦ ومضى فالكنهاين ليتولى القيادة في جبهة رومانيا سنة ١٩١٦، وفي القوزاق وفلسطين ١٩١٧ ــ ١٩١٨ م.

عمل الغراندوق نيقولاي على تنظيم فيالقه في أربعة جيوش الثاني والرابع والخامس والتاسع. وانتشرت قوات هذه الجيوش الروسية، ما بين منعطف نهر الفارتا الشمالي حتى جنوب كيلسه. ثم انطلقت في تقدمها متجهة نحو سيليزيا وكراكوفي. وأخذ لودندورف في وضع الحل للرد على تقدم القوات الروسية. وقد وجد هذا الحل في (إقامة سد استراتيجي) على مؤخرة القوات الروسية الزاحفة من فارصوفيا، وذلك باستدراج الجيشين الروسيين الثاني والخامس باتجاه سيليزيا العليا، وإبعادهما مسافة ١٢٠ كم عن فارصوفيا، حيث كانت خطوط تموينهما الوحيدة تعقد على الخطين الحديديين: فارصوفيا ــ بتروسكوف أو بتريكاو، وخط فارصوفيا ــ لودز، بالاضافة إلى طرق قليلة كانت تتفرع خارجة من فارصوفيا. ومن أجل ذلك قرر لودندورف حشد قوات كافية بصورة سرية في منطقة تورن لزجها على منطقة لودز ــ بريزني، حيث مؤخرة الجيشين الروسيين الثاني والخامس، وقطع خطي تموينهما والحد من قدراتهما الهجومية، والإمساك بخط تراجعهما وانسحابهما، فإذا لم تتمكن هذه المناورة من تدمير كتلة القوات الروسية للجيشين الثاني والخامس، فإنها تستطيع، على الأقل، إزالة التهديد المدمر الذي كان يجابه سيليزيا. وقسم لودندورف قواته إلى أربع مجموعات: ١ ــ الستارة الدفاعية. ٢ ــ كتلة الصدمة، للهجوم على مؤخرة الجيوش الروسية. ٣ ــ كتلة الجناح الأيسر، وواجبها منع انسحاب القوات الروسية عبر نهر الفيستول. ٤ ــ مجموعة المناورة الخداعية أو التظاهرية. وتم تنفيذ المخطط الذي عرف باسم (**مناورة أو عملية لودز**). فانطلق الجيش التاسع للهجوم يوم ١١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٤. ودارت مجموعة من المعارك الطاحنة، كان من أهمها موقعة فلوكلافيك يوم ١٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر، ثم موقعة دومبروفيتش، وموقعة دومب يومي ١٣ و ١٤ تشرين الثاني ــ نوفمبر، ثم موقعة كوتنو يوم ١٥ تشرين الثاني ــ نوفمبر. ووصل الجيش الألماني التاسع يوم ١٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ أي في اليوم السادس للهجوم، حتى خط دومب ــ بولتوسك، الواقع على بعد ٨٠ كم من قاعدة انطلاقه. ولكن غنائمه كانت زهيدة نسبياً، لم تتجاوز الحصول على ٢٥ ألف أسير روسي و ٢٠ مدفعاً و ٧٠ رشاشاً. وأدرك الغراندوق نيقولاي هدف مناورة الجيشين الألمانيين الثامن والتاسع، فأخذ في سحب قواته وإعادة تنظيمها. **ودارت معركة لودز الحاسمة أيام ١٩ و ٢٠ و ٢١ تشرين الثاني ــ نوفمبر** ــ واضطرت القوات الروسية للانسحاب. ووقع عدد من الجنود الروس في أسر القوات الألمانية، بالاضافة إلى غنائم كثيرة من المواد التموينية. على أن الأهم من ذلك هو زوال التهديد الخطير الذي كان يتهدد سيليزيا بالاجتياح، والقوات الألمانية بالدمار.

لقد تعرض لودندورف لمعركة لودز ونتيجتها بعدئذ بقوله: «**ما كان باستطاعة شليفن أن يتصور عملية حربية أكثر جرأة وإبداعاً من تلك العملية التي صممت على أساس إطلاق هجوم يتضمن مناورة التفاف تتدرج من الشمال، مرفقة بهجوم جبهي ضد الجيش الروسي الذي تمركز**

باتجاه الغرب ، على امتداد جبهة مترامية الأطراف ، دون تأمين استناد أو دعم على جانبه الأيمن . والتمكن من دحره في أضعف نقطة من هذه الجبهة ، بتفوق عددي ساحق ، وذلك بفعل تطبيق مركز ثقل الهجوم ضده . ثم الانطلاق باتجاه ايفانغورود لقطع خط تراجعه بعيداً عن نهر الفيستول ، أو قطع تراجع الجيش الروسي بكامله ، أو على الأقل ، الكتلة الرئيسة لهذا الجيش . ولقد ظهرت اليوم عظمة هذه المناورة الجبارة التي أمكن تنفيذها ، والتي هزت قلب كل جندي هزاً عنيفاً ، وضاعفت من ثقته ، فلو أننا تلقينا في الوقت المناسب ثماني أو ست أو حتى أربع فرق فقط ، لأمكن لنا حسم الصراع بصورة مؤكدة . غير أن إمكانات الدعم لم تكن متوافرة في تلك الساعات الحرجة ، نظراً لانصراف الجهد نحو ميدان الايير (الجبهة الغربية) حيث كانت المعارك العنيفة هناك ، تستنزف كل القوى العاملة والاحتياطية ... » .

○

عادت القوات الروسية ، فاستأنفت تقدمها حتى وصلت إلى جبال الكاربات[١٠١] النمساوية . مما حمل رئيس هيئة أركان حرب القوات النمساوية ـــ الهنغارية كونراد إلى الطلب مجدداً من القيادة الألمانية العليا ، تقديم الدعم الممكن من أجل إيقاف الهجوم الروسي الكبير ، ووضع حد لأخطاره . وقام لودندورف بنقل مقر قيادته إلى مدينة بوزن يوم ٨ كانون الثاني ـــ يناير ـــ ١٩١٥ ، وشرع في التخطيط لمعركته القادمة على أساس القيام بحركة تطويق مزدوجة مع هجوم جبهي . فقرر زج ثلاثة فيالق للالتفاف باتجاه تيليست ـــ فلاديسلافو ـــ كالفاريا . وزج مجموعة أخرى من فيلق واحد ، وفرقة مشاة ، وفرقة فرسان للالتفاف ما بين يسيردنغ وحدود البيالا ، للسير على اتجاه اوغستوفو والجنوب ، مع زج قوات أخرى لتثبيت العدو بهجمات جبهية . وشرع لودندورف في حشد قواته في يوم ٥ شباط ـــ فبراير ـــ ١٩١٥ ، ونقل مقر قيادته من بوزن إلى اينستربورغ للإشراف على إدارة الحرب . وبدأت القوات تحركها يوم ٧ شباط ـــ فبراير ـــ لخوض المعركة التي حملت اسم **موقعة بيالستوك أو أوغستوفو** ، ودارت معارك طاحنة استمرت حتى يوم ٢١ شباط ـــ فبراير ـــ **حيث نزل بالجيش الروسي في اوغستوفو ، ما سبق أن حل بالجيش الفرنسي في سيدان . إذ انطبقت كماشة الهجوم الألماني الواسعة على الجيوش الروسية ، وأطلق على هذه الموقعة اسم موقعة مازوري الشتوية ، بأمر القيصر إمبراطور ألمانيا . وجرى إحصاء عدد**

---

(١٠١) الكاربات : Karpates - Carpates سلسلة جبلية في أوروبا الوسطى ، تشرف على سهول سلوفاكيا وهنغاريا وسهل ترانسلفانيا . وتمتد من براتيسلافا Bratislava أو بريسبورغ Presburg المدينة الواقعة على نهر الدانوب وحتى أبواب الحديد Portes De Fer وهي ممرات الكاربات بين رومانيا ويوغوسلافيا ، وعلى نهر الدانوب أيضاً . ويبلغ طول جبال الكاربات ١٤٥٠ كم ، وذروة ارتفاعها ٢٦٦٣ م .

الأسرى الروس فبلغ ١٢٠ ألف أسير. وكان عدد القتلى كبيراً جداً. وغنم الألمان مئات المدافع. وأبيد الجيش العاشر الروسي إبادة كاملة تقريباً.

نجحت موقعة اوغستوفو في تصفية الجيش الروسي العاشر الذي كان يتهدد الجبهتين الألمانية والنمساوية، على طرفي بولونيا. غير أن الخطر الروسي بقي في تعاظم مستمر، لا سيما بعد أن عمل الغراندوق نيقولاي على تطوير هجومه في شهر شباط ــ فبراير ــ ضد الجيش النمساوي ــ الهنغاري، بهدف اختراق جبال الكاربات، والوصول إلى هنغاريا في محاولة لإخراج النمسا من الحرب. وبات لزاماً على القيادة الألمانية العمل مرة أخرى لإحباط مخطط الغراندوق نيقولاي مهما كان الثمن، ومهما بلغت التضحيات.

تولى فالكنهاين قيادة القوات استناداً إلى مخطط كان قد وضعه للقيام بهجوم جبهي ضد القوات الروسية. وقد عارض لودندورف هذا المخطط، وأيده هندنبورغ في معارضته، غير أن فالكنهاين أصر على تنفيذ خطته، وبدأت القوات الألمانية في التحرك اعتباراً من يوم ٢ أيار ــ مايو ــ ١٩١٥ واضطرت القوات الروسية للتراجع اعتباراً من يوم ٦ أيار ــ مايو ــ على جبهة زادت على ١٦٠ كم، إلا أن القوات الألمانية تعرضت لخسائر كبيرة. ونجح هذا الهجوم في إرجاع القوات الروسية مسافة ٨٠ كم إلى الوراء، على نهر الفيستول الأعلى. كما أمكن إرجاع الجبهة الروسية على اتجاه جاروزولاف مسافة ١٥٠ كم. إلا أن القوات الألمانية لم تتمكن من حسم الصراع. وتم استدعاء هندنبورغ ولودندورف لمقابلة الامبراطور في يوم ١ تموز ــ يوليو ــ **فتقرر استئناف الهجوم في بولونيا، استناداً إلى مخطط لودندورف الذي تلخص بتنفيذ حركة التفاف عميقة ومزدوجة (إحاطة) تصل إلى مؤخرة القوات الروسية. وشرع لودندورف في وضع خطته بصورة تفصيلية، وقسم قواته. ثم أطلق هجومه يوم ١٦ تموز ــ يوليو ــ وبوغتت القوات الروسية مباغتة تامة. وأصدر الغراندوق نيقولاي أوامره بالانسحاب نحو فارصوفيا بعد أسبوع من المعارك الضارية. ثم تابعت القوات الألمانية تقدمها حتى وصلت إلى فارصوفيا وايفانغورود يوم ٤ آب ــ اغسطس ــ ثم استولت على كوفنو يوم ١٨ آب ــ اغسطس ــ ونوفو جيورجوفيسك يوم ٢٠ آب ــ اغسطس ــ وأخذ الألمان ٨٥ ألف أسير روسي و ٧٠٠ مدفع، واستولوا على كميات ضخمة من الإمدادات والمواد التموينية.**

أصبح باستطاعة لودندورف نقل ثقل عملياته لتحرير بولونيا، رغم ضعف قواته العددي. ووضع خطته على أساس القيام بعملية اختراق عميقة، تنتشر بعدها قواته على شكل مروحة لتدمير الخطوط الحديدية وطرق المواصلات. وبدأ تنفيذ الخطة يوم ٩ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩١٥. ودارت رحى معارك ضارية، إلا أن القوات الألمانية نجحت في تقدمها، مما اضطر القوات الروسية للانسحاب حتى نهر فيلنا، بعد أن تكبدت خسائر فادحة.

لقد استطاع لودندورف تدمير عدد من الجيوش الروسية على امتداد سنة تقريباً من المعارك المستمرة. وحقق انتصارات مذهلة، وأمكن له إزالة كل خطر عن الأقاليم الشرقية المتاخمة لروسيا (بولونيا، وبروسيا الشرقية، والجبهة النمساوية الهنغارية). غير أنه كان من المحال عليه القضاء على الخطر الروسي، بسبب ما هو متوافر للجبهة الروسية من إمكانات الإمداد المستمر بالقوات المقاتلة، إلا أن تناقص الخطر عن الجبهة الشرقية حمل القيصر إمبراطور ألمانيا على نقل هندنبورغ ولودندورف، للعمل على الجبهة الغربية، بعد أن سيطر الجمود على هذه الجبهة.

ب ــ على جبهة الغرب

حاولت القوات الألمانية عندما انطلقت في هجومها نحو الغرب، أن تطبق خطة شليفن، غير أن التعديلات التي أدخلها فون مولتكه الصغير أضعفت هذه الخطة، وحرمتها من فرصة النجاح. ولم تفلح جهود فالكنهاين في إنقاذ الموقف. وسيطر الجمود على الجبهات المتصارعة، وتحولت حرب الحركة إلى حرب خنادق ومواقع. واستنزفت هذه الحرب كافة القوى والوسائط. وكان هذا هو الموقف الذي جابهه هندنبورغ، ورئيس هيئة أركانه لودندورف عندما نقلا إلى إدارة الحرب على جبهة الغرب. وكان الهدف من نقلهما هو بذل محاولة لإعادة القدرة الحركية (المناورة) للأعمال القتالية، بعد أن حقق القائدان انتصاراتهما الرائعة على جبهة الشرق.

عكف لودندورف على دراسة أسباب فشل الهجمات السابقة، ووصل إلى نتيجة وهي: **«أنه من الضروري التفكير في التكتيك قبل التفكير في الأهداف الاستراتيجية. إذ من المحال تحقيق النجاح في الوصول إلى الأهداف الاستراتيجية، إذا كان من المتعذر قبل ذلك الوصول إلى نجاح تكتيكي ــ تعبوي»**. وكان هذا التفكير صحيحاً لعدم توافر إمكانات تسمح بالهجوم الاستراتيجي غير المباشر. وكان لزاماً أن يقترن تطوير التكتيك الألماني الجديد بتطوير استراتيجية جديدة، نظراً للتأثير المتبادل بينهما، ونظراً لاستنادهما إلى مبدأ: القيام بالجهد على خط المقاومة الأضعف. غير أن ظروف سنة ١٩١٨ كانت تعيق حرية استخدام خط المقاومة الأضعف. ولم يحاول لودندورف القيام بهذا العمل أصلاً. كما أن إجراء صدمة مباغتة ضد عدو منتشر على خط قتال يحاذي خط الخنادق، واستغلال هذا الاختراق بسرعة يؤديان حتماً إلى هدف لا يمكن الوصول إليه عادة إلا باستخدام أقل الخطوط توقعاً للهجوم عليها. وقد جرت مناقشات مستفيضة لاختيار المنطقة التي يمكن لها ضمان توافر مثل هذه الشروط. فوقع الاختيار على جبهة تمتد مسافة تسعين كيلو متراً تقريباً ما بين آراس و ايبر، لتهجم بها الجيوش ١٧ و ١٨ و ٢. وقد اختار لودندورف هذا القسم من الجبهة، لأن الأرض فيها صالحة للتقدم، كما أنها ضعيفة في تحصيناتها، وتدافع عنها قوات ضعيفة محرومة من الاحتياط. وعلاوة على ذلك كله، فقد كانت تقع فيها نقاط الاتصال أو خطوط

الفصل، بين الجيوش الفرنسية والانكليزية. وكان هدف لودندورف هو تحطيم هذا الاتصال، وسحق البريطانيين الذين ضعفت قواتهم، بعد أن طال أمد صراعهم في الايبر. ولقد كان هذا القطاع في الواقع ضعيفاً نسبياً، غير أن حكم الألمان كان سطحياً ويفتقر إلى الدقة. إذ كان ثلث الخط الشمالي صلباً ومتماسكاً، وينتشر فيه الجيش البريطاني الثالث المكوّن من ١٤ فرقة منها ٤ فرق في الاحتياط. كما كانت معظم القوات الاحتياطية البريطانية تدعم هذه المجنبة، والتي كان من السهل تدعيمها أيضاً بواسطة الجيوش البريطانية الأخرى الموجودة في الشمال، وهذا ما حدث في أثناء القتال. وكان ثلثا القطاع الباقيان يرابط فيهما الجيش البريطاني الخامس المكوّن من خمس فرق تقف في مواجهة الجيش الألماني الثاني. أما الطرف الجنوبي المقابل للجيش الألماني ١٨، فكانت ترابط فيه ٧ فرق بريطانية منها فرقة في الاحتياط.

أعطى لودندورف للجيش ١٧ المتمركز قرب آراس؛ ١٩ فرقة للهجوم الرئيسي الذي كان به جناحه الأيسر فقط، على جبهة عرضها ٢١ كيلو متراً تقريباً. وتقرر عدم مهاجمة القطاع البريطاني الذي يبلغ طوله ثمانية كيلو مترات تقريباً في اتجاه كامبري، بل الضغط عليه بقوة فقط. وكان في مواجهة هذا القطاع فرقتان ألمانيتان من الجيش الثاني الذي كان يضم ١٨ فرقة، ومعداً للهجوم على الجناح الأيسر للجيش البريطاني (٥ فرق) على جبهة عرضها ٢١ كيلو متراً. وجاء الجيش ١٨ من طرفي سانت كوانتان في أقصى الجنوب، ولم يعطه لودندورف سوى ٢٤ فرقة، ليهاجم على جبهة عرضها ٤٢ كيلو متراً تقريباً. وخالف لودندورف بذلك فكرته الأساسية، إذ وزع قواته تبعاً لتوزيع قوات خصمه، بدلاً من أن يحشدها ضد خط المقاومة الأضعف. ولقد أكدت تعليماته هذا الاتجاه الذي اتخذه.

انطلق الهجوم الألماني يوم ٢١ آذار ـــ مارس ـــ ١٩١٨. وساعد ضباب الصباح على تحقيق المباغتة. وفتحت عملية اختراق جبهة الحلفاء جنوب السوم بنجاح لنقص الوحدات المدافعة، وفشل الهجوم قرب آراس، وأثر هذا الفشل على الهجوم شمالي النهر، كما كان متوقعاً، وخالف لودندورف مبدأه مرة ثانية، إذ أمضى الأيام التالية وهو يحاول تجديد الهجوم على موقع آراس المنيع. واعتبر هذا الاتجاه هو محور جهده الرئيسي. وفي هذا الوقت كان الجيش الألماني ١٨ يتقدم نحو الجنوب، دون أن يصطدم بمقاومة قوية. وأرسل لودندورف أمره بعدم اجتياز نهر آفر يوم ٢٦ آذار ـــ مارس ـــ والسير بخطى تلائم سير القوات المجاورة المؤلفة من الجيش الثاني الذي كان مرغماً بدوره على إبطاء تحركه بسبب النجاح المحدود الذي حققه الجيش ١٧ قرب آراس. وهكذا ظهر لودندورف وهو يحاول ضرب الجيش البريطاني بأي ثمن، وذلك بتدمير أفضل مواقعه الدفاعية بواسطة هجوم مباشر، بدلاً من أن يندفع على الخط الأضعف مقاومة جنوبي السوم.

ضعف الهجوم الألماني شمالي السوم في ٢٦ آذار ـــ مارس ـــ وكان ثمن المكاسب غالياً. أما في

جنوبي النهر، فقد وصل الجناح الأيسر للجيش الثاني إلى هدفه، ولكن تقدمه اصطدم بعقبات كثيرة، ذلك لأنه كان يزحف في أراضي السوم التي سادها الدمار والتخريب. في حين كان الجيش ١٨ يندفع إلى الأمام دون أن يصطدم بمقاومة تذكر. وأمام هذا الموقف وضع لودندورف مخططاً جديداً دون أن يهمل مخططه القديم نهائياً. وأعطى الأمر في ٢٨ آذار ــ مارس ــ للجناح الأيمن للجيش ١٧ للقيام بهجوم آخر مباشر على المرتفعات قرب آراس. وانطلق الجيش السادس في الشمال بهجومه بين فيمي ولاباسييه. وظهر أن الموقف في جنوبي السوم بات ملائماً. فكلف الجيش الثاني بمهمة رئيسة هي الوصول إلى أميان. وأصدر تعليماته للجيش الثامن عشر بعدم الاندفاع إلى الأمام، والاستدارة حول مجنبة المقاومة في أميان، إلا إذا تلقى أمراً جديداً. وحددت مدينة أميان لتكون هدفاً رئيساً من جديد. وكان احتلالها يقتضي القيام بهجوم مباشر على أرض غير ملائمة.

انطلق هجوم آراس في يوم ٢٨ آذار ــ مارس ــ ١٩١٨ دون الاعتماد على المباغتة أو على ستارة الضباب. وفشل أمام مقاومة الجيش البريطاني الثالث، وعندئذ تخلى لودندورف عن فكرته الأساسية، ووجه نحو أميان[١٠٢] معظم ثقل قواته، ودعمه ببعض القوات الاحتياطية التي كانت متوافرة لديه. ولكنه أمر يومئذ الجيش الثامن عشر بالتوقف في مكانه لمدة يومين. وعندما تجدد الهجوم في يوم ٣٠ آذار ــ مارس، كانت الوحدات المهاجمة غير كافية عددياً، فلم تحقق أكثر من نجاح قليل أمام مقاومة توافر لها الوقت الكافي لكي تستعد، وتقوي تحصيناتها بالاسمنت الفرنسي الاحتياطي الذي استخدم في تلك المنطقة بكميات ضخمة لتقوية التحصينات. ووصلت المدفعية الألمانية في ذلك اليوم ــ لأول مرة ــ بعد المشاة، وتدخلت في المعركة بعنف وقوة. ثم قامت ١٥ فرقة ألمانية، منها ٤ فرق جديدة، بهجوم آخر يوم ٤ نيسان ــ ابريل. غير أن هذا الهجوم لم يؤدِ إلى نجاح يفوق نجاح سابقه. وترك لودندورف أميان بدلاً من الاندفاع في قتال ينهك قوى جيوشه، ولم يحاول مطلقاً الإفادة من قدرته الهجومية لتوسيع الثغرة، بين الجيشين الفرنسي والبريطاني. وقد أبلغ القائد الفرنسي بيتان؛ القائد البريطاني هيغ أنه إذا استمر التقدم الألماني على هذا الخط، فينبغي إعادة القوات الاحتياطية الفرنسية نحو الجنوب الغربي لتغطية باريس. وكان أقل جهد إضافي حينئذ كافياً لتحويل هذه الثغرة الصغيرة إلى فجوة هائلة. ويقدم هذا الوضع شاهداً جديداً على أن نقطة الاتصال بين جيشين هي أفضل موقع يمكن توجيه الهجوم ضده بنجاح، ويكون هذا الهجوم أشد خطورة إذا كان هذان الجيشان ملتصقين بعضهما ببعض أكثر مما لو كانا متباعدين. ثم قرر لودندورف القيام بهجوم جديد في الشمال، بمعظم قواته الاحتياطية التي تواجه آراس، رغم عدم تأكده من نجاح هذا الهجوم. وحدد مكان هذا الهجوم بين لاباسييه و أرمانتيير، لتوسيع نطاق

(١٠٢) أميان: Amiens مدينة تقع على نهر السوم في مقاطعة السوم. تبعد مسافة ١٣٠ كم عن العاصمة باريس. كانت قديماً عاصمة البيكارديين Picardes وتشتهر بكنائسها (كاتدرائيتها) التاريخية التي تعود إلى أيام القوط.

الاختراق، في وقت متأخر، ولم يكن جاهزاً إلا في ٩ نيسان ــ ابريل ــ واعتبر حتى ذلك التاريخ عملية مشاغلة. وأفاد الهجوم من ضباب الصباح، وأمكن له تحقيق نجاح غير متوقع في بداية الأمر ضد قطاع ضعيف. مما دفع لودندورف إلى تحويله إلى عملية واسعة النطاق. فانطلقت يوم ٩ نيسان ــ ابريل ــ ٩ فرق ألمانية تدعمها ٥ فرق احتياطية، بالهجوم على جبهة عرضها ١٧ كيلو متراً تقريباً، جنوبي أرمانتيير، حيث كانت تدافع عن هذه الجبهة فرقة برتغالية وفرقتان بريطانيتان. وفي اليوم التالي، هاجمت ٤ فرق ألمانية أخرى تحت ستار الضباب، شمالي أرمانتيير، على جبهة عرضها ٧ كيلو مترات، وعندما أخذت المقاومة شكلاً قوياً، زج الألمان بفرق أخرى، حتى بلغ عدد الفرق التي دفعت إلى خطوط النار في الأسبوع الأول من أيار ــ مايو ــ زهاء أربعين فرقة. ووصل لودندورف في النهاية إلى حرب الإنهاك (الاستنزاف). غير أن البريطانيين وجدوا أنفسهم في الوقت ذاته، مطرودين من مواقعهم، وفي حالة يائسة. بيد أن مقاومتهم نجحت في إيقاف اندفاع الألمان الذين لم يتقدموا أكثر من ١٥ كيلو متراً في اتجاه ملتقى الخطوط الحديدية الهام في مدينة كازبروك. وقرر لودندورف في يوم ١٧ نيسان ــ ابريل ــ ١٩١٨، القيام بهجوم على شكل كماشة تحيط بمدينة ايبر من طرفيها. غير أن الفرنسيين لاحظوا هذه الحركة وتمكنوا من إحباطها. وعاد لودندورف بعد فشل هذه الخطة إلى القيام بهجوم مباشر جنوبي ايبر، حيث كانت قد وصلت قوات احتياطية فرنسية جديدة، احتلت قطاعاً من الجبهة. ووقع الهجوم في ٢٥ نيسان ــ ابريل ــ على نقطة اتصال الحلفاء، فمزقها في مونت كيميل. ولم يستثمر لودندورف هذا الاختراق خوفاً من وقوع هجوم مضاد. وكان منذ بعض الوقت يبدي حرصاً على الاقتصاد في استخدام قواته الاحتياطية. ولكن هذا الاقتصاد لم يكن كافياً، علاوة على أنه جاء متأخراً، فلم يحقق نتيجة هامة. ولما فشل هجومه الأول، أصبح أمله ضعيفاً في نجاح الهجوم الثاني. وبعد محاولة أخيرة، أوقف الهجوم في ٢٩ نيسان ــ ابريل ــ وكانت فكرته هي عدم إيقاف العمليات قبل الوصول إلى جذب القوات الاحتياطية الفرنسية إلى الجبهة، بشكل يسمح له بضرب القوات البريطانية في الفلاندر ضربة قاضية. وكان لودندورف قد بدأ قبل ذلك في الإعداد لهجوم قوي في قطاع شومان ــ دو ــ دام[١٠٣] بين مدينتي سواسون و ريمس على أن يتم التنفيذ في ١٧ نيسان ــ ابريل ــ ولكن الاستعدادات استمرت حتى ٢٧ أيار ــ مايو. وكان سبب هذا التأخير هو امتداد فترة الهجوم الألماني في الفلاندر، وما نجم عن ذلك من إنهاك لقوات لودندورف الاحتياطية، واستنزاف لقدراتها. واستطاعت استخبارات القيادة العامة الأمريكية معرفة مكان الهجوم تقريباً، وموعده. فحذرت حلفاءها. غير أن تحذيرها لم يحمل على محمل الجد حتى أكدته المعلومات المستخلصة من أسير

(١٠٣) شومان دو ــ دام (طريق السيدات) Chemin Des - Dames طريق يمر على ذرا جبل الايسن، فيما بين الايسن وآييت Ailette. وكان هذا الطريق (الممر) مسرحاً لمعارك ضارية طوال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨.

حرب ألماني يوم ٢٦ أيار ــ مايو. وكان ذلك بعد فوات الأوان، إذ ضاعت الفرصة التي كان بالمستطاع الإفادة منها لدعم الوحدات. ولم يعد أمام قيادة الحلفاء إلا إنذار القوات بالهجوم المتوقع، وزج بعض القوات الاحتياطية. وفي اليوم التالي، قامت ١٥ فرقة ألمانية، تدعمها موجة ثانية من ٧ فرق، بهجوم ساحق على جبهة عرضها ٣٦ كيلو متراً قريباً، كانت تدافع عنها ٥ فرق فرنسية وبريطانية و ٤ فرق احتياطية. وساعد الضباب والدخان هذا الهجوم، فحطم القوات المدافعة عن شومان ــ دو ــ دام وعبر نهر آين بسرعة، ووصل في يوم ٣٠ أيار ــ مايو ــ إلى نهر المارن. وحصل لودندورف هنا أيضاً على نصر جزئي (محدود) لم يكن مستعداً له، ولم يكن راغباً فيه. لقد أراد هذا القائد الاستراتيجي مباغتة عدوه، فبوغت. إذ جذبت هذه البداية الناجحة جزءاً كبيراً من قواته الاحتياطية إلى ذلك المكان، ففقدت بذلك كل تأثير فعال، لأنها عجزت عن مجاراة القوات الاحتياطية للحلفاء في هذا المضمار. ويستحق هذا النجاح الأولي الذي حققه الألمان وقفة من التأمل والملاحظة، إذ يبدو بمثابة نتيجة لتوجه انتباه الحلفاء إلى أماكن أخرى، وإلى أن الهجوم قد وقع على خط المقاومة الأضعف. فضلاً عن افتقار القيادة الفرنسية إلى الإدراك السليم. فقد أصرت على تكتيل المواضع الأمامية، وتكثيف القوات فيها، وكأنها كانت تريد أن تجعلهم لقمة سائغة للمدافع الألمانية. وكانت مدفعية الحلفاء، والقوات الاحتياطية المحلية، ومراكز قيادة الدفاع، جميعها قريبة من الجبهة. فلما اندفع الألمان بهجومهم، أدى ذلك إلى انهيار الحلفاء انهياراً تاماً. وحصل الهجوم بذلك على المباغتة التعبوية (التكتيكية) التي فقد بعضها عند انطلاقه. **ولما كان هدف كل مباغتة هو تحطيم توازن الخصم، فإن النتيجة واحدة سواء أسقط هذا الخصم في الفخ المنصوب له وهو مغمض العينين، أم سمح للآخرين بأن يخدعوه وهو مفتوح العينين.**

فتح لودندورف في هذه الفترة جيبين كبيرين وجيباً صغيراً في جبهة الحلفاء، وحاول بعدئذ تدمير نقطة الاتصال في منطقة كومبيين الواقعة بين مدينة أميان ونهر المارن. ولكن المباغتة كانت معدومة. وتم الهجوم على الجانب الغربي من هذه المنطقة في ٩ حزيران ــ يونيو ــ غير أنه جاء متأخراً، فلم يتوافق مع الهجوم المتقدم على جانبها الشرقي. وتبع ذلك توقف لمدة شهر. وكان لودندورف يريد القيام بتوجيه ضربة حاسمة ضد البريطانيين في بلجيكا، وهي ضربة كان يفكر فيها منذ مدة طويلة، ولكنه قدر أن قواتهم الاحتياطية لا تزال كبيرة فيها. فقرر القيام بعملية مشاغلة جديدة. وكان يود القيام بهجوم عنيف في الجنوب لجذب القوات الاحتياطية البريطانية هناك، ولكنه فشل في تدمير نقطة الاتصال في كومبيين. الأمر الذي دفعه إلى تطبيق طريقته التي اكسبته انتصاراته على جبهة الشرق. فقام بالهجوم على مدينة رانس من جهتين. وشعر لودندورف أن قواته باتت في حاجة للراحة حتى تستعيد بعض قوتها، وحتى تم إعادة تنظيمها استعداداً للمرحلة

التالية، غير أن هذه الراحة جاءت بنتيجة مضادة لما أراده لودندورف، فقد أفاد الفرنسيون والبريطانيون من هذه الفترة، للتعويض عن خسائرهم، كما أعطت الأمريكيين الفرصة الكافية لإعداد قواتهم.

كانت النجاحات التكتيكية (التعبوية) عاملاً في جملة عوامل الفشل النهائي للودندورف. ذلك أن اندفاعه تحت تأثير الانتصارات، جعله يستثمر كل انتصار إلى مدى أكبر مما يجب، مما باعد الفترة الزمنية الفاصلة بين الضربة والضربة التالية لها. ولم يكن يسير حسب خط المقاومة الأضعف، بل كان يسير على خط تتزايد فيه المقاومة بشكل أصبح فيه كل هجوم من هجماته بعد انتهاء الاختراق الأساسي عبارة عن هجوم جبهي مباشر. ولقد غرس في قلب الدفاع المعادي ثلاثة أسافين (جيوب) دون أن يدخل أي واحد منها بعمق كاف لقطع شريان حيوي. وترتب على هذا الفشل الاستراتيجي أن أصبح الألمان على جبهة مسننة ذات تعاريج يستطيع الحلفاء فيها القيام بهجمات على مجنبات المواقع الألمانية.

استمر الصراع على جبهة الغرب سجالاً، ولم يتمكن أحد من الوصول إلى الحسم. غير أنه ظهر واضحاً بأن المبادأة قد انتقلت لمصلحة الحلفاء، اعتباراً من منتصف شهر تموز — يوليو ١٩١٨، حيث أخذ الحلفاء بتنظيم ضربات متلاحقة، ما تكاد تصل الضربة حتى نهاية قوتها (زخمها) حتى ترفدها الضربة التالية لها، فتعمل على تطويرها. ونجحت هذه الضربات في تطوير حرب الاستنزاف ضد القوى الألمانية التي باتت مواردها تنضب يوماً بعد يوم. ولقد نجح لودندورف بالرغم من ذلك كله، في إحباط جهود الحلفاء حتى جاءت ضربة (**اليوم الأسود في تاريخ الحرب — بحسب تعبير لودندورف ذاته**). **حيث جرت معركة أميان الحاسمة في يوم ٨ آب — اغسطس ١٩١٨، والتي زج الحلفاء في هجومهم ٤٦٢ دبابة قتال. بالتعاون مع الطيران، وباشتراك ثلاثة فيالق بريطانية، من الجيش الرابع، وكانت المباغتة كاملة، وبلغ الذعر أقصاه وذروته، وأمكن خرق الجبهة الألمانية**. وكتب التقرير الرسمي الألماني عن المعركة ما يلي:

«تعرض الجيش الألماني إلى أكبر هزيمة عرفها منذ مطلع الحرب، وذلك عندما غربت شمس يوم ٨ آب — اغسطس، ولم ينخدع لودندورف أبداً بالوضع الجديد الذي خلقته دبابة الإنقضاض. فكتب قائلاً: «لقد وقع كل ما كنت أخشاه، وما ضمنته تحذيراتي التي وجهتها في نقطة من الجبهة. وكان يوم ٨ آب — اغسطس، علامة من علامات انهيار قدرتنا العسكرية، وحرمني من التطلع لإيجاد الوسائل العسكرية القادرة على تعزيز الوضع وقلبه لمصلحتنا، نظراً للموقف الذي كنا نعانيه في القوات الاحتياطية. وعلى العكس، كنت مقتنعاً بأن تدابير القيادة العليا التي كنت أضعها حتى ذلك الوقت على قاعدة متينة، بقدر ما يكون ذلك مستطاعاً في الحرب، أصبحت الآن تنهار من أساسها، وهكذا اتخذت إدارة الحرب لعبة من لعب الصدفة التي

يصعب إيجاد الحجج أو المسوغات لها ــ على حد تعبير طالما استخدمته ــ وهي لعبة كنت أعتبرها دوماً لعبة مشؤومة. فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن يكون مصير الشعب الألماني هدفاً للصدفة أو غرضاً لها. لذا بات من الواجب انهاء الحرب».

تأكد لودندورف أن قواته قد انهارت معنوياً، لا مادياً، فأعلن: «بأنه لا يمكن تحقيق السلم إلا بالمفاوضات، وفي انتظار ذلك، يجب أن يكون هدفنا الإستراتيجي هو شل إرادة القتال لدى العدو شيئاً فشيئاً بالدفاع الاستراتيجي». ونجح لودندورف في تنظيم هذا الدفاع، ولكن حدث في ذلك الوقت أن وجد البلغاريون المتعبون من الحرب، بأن جيوشهم مقسمة إلى قسمين، فطلبوا الصلح. وجاء سقوط بلغاريا بمثابة ضربة سوط دفعت القيادة الألمانية للجري بسرعة أكبر، للبحث عن المخرج، وقرر هندنبورغ ولودندورف بصورة مباغتة الإعلان عن طلب الصلح في ٢٩ أيلول ــ سبتمبر، لأن انهيار بلغاريا قلب الموقف كله. فقد كانت الضرورة تقضي بإرسال وحدات من الجبهة الغربية، نحو الجبهة الجديدة. وفي هذا اليوم ذاته، كان هجومَ الحلفاء على جبهة الغرب، قد بات ينذر بالخطر. الأمر الذي دفع الألمان في يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩١٨ إلى طلب الهدنة مباشرة من الرئيس الأمريكي ويلسون. وكان هذا الطلب ينطوي على اعتراف صريح بالهزيمة أمام الرأي العام العالمي. ومن الغريب أن مثل هذه الفكرة كانت كافية قبل يومين فقط، لكي تثير اعتراضات شديدة في وسط القيادة الألمانية العليا، وخاصة عندما عرضت في أحد الاجتماعات على زعماء الأحزاب السياسية. لقد فتح الرجال عيونهم على الحقيقة المرة بعد أن تجاهلوها طويلاً، فأعماهم نورها المباغت، وأصابهم الذهول. وبدأت تظهر عوامل الخلاف الكامنة، والرغبة الخفية في السلام.

استعادت القيادة الألمانية العليا بعض هدوئها، بعد بضعة أيام، وشعرت ببعض التفاؤل لأن اختراق خط هندنبورغ لم يتبعه اختراق كامل لجبهتها. ثم زاد من تفاؤلها ما تلقته من تقارير عن تخاذل قوات الحلفاء، وتقاعسهم عن اغتنام الفرصة. وكان لودندورف يرغب في الهدنة لإعطاء قواته بعض الراحة، ويؤمن انسحابها نحو خط دفاعي أقصر على حدود بلاده. وشعر في يوم ١٧ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ بأنه قادر على الاستغناء عن هذه الراحة، بعد أن رأى الموقف قد تبدل. ولم يكن الوضع سيئاً أو خطراً كما تصوره من قبل في يوم ٢٩ أيلول ــ سبتمبر ــ ولكن انطباعه الأول انتشر في الأوساط السياسية وبين الجماهير الألمانية، وانهارت الجبهة الداخلية من قبل أن تنهار الجبهة الخارجية.

رد الرئيس الأمريكي ويلسون على طلب الألمان للهدنة في يوم ٢٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ١٩١٨، وحمل رده طلب: الاستسلام دون قيد أو شرط. وكان لودندورف يريد متابعة القتال لاعتقاده بأن الاستمرار في الدفاع على الحدود الألمانية يؤدي إلى الحد من طلبات الحلفاء.

ولكن الموقف خرج من يده، ولم تعد كلمة القيادة العسكرية هي الكلمة الحاسمة في الموقف، فقدم استقالته يوم ١٩١٨/١٠/٢٦.

قررت النمسا وتركيا الاستسلام في يوم ٣ تشرين الأول ــ نوفمبر ــ مما جعل الباب الخلفي لألمانيا مفتوحاً. إذ أن خروج قوات أوروبا الوسطى من الحرب، قد فتح الطريق أمام ضربة توجه ضد مؤخرة النمسا. وظهر الخطر بكل وضوح عندما انطلق هجوم ايطالي على الجبهة النمساوية المحطمة مادياً ومعنوياً، فاخترقها. وباستسلام النمسا بات باستطاعة الحلفاء الإفادة من أرضها وشبكة خطوطها الحديدية لعملياتهم ضد مؤخرة ألمانيا.

اشتعلت نار الثورة في ألمانيا وانتشرت في طول البلاد وعرضها، واتسع نطاقها بسبب طول أمد المفاوضات. واستلم السلطة الزعيم الاشتراكي ايبرت(١٠٤) ووقع شروط الصلح في يوم ١١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٨. ولقد وقعت الحكومة الاشتراكية على معاهدة الصلح في الوقت الذي كانت فيه القوات الألمانية قادرة على متابعة القتال. إذ كانت هذه القوات، وفي هذا اليوم بالذات، على خط أكثر استقامة وأقل طولاً من الخط الدفاعي السابق. وكان هجوم الحلفاء قد توقف بسبب صعوبة التموين. **وقد أكدت الوثائق المتعلقة بالموقف خلال المئة يوم الأخيرة من الحرب، أن هدف الحرب الحقيقي هو التأثير على روح القادة لا على أجساد جنودهم. وأن النصر أو الهزيمة يتقرران تحت تأثير الضغط المعنوي وبصورة غير مباشرة، تحت تأثير الضربات المادية.** ولم يهتز لودندورف في الواقع أمام خسارة الرجال أو المدافع أو الأرض، قدر اهتزازه عند وقوع المباغتة، وشعوره بالعجز عن صد حركة استراتيجية محتملة.

ترك لودندورف أثراً عميقاً في الشعب الألماني، سواء في المجال السياسي أو في المجال العسكري. فقد عكف هذا القائد الكبير خلال العشرين سنة التي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، على دراسة خلاصة تجربته التاريخية، بهدوء، وبعيداً عن ضوضاء الحرب وصخبها وضجيجها. ووقف موقف المحلل الناقد من النظريات التي سبق أن وضعها كبار الكتّاب العسكريين الألمان، وفي طليعتهم كلاوزفيتز. فبدأ بهجوم شديد على نظريات كلاوزفيتز التي كانت أساس النظرية الألمانية في الحرب العالمية الأولى. وأخذ على كلاوزفيتز عدم سيره في طريق العنف حتى آخر مداه، وإعطاء أهمية كبرى للسياسة. كما انتقد فكرته القائلة: «بأن الهدف السياسي يشكل الغاية، وأن الحرب هي وسيلة تحقيقها، ولا يمكن تصور الوسيلة إن لم تكن الغاية محددة بدقة». واعتبرها فكرة قديمة بالية، لأن مبدأ الحكم المطلق يتطلب من الوطن أن يضع في زمن

(١٠٤) ايبرت: Ebert - Friedrich اشتراكي ألماني من مواليد ورتزبورغ Wurtzbourg ١٨٧١ ــ ١٩٢٥. كان أول رئيس للجمهورية الألمانية (جمهورية الويمر) في سنة ١٩١٩.

الحرب كل شيء لمصلحة الحرب. وأن يحضر كل شيء زمن السلم من أجل الحرب المقبلة. على اعتبار أن الحرب هي وسيلة نبيلة، سامية، لتحقيق إرادة الحياة الوطنية، وما السياسة إلا تابع لها.

يظهر من خلال قراءة ما كتبه لودندورف اختلافه الواضح مع كلاوزفيتز. فقد اعتبر لودندورف أن الحرب هي وسيلة لغاية محددة وواضحة. **واعتبر أن جعل الشعب كله جيشاً هو في حد ذاته الغاية**. وليس هذا الرأي جديداً كما اعتبره لودندورف. فلقد سبقته اسبارطة من قبل، وطبقته في نظام حكمها، ثم انهارت من الشلل الذي جرته على نفسها. وكان لودندورف قد عمل جاهداً: «**لتوثيق عرى أواصر وحدة الشعب النفسية**». وخلق عقيدة وطنية تؤمن فيها النساء بدورهن المقدس في إنجاب أبناء قادرين على تحمل أعباء الحرب الشاملة. ويؤمن رجالها بضرورة زيادة قدراتهم للمشاركة في تنفيذ هذا الهدف. عقيدة تؤمن بضرورة التناسل من أجل تزويد المذبح بالضحايا.

أما فكرة لودندورف الثانية، والقائلة: «**بتحقيق الوحدة النفسية للشعب**» فإنها تعني ببساطة قمع واضطهاد أي شخص يعارض أو يفكر في معارضة القيادة العليا. وأكد لودندورف ضرورة تحقيق شرط آخر، وهو: «**إيجاد نظام اقتصاد وطني يعتمد على الاكتفاء الذاتي ويتلاءم مع متطلبات الحرب الشاملة**». ومن هنا ظهر إدراكه لفكرة اعتماد القوة العسكرية على الإمكانات الاقتصادية. ولكن، وعلى الرغم من اعتراف لودندورف بالصعوبات الهائلة التي عانتها ألمانيا من حصار الحلفاء الاقتصادي لها في الحرب العالمية الأولى، إلا أن ذلك لم يغير من فكرته التي اعتبرت: «**أن مصير الحرب مرتبط فقط بمعارك القوات المسلحة**». وقد امتدح في هذا الصدد، استاذ ألمانيا القديم كلاوزفيتز، «الذي لم يكن يفكر إلا في إبادة جيوش العدو في المعركة». وقد بقيت هذه الفكرة في نظرية لودندورف بمثابة بدهية لا تقبل الجدل أو النقاش. بينما جاء هتلر فتبنى نظرية مغايرة، مفادها: «بأن الهدف الحقيقي للقائد العسكري هو إرغام جيوش العدو على الاستسلام دون الإشتباك في أية معارك».

لم يكن وصف لودندورف لشكل الحرب المقبلة سوى تضخيم للهجمات التي قام بها في العام ١٩١٨، وهي الهجمات التي كانت رائعة في بداياتها وعقيمة في نتائجها، بسبب عدم توافر القوى والوسائط لتطويرها واستثمار نتائجها. وهو يرى في الهجوم: مشاة تتقدم تحت دعم المدفعية والرشاشات ومدافع الهاون والدبابات حتى تسحق العدو في الالتحام المباشر، وتقود كافة التحركات (المناورات) حسب وجهة نظره إلى (المعركة)، وما استخدام الآليات إلا لزج الوحدات في المعركة بسرعة أكبر. ولم يكن للدندورف أي اعتراض نفسي أو عسكري على تطبيق هذا النوع من الحرب على نطاق واسع. فهو يذكر أن ضرورات الحرب الشاملة، لن تعترف بالرغبات النظرية الهادفة إلى

الغاء (حرب الغواصات دون قيد ولا شرط) بل على العكس. فقال: «**بأن الطائرات يجب أن تتعاون مع الغواصات لإغراق جميع السفن المتجهة إلى موانىء العدو حتى ما كان منها تحت علم محايد**». ولقد قال عن الهجوم على المدنيين العزل في المدن: «**سيأتي يوم نرى فيه أسراباً من الطائرات تهاجم بعنف ومن غير شفقة**». ومع ذلك، تبقى الأهداف العسكرية بالنسبة له أكثر أهمية، لذا نراه يفضل استخدام الطيران قبل كل شيء للاشتراك في تحطيم جيش العدو. على أن ينطلق بعد ذلك لتدمير بلاد هذا العدو.

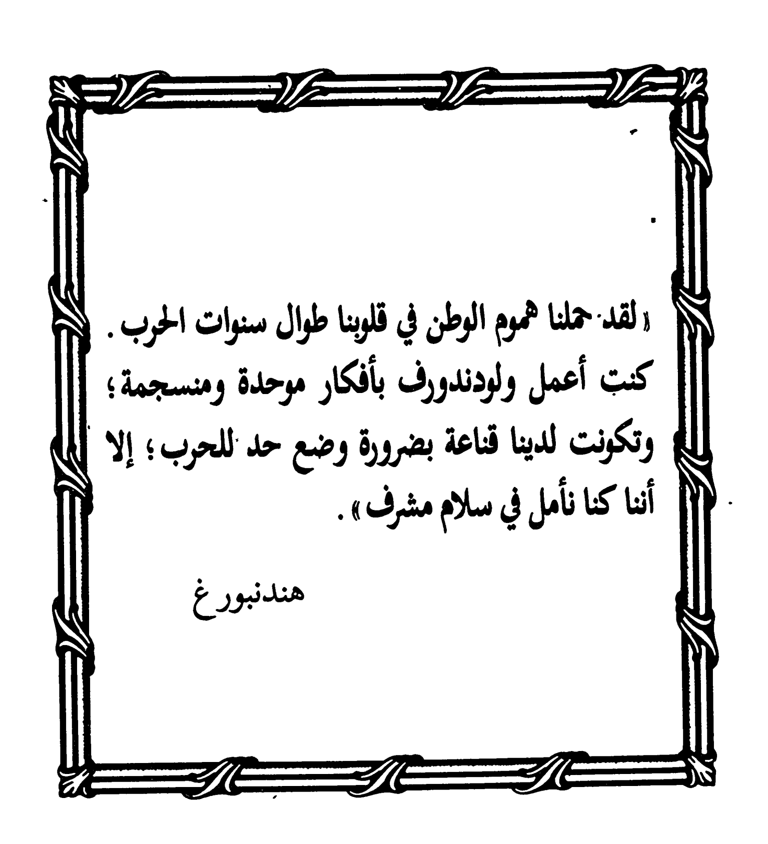
لقد اتفقت وجهات نظر هتلر ولودندورف حول فكرة الجنس (التفوق العرقي) والدولة، وحق ألمانيا في السيطرة على العالم. غير أن وجهات النظر للرجلين اختلفت بصفة خاصة، فيما يتعلق بأساليبهما وطرائق عملهما. فقد طالب لودندورف بأن تقوم الاستراتيجية بالإشراف على السياسة، أي أن تختار الأداة بنفسها نوع عملها. وقد توصل هتلر إلى حل المشكلة بإدماج الاستراتيجية بالسياسة في شخص (الزعيم الذي كان هو يمثله). وأفاد من المزايا ذاتها التي استمتع بها الاسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر في التاريخ القديم، وفريدريك الكبير، وبطرس الأكبر، ونابليون بونابرت في العصر الحديث، مما ضمن له إمكانات تحضير وسائطه وتطويرها للوصول إلى هدفه، من غير أن يتصدى له أي استراتيجي آخر أو يعمل على إيقافه.

وحفظ التاريخ، فيما حفظه للودندورف، موقفه من الدولة العثمانية، فقد كان يرى بأنها دولة باتت متخلفة في إدارتها وسياستها تخلفاً فاضحاً، وأنها قصرت عن الجهد في اتباع سياسة رصينة، عاقلة، تجاه الشعوب العربية، التي تشكل معظم امبراطوريتها. هذه الشعوب الممتازة والتي تتمتع بصفات وفضائل لا تتوافر في غيرها من الشعوب، والتي تسيطر على أعظم أقاليم الدنيا مكانة (موقعاً) وثروة. ولطالما تحدث مع أنور باشا حول هذا الموضوع الخطير، وأقنعه بوجوب العمل من أجله بكل قوة وهمة، وضمان نجاحه مهما كلفه الأمر. بيد أن (جمعية الاتحاد والترقي) التي تسلمت مقادير تركيا الجديدة، وزمام الحكم فيها، كان جلّ أعضائها من اليهود الذين طردوا من اسبانيا والبلقان، فلجؤوا إلى تركيا، وتظاهروا بالاسلام، وتبنوا القومية التركية، هؤلاء ما كان يروق لهم رؤية وحدة الشعبين التركي والعربي تحت راية الإسلام. فعملوا بكل جهد، ومع كل الدول لتدمير هذه الوحدة وتمزيقها، تمهيداً لبلوغ هدفهم الثاني (إقامة الكيان الصهيوني) في فلسطين.

الفصل السابع

ما بين عَهدين

٩ ــ هندنبورغ



«لقد حملنا هموم الوطن في قلوبنا طوال سنوات الحرب. كنت أعمل ولودندورف بأفكار موحدة ومنسجمة؛ وتكونت لدينا قناعة بضرورة وضع حد للحرب؛ إلا أننا كنا نأمل في سلام مشرف».

هندنبورغ

الوجيز في حياة هندنبورغ

١٨٤٧ ــ ١٩٣٤ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٤٧	ولادة هندنبورغ في مدينة بوزن .
١٨٦٦	اشتراكه في الحرب النمساوية ــ البروسية .
١٨٧٠	اشتراكه في الحرب الفرنسية ــ البروسية .
١٩١١	إحالته على التقاعد .
١٩١٤	إعادته للخدمة وتعيينه قائداً للجبهة الشرقية .
١٩١٦	نقله لقيادة الجبهة الغربية .
١٩١٧	إكمال تنظيمه الدفاعي على جبهة الغرب الذي حمل اسم (خط هندنبورغ) .
١٩١٩	إحالته مجدداً على التقاعد .
١٩٢٥	انتخابه رئيساً لجمهورية ألمانيا .
١٩٣٣	اضطراره لتعيين هتلر مستشاراً لألمانيا .
١٩٣٤	٣ آب ــ اغسطس ــ وفاة هندنبورغ ، واستلام هتلر السلطة وقيام الرايخ الثالث .

Hindenburg Paulludwig - Von Beneckendorff.

٩ ـ هندنبورغ

لم يكن هندنبورغ قائداً مغموراً وسط القادة الألمان، ولئن اكتسب لودندورف شهرة واسعة في إدارة الحرب على الجبهتين الشرقية والغربية في الحرب العالمية الأولى، فإن تلك الشهرة لم تكن لتحجب أو لتنتقص من دور القائد هندنبورغ الذي كان يمسك دائماً بحرية اتخاذ القرار، ويعمل باستمرار على تنظيم الاحتياطات وزجها، والتخطيط للأعمال القتالية. ولقد نشأ هندنبورغ في الجيش الإمبراطوري، وارتبط بالملك ارتباطاً وثيقاً أساسه (الحب المشترك للوطن والمواطن) والثقة المتبادلة. **ولقد عصفت رياح الثورة الاشتراكية بالوطن الألماني، وأخذت في تمزيقه**، وصعد الزعيم الاشتراكي ايبرت فأصبح رئيساً لجمهورية الويمر. وأعلن خضوعه لشروط الحلفاء ــ ومنها إضعاف الجيش ــ ولم يبق لهندنبورغ ما يفعله بعد أن ذهب الملك وعائلته وحاشيته للعيش في هولندا، بعيداً عن وطنه. فقدم استقالته، وأرفقها بوصيته إلى قادته: «**ابقوا متحدين**». وألقى بأعباء المسؤولية على القائد الجديد غرونر[١٠٥] ولم تكن وصية هندنبورغ إلا تلخيصاً لوصية **الامبراطور غليوم الثاني: «الذي حض ضباطه وقادته، عند تنازله عن العرش على التعاون، مع الذين يمتلكون فعلاً زمام الأمور في ألمانيا، لحماية الشعب من أخطار الفوضى والمجاعة والسيطرة الأجنبية»**[١٠٦]. ولقد كان التمزق وانهيار الجبهة الداخلية مصدر الخوف لمعظم الألمان. ولطالما تعرض لودندورف إلى خطورة

---

(١٠٥) غرونر: Groener Wilhelm جنرال ألماني، ولد في لودويغسبرغ Ludwigsburg ١٨٦٧ ــ ١٩٣٩، كان أول قائد انضم إلى الجمهورية. فخسر رصيده المعنوي في قطعته وسواها، وأصبح كريهاً في نظر الجنود الألمان، منذ حزيران ــ يونيو ــ ١٩١٩، عندما ذهب إلى غرانز شوتز ــ أوست، وأرسل منها برقية، لم يشاركه أحد في التوقيع عليها، وأدت هذه البرقية إلى توقيع سلام مخجل، وحطمت أجنحة الجيش الألماني، عندما كان جنود هذا الجيش يحاولون نشر هذه الأجنحة من جديد. وقد حاول غرونر تقويم مسلكه، فتعاون مع هندنبورغ الذي عينه وزيراً للرايخ من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٢.

(١٠٦) المعروف أن الحكومة الألمانية كانت قد أرسلت إلى الرئيس الأمريكي ويلسون مذكرة بطلب الهدنة على أساس (النقاط الأربع عشرة) في يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩١٨، إلا أن الرئيس الأمريكي أعلم الحكومة الألمانية أنه يطالبها: «بإعلان الاستسلام غير المشروط»، فتنازل غليوم الثاني عن العرش، وقامت حكومة اشتراكية، وأعلنت البحرية تمردها في كييل يوم تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ وتعرضت برلين لغزو الثورة. وتبع ذلك إبرام الهدنة في يوم ١١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ بين الحلفاء والدول المتحالفة معهم وبين ألمانيا في محطة روتوند (غابة كومبيين).

التفتيت المعنوي بزعزعة ولاء الشعب وتدميره معنوياً عن طريق توجيه الدعاية ضد القيادة السياسية والعسكرية (جهاز الحكم) وضد القوات المسلحة. وذكر ذلك بقوله: «كان حصار الإبادة والمجاعة اللذين فرضا علينا، مع الدعاية الموجهة ضدنا، وكانت كلها مترابطة بشكل وثيق للصراع ضد العرق الألماني والروح الألمانية. وكانت كل هذه الأساليب تؤثر علينا بثقلها، وتزايد ثقلها مع استمرار الحرب. وقد بدأ الحصار والدعاية يزعزعان معنوياتنا تدريجياً، ويهزان ثقتنا بالنصر النهائي. وقد فقد الكثيرون كل إحساس ألماني صرف، ولم يعودوا يفكرون أبداً بالوطن. وارتفعت الأنانية لتحتل المقام الأول. وفقدنا الثقة بأنفسنا. ووجدت العقيدة الثورية التي كانت الدعاية المعادية والبلشفية تبشر بها وتدعو إليها، وكانت الروح الألمانية مهيأة لتقبلها. وحصلت هذه العقائد المزيفة على تأثير أكبر لدى الجماهير. وتلقى الشعب الألماني، سواء في الداخل أم في مواجهة العدو طلقة الموت، فقد كانت عيوننا مركزة على الدعاية المعادية، كعيون الأرانب عندما تتركز على الحية الرقطاء. وكانت الدعاية ماهرة في استخدامها الوسائل الهائلة التي تملكها. وكانت تعمل معتمدة على أفكار مدهشة تؤثر على الجماهير، وذات علاقة وثيقة بالوضع العسكري. وكانت تستخدم كل الوسائل دون أن يحاسبها ضميرها على ذلك. وأخيراً، وابتداء من مطلع العام ١٩١٨ م، راحت تبشر بفكرة ثورة اجتماعية، بالاضافة إلى فكرة ثورة سياسية. وصورت الدعاية الحرب على أنها عمل قامت به الطبقات الحاكمة على حساب العمال. وصرحت هذه الدعاية أن انتصار الألمان سيكون وبالاً على العمال ومأساة لهم. ووجدنا أنفسنا حيال الدول الحيادية، أمام حصار معنوي. لقد فقدنا كل رصيد. أما رصيد الخصم، فكان يتزايد بنسبة مفرطة. وكان هدف الدعاية الأمريكية والانكليزية المعترف به هو تفجير الثورة الداخلية في ألمانيا. ولم تكن الحكومة الألمانية تفهم طبيعة حرب الدعاية، وكانت تستبعدها باعتبارها وسيلة من وسائل الحرب، لأنها مظهر من مظاهر التضليل (الشعوذة)، كما كانت تراها، في حين كانت على العكس، إذ أن أحد وجوه الدعاية الحقيقية هي أن لا يشك الانسان بوجودها، فهي تعمل دون ضجيج».

لقد نجحت الحكومة الثورية في تعبئة مشاعر الحقد والكراهية ضد الجيش الألماني وقيادته، إلا أن الجيش لم يستسلم، وقد برز ذلك من خلال المذكرة التي رفعها قائد الجيش ووزير الدفاع لوتويتز والتي جاء فيها:

الأول من أيلول ــ سبتمبر ١٩١٩

إلى وزير حربية الرايخ

كنت قد عرضت في ١٧ آب ــ اغسطس ــ على رئيس حكومة الامبراطورية، ثم على السيد رئيس الرايخ، تصوري للوضع الداخلي. ولا أستطيع أن أكتم شعوري أو أخفيه وراء قناع من التفاؤل المفرط، الذي تحكم فيه الأوساط الحكومية على هذا الوضع. إننا نسير نحو كارثة. إن فئة

الضباط، وعلى الرغم من صراعات الضمير المؤلمة، قد وضعت نفسها مرتين خلف الجمهورية، في تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ١٩١٨ و حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩١٩، وذلك لدعم الجمهورية في مهمتها الشاقة لإعادة النظام. إلا أنه يسود داخل وسط الضباط وفي أغلب القطعات، خوف مشروع لدى رؤيتها للحكومة، وهي عاجزة عن استخدام القوة التي تملكها. **وهناك أمران لابد منهما: النظام و العمل**. يمكن الحصول عليهما معاً، ولكن ليس بالخطب. إن جميع المحاولات التي بذلت لجعل الشعب يستأنف عمله عن طريق اللين والإقناع قد باءت بالفشل. ولم يعد هناك من سبيل إلى ذلك سوى الإلزام. من هذا الواقع تنجم ضرورتان أساسيتان:

١ ـــ إلغاء تعويضات البطالة، وهنا يجب العودة إلى المبدأ القائل: «كيف من لا يعمل يبتغي أن يأكل».

٢ ـــ يجب أن تمنع منعاً باتاً جميع الإضرابات السياسية والاقتصادية.

إنه لابد لإعادة النظام من حكومة قوية. وهذه القوة متوافرة للحكومة. فالجيش مستعد للمساهمة في انتصار حكومة قوية، وهذه القوة نشطة وفعّالة، أما إذا تركت الحكومة الوقت يمر دون عمل، فإنها تفقد قوتها العسكرية، بسبب تخفيض حجم الجيش، وتزيد بالتالي من قوة البولشفيكية. وبما أن مصير الحكومة متوقف على مدى تعاونها مع الجيش، فإن عليها تجنب كل ما من شأنه إثارة مشاعر الجيش ضدها وضد الأحزاب التي تشكلها. **واليوم كالأمس، يظل الجيش هو أساس قوة الدولة**. لذلك أجدد تحذيري العاجل. يجب العمل سريعاً، وإلا سبقتنا الأحداث.

الجنرال القائد الأعلى

فون لوتويتز

عندما تليت رسالة فون لوتويتز أصيب الوزراء بالذهول. فالتوصيات التي طرحها الجنرال قد صيغت باللهجة المتعالية نفسها التي صيغت بها مطاليب هيئة الأركان العليا، صباح يوم ٩ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ١٩١٨. فهي أيضاً آنذاك قد تحدثت بلهجة السيد المطلق على الحكومة المدنية، والتي قالت: «إن القيادة العليا تنظر... والقيادة العليا تطلب.. الخ...» إلا أن الوضع قد تغير كثيراً منذ ذلك الحين، فلم يعد هناك ثلاثة ملايين رجل يجب إعادتهم إلى ألمانيا، ولا عشرة آلاف مجلس للجنود تتنازع السلطة، كما أن الحكومة المدنية الحالية تستند إلى دستور شرعي. فهل جهل الجنرال فون لوتويتز ذلك كله؟ إن الجنرال لم يجهل ذلك، وإنما أراد متابعة النضال للمحافظة على وضع الجيش في مكانه المركزي الذي كان يحتله قبل الحرب. إنه يرفض (دستور جمهورية الويمر) إذا ما كان هذا الدستور وسيلة لتبديل وضعه ضمن الدولة. وهو عندما يعطي (الوزارة) نصائحه حول سياستها الاجتماعية، فإنه يمارس باعتقاده الحقوق الشرعية التي يمتلكها القائد الأعلى. ولكن الحكومة الجمهورية من جانبها كانت تنظر إلى الأمور من الزاوية

لقد أصبح وولتر راتنو وزيراً للخارجية في بلد تجاوز عدد سكانه الستين مليوناً. إلا أن وضعه لازال غريباً حقاً، فهو لازال مواطناً من الدرجة الثانية. يبدو أحياناً أدنى من مواطنيه الذين كانوا ينبذونه ويحتقرونه. ويبدو أحياناً فوقهم، إلا أنه لم يستطع أبداً أن يكون معهم. وكانت رسائل التهديد تنهال عليه من جميع الجهات، ولقد كانت أقواله وأعماله تزيد من كراهية خصومه له، لأنه كان في كل خطاب من خطاباته يجرح الألمان، ويمس فيهم أقدس قناعاتهم وعقائدهم. وكان قد كتب قبل الحرب: «متى قام رجل أشقر من أبناء آلهة الشمال، بعمل عظيم في مجال الفكر أو الفن؟» و «إذا عاد القيصر منتصراً من الحرب، ومر بحصانه الأبيض تحت بوابة براندبورغ فإن تاريخ الكون يكون قد فقد كل معناه». وخلاصة القول، إن كل ما كان يكتبه أو يقوله أو يفعله، كان يدل على عدم انتمائه لهذا الشعب الذي يعيش في وسطه، ويعمل وزيراً لخارجيته.

ولم يكن باستطاعة الشبان الذين قاتلوا على كافة الجبهات، وحققوا أعظم الانتصارات في ميادين الحروب، احتمال هذا الوضع الذي كان إهانة وتجريحاً لكل ما تركه لهم الماضي من فضائل ومقدسات. ولم يعد باستطاعة هؤلاء أن يتذكروا، دون اشمئزاز، تفجر الكراهية والحقد على كل ما هو وطني منذ ولادة الجمهورية. لم يعد بإمكانهم تجاهل الإهانات التي توجه إلى قادتهم وأعلامهم، ومن خلالهم هم، إلى كافة رفاقهم في السلاح، ممن سقطوا في ساحة المعركة والشرف. إذ من البدهي، إذا لم يعد لفكرة الوطن وجود، أن يكون الذين ضحوا بأنفسهم في سبيله أغبياء أو مخدوعين. وأن تكون مجموعة القيم والفضائل التي بذلوا جهدهم ودماءهم في سبيلها مجرد أوهام. ولقد كان ذلك كله خافياً على قسم من الأمة الألمانية التي أثرت بها الدعاية الاشتراكية الثورية، إلا أن هذا لن يثبط عزيمة المحاربين القدماء. بل على العكس، لقد برهن لهم ذلك على ضرورة الكفاح والنضال. وكانوا على ثقة من أن يقظة ألمانيا وبعثها لن يتم إلا بإثارة الحماسة الوطنية، التي يجب عليهم أن يذكوها تخليداً لذكرى أمواتهم، ووفاء للفضائل التي قتلوا من أجلها. **ولكن وعوضاً عن ذلك، ماذا كانوا يرون؟ جماهير ترفع الأعلام الحمراء وتنقض لاستلام السلطة، محاولة تحت شعار صراع الطبقات، خنق المشاعر الوطنية، وكتم أنفاسها الأخيرة. إلا أن هذه الجماهير لا تعمل تلقائياً أو وحدها، بل تحرضها فئة من المحرضين معظمهم من اليهود.**

وقد يقول البعض بأنه لم يكن بين نواب مجلس بروسيا البالغ عددهم ١٤٥ نائباً سوى يهوديين هما هيرش و هاين، إلا أن الأول كان رئيساً للوزراء والثاني وزيراً للداخلية. ولكن زعماء الثورة في برلين وميونيخ وماغدبورغ والروهر وكييل وبلاتينا كانوا جميعاً من اليهود وكذلك، فقد كان اليهودي ايرزبرغر هو الذي وقع معاهدة الصلح، وعمل بحماسة حتى تم التوقيع على معاهدة الصلح. وكان اليهود كوهن وغوتاين وزنسهايمر هم الذين عملوا لتشكيل لجنة التحقيق لمحاكمة هندنبورغ

افتتحت هذه المحاكمة في ٢١ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ في قصر الرايخستاغ. وكانت لجنة التحقيق برئاسة غوتاين وتكونت من ٢٨ عضواً من الحزب الاشتراكي وحزب الوسط. ومن أبرز أعضائها: كوهن و زنزهايمر. وخصصت الجلسات الأولى لاستجواب الكونت بيرنستورف سفير ألمانيا السابق في واشنطن. وفي ٣١ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ جاء دور رئيس الحكومة السابق بيتمان هولفيغ. وكان الرجل في الحقيقة مثاراً للشفقة، مما حمل شايدمان على الصراخ في الجمعية الوطنية يوم ١٥ تشرين الثاني ــ نوفمبر: «**سوف ترون كيف سنمسك بهؤلاء السادة من رقابهم**». وقد تبع ذلك استدعاء السيد ستروف والأميرال فون كابيل للمثول أمام المحكمة يوم ١٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ إلا أن المناقشات بدأت تفقد زخمها، فالأسئلة والأجوبة تتتالى دون أي ضوء جديد، حتى بدأ الرأي العام بإظهار استيائه.

جاء دور المعاون السابق لأمين سر الدولة في عهد غليوم الثاني **هالفريش** للمثول. لقد كان **هالفريش** مقاتلاً شرساً، ومحاوراً تملؤه الحماسة. لذلك اتخذ موقف الهجوم فانطلق لتوجيه الاتهامات بدلاً من أن توجه الاتهامات إليه. وألقى في وجوه قضاته بالحجج التي بدأ بطرحها منذ أسابيع على صفحات جريدة الصليب. ولقد فجر الموقف عندما قال: «**انكم تفتشون عمن كان السبب في دمارنا؟ وها أنا أذكره لكم: انه ايرزبرغر، الذي سيظل اسمه مرتبطاً إلى الأبد بشقاء ألمانيا وعارها! إنه هو الذي سيقودنا إلى الفناء الكامل، إذا لم تكبل يداه قبل ذلك! ليس أمام ألمانيا سوى مخرج واحد للنجاة. يجب أن تدوي هذه الصرخة في جميع أرجاء ألمانيا: «اطردوا ايرزبرغر»**».

لقد كانت هذه الجلسات جميعها هي التمهيد لليوم الحاسم، والذي وصل فيه المارشال هندنبورغ إلى برلين يوم ١٣ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٩م، حيث جرى استقباله بصورة رسمية، واصطفت سرية من حرس الشرف أمام المحطة بموسيقاها وأعلامها. وقام المارشال باستعراض الجنود على صوت النشيد الوطني. كما قامت بعض المجموعات من الشبان والطلاب الوطنيين بالإحاطة ، هاتفة مصفقة، وهي ترفع الأعلام الامبراطورية، ذات الألوان الأسود والأبيض والأحمر، وصعد المارشال بعد ذلك إلى عربته، وتوجه إلى النزل (الفيلا) الخاص بفون هالفريش وهو النزل الذي وضعه **هالفريش** تحت تصرف المارشال هندنبورغ خلال فترة محاكمته. بينما كانت شوارع برلين غاصة بالمواكب، بعضها ينشد النشيد الوطني* وبعضها الآخر ينشد الأناشيد الثورية والنشيد العالمي. وبينما كانت المشاجرات تنفجر هنا وهناك في العاصمة؛ والقطعات الحرة ترفع أعلامها وتقوم بالعرض أمام نزل (فيلا) هالفريش، كان المارشال هندنبورغ والمارشال لودندورف يتباحثان معاً لوضع الصيغة النهائية للبيان الذي سيلقيانه أمام لجنة التحقيق (المحاكمة). لم يتقابل الرجلان منذ

* النشيد الوطني: Deutschland Über-Alles.

ذلك اليوم الذي أعلن فيه الامبراطور سخطه وعدم رضاه عن القيادة العليا. ولقد انهارت منذ ذلك الحين الامبراطورية، واجتاحت ألمانيا ثورتان عارمتان متتاليتان، إلا أنه لا زال واضحاً بأنه من المحال حدوث أي تقارب بين القائدين: لقد بقي كل واحد منهما مغلقاً تجاه الآخر، تماماً كعشية افتراقهما. لقد كانت للأول صلابة البرونز وللثاني حدة الفولاذ. هذا التباين سيظل ظاهراً حتى في شهادتيهما.

تقدم هندنبورغ و لودندورف إلى المحاكمة في يوم ١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩١٩ م. وكان الجو مشحوناً بالتوتر الشديد، وقد اكتظت المنصات بالحضور منذ الساعات الأولى للصباح. وانتظر الجمهور هذه اللحظة بفارغ الصبر. وأخيراً تم استدعاء بطل تاننبرغ للوقوف أمام المنصة. وقد وصف أحد حضور الجلسه المنوس بقوله: «دخل القاعة رجل عملاق، عريض الصدر، وخط الشيب رأسه الكبير، وكأنه بعظمته وهيبته من رجال ما قبل التاريخ. ونهض الجميع بصورة لا شعورية، وحبسوا أنفاسهم، بينما كان هندنبورغ يتقدم باتجاه المنصة، وقد تركزت نظراته على النائب غوتاين الذي كان يرأس الجلسة، اضطرب هذا الأخير بشكل ظاهر، ولم يعرف أية وضعية يجب عليه اتخاذها، فمد يده إلى المارشال محاولاً مصافحته، إلا أن هذا الأخير تجاهل اليد الممدودة إليه وقال: «**لا يصافح المتهم القاضي**. وهكذا وقبل أن ينبس هندنبورغ ببنت شفة وضع خصمه في موقف الضعيف». وقام هندنبورغ بأداء اليمين القانونية، وبعدها التفت الرئيس غوتاين نحو هندنبورغ وسأله بصوت مضطرب، فضح عدم ثقة غوتاين بنفسه، إذ قال:

السؤال الأول: في أي تاريخ قررت القيادة العليا إطلاق زمام (حرب الغواصات)؟(١٠٨) ورد هندنبورغ: «قبل الإجابة على هذا السؤال، أطلب السماح لي بقراءة لمحة موجزة عن المبادىء التي وجهت أفكارنا وقراراتنا وأعمالنا أثناء الحرب». وفوجىء رئيس المحكمة غوتاين بهذا السؤال غير المتوقع. فتردد قليلاً؛ ثم وافق؛ شريطة أن يلتزم المارشال بالوقائع، ويمتنع عن اعطاء الأحكام التقييمية. ورد هندنبورغ: «سأكتفي بذكر الأحداث التاريخية التي أعتبر أنه من الضروري تذكير هؤلاء السادة بها». لفظ هندنبورغ هذه الكلمات بلهجة ودية (مجاملة) ودون أي ظل من التهديد، ولكن الجميع شعروا بأن هذا ليس سوى حركات تحضيرية للمبارزة. وأن القتال الحقيقي لن يلبث حتى يستعر.

أخرج هندنبورغ نظارتيه من جيبه، على مهل ودون تعجل، وبدأ بتلاوة مذكرته. فعرض أولاً وضع قوات الطرفين عند استلامه القيادة العامة؛ والامتداد الهائل للجبهات؛ والتزايد الرهيب في

(١٠٨) تجدر الإشارة هنا إلى أن ايرزبرغر كان قد ألقى خطاباً يوم ٦ تموز ـ يوليو ـ ١٩١٧ بدأه بالهجوم على (حرب الغواصات). وكانت هذه النقطة بعدئذ هي أول نقطة في الإنتقادات التي وجهها الرايخستاغ إلى هيئة الأركان العليا.
وجاء رئيس المحكمة غوتاين ليهاجم من نقطة الضعف على ما كان يعتقد مستخدماً أسلوب ايرزبرغر ذاته.

التعداد والعتاد؛ والصعوبات المتزايدة التي واجهتها القيادة العامة لفرض إرادتها؛ وضرورة التعاون الوثيق والدائم بين الجيش والشعب؛ ثم فجر قنبلته: «**بينما كانت كافة طبقات الشعب لدى العدو تزيد باستمرار من تلاحمها المقدس، كانت الخلافات عندنا بين الأحزاب قد بدأت تظهر، في الوقت الذي كنا فيه أحوج من سوانا للتلاحم نظراً لنقص قدرتنا العددية...**». هنا ارتفعت داخل اللجنة بعض الاحتجاجات؛ وساد القاعة هرج ومرج. كما ارتفع التصفيق والتأييد من المقاعد المخصصة للجمهور. فما كان من الرئيس غوتاين إلا أن هدد باخلاء القاعة. وتابع المارشال تلاوة مذكرته:

«**لم تقم المؤخرة بدعمنا، ولقد عشنا في قلق مستمر وخوف دائم من انهيارها. في هذه الفترة بالذات، أخضع كل من الأسطول والجيش لتأثيرات خارجية حاولت تفكيكهما وتفسيخهما. وهذا ما أدى بالجنود الشجعان، الذين لم يتأثروا بالدعاية البولشفيكية، إلى تحمل العذاب، وكل عبء الصراع وحدهم نتيجة السلوك المخجل لرفاقهم الثوريين**». وهنا عاد الصخب إلى القاعة، وعاود الجمهور الهتاف الحاد. كما ضاعت نداءات السيد غوتاين وسط هذا الضجيج الهائل، فاضطر إلى مطالبة المارشال بالكف عن التقييم والاكتفاء بذكر الحوادث. إلا أن المارشال، الذي كان يتوجه إلى ألمانيا من خلال المحكمة، لم يعد يهتم بطلبات الرئيس فتابع يقول: «**لم يكن بالمستطاع والحالة هذه تنفيذ مخططات القيادة العليا، كما كانت كافة عملياتنا مكتوب عليها الفشل مسبقاً. كان الانهيار أمراً محققاً لا يمكن تجنبه، ولم تأت الثورة إلا نتيجة طبيعية... لقد قال لي أحد الجنرالات الانكليز: لقد طعن الجيش الألماني من الخلف. لذلك لا يمكن إلصاق أية خطيئة بالعناصر السليمة من جيشنا. فقد كانت أعمالهم مجيدة ومشرفة تماماً مثلها كمثل أعمال الضباط (القادة)، أما المذنبون الحقيقيون فهم في مكان آخر. وقد أصبحت مسؤولياتهم واضحة كل الوضوح**». وعندئذ وقف الحضور جميعاً هاتفين للمارشال، مما دفع برئيس المحكمة إلى تعليق الجلسة. وعندما عاد المارشال إلى مكانه، ازدحم الحضور من حوله لمصافحته وتهنئته وتقديم الزهور له. وجاء الآن دور لودندورف إلا أن بيانه لم يعد له الوقع ذاته الذي أحدثه بيان هندنبورغ. فقد ألقى نبذة فنية (تكتيكية) عن العمليات العسكرية، كانت رائعة في نظر الخبراء. إلا أن الجمهور لم يعد يهتم مطلقاً بقضايا الاستراتيجية والتموين. واستطاع رئيس المحكمة غوتاين استثارة غضب لودندورف عندما وجه إليه ملاحظة قاسية، فما كان منه إلا أن ضرب بقبضته على الطاولة، وقد تملكه انفعال ظاهر. فهل وقع لودندورف في الشبكة؟. كانت هيئة المحكمة تتمنى لتنقذ نفسها، أن تجعله يتناقض مع هندنبورغ. إلا أن هذا الأخير، الذي أدرك المناورة التي لم يشعر بها لودندورف سارع لنجدة رئيس أركانه السابق، كعادته عندما كانا يعملان معاً في إدارة الحرب. فقال: «**إن لودندورف وأنا، كنا نعمل بأفكار موحدة ومنسجمة. لا شك أننا كنا على يقين من أنه لم يعد هناك بد من وضع حد للحرب. إلا أننا كنا نأمل في سلام**

مشرف. لست أدري إذا كان هؤلاء السادة قد عرفوا هموم الوطن التي حملناها في قلوبنا طوال سنوات».

لم يبق أمام رئيس المحكمة، بعد هذه الصدمة، إلا أن يرفع الجلسة، حيث ضجت القاعة بالهتاف لهندنبورغ. لقد كان هدف المحكمة هو النيل من سمعة القيادة العليا وهيبتها، إلا أن النتيجة جاءت معاكسة تماماً. وعلم هندنبورغ في اليوم التالي بأن: «اولئك السادة من الرايخستاغ قد فرغوا من استجوابه» فطلب من وزير الدفاع الألماني السماح له بالعودة إلى مقره. إذا لم يكن لدى الحكومة ما يحول دون ذلك. ولما لم يعد لدى الحكومة سوى فكرة واحدة هي: (**التخلص منه**) فقد وافقت على عودته. وخصصت وزارة الدفاع سرية شرف لتكون في وداعه.

غادر هندنبورغ العاصمة برلين يوم ٢٠ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٩. لقد بلغ الثانية والسبعين من عمره. وكان ذهابه هذا وداعاً قد لا تعقبه عودة. فشعر بنوع من الوحشة والإنقباض وهو يرى القصر الامبراطوري وهو يختفي بعيداً عن أنظاره. هذا القصر الذي حضر فيه كثيراً من الحفلات المدنية والعسكرية. أما الهتافات التي سمعها، فكانت تبدو له بمثابة الصدى الأخير لحياة حافلة بجلائل الأعمال. ولم يكن يخطر في ذهنه أبداً أن عربته ستعود بعد خمس سنوات لتمر من جديد تحت بوابة براندبورغ. وأنه سيسمع يومها هتافات تستقبله باعتباره رئيساً للرايخ.

استعادت العاصمة برلين وجهها المألوف بعد ذهاب المارشال، إلا أن نوعاً من الهيجان المكبوت استمر سائداً في الثكنات. كما استمر نوع من الصراع الخفي، أو الصامت، بين مراكز القوى العسكرية والحكومية (المدنية). ولقد تفجر هذا الصراع على شكل اصطدامات دموية، وحركات تمرد، وعصيانات مسلحة. وزاد الموقف سوءاً بتدهور الحالة الاقتصادية، وانخفاض القيمة الشرائية للمارك الورقي انخفاضاً مذهلاً. مما أدى إلى توقف حركة البيع والشراء. وامتنع المزارعون عن بيع قطعانهم وإنتاجهم الزراعي، لأنهم لم يكونوا يريدون بيع شيء مقابل المارك. وأصبحت الأسواق خالية، والمجاعة تهدد المدن. وبدأت أعمال النهب والسطو على الحقول والعنابر بقوة السلاح، حتى قيل بأن ألمانيا «تموت من الجوع وعنابرها ممتلئة».

هذا هو السلام، الذي وعد به الاشتراكيون والديموقراطيون، الذين أوهموا الشعب بأنه يكفي طرد آل هوهنزوليرن وتحطيم سلطة الطبقة العسكرية، حتى تعيش ألمانيا عهداً كله رخاء وهدوء وازدهار. وبدلاً من كل ذلك، رأى الناس أرتال العاطلين عن العمل والأطفال الذين لا يجدون الغذاء. بينما كانت البورصات مسرحاً للمهربين والمضاربين. وكانت هناك قوة غريبة تعمل خلف ستار هذه المناظر، فتسقط في الخفاء رجال العهد الجمهوري الواحد تلو الآخر. فقد تم خلال الحرب الأهلية قتل كل من ليبكنج و روزا لوكسمبورغ و كورت إيسنر. ولقد انتهت

الحرب الاهلية، إلا أن الاغتيالات استمرت. كانت هناك عصبة من الإرهابيين تعمل في الظلام لمتابعة العمل الذي بدأه الملازم الأول فون فلوغ هارتوفغ والكونت أركوفاللي في ٢٦ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٢٠، حيث جرت أول محاولة لاغتيال ايرزبرغر. وتبعها اغتيال النائب البافاري غاريس في ميونخ يوم ١٠ حزيران ــ يونيو ــ ثم هوجم ايرزبرغر مرة ثانية خلال أحد النزهات، من قبل ضابطين سابقين في لواء ارهارت وقتل بطلقات المسدس يوم ٢٦ آب ــ اغسطس ــ ١٩٢١. وتبع ذلك اغتيال شايدمان في ٤ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٢٢. لقد كانت الجريمة هي المهيمنة على الشارع، وكانت السكين والمسدس والقنبلة اليدوية والسم هي الأسلحة التي استخدمتها عصبة الإرهاب. لقد خرجت الفوضى الألمانية من وسط الضباب. كانت الطلقات تدوي في الشوارع، والناس يتساقطون لسبب أو لآخر، فيما كان الشعب يغلي على نار الفقر والجوع والبطالة والفوضى، إلا أنه رغم غموض الخطر، كان يرى أشباح مسببيه بوضوح. فقد ظهر على مسرح الأحداث رجل جديد، عمل وسط هذا الجو العاصف، وتجسدت فيه مأساة الجمهورية الألمانية: إنه اليهودي **وولتر راتنو**. الذي كان قد كتب في سنة ١٩٠٩، «تشكلت على مر السنين طبقة حاكمة مغلقة مثلها كمثل طبقة فينيسيا القديمة، وانتظمت على شكل جمعيات مساهمة، تتخذ قراراتها لنفسها وبنفسها، وتمارس دورها في أكثر مجالات العمل ديموقراطية، حيث الجمهور سيد نفسه. إنهم ثلاثمئة من الرجال يعرف بعضهم بعضاً معرفة جيدة. ويوجهون مصير الاقتصاد في العالم كله. ويبحثون عن خلفائهم في الوسط المحيط بهم». وقد أظهرت هذه الكتابة بوضوح ما يتمتع به هذا الرجل **وولتر راتنو** من كبرياء لانتمائه إلى هذه الطَبقة المختارة، التي تمسك بيديها مستقبل الاقتصاد في العالم.

لقد ترك له أبوه شركة هائلة، تمتد فروعها إلى كثير من بلدان العالم. كان رأس ماله في العام ١٩٢١ حوالي ١٥ مليار مارك من الذهب، موزعة على ٣٠٧ فروع، منها ١٨٨ في الخارج. وشملت فيما شملته ١٨٥ معملاً للكهرباء والغاز وشركات التلغراف و١٦٨ مصنعاً للقطارات والقاطرات، و٤١ مصنعاً للآلات الكهربائية والآلية (الميكانيكية) والكوابل و١٢ شركة نقل و٧٢ معملاً للمنتجات الكيماوية و٣٨ مصنعاً للبورسلين والفخار و٨٣ منجماً للفحم و١٥٤ معملاً للحديد والصلب و١٧ منجماً للحديد. وكانت شركة الكهرباء التابعة له تقدم الكهرباء لبرلين ولمعظم المدن الألمانية، بالإضافة إلى أنها كانت بواسطة الشركات المحلية والبنوك التي تشرف عليها، تؤمن الإنارة لكل من مدريد ولشبونة وميلانو وجنوه ونابولي وكريستيانا ومكسيكو وريو دي جانيرو وبونس آيرس وفالباريزو وأوديسا وكييف وإركوتسك وموسكو.

ما إن بلغ **وولتر راتنو** السن التي أخذ فيها بالاستقلال في تفكيره، حتى أدرك أنه باعتباره يهودياً فقد ولد مواطناً من الدرجة الثانية، وأنه سيظل كذلك مهما كانت قيمة الخدمات التي

يستطيع تقديمها في امبراطورية غليوم الثاني. لقد نجح والده في إدخاله مجال الخدمة العسكرية في فرسان الحرس، إلا أنه لم يتلق خلال السنة التي خدم فيها أي ترفيع. كما كان رفاقه يتجنبون معاشرته. لقد كان مستعداً لبذل كل شيء حتى يصبح ضابطاً ناجحاً في الفرسان، مثله كمثل هؤلاء الذين تنفتح أمامهم كافة الأبواب، ويبتسم لهم الحظ باستمرار. لذلك، ما كاد يدخل معترك الحياة حتى كان طبعه قد تميز بشعور مزدوج من الإنجذاب والإذلال: الإذلال نتيجة تجاهل قدراته، والإنجذاب إلى فئة إنسانية لا ينتمي إليها. ومنذ ذلك الحين، كان هناك جدار من الزجاج يفصله عن أمثاله، وحاجز منيع لا هو قادر على تحطيمه، ولا هو قادر على تجاوزه وتخطيه. ولم يستطع وولتر راتنو وهو على رأس مصانعه، أو هو على رأس مصلحة المواد الأولية التي كلفه الجنرال فون فولكنهاين بتنظيمها بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة، أن يهرب من شعوره بالوحدة. كان زملاؤه في وزارة الحرب يتجنبونه تماماً، كما كان يتجنبه رفاقه القدامى في فوج الفرسان. حتى أنه وجد في أحد الأيام مكاتبه في وزارة الحرب وهي محاطة بحاجز أقيم أثناء الليل لفصله عن المكاتب الأخرى، وكأنه حيز موبوء بمرض الطاعون. **وعندئذ بدأ يكره هذا النظام، حيث التجارة والصناعة مفتوحتان أمام الجميع، بينما كانت السياسة والجيش وقفاً على فئة خاصة، لم يستطع راتنو الانتماء إليها رغم جهوده المتواصلة.** واعتباراً من تلك اللحظة، أخذ يرى الكارثة تقترب، وتوقع لها أن تبلغ أبعاداً كبيرة جداً. وكان **وولتر راتنو** يتمنى هذه الكارثة الكبرى التي حلت بألمانيا، لأنه كان يعتبرها نوعاً من الخلاص بالنسبة له. ذلك أن انهيار الامبراطورية سيسمح له بإثبات وجوده. ولكن عندما حلت الكارثة تجاوزت أبعادها كل ما كان يتوقعه، وقد قال هو ذاته عنها: «إنها حريق هائل يحترق فيه البناء الاجتماعي الأوروبي». لقد وقع الرايخ الثاني أرضاً، وتحطمت جميع الحواجز التي كانت تعترض مسيرة وولتر راتنو وانطلاقه. إلا أن ما كان يرجوه من الخلاص لم يصله. فبينما مجدت الجماهير الثورية ــ الحمراء ــ كثيراً من اليهود، أدارت الثورة الألمانية له ظهرها. لقد كان دائماً بالنسبة لرجل الشارع: الرأسمالي الاحتكاري والبورجوازي المترف، الذي يعيش في القصور الفخمة، بينما يتكدس عماله في ثكنات من الإسمنت. ولكن **وولتر راتنو** لم يتخلف على كل حال عن اللحاق بركب الثورة. وبدأ بإثبات وجوده حول الموائد الخضراء للاجتماعات الدولية. ورافق وزير المالية إلى سبا في تموز ــ يوليو ــ ١٩٢٠. ثم شوهد بعد ذلك في بروكسل ولندن وباريس وسواهما. وتدرب وولتر راتنو خلال هذه المحادثات والاجتماعات على ممارسة دوره المقبل، وأعد الخطوط العريضة لما سماه (سياسة التنفيذ). **وكان وولتر راتنو يرى أنه ليس باستطاعة ألمانيا أبداً الاضطلاع بالالتزامات المالية التي فرضتها عليها معاهدة الصلح، إلا إذا لجأت إلى الاستدانة من الخارج. ولتحقيق ذلك كان لابد لألمانيا من أن تشعر دائنيها بالثقة، وللوصول لهذه الثقة لابد من التخلي نهائياً عن نزعتها العسكرية. إن التنفيذ الصادق لبنود المعاهدة هو وحده الكفيل بأن يفتح لألمانيا مجال الاعتمادات اللازمة، لتقويم وضعها المالي،**

ويسمح لها باحتلال مكانتها اللائقة بها بين الدول الديموقراطية الكبرى في الغرب (فرنسا و انكلترا).

يمكن بسهولة تصور مدى الصدمة التي أحدثتها هذه السياسة في الأوساط المتصلة بوزارة الحرب اتصالاً قريباً أو بعيداً. ليس ذلك فحسب بل إن قوة الصدمة تجاوزت وزارة الحرب إلى مراكز الصناعة الثقيلة، التي كان يسيطر عليها آل كروب و تيسن و هوغنبرغ، سادة الصناعة الثقيلة في الروهر وصانعي الفولاذ والذين وجدوا في معاهدة فرساي إضعافاً لهم. وها هي سياسة وولتر راتنو تأتي لتدمرهم دماراً نهائياً. إلا أن الجمهورية الألمانية لم تعد بحاجة إلى مراعاة هذه الفئة الرجعية، من القادة والصناعيين. فعمل مستشار ألمانيا ويرث على تعيين وولتر راتنو وزيراً للإصلاح في وزارته الجديدة، في ١٠ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٢١، وعهد إليه بتنفيذ (سياسة التنفيذ). وبعد ذلك بتسعة أشهر، ٣١ كانون الثاني ـــ يناير ـــ ١٩٢٢، أصبح **وولتر راتنو** وزيراً للخارجية في الرايخ. وبهذه الصفة ذهب إلى مؤتمر جنوه. وكان يمكن لهذا المؤتمر أن يمر كالمؤتمرات السابقة، دون نتائج عملية تذكر، ودون أي ضجيج، لو لم ينته بعمل صاعق أثار دهشة أوروبا كلها؛ وهو التوقيع على معاهدة راباللو بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي في ١٦ نيسان ـــ ابريل ـــ ١٩٢٢[١٠٩] وظهر أن وولتر راتنو قد أراد أن تحل الاتفاقيات الاقتصادية البحتة بديلاً عن أعمال التوسع والفتوحات العسكرية في الشرق والتي كانت عزيزة على لودندورف وأغلب العناصر القدامى لهيئة الأركان العامة السابقة. ولقد أراد أن يبرهن لألمانيا أنه بالإمكان تحقيق النتائج ذاتها بوسائل مختلفة، وأنه يجب في الوقت الحاضر، استبدال الحملات المسلحة بوسائل أحدث هي التغلغل الاقتصادي[١١٠].

أدت معاهدة راباللو إلى إعادة العلاقات الألمانية الروسية، بعد أن ظلت معلقة منذ معاهدة برلين في ٦ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٢١ م. إلا أنها أثارت عاصفة من الاستنكار في معسكر الحلفاء، الذي رأى في هذه المعاهدة قاعدة للتعاون بين جيش الرايخ والجيش الأحمر، كما اعتقد بأن (سياسة التنفيذ) هذه ليست سوى خديعة وذريعة. كذلك ثارت ثائرة الوطنيين الألمان الذين قالوا بأن وولتر راتنو قد باع ألمانيا باتفاقه مع البولشفيك، ذلك أن هذه المعاهدة قد عززت في الواقع سلطة السوفييت، وقدمت لهم قاعدة انطلاق جديدة لدعايتهم الثورية.

---

(١٠٩) تضمنت معاهدة راباللو، تخلي ألمانيا عن أية مطالب أو حقوق نتيجة تطبيق القوانين والتدابير السوفييتية التي مست بالحقوق الشخصية للرعايا الألمان، ولحقوق الرايخ نفسه (مادة ٢) مقابل منح السوفييت ألمانيا حقوق الدولة الأكثر رعاية (مادة ٤) مع التسهيلات اللازمة لعقد وتنفيذ الاتفاقيات الاقتصادية بين الاتحاد السوفييتي والصناعات الخاصة الألمانية (مادة ٥).

(١١٠) تجدر الإشارة إلى ما كتبه راتنو في مذكراته: «قال نابليون لغوته وأرفورث: بأن السياسة هي المصير. ولقد بقيت هذه العبارة صحيحة ولكن لوقت محدود. وقد جاء اليوم الذي يجب أن يقال فيه: الاقتصاد هو المصير».

المقابلة. إذ أن المطلوب هو إعادة الجيش إلى الإطار الذي رسمه (الدستور الجديد)، حيث يجب أن يصبح أحد مسننات الإدارة، أي عنصر تنفيذ لا خلاف على أهميته. ولكنه غير متميز عن الوظائف الحكومية الأخرى بأية ميزات. **وهذا بالضبط ما كان يثير حفيظة الضباط. فهم لا يرفضون الخدمة، ولكن شريطة أن يظلوا ــ كالملك ــ أوائل خدام الدولة. فالمبدأ الذي يجمعهم هو من النوع الروحاني الذي لا يمكن تحويله إلى مجرد وظيفة إدارية**. أما القيام بالخدمة، بغموض ودون تذمر، لصالح حكومة لا تعجبهم، كما يفعل غالب الضباط الفرنسيين، فهذا شكل من الوطنية ما زال أمامهم وقت طويل حتى يتعلموه. وبدلاً من الانفتاح على روح العصر الجديد، كان الجيش الألماني يتقلص وينطوي على ذاته. لقد كان يقوم إذا جاز التعبير (بانفصالية عسكرية).

لقد كان أعضاء الحكومة يعتقدون، بأن الدولة غير مهددة بشكل جدي. وأن أسباب الاضطرابات في الجيش مختلفة لدى الضباط عنها لدى الجنود، مما يبعد احتمال وقوع عصيان متماسك، لذلك يكفي لإعادة الهدوء تلبية بعض المطالب التي تقدمت بها هيئة الأركان: تحسين الإقامة والإطعام، وتوفير العمل للمتطوعين المسرحين. ويجب أن يتكيف الجيش مع مصيره الجديد، إلا أن تحويل الأفكار لا يمكن أن يتم في يوم وليلة. وخلال ذلك يمكن للحكومة الاعتماد على أنصارها من الضباط اليساريين، مع التحرك بسرعة وبحزم قبل فوات الأوان.

لقد كان رئيس الحكومة بوير والوزير ايرزبرغر(١٠٧) قد حددوا موقفهم ومعهم جميع اليساريين في الوزارة تجاه الجيش الألماني من خلال مبادئهم: «يجب على العسكريين أن يتعلموا الأكل من يد السلطات المدنية» و «لا يقمع العصيان بتلبية مطالب العصاة، وإنما بتعزيز سلطة اليسار الاشتراكي» و «يجب تدمير الحالة المعنوية التي يحيط الضباط أنفسهم بها». وتنفيذاً لذلك تقرر تكوين لجنة تحقيق مهمتها إلقاء الضوء على بعض الحوادث التي حصلت قبل الحرب وأثناءها، من أجل وضع حد لقصة ــ طعنة الخنجر التي طعنت الجيش الألماني من الخلف ــ والتي أخذت في التفاقم في الأوساط الألمانية المختلفة. **وهكذا وبحجة المطالبة بالإيضاح يمكن استدعاء هندنبورغ ولودندورف إلى منصة الشهادة، لإقامة البرهان على وقوع مسؤولية الهزيمة على عاتقهما، فتقل هيبتهما المعنوية، بمجرد ظهورهما أمام الشعب بصفة متهمين. كما أن انهيار (سادة الحرب) سيبرز بصورة أفضل (جلال الديموقراطية)، ويصبح بالإمكان توسيع دائرة النقاش للإنتقاص من قيمة الفئة التي ينتميان لها: وتصبح محاكمة القيادة العليا، نوعاً من المحاكمة والإدانة للجيش كله....**

---

(١٠٧) ايرزبرغر: Erzberger - Mathias سياسي ألماني من مواليد بوتنهاوزن Buttenhausen ١٨٧٥ ــ ١٩٢١، أحد رؤساء المركز الكاثوليكي، والعضو الرئيسي في محادثات الهدنة التي انتهت بتوقيع معاهدة الصلح ١١ تشرين الثاني ــ ١٩١٨، مما حمل عليه حقد الألمان، فتم اغتياله.

ولودندورف. **فهل هناك بعد ذلك كله حاجة للبرهان على وجود مؤامرة يتزعمها اليهود ؟ وهل يمكن بعد ذلك كله احتمال رؤية يهودي مثل وولتر راتنو على رأس وزارة الخارجية ؟ ولكن لماذا الحقد على وولتر راتنو بالذات ؟...**

لقد كان **وولتر راتنو** في نظر ألمانيا الوطنية هو أخطر زملائه اليهود كلهم. لقد كان يريد أن يرسم لألمانيا طريقاً غير طريقها، ويفرض عليها التخلي عن تقاليدها وتاريخها، وبتعبير آخر (عن وجودها). فعندما كان وولتر راتنو يتحدث عن ألمانيا، فإنه كان يعني (الاقتصاد الألماني). وكانت حجته الرئيسة دائماً: «هي أن الضرر الذي يلحق بالاقتصاد الألماني هو ضرر للاقتصاد العالمي كله». وكان طموحه يتلخص في إدخال الرايخ ضمن جهاز الدول الأوروبية الكبرى. **وكان هذا المفهوم الجديد للعالم؛ حيث تتحول الأمم إلى شركات مغفلة يحكمها مجلس من الإداريين غير المسؤولين؛ وحيث يصبح الانسان مجرد آلة استهلاكية لا تعيش إلا لسد حاجتها المادية، كان مفهوماً يثير غضب الألمان الوطنيين وتقززهم (قرفهم). ثم ما هو المكان الذي سيخصص للضابط والجندي في عالم يستعبده الانتاج وتصريف البضائع ؟ إن إعادة بناء روسيا الاقتصادي، لم يكن يهمهم على الإطلاق. إن ما كان يهمهم، ويهم المحاربين القدامى بصفة خاصة، هو دخول ريغا و كييف و أوديسا عن طريق المجد والفتح، وليس عن طريق سلم الخدم للبائعين.**

وهكذا حدد وولتر راتنو مصيره بنفسه عندما تجاهل هذه الحقائق أولاً، وعندما عمل ضدها ثانياً. وقد جاء هذا المصير يوم ٢٤ حزيران — يونيو — ١٩٢٢، عندما غادر منزله في الساعة ٣٠ر١٠ صباحاً للذهاب إلى الوزارة، حيث لحقت به سيارة ذات ست مقاعد، فيها ثلاثة شبان يرتدون المعاطف الجلدية، وعندما أبطأت سيارة الوزير سيرها عند المنعطف، تجاوزتها السيارة الأخرى وأرغمتها على الالتصاق بالرصيف الأيسر، ونزل أحد الشابين الراكبين في السيارة الأخرى، ووجه بندقيته إلى وولتر راتنو وأطلق رشة من الرصاص، فيما كان الشاب الآخر يلقي قنبلة يدوية داخل سيارة الوزير. وانتهى كل شيء بسرعة البرق. واختفت السيارة الأخرى في أحد الشوارع الجانبية، ونقل وولتر راتنو إلى منزله وقد فارق الحياة.

أرسل الكثير ممن عرفوا وولتر راتنو برقيات التعزية، فيما ذهب آخرون لإلقاء نظرة الوداع، وللمشاركة في مراسم دفن الميت. وفي هذا الوقت ذاته، كانت مشاعل الفرح تضاء في جميع أنحاء الريف بمناسبة عيد القديس يوحنا. **فيما كانت جماهير الشبان تشكل الحلقات حول المشاعل وتقسم على العمل بإخلاص للوطن وللشعب الألماني. وفجأة بدأت صرخة مدوية تتردد في ذلك الليل من هضبة إلى هضبة: «استيقظي يا ألمانيا». ومع هذه الصرخة المدوية، كان الكاتب البافاري ديتريش ايكارت قد أطلق شعاره: «يجب سجن كافة اليهود سجناً وقائياً، وتحطيم نير**

الفائدة، وإعادة الجمعيات الحرفية الجرمانية القديمة». لقد أخذت (الاشتراكيـة الألمانيـة الوطنية) والتي حملت بعدئذ اسم (النازية) طريقها للظهور، وسط الغيوم القاتمة ووسط العواصف الهوجاء، إلا أن الطريق لا زال شاقاً وطويلاً.

○

لقد مضت أربع سنوات على عمر الجمهورية (١٩١٩ ـــ ١٩٢٣) وكانت هذه السنوات حافلة بالعواصف السياسية والاضطرابات والصراع على الحدود والانقلابات العسكرية. ولكن ذلك كله تبدل فجأة مع إطلالة سنة ١٩٢٤. لقد هبت ريح قوية بددت الضباب من سماء ألمانيا، ولم يعرف التاريخ تبدلاً مباغتاً من هذا النوع، إلا في حالات نادرة. فقد هب شعب كامل من وسط الضياع خلال أسابيع قليلة، وتمالك نفسه، ووقف في وضعية الاستعداد، ثم استدار إلى الوراء بإشارة واحدة. غير أن هذا التبدل المباغت لم يكن إلا ثمرة لجهود الجيش الألماني، بقيادة فون سيكت، والذي استطاع المحافظة على وحدة الشعب الألماني من خلال احتلاله للروهر، ومن خلال قضائه على جيش الرايخ الأسود (براندبورغ)، ثم قضائه على الاضطرابات، والحركات الانفصالية (هامبورغ). وقد استطاعت أزمة ١٩١٨ ـــ ١٩١٩ أن تسحق الشيوعيين. في حين أدت أزمة ١٩١٩ ـــ ١٩٢٣ لهزيمة الاشتراكيين الديموقراطيين. وانتقلت السلطة إلى الأحزاب البورجوازية (الديموقراطية والشعبية) والتي تمثل الصناعات المتوسطة والثقيلة. وجاء دور الاقتصادي الدكتور شاخت ليكمل دور العمل العسكري الذي تولى قيادته فون سيكت. فقد تخلى الدكتور شاخت عن المارك وأوجد عملة جديدة. ورافق ذلك تحول في التوجه السياسي، فبينما كان وولتر راتنو قد وجه بلاده نحو السوفييت، وفتح الأسواق الروسية أمام التجارة الجرمانية، جاء الدكتور شاخت ليعكس الاتجاه. فقد تخلت ألمانيا عن أملها بالسوفييت، وأظهرت أنها تريد الإنضمام من جديد تحت لواء المصير المشترك للقارة الأوروبية. فكان موقف ألمانيا هذا مثله كمثل رقاص الساعة الذي بلغ مداه في اتجاه، ثم بدأ يتحرك أقصى مدى في الاتجاه المعاكس. حيث استدارت ألمانيا نحو الغرب، وعبرته إلى الأفق البعيد حيث الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد وجدت ألمانيا نفسها فجأة في عالم متحول بعد فترة طويلة من الانحدار والفوضى، حيث أفسح العسكريون المجال الواسع أمام الخبراء الاقتصاديين ورجال المال. وبدأت الأحزاب الحاكمة بالسعي نحو قدسية العمل المبني على روح المشاريع وتقديس الآلة وذلك بدلاً من التمسك العسكري بالأحلاف والقطعات الحرة (التنظيمات الحزبية شبه العسكرية). وبدأت المحطات والملاعب والمدن العمالية والمطارات تظهر في كل مكان، مستعينة بالذهب الأمريكي. وانطلقت ألمانيا في غمار حمى العقلانية والانتاج، بما عرف عنها من الاندفاع المتطرف دائماً وفي كل شيء؛ مما سيؤدي مع الزمن

إلى فائض في الانتاج وبالتالي إلى البطالة. إلا أن هذه النتيجة الوخيمة لم تكن قد ظهرت بعد إلى السطح. وحتى قبل أن يبدأ بنك الرايخ الجديد عمله، أخذت رؤوس الأموال الأمريكية تنهال عليها كالسيل العرم.

توقف الجيش عن التدخل المباشر في الحكم خلال هذه المرحلة الجديدة، واختفى نسبياً عن المسرح السياسي. إلا أن قادته لم يقعدوا عن العمل، وإنما على العكس، ففي وسط حمى المضاربات والمزاودات التي هيمنت على الأذهان، ظلوا هم وحدهم محافظين على هدوئهم ووضوح رؤيتهم. فلم يشاركوا الخبراء تفاؤلهم، إذ كان يكفيهم أن ينظروا حولهم ليروا أن هذا الإزدهار المزعوم ليس أكثر من وهم أو سراب، وأن البناء الاقتصادي الألماني قد ارتكز على قاعدة وهمية. ففي ألمانيا التي استعمرتها البنوك الأجنبية، والتي حكم عليها أن تأكل نفسها تدريجياً، لدفع الفوائد الباهظة للديون الكثيرة التي أخذتها دون وعي أو تبصر، كان على العسكريين أن يبقوا نشيطين أو يقظين أكثر من أي وقت مضى. وكأنما أراد القدر أن يسجل أيضاً بداية العهد الجديد برئاسة جديدة. **فقد توفي رئيس ألمانيا ايبرت يوم ٢٨ شباط ــ فبراير ــ ١٩٢٥**. وبدأ الصراع على الفور داخل الأحزاب السياسية، ودعي الشعب الألماني للمرة الأولى في التاريخ الحديث لاختيار رئيسه، وأخذ العالم ينتظر بنفاد صبر نتيجة هذه الانتخابات التي جرت يوم ٢٩ آذار ــ مارس ــ ١٩٢٥. غير أن أياً من الأحزاب لم يحصل على الأغلبية المطلقة[١١١] فكان لابد من إعادة الانتخابات. وساد على الفور قلق شديد في الأوساط اليمينية. إذ لو نجح (حزب الوسط) لكان من المحال إعادة الملكية إلا بانقلاب. وقد ظهر عقم هذه الوسيلة في التجارب المتتالية التي خاضتها ألمانيا خلال السنوات السابقة. وكان لابد من رفع رمز في وجه (تحالف الويمر) **ولم يكن في ألمانيا كلها شخص يصلح للاضطلاع بهذا الدور سوى المارشال هندنبورغ**. فالنصر المعنوي الذي أحرزه على لجنة التحقيق (المحكمة)، وامتناعه عن الدخول في خلافات الأحزاب؛ قد أكسبته احترام أغلبية الأمة. وكانت عظمته في الماضي، بالإضافة إلى ما أحاط به من هالة الهيبة، قد جعلا منه ملكاً غير متوج، حتى من قبل أن ينتخبه الشعب. فهو الوحيد القادر على الاستيلاء على السلطة من الداخل. لقد كانت فترة حكم ايبرت[١١٢] مجرد مرحلة انتقالية درامية ودامية. أما مع **هندنبورغ** فسوف تعود ألمانيا إلى مسيرتها التقليدية العادية. إلا أن هندنبورغ الذي هزته وفاة زوجته، والذي كان يعيش حياة العزلة في منزله

(١١١) أحرز اليمين والمستقلون (جريس) في هذه الانتخابات ١٠،٧٨٧،٨٧٠ صوتاً. كما أحرز الاشتراكيون ٧،٨٣٦،٦٧٦ صوتاً. أما الوسط (ماركس) فقد أحرز ٣،٩٨٨،٦٩٥ صوتاً. فيما أحرز الشيوعيون (تالمان) ١،٥٨٢،٤١٤ صوتاً. وأحرز الشعبيون البافاريون (هيلد) ٩٩٠،٠٣٦ صوتاً. فيما أحرز تحالف أقصى اليمين (لودندورف) ٢١٠،٩٨٨.

(١١٢) ايبرت: Ebert - Friedrich اشتراكي ألماني من مواليد هيدلبرغ Heidelberg انتخب سنة ١٩١٩ أول رئيس للجمهورية الألمانية التي حملت اسم (جمهورية الويمر).

بهانوفر، رفض هذا الشرف، وقال للذين جاؤوا يفاوضونه: «إنني عسكري قديم ومسن، ولم يسبق لي أن عملت في السياسة». ولم يكن باستطاعة أحد زحزحة المارشال عن موقفه إلا أخذ رفاقه القدامى في السلاح. فانتدبت الأوساط العسكرية الموصوفة ـــ باليمينية ـــ والمخلصة للروح الجرمانية التقليدية، لهذه المهمة القائد السابق للبحرية الامبراطورية الأميرال فون ترويبز، والذي كانت تربطه بالمارشال هندنبورغ أواصر صداقة حميمة لم تنفصم عراها. فقام الأميرال بالمهمة، وعرض على رفيقه القديم في السلاح، ان عدم تقدمه للانتخابات يعتبر تهرباً يعتقد معه الناس أن بطل تاننبرغ يخشى الهزيمة، بينما يعتبر وجوده على رأس البلاد ضمانة لجيش الرايخ، وعزاءً لجميع من أخرجوا من الجيش، أو تركوه طوعاً. أما كونه لم يشتغل في السياسة، فهو من الأسباب الرئيسة التي دعتهم للجوء إليه. وأما كونه عسكرياً سابقاً، فإن سمعته وهيبته هما كفيلتان بالسيطرة على الأحزاب والتفرغ لخدمة الأمة.

صدم هندنبورغ بهذا الكلام. فطلب منحه مهلة ثلاثة أيام للتفكير. قام بعدها بإعلام أصدقائه بأنه قد قبل ترشيح نفسه لرئاسة الرايخ. وعندئذ شعر هذا العسكري القديم ذو السبعين عاماً بتبدل غير منتظر. وقد قال عن ذلك: «**كنت صدئاً بعض الشيء، إلا أنني شعرت فجأة بحيوية الصبا**». لقد انبعث في نفسه مجدداً أمل الحياة والشعور بالمسؤولية وحب التنظيم والقيادة. كانت الأحزاب التي راهنت عليه، تعتقد بأنه ليس سوى رمز ـــ مجرد رمز ـــ أو علم مجيد يخرج من المتحف في الاحتفالات وأيام الأعياد. **إلا أن هندنبورغ، ما كاد يتخذ قرار الترشيح، حتى بدأ يستعد ويعد لهذه الانتخابات كما يتم الإعداد للمعركة. كان يهتم بكل شيء؛ ويرى ويوقع بنفسه كل شيء؛ خاصة وأن لودندورف لم يعد بجانبه ليساعده. وقد بدأ يلقي الخطب؛ ويستقبل رجال الصحافة؛ ويكتب نصوص بلاغاته وبياناته؛ مما أدهش حاشيته؛ لأن هذا الجهد الذي ينهك الشباب؛ لم يكن يسبب له أي تعب أو إزعاج.** وقطف هندنبورغ ثمرة جهوده في الدورة الثانية للانتخاب والتي جرت يوم ٢٧ نيسان ـــ ابريل ـــ ١٩٢٥م، **حيث بلغ عدد الناخبين ١٤ر٦٥٥ر٧٦٦ ممن صوتوا لهندنبورغ**، مقابل ١٣ر٧٥١ر٦١٥ صوتاً حصل عليها ماركس، و ١ر٩٥١ر١٥١ صوتاً لتالمان.

وصل المارشال هندنبورغ إلى برلين في يوم ١١ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٢٥، حيث جرى له استقبال يختلف تماماً عن استقباله الأخير، عندما حضر للمثول أمام المحكمة أو لجنة التحقيق. فقد قدم له حرس الشرف السلاح وسط الجماهير المحتشدة؛ في صفوف طويلة؛ وظلت تحيط به طوال مروره في الشوارع؛ وحتى عبور سيارته تحت القوس المركزي لبوابة براندبورغ، والذي كان مخصصاً حتى الآن للامبراطور. لم يكن هذا القائد الأعلى لجيوش غليوم الثاني؛ الذي كانت حياته حافلة؛ ليشك لحظة واحدة في أن هذه المرحلة الجديدة من حياته، سيكون لها أعمق الأثر في التاريخ.

ودخل هندنبورغ في اليوم التالي إلى الرايخستاغ، حيث أقسم يمين الولاء للدستور. كانت الشرفات والمنصات مكتظة بالقادة (الجنرالات) الذين جاؤوا بألبستهم الرسمية، وكذلك بكبار قادة الرايخ، وأعضاء السلك الديبلوماسي. **لقد حفظ الناس عن كلاوزفيتز قوله: «ان الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى». ولكن ها هي مقولة أخرى تحاكيها في أسلوبها؛ تبرز الآن للوجود: «ليست الجمهورية سوى استمرار للامبراطورية بوسائل أخرى»**.

كان الحلفاء يتخذون موقف العداء من هندنبورغ ورئيس هيئة أركان حربه لودندورف عندما انتهت الحرب. ولكن الموقف تغير بعد خمس سنوات، فعندما خرج هندنبورغ من عزلته، كان الموقف على جبهة الغرب قد تبدل تماماً. وبالرغم من ذلك، فقد سارع ستريسمان[113] لإصدار بيان كان هدفه هو إشعار الزعماء الغربيين بالطمأنينة، وتضمن ذلك البيان: «**إن انتخاب المارشال لايمكن أن يؤدي إلى أي تغيير في السياسة الخارجية للرايخ**». وكان وزير الخارجية الألماني ستريسمان قد بعث بمذكرته إلى سفيره في باريس، تم تسليمها إلى رئيس الوزراء الفرنسي يوم ٩ شباط ــ فبراير ــ ١٩٢٩، وتضمنت ما يلي: «**... إذا كانت كل من فرنسا وانكلترا وبلجيكا وايطاليا على استعداد للتخلي عن الحرب من أجل الدفاع عن حدودها، وإذا كانت مستعدة فيما بينها لإعطاء ضمان متبادل بالمحافظة على الوضع الإقليمي القائم، فإن الرايخ مستعد للاشتراك في تعهد من هذا النوع**». واستجابت انكلترا وفرنسا للمبادأة الألمانية. وبدأ الإعداد لعقد المعاهدة التي عرفت باسم معاهدة لوكارنو[114] والتي تم التوقيع عليها بالأحرف الأولى يوم ١٦ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٢٥، حيث صدر البيان التالي: «... يعلن ممثلو الحكومات الحاضرون هنا، عن قناعتهم الأكيدة بأن وضع هذه الاتفاقات موضع التنفيذ من شأنه أن يساهم كثيراً في خلق جو من الهدوء والوئام بين الأمم؛ كما يسهل إلى حد بعيد حل كثير من المسائل السياسية والاقتصادية. وإن تأكيد السلام والأمن في أوروبا، من شأنه التعجيل بشكل فعّال بنزع السلاح، وفق المادة ٨ من ميثاق عصبة الأمم. لذلك فهم يتعهدون بتقديم المساعدة المخلصة للأعمال التي بدأتها عصبة الأمم؛ والمتعلقة بنزع السلاح؛ مع السعي لتحقيقها ضمن اتفاق عام». التواقيع: ممثلو ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا. وتأتي بعد ذلك مواد المعاهدة الرينانية ذاتها والمقتصرة على: فرنسا وانكلترا وبلجيكا وايطاليا وألمانيا وهذه هي موادها الرئيسية:

---

(١١٣) ستريسمان: Stresemann Gustav رجل دولة ألماني ١٨٧٨ ــ ١٩٢٩، أنهى حياته وزيراً للخارجية ١٩٢٣ ــ ١٩٢٩، وهو من مواليد برلين. مارس دوره في التوقيع على اتفاقية لوكارنو Locarno سنة ١٩٢٩، ومعاهدة باريس للسلام Pacte De Paris، والتي حملت اسم وزيري الخارجية الفرنسي والأمريكي Briand - Kellogg.

(١١٤) لوكارنو: Locarno مركز اصطياف في سويسرا (اقليم تيسان) على بحيرة ماجور في سفوح جبال الألب. ويرتفع ٦٨٠٠ م عن سطح البحر.

المادة الأولى: تتعهد الأطراف المعنية أعلاه بالمحافظة على الوضع الإقليمي القائم وعدم المساس بالحدود بين بلجيكا وألمانيا وفرنسا، كما حددتها معاهدة فرساي في ٢٨ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩١٩[١١٥] مع مراعاة مضمون المادتين ٤٢ و ٤٣ من المعاهدة المذكورة، فيما يتعلق بالمنطقة المجردة[١١٦].

المادة الثانية: تتعهد كل من ألمانيا وبلجيكا وفرنسا بعدم القيام فيما بينها بأي هجوم أو غزو، وبعدم شن الحرب بعضها على بعضها الآخر في أية حالة كانت[١١٧].

المادة الثالثة: كافة المسائل التي يتم النزاع بشأنها بين الأطراف؛ يجب أن تعرض على قضاة تعتبر قراراتهم نافذة ومقبولة من الجميع.

المادة الرابعة: إذا شعر أحد الأطراف الموقعة على هذه المعاهدة بأي خرق للمادة الثانية، أو أية مخالفة للمادتين ٤٢ و ٤٣ من معاهدة فرساي، فإن عليه أن يعرض الأمر فوراً على عصبة الأمم.

المادة الخامسة: تحتاج هذه المعاهدة إلى التصديق، وتصبح سارية المفعول بمجرد التصديق عليها، وقبول ألمانيا مجدداً في عضوية عصبة الأمم.

تم التوقيع على المعاهدات التي سبق التوقيع عليها بالأحرف الأولى في لوكارنو، وذلك في قصر سانت جيمس بلندن في اليوم الأول من كانون الأول ـــ ديسمبر ـــ ١٩٢٥. ولم يبق لوضعها رسمياً موضع التطبيق، سوى عودة ألمانيا إلى عصبة الأمم. فوجه الرايخ إلى جنيف طلباً رسمياً بذلك في يوم ١٠ شباط ـــ فبراير ـــ ١٩٢٦، حيث تمت الموافقة عليه في يوم ١٠ أيلول ـــ سبتمبر ١٩٢٦، خلال المؤتمر السابع للجمعية العامة. **وكان ذلك يوماً مشهوداً في تاريخ عصبة الأمم، حيث عاد العلم الأسود والذهبي والأحمر ليرفرف بجانب الأعلام الأخرى عند مدخل رصيف ويلسن. كما غصت القاعة بالحضور قبل افتتاح الجلسة بوقت طويل**. وعندما صعد وزير خارجية الرايخ ستريسمان ضجت القاعة بالتصفيق. فبدأ خطابه في جو من الجلال والرهبة، وقال؛ مما قاله:

«... لم يخلقنا الإله الأعظم جميعاً متشابهين؛ إلا أننا ننتسب كلنا إلى هذه المجموعة البشرية التي تعيش في الضباب؛ وتتطلع إلى النور».

---

(١١٥) يعني هذا النص تخلي ألمانيا نهائياً عن إقليمي الألزاس واللورين.

(١١٦) كانت هاتان المادتان تحظران على ألمانيا إدخال قوات مسلحة إلى الضفة اليسرى من نهر الراين؛ أو إلى داخل المنطقة المحايدة التي يبلغ عرضها خمسين كيلو متراً؛ والكائنة على الضفة اليمنى من النهر.

(١١٧) تستثنى من هذه القاعدة: (آ) ـــ حالات الدفاع المشروع أو التي يفرضها أي خرق للمادتين ٤٢ و ٤٣ من معاهدة فرساي. (ب) ـــ العمليات الناجمة عن المادة ١٦ من ميثاق عصبة الأمم. (ج) ـــ العمليات الناجمة عن قرار متخذ من قبل عصبة الأمم ضد أية دولة معتدية.

بعد ذلك؛ رد عليه وزير الخارجية الفرنسية بريان[118] بكلمة ترحيبية؛ جاء فيها: «... لم يعد شعبانا بحاجة للبرهان على ما يتوافر لهما من القوة والبطولة. ويكفي أن تقلب صفحات التاريخ، لتتأكد كيف برهن هذان الشعبان عن بطولتهما في ساحات القتال، وكيف قطعا شوطاً بعيداً على طريق المجد. لذلك، فإن بإمكانهما من الآن فصاعداً أن يسعيا إلى النصر في مجالات أخرى».

لقد كان ذلك تدشيناً لبداية عهد هندنبورغ. وهو عهد كانت مقدماته تشير إلى التفاؤل الذي هيمن آنذاك بالأمن والاستقرار على الجبهتين الخارجية والداخلية. فهل جاءت النتائج مطابقة للمقدمات؟..

قد يكون من المناسب؛ قبل كل شيء؛ العودة إلى معاهدة لوكارنو، مع ما تبعها من انضمام ألمانيا إلى عصبة الأمم. حيث يظهر التناقض في فهم روح هذه المعاهدة منذ البداية. فلقد اعتقدت فرنسا أن الحلفاء قد قدموا تنازلات كبيرة عندما ناقشوا ألمانيا من موقع (الند للند)، وعندما تخلوا عن امتيازاتهم القديمة التي فرضوها على ألمانيا من موقع المنتصر، وهو يفرض إرادته على المهزوم، علاوة على استقبال الرايخ لتنظيم عصبة الأمم. لذلك، فإن فرنسا كانت ترى بأنه من واجب ألمانيا البرهان على صدق نواياها، وذلك بالتزامها الطوعي بتنفيذ المعاهدة، والتخلي عن سياسة المقاومة والمطالبات. ومقابل ذلك، فقد كان موقف ألمانيا مناقضاً تماماً، ذلك لأنها كانت ترى بأنها هي التي قدمت التنازلات الكبرى والتضحيات الجسام، للحلفاء، وذلك بتخليها نهائياً عن المطالبة بالألزاس واللورين، وبقبولها تجريد الضفة اليسرى للراين من القوات المسلحة نهائياً؛ الأمر الذي اعتبر مساساً بسيادتها الوطنية. وإن هذه التنازلات تستحق — من وجهة نظر ألمانيا — تقديم تعويضات فورية ملموسة. وقد قال ستريسمان في كولونيا: «إن روح معاهدة لوكارنو تكون قد خولفت إذا لم ينجم عنها إخلاء رينانيا». وقد ظهر بشكل واضح أنه قد أريد من معاهدة الضمان أن تحل مسألة الأمن، مع تجاهل التناقض التام في وجهة نظر الطرفين: **لقد كان ذلك يعني — بالنسبة لفرنسا — تجميد ألمانيا داخل حدودها التي كانت عليها بعد الحرب. في حين كان ذلك يعني — بالنسبة لألمانيا — التهرب من القيود المفروضة عليها؛ واستعادة حرية العمل في الشرق. فكانت لوكارنو نهاية بالنسبة لفرنسا بينما كانت بداية — ومجرد بداية — بالنسبة لألمانيا، من أجل الانطلاق انطلاقة جديدة.**

لم يلبث هذا التناقض أن ظهر منذ الأيام التالية؛ إذ قام الرايخ فوراً بإثارة مسألتي مامل

---

(118) بريان: Briand - Artistide رجل دولة فرنسي من مواليد نانت ١٨٦٢ — ١٩٣٢م، خطيب فصيح؛ تسلم رئاسة مجلس الوزراء احدى عشرة مرة؛ بما في ذلك أثناء الحرب ١٩١٥ — ١٩١٧، ثم عمل وزيراً للخارجية؛ وكان من أنصار المصالحة مع ألمانيا، مما حمله على التعاون مع وزير الخارجية الأمريكي كيلوغ Kellogg حتى تم الوصول إلى معاهدة لوكارنو.

و دانتزيغ، داخل اللجان واللجان الفرعية. كما طالب بإخلاء المنطقتين الثانية والثالثة من ريناليا[١١٩] وإلغاء لجنة المراقبة والإشراف، والتخلي عن منطقة السار قبل الاستفتاء، وإعادة النظر بمسألة (مسؤوليات الحرب). ولقد جرت المناوشات الأولى (المناقشات) في جنيف بين اللجان المختلفة، فيما كانت المشاجرات والاضطرابات تجتاح ريناليا حيث كان السكان يتوقعون الانسحاب الفوري للقوات الأجنبية (الفرنسية والانكليزية).

○

كان الجيش الألماني خلال ذلك كله يخوض صراعاً مرّاً من أجل الانتقال من جيش (المئة ألف) وفقاً لما فرضته معاهدة الصلح، إلى تكوين الجيش الوطني؛ مع صنع نماذج الأسلحة الجديدة، وإعادة تنظيم المصانع، ولكن ذلك كله لم يكن كافياً؛ إذ كان لابد لجيش الرايخ من توسيع دائرة عمله، والالتحام بدرجة أكبر بالشعب والدولة. وهكذا أصبحت إعادة التسلح والاستيلاء على الحكم عملين متكاملين لبرنامج واحد. ولم تكن هذه المشكلة كبيرة بالنسبة لجيش الرايخ المؤقت؛ ذلك لأن متطوعي القطعات الحرة كانوا يناضلون لإنقاذ الوطن من خطر مباشر؛ وإعادة الأمن والنظام. كان هؤلاء يتجمعون حول قادتهم؛ تلبية لحافز المحافظة على البقاء أو الوجود، تجاه ضعف السلطات المدنية «**كان صراعهم صراع شعب دون دولة**». وكان الجنرال فون سيكت هو أول من طرح مشكلة العلاقة بين الجيش والدولة. إذ قال: «يمثل الجيش إرادة الأمة وقوتها أمام مجموعة القوى المعادية. ومهمته هي تأمين النظام وضمان الأمن للبناء الاجتماعي. إن الجيش مثله كمثل الدولة؛ ليس غاية في حد ذاته: فالإثنان هما الشكلان اللذان يستطيع الشعب من خلالهما التعبير عن إرادته في الحياة والبقاء».

وقد ترجم القائد الأعلى فون سيكت هذه المبادىء على صعيد الحقائق اليومية؛ عندما أعلن في أمره الإداري يوم ١ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٢١، الذي جاء فيه: «**إن الجيش هو الأداة الأولى لقوة الرايخ. على كل فرد منه أن يقتنع في قرارة نفسه بأنه؛ سواء أكان في الخدمة أو خارجها؛ الممثل والعامل المنفذ لهذه القوة. كما يجب أن يظل سلوكه وموقفه في كافة ظروف الحياة؛ مثالاً وبرهاناً على مدى وعيه الكامل للوظيفة التي يمارسها؛ وعلى مستوى المسؤوليات الناجمة عن ذلك**».

(١١٩) كانت منطقة الروهر قد حررت بشكل كامل في ٢٥ آب ــ اغسطس ــ ١٩٢٥، كما كانت القوات الانكليزية قد قامت بالجلاء عن منطقة كولونيا في ٢١ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٢٦.

كان هذا المفهوم الرفيع للنظام ونكران الذات يتطلب دولة جديدة به . إلا أن جمهورية الويمر لم تكن بهذا المستوى . ولقد ذكر المسؤولون عن جيش الرايخ أسباباً كثيرة لعدائهم الأساسي لجمهورية الويمر ؛ غير أن هناك سبباً يستحق التوقف عنده : « **وهو أن هذا النظام قد عجز عن تأمين عظمة الدولة وأمنها ؛ وقصر عن الاحتفاظ بهيبة الرايخ وسلامته** » . لقد كانت الحكومة عاجزة بالفعل عن سلوك سياسة مستقرة ، بسبب اضطرارها للمحافظة على التوازن بين كافة الأحزاب الممثلة في الرايخستاغ ، ومراعاة أي تحرك للرأي العام في هذا الاتجاه أو ذاك . فكانت الدولة تتفسخ وتنحل عند كل أزمة ، وتضطر لاستدعاء الجيش للتدخل ، هكذا حدث في العام ١٩١٩ ، ثم في العام ١٩٢٣ ، وهذا ما سيحدث أيضاً في العام ١٩٣٢ م . وكان البرلمان بتصرفه على هذا النحو يبرهن على عجزه ، ويزيد بالتالي من مكانة جيش الرايخ وهيبته . فهو يثبت أن البلاد ستغوص دورياً في الفوضى لولا وجود الجيش وتدخله في الوقت المناسب . وكان من المحال لمثل هذا الوضع أن يستمر ؛ فمهمة الجيش هي الذود عن حياض الوطن وليس إعادة النظام . فكان لزاماً إعفاؤه من هذه الأعباء السياسية الداخلية ؛ وعدم تكليفه بمهمة المحافظة على السلطة المركزية للدولة . مما كان يستدعي ؛ بالضرورة ؛ إجراء إصلاحات إدارية في أعقاب كل تدخل للجيش . مع تعديل الدستور لتجنب أي صراع في المستقبل ، بين الرايخ والأقاليم التابعة له . وكانت جمهورية الويمر عاجزة عن إنجاز هذه التغييرات ؛ إذ كانت نصوص معاهدة الصلح تمنع إقامة سلطة مركزية لقيادة الشرطة . كما كان من المحال تقييد صلاحيات مجالس النواب الاقليمية ؛ لأن الاشتراكيين كانوا يمتنعون عن ذلك ويرفضون الموافقة عليه . لذلك كان لابد من اللجوء دورياً إلى الجيش لتصحيح أخطاء البرلمان ؛ مع الاستمرار في تحمل هجماته . وهكذا كانت ألمانيا تتأرجح بين مبدأين متناقضين ، فما كان الجيش يعيده بسلطته ؛ كان البرلمان يضيعه فوراً بعجزه . فهل كان غريباً أن يرفض الجيش اعتبار هذا النظام يمثل دولة ثابتة ومستقرة ؛ وأن ينظر إليه على أنه نظام معدوم الفائدة ولابد من استبداله إن عاجلاً أو آجلاً ؛ بنظام أوفر سلطة .

لقد تم انجاز خطوة واسعة على هذا الاتجاه ، يوم انتخب المارشال هندنبورغ رئيساً للرايخ . وكان جيش الرايخ في السابق يسعى لايجاد نقطة ارتكاز ثابتة يستند إليها ؛ وقد وجد الحل في انصهار الرايخ وبروسيا معاً . أما الآن ؛ فقد تخلى عن هذه الفكرة لصالح مفهوم جديد : هو اتحاد الجيش بالمارشال . وبهذا تكون نظرية تمثل الدولة في الجيش ؛ والتي وضعها فون سيكت وتابعها خلفاؤه من بعده ؛ قد أخذت مضموناً أكثر دقة . وهكذا بدأ يظهر تدريجياً ؛ إلى جانب البرلمان ؛ محور ثان للحكومة ؛ كانت علاقاته بالرايخستاغ محدودة للغاية .

كان القائد الأعلى لجيش الرايخ في العام ١٩١٩ يتبع لوزير الدفاع ، وللمستشار (رئيس الوزراء) ثم لرئيس الجمهورية ، وجميعهم من المدنيين والاشتراكيين . أما في العام ١٩٢٥ ،

فقد أصبح رئيس الجمهورية عسكرياً (هندنبورغ). وفي العام ١٩٢٨، جاء دور وزير الدفاع ليصبح عسكرياً أيضاً (غرونر)* وأخيراً تم في العام ١٩٣٢ تعيين مستشار الرايخ فون شلاشر ليعمل وزيراً للدفاع. وبذلك اكتمل التسلسل العسكري على كافة المستويات، فتم بذلك وبصورة عملية حذف دور البرلمان.

كان لابد لنظرية الدولة هذه؛ من أن تبقى حبراً على ورق؛ إذا لم يتضامن الشعب معها؛ ويوافق عليها. ثم ما هو مصير هذه البنية التنظيمية التي تجعل من رئيس الجمهورية ضمانة لوحدة الجيش؛ ومن الجيش ضمانة لوحدة الرايخ؛ يوم يختفي المارشال؟ يمكن ضمان سلامة الامبراطورية إذا ما أعيدت الملكية. ولكن إذا قام الشعب بانتخاب ديموقراطي أو اشتراكي، فإن البناء كله سيتهدم؛ مع العلم أن الدستور لم يكن ليبعد ألمانيا عن مثل هذا الاحتمال. وعلاوة على ذلك؛ فقد كانت عملية إعادة تنظيم الجيش الوطني تفترض مسبقاً العودة إلى تطبيق نظام الخدمة الإلزامية. فإذا استمرت عندئذ الخلافات السياسية، فإنها قد تجتاح الجيش، وتحطم وحدته المعنوية. وبهذا تكون كافة الجهود التي بذلت على امتداد عشر سنوات لتقويم الجيش وتطهيره؛ قد ذهبت أدراج الرياح. ماذا حدث في تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٨؟ لقد قامت أغلبية الشعب؛ أي القطعات؛ تحت ضغط الأحداث؛ بالانفصال عن فئة الضباط التي بقيت منعزلة. وقد يتكرر الأمر ذاته في الحالة الراهنة من انقسام الشعب الألماني. فكيف يمكن لأمة ممزقة، تتنازعها الخلافات والأحقاد؛ أن تقدم بين عشية وضحاها؛ جيشاً متماسكاً تشده وحدة معنوية قوية؟ لذلك كان الجيش بحاجة إلى الالتحام بالشعب والاندماج بالأمة، إذا ما أراد أن يتمثل في الدولة وأن يتحد معها. ولقد حاولت قيادة الجيش جهوداً مضنية للتقرب من الشعب، إلا أن حظها من النجاح كان قليلاً. فقد كانت معظم الكتل الجماهيرية تتعرض لتيارات جديدة، وأفكار أكثر إثارة ــ ديناميكية ــ تفتش خارج الجيش عن الحلول التي تمهد أمامها طريق المستقبل. وكان من المحال على الجيش التفكير في تسلم الحكم، دون مساهمة الشعب. إلا أن تطور الرأي العام لا يمكن التحكم به. لذلك أصبحت مهمة جيش الرايخ هي المحافظة على الدولة من انهيار جديد؛ وحمايتها من عودة الحرب الأهلية. وهكذا تخلى عن التوجه نحو الأمة؛ تاركاً ذلك للآخرين. **لقد كان جيش الرايخ المؤقت؛ هو جيش دون دولة. أما جيش الرايخ المحترف ــ اعتباراً من عهد هندنبورغ ــ فقد أصبح جيشاً دون شعب.** وأصبحت المهمة الحالية هي وضع الأمة مكان الجيش؛ وتحديد مهمة هذا الجيش ووظيفته ضمن الدولة؛ إذا ما أريد للرايخ أن يستعيد تماسكه واستقراره. إلا أن هذا العمل، ذا الطابع السياسي والاجتماعي قبل كل شيء، هو عمل لن يقوم به الجيش؛ الذي سيكون الحكم في الأحداث وليس

* انظر الملاحظة ١٠٥ في بداية هذا الفصل.

صانعها بسبب عزلته؛ لهذا كان لابد من جماعة أخرى تتصدى لهذه المهمة الشاقة. وستكون هذه الجماعة هي (**الحزب الوطني الاشتراكي بزعامة هتلر**).

التزم جيش الرايخ بالبقاء في ثكناته، وحافظ على حياده، وحرص على عدم التدخل إلا عند الضرورة القصوى؛ طوال فترة الهجمة الهتلرية للوصول إلى الحكم. ولم يكن الجيش في الواقع ليفهم موقف ألمانيا الجديدة الثائرة أبداً حتى درجة الغليان، والتي كانت تستمد طاقاتها من الخرافات الأسطورية لجرمانيا البدائية؛ بدلاً من العقلانية الواعية لفريدريك الثاني الكبير. إلا أنه تركها تمضي إلى مصيرها؛ دون أن يحاول ايقاف هذا المد الذي قبلته الجماهير. إلا أن هذا الجيش سيظل يراقب من بعيد عملية الصعود اللاهث لفصائل الإنقضاض الهتلرية؛ تاركاً (الوطنية الاشتراكية) تجرب حظها، جاهزاً لتصفيتها إذا ما ظهرت أنها دون المستوى المطلوب؛ ومستعداً للإنضمام إليها إذا ما توصلت إلى الانتصار.

يمكن عبر هذا الخضم المتلاطم تجاوز مسيرة الأحداث الداخلية، والصراع بين مراكز القوى، ثم بين هذه القوى وبين الجيش والدولة. للوصول إلى الأزمة الحقيقية التي شقت طريقها عبر سنوات متتالية لتظهر بشكل حاد وخطير في عام ١٩٣٠، حيث بلغ التدهور الاقتصادي مرتبة لم تعرفها ألمانيا من قبل، وحيث بلغ عدد العاطلين عن العمل نصف مليون عامل تقريباً؛ واجتاحت الاضطرابات معظم الأقاليم؛ وأغلقت المصانع أبوابها، نتيجة للكساد الاقتصادي، واستغلت مراكز القوى هذه الأزمة أسوأ استغلال، فانطلقت المسيرات تحت رايات أحزابها، وترنحت الجمهورية تحت ثقل هذه الضربات. وفي هذا الجو المتوتر؛ تم أول لقاء بين هندنبورغ و هتلر في يوم ١٠ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣١ م. إلا أن هذا اللقاء لم يحقق لهتلر ما كان يرجوه من تسليمه الحكم. فقد استقبل هندنبورغ زعيم الحزب الوطني الاشتراكي هتلر ببرود وترفع؛ رافضاً التعاون معه؛ إذ لم يكن حتى الآن بالنسبة لوجهة نظر هندنبورغ أكثر من (**عريف نمساوي**) أو أكثر من (**مطبل على المنابر**) كما كانت تصفه حاشية هندنبورغ. ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة هتلر؛ الذي كان يمتلك رصيداً متعاظماً من الدعم الشعبي. ولما كانت مدة الرئاسة قد أوشكت على الانتهاء؛ فقد حاول مستشار الرايخ برونغ عقد صفقة مع هتلر بتخليه عن ترشيخ نفسه للرئاسة مقابل وعده بتعيينه مستشاراً للرايخ بعد سنة. ورفض هتلر هذا العرض؛ إذ ماذا يلزمه بدعم حكم يوشك على الانهيار؛ لقاء وعد هناك شك في تنفيذه في سوق المزاودات والمساومات؟. وعلى كل حال؛ فقد أعلن هندنبورغ عن تجديد ترشيحه للرئاسة في ١٥ شباط ــ فبراير ــ ١٩٣٢ م. إلا أن الشيء الهام، والذي أظهر التطور الداخلي للرايخ؛ هو أن المارشال هندنبورغ؛ قد رشح نفسه سنة ١٩٢٥ م، بدعم مراكز القوى الموصوفة (باليمينية والرجعية). أما اليوم؛ فتدعمه كافة الأحزاب اليسارية والوسط من الاشتراكيين الديموقراطيين وحتى حزب الشعب الألماني. وتقدم مرشحون

آخرون؛ أما هتلر فقد أظهر تردده في التصدي للمارشال، هذا العملاق دي الثمانين عاماً، والذي طبقت شعبيته الآفاق؛ لذلك لم يكن من السهل أبداً تحدي بطل تاننبرغ الذي تطوق هامته أكاليل الغار. وأخيراً؛ اتخذ هتلر قراره بترشيح نفسه للانتخابات. وقامت الحكومة النازية في برونزويك بتعيين هتلر مستشاراً للرايخ يوم ٢٥ شباط ــ فبراير ــ الأمر الذي منحه (الجنسية الألمانية) بصورة طبيعية ــ أوتوماتيكية. وفي اليوم التالي حدد الرايخستاغ موعد الانتخابات بيوم ١٣ آذار ــ مارس للدورة الأولى، ويوم ١٠ نيسان ــ ابريل للدورة الثانية. وجاءت نتائج انتخابات الدورة الأولى فأذهلت الجميع، إذ حصل هندنبورغ على كامل الأصوات تقريباً ١٨٫٦٥٠٫٧٣٠ أي ٤٩٫٦ من مجموع الأصوات. أما هتلر فحصل على ١١٫٣٣٩٫٢٨٥ صوتاً أي ٣٠٫١ بالمئة. في حين لم يحصل الحزب الشيوعي (تالمان) إلا على ٤٫٩٨٣٫١٩٧ صوتاً أي ١٣٫٢ بالمئة. وعندما جرت انتخابات الدورة الثانية، حصل هندنبورغ على نتيجة أفضل، إذ حصل على ١٩٫٣٥٩٫٦٣٣ صوتاً. كما أحرز هتلر تقدماً حيث حصل على ١٣٫٤١٨٫٠٥١ صوتاً، بينما تراجع الحزب الشيوعي، فلم يحصل على أكثر من ٣٫٧٠٦٫٦٥٥ صوتاً **وهكذا فاز المارشال هندنبورغ، واحتفظ بالرئاسة. وهزم هتلر، إلا أن هزيمته كانت مشرفة.**

اغتاظ وزير الداخلية؛ والدفاع الجنرال غرونر من هذا النجاح الذي أحرزه الحزب الوطني الاشتراكي، والذي بات يتهدده بالخطر، فأصدر يوم ١٣ نيسان ــ ابريل ــ أي بعد يومين فقط من إعلان نتيجة الانتخابات، قراراً بحل كافة المنظمات العسكرية التابعة للحزب الوطني الاشتراكي؛ وفصائل الانقضاض (س. س) وكافة فروع قواتها المسلحة في كافة الأقاليم. ولم يوافق هندنبورغ على هذا الإجراء؛ فأصدر تعليماته إلى غرونر يوم ١٥ نيسان ــ ابريل ــ بتطبيق هذا القرار على حزبه (الخوذة الفولاذية أو الراية الامبراطورية). وتدخل الجيش فنقل إلى المارشال هندنبورغ رأيه بأن الجنرال غرونر لم يعد يتمتع بثقة الجيش. مما اضطر الجنرال غرونر للإستقالة. الأمر الذي وضع الوزارة كلها أمام موقف حرج. وتقدم رئيس الوزراء المستشار برونتغ إلى هندنبورغ الذي استقبله ببرود، وأعلمه «أنه لن يوقع مراسيم جديدة، وأنه يجب على هذه الحكومة غير الشعبية أن تختفي بأسرع ما يمكن. (وإن وجداني يدفعني للإنفصال عنك) وبهذه العبارة أنهى هندنبورغ حديثه».

تبع ذلك تشكيل وزارة رئاسية **برئاسة فون بابن[١٢٠] الذي حاول دمج الحزب الوطني**

(١٢٠) فون بابن: Von Franz Papen رجل دولة ألماني من مواليد ويرل Werl سنة ١٨٧٩. أصبح مستشاراً للرايخ سنة ١٩٣٢، ثم نائباً للمستشار سنة ١٩٣٣. ودعم النازية وعين سفيراً لألمانيا في فيينا سنة ١٩٣٦، وهو الذي أعد الإنقلاب في النمسا سنة ١٩٣٨ م، والذي جعل من النمسا إقليماً من الأقاليم الألمانية حتى نهاية الحرب. وقد قدم فون بابن لمحاكمات نورمبرغ ١٩٤٥ ــ ١٩٤٩.

الاشتراكي ـ النازي بالحكم، عن طريق إشراك بعض أعضائه في الوزارة. إلا أن هتلر لم يقبل (بتحمل) الحكومة الجديدة إلا بشرطين: ١ ـ أن يقوم بابن بحل الرايخستاغ؛ وإجراء انتخابات جديدة. ٢ ـ إلغاء قرار غرونر القاضي بحل فصائل الإنقضاض. وقبل المستشار الألماني فون بابن شرطي هتلر هذين. ووقع هندنبورغ قراره بحل الرايخستاغ في ٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٣٢. وحدد موعد الانتخابات بيوم ٣١ تموز ـ يوليو، وقام فون بابن بإلغاء قرار غرونر يوم ١٧ حزيران ـ يونيو. وأثناء ذلك كان الموقف في بروسيا يتدهور بشكل خطير، مما حمل هندنبورغ على تعيين فون بابن مفوضاً للرايخ في بروسيا، وأن يصرف أعضاء الوزارة البروسية ـ الوسط ـ وأن يتولى بنفسه مهام رئيس الوزراء. وفي مساء اليوم ذاته، ٢٠ تموز ـ يوليو ـ ١٩٣٢، أعلن المارشال هندنبورغ حالة الطوارىء في بروسيا. وسلم السلطة التنفيذية للجنرال فون رونشتد قائد المنطقة الثالثة. وعندما جرت الانتخابات يوم ٣١ تموز ـ يوليو ـ فاز الحزب الاشتراكي الوطني ـ النازي بالأكثرية. فحصل على ٢٣٠ مقعداً في الرايخستاغ من أصل ٤٢٢ مقعداً. فأصبح بذلك أقوى حزب عرفته ألمانيا على الإطلاق.

تم استدعاء هتلر إلى برلين لمناقشته في تشكيل الوزارة. فقابل وزير الدفاع شلاشر يوم ١٣ آب ـ اغسطس، ثم توجه لمقابلة فون بابن الذي اقترح على هتلر تعيينه نائباً له، وتعيين بعض الوزراء من الحزب الوطني الاشتراكي؛ ورفض هتلر هذا الاقتراح رفضاً قاطعاً. وقطع الحديث بغضب ظاهر؛ وانسحب إلى مقره (كايزرهوف). إلا أن هندنبورغ استدعى هتلر لمقابلته بعد ظهر اليوم ذاته. وعرض عليه تشكيل الوزارة. إلا أن هتلر طلب منحه (السلطة الكاملة على الوزارة). ورفض المارشال هندنبورغ طلب هتلر. وقامت المستشارية بتوزيع بيان على الصحافة ـ كان مغايراً للحقيقة ـ إذ إن هتلر لم يطلب (السلطة المطلقة) وإنما طلب (السلطة الكاملة على الوزارة). وصدرت الصحف وهي تحمل العناوين المثيرة: (هتلر يطلب كامل السلطة لنفسه)، (إدعاء غير معقول)، (المارشال يعيد هتلر إلى مكانه الطبيعي). وصدق الجمهور ما نشرته المستشارية، وأصيب أعضاء الحزب النازي بخيبة أمل مرّة. غير أن هتلر حافظ على هدوئه وتفاؤله. فتابع صراعه ضد حكومة فون بابن. وساعدت أزمة الصراع في بروسيا، وتدهور الحالة الاقتصادية إلى ضعف رصيد فون بابن الذي اضطر للإستقالة يوم ١٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٣٢.

شعر المارشال العجوز بكثير من الأسف وهو يرى هذا المعاون الذي ربطته به أواصر الثقة والمحبة العميقة؛ وهو يبتعد عنه. وكان انهيار هؤلاء الرجال من حوله يزيد من شعوره بالوحدة. وربما فكر في أيام المأساة من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ عام ١٩١٨. عندما وقف وحده في مواجهة القلق والاضطراب لدعم البناء الامبراطوري المتداعي للسقوط. وها هي ذي الجمهورية الآن وهي تنهار بدورها. ويعود للوقوف وحده، وحمل السلطة على منكبيه

العريضين. إلا أن عمره الآن قد زاد خمسة عشر عاماً. وأخذت قواه في الانحسار. فتماسك على نفسه وهو يودع فون بابن وقدم له صورته وقد كتب في أسفلها إهداءه الحزين: «كان لي صديق..». التفت هندنبورغ بعد ذهاب فون بابن مرة ثانية نحو هتلر، حيث استدعاه في ٢١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ وعرض عليه تشكيل الحكومة الجديدة؛ على ألا تكون ــ رئاسية ــ بل مستندة إلى أغلبية برلمانية. مع التزام هتلر بعدم تبديل شيء من الوضع الذي شكله فون بابن في بروسيا. ولما كانت الأحزاب البرلمانية ترفض دعم هتلر إلا إذا تعهد بحل المسألة البروسية دون تأخير، فقد وجد هتلر ذاته مضطراً للإعتذار عن قبول المهمة التي كلفه بها المارشال، إلا إذا سمح له بتشكيل (وزارة رئاسية). وفشلت المفاوضات. فما كان من هندنبورغ إلا أن كلف فون شلايشر كورت بتشكيل الوزارة. واتبع شلايشر أسلوباً ملتوياً كاد يستطيع بواسطته (شق الحزب الوطني الاشتراكي ــ النازي). إلا أن هتلر وقيادة حزبه تغلبوا على الأزمة. وأسرع هتلر للاتفاق مع فون باين من أجل تشكيل حكومة جديدة. وبدأ هتلر وباين في تضييق حلقة الحصار حول شلايشر الذي حاول الاستعانة بالجيش، فخذله؛ **وحاول الاستعانة بهندنبورغ لحل البرلمان؛ أو إقامة دكتاتورية عسكرية. لكن هندنبورغ رفض التورط في هذا الطريق، فالدكتاتورية العسكرية لابد أن تؤدي إلى انقلاب عسكري جديد؛ حتى إذا ما كانت الساعة الحادية عشرة من يوم ٣٠ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٣٣، فتحت أبواب قصر الرئاسة أمام هتلر؛ وأعضاء حكومته الجديدة؛ واستقبلهم هندنبورغ في مكتبه، وعين هتلر مستشاراً للرايخ.** واجتاحت ألمانيا كلها لدى سماع النبأ موجة من الفرح. وانطلقت المسيرات في شوارع المدن طوال الليل، وهي تردد الأناشيد الوطنية. ولم يعد الهدوء إلا مع الخيوط الأولى للفجر.

تصدى الشيوعيون (الماركسيون) للحكومة الجديدة، وقرروا إشعال نار الثورة، معتمدين على تنظيمهم القوي، وعلى ما هو مخزون لديهم من الأسلحة والمتفجرات. وأصدرت القيادة المركزية الأمر الإنذاري بالاستعداد للإنقضاض في يوم ٢٦ شباط ــ فبراير ــ ذذظ. وفي اليوم التالي، اندلعت ألسنة اللهب فأضاءت سماء برلين: إنه الرايخستاغ يشتعل. وفي يوم ٢٨ شباط ــ فبراير ــ أصدر هندنبورغ قراره «من أجل حماية الشعب والدولة» وجاء فيه:

١ ــ يعلق العمل بالمواد ١١٤ و ١١٥، ١١٧ و ١١٨ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٥٣ من الدستور حتى إشعار آخر. وتفرض بعض القيود على الحريات الفردية مثل حرية الرأي والصحافة والمنظمات. كما ترفع الحصانة (السرية) التي تتمتع بها المراسلات البريدية والبرقية والهاتفية. ويسمح بإجراء التدابير الضرورية للتفتيش والمصادرات.

٢ ــ إذا لم يقم أحد الأقاليم باتخاذ التدابير الضرورية لإعادة الأمن والنظام العامين، فإن حكومة الرايخ مخولة بممارسة صلاحيات سلطات هذا الاقليم بصورة مؤقتة.

٣ — يهدد بعقوبة الإعدام كل من يرتكب أعمال الخيانة أو التسميم أو الحرائق أو التفجير أو تعويم المياه أو تخريب الخطوط الحديدية.

٤ — يعاقب بالموت؛ أو لسجن لمدة خمسة عشر عاماً؛ إذا لم ينص القانون على عقوبة أشد:

آ — كل من يشرع في اغتيال رئيس الرايخ أو مفوض الرايخ أو أي عضو من أعضاء حكومة الامبراطورية أو حكومات الأقاليم؛ أو من يحرض على ارتكاب إحدى هذه الجرائم، أو يقبل المساهمة فيها، أو يتحدث بها.

ب — كل من يقوم بأعمال عنف أو يقبض عليه والسلاح معه في أي اشتباك أو مظاهرة.

ج — كل من يستولي بالقوة أو يختطف شخصاً معيناً بقصد استخدامه رهينة خلال الصراع السياسي.

التواقيع: فون هندنبورغ هتلر فريك غورتنر

ثم ما لبث هندنبورغ؛ أن عزز هذا القرار بقرار آخر ضد جريمة الخيانة:

«كل من يطبع/نصاً يحرض على الصراع المسلح ضد سلطة الدولة؛ أو يحرض العمل على إعلان الاضرابات في المؤسسات ذات الفائدة الحيوية، سواء أكان حركة جزئية أو جماهيرية أو إضراباً شاملاً، يعاقب بالسجن من شهر إلى ثلاث سنوات، كأنه ارتكب عملاً من أعمال الخيانة العظمى».

استمرت أعمال التفتيش والاعتقال في كافة أنحاء الرايخ يومي ٢ و ٣ آذار — مارس — حيث تم احتجاز الآلاف من أعضاء الحزب الشيوعي في معسكرات الاعتقال. وتحطم العصيان في مهده، وتشتتت (الجبهة الحمراء) وتمزقت تشكيلاتها المقاتلة. وأعدم الإرهابيون؛ أو اعتقلوا؛ وزجوا في السجون. أما نقابات العمال، التي روعتها سرعة الإجراءات وحزمها وعنفها؛ فقد وجدت نفسها وهي أضعف من أن تقاوم هذه الهجمة الضارية؛ فاستكانت وأعلنت إقلاعها عن تنفيذ الإضراب.

اعلنت نتيجة الانتخابات للرايخستاغ الجديد؛ وفاز الحزب الوطني الاشتراكي بالأكثرية؛ حيث حصل على ٢٨٨ مقعداً من أصل ٤٢٢، كما حصل في بروسيا على ٢١١ مقعداً من أصل ٣٩٢ مقعداً. وهكذا، وفي الوقت الذي كان فيه هتلر يعتلي كرسي الحكم؛ كانت جمهورية الويمر قد أفلست على جميع الأصعدة تقريباً.. وجرى افتتاح الرايخستاغ الجديد يوم ٢١ آذار — مارس — ١٩٣٣. ولم يعد هتلر بحاجة لأصوات بقية الأحزاب: «**لقد ماتت الجمهورية؛ وأصبح هتلر دكتاتوراً**».

تسلم هتلر الحكم، وكان الرايخ منقسماً إلى ٢٢ دولة أو اقليماً تثور باستمرار ضد السلطة

المركزية؛ ولكل منها جمعية وطنية محلية؛ وتعارض كل مشروع وحدوي. فسار هتلر على طريق توحيد الأقاليم وذلك عن طريق:

١ ــ تركيز السلطة بيد الفوهرر.

٢ ــ إعادة تجميع مختلف التشكيلات الوطنية.

٣ ــ إلغاء الأحزاب السياسية، وتمثل الحزب الوطني الاشتراكي للدولة.

٤ ــ الصهر الإداري للأقطار والرايخ.

ولما كان الجيش هو الدعامة الأساسية للحكم، فقد عمل هتلر على إطلاقه من قوقعته التي فرضتها عليه معاهدة الصلح؛ وما هي إلا فترة يسيرة حتى شهدت المعسكرات؛ في كافة القوى البرية والبحرية والجوية؛ تطورات مذهلة لم تكن تتوقعها، ولكن؛ وبينما كانت هيئة أركان جيش الرايخ تعد الخطط لجيش المستقبل الوطني، والمتطوعون الجدد يتدفقون على الثكنات ومعسكرات التدريب، كان (الجيش الأسمر ــ الهتلري) يتطور بسرعة أكبر؛ بدفع من روم ومساعديه. حتى زاد عدد أفراده على ثلاثة الملايين. وحتى استبدل تشكيلاته (الفصائل) بالألوية والفرق والفيالق. وأدى ذلك إلى توسيع الإطارات وهيئات الأركان؛ مما أدى لوصول كثير من الشبان ــ الانتهازيين ــ والمجردين من كل وازع، إلى رتب الجنرالات، وإلى قيادة جيوش من ٨٠ ألف مقاتل، في حين لم تكن رتب أمثالهم في الجيش الوطني تزيد على رتبة نقيب. مما خلق وضعاً خطيراً؛ ولا سيما أن هؤلاء كانوا يطمعون باستلام الحكم عن طريق القوة. وقد حذر هتلر ضباطه في الجيش الأسمر، منذ أول تموز ــ يوليو ــ ١٩٣٣، بقوله: «إن سلوك هذا الاتجاه وعر وخطير. وسأقاوم بكل قواي أية موجة ثورية ثانية؛ لأنها ستؤدي إلى الفوضى. لذلك ستكبل أيدي كل من يناهض سلطة الدولة مهما كان وضعه ومركزه». وقال أيضاً: «لا يمكن أن تظل الثورة مستمرة؛ فكثير من الحركات الثورية نجحت في الاستيلاء على السلطة في زخم الانقضاض الأول. إلا أن القليل النادر هو الذي عرف كيف يستمر. لقد آن الأوان اليوم لحصر تيار الثورة في مجرى أكثر هدوءاً، هو مجرى التطور». غير أن روم ومساعديه الذين أعمتهم شهوة الوصول للحكم عن طريق الثورة، قرروا رفض الخضوع لهتلر، وقرروا القيام بالثورة. **وتحرك هتلر وقيادته بسرعة أكبر، فتم إعدام رؤوس الفتنة في برلين وهامبورغ وميونيخ يوم ٣٠ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٣٤ وهي المعروفة باسم (ليلة السكين الطويلة).**

لم يعرف بدقة عدد ضحايا (ليلة السكين الطويلة) وقد لا يتجاوز عددهم المئات. كما أعلنت القيادة النازية؛ وقد يتجاوز الآلاف؛ كما أعلنت مصادر أخرى؛ غير أن الشيء الهام هو النجاح الرائع في القضاء على خطر الثورة الثانية بمثل تلك السرعة المذهلة، وبالحد الأدنى من الضحايا. وأدى ذلك بصورة طبيعية إلى زوال الخطر المحتمل من اصطدام (الجيش الأسمر الهتلري) بالجيش الوطني (جيش الرايخ). وتبدل الوضع بشكل كامل خلال أربع وعشرين ساعة؛ فبينما كان معظم الجنرالات

(القادة) يناقشون هتلر وأوامره؛ أخذوا الآن في الانحياز إلى صفه؛ وبأعداد كبيرة؛ وقد ظهر هذا التطور في الأوساط العسكرية واضحاً من خلال البيان الذي أصدره فون بلومبرغ[121] في اليوم ذاته إلى ضباط الجيش وجنوده؛ وجاء فيه:

إلى الويرماخت

لقد قام الفوهرر شخصياً بمهاجمة وسحق المتمردين والخونة بحسم الجندي وشجاعة مثالية. والويرماخت؛ باعتباره القوة المسلحة الوحيدة لمجموع الأمة؛ لا يسعه مع بقائه بمعزل عن الصراعات السياسية الداخلية، إلا أن يعرب له عن شكره العميق، وأن يعاهده على الإخلاص والولاء. إن الفوهرر يطالبنا بإقامة علاقات أخوية حميمة مع فصائل الإنقضاض الجديدة؛ وهو ما سنحرص على توطيده وتنميته بسرور، خدمة للمثل الأعلى المشترك.

ترفع حالة الإنذار في كافة أنحاء الرايخ★

التوقيع: **فون بلومبرغ**

وفي مساء اليوم ذاته؛ قام المارشال هندنبورغ؛ الذي كان يمضي عطلته الصيفية في منزله الخاص في نوديك بإرسال برقية التهنئة التالية إلى الفوهرر:

«يظهر من التقارير التي وصلتني؛ أنك خنقت في المهد كل محاولات التمرد وأعمال الخيانة، وذلك بفضل تدخلك الشخصي الحاسم والشجاع. لقد أنقذت الشعب الألماني من براثن خطر فادح. لذلك لا يسعني إلا أن أعبر لك عن عميق امتناني؛ وصادق تقديري».

فون هندنبورغ

أصدر هتلر أمره اليومي، يوم الاثنين ٢ تموز ـــ يوليو ـــ إلى كافة فصائل الانقضاض، كالتالي: «أطلب إلى جميع قادة فصائل الانقضاض ـــ س. آ ـــ الولاء التام؛ كذلك أطلب إليهم أن يبرهنوا على استقامتهم وإخلاصهم دون تحفظ تجاه جيش الرايخ».

انصرف هتلر بعد ذلك لإعادة تنظيم الحزب، وفصائله، وقواته المسلحة، وجعل ارتباط قادتها به، وحدد واجبات كل تنظيم منها. وبينما كانت أعمال إعادة التنظيم تأخذ طريقها إلى التنفيذ؛ علم هتلر، في نهاية شهر تموز ـــ يوليو ـــ **أن صحة هندنبورغ قد أصبحت مصدر قلق كبير، وأن**

---

(١٢١) فون بلومبرغ: Von Werner Blomber G جنرال ألماني ١٨٧٨ ـــ ١٩٤٦، ووزير دفاع ألمانيا ١٩٣٣ ـــ ١٩٣٨ م، دعم هتلر بحماسة لتولي الحكم يوم وفاة هندنبورغ في ٢ آب ـــ اغسطس ـــ ١٩٣٤ م. وبذل كل جهده لضمان ولاء الجيش الألماني لشخص هتلر. إلا أن هتلر عزله عن منصبه يوم ٤ شباط ـــ فبراير ـــ ١٩٣٨ بحجة زواجه من عاهرة، وتولى هتلر سلطات وزير الدفاع مكانه.

★ كانت حالة الإنذار قد أعلنت في مساء يوم ٢٥ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٣٤، حيث احتجز جيش الرايخ في الثكنات، وألغيت كافة الإجازات، وطلب إلى كافة الضباط الإلتحاق بوحداتهم فوراً.

قواه تنهار يوماً بعد يوم. ولكن على الرغم من كبر سنه (٨٧ سنة) فإنه ما زال يقاوم. إلا أن الأمل سيضيع قريباً، لأن المارشال سيموت.

لم يكن هذا النبأ مباغتاً لأحد في الواقع؛ فقد كان من المعروف منذ شهر أيار ـــ مايو ـــ أن أيام الرئيس قد باتت معدودة؛ وأن مسألة خلافته قد شغلت جيش الرايخ إلى حد خطير. لم يبق أمام المارشال إلا ساعات قليلة؛ **لقد كان أشبه بربان ماهر قاد سفينته عبر العاصفة والصخور وهو ممسك بدفة القيادة حتى دخل المرفأ**.

أما هذا الرايخ الثالث؛ الذي قاد ألمانيا إليه، فليس من صنعه؛ كما لم يقتنع به داخلياً كل الإقتناع. لقد اعترف به وتعايش معه على قمة السلطة. وكانت هذه هي مهمته كلها. لقد شب وكبر في عالم مختلف تماماً؛ لذلك لم يكن من السهل عليه أن ينسجم مع هذا العالم الجديد الذي كانت قواه تغلي كالمرجل من حوله. لقد شب وكبر في عالم مبني على أساس استقرار الحكم الوراثي والولاء للملكية، عالم له إيمانه بحقيقة الحق الإلهي، وتدور كل ظواهره حول مركز وحيد: الامبراطور. لذلك، لا غرابة في أن يتجه تفكيره في ساعاته الأخيرة إلى تلك السلسلة من السلف الذين رفعوا بروسيا تدريجياً إلى مصاف الدول العظمى. **كانت حياة المارشال أشبه بقوس هائل يصل بين عالمين مختلفين. أما الآن فإن هذا القوس ينهار ليخلف وراءه مشكلة الخلافة**. وأخذت الإشاعات المتضاربة تسري في شوارع العاصمة؛ في الوقت الذي سجي فيه جثمان المارشال الراحل في قاعة نوديك الكبرى؛ ملتحفاً بمعطفه القديم الذي حمل شعار فرسان القديس حنا. إذ أخذ البعض يتحدث عن تعيين أمير هوهنزليرن رئيساً للرايخ؛ بينما زعم آخرون بأن هتلر يفكر بإعادة الملكية. ولكن؛ وفي اللحظة التي كان فيها الرئيس يلفظ أنفاسه الأخيرة، اجتمع مجلس الوزراء في قصر المستشار؛ وتبنى نص قانون وضع حداً حاسماً لجميع هذه الإشاعات والتخرصات؛ يستطيع الشعب قراءته بعد ساعات معلقاً على كافة الأبنية الرسمية في الرايخ:

«تدمج وظائف رئيس الرايخ بوظائف مستشار الامبراطورية. وتحول بالتالي كافة صلاحيات الرئيس إلى الفوهرر والمستشار أدولف هتلر الذي يعين ممثله بنفسه».

برلين ١ آب ـــ اغسطس ـــ ١٩٣٤

هكذا تم حل مسألة الخلافة بسهولة مذهلة. إلا أنه لم يكن بالمستطاع اتخاذ مثل هذا القرار لولا دعم الجيش له. لقد قطف هتلر الآن ثمن تدخله في يوم ٣٠ حزيران ـــ يونيو ـــ (ليلة السكين الطويلة). لقد كان القادة (الجنرالات) يعتبرونه حتى الآن مجرد زعيم حزب. أما اليوم؛ فقد قبلوا الاعتراف به رئيساً أعلى للرايخ.

لقد زود قانون الأول من آب ـــ اغسطس ـــ على إيجازه؛ مزيداً من السلطات الجديدة لهتلر:

فقد جمع الفوهرر في قبضته كافة واجبات وحقوق رئيس الحزب؛ ومستشار الامبراطورية؛ ورئيس الرايخ؛ والفوهرر السياسي للأمة؛ والرئيس المطلق للدولة؛ والقاضي الأعلى للشعب؛ والقائد الأعلى للجيش. ولم يسبق في تاريخ ألمانيا أن ألقيت هذه التبعات على أكتاف رجل واحد، وقد تعمد هتلر في نهاية اجتماع مجلس الوزراء؛ أن يعلن أنه لن يحمل لقب (رئيس الرايخ) الذي سيظل مرتبطاً بذكرى المارشال العظيم؛ بل سيسمى «فوهرر الرايخ ومستشاره».

أدى يمين الولاء أمام هتلر في اليوم التالي ٢ آب ـــ اغسطس ـــ كل من وزير الجيش فون بلومبرغ ورئيس هيئة الأركان الجنرال فون فريتش وقائد القوى البحرية الأميرال ريدر. وكان جنود الجيش يرددون في الوقت ذاته قسم الولاء لهتلر، في داخل الثكنات؛ أمام ضباطهم؛ وفي كافة أنحاء الرايخ.

جرت المراسم الأولى لجنازة هندنبورغ في الرايخستاغ يوم ٦ آب ـــ اغسطس ـــ حيث وضع صفان من الجنود سياجاً على طرفي الشارع المؤدي إلى أوبرا ـــ كرول. كان أحد الصفين مشكلاً من جند جيش الرايخ، بينما تشكل الآخر من ميليشيا س. آ و س. س، وهكذا وقفت هاتان الفئتان من الرجال الواحدة مقابل الأخرى من جديد (مثلما وقفتا يوم تم تعيين هتلر مستشاراً للرايخ). إلا أنهما لم يعودا يشكلان مجموعتين منفصلتين ومتميزتين. لم يعد هناك جيش الرئيس و جيش المستشار، بل أصبح هناك مجموعة واحدة تدين بالولاء التام للفوهرر. **جرت احتفالات في المساء والليل؛ توجت صباح يوم ٧ آب ـــ اغسطس ـــ بجنازة كبرى جرت في تانِنبرغ حيث حمل جثمان هندنبورغ إلى برج المارشالات، بينما كانت المدفعية تطلق مئة طلقة وداعاً للراحل العظيم.**

أخيراً؛ جرى استفتاء شعبي عام يوم ١٩ آب ـــ اغسطس ـــ ١٩٣٤ للتصديق على «توحيد الرايخ بزعامة الفوهرر». وفاز هتلر بمجموع ٣٨ر٣٦٢ر٧٦٠ صوتاً؛ أي بنسبة ٨٨ر٩٪ من مجموع الأصوات. ووافق الشعب الألماني على قرار هتلر الذي أصبح لقبه الجديد «فوهرر الرايخ».

○

المراجع الرئيسة للقسم الأول

آ ــ المراجع العربية

١ ــ رواد الاستراتيجية (ادوار ميدايرل وآخرين) ترجمة وتقديم الأميرالاي أركان الحرب محمد عبد الفتاح ابراهيم ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٥٧ .

٢ ــ تاريخ فن الحرب (الجنرال ستروكوف) ترجمة العميد الركن صباح الدين الأتاسي ــ إدارة الشؤون والتوجيه المعنوي ــ وزارة الدفاع ــ دمشق ــ ١٩٦٨ .

٣ ــ الاستراتيجية وتاريخها في العالم (ج . ل . ليدل هارت) ترجمة الهيثم الأيوبي ــ دار الطليعة ــ بيروت ــ ١٩٦٧ .

٤ ــ إدارة الحرب (ج . س . فوللر) ترجمة أكرم ديري ــ دار اليقظة العربية ــ بيروت ــ ١٩٧١ .

٥ ــ المعارك الفاصلة في التاريخ (حنا خباز) دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٩٥٩ .

٦ ــ تاريخ الجيش الألماني (بينوا ــ ميشان) ترجمة العميد الركن محمد سميح السيد ــ دمشق ــ ١٩٧٦ .

٧ ــ مناورات ومواقع لودندورف الكبرى (محمد رضا استنبولي) المطبعة العمومية بدمشق ــ ١٩٥٨ .

٨ ــ عهد الحرب الخاطفة و هيئة الأركان العامة الألمانية (آري ــ آش ــ أرنكتون) ترجمة رياض شاهر التقي ــ مركز الدراسات العسكرية ــ دمشق ــ ١٩٨١ .

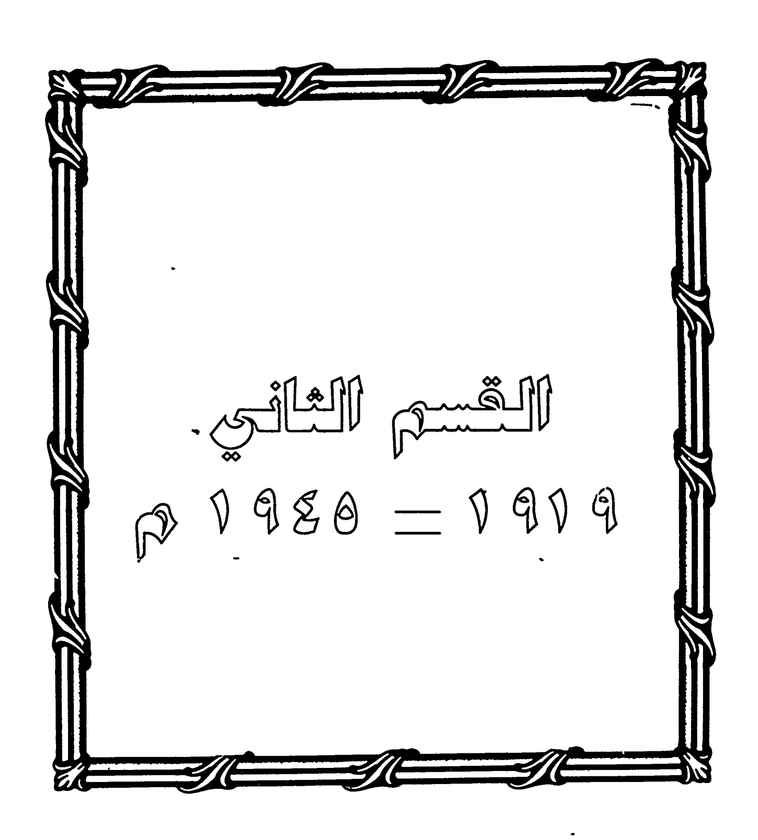
ب ــ المراجع الأجنبية

1 — Fréderick The Great's Army (Albert Seaton) Osprey-Publishing Limited-1973.

2 — The Decisive Battles of The Western World. (J.F.C. Fuller) Granada Publishing Limited.1970

3 — Bismarck (Henry Vallotton) Fayard-1961.

4 — The War Lords (Field Marschal Sir Michael Carver) Weidenfelf and Nicolson-London 1976.



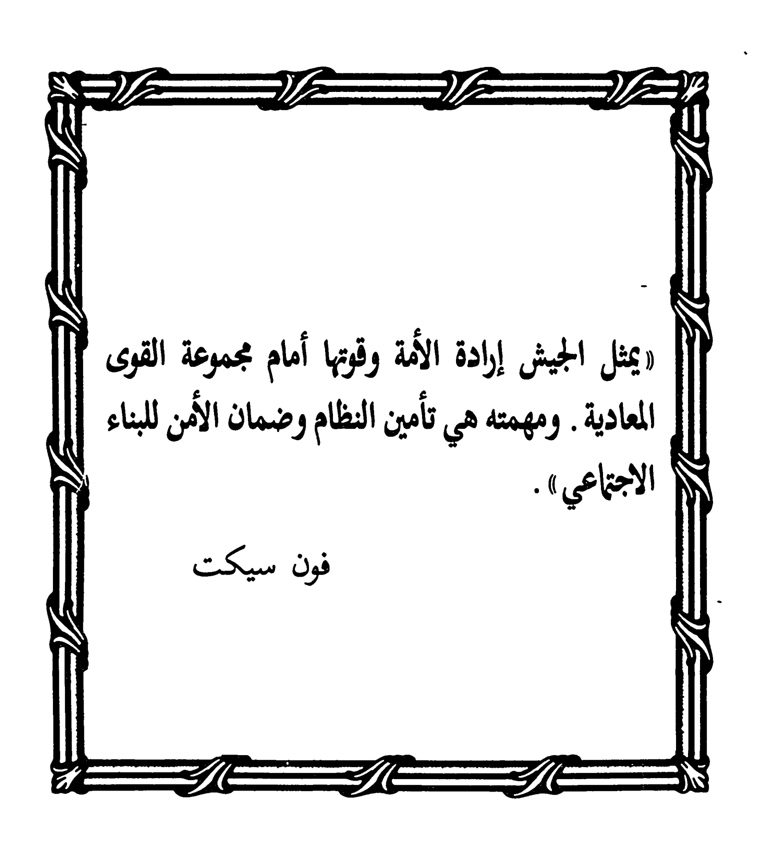
القسم الثاني

١٩١٩ = ١٩٤٥ م

الفصل الأول

إعادة بناء الجيش الألماني

١ ــ فون سيكت هانز



«يمثل الجيش إرادة الأمة وقوتها أمام مجموعة القوى المعادية . ومهمته هي تأمين النظام وضمان الأمن للبناء الاجتماعي» .

فون سيكت

الوجيز في حياة فون سيكت هانز

١٨٦٦ ــ ١٩٣٦ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٦٦	ولادة سيكت في قلب بروسيا ، شيلزويغ .
١٨٨٥	تطوع سيكت في الجيش الامبراطوري البروسي .
١٩١٤	عمل في هيئات الأركان وقيادات الجيوش .
١٩١٨	مثل وزارة الدفاع الألمانية في التوقيع على معاهدة فرساي .
١٩٢٠	أصبح رئيساً لهيئة الأركان ، ولقب بآخر ضابط بقي في الجيش ، من الجيش الملكي البروسي القديم .
١٩٢٦	استقال من منصبه بضغط من فرنسا ، بعد أن وضع أساس تنظيم الجيش الألماني الجديد .
١٩٣٢	عمل مع الصين الوطنية لتدريب جيشها ضد الشيوعيين .
١٩٣٥	عاد إلى ألمانيا .
١٩٣٦	توفي سيكت وقد حمل صفة جديدة : « فقد كان آخر ضابط من الجيش الملكي البروسي ، وهو أول ضابط في جيش الرايخ » .

Von Seeckt Hans

١ ـــ فون سيكت هانز

خرج الشعب الألماني بعد أربع سنوات من الحرب؛ وثمانية أشهر من الثورة؛ وهو يتطلع، بمعظمه، إلى الأمن والراحة. فالصراع المضني الذي خاضه؛ ونقص المواد التموينية والغذائية الذي استمر طوال أشهر متتالية بسبب الحصار؛ جعلاه ينساق مع الدعاية التي رفعت شعارات (الحاجة للسلام)، من أجل تضميد جراحه، واستعادة قواه. فالفلاحون على عجلة من أمرهم لإصلاح مساكنهم وحراثة حقولهم؛ والعمال من جهتهم قد عادوا إلى مصانعهم ومعاملهم؛ وأصبح الكفاح اليومي من أجل البقاء كفيلاً بامتصاص ما تبقى لديهم من الطاقة. وانعكس ذلك كله على الجندي في الجبهة؛ عشية الصلح؛ مما حمله على قبول الحديث عن العودة إلى المنزل والحقل والمصنع للتفرغ من الآن فصاعداً لإعادة البناء السلمي. وبالرغم من ذلك كله؛ فقد بقيت الروح السائدة في الجيش هي روح مختلفة تماماً. وقد أخذ هذا الإختلاف في تشكيل هوة فاصلة عميقة بين العسكريين والمدنيين. لقد هيمن على الجنود في القطعات شعور بخيبة الأمل والمرارة من الحكومة التي تنكرت لجهودهم وتضحياتهم. هذه الحكومة التي قدمت إليهم الوعود الكثيرة يوم أرادت زجهم للحرب على جبهة البالطيق ــ لقتال البولشفيك ــ قد عادت فقررت الإستغناء عنهم؛ دون أي اهتمام بمصيرهم ومستقبلهم. وكانت الحكومة الاشتراكية؛ ومعها القسم الأكبر من أعضاء المجلس الوطني؛ قد اعتبرت أنه أمر طبيعي أن يقوم الجنود بالتضحية بحياتهم من أجلها؛ خلال معارك ضارية ضد مواطنيهم، دون أن تعطيهم هذه التضحية أي حق في تعويض مناسب، معنوي ومادي، «فالمرتزقة يقومون بواجبهم لقاء الأجور (الرواتب) التي يتقاضونها؛ وحسبهم ذلك». ولقد جاءت هذه التحديات المعنوية؛ بالإضافة إلى الإستفزازات المادية؛ لتؤكد عجز السلطات المدنية وسوء إدارتها؛ فاللباس سيء للغاية؛ والغذاء غير كاف؛ والثكنات في حالة متردية. ولقد حاول قادة الجيش التوسط لدى السلطة المدنية من أجل تحسين هذا الوضع وإصلاحه؛ إلا أنهم سرعان ما اصطدموا بجدار من عدم الفهم لاحتياجات القطعات ومتطلباتهم؛ وتبين أنه من المحال توقع حدوث أي تطور نحو الأفضل في العلاقات العسكرية ــ المدنية. وكان استياء الضباط معادلاً، أو أكثر، من استياء جنودهم. فالتخلي عن العلم الامبراطوري بألوانه الثلاثة ــ الأسود والأبيض والأحمر ــ كان من

وجهة نظرهم بمثابة التنكر والخيانة لرفاقهم الذين سقطوا في ساحة الشرف للدفاع عن هذا العلم. أما العمرات الجديدة ذات الألوان الجمهورية، فقد كانت تثير نفورهم وتقززهم. هذا بالإضافة إلى شعورهم بالغبن، وضياع الأمل بالترفيع والتعويضات، حيث كان وزير المالية ايرزبرغر يفتنُّ في إزعاج العسكريين ومضايقتهم بحجة العجز في الموازنة المالية؛ فيما كان الضباط يرون بأعينهم ما تنفقه الحكومة في مجريات مختلفة لا ضرورة لها على الإطلاق، من وجهة نظرهم على الأقل. وفي هذا الجو المشحون بالتوتر؛ تقرر تخفيض قوة الجيش من ٢٠٠ ألف جندي إلى ١٠٠ ألف. بالإضافة إلى تسريح ٣٠٠ ألف مجند دون تقديم أية مساعدة لهم، بالتعويضات أو إيجاد مجالات العمل لهم.

لم يكن من الغريب في هذا المناخ أن يبدأ التحرك المضاد على مستوى الجنود وصف الضباط، الذين أخذوا في مناقشة المواقف السياسية والعسكرية ضمن الحلقات التي يجتمعون بها بصورة طبيعية في ثكناتهم؛ وعلى الرغم من الإجراءات المضادة التي اتخذتها الحكومة لمنع تسرب الأفكار السياسية للجيش عن طريق إشغاله بتحركات مستمرة؛ وتنقلات متتابعة؛ عبر الأقاليم الألمانية؛ فقد عبر التمرد عن وجوده بتحرك بعض القطعات إلى برلين. مما دفع وزير الدفاع نوسك لعقد اجتماع مع كبار قادة الجيش في ليل ١٢ ــ ١٣ آذار ــ مارس ــ ١٩٢٠. وعبر عن موقفه بقوله: «سأخوض المعركة مع العناصر المضادة للثورة؛ وسأسحق التمرد بقوة السلاح؛ وإني أطلب من الضباط المستعدين للسير معي أن يرفعوا أيديهم». وصمت القادة، إلا فون سيكت الذي جابه وزير الدفاع بمقولته التاريخية:

«لن يطلق جيش الرايخ النار على جيش الرايخ؛ هل في نيتك يا سيادة الوزير إشعال نار معركة دامية عند بوابة براندبورغ، بين القطعات التي بقيت حتى الأمس القريب وهي تقاتل العدو، جنباً إلى جنب؟».

لم يكن فون سيكت يريد يقيناً إنقاذ المتمردين؛ غير أنه كان القائد الوحيد الذي قدر مسبقاً العواقب الوخيمة والمأساوية التي يمكن أن تنجم عن أي صراع مسلح. إذ أن مجرد قيام الصراع داخل الجيش الواحد؛ سيقضي على كل روح لأخوة السلاح؛ وسيفصم عرى الوحدة التي تجمع بين الضباط. وبدهي ألا يقتنع وزير الدفاع نوسك بحجة فون سيكت. وأعلم القادة عن قراره باستدعاء العمال لحمل السلاح ضد الجيش، ولكنه اصطدم بعقبة عدم توافر الوقت اللازم لمثل هذا الإجراء. فقرر استنفار جهاز الشرطة وزجه للعمل ضد الجيش. فجابهه فون سيكت من جديد بقوله: «إن بعض عناصر الشرطة قد اتفقت مع المتمردين». لكن الحكومة (حكومة كاب ــ لوتويتز) حاولت الوقوف في مجابهة التيار، مما أدى إلى وقوع اشتباكات دموية بين الجيش والمدنيين في برلين وسواها، حتى إذا ما كان يوم ١٧ آذار ــ مارس ــ انهارت الحكومة نهائياً. وعهد إلى الجنرال فون سيكت بأمر إعادة الأمن والنظام، بعد أن أسندت إليه وزارة الدفاع. فكان أول عمل قام به سيكت هو

إصدار أمر إلى قائد التمرد إرهارت بسحب لوائه من برلين. ووافق إرهارت بشرط «عدم تجريد لوائه من السلاح». وقبل سيكت هذا الشرط؛ وتم الإنسحاب؛ وعندما وجه إلى سيكت اللوم لأنه ترك لواء إرهارت يذهب دون تجريده من السلاح؛ أجاب بقوله: «**لو فعلت ذلك لكنت قد دمرت القطعة الوحيدة الإنضباطية الباقية في ألمانيا**».

كانت حكومة ايبرت الاشتراكية قد هربت إلى دريسد عندما دهمتها الأحداث؛ فلما كان يوم ١٨ آذار ــ مارس ــ عادت هذه الحكومة إلى برلين، وتخلت عن وزير الدفاع لوتويتز وعن كاب، وجعلت منهما كبشي الفداء. ولكن الحركة الإنقلابية لم تكن قد تمت تصفيتها بعد؛ وتلقت ألمانيا صدمة عميقة لم تدرك بعد خطورتها. إذ استمرت حمى القلق في السيطرة على كافة أنحاء البلاد. ووجدت الوزارة الشرعية نفسها فور عودتها إلى العاصمة برلين وهي تواجه مشكلتين على غاية الدقة والحساسية؛ وهما المشكلة العسكرية والمشكلة السياسية.

لقد استطاع الجنرال فون سيكت تجنيب بلاده الكارثة مرتين متتاليتين خلال خمسة أيام فقط. كانت المرة الأولى عندما منع نوسك من إشعال فتيل الصراع المسلح بين مختلف عناصر الجيش. وكانت المرة الثانية عندما استطاع إخلاء القطعات المتمردة بسرعة. وكان لهذين النجاحين؛ بالإضافة إلى حياده تجاه حكومة كاب ــ لوتويتز، الفضل في جعله حكماً على الموقف؛ **لذلك كان أول ما فعلته حكومة ايبرت هو تسمية الجنرال سيكت قائداً أعلى للجيش الألماني. وأصدر الجنرال فون سيكت في هذا اليوم ذاته ١٨ آذار ــ مارس ــ أول نداء له إلى الضباط؛ قادة الجيش؛ جاء فيه**: «لقد دقت الساعة الحاسمة؛ بالنسبة للضباط؛ إذ أن موقفهم خلال الأيام القادمة هو الذي سيبرهن عما إذا كانوا فعلاً جديرين بالمحافظة على إدارة الجيش الفتي أم لا؟ وسنرى في الوقت ذاته ما إذا كان باستطاعة هذا الجيش إنقاذ أفضل ما في ماضينا؛ لإدخاله في الحاضر ونقله إلى المستقبل. ولقد توافرت مجموعة من البراهين استخلصت منها أن هناك عدداً كبيراً من أفراد هذا الجيش لم يدركوا بعد أبعاد الحالة التي أوصلتنا إليها الأحداث الأخيرة؛ التي قام بها أشخاص ضللتهم سياسة قصيرة النظر تكاد تبلغ حدود الخيانة. إن مثل هذه المغامرات الحمقاء ــ المأساة ــ من شأنها أن تدفع الأغلبية البريئة لحمل ثمن الغرم المقابل للأخطاء التي ارتكبها أفراد منعزلون. إلا أنه مع ذلك؛ لا يسعني إنكار أو إخفاء الأخطاء الخطيرة التي ارتكبت في صفوفنا أيضاً؛ والتي تتطلب التفكير والإصلاح. فإذا نحن لم نعترف بها؛ وإذا نحن لم نفكر بها؛ فإنه يجب علينا عدم التذمر إذا ما فرضت علينا التدابير التقويمية من الخارج. لذلك؛ فأنا على غير استعداد لتحمل تكرار مثل هذه الأحداث، وعلى غير استعداد لنسيان ما ارتكب منها، وليس هناك في جيش الرايخ مكان للقطعات التي لوثت الشرف العسكري. إنني أتقبل منصب القيادة العليا للجيش،

وكلي ثقة مطلقة بفئة الضباط (القادة). لقد مضى على وجودي في الخدمة خمسة وثلاثون عاماً عشتها في الجيش وللجيش؛ وما تبقى من قواي يعود إليه أيضاً. ليس هناك من يتحسس الآلام والنكبات العامة أكثر مني؛ **فإذا ما بقينا متحدين؛ استطعنا مرة أخرى تخطي هذه الصعوبات. أنا لا أنتظر من الجميع أن يتقبلوا في قلوبهم تطور الزمن، إلا أنه لزاماً على الجميع الإقتناع بهذه الفكرة؛ وهي أن طريقنا لا يمكن أن تصعد إلى القمم إلا إذا ظل كل جندي مخلصاً للواجبات التي يفرضها عليه الدستور».**

أفادت نقابات العمال وأحزاب اليسار من موقف الجنرال فون سيكت وحاولت استثماره حتى أبعد الحدود، فطالبت بإحالة جميع المشتركين في الحركة الإنقلابية للمحاكمة؛ وحل جميع القطعات التي تورطت في الحركة. ووافقت الحكومة على هذه المطالب؛ ذلك لأن تدخل العمال هو الذي مكنها من استعادة السلطة. وبدأت أعمال القمع في جميع أنحاء ألمانيا؛ فتمت إقالة عدد كبير من القادة (الجنرالات) وأحيل بعضهم إلى المحاكمة. وفرّ عدد من القادة إلى بافاريا والنمسا بجوازات مزورة؛ ومنهم الجنرال لودندورف وقائد الإنقلاب إرهارت. وكانت هذه الأيام من أقسى ما عرفه ضباط الجيش الألماني منذ نهاية الحرب. وحاول الجنرال فون سيكت التوسط لدى ايبرت لتخفيف حدة مطالب أحزاب اليسار — كما حاول هندنبورغ وسواه ذلك رغم بعدهم عن مواقع السلطة — إلا أن ذلك لم يزد أحزاب اليسار إلا تشدداً وتصلباً في مواقفها؛ فأصرت على إدانة المذنبين؛ وطلبت إعادة تنظيم الجيش واستبداله بجيش من الميليشيا؛ يتم تطويعه تحت إشراف نقابات العمال. الأمر الذي أدى إلى اندلاع الاضطرابات بين الأحزاب اليسارية (المتطرفة) وبين أحزاب الوسط، لا سيما في حوض الرور. وحدثت اشتباكات عنيفة في عدد من المدن، ووقع عدد من القتلى والجرحى. وقام العمال بنهب مستودعات الأسلحة والذخيرة في عدد من المواقع، وهاجموا بعض المراكز العسكرية. وعلى أثر ذلك؛ اجتمع (مؤتمر السفراء) لدول الحلفاء في باريس يوم ٣١ آذار — مارس — ١٩٢٠. ثم قامت قوة من عشرين ألف جندي فرنسي ومغربي (مراكشي) باحتلال مدينتي فرانكفورت و دارمستاد يوم ٦ نيسان — ابريل — فيما كانت قوات أخرى من الجيش الألماني تستولي على بوتروب و ايسن، وهربت كتائب العمال إلى منطقة الاحتلال البريطانية حيث تم تجريدها من أسلحتها، وتم إجهاض حركة الثورة. وتعرض الجيش لهزة عنيفة؛ فقد أدرك قادته في وقت متأخر أنه ليس باستطاعتهم ممارسة الحكم مباشرة؛ وأنه لا بد لهم من الاستعانة بحكومة شرعية يمارسون دورهم من خلالها. وفي الوقت ذاته؛ بات الجيش بحاجة لإعادة التنظيم الشامل. **وانتقل مصير ألمانيا ومقدراتها العسكرية إلى قبضة الجنرال فون سيكت. فهل يمكن لهذا الجنرال الإضطلاع بهذا العبء الثقيل؟ ومن هو هذا الجنرال الذي مارس دوره بشكل مميز حتى الآن؟ والذي سيمارس منذ الآن فصاعداً دوراً طليعياً في تاريخ بلاده العسكري؟ من هو هذا الرجل الصامت الصلب؛**

الذي سيشبهه المؤرخون قريباً؛ من حيث العمل والتأثير؛ بشارنهورست وأمثاله من كبار المصلحين العسكريين البروسيين ؟...

O

ولد هانز فون سيكت يوم ٢٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٦٦ في شيلزويغ، مركز الاقليم البروسي الذي يحمل الاسم ذاته؛ وانحدر من عائلة كاثوليكية ذات أصل دانماركي؛ حيث تحتل التقاليد العسكرية مكانة الصدارة الأولى. وقرر احتراف حياة الجندية منذ صباه المبكر فالتحق في فوج حرس الامبراطور الكسندر في ٤ آب ـ اغسطس ـ ١٨٨٥؛ وكان يتم اختيار ضباط هذا الفوج من نخبة فئة الارستقراطية البروسية؛ والتي كان دورها في مجتمع برلين؛ يماثل الدور الذي كان يضطلع به ضباط فوج المشاة الأول للحرس في بوتسدام، وهو الفوج الذي كان يحمل لقب (فوج المسيحية الأول). وفي هذا الوسط المتأنق الرفيع؛ المختلف كثيراً عن الأفق الضيق المتوافر لأي موقع في الريف؛ اكتسب فون سيكت آداب السلوك الاجتماعي، وتلك الثقافة الواسعة التي ميزته عن رفاقه في السلاح؛ ممن لم تتوافر لهم هذه التربية الرفيعة. وبعد اتباع الدروس في الأكاديمية العسكرية؛ أكمل فون سيكت دورة الأركان؛ وعند إعلان الحرب ١٩١٤، كان في برلين وقد أشغل منصب رئيس هيئة أركان الفيلق الثالث البراندبورغي برتبة مقدم.

أمضى فون سيكت سنوات الحرب متنقلاً على مختلف الجبهات، شاغلاً باستمرار وظيفة رئيس هيئة الأركان. ولا بد هنا من معرفة الأهمية الكبرى لهذه الوظيفة في الجيش الألماني القديم، حتى يصبح بالمستطاع إدراك معنى هذه الحياة العسكرية. فقد كان يعهد بمنصب القيادة قبل العام ١٩١٤؛ إلى أحد أفراد الأسرة الامبراطورية؛ أو إلى أحد الأمراء الذين تميزوا بتعلقهم بالتاج وولائهم له وارتباطهم به؛ لذلك كانت قيادة الفرقة أو الفيلق هي منصب شرف فخري في معظم الأحيان. وهذا ما كان يلقي بمسؤولية إدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية على عاتق رئيس هيئة الأركان؛ فهو المفكر الاستراتيجي؛ وهو العقل الموجه والمبدع؛ وهو الذي كانت خططه واقتراحاته تقبل دائماً دون مناقشة. وتم تعميم هذا الأسلوب على كافة الأنساق القيادية الألمانية؛ حتى عندما كان يضطلع بأعباء هذه القيادة قادة أكفاء من أمثال هندنبورغ. ولقد كان من أسباب نجاح فون سيكت الرئيسة في عمله؛ هو ميله إلى هذا العمل وانصرافه له بجهد مستمر وصمت شديد؛ بعيداً عن الأضواء والضجيج الفارغ؛ وإنجاز الأعمال دون استثارة للأنظار أو الانتباه للفاعل. ولقد رأى فيه خصومه عدواً من ألد أعداء الجمهورية؛ ولم يكونوا في ذلك مخطئين أو متحاملين. إلا أنهم كانوا مخطئين ولا شك؛ عندما حسبوا صمته ناجماً عن تفكير متعرج وملتو ومعقد. إذ أن جميع أعماله

كانت متسلسلة بوضوح وانتظام؛ أما الألغاز والغموض والاضطراب فلن يبدأ في عهده، وإنما سيكون من نصيب خلفائه من بعده.

ظهر فون سيكت بشكل بارز على الجبهة الفرنسية سنة ١٩١٥؛ حيث قامت قواته بعملية رائعة في قطاع سواسون عادت عليه بوسام الاستحقاق. ثم ظهر من جديد على الجبهة الشرقية، حيث قام بتنظيم الهجوم الصاعق على تارنو — غورليس، وبعد ذلك ببضعة أشهر، عاد للظهور من جديد عندما تولى رئاسة هيئة أركان مجموعة جيوش البلقان★. وهنا انتزع فون سيكت إعجاب وتقدير القيصر البلغاري فرديناند، حيث اقترح القيام بمسير سريع نحو سالونيك لمنع الحلفاء من إنزال قواتهم هناك؛ إلا أنه لم يستطع تبديد مخاوف كل من الجنرال فون فولكنهاين والامبراطور غليوم الثاني من هذا المشروع. وجاءت سنة ١٩١٦ لتسجل، فيما سجلته، وصول الجنرال فون سيكت إلى أوج مجده العسكري خلال الحرب. فقد عين فون سيكت رئيساً لهيئة أركان الجيش النمساوي السابع الذي كان يقوده الأرشيدوق شارل؛ وكان هذا المنصب غاية في الثقة والحساسية؛ لأن الأرشيدوق شارل، كان هو وريث الإمبراطور فرانسوا جوزيف وخليفته. ولأن كافة المكائد والدسائس التي كانت تحاك في مملكة الدانوب، كانت تتركز حول الوريث المنتظر. إلا أن رجلاً واحداً؛ كان يراقب بشيء من التخوف والتحفظ صعود هذا الضابط اللامع الذي نجح حتى أبعد الحدود في الإضطلاع بدور (مستشار الملوك) وهذا الرجل هو الجنرال لودندورف. حيث كان يحاول دائماً إبعاده عن حاشية غليوم الثاني مثله كمثل كافة الشخصيات المميزة والتي كان من شأنها إلقاء بعض الظلال التي قد تحجب بعض المكانة التي استحوذ عليها لودندورف. لذلك قررت القيادة العامة إبعاد فون سيكت عن مسرح العمليات الغربية؛ وأرسلته إلى صوفيا، ثم إلى إسلام بول أو استانبول، لإشغال منصب (ملحق عسكري مفوض) ذي صلاحية غامضة. وعلى الرغم من نجاح فون سيكت بتنفيذ مهمته في البلاط العثماني. إلا أنه لم يستلم بعدئذ أي منصب قيادي؛ حتى عاد إلى ألمانيا مع انتهاء الحرب. ومن المحتمل أن يكون قائد المستقبل العام لجيش الرايخ قد اعتقد يومها بأن مستقبله العسكري قد انتهى. إلا أن المستقبل قد برهن على عكس ذلك؛ فها هي ذي الآفاق الواسعة قد انفتحت أمامه؛ وكأن دوره التاريخي قد بدأ منذ الآن.

○

عاود فون سيكت اتصاله بهيئة الأركان العامة منذ الأسابيع الأولى للثورة؛ واستطاع أن يتميز بسلوكه المعتدل والحازم. لذلك عين؛ بعد اتباعه دورة رئيس أركان الجيش الشمالي؛ لمرافقة وفد

★ كانت هذه المجموعة تضم الجيش الألماني ٢٢؛ والجيش النمساوي — الهنغاري والجيش البلغاري.

السلام الألماني إلى فرساي. وهناك؛ حضر وضع الصيغة النهائية للبنود العسكرية؛ وعاد إلى برلين وقد استوعب بعمق (اتفاقية السلام). حيث درس كل فقرة من فقراتها؛ ودقق كل جملة؛ أو عبارة؛ خلال محادثاته في فرساي. لذلك لم يكن هناك من هو أكثر منه كفاءة لتولي زمام الأمور في إعادة تنظيم وزارة الحرب؛ ووضع الخطط لإعادة تنظيم الجيش الجديد. وعلى هذا؛ فقد تم تعيين فون سيكت رئيساً (للجنة التحضيرية لجيش السلام) يوم ٥ تموز ــ يوليو ــ ١٩١٩؛ أي بعد ثمانية أيام فقط من التوقيع على (معاهدة السلام).

ظهرت إلى حيز الوجود؛ عشية حل الجيش الامبراطوري؛ مجموعات كثيرة من التنظيمات الصغيرة من المقاتلين المتطوعين. ولم تلبث أن انتظمت في قطعات حرة وكتائب وأفواج وألوية. لذلك أمكن القول بأن الجيش المؤقت للرايخ قد تشكل من الأسفل إلى الأعلى، منطلقاً بالقطعات ومنتهياً بعناصر القيادة. لذلك، قرر فون سيكت اللجوء إلى الاتجاه المعاكس في تشكيل جيش الرايخ المحترف؛ أي من الأعلى نحو الأسفل؛ مبتدئاً بهيئة الأركان ومنتهياً بالقطعات.

كانت هيئة الأركان العامة البروسية؛ التي نظمها فون مولتكه الكبير وطورها فون شليفن؛ قد تشكلت قبل الحرب من شعبة مركزية وعدد من المصالح؛ جمع كل اثنين أو ثلاثة منها تحت قيادة أربعة قادة (جنرالات) يحملون لقب رئيس شعبة أو مقر، وكانت هذه الشعب الأربعة مرتبطة بالمصالح التالية: «**١ ــ العمليات والحشد. ٢ ــ الجيوش الأجنبية. ٣ ــ التدريب. ٤ ــ الحصون**». ولقد تم حل هذا التنظيم المتكامل (بموجب المادة ١٦٠ من معاهدة السلام). إلا أن فون سيكت قام بتشكيل جهاز جديد تحت رئاسته في يوم ٩ تموز ــ يوليو ــ ١٩١٩؛ وبعد ثمانية وأربعين ساعة فقط من تعيينه رئيساً للجنة التحضيرية لجيش السلام؛ وقد عمد إلى تقسيم هذا الجهاز بدوره إلى أربعة شعب تبعاً لصلاحيتها ولطبيعة عملها؛ وحملت الأسماء التالية: «**١ ــ العمليات. ٢ ــ التنظيم. ٣ ــ الجيوش الأجنبية. ٤ ــ النقل**». ويمكن دون عناء ملاحظة ذلك التشابه بين هذا التنظيم؛ وذلك التنظيم الذي سبقه حتى سنة ١٩١٤. وبقيت البنية التنظيمية واحدة، ولم يختلف إلا الاسم فقط.

كان قد مضى على وجود فون سيكت على رأس هذا الجهاز ما يقارب تسعة الأشهر عندما وقع الإنقلاب الذي سبقت الإشارة إليه (انقلاب كاب ــ لوتويتز). وكانت هناك أشياء كثيرة تربطه بالجنرال فون لوتويتز؛ منها أصله الارستقراطي؛ وقناعاته الملكية؛ وخدمته الطويلة في هيئة أركان الفيلق الثالث؛ ونفوره من الاشتراكية ومن النظام البرلماني اللذين كان يرى فيهما عدوين لدودين لعظمة ألمانيا وقوتها. إلا أنه كان يتميز عن فون لوتويتز بمزايا عديدة؛ أهمها: الهدوء؛ ورباطة الجأش؛ والقدرة على كتم انفعالاته وإخفائها؛ ثم معرفته العميقة لسياسة الحلفاء، إلى جانب تقديره الصحيح للوضع الداخلي في ألمانيا. ولذلك حكم على الإنقلاب؛ منذ البداية؛ بأنه مجازفة كبيرة محكوم عليها

مسبقاً بالفشل. وكان يدرك بأن نهوض البلاد من كبوتها يتطلب عملاً طويلاً ومستمراً؛ وأن من شأن هذه الحركة تعريض ألمانيا لخطر ثورة جديدة. ولم يكن ليخطر على بال الجنرال فون سيكت الإنضمام إلى صفوف البروليتاريا الشيوعية؛ إلا أن تأييد القادة الرجعيين (جنرالات الإنقلاب) كان سيؤدي إلى إبعاده عن الجيش، بعد تصفية الإنقلاب. كان فون سيكت يعرف مسبقاً أن الأحزاب اليسارية ستحاول استغلال انتصارها المحتوم؛ لكي تبسط نفوذها على الجيش؛ وتسلم كافة مقاليد الأمور فيه إلى رجالها الموثوقين، لذلك رأى أن من واجبه البقاء بعيداً عن حركة التمرد، حتى يستطيع أن يحكم الصراع بعد سقوط أطرافه. ولقد ظهر ـــ في الصفحات السابقة ـــ كيف استطاع القيام بهذه المهمة؛ وكيف استطاع بتدخله مرتين؛ أن يمنع تحويل الإنقلاب إلى حرب أهلية. لذلك يمكن القول بأن الفضل يعود إليه في تجنيب ألمانيا المصير المأساة الذي عرفته إسبانيا بعد ذلك بستة عشر عاماً؛ عبر جهوده خلال ثمانية أيام؛ عرف فيها كيف يفرض إرادته على المتمردين؛ حتى أصبح سيد الموقف. وقد توصل بدعم من هندنبورغ وغرونر إلى فرض شروطه على الحكومة. كذلك عندما عينه ايبرت في منصب القائد الأعلى للجيش الألماني يوم ١٨ آذار ـــ مارس ـــ ١٩٢٠، بدلاً من الجنرال راينهارت★، كان على ثقة بقدرته على إعادة تنظيم جيش الرايخ على ذات الأسس والمبادىء التي نهج عليها في إعادة تنظيم القيادة العامة الجديدة. وكان من أهم مشاغل فون سيكت أن يجعل من القيادة العامة ووزارة الحرب؛ وسطاً متجانساً ومغلقاً؛ يستبعد منهما نهائياً أي عنصر مدني؛ وحيث يمكن لخلفاء شارنهورست و جنيسناو أن يعملوا بعيداً عن مراقبة الطفيليين والفضوليين؛ لإعادة بناء القوة العسكرية للرايخ. وكان على القيادة الجديدة؛ كما كانت القيادة العليا السابقة عشية الصلح؛ أن تدافع عن نفسها على جبهتين: ضد العدو الخارجي أي (اللجنة الحليفة للمراقبة والإشراف) وضد العدو الداخلي أي (البرلمان الألماني).

لقد نصت المادة ١٦٠ من معاهدة فرساي؛ على حل هيئة الأركان العليا؛ وعلى أنه لا يجوز إعادة تشكيل هذه الهيئة بأي شكل كان؛ فأجهزة القيادة العليا لجيش الرايخ الجديد؛ يجب أن تقتصر على قائدي مجموعتي القيادة في برلين وكاسل فقط؛ اللذين يخضعان مباشرة لوزارة الحربية. وكان لزاماً على فون سيكت مجابهة هذا الموقف الخارجي وإيجاد الحل المناسب. أما على مستوى الجبهة الداخلية؛ فكان على فون سيكت مجابهة سلسلة من العوائق. ليس أقل هذه العوائق خطورة محاولة تدخل الحكومة في إدارة الجيش وتنظيمه؛ وكذلك التضييق عليه بحجة الاقتصاد في النفقات. وكان

★ عرضت الحكومة أولاً على الجنرال راينهارت؛ الذي كان يتولى منصب القيادة العامة منذ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ١٩١٩، والذي شكل الجيش المؤقت للرايخ؛ بأن يتولى تنظيم جيش الرايخ المحترف، إلا أن راينهارت رفض هذا العرض؛ واقترح على الحكومة أن تكلف بهذه المهمة الجنرال فون سيكت؛ الذي كان مؤهلاً أكثر منه لإنجاز هذا العمل الشاق. وكان فون سيكت قد حمل مؤقتاً لقب رئيس هيئة الأركان العامة منذ إحالة هندنبورغ على التقاعد وحل هيئة الأركان العامة، وذلك باعتباره آخر ضابط بقي من الجيش الملكي البروسي القديم.

فون سيكت على يقين بأن هدف الحلفاء من وضعهم للبنود العسكرية في المعاهدة هو : « **حرمان الشعب الألماني من أي تدريب عسكري، بإلغاء الخدمة الإلزامية؛ وإضعاف هيبة الجيش بإعطائه طابع المرتزقة؛ ووضع ألمانيا في حالة ضعف مستمر، وذلك بتحديد حجم الجيش بمئة ألف رجل فقط. وقطع رأس الجيش بحرمانه من جهاز قيادة موحدة؛ والاقتصار على هيئتي أركان مجموعتي القيادة فقط. وجعل الجنود الألمان جنوداً من الدرجة الثانية؛ بحرمانهم من استخدام الأسلحة الحديثة. وأخيراً؛ عزل الجيش نهائياً عن الأمة بقطع كافة روابطه مع السكان المدنيين؛ وخاصة مع شباب المدارس والجامعات** ».

لقد طرح فون سيكت على نفسه؛ فور تعيينه على رأس اللجنة التحضيرية لجيش السلام في ٥ تموز ــ يوليو ــ ١٩١٩، السؤالين التاليين :

١ ــ كيف يمكن تنظيم جيش الرايخ المحترف؛ الذي فرضته المعاهدة؛ بشكل يستطيع معه أن يفسح المجال بسرعة أمام ولادة جيش وطني ؟

٢ ــ كيف يمكن السماح للرايخ بالوصول إلى اللحظة التي يصبح فيها هذا التحول ممكناً؛ دون أن تؤدي القيود المفروضة من قبل الحلفاء؛ إلى قطع الاتصال بالتقاليد العسكرية الألمانية ؟.

ووصل فون سيكت عبر هذين السؤالين إلى تصور جيش الرايخ المحترف لا ليكون جيشاً صغيراً كما أريد له، وإنما ليكون (جيشاً كبيراً مصغراً) أو بصورة أوضح؛ العمل على تقليص الجيش الامبراطوري السابق، بحيث يشمل كافة عناصر الجيش المنحل؛ وبحيث يضم إليه كافة العناصر الضرورية لبناء جيش المستقبل. فأصبحت السرايا تمثل الأفواج القديمة؛ وتخلد تقاليدها. كما أصبحت الأفواج تمثل الفرق القديمة؛ وقد تم توزيعها على المناطق بشكل مطابق للفرق والفيالق القديمة. وأخيراً أصبحت قيادات المناطق هي خلايا الجيوش المقبلة؛ ويمكن مقارنتها مع ما كان يسمى (هيئات تفتيش الجنود) والتي كانت تشكل أوج البناء العسكري في عهد غليوم الثاني.

لقد هيمن التشاؤم على ألمانيا خلال تلك الفترة العصيبة؛ إلا أن فون سيكت أبعد عنه كل تشاؤم من خلال نظرته إلى المستقبل بثقة لامتناهية. لقد كان يعرف أن ألمانيا تعيش مرحلة من أحلك مراحل تاريخها ظلمة؛ ولكنها سبق أن عرفت كيف تتخطى مثل هذه العقبات، فمثال سنة ١٨١٢ (خلال الحروب النابوليونية) مازال ماثلاً في جميع الأذهان. لذلك لم يكن من قبيل الصدفة؛ قيام الجنرال فون سيكت بامتداح المارشال يورك أحد الأبطال البارزين في حرب التحرير؛ وذلك في أول خطاب ألقاه في هامبورغ خلال شهر نيسان ــ ابريل ــ ١٩٢٠، بعد استلام منصبه الجديد، وكان بذلك يتعمد توثيق الصلة بالماضي. وبقيت الفكرة الأساسية للجنرال

فون سيكت، والمبدأ الثابت الذي سيوجه خطاه؛ ويرشده في التفكير؛ هو ما اشتقه من السؤالين اللذين سبقت الإشارة إليهما: وهما السؤالان التاليان:

١ ــ كيف يمكن الالتفاف على نصوص المعاهدة؛ وإبطال تأثيرها؛ دون إثارة انتباه الحلفاء بشكل ظاهر؟

٢ ــ كيف يمكن أن يتاح لألمانيا بلوغ الوقت الذي تستعيد فيه حريتها في العمل؛ وتعيد من جديد فرض الخدمة العسكرية الإلزامية؟ وقد كتب فون سيكت بهذا الصدد ما يلي: «إن الخطأ الذي يقع فيه جميع من ينظمون الجيوش؛ هو اعتبار الحالة المؤقتة بمثابة حالة دائمة. فهم ينسون أن الأمم تتحول باستمرار؛ وأن على الجيش لكي يبقى حياً؛ أن يتبع تطور الأحداث».

لقد كان فون سيكت منذ العام ١٩٢٠؛ واثقاً بأن جيش المئة ألف سيستبدل إن عاجلاً وإن آجلاً بجيش وطني؛ لذلك، وبالإضافة إلى ضرورة الاستجابة لمتطلبات الحلفاء في تنظيم جيش الرايخ؛ فإن على هذا الجيش أن يبقى صالحاً ليكون إطاراً أو نواة لجيش المستقبل. ولقد اعترض الكثيرون؛ وقالوا: «إنه من المحال التوفيق بين هاتين الصيغتين». إلا أن تصور فون سيكت لجيش المستقبل قد ساعده على حل هذا التناقض؛ فمهمة جيش الرايخ هي ضمان أمن البلاد داخلياً وخارجياً. ولهذا لا بد من قوة معينة. وهذه القوة لا يمكن البحث عنها بزيادة حجم الجيش أو تطوير تسلحه؛ لأن القيود التي فرضها الحلفاء تمنع من ذلك. فالوسيلة الوحيدة المتوافرة بالتالي هي التعويض عن النقص المادي للقطعات بزيادة درجة تدريبها وإعدادها، وبالإرتفاع برصيدها المعنوي. وإن النوعية الممتازة للعناصر؛ تجعل منهم مدرِّبين ممتازين؛ عندما تسمح الظروف لألمانيا بإعادة فرض الخدمة العسكرية الإلزامية. وقد أخذت هذه الفكرة طريقها العملي في التدريب المفروض على الجنود؛ حيث أعلن فون سيكت ما يلي:

«يبدأ تدريب جنود الجيش منذ اليوم الأول لدخولهم الخدمة؛ ويستمر دون توقف أو انقطاع طوال فترة هذه الخدمة. ويجب ألا يعرف التدريب توقفاً ولا نهاية؛ إذ سيبقى هناك ما يمكن تعلمه أو إتقانه». فالمطلوب إذن هو تأهيل مقاتلين ممتازين من الدرجة الأولى خلال سنتين، أو ثلاث، ثم المحافظة على المستوى الذي بلغوه، وتطوير هذا المستوى؛ خلال تسع أو عشر السنوات الباقية. وبحيث يمكن تجنب خطر انحدار الجيش سريعاً في مجاذير الخدمة الطويلة الأمد؛ مع ما يتبع؛ أو يلازم؛ ذلك من الغرق في خضم العجز والروتين خلال سنوات معدودة. فكانت الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذا الخطر ــ الذي يتعرض له المرتزقة ــ هي في فرض نشاط متواصل وعمل دؤوب على حياة الجيش؛ مع إعطاء هذا النشاط هدفاً يسمو باستمرار. وتهدف المرحلة الأولى من التدريب إلى تمكين الجندي من الاضطلاع بدوره الكامل داخل وحدته؛ أو

قطعته؛ وتنفيذ هذا الدور بسرعة واتقان. ونظراً لأن المطلوب من الجندي هو الحصول على أقصى مردود ممكن؛ فإنه لا يمكن تقييد هذا العمل الجديد بأية مهلة زمنية. وقد كتب فون سيكت بهذا الصدد: «**بما أن هدف جيش الرايخ هو تقديم الأطر (الكادرات) والمدربين لجيش المستقبل الوطني؛ فقد كان الرجال يجدون أمامهم الأعباء والمهمات وقد ارتسمت على أفق المستقبل؛ وبحيث أن سنوات الخدمة الاثنتي عشرة؛ كادت تكون كافية لبلوغ مثل هذا الغرض**».

هكذا؛ كانت دورات التطبيقات والتحسين والدورات الطويلة الأمد، تتوالى بانتظام في مختلف الأسلحة؛ بالإضافة إلى المناورات الدورية والبيانات العملية وغيرها. وكانت كافة التدابير تتخذ للمحافظة على انضباط القطعات ومرونتها؛ مع إعداد الرجال لممارسة القيادة. وقد كتب فون سيكت عن ذلك ما يلي: «**كانت فكرة الإرتفاع المستمر بمستوى التدريب؛ منبثقة من هدف الوصول بجيش الرايخ؛ ليس إلى جيش من المرتزقة؛ وإنما إلى جيش من القادة**».

لم تكن مهمة جيش الرايخ مقتصرة على الإعداد للمستقبل، بل كانت أيضاً المحافظة على الماضي وتراثه؛ والسعي لاستمرار تقاليد الجيش البروسي القديم. وقد وجه فون سيكت عناية خاصة لربط الماضي بالحاضر؛ هذا الرباط الوثيق الذي اعتقد الحلفاء أنهم مزقوه بقلب بنية الجيش الألماني رأساً على عقب. لذلك فقد كتب قائلاً: «**إن الطبيعة المحافظة للجيوش مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدورها في التاريخ**».

إن الإنقلابات الكبيرة في القشرة الأرضية؛ والتبدلات الجغرافية والمناخية، وتيارات الحضارة، والمبادلات التجارية؛ قد مارست كلها في الماضي دوراً أهم من المعارك والحروب. إلا أن ذكراها غير مرتبطة بأشخاص بارزين؛ لذلك فهي لا ترسخ في الذاكرة بإطاراتها الدقيقة؛ كما هو الحال بالنسبة للأحداث العسكرية. وهذا عائد إلى أن الأسلحة وأشكال الجيوش قد تبدلت، إلا أن الرجال قد بقوا على ما هم عليه من المزايا والعيوب والفضائل والفداء. وإذا كانت الأمم تمجد دائماً ذكرى الشهداء الذين سقطوا في ساحات القتال؛ فليس هذا بدافع شاعري (رومانتيكي) وإنما بغريزة أعمق يمكن تسميتها: «بالعرفان التاريخي بالجميل». لذلك تحرص كافة الجيوش كل الحرص على الاحتفاظ بذكريات الماضي حية إلى الأبد. ولذلك أيضاً؛ حاول قادة جيش الرايخ المؤقت عندما عملوا على تشكيله؛ إظهار ارتباطهم بالأفواج المنحلة. وكان هذا الإرتباط في الحقيقة أوثق مما ظن البعض؛ لأن التشكيلات الأولية عند انتقالها من الجيش الامبراطوري إلى القطعات الحرة؛ ثم من القطعات الحرة إلى جيش الرايخ المؤقت؛ قد حافظت؛ في أغلب الحالات؛ على أعلامها وشعاراتها وسجلاتها التي تخص الأفواج المنحلة التي كانت تتبع لها سابقاً. وهكذا سيفعل أيضاً فون سيكت بمحافظته على هذه الروح ذاتها؛ وإعطائها قوة دفع (زخم) واتساع لا يقبلان الشك. وبذلك لم

يحدث في الواقع أي انقطاع بين الجيش الامبراطوري والجيش المؤقت؛ كما لم يحدث أي انقطاع بعدئذ بين جيش الرايخ المؤقت؛ والجيش المحترف. وأصبح كل فوج من الجيش الجديد يتضمن عدداً معيناً مما كان يحمل اسم (السرايا التقليدية) أو (سرايا التقاليد). وكلفت بحراسة الأعلام والرايات للوحدات المنحلة؛ بانتظار بعثها. وبقيت هذه الوحدات الرمزية تخلد ذكرى الأفواج المنحلة. فبقي الجيش الامبراطوري كله ممثلاً في جيش الرايخ. ووضعت هذه السرايا التقليدية؛ قدر المستطاع؛ في المواقع التي كانت تقيم فيها الوحدات التي تمثلها قبل الحرب؛ بهدف زيادة توثيق الصلة بين الحاضر والماضي. كما طبق هذا النظام على تعيين الضباط وإلحاقهم. وقد كتب فون سيكت عن ذلك: **«هذه المجموعة من التدابير الرامية إلى تخليد ذكرى القطعات التي نقش تاريخها، واستمد جذوره من التقاليد الملكية؛ كانت موضع انتقادات قاسية، لأن معناها لا يمكن فهمه من قبل الذين لا يعرفون شيئاً عن الروح العسكرية وتقاليدها. فاتهموا هذا النظام بأنه نوع من الوثنية المضحكة والبيروقراطية البائدة. لم يكن باستطاعتهم فهم معناها ومغزاها الثلاثي: التاريخي والاجتماعي والتربوي**. (فالمغزى التاريخي) كان يكمن في جعل جيش الرايخ هو الحارس الأمين للتقاليد العسكرية الألمانية. ويكمن (المغزى الاجتماعي) في تأمين الارتباط بين كل سرية من جيش الرايخ ورابطة المحاربين القدماء للفوج الذي تمثله. وأما (المغزى التربوي) فيكمن في أن أبطال الحرب الكبرى كانوا فخورين برؤية هذا الجيش الجديد وهو يحافظ على احترام أمجادهم؛ كما كان الجنود المستجدين يفخرون بدورهم أيضاً؛ لأنهم ورثة جيل البارود والنار؛ وحملة مشاعلهم من بعدهم. كذلك كان للاحتفاظ بلباس الميدان مغزاه وهدفه. حيث كان عدد كبير من الضباط يأملون بالعودة إلى الزي القديم بعد أن عاد السلام. إلا أن فون سيكت قد عارض ذلك بشدة؛ لأن الحرب من وجهة نظره هي أيضاً جزء من التقاليد التي يجب على جيش الرايخ حمايته والمحافظة عليه. فالوحدة العسكرية الألمانية قد تحققت بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ لأن القانون قد خلق جيشاً موحداً لمجموع الرايخ؛ ولأن هذه الوحدة تمت وتوطدت تحت نيران المدافع لأول مرة؛ أما لباس الميدان؛ فيظل شعارها ورمزها. علاوة على ذلك؛ إذا كانت ألمانيا المدنية قد استعادت السلام؛ فهذا لا ينطبق على الجيش؛ الذي يجب ألا يخلد إلى النوم والبطالة في حياة الثكنات. كما يجب عليه ألا يصبح جيشاً للعرض والاستعراض. ويجب اعتبار المعركة مستمرة، بالنسبة لجنود جيش الرايخ، فلباس الميدان والخوذة الفولاذية تبقيهم في حالة تأهب وتوتر دائمين».

لم يكن الدور الملقى على عاتق جيش الرايخ مقتصراً على إعداد جيش المستقبل؛ والمحافظة على تقاليد الماضي؛ بل كان عليه أيضاً المحافظة على الاتصال بالسكان المدنيين؛ حتى لا ينعزل ويصبح جسماً غريباً بالنسبة لباقي الأمة. ولكي يتحقق البعث المنتظر يوماً ما، فإنه لا يكفي السهر على الأمن الإقليمي لألمانيا؛ بل يجب أيضاً المحافظة على الإدارة المعنوية للبلاد. وقد واجه جيش الرايخ

ضربة قاتلة لحيويته عندما تم إلغاء الخدمة الإلزامية؛ وعندما تم منعه من تشكيل قوات احتياطية، مما أدى إلى حرمانه من الدماء الجديدة؛ وأضعف من اتصاله بالشعب. فكان على فون سيكت بالتالي اللجوء بصورة حتمية إلى الأساليب الملتوية للحيلولة دون ذبول الجيش وموته. فقامت (السرايا التقليدية) بإقامة الإرتباط بين الوحدات الجديدة؛ وبين روابط (المحاربين القدماء). وتم تكليف مجموعات من الضباط؛ أطلق عليهم اسم (ضباط التدريب) بالاتصال بشبيبة المدارس والجامعات. وبذلك ضمن فون سيكت الحصول على أفضل معين وخير مورد لتأمين عقود التطوع في الجيش؛ والمحافظة على احترام الجيش وهيبته. ولقد أمكن الإفادة من الخدمة العسكرية القصيرة الأمد لتعريف المجندين بالمناطق التي لا يعرفونها من بلادهم. ومقابل ذلك، كان من المحال التفكير بإرسال الجنود والضباط الذين التزموا بالخدمة لمدة خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة؛ للخدمة في المناطق النائية. ولذلك فقد حددت خدمتهم في مناطق ولادتهم؛ وفي المدن التي ولدوا فيها؛ للعيش وسط عائلاتهم؛ مما كان يساعدهم على متابعة الاتصال بأهلهم؛ وتوطيد العلاقة بين الجيش والشعب؛ وإخراج جيش الرايخ من العزلة التي فرضتها عليه معاهدة الصلح.

لقد كتب فون سيكت عن تجربته هذه ما يلي: «... أمكن للألمان؛ بفضل هذه التدابير؛ التعرف تدريجياً على أفواجهم. وأدرك الشعب أن جيشه يتكلم لغته ذاتها؛ وأنه فعلاً من لحمه ودمه. وهكذا استيقظت ذكريات الماضي؛ وعندما شاهد الجميع أن المبادىء القديمة ما زالت حية تحت الزي العسكري الجديد؛ وأن الجنود الشبان يبذلون قصارى جهودهم لمحاكاة إخوتهم الكبار؛ أخذ البورجوازيون والفلاحون يأسفون ويندمون لعدم وجود أماكن شاغرة لأبنائهم في الأفواج نفسها التي خدموا هم فيها سابقاً».

لقد اعتمد فون سيكت في إعادة تنظيمه للجيش على قانون ٦ آذار — مارس — ١٩١٩ المتعلق بجيش الرايخ المؤقت؛ ثم على القانون تاريخ ٢٣ آذار — مارس — ١٩٢١، وهما القانونان اللذان كانا تطبيقاً لمعاهدة فرساي العسكرية. وقد نصت المادة الأولى من القانون الأخير على ما يلي: «يعتبر جيش الرايخ هو جيش الجمهورية الألمانية، ويحدد عدد أفراده بمئة ألف: ٩٦ ألف جندي و ٤ آلاف ضابط». ولما كان عدد أفراد الجيش المؤقت هو ٣٥٠ ألف رجل و ٤٠ ألف ضابط؛ فقد كان باستطاعة فون سيكت الاعتماد على مورد كبير للحصول على العناصر التي يحتاجها. وقد أشار فون سيكت إلى ذلك بقوله: «لقد كانت وفرة الأعداد؛ وليس قلتها؛ هي التي كانت تزيد من تعقيد مهمتي». واستطاع فون سيكت بذلك تطبيق نظام صارم جداً للإنتقاء والحصول بالتالي على (نخبة النخبة) ولا شك في أن هذا العمل لم يتم دون إيلام البعض والتضحية بالكثيرين؛ إلا أن فون سيكت تابع عمله دون أن يكترث بهجمات خصومه وانتقادات المستائين. وكتب فون سيكت رده على الضباط الذين اتهموه بأنه ظلمهم وهضم حقوقهم؛ بالانتقاء العشوائي الجائر الذي أجراه:

« كانت مهمة جيش الرايخ سامية جداً ؛ مما كان يفرض على عناصره الجديدة تقديم أقصى ما يمكن لإنسان أن يقدمه . فهو لا يستطيع أن يكون قدوة لباقي الأمة إلا إذا كان أفراده من نخبة النخبة. لقد ضمت القطعات الحرة في صفوفها جميع عناصر الجيش الامبراطوري ممن لا زالوا على استعداد للقتال والتضحية من أجل بلادهم ؛ إلا أن تشكيلاتهم ومستوياتهم ومشاربهم ـــ أو اتجاهاتهم الفكرية ـــ لم تكن متجانسة ؛ وقد طغت عليهم فيما بعد صبغة العصابات المرتزقة ؛ مما جعلهم غير صالحين لتشكيل النواة لجيش المستقبل . لقد اعتبرت (القطعات الحرة) هذا دليلاً على الظلم وعلى عدم الاعتراف بالجميل . إلا أن من يفكر على هذا النحو ؛ يتجاهل أن البناء الجديد كان يتطلب دعائم متينة بشكل خاص ؛ وتنظيماً منسقاً مثالياً لم يكن باستطاعة القطعات الحرة أن تتكيف معه بتشكيلها وبنيتها . إن المطلوب الآن هو العمل في أوقات السلم . لذلك فليس جميع من برزوا في تأدية واجبهم خلال الفترة الاستثنائية التي أعقبت الحرب ، هم بالضرورة مؤهلون للاضطلاع بالمهمة الجديدة » .

شمل التنظيم الجديد لجيش الرايخ ٧ فرق من المشاة و ٣ فرق من الفرسان ؛ تبعت مجموعتي القيادة في برلين وكاسل . وتم حل ألوية جيش الرايخ المؤقت ؛ والتي كان عددها ٢٤ لواء . وحدد عدد المناطق العسكرية بعشر مناطق ؛ بقيت مقراتها في ذات المدن التي أقامت فيها هيئات أركان الفرق .

نصت المادة الثامنة من قانون ٢٣ آذار ـــ مارس ـــ ١٩٢١ على أن يكون القائد العام الجنرال فون سيكت هو المسؤول عن قيادة جيش الرايخ ؛ وارتبطت به هيئة الأركان العامة التي شكلت أطر (كوادر) وزارة الحرب . في حين كان رئيس الرايخ هو القائد الأعلى للقوات المسلحة البرية والبحرية . وبقيت صيغة القسم كما هي ، ودون أي تعديل . وحددت المادة التاسعة من هذا القانون الالتزام بانتقاء الرجال الموثوقين للقطعات وهيئات الأركان . كما حددت (المواد من ١٩ إلى ٢٢) مدة الخدمة العسكرية ؛ فكانت ١٢ سنة للجنود و ٢٥ سنة للضباط . كما حددت الحالات التي يحق فيها للدولة إلغاء عقود التطوع . وألغيت الكلية الحربية وأكاديمية الحرب ؛ وأصبح التعليم العسكري مركزاً في أربع مدارس تابعة للأسلحة : المشاة في دريسد ؛ والفرسان في هانوفر ؛ والمدفعية في جوتربرغ ؛ والهندسة في ميونيخ . ونصت المادة ٢٣ على أن يتلقى كل جندي وصف ضابط ؛ بالإضافة إلى التدريب العسكري ؛ تأهيلاً مهنياً كافياً يسمح له بممارسة إحدى المهن عند عودته للحياة المدنية . ونصت المادة ٢٤ على أنه يمكن لأي فرد في جيش الرايخ أن يبلغ أعلى الرتب ؛ وفقاً لإمكاناته ومؤهلاته . كما نصت المادة ٣١ على أنه لا يحق لأي فرد الزواج دون إذن من رؤسائه . ويمنح هذا الإذن بعد سن السابعة والعشرين فقط . ونصت المادة ٣٤ على أنه يجب عليه المحافظة المطلقة على السر فيما يتعلق بمسائل الخدمة ؛ حتى بعد تركه الجيش . وجاء في المادة ٣٥ أنه يجب تأهيل الجندي ثقافياً بإعطائه الدروس ليكون مواطناً صالحاً ومدركاً لواجباته في

أوقات السلم والحرب . **وكذلك نصت المادة ٣٦ على أنه من المحظور على عناصر الجيش ممارسة أي نشاط سياسي . ويمنع انتساب الجنود إلى أي حزب ؛ كما يحظر عليهم الاشتراك في أية تظاهرة سياسية . وأنه لا يحق لهم الانتخاب ؛ ولا يسمح لهم بعقد الاجتماعات داخل وحداتهم . وتعتبر كافة الصحف مسموحة ؛ إلا أنه يحق لوزير الدفاع وحده أن يمنع من دخول الثكنات الصحف التي يرى في قراءتها خطراً على الانضباط والروح المعنوية »** .

وأخيراً ؛ أصدرت القيادة جدولاً للمطابقة يبين بدقة ارتباط كل سرية من سرايا الجيش الجديد بأي فوج من أفواج الجيش الامبراطوري القديم . وقد سمح هذا النظام للشبان بالتطوع في القطعات التي خدم فيها أفراد عائلتهم ؛ أباً عن جد ؛ ومنذ أجيال ؛ بشكل أكد ضمان إحياء الماضي : بانتقال الأعلام والرايات من جيل إلى جيل ؛ واستمرار تدفق الدم . مما أبرز قول نيتشه : « المهم ؛ على الأرض ؛ كما في السماء ؛ هو الطاعة مدة طويلة وعلى الاتجاه ذاته » .

هكذا ؛ ولد جيش مختلف جداً عن جيش الرايخ المؤقت ؛ من حيث البنية والانضباط و(الكثافة المعنوية) . كان جيش الرايخ المؤقت ؛ إلى حد ما ؛ جيشاً بورجوازياً ولد من تجميع عفوي لبعض قوى الأمة . أما جيش الرايخ المحترف ؛ فهو جيش أرستقراطي ؛ مع تجانس ونظام يشبه تجانس جيش فريدريك الكبير ونظامه ؛ ويحمل طابع قائده من الأعلى إلى الأسفل . وقد كان هذا الجيش هو الجيش الألماني الثالث الذي تم تنظيمه منذ تشرين الثاني — نوفمبر — ١٩١٨ .

○

لم يكن اهتمام فون سيكت بسياسة التسلح وتأمين متطلبات الجيش من الأعتدة والوسائط القتالية ؛ بأقل من اهتمامه بإعادة تنظيم الجيش على أسس جديدة . وقد حدد سياسة التسلح الجديدة بقوله : « **ليس من مصلحة جيوش المستقبل أن تكدس المخزونات من العتاد الذي لا يلبث أن يصبح متخلفاً نتيجة للتطور السريع في العتاد . بل يكفي صنع (نماذج) والإعداد لصناعتها بالجملة ، بتنظيم عملية انتقال المعامل من نظام السلم إلى نظام الحرب** . ويجب أن يتم هذا العمل بفضل التعاون الوثيق بين العسكريين والمهندسين . لا شك في أن هذا يتطلب مساعدات من الدولة لصيانة الآلات ، وشراء المواد الأولية . إلا أن هذا النظام ؛ بالحساب الإجمالي ؛ يظل أقل كلفة من صنع وتخزين كميات كبيرة من العتاد الذي تنحدر قيمته سريعاً » .

لم يكن الجنرال فون سيكت يخفي تفضيله للجيوش المحترفة الصغيرة على (الكتل المسلحة) التي برز دورها في الحروب الحديثة . ففي كتابه عن (جيش الرايخ) سجل بإسهاب حججه في تفضيل النوعية على الكمية ؛ وكان مما ذكره : « **... في الصراع الأزلي المتزايد بين العتاد والرجال ؛**

لا يجوز البحث عن القرار الحاسم في الزيادة الكمية للعتاد؛ بل بتقويم القدرة القتالية للمحارب؛ والتي يتم الحصول عليها بالتطور المستمر للأسلحة».

كانت لجنة (مراقبي الحلفاء) تقوم بزيارات متواصلة للمعامل والمصانع الألمانية؛ وتم تحويل معظمها فلم تعد صالحة لإنتاج العتاد الحربي. فكيف يمكن للجنرال فون سيكت تطبيق سياسته للتسلح؟ لقد لجأت هيئة أركان جيش الرايخ؛ في الحقيقة؛ إلى حيلة في غاية الدهاء للتغلب على هذه العقبة. إذ تقرر صنع (النماذج) التي تحدث عنها فون سيكت في الخارج؛ وفي معامل منشأة خارج نطاق تحريات (لجنة مراقبي الحلفاء). وهكذا أقامت ألمانيا مجموعة من مراكز الاختبار والتجارب على أراضي كل من سويسرا وهولندا والدانمارك والسويد وتركيا والاتحاد السوفييتي. وبات باستطاعة المهندسين الألمان صنع (النماذج المتطورة) بانتظار اليوم الذي يستطيع فيه الرايخ صناعتها على أراضيه. ولم تحتفظ ألمانيا على أراضيها إلا بمكاتب الأبحاث والدراسات التي كانت تقدم للمهندسين التعليمات والتوجيهات، لإنجاز مختلف النماذج. أما الاتصال بين هذه المكاتب والمصانع الأجنبية؛ فكانت تؤمنه شركات مغفلة من نوع (جيفو، وويكو وغيرهما) ظلت على اتصال وثيق بأجهزة وزارة جيش الرايخ، وخاصة (المصلحة الاستراتيجية) و(مصلحة الأسلحة) وخاصة شعبة تطوير الجيش، التي كانت أكثرها أهمية، وترتبط بالقائد الأعلى مباشرة.

كان من أهم ما شغل هيئة الأركان الألمانية هو عدم التخلف في (**مجال الطيران**). وقد حمل مركز الأبحاث والدراسات لهذا الفرع اسم (**الهيئة العلمية للطيران**). واتخذ من برلين مقراً له؛ حيث كانت تنطلق منه التعليمات والتوجيهات لصناعة النماذج بشكل يسمح بتوزيع العمل بين مختلف الشركات الصانعة. وكانت هذه الشركات تمتلك؛ بالإضافة إلى مقرها في ألمانيا؛ عدداً من الفروع الأجنبية المختلفة التطور. وكانت **مؤسسة جونكرز** هي من أولى الشركات التي نقلت قسماً من أجهزتها —ورشاتها ومصانعها— إلى الخارج، حيث وقعت لهذه الغاية اتفاقات مع الاتحاد السوفييتي منذ سنة ١٩٢٢. وبعد ذلك بفترة وجيزة أقامت لها مصنعاً في مالمو في السويد لم يلبث أن تطور بشكل سريع★ فصار يصنع بالإضافة إلى الطائرات التجارية التي كان يسلمها للحكومة الاسكندينافية، طائرات عسكرية من أنواع مختلفة. وكذلك؛ فقد استقرت مؤسسة **ورهرباخ** في كوبنهاغن — الدانمارك. وعملت على تجهيز الطائرات برشاشات ذات أبراج؛ ومدافع خفيفة؛ وقاذفات قنابل الخ... كما تعاونت مؤسسة روهرباخ مع مؤسسة جونكرز لإقامة مصنع للطائرات في أسكي شهر بتركيا، كان يقدم الطائرات للحكومة التركية. ثم أضيفت إلى هذا المصنع مدرسة للطيران، تحت إشراف عشرين ضابطاً من جيش الرايخ؛ منحت لهم إجازات مؤقتة أو تم

★ حمل هذا المصنع اسم: Svensk - Flygindustrie وقد بلغ عدد عماله في سنة ١٩٢٩، أكثر من ٤٥٠ عاملاً. وكان هذا العدد كبيراً بالنسبة لتلك الفترة الزمنية.

تخصيصهم (إفراغهم) لهذا العمل. وأقامت مؤسسة **فوكر** مراكز لها في هولندا؛ وفي مدن موسكو ولينينغراد وسمولنسك وكييف في الاتحاد السوفييتي. وكان مصنعها الرئيسي في ماشتسك عام ١٩٢٥ ينتج ١٣ طائرة مطاردة في الشهر من نموذج فوكر ــ د ــ ١٣، ذات محرك نيبير وقوته ٤٥٠ حصاناً؛ بالإضافة إلى ٤ قاذفات بعيدة المدى؛ مسلحة بثلاثة رشاشات وقاذفات طوربيد وأنبوبين من أجل قنابل الغازات. كما أقامت مؤسسة **هانكل** مركزاً لها في استوكهولم• وبدأت بصنع الطائرات المطاردة والقاذفة. وأما مؤسسة **دورنييه** المتخصصة بالطائرات البرمائية، فقد أقامت مركزها الرئيسي في مانزل على الضفة الألمانية من بحيرة كونستانس. إلا أنها أقامت أيضاً على الضفة المقابلة ــ في التزنهاين بسويسرا ــ فرعاً خاصاً بعيداً عن رقابة المراقبين. وأقامت بالإضافة إلى ذلك مصنعاً لها في هولندا، ومنظمة قوية في كرونستاد ــ الاتحاد السوفييتي، لتزويد قاعدة البلطيق البحرية بالطائرات البرمائية؛ والتي كان يعلق السوفييت عليها أكبر الآمال+.

بقي الطيران العسكري الألماني في مرحلة الدراسات النظرية حتى سنة ١٩٢٦؛ ولم يبدأ بإنجاز النماذج الجديدة إلا في سنة ١٩٢٧ وبدأت الصناعة الجوية انطلاقتها سنة ١٩٢٨ حيث أخذت في تحسين وتطوير التفاصيل؛ ولم تعد تصمم نماذج جديدة. وقد تم إنتاج وصنع الطائرات العملاقة من نوع جونكرز. غ ــ ٣٨، ودورنييه د. أو. أكس ذات الأربع والست محركات، اعتباراً من سنة ١٩٣٠. وقد ورد آنذاك ذكر أرقام إنتاج هائلة؛ حيث تحدث بعضهم في مجلس النواب عن صنع ثلاثة آلاف طائرة في شهر واحد. ولا شك أن هذا الرقم خيالي ومبالغ فيه جداً. إذ على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المهندسون والطيارون الألمان، فقد بقيت أرقام الانتاج أكثر تواضعاً. وفي الحقيقة فإن عدد الطائرات التي صنعت سنة ١٩٣٠ كان في حدود مئة طائرة جونكرز؛ و٦٨ طائرة فوك ولف؛ و٣٦ طائرة هانكل؛ و٦٨ طائرة كلاين. وكانت الأنواع الأخرى من الطائرات تسير في مثل هذه المعدلات ذاتها. ولكن؛ وبالإضافة إلى النماذج المذكورة؛ فقد كان على هذه المصانع تقديم الطائرات التجارية والعسكرية إلى الحكومات المضيفة.

يمكن الانتقال بعد ذلك من مجال الطيران إلى مجال الصناعة الكيميائية. حيث جرى التطور

• حمل مصنع هذه المؤسسة اسم: Svensk - Aero.

+ يمكن هنا الإشارة إلى ما قدمته مؤسسة فوكر إلى جيش الاتحاد السوفييتي؛ منذ إقامة مصانعها على أرض الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٢٢ وحتى سنة ١٩٢٩؛ حيث قدمت ٨٢٤ طائرة مطاردة وقاذفة. كما قامت مؤسسة دورنييه من جهتها بتجهيز قاعدة البالطيق تجهيزاً كاملاً؛ مع تقديم ٨٠ طائرة بمحركين وطيارين؛ وكانت الطائرات سريعة جداً ومجهزة بقاذف طوربيد وقاذف قنابل وخزان للغاز. وكانت شركة الخطوط الجوية التجارية السوفييتية تعاني من التخلف، فأمكن بمساعدة الخبراء الألمان الارتفاع من ٦ آلاف كم سنة ١٩٢٥ إلى ٢٩٠ ألف كيلو متر سنة ١٩٣٠. وكذلك الأمر بالنسبة لتطوير المتفجرات والغازات. فحقق الطرفان الألماني ــ السوفييتي فوائد ضخمة عبر تعاونهما الاقتصادي. وكانت هيئة أركان جيش الرايخ تعمل بتعاون وثيق مع هيئة أركان الجيش الأحمر.

بخطوات متماثلة تقريباً ؛ إلا أن دور (المكتب المركزي للأبحاث) قد أسند هنا إلى بعض الشركات والمخابر المدنية. وقد ركزت شركة الصناعات الكيميائية جهدها لإقامة فروعها في روسيا بشكل خاص. وقد بدىء منذ سنة ١٩٢٤ بصناعة (الفوسجين) و(اللوست) في تزوست على نهر الفولغا. وكان يدير هذا المصنع مهندسون ألمان عائدون لشركة هوغوستولزنبرغ في هامبورغ. حتى إذا ما كانت سنة ١٩٢٨ قام العالم الكيميائي الروسي تشيرزيف بزيارة ألمانيا؛ وعلى أثر ذلك؛ أرسلت بعثة من التقنيين الألمان مؤلفة من عشرة كيميائيين كبار من شركة باديش ــ انيلين إلى موسكو؛ حيث قامت بتنظيم مؤسسة اتحاد الصناعات الكيميائية السوفييتية. وقد حقق هذا التعاون نتائج مرضية؛ لأن شركات أخرى قد حذت حذوها؛ وخاصة باير ولونزا. وهكذا بدأت مصانع جديدة تقام على الأراضي السوفييتية؛ حيث أقيم في تفر المخبر الرئيسي الذي أنشىء وجهز عام ١٩٢٨ على غرار مؤسسة بريسلاو الكيميائية ــ التكنيكية؛ حيث كان يعمل ٣٥ مهندساً ألمانياً؛ على عتاد ألماني بحت. كما أقيم في مشيتسك قرب مصنع فوكر مخبراً للتطبيقات التقنية ومركزاً كيميائياً للأبحاث والدراسات في الغازات المتفجرة والحارقة. وهنا أفاد الاتحاد السوفييتي أيضاً من تعاونه مع ألمانيا؛ إذ بينما كانت الصناعة الكيميائية الروسية شبه معدومة في سنة ١٩٢٣؛ تطورت بسرعة مذهلة حتى بلغت في سنة ١٩٣٠ ما يعادل ٧ بالمئة من مجموع الإنتاج الأوروبي، أي (بنسبة أعلى بقليل من فرنسا). وإذا كانت ألمانيا قد توجهت إلى روسيا من أجل الحصول على مجال لتجاربها في المتفجرات والغازات؛ فإنها توجهت وفي الوقت ذاته إلى اسكاندينافيا من أجل تجارب مدافعها ودباباتها. وقد عملت مؤسسة **كروب** منذ عشية التوقيع على معاهدة فرساي في سنة ١٩١٩؛ على أن تبيع معامل فولاذ **بوفور** في السويد إجازات للصنع؛ من أجل الوفاء بالتزاماتها لزبائنها في أمريكا الجنوبية وذلك مقابل المساهمة في هذه الشركة. وقد أكدت التحقيقات التي طالب بها البرلمان السويدي ــ فيما بعد ــ أن مؤسسة كروب الألمانية كانت تمتلك اعتباراً من سنة ١٩٢٧ ثلث رأس مال شركة بوفور وفرعها نوبل ــ كروت المتخصص بصناعة البارود والمتفجرات.

ولا شك في أن معامل بوفور التي كانت تضم ثلاثة آلاف عامل؛ لم تكن قادرة على تقديم كميات كبيرة من الأسلحة للرايخ. ولم يكن هذا هو هدفها في الأصل. إذ أن المطلوب هنا أيضاً، هو تكوين مختبر عمل، فيه ثلاثون فنياً ألمانياً من أجل إعداد (النماذج) التي يمكن تصنيعها بالجملة في إيسن أو سواها فيما بعد. وقد تم اتباع هذا الأسلوب ذاته بالنسبة لصناعة العربات المدرعة والدبابات التي كانت تتم صناعتها في مصانع لاندوورك في السويد أيضاً؛ والتي كان ثلاثة أرباع رأس مالها في يد الصناعة المعدنية الألمانية. ولا بد من الإشارة إلى أن نماذج الغواصات كانت تصنع في فيغو في إسبانيا؛ وفي كرونستاد و سيباستوبول في الاتحاد السوفييتي. وكان يتم صناعة الغواصات في كرونستاد بناء على توجيهات مهندسي مصانع كييل، حيث كانت تضنع هنا أيضاً كافة الأجزاء

الميكانيكية الدقيقة، والتصفيح الذي كان يصنع من فولاذ خاص. وقد تكون هذه اللمحة ــ على إيجازها ــ كافية لإعطاء فكرة عامة عن الوسائل والأساليب التي استخدمت من أجل المحافظة على القدرة الكامنة الألمانية، انتظاراً لبلوغ اللحظة المناسبة، لتفجير هذه القدرة والوصول بها حتى أرفع مستوياتها.

أمتدت فترة الدراسات وصنع النماذج من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٢٩ تقريباً؛ واعتباراً من هذا التاريخ؛ انتهى عهد التجارب وتمت كافة الأعمال التحضيرية؛ عندئذ بدأت المرحلة الثانية من التسلح: وهي مرحلة تمكين الصناعة الألمانية من صنع النماذج المصممة في الخارج بالجملة.

وهنا كان لا بد من عمل جبّار في مجال إعادة التنظيم والبناء، إذ يجب تجهيز كافة المصانع والمعامل التي تم إغلاقها أو تحويلها من قبل لجنة المراقبة، وإنشاء معامل أخرى جديدة؛ وتزويدها بعتاد أحدث من الذي دمره الحلفاء؛ وتأهيل الإختصاصيين بالصناعات الحربية. وقد أشار الجنرال فون سيكت إلى هذا العمل بالذات عندما كتب قائلاً: «**يجب الإستعداد للانتقال بالمعامل من حالة السلم إلى حالة الحرب؛ ويتطلب هذا العمل دعماً مادياً من الدولة لصيانة الآلات وشراء المواد الأولية**». إلا أن الحكومة الألمانية ذاتها لن تكون هي الممولة لهذا البرنامج. إذ كيف تستطيع ذلك تحت سمع الحلفاء وبصرهم؛ ومعارضة قسم من أعضاء الرايخستاغ؟. إن الممول سيكون وزير الدفاع ذاته، وهو الذي سيخصص الأموال اللازمة لذلك من موازنته بعيداً عن مراقبة البرلمان وتدخله. ولقد خصصت ألمانيا لجيشها في سنة ١٩٢٤ مبلغ ٤٥٩ مليون مارك. وقفز هذا الرقم في سنة ١٩٢٥ إلى ٥٨٨ مليون مارك. ثم إلى ٦٤٢ مليون مارك في سنة ١٩٢٦. واستمر الخط البياني للموازنة في الصعود خلال السنوات التالية: ٧٠٦ ملايين سنة ١٩٢٧، و٧٢٨ مليوناً في سنة ١٩٢٨، وأخيراً ٧٨٨ مليوناً في سنة ١٩٣٠. ولقد كان لهذه الأرقام دلالتها؛ ولكنها بالنسبة لألمانيا تحمل أكثر من دلالة؛ وهو ما كشف النقاب عنه عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ايكار عندما قال: «في فرنسا؛ كان كل رصيد أو ميزانية تخصص لعام واحد ومن أجل هدف محدد. ولا يمكن تحويل أي مبلغ لا يستخدم خلال ذلك العام إلى العام التالي. وكانت هذه القاعدة ذاتها مطبقة في ألمانيا من حيث المبدأ؛ إلا أن المبالغ المخصصة لهدف معين؛ كان يمكن تحويلها إلى غاية أخرى في حال إنجاز الهدف الأصلي، وبقاء فائض عنه. كما كان يحق للحكومة أن تستخدم هذا الفائض؛ وفقاً لما تراه؛ في السنة الجارية، أو في السنوات التالية. لذلك كان يكفي أن يضاعف الوزير هذا النوع من الميزانية؛ ويدوره؛ حتى يتمتع بمبالغ طائلة لا تخضع لأي إشراف أو مراقبة». وهكذا كان جيش الرايخ يستفيد من هذه الهوامش الكبيرة من المناورة، للزيادة من اعتماداته الضخمة المتراكمة، لدعم الصناعة الخاصة: ٨ ملايين سنوياً للطيران الشراعي؛ ٣٥ مليون لمؤسسة جيفو في العام ١٩٢٦؛ وأكثر من ٦٠ مليوناً في العام ١٩٢٧ من أجل بناء الطائرات. وخصص ١٥ مليون

مارك لصالح معهد القيصر غليوم في الربع الأول من سنة ١٩٣٠، كما خصص لصالح دوتشر وارك مبلغ خمسين مليوناً من الماركات خلال الفترة ذاتها.

لقد أصبحت قاعدة الإنطلاق ثابتة وقوية ومأمونة بفضل التدابير التي وضع أسسها الجنرال فون سيكت، والتي أشرف على تنفيذها في مجال تنظيم القوات وتسلحها. ولم يبق إلا انتظار اللحظة المناسبة للإنطلاق. وقد جاءت هذه اللحظة؛ طواعية أو عمداً؛ عندما فشل مؤتمر نزع السلاح في جنيف سنة ١٩٣٢. وبات باستطاعة ألمانيا إعادة تسلحها مباشرة؛ فالنماذج قد صممت؛ والمصانع قد جهزت؛ والمواد الأولية قد أحضرت؛ واستوردت؛ فانطلقت المصانع للعمل بطاقتها القصوى.

○

لم يكن طريق الجنرال فون سيكت لبلوغ هدفه؛ وللوصول إلى غايته؛ طريقاً ممهداً مفروشاً بالورود، وإنما كان طريقاً وعراً محفوفاً بالمهالك. فالصراعات بين الأحزاب المتنافرة قد أدت في مرات متتالية إلى اشتباكات دامية؛ زاد من حدتها عمل (القطعات الحرة)، وتدخلها بعنف لا حدود له. وكان على جيش الرايخ المحافظة على الأمن والنظام بصورة مستمرة من خلال تحركه الحذر عبر مراكز القوى؛ وقد كان من واجب جيش الرايخ المحافظة على وحدة التراب الألماني؛ والدفاع عن الوحدة الألمانية التي لم يتم الوصول إليها إلا بسيل من الدماء، وبآلاف من الضحايا، وبالكثير من العناء والمعاناة. ولهذا لم يكن غريباً أن يشعر الجنرال فون سيكت بمحنة حقيقية عندما اندلع العصيان المسلح البولوني الذي كان هدفه اقتطاع سيليزيا من ألمانيا في ١٧ آب ـ اغسطس ـ ١٩١٩. وأعقبه عصيان آخر في ٣ أيار ـ مايو ـ ١٩٢١. واجتاحت الاضطرابات المدن الألمانية؛ وتركزت بصورة خاصة في بافاريا. وانهارت السلطة الحكومية؛ وبقي جيش الرايخ هو القوة الوحيدة الباقية في ألمانيا؛ وبقي قائد الجيش الجنرال فون سيكت هو الحكم المطلق في هذا الموقف الخطير. فما هو الموقف الذي سيتخذه الجنرال فون سيكت إذا أعطيت له السلطة الكاملة؟ هل ينقذ الجمهورية أم يؤيد إقامة حكم دكتاتوري (فردي)؟، هل يقاوم المتآمرين لحماية نظام لا يميل إليه مطلقاً ولا يرتبط به؟

كان الرئيس الألماني ايبرت يعاني من القلق لتردي الأوضاع حتى درجة انهيار الدولة؛ فاستدعى الجنرال فون سيكت وتحدث إليه عن الموقف؛ ثم سأله: «هل سيقف الجيش خلف الحكومة؟» وأجاب فون سيكت: «سيادة الرئيس! إن الجيش خلفي!». فما هي هذه

الإجابة الغامضة ؟ وما هو التهديد الضمني والمشاريع والنوايا الخفية الكامنة وراء هذه الكلمات ؟...

لقد اتخذ فون سيكت قراره، وحدد نهجه ببساطة متناهية: إن ما يأخذه على حكومات الوطنيين ليس ضعف وطنيتها؛ ولا سعيها للتخلص نهائياً من جمهورية الويمر، بل افتقارها للوحدة في وجهات النظر؛ بالإضافة إلى افتقارها للخبرة السياسية المطلوبة، لتنفيذ الواجبات في مثل تلك الظروف؛ وعدم تقديرها الصحيح للخطر الذي يتعرض له الرايخ. فإذا ما تم الإفتراض بوصول المتمردين وقواتهم إلى برلين فماذا سيحدث ؟ إما أن تثور الطبقة العاملة؛ مما يؤدي إلى موجة جديدة من الشيوعية. وإما أن يلتزم السكان المدنيون بالسلبية تاركين الأمور تسير في مجراها؛ وعندئذ ستحاول كلّ جماعة فرض رئيسها؛ ثم لا يلبثون طويلاً حتى ينهش بعضهم بعضاً. وفي الحالتين؛ لن ينتهي الأمر بديكتاتورية وطنية؛ بل بحمام من الدماء. وانطلاقاً من هذه القناعة، لم يتردد فون سيكت في ٢٤ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٢٣، عندما استعجله المستشار كلاس للإنضمام إلى التشكيلات الوطنية، وأجاب: «**إن ما تعرضه علي الآن هو خرق للدستور؛ فاعلم أنني سأرمي حتى آخر طلقة على الثوريين اليمينيين واليساريين على حد سواء. إن مهمة الجيش هي المحافظة على وحدة الرايخ؛ وإن من يلحق الإساءة بهذه الوحدة هو عدو مهما كان اتجاهه**».

لقد كان فون سيكت في حاجة للسلطة المطلقة حتى يتمكن من معالجة الموقف؛ إلا أن النواب ما زالوا مترددين في تسليمه تلك السلطة؛ لكن الأحداث ستكفل إرغامهم على ذلك. ففي ذات اليوم الذي أعلنت فيه حكومة برلين انتهاء المقاومة السلبية في بافاريا، وهو يوم ٢٦ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٢٣، قلبت وزارة ميونيخ؛ وعين السيد فون كاهر مفوضاً عاماً للدولة في بافاريا. وكان هذا العمل بمثابة ثورة علنية على حكومة الامبراطورية. لذلك أعلن ايبرت فوراً حالة الطوارىء الاستثنائية في جميع أنحاء الرايخ، وعهد بالسلطة التنفيذية إلى وزير جيش الرايخ (وزير الحرب). وكانت هذه هي المرة الثانية؛ خلال أربع سنوات؛ التي تضطر فيها جمهورية الويمر للتخلي عن السلطة وتسليمها إلى العسكريين بموجب المادة ٤٨ من الدستور. وقد سبق أن فعل نوسك الشيء ذاته عندما زج جيش الرايخ المؤقت في لايبزيغ و ميونيخ. إلا أن سلطات الجيش قد زادت كثيراً هذه المرة على ما كانت عليه سابقاً. ففي أيار ــ مايو ــ ١٩١٩، كان دوره محصوراً بتنفيذ عملية عسكرية بحتة. أما اليوم؛ فقد أصبح الجيش مسؤولاً عن تسيير الرايخ كله، بما في ذلك المجرى الطبيعي للحياة الاقتصادية. وسيمتد نشاط الجيش خلال الأسابيع التالية ليشمل مجموعة من الأعمال التي تتجاوز كثيراً حدود الصلاحيات العادية للجيش؛ مثل: تنظيم مراكز التموين؛ وإدارة الأعمال والمشاريع الكبرى؛ وتوزيع اليد العاملة؛ ومراقبة أسعار المارك؛ وتحديد أسعار المواد الغذائية؛ ومراقبة شروط الاستخدام بالأجرة؛ وقمع الترف والمضاربة؛ الخ... وقد برهن الأسلوب الذي نفذ فيه

الجيش هذه الأعباء الثقيلة؛ على قدرته الفائقة في إنجاز الأعمال الحاسمة، خلال وقت قصير، وعلى إرادة مركزية تتمتع بسلطات استثنائية. ولكن، وقبل إنجاز هذا البرنامج الذي سيستغرق تنفيذه فصل الشتاء لعام ١٩٢٣ ـــ ١٩٢٤ بكامله، **كان لابد للجنرال فون سيكت من قهر مختلف خصومه؛ دون أن يترك لهم ما يكفي من الوقت لتنظيم صفوفهم وتجميع قواهم. وكانت الخطورة الأساسية تنحصر في مراكز القوى الأربعة: شرقاً ـــ براندبورغ ـــ حيث يتحرك قادة جيش الرايخ الأسود؛ في الجنوب الشرقي ـــ الساكس ـــ حيث يتسلح الشيوعيون بشكل محموم؛ في الشمال الغربي ـــ هامبورغ ـــ حيث يتضاعف نشاط الخلايا الحمراء؛ وأخيراً في الجنوب ـــ بافاريا ـــ المعقل الحصين للثوريين اليمينيين. وقرر قائد الجيش الألماني عدم إضاعة أي وقت؛ والهجوم على هذه الجماعات الواحدة تلو الأخرى؛ حتى يظل محتفظاً بالمبادأة في العمليات؛ وحتى يبدأ بالتي كان عملها يبدو وشيكاً: أي جيش الرايخ الأسود.**

كان جيش الرايخ الأسود في جملة التنظيمات شبه العسكرية التي كانت تعيش على هامش القانون. وقد أحيط هذا الجيش بهالة من الغموض والرعب؛ بسبب الجرائم والأعمال الإرهابية التي مارسها. وكان الرائد بوشروكر قد شرع في تنظيم هذا الجيش منذ يوم ٣٠ أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٩٢٠، وجعل من المنطقة الثالثة برلين ـــ براندبورغ، قاعدة لنشاطه. وتعاون في البداية مع ممثلي جيش الرايخ؛ للحصول على الأسلحة تحت ستار (جمع الأسلحة واتلافها) تنفيذاً لتعليمات (لجنة مراقبي الحلفاء). ثم شرع في تنظيم فصائل صغيرة مستقلة★ استعداداً لمواجهة نشوب أي صراع مسلح؛ وعلى أساس التعاون مع جيش الرايخ. وكان فون سيكت على علم بهذا التنظيم، وقد ظهر ذلك واضحاً عندما سأل أحد الصحفيين الأجانب فون سيكت، عما يمكن أن يقوم به جيش الرايخ؛ إذا ما قامت القطعات الفرنسية بتوسيع منطقة احتلالها؛ فأجاب فون سيكت: «**لا أعلم على وجه التحديد! إلا أنني أستطيع أن أؤكد لك بأن طريق برلين يجتاز نهراً من الدماء**». ويبدو أن خطة فون سيكت كانت تتضمن قيام جيش الرايخ بدور أساسي في مواجهة أي هجوم قد تقوم به القوات الفرنسية؛ بينما يقوم المتطوعون (جيش الرايخ الأسود) بالدفاع عن الحدود الشرقية. ولقد تطورت وحدات بوشروكر بسرعة؛ بفضل ما كانت تمتلكه من مخزون ضخم من الأسلحة والأعتدة؛ وبفضل مساعدة بعض أرباب الصناعة الكبرى؛ الذين كانوا يخشون عودة الشيوعيين إلى الهجوم: فرغبوا في تشكيل قطعات خاصة لحمايتهم. وأصبحت قوات جيش الرايخ الأسود تضم في مطلع شهر أيلول ـــ سبتمبر ـــ سنة ١٩٢٣ ما يلي:

١ ـــ أربعة أفواج؛ يضم كل واحد منها ثلاث كتائب؛ ومجموع أفرادها ١٢ ألف رجل.
٢ ـــ أربع كتائب مستقلة، ٦ آلاف رجل.

★ حملت هذه الفصائل اسم وحدات المغاوير: Arbeits Kommandos أو A . K .

٣ ــ عددا من الوحدات الخاصة: نقل؛ مركبات، وحدات صحية الخ...

كانت الخدمة في جيش الرايخ الأسود أشد قسوة بكثير عنها في الأفواج العادية؛ إذ كان على الأفراد؛ بسبب طبيعتهم السرية؛ ألا يعرفهم الجمهور أبداً. وهذا ما كان يتطلب من كل جندي أن يبرهن على نكران مطلق للذات. وكان الجميع على قناعة تامة؛ يحدوهم مثل أعلى واحد؛ بأن اللحظة الحاسمة قريبة. فقد كانوا يتحرقون لتحرير ألمانيا من نير الأجنبي، وهو مثل أعلى لا يمكن تحقيقه إلا في ظل دكتاتورية عسكرية.

قامت القوات الفرنسية باجتياح منطقة الرور سنة ١٩٢٣ للقضاء على الاضطرابات فيها. وأظهرت الحكومة ضعفاً في معالجة الأزمة. مما أثار وحدات جيش الرايخ الأسود. وقرر بوشروكر الانتقال إلى العمل بمبادأته الخاصة لوضع الحكومة أمام موقف جديد يؤدي إلى انهيارها وإلى إقامة دكتاتورية عسكرية، فأمر باستنفار قواته وتعبئتها خلال الفترة من ١٦ إلى ٢٥ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٢٣. وأسرعت الحكومة فأسندت إلى جيش الرايخ مهمة قمع الاضطرابات. وظن بوشروكر أنه يستطيع الحصول على دعم الجيش، فقابل قائد المنطقة فون بوك الذي طلب إليه حل وحداته فوراً؛ والالتزام بالهدوء. لكن بوشروكر كان قد قطع شوطاً بعيداً في تعبئة قواته، ونقلها للوصول إلى برلين؛ فاقترح بوشروكر على المقدم بوك السماح له بمقابلة فون سيكت. وجرى الحديث كالتالي:

«قال بوشروكر: اعملوا على الأقل شيئاً يشغل الجنود الذين تمت تعبئتهم! لأن الغضب يسيطر عليهم؛ مما يخشى معه من قيامهم بأعمال العنف.

وأجاب المقدم بوك: أنا آسف، إذ لا علاقة لجيش الرايخ بالجنود غير النظاميين.

فقال بوشروكر: ما رأيك إذن في أن أتحدث بالموضوع مع الجنرال فون سيكت؟

وأجاب المقدم بوك: إياك أن تفعل ذلك؛ لأنه سيقوم بتوقيفك لا محالة.

وقال بوشروكر: لكن هذه الكتائب قد تفيدكم في هذه الظروف العصيبة التي نجتازها.

وأجاب المقدم بوك: إذا علم فون سيكت بأنك الآن هنا؛ فلا شك أنه سيعدل المونوكل ويقول: اعتقلوه.

فقال بوشروكر: حسناً؛ سأعمل ما في وسعي لتسريح الرجال؛ إلا أنني أنذركم بأن ذلك لن يكون سهلاً».

جابه بوشروكر صعوبات في إقناع رجاله بإلقاء السلاح؛ والتخلي عن التمرد؛ فتأخر حل الكتائب وأصدر فون سيكت أمره باعتقال بوشروكر وحل قطعاته بالقوة. وحدثت اشتباكات دامية، اضطرت بعدها قطعات جيش الرايخ الأسود للاستسلام للجيش يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٢٣، وتم حل جميع قطعات هذا الجيش. وقدم قائدها بوشروكر إلى محكمة خاصة، حيث حكم

عليه بالسجن لمدة عشر سنوات؛ مع غرامة قدرها ١٠٠ مليار مارك★ كما صدرت أحكام مختلفة على معاونيه الآخرين؛ تراوحت بين سنتين ونصف و ثلاثة أشهر سجن.

لم يدم تمرد جيش الرايخ الأسود أكثر من بضعة أيام، وتم سحقه بسرعة؛ وكان ذلك بمثابة نقطة انعطاف حاسمة في تاريخ جيش الرايخ، إذ سجل الإنقلاب الفاشل موعد الإنفصال النهائي بين الجيش النظامي والتشكيلات غير النظامية. ولقد تأثر فون سيكت بهذه التجربة تأثراً كبيراً، فقرر عدم التعاون مطلقاً مع هذه الفئات؛ مهما كانت ميولها وقادتها. وهذا ما سيعطيه حرية أكبر لقمع التطرف أينما حصل. إلا أن الدرس لم يضع هباء أيضاً بالنسبة لعناصر الجيش الأسود والتجمعات النظامية الأخرى التي طردها فون سيكت من برلين؛ والتي لجأت بشكل طبيعي إلى ميونيخ، أي إلى هتلر حيث سيبرز دور بعضهم في (فصائل الإنقضاض النازية).

○

أصبح باستطاعة فون سيكت أن ينقل ثقل جهده للعمل بسرعة في مقاطعة الساكس (هامبورغ)، حيث كان الشيوعيون يحضرون لحركة تمرد واسعة؛ مستفيدين في ذلك من فشلهم خلال حركتي التمرد السابقتين. فأظهروا حرصهم على عدم الإنفراد بالعمل وحدهم، وقرروا مجابهة البورجوازيين بجبهة واحدة، من خلال تعاونهم مع الاشتراكيين والمستقلين والاسبارتاكيين، وتنفيذ توجيهات موسكو وتعليماتها، بإقامة جبهة موحدة يمكن الإفادة منها لتوسيع نطاق العمل؛ ولتكثيف الدعاية في المصانع والنقابات العمالية؛ مع العمل في الوقت ذاته لتدمير قوة المعتدلين، مما يسمح للشيوعيين في النهاية بالإفادة وحدهم من العملية. وقد أثمرت اتصالات الشيوعيين مع المستقلين والاشتراكيين، فتم تشكيل (لجنة اتصال بين هذه الأحزاب) وصدر بيان يوم ٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٢٣؛ أعلنت فيه الأحزاب اليسارية عن اتحادها للعمل بما يلي:

«١ ــ تشكيل قوات للدفاع عن النفس تحت اسم (الكتائب البروليتارية) لمجابهة التشكيلات الوطنية.

٢ ــ للحصول على ديموقراطية جيش الرايخ؛ التي صدر الوعد بها عشية انقلاب كاب، سنة ١٩١٩، ولم تتحقق حتى الآن.

٣ ــ للمطالبة بتعيين السيد ماير عضو الحزب الاشتراكي؛ مفوضاً مدنياً لمقاطعة الساكس؛ على أن تنتقل إليه كافة الصلاحيات التي أعطتها وزارة الحرب للجنرال مولر قائد المنطقة».

★ أي ١٠ ماركات ذهب؛ وقد أمضى بوشروكر أربع سنوات في قلعة غولنو إلى أن أصدر هندنبورغ أمراً بالإفراج عنه في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ سنة ١٩٢٧.

تشكلت الوزارة الجديدة في الساكس يوم ٨ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٢٣ وضمت الأغلبية الاشتراكية برئاسة السيد زاينر ودخل فيها نائبان شيوعيان هما السيد بوتشر الذي تولى منصب وزارة التعليم العام، والسيد براندلر الذي تولى منصب وزارة المالية★ وتقدمت الوزارة عند الظهيرة إلى مجلس نواب الساكس وأقسمت يمين الولاء للدستور. وخلال ذلك؛ **لم يقف الجنرال مولر ساكناً؛ إذ قام منذ يوم ٢٩ أيلول ــ سبتمبر ــ بتعزيز حالة الطوارىء، ثم منع إصدار الصحف الشيوعية في يوم ٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وأصبحت العلاقات نتيجة لذلك متوترة للغاية، بين الممثل العسكري للرايخ؛ والمزود بالسلطة التنفيذية؛ وبين الحكومة المدنية المنتخبة من قبل البرلمان الساكسوني. ولكن مولر مضى في تنفيذ خطته للسيطرة على الموقف. فأصدر أمره يوم ١٢ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ بحل (الكتائب البروليتارية)**. فعقدت حكومة الساكس في اليوم التالي اجتماعاً جماهيرياً في حديقة الحيوان بمدينة دريسد للإحتجاج على هذا الإجراء. وألقى وزير التعليم العام السيد بوشر خطاباً عنيفاً في هذا الاجتماع؛ أمام أكثر من ٦ آلاف شخص؛ هاجم فيه السلطات العسكرية، ودعى المواطنين إلى عدم احترام أوامر الجنرال مولر، وبذل جهداً أكبر في تنظيم كتائب البروليتاريا. وعندما علم الجنرال مولر بما قاله السيد بوشر انتابه الغضب لرفض الإلتزام بأوامره. فوجه يوم ١٧ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ إنذاراً إلى رئيس الوزراء السيد زاينر أعطاه فيه مهلة ٢٤ ساعة للإعراب عن عدم تضامنه مع السيد بوتشر: «**الذي لا يتلاءم خطابه المملوء بالشتائم؛ والذي ألقاه في حديقة الحيوان يوم ١٣ تشرين الأول ــ اكتوبر مع المركز الذي يشغله في الحكومة**».

أثار هذا الإنذار نقاشاً حاداً في مجلس نواب الساكس؛ وأظهرت فيه كافة عناصر اليسار روحاً هجومية واضحة. وقال أحد النواب الشيوعيين السيد سيغر: «**إن هذا يعتبر تدخلاً لا يحتمل من قبل الجيش في المسائل الداخلية للساكس؛ وخرقاً فاضحاً للشرعية**». واستطاعت أحزاب اليسار في نهاية الاجتماع دفع البرلمان لتبني قرار أكد فيه: «**ان حكومة ساكسونيا ليست مضطرة لإطاعة قائد المنطقة؛ بل العكس هو الصحيح؛ إذ على هذا القائد أن يطيع الحكومة**». ولقد كان هذا الرد على درجة كبيرة من الخطورة، لأنه يخالف الفقرة ٤٨ من الدستور والتي تعطي أولوية سلطات الامبراطورية على سلطات الأقاليم المشكلة للجمهورية.

تشجع الشيوعيون؛ نتيجة لنجاح تكتيكهم؛ فاقترحوا تشكيل (جبهات مشتركة لقوى اليسار) في جميع أنحاء الرايخ؛ على غرار جبهة ساكس، وخاصة في تورينغ و هامبورغ. ثم شنوا هجوماً جديداً في مجلس نواب الساكس طالبوا فيه بإقالة وزير الحرب. **وأخذت العلاقات بين**

★ كانت وزارة المالية ووزارة التعليم العام تعتبران من الوزارات الثانوية؛ إلا أن الشيوعيين كانوا يعتبرونهما من أهم الوزارات؛ لأنهما تسمحان لهم بوضع اليد على الأموال العامة والدعاية.

دريسد وبين برلين تزداد تأزماً. عندما حدث فجأة تعقيد جديد غير منتظر. إذ قام رئيس الحكومة الوطنية في ميونيخ السيد فون كاهر بقطع جميع العلاقات بين إقليمه بافاريا وبين ساكس. فقامت حكومة الجبهة المشتركة بحشد قوات (المتطوعين الحمر) على الحدود مع بافاريا. ومقابل ذلك؛ قامت حكومة بافاريا بتشكيل (ميليشيا وطنية) وحشدت فصائلها في ضواحي كوبورغ. وهكذا نشأ وضع غريب لا يكاد يصَدق، وهو أن بلدين أو اقليمين، من أقاليم الرايخ؛ قد وقفا وكل جاهز للإنقضاض على الآخر بقوة السلاح.

أعلن الشيوعيون على الأثر الإضراب العام يوم ٢٢ تشرين الأول — اكتوبر — واجتاحت حمى الهيجان جميع أنحاء الرايخ؛ ووقعت اشتباكات دامية بين الشرطة والمتظاهرين سقط فيها عدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين في اكس لاشابيل؛ وبرلين؛ وارفورت؛ وهامبورغ؛ وإيسن؛ وماريبورغ؛ وفرانكفورت؛ وبوتن؛ وهانوفر؛ ولوبيك؛ وبرونزويك؛ ودوسلدورف؛ وألنشتاين. غير أن أعنف هذه الاشتباكات وقعت في هامبورغ؛ حيث قام الشيوعيون بعدد من الهجمات على مخافر الشرطة. غير أن الشرطة والبحارة تمكنوا في النهاية من السيطرة على الموقف. بثمن مرتفع. وظهر من الوثائق التي أمكن الحصول عليها من المقر العام للمتمردين في شيفك أن هؤلاء قد حصلوا على مساعدات فنية ومالية من العملاء السوفييت. ولقد استطاع الشيوعيون تحقيق المباغتة في هجماتهم في هامبورغ، وقاموا بهجمات متقنة ومحكمة، مما أدى إلى وقوع عدد كبير من الضحايا، وكان ذلك كله إنذاراً خطيراً للسلطات العسكرية؛ وبات لزاماً عليها التحرك بسرعة، إذا ما أرادت تجنب كوارث مماثلة في ساكسِ و تورينْغ. **وقد بقي فون سيكت يتحرك حتى الآن على مهل؛ ودون تعجل، بهدف عدم تصعيد الموقف. إلا أن حوادث هامبورغ لم تترك له مجالاً للحيطة المفرطة؛ والحذر الشديد. ودفعته للعمل بسرعة قبل فوات الأوان.** وأصدر مستشار الرايخ يوم ٢٧ تشرين الأول — اكتوبر — صباحاً، المذكرة التالية إلى حكومة الساكس: «بما أن الأعضاء الشيوعيين في حكومة الساكس قد حرضوا السكان على ارتكاب أعمال العنف والثورة على سلطة الرايخ. وإن مستشار الرايخ يطلب انسحاب رئيس الحكومة السيد زاينر وأعضاء حكومته، لأن حكومة الرايخ لم تعد تعترف بحكومة الساكس على أنها حكومة شرعية؛ وذلك وفقاً لأحكام الدستور في الامبراطورية. ننتظر جواب السيد زاينر خلال هذا اليوم».

وتجاهلت حكومة زاينر المذكرة، **وتحرك الجيش بسرعة. وأمكن له القضاء على التمرد، وقام بحل (كتائب البروليتاريا) وتجريدها من السلاح. وأصدر فون سيكت الأمر اليومي في ٤ تشرين الثاني — نوفمبر — ١٩٢٣، من مقره في برلين، وهو الأمر الذي تضمن ما يلي:**

«إن الصراع في منطقة الروهر؛ ونهايته الحتمية؛ قد ترك جذوره وآثاره في أعماق ألمانيا. كما احتدم الخلاف بين الأحزاب حتى بلغ أوجه في هامبورغ، حيث تم القضاء مؤخراً على محاولة

انقلاب قام بها الشيوعيون ؛ وذلك بفضل الجهود المشتركة للشرطة والبحرية . لقد اضطر جيش الرايخ للتدخل في ساكس لإعادة الأمن والنظام اللذين اضطربا بشكل خطير . وما كاد هذا العمل ينتهي حتى رأينا أن الاشتراكيين ـــ الوطنيين البافاريين يستعدون للسير نحو برلين .

لقد كررت مراراً ؛ وطوال فترة بقائي في هذا المنصب ؛ بأن الخلاص لا يمكن أن يأتي لا من أقصى اليمين ولا من أقصى اليسار ؛ ولا بالمساعدة الخارجية ؛ أو الثورة الداخلية يمينية أو يسارية ؛ بل بالعمل الشاق المتواضع الدؤوب . هذا العمل لا يمكن أن يتم إلا على أساس القوانين الدستورية . أما الإبتعاد عن هذا المبدأ ؛ فإنه يعني الحرب الأهلية ؛ هذه الحرب التي لن تنتهي بانتصار أحد الأطراف ؛ وإنما بالتقتيل المتبادل تماماً على غرار حرب الثلاثين عاماً ؛ والمثال الرهيب الذي خلفته لنا .

تقع مهمة تجنب مثل هذه الكارثة على عاتق جيش الرايخ ؛ وتقضي مهمة القائد الأعلى الاعتراف بالضرورات الحيوية للدولة وفرض احترامها . وليس على الجندي أن يحاول أن يعرف أو يعمل أفضل مما يعرفه ، أو يعمله رؤساؤه : إن شرفه هو الطاعة . وسيكون جيش الرايخ الموحد في الطاعة ، هو دائماً جيشاً لا يغلب . وسيبقى أكثر عوامل الدولة قوة وبأساً . أما الجيش الذي تتغلغل فيه جذور الخلافات السياسية ؛ فلا بد أن يتحطم لحظة الخطر . لذلك أطلب من القادة (الجنرالات) جميعاً ومن قادة القطعات أن يلفتوا انتباه مرؤوسيهم إلى أهمية هذا الأمر ؛ وأن يستأصلوا فوراً من الجيش ؛ كل عنصر يقوم بنشاط سياسي » .

فون سيكت

○

لقد استطاع فون سيكت أن يدمر مركزين من مراكز القوى التي كانت تتهدد (وحدة الأقاليم الألمانية) بالتمزق ؛ وتتهدد وحدة الشعب الألماني بالتفتت . إلا أنه لا زال يعاني من القلق بسبب القوة المتعاظمة (للحزب الوطني ـــ الاشتراكي) أو (الحزب النازي) الذي جعل من ميونيخ قاعدة لنشاطه . وكان هذا الحزب قد عقد مؤتمره السنوي الثاني في الفترة من ٢٧ إلى ٢٩ كانون الثاني ـــ يناير ـــ ١٩٢٣ . وكان لحفل الختام الذي جرى في الهواء الطلق ـــ تحت الثلج المتساقط ـــ والصيحات المتكررة لشعار (استيقظي يا ألمانيا) طابع عسكري أقوى بكثير مما كان متوقعاً . ثم اجتمع في ساحة مارس ستة آلاف شاب في تنظيم (فصائل الإنقضاض) . وجرى عرض عسكري أمام زعيم الحزب أدولف هتلر الذي قام بمراسم تكريم الأعلام ، حيث عمل على تسليم الأعلام الأولى إلى الكتائب الأربع لفصائل الإنقضاض . وجاء اجتياح القوات الفرنسية لإقليم الروهر

ليثير في الألمان مشاعر الغضب والإنتقام، مما عزز من مكانة (الحزب الوطني الاشتراكي). حتى إذا ما كان شهر أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٩٢٣. عقد الحزب مؤتمره في اليومين الأول والثاني من هذا الشهر؛ إحياء لذكرى معركة سيدان؛ وحضر المؤتمر ٧٠ ألفاً من المواطنين. وكان من أبرز أحداث هذا المؤتمر حضور **الماريشال لودندورف** وظهوره للمرة الأولى أمام الجماهير؛ مما أعطى هذا الاجتماع؛ وبهذه المناسبة بالذات؛ معنى خاصاً. وقد جرى في هذا المؤتمر إعادة تنظيم العناصر المقاتلة تحت اسم (التحالف الألماني المقاتل) أو (رابطة الرايخ).

لقد مضى على دخول القوات الفرنسية إلى منطقة الروهر عدة أشهر؛ وأدرك هتلر الآن؛ أن الرايخستاغ وحكومة برلين لن يمتلكا الجرأة أبداً على مقارعة الحلفاء. ففي الوقت الذي كانت فيه البلاد تغوص في الهاوية، كان النواب يكتفون برفع الاحتجاجات الأفلاطونية ـــ الفارغة ـــ لذلك لا يمكن لحرب التحرير أن تصبح ممكنة؛ ما بقي النظام الحالي قائماً في ألمانيا. وأول ما يجب عمله، بالتالي، هو إسقاط هذا النظام. وكان هتلر يردد باستمرار: «**إن أول عمل يجب الإضطلاع به للنهوض بألمانيا؛ هو التحرك نحو برلين، وإقامة دكتاتورية وطنية**». وقد أضاف إلى ذلك في الخطاب الملتهب الذي ألقاه في ١٢ أيلول ـــ سبتمبر ـــ: «**إن برلمان تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ قد أشرف على النهاية! والبناء يتداعى! ولم يبق أمامنا غير خيارين: الصليب المعقوف أو النجمة السوفييتية؛ الإستبداد الشيوعي العالمي أو الامبراطورية المقدسة للأمة الجرمانية**».

بينما كان أعضاء الحزب الوطني ـــ الاشتراكي والتشكيلات المسلحة (لرابطة الكفاح) والذين بلغ عددهم ٥٥ ألف عضو؛ يزدادون التفافاً حول هتلر ولودندورف؛ ظهر تيار فكري جديد في بافاريا؛ يمثله (حزب الشعب البافاري)، والمنظمات الملكية والتحالفات الرجعية؛ المجتمعة حول السيد **فون كاهر**. ولقد اتبع كل من هذين الاتجاهين سياسة مختلفة كل الاختلاف؛ إذ كان هتلر ومعه الوطنيون الاشتراكيون؛ لا يفكرون مطلقاً بإعادة النظام الملكي، بل بترسيخ وحدة الأمة الألمانية عن طريق الدكتاتورية. كانت سياستهم فردية ومركزية؛ وشعارهم «**إلى الأمام نحو برلين**». أما الرجعيون البافاريون؛ فقد اعتمدوا على الفلاحين الكاثوليك وأنصار الشرعية؛ الذين لم يتأثروا مثل سكان المدن بالأزمة الاقتصادية؛ وكانوا يتوقون إلى زراعة حقولهم في سلام؛ ففي بافاريا حكومة ذاتية، ويرأسها ملك؛ وكانت سياستهم أكثر محافظة، وكان شعارهم: «**لننفصل عن برلين!**». إلا أنه مع اختلاف الأهداف بين الوطنيين ـــ الاشتراكيين؛ وبين الإنفصاليين البافاريين؛ كان لا بد للطرفين؛ لتحقيق أهدافهما؛ من التصدي لعدو مشترك؛ هو حكومة برلين الاشتراكية؛ وعلى هذه الأرضية المشتركة؛ على ضيقها؛ سيحاولان توحيد جهودهما ضد العدو المشترك. إلا أن تحالفهما هذا كان مبنياً على الحذر المتبادل وعدم الثقة؛ لذلك سيحاول كل طرف مراقبة الطرف الآخر؛ حتى يحتفظ لنفسه بحرية العمل؛ وبمبادأة العمليات.

لم تلبث الأزمة أن انفجرت بشكل مباغت وعنيف؛ وتتابعت الأحداث بسرعة رهيبة؛ جعلت سكان الرايخ يعيشون على فوهة بركان. ففي ٢٥ أيلول — سبتمبر — سمي هتلر مديراً سياسياً لرابطة الكفاح؛ وخشي فون كاهر أن يسبقه رئيس الحزب الوطني الاشتراكي للعمل؛ فأعلن نفسه يوم ٢٦ أيلول — سبتمبر — مفوضاً عاماً لبافاريا. وأعطى لنفسه مطلق الصلاحيات، ثم أعلن حالة الطوارىء على كامل ألأرض البافارية؛ ومنع الاجتماعات التي كان الحزب الوطني الاشتراكي قد نظمها لليوم التالي.

أثار هذا الموقف غير المتوقع سخطاً كبيراً في أوساط الحزب النازي؛ إلا أن الدهشة الكبرى كانت ولا شك في برلين. لأن هذا العمل المباغت الذي أقدم عليه فون كاهر كان خرقاً فاضحاً للدستور. ولهذا فقد ردت وزارة الامبراطورية على ذلك في ليل ٢٦ — ٢٧ أيلول — سبتمبر — بأن أعلنت حالة الطوارىء في جميع أنحاء الرايخ. كما عهد الرئيس ايبرت بالسلطة المطلقة إلى وزير الحربية. وكانت برلين قد عهدت إلى قائد المنطقة السابعة الجنرال فون ليسوف ليكون هو ممثل السلطة الشرعية في بافاريا. وكلفه وزير الدفاع لتولي السلطة التنفيذية. فلما أعلن فون كاهر حركته في بافاريا؛ قام فون سيكت بإجراء اتصال مع فون ليسوف وطلب إليه إيقاف إصدار الجريدة الرسمية للحزب الوطني الاشتراكي بسبب نشرها مقالات عنيفة ضد حكومة الرايخ. وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان: إذ رفض قائد المنطقة السابعة فون ليسوف هذا الطلب؛ وانضم إلى فون كاهر الذي عينه على الفور قائداً للجيش البافاري. خطا فون كاهر خطوة أخرى في طريق اللاشرعية يوم ٢٨ أيلول — سبتمبر — عندما أعلن قانوناً لحماية الجمهورية في بافاريا. **وازداد الموقف توتراً في أول تشرين الأول — اكتوبر — عندما رفضت بافاريا كل علاقة بوزارة الدفاع في برلين وبالجنرال فون سيكت. وعندها قام وزير الدفاع في برلين بإقالة الجنرال ليسوف. ورداً على ذلك؛ نقلت الحكومة البافارية تحت أمرتها المباشرة كافة قطعات المنطقة السابعة من جيش الرايخ. مما يعني أنها أصبحت في حل من قسمها تجاه الرايخ. وكان ذلك قراراً خطيراً؛ لأنه يعني فصم وحدة الجيش الألماني.**

وجه الرئيس ايبرت مذكرة تهديد للسيد فون كاهر يوم ٢٧ تشرين الأول — اكتوبر — دعاه فيها للعودة إلى احترام الدستور. إلا أن فون كاهر رفض ذلك؛ وطالب أولاً باستقالة وزارة الامبراطورية؛ كما أمر التشكيلات الرجعية بالتحشد شمال بافاريا، عند حدود تورنغ.

كان هتلر يراقب الأوضاع باهتمام في هذه الأثناء؛ دون أن يشارك فيها؛ وخاصة ما يتعلق بالصراع القائم بين فون كاهر وحكومة برلين. إلا أنه مع محافظته على الاتصال مع مفوض الدولة فون كاهر فإنه كان يشعر بأن أهدافهما كانت تتباعد باستمرار. لقد سمع هتلر ما قاله الجنرال فون ليسوف منذ شهر نيسان — ابريل — ١٩٢٣؛ بشأن الصراع في منطقة الروهر: «لا يوجد غير

حلين اثنين : إما إعطاء المقاومة السلبية طابع الثورة المسلحة ؛ أو إذا انهار كل شيء ؛ أن يترك كل قطر من أقطار الرايخ ؛ ليدير شؤونه بنفسه ؛ **وهذا يعني بطبيعة الحال تجزئة الرايخ** » . ولقد جعلت هذه الجملة الأخيرة شعوراً لدى هتلر بأن الأوساط الحاكمة في بافاريا تفضل الحل الثاني ؛ لذلك قرر منذ اليوم أن يستعيد حريته للعمل ضدها . **وهكذا ؛ خلق هذا الوضع المتناقض العجيب ؛ حركة انفصالية خاصة ؛ تحمل في جنباتها حركة وحدوية . وخلف الثورة البيضاء للرجعيين البافاريين ؛ كان يتحضر نهوض الأعلام الحمراء ذات الصليب المعقوف .**

يمكن القفز على قمم الأحداث ؛ وتجاوز مناورات الطرفين السياسية ، وصداماتهما العسكرية التي انتهت بسيطرة هتلر على الموقف ؛ وتحركه وقواته إلى ميونيخ في صباح يوم ٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٢٣ . حيث اصطدمت بقوات الشرطة التي تمكنت من السيطرة على الموقف بعد سقوط عدد من الضحايا . وأعقبت ذلك حركة قمع شديد لأعضاء الحزب النازي ، مع اعتقال زعماء الانقلاب الفاشل ؛ الذين تم تقديمهم للمحاكمة في ٢٦ شباط ــ فبراير ــ ١٩٢٤ . واستمرت المحاكمات لمدة زادت على الشهر ؛ وأخيراً أصدرت المحكمة قراراتها في الأول من نيسان ــ ابريل ــ وكانت :

١ ــ الحكم بالسجن في القلعة لمدة خمس سنوات بجرم الخيانة العظمى على كل من أدولف هتلر ؛ وكريبل وبوهند .
٢ ــ الحكم بالسجن لمدة خمسة عشر شهراً مع إيقاف التنفيذ بجرم المساهمة في المؤامرة على خمسة من زعماء الحزب النازي .
٣ ــ الحكم بالبراءة على لودندورف .
٤ ــ أدين أكثر من أربعين شخصاً ، وصدرت بحق أكثرهم أحكام مختلفة .

كان من نتيجة فشل انقلاب ميونيخ في يوم ٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٢٣ ، أن تغيرت معادلات كثيرة . ولقد ظهر للوهلة الأولى أن هتلر هو الخاسر الأول لمغامرة المقامرة الفاشلة . إلا أن الخاسر الوحيد في الواقع ؛ كان هو الماريشال لودندورف ؛ الذي لم يبق له ما يفعله سوى المضي إلى منزله لتمضية بقية حياته في عزلة عن الأضواء . أما هتلر ؛ الذي كان عليه قضاء خمسة أعوام في ظلمة السجن ؛ فإنه أفاد من هذه الفترة لإعادة النظر في أعماله السابقة ؛ ولوضع مخططاته للمستقبل ؛ بهدوء ؛ وبتحرر من القيود التي كانت تثقل تحركه .

بقي هناك الجنرال فون سيكت أو أبو الهول كما كانوا يسمونه ؛ والذي لم يعرف الأحلام أو الآمال الاستراتيجية العريضة التي راودت لودندورف ؛ والذي لم يحمل تطلعات المستقبل التي كانت تحرك هتلر ولا تفارقه . فإنه بقي رجل الحاضر بالدرجة الأولى ؛ لقد كان ينظر إلى الأمور نظرة أكثر

واقعية وأكثر موضوعية. إنه سيد الموقف بلا جدال؛ بعد أن زوده رئيس الرايخ بالسلطة التنفيذية؛ وبعد أن أعاد النظام في كل من: براندبورغ وساكس وهامبورغ وبافاريا وميونيخ. ولكن ما هي القيمة الحقيقية لهذا الانتصار ؟

لقد استمر الصراع بين مجالس نواب الأقاليم؛ وبين السلطة المركزية في برلين. وحتى في بافاريا فإنه لم يتم حل الصراع بين سلطات الرايخ والحكومة البافارية بالدقة والحسم المطلوبين. وعلى هذا؛ وفي حالة الاضطرابات الداخلية الخطيرة ــ والتي بات من المتوقع تجددها بشكل دوري ــ يظل جيش الرايخ هو القوة الوحيدة القادرة على دعم السلطة المركزية؛ لأنه الجهاز الوحيد الذي تمتد فروعه إلى كافة أنحاء الرايخ. ولكن ما هي الفائدة من تدخل هذا الجيش؛ إذا كانت النتائج المكتسبة تلغيها دائماً الألاعيب والمداخلات البرلمانية ؟ وماذا يفيد الجيش إذا كان الرايخستاغ سيدمر دائماً كل ما يحققه هذا الجيش من إنجازات ؟ في هذه الحالة من الفوضى السياسية التي عاشتها الجمهورية الألمانية؛ ووسط آلاف السلطات المبعثرة هنا وهناك؛ والتي تتقاطع وتشل بعضها البعض؛ هناك ثلاثة عناصر تقوم وحدها بتدعيم هذا البناء المتداعي :

١ ــ رئيس الرايخ؛ الذي يملك السلطات التي خولته إياها المادة ٤٨ من الدستور.

٢ ــ المادة ٤٨ من الدستور التي تسمح للجيش بالتدخل في المسائل الداخلية للبلاد.

٣ ــ الجيش الذي يمتلك السلطة الحقيقية؛ ولكنه يحتاج لممارستها إلى إعلان حالة الطوارىء.

فإذا أريد للرايخ أن ينتصر على خلافاته الداخلية؛ يجب السماح لهذه العناصر الثلاثة؛ أن تمارس دورها بأقصى قدر ممكن من الفاعلية. يجب على الرئيس ألا يتردد في اللجوء إلى المادة ٤٨ من الدستور كلما دعت الحاجة إليها؛ وأن يستطيع الجيش أن يمضي في تدخله حتى آخر الشوط، دون أن يخاف من التنكر له أو التخلي عنه. لذلك سيكون الشغل الشاغل؛ والجهد الرئيسي لجيش الرايخ من الآن فصاعداً؛ هو دفع ألمانيا في هذا الاتجاه؛ بانتظار الظروف المواتية للقيام بإصلاح إداري عميق. وهذا ما كان يعمل له الجنرال فون سيكت.

○

مضى فون سيكت في قيادة الجيش؛ وسط العواصف الهوجاء؛ وعبر الخضم المتلاطم بالأمواج الثائرة؛ وأمكن له تجاوز العقبات المتتالية بكفاءة مثيرة للإعجاب. غير أن خيوط شبكة التآمر أخذت تلتف حول فون سيكت، من حيث لم يكن يتوقع؛ ففي يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٢٦؛ صدر بلاغ صحفي ــ عن الرئاسة؛ أعلن أن الأمير غليوم هوهنزلرن، الابن الأكبر للأمير كرونبرينز، وحفيد غليوم الثاني ــ وبالتالي وريث العرش ــ قد قبل في فوج المشاة

التاسع بصفة (متطوع مؤقت). وكان قبوله في هذا الفوج من جيش الرايخ المتمركز في موقع بوتسدام؛ إنما يعني إعفاءه من أداء يمين الولاء للجمهورية. كما أعلن في الوقت ذاته عن اشتراك الملازم ثان غليوم هوهنزلرن في مناورات مونسينجين.

لقد تم قبول هذا المتطوع في الحقيقة بمعرفة القائد الأعلى للجيش المارشال هندنبورغ وموافقته. ولكن؛ بما أن رئيس الرايخ غير مسؤول بموجب الدستور الجديد؛ فقد أصبح على وزير الحرب فون غيسلر أن يشرح موقفه أمام البرلمان (الرايخستاغ). ولما كانت أحزاب اليسار لم تهضم بعد الهزيمة التي ألحقها بها انتخاب المارشال لرئاسة الجمهورية؛ والتي لمست في عدة مناسبات احتقار هندنبورغ وجنرالاته المكشوف للبرلمان؛ فقد وجدت في هذه الحادثة فرصتها لتبرهن فيها أنه لا زال باستطاعة البرلمان أن يقول كلمته. لذلك طالب الشيوعيون باتخاذ قرار فوري لإبعاد جميع أفراد الأسرة الامبراطورية ممن بقي منهم في ألمانيا بعد الثورة. ولما كان وزير الحرب الدكتور فون غيسلر قد نفد صبره من ممارسة (دور الدمية) التي تحركها الخيوط؛ فقد طالب باستقالة القائد العام للجيش فون سيكت فوراً.

ماذا يفعل هندنبورغ في مواجهة هذا الموقف؟ هل يبعد الجنرال فون سيكت من أجل قضية تمت بمعرفته شخصياً وتغطيته لها؟ لو خضع هندنبورغ لمشاعره ومبادئه وحدها، لاحتفظ يقيناً بذلك الرجل الذي عمل على تكوين جيش الرايخ المحترف. إلا أن هندنبورغ كان يضم في حاشيته عدداً من الذين تعودوا على إحكام حبك الدسائس، والذين كان من أخطرهم **فون شلايشر**. وهو أحد الرفاق القدامى في الجيش لابن المارشال أوسكار فون هندنبورغ، والذي كان له تأثير كبير عليه. كذلك كان فون شلايشر مستشاراً سياسياً لرئيس الوزراء غرونر. وكانت له اتصالاته الكثيرة مع القادة في وزارة الحرب وفي قصر الرئاسة. وكان ذا طبيعة حركية عالية (ديناميكية). فكان من النوع الملتوي الذي لا يعرف الاستقرار والثبات؛ يسير مدفوعاً بطموح لا تحده الحدود؛ ويتخذ أوضاعاً شيطانية. وقد اشتهر له قوله الذي أعلنه ذات يوم أمام حلقة من المعجبات: «انظرن أيتها السيدات إلى معطف الجنرال الأحمر الذي أرتديه؛ لأنه سيصبح معطف جلاد يوم نصفي حساباتنا مع أعدائنا في الساحة العامة!». ولكن! من هم أعداؤه هؤلاء؟ ذلك ما لم يعرفه أحد؛ لأنه كان يسعى لكسب صداقة الجميع؛ حتى أطلق على نفسه صفة (الجنرال الاجتماعي). لذلك كان إبعاد فون سيكت يخدم أطماعه؛ وقد اتهمه البعض من أوساط اليسار بأنه هو الذي أطلق على الجنرال فون سيكت طلقة الخلاص؛ بينما أكد الآخرون أن السبب الأوحد لذهاب فون سيكت هو تصلب وزير الحرب الدكتور فون غيسلر وتشدده. هذا في حين ركزت صحافة اليمين جهدها للتأكيد على أن فون سيكت كان ضحية مؤامرة دنيئة بين الاشتراكيين الفرنسيين والاشتراكيين الألمان. ولم تكن مقولات اليمين بعيدة عن الحقيقة كل البعد؛ فقد كان

موقف فون سيكت من قضية نزع السلاح وسواها من القضايا مصدر نقاش في أوساط الحلفاء، حتى قيل إن رئيس الوفد الفرنسي الاشتراكي بريان قد طالب برأس قائد جيش الرايخ فون سيكت، بحجة أن الرأي العام الفرنسي كان يرى فيه بطلاً من أبطال الانتقام ضد فرنسا؛ وأن مندوب ألمانيا إلى (لجنة السفراء للحلفاء) الاشتراكي ستريسمان، قد تجاوب تجاوباً كبيراً مع بريان، لأنه كان لا يحب فون سيكت، الذي حاول الضغط عليه خلال حملة ساكس. وقد يكون من الصعب؛ إن لم يكن من المحال؛ إثبات أي من هذه الاتهامات والشائعات؛ والحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن الضجة التي أثيرت بشأن تطوع الأمير غليوم أخذت تتزايد يوماً بعد يوم؛ حتى أخذت بعداً دولياً؛ إذ أخذ الحلفاء في التحدث عن عرض هذه القضية على مؤتمر السفراء.

لم يكن باستطاعة المارشال هندنبورغ؛ إزاء هذه الضغوط المتعاظمة؛ سوى الرضوخ للضجيج الانفعالي؛ فقبل استقالة فون سيكت يوم ٩ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٢٦. وعين بدلاً عنه الجنرال هاي الذي كان يشغل منصب قائد المنطقة الأولى في كونيغسبورغ. ويومها كان الجنرال فون سيكت قد بلغ الستين عاماً من عمره. فأمضى بضع سنين، من سنة ١٩٢٦ حتى سنة ١٩٣٢، في هدوء؛ بعيداً عن الأضواء، غير أنه لم يلبث أن انتقل إلى الصين لإعادة تنظيم جيشها؛ وتدريبه؛ وعندما عاد إلى ألمانيا؛ بعد ثلاث سنوات، كان كل شيء قد تغير؛ فقد وصل الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) إلى الحكم، واستعادت ألمانيا حرية عملها السياسي والعسكري. وانطلقت بحزم وقوة من القاعدة التي أرسى فون سيكت دعائمها على أسس سليمة وصحيحة. ويومها؛ ذكر الألمان جميعاً الجنرال فون سيكت الذي واجه كل التيارات لمصلحة ألمانيا القوية الموحدة؛ وحارب الجميع لمصلحة المواطن الألماني العزيز على أرضه والكريم في وطنه؛ واحتفظ الجيش الألماني المحترف لمؤسسه بذكرى العرفان بالجميل. ورحل الجنرال فون سيكت عن الدنيا؛ بعد أن قدم لوطنه؛ ولمواطنه، ولجيشه؛ كل ما يمكن لإنسان أن يقدمه؛ ولئن تنكر بعضهم يوماً لخدمات فون سيكت وعطاءاته في كل مجال؛ إلا أن هؤلاء ذاتهم لم يتمكنوا من إنكار فضله. ولا سيما أن جيل القادة الذين عاشوا فترة قيادة فون سيكت وعملوا معه؛ قد جاؤوا ليتابعوا السير على نهجه، وفي مقدمتهم الجنرال هاي. فمن هو هذا الذي خلف فون سيكت في عمله ؟ ولماذا اختاره هندنبورغ وأسلم إليه مصير جيش الرايخ المحترف ؟

ولد هاي في فولدا في ٣١ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٨٦٩؛ ثم دخل الكلية الحربية؛ حيث تربى هو أيضاً على تقاليد العسكرية الجرمانية القديمة. ثم أخذ ــ مثله كمثل فون سيكت ــ يتنقل في مختلف مناصب هيئات الأركان. ولقد خدم في هذا الإطار في فيلق لاندويهر سنة ١٩١٤؛ ثم انتقل في سنة ١٩١٧ إلى مجموعة جيوش الدوق البرت وورتمبورغ. ووجد نفسه في نهاية الحرب في

المقر العام في سبا، حيث حضر المجلس الحربي الذي عقد في ٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٨ بدعوة من الجنرال غرونر. والتحق بعدها بدورة في قيادة جيش الشمال، من نيسان ــ ابريل ــ حتى تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩١٩، حيث أظهر موقفه العدائي الواضح لمعاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا. ولما عاد إلى برلين؛ اختاره فون سيكت للعمل معه؛ وما لبث أن أصبح ساعده الأيمن، وأمين سره. وأظهر هاي ولاءه الشديد لرئيسه فون سيكت وإخلاصه الصادق لما كان يحققه من أعمال وإنجازات. وانتقل بعد ذلك في عدد من المناصب القيادية حتى عين قائداً للمنطقة الأولى؛ وبقي في هذا المنصب من تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٢٣ حتى لحظة استدعائه من قبل هندنبورغ لتسليمه قيادة الجيش الألماني المحترف.

على هذا لم يكن اختيار هندنبورغ اختياراً عفوياً أو اعتباطياً؛ وإنما كان اختياراً مدروساً بعناية؛ لقد اضطر هندنبورغ مرغماً؛ تحت ثقل وطأة الأحداث؛ أن يتخلى عن فون سيكت فاختار قائداً قادراً على متابعة عمله. وكان هاي أكثر القادة قرباً من فون سيكت وأشدهم ارتباطاً بعقلية سلفه. وكان من تلاميذ فون سيكت ومن المعجبين به، عندما وضع معه مخططات تشكيل جيش الرايخ المحترف. كما عملا معاً على تنظيم جيش المئة ألف رجل. ولذلك فلا غرابة إن تابع هاي تطبيق ما بدأه سلفه؛ ببريق أقل ولا شك؛ ولكن بأمانة منقطعة النظير.

لقد قال فون سيكت عندما عمل على تسليم القيادة لخلفه: «لقد أعدت ألمانيا إلى ظهر الحصان من جديد؛ لذلك لم يبق أمامي سوى السهر على أن تظل كذلك».

وجاء هاي ليضطلع بواجب السهر حتى تبقى ألمانيا على ظهر الحصان.

عاشت ألمانيا فترة ازدهار كاذب؛ وعرفت معنى السلام المزعوم الذي فرض عليها بالقوة. وتأرجحت مع الرياح الخفية التي كانت تدفعها تارة نحو الشرق وأخرى نحو الغرب. إلا أن حقيقة واحدة بقيت ثابتة على الأقل: إنها حقيقة ألمانيا الجنرالات التي بقيت متمسكة بمحور واحد، لم تنحرف عنه رغم كل الزوابع والأعاصير.

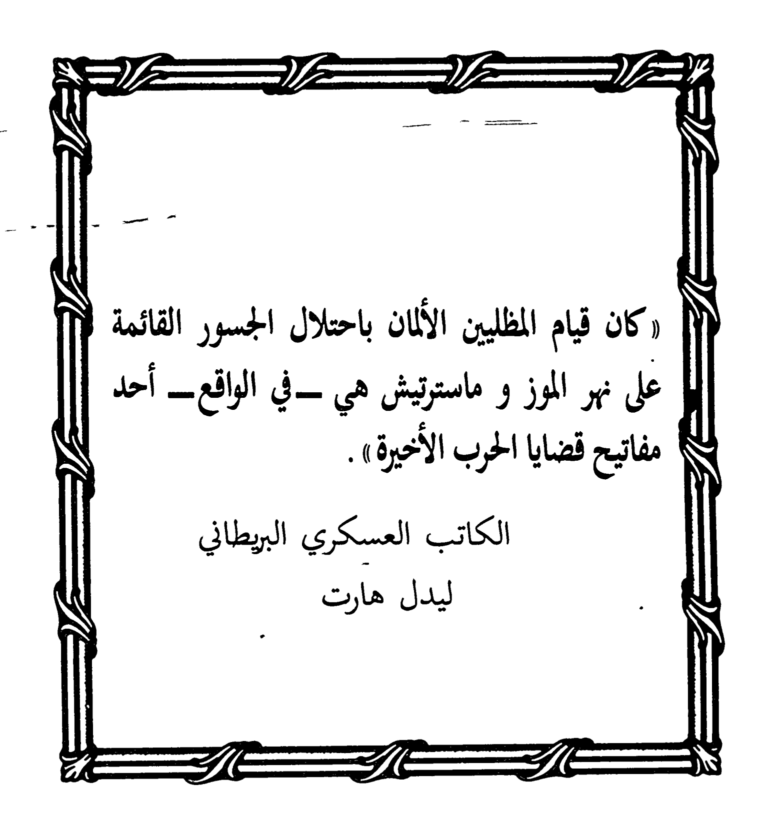
○

الفصل الثاني

المظليون ـ واقتحام البعد الثالث

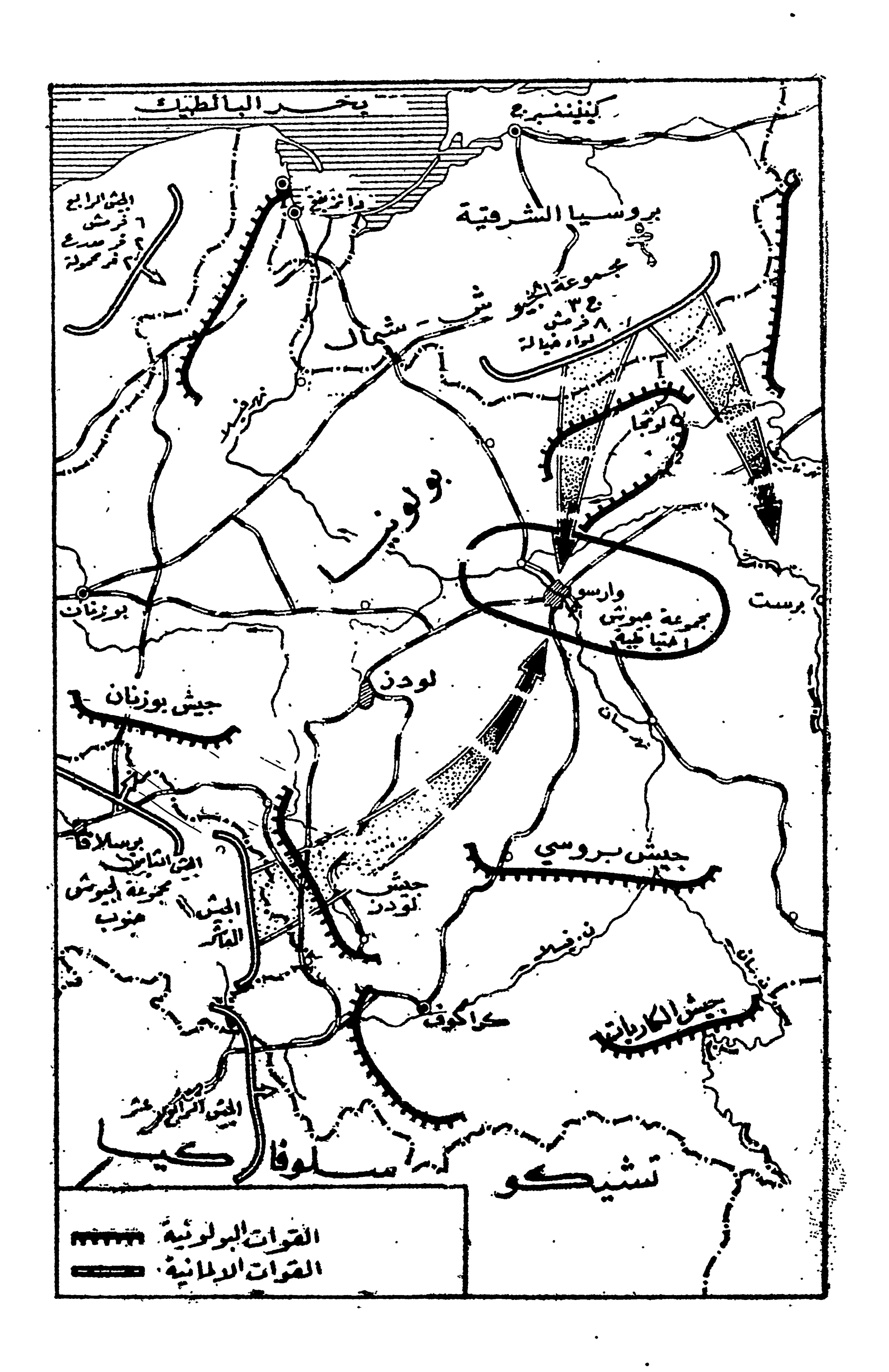
٢ ـ الجنرال اشتيودنت

آ ـ الجنرال اشتيودنت والمظليون
ب ـ تجارب الفرقة ٢٢ في هولندا وكريت
ج ـ القوات المحمولة جواً في النروج
د ـ المظليون في مقدمة قوات اجتياح الغرب
هـ ـ رجال استيودنت في كورينث

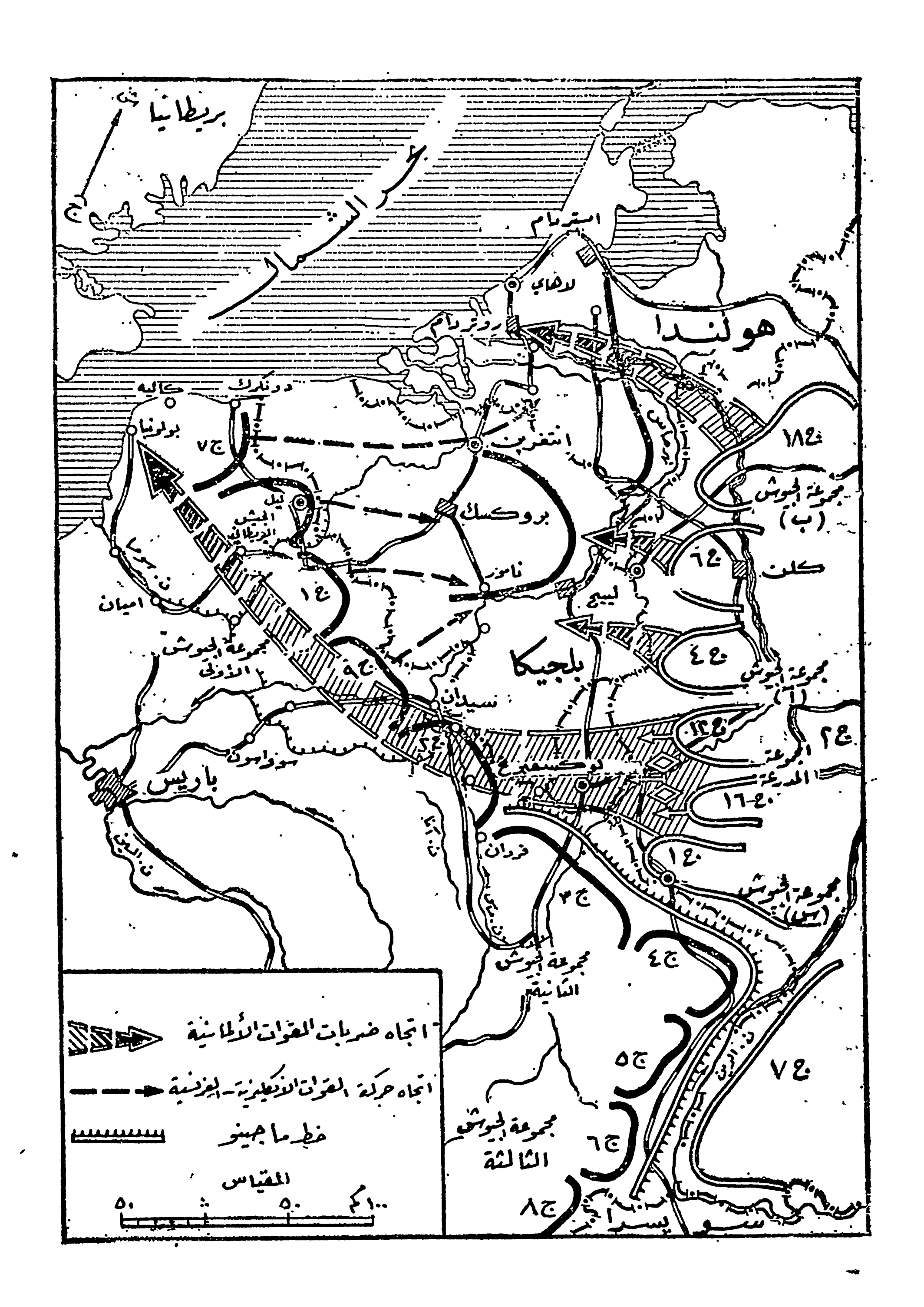


«كان قيام المظليين الألمان باحتلال الجسور القائمة على نهر الموز و ماستريتيش هي ــ في الواقع ــ أحد مفاتيح قضايا الحرب الأخيرة».

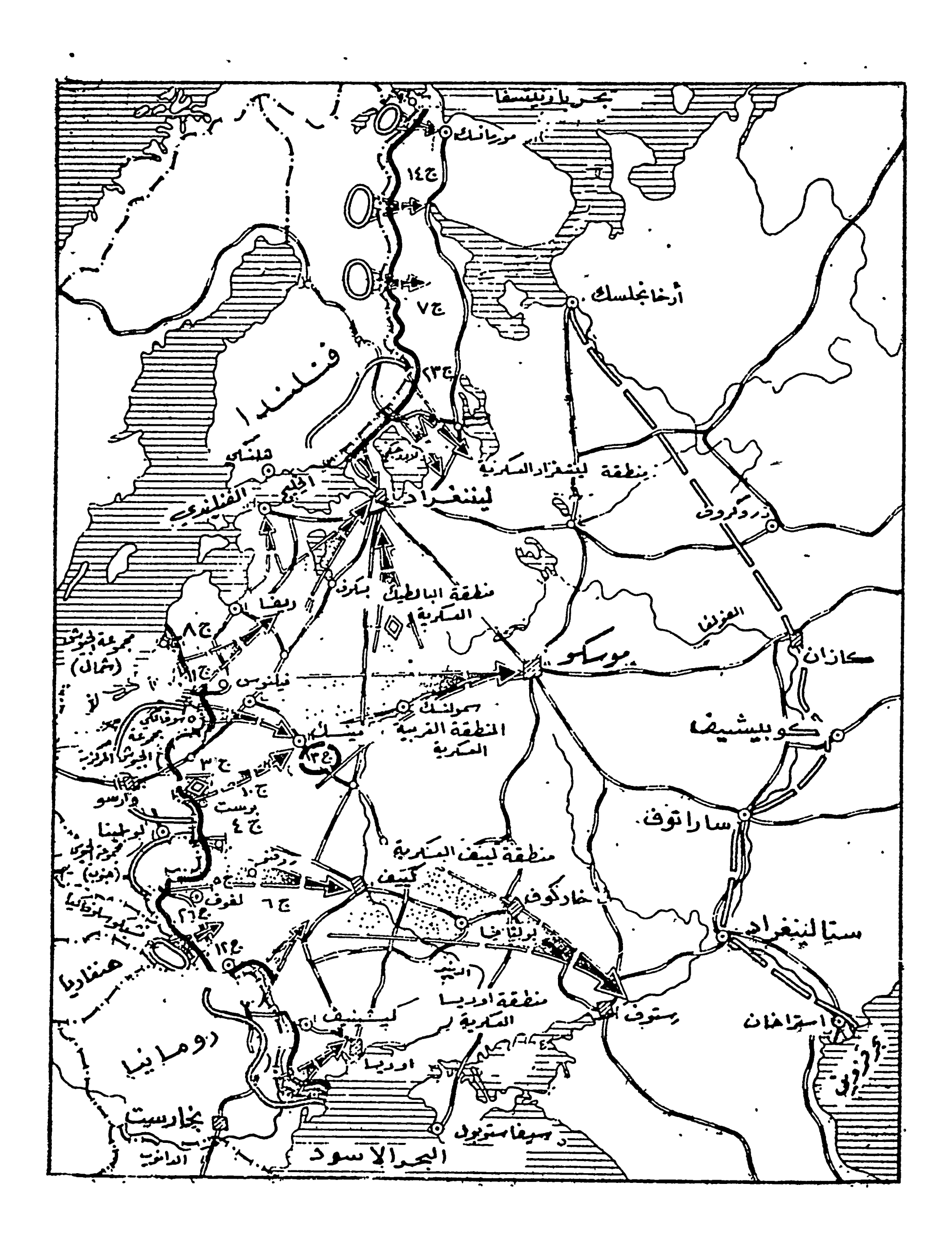
الكاتب العسكري البريطاني
ليدل هارت



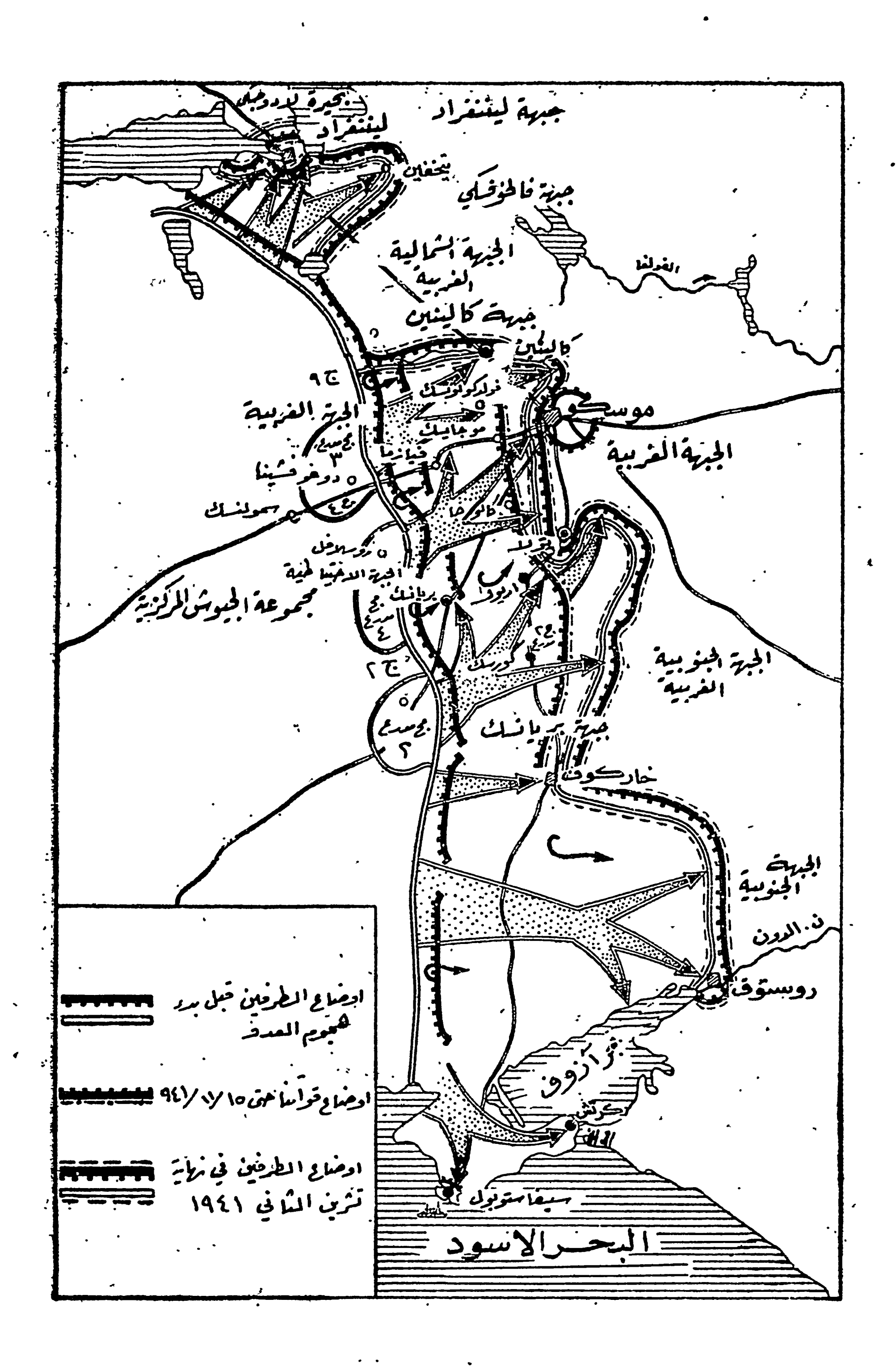
تجمع القوات الألمانية والبولونية بتاريخ ١١ أيلول عام ١٩٣٩ وفكرة القيادة الألمانية للهجوم



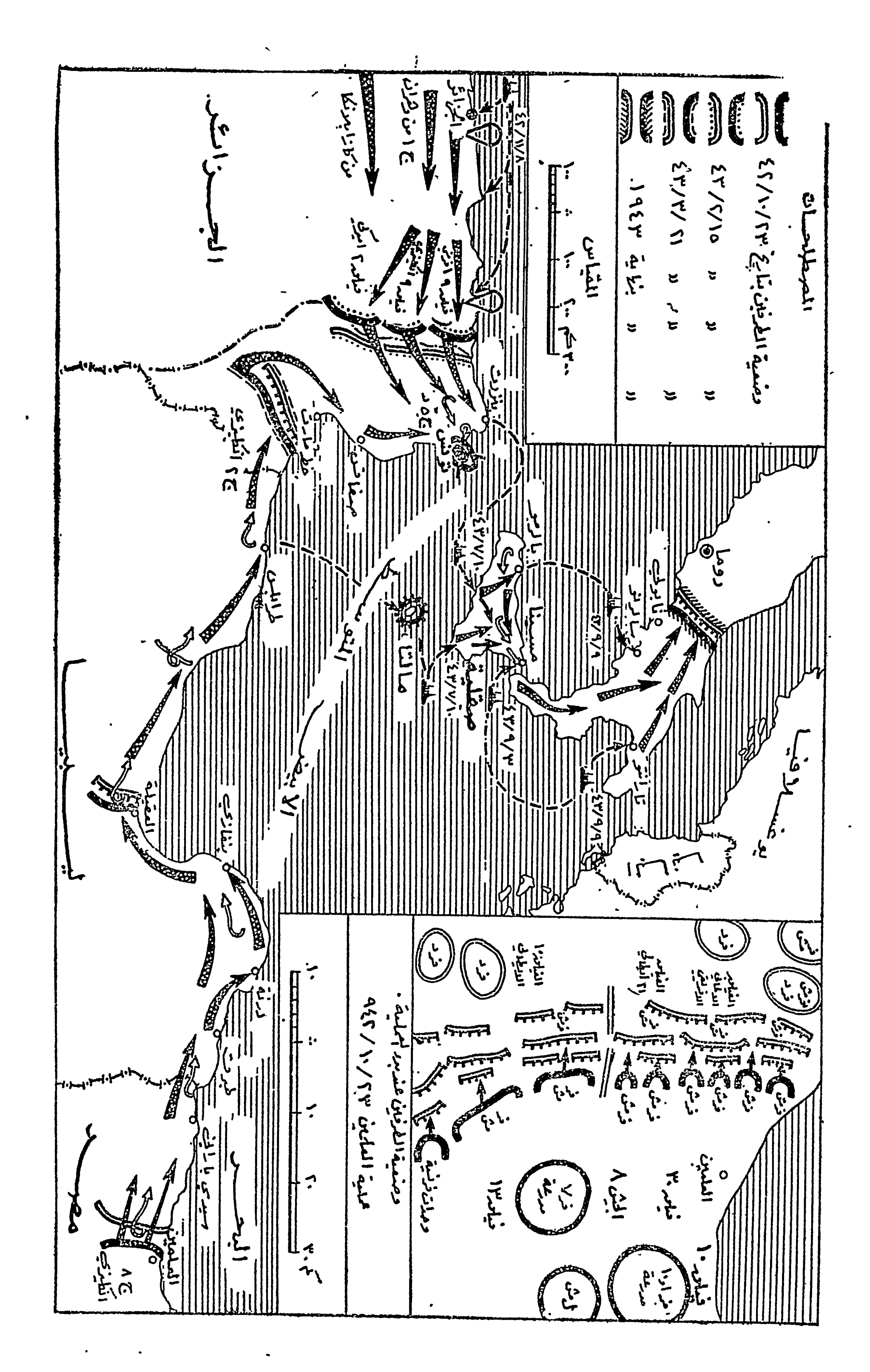
تجمع القوى الألمانية والحليفة بتاريخ ١٠ أيار عام ١٩٤٠ وفكرة القيادة الألمانية للهجوم



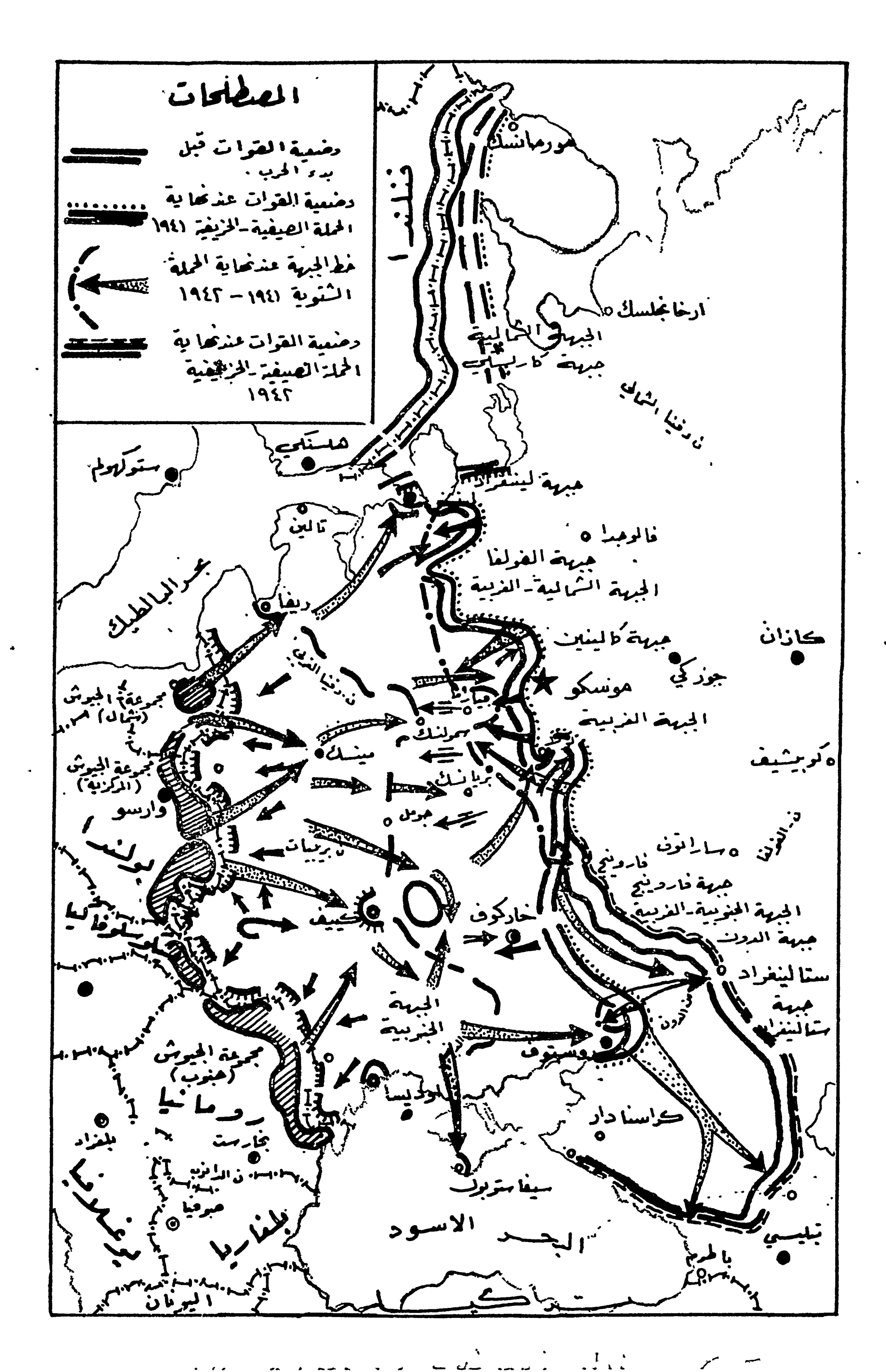
تجمع القوات السوفييتية والألمانية عند بدء الحرب (٢٢ حزيران عام ١٩٤١) وخطة القيادة الألمانية للاعتداء على الاتحاد السوفييتي



الأعمال الدفاعية للقوات السوفييتية قرب موسكو (٣٠ أيلول ـــ ٥ كانون الأول عام ١٩٤١)



هجوم القوات الأمريكية والإنكليزية في شمال إفريقيا وفي إيطاليا (تشرين الأول ١٩٤٢ـ كانون الأول ١٩٤٣)



سير الأعمال القتالية في الدور الأول للحرب (حزيران ١٩٤١ — تشرين الثاني ١٩٤٢)



سير الأعمال القتالية في الدور الثاني للحرب (تشرين الثاني ١٩٤٢ ـ كانون الأول ١٩٤٣)

الوجيز في حياة الجنرال اشتيودنت

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٩٠	ولادة اشتيودنت .
١٩١٥	اشتراكه في الحرب طياراً من طياري القتال .
١٩١٨	خروج اشتيودنت من الحرب بخمسة انتصارات ، وبإصابته مرتين بجراح .
١٩٢٠	نقله إلى سلاح المشاة .
١٩٣٤	إعادته إلى سلاح الجو من جديد برتبة عقيد .
١٩٣٨	إنجازه لتنظيم فرقة المظليين الثانية ، ولواء الهجوم المنقول جواً .
١٩٣٨	تنفيذ أول عملية للمظليين في احتلال إقليم السوديت .
١٩٣٩	استخدام المظليين في معركة بولونيا .
١٩٤٠	قيام مظليي اشتيودنت بتنفيذ عمليتين كبيرتين في بلجيكا وهولندا .
١٩٤١	استخدام المظليين في اجتياح النروج .
١٩٤١	المظليون يحتلون كريت .
١٩٤٣	قيام اشتيودنت بتنظيم فيلق المظليين الأول .
١٩٤٤	انتهاء اشتيودنت من تنظيم فيلق المظليين الثاني ، وتسميته قائداً لجيش المظليين الأول .

General , Kurt Student

آ ــ الجنرال اشتيودنت والمظليون

ما ذكرت الحرب العالمية الثانية إلا وذكرت عمليات المظليين، بالدرجة الأولى، نظراً لما قام به المظليون من أعمال رائعة في بداية هذه الحرب من جانب الألمان، وفي نهاية الحرب، من جانب الحلفاء. وما ذكرت أعمال المظليين الألمان إلا وذكر الجنرال اشتيودنت الذي كان له الفضل الأكبر في دفع هذا السلاح قدماً نحو التقدم والتطور. ولقد كان التصميم الرائع والتنفيذ المذهل لعمليات المظليين الألمان سبباً في انتشار قناعة بأن الألمان ــ هم وحدهم ــ أصحاب هذه الفكرة؛ وهم منفذوها. غير أن الحقيقة مغايرة لذلك؛ فلقد حاول الضابط الأمريكي ميتشل من القوات الجوية استخدام المظليين في بداية سنة ١٩١٨؛ وحصل على موافقة الجنرال الأمريكي بيرشينغ، لإنزال قوات من فرقة المشاة الأولى خلف الخطوط الألمانية؛ ولكن وصول الحرب إلى نهايتها سبق تنفيذ هذه العملية فتم صرف النظر عنها. وقد أظهر الضابط الأمريكي شينولت فائدة استخدام المظليين في سنة ١٩٢٥ ثم في سنة ١٩٢٨، ولكنه فشل في الحصول على دعم وزارة الدفاع لتطوير هذا السلاح. ومقابل ذلك؛ احتل الاتحاد السوفييتي المرتبة الأولى في العالم في إنزال المظليين للقيام بالأعمال القتالية منذ سنة ١٩٢٧، عندما تم زج المظليين لقتال القبائل الآسيوية الثائرة ضد الاتحاد السوفييتي. وفي بداية سنة ١٩٣٠ استطاع المارشال توخاتشوفسكي السير بسلاح المظليين خطوات واسعة نحو التطور، من خلال فتح المجال أمام آلاف الشبيبة للقفز بالمظلات، فتم تنظيم أول فرقة للمظليين، واستمر توخاتشوفسكي في زيادة عدد هذه الفرق حتى بلغت أوج قوتها سنة ١٩٣٧ ــ خلال قمع العصيان ضد ستالين ــ وفي جانب بريطانيا؛ حضر الجنرال ويفل المناورات السوفييتية السنوية، سنة ١٩٣٦، وكتب تقريراً مفصلاً عن المظليين ودورهم المتوقع في الحرب القادمة؛ إلا أن تقريره لم يحظَ بما يستحقه من الاهتمام في وزارة الحرب البريطانية؛ حتى إذا ما كان شهر حزيران ــ يونيو ــ ١٩٤٠، أصدر رئيس الوزراء البريطاني تشرشل تعليماته بزيادة حجم قوات المظليين التي لم يكن عدد أفرادها يتجاوز يومها أربعة آلاف مظلي؛ فانصرف الجنرال سير فريدريك براونينغ لهذا العمل؛ فتم تشكيل فرقة المظليين البريطانية الأولى في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤٠، وتم استخدام أفرادها للمرة الأولى في يوم ١٠ شباط ــ فبراير ــ ١٩٤١

عندما تم إنزال ٣٨ مظليا في إيطاليا لتدمير قناة تراغينو . وفي الوقت ذاته كانت الولايات المتحدة تطور بسرعة قوات المظليين ، بحيث أمكن لها استخدام ثلاثة فرق في إنزال النورماندي؛ وفي نهاية الحرب كان لدى الولايات المتحدة خمسة فرق من المظليين .

يظهر من ذلك أن المظليين الألمان لم يكونوا هم وحدهم على ساحة الحرب؛ يوم اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وبالرغم من ذلك؛ فقد سجلت عملياتهم أهمية تاريخية مميزة؛ بسبب استخدامهم لأسطول من التشكيلات الجوية؛ وبسبب دعم سلاح الجو (الطيران) ومساعدته ، وإجراء هذه العمليات بتخطيط من القيادة الألمانية ؛ وتنفيذ من الوحدات ؛ مما أعطى تلك العمليات ميزاتها الخاصة التي ارتسمت على لوحة الحرب العالمية الثانية .

من المحتمل أن يكون فون رونشتد قد أفاد من التجارب السوفييتية في هذا المضمار ؛ أو من سواها من التجارب؛ غير أن هذا لا ينتقص من قيمة الإبداع الذاتي الذي انفردت به التجربة الألمانية . **وهنا تبرز الحكمة في مقولة فون مولتكه الكبير : «إننا ونحن نستعد للحرب ؛ نستطيع استخلاص أفضل الدروس من تجاربنا الخاصة ؛ ولكنه يجب علينا أيضاً وباستمرار ؛ أن نستفيد من تجارب الآخرين . وذلك حتى لا نقف ضمن أفق محدود»** .

انصرف اشتيودنت منذ التحق بفرع البحوث والتجارب في سلاح الجو لسنة ١٩٣٤ ، للعمل على اتجاهين في وقت واحد : إيجاد الوسائط والأعتدة المناسبة من جهة؛ وإعداد الأفراد وتنظيمهم وتدريبهم من جهة ثانية . وفي السنة التالية ١٩٣٥ ، أمكن تنظيم أول كتيبة للمظليين ؛ وألحقت بقوات سلاح الجو ، بقيادة الجنرال غورينغ . وقام المظليون الألمان بأول تظاهرة عامة للقفز أمام الجمهور ، في خريف سنة ١٩٣٦ . وأنهى اشتيودنت تنظيم لواء المظليين الأول في نيسان ــ ابريل ــ ١٩٣٧ م . حتى إذا ما كانت سنة ١٩٣٨ ؛ أخذ اشتيودنت على عاتقه مسؤولية تنظيم وتدريب القوات المحمولة جواً★ . وكانت مهمته طوال هذه الفترة مماثلة لمهمة زميله الجنرال غودريان الذي تخصص في تنظيم القوات المدرعة وأساليبها القتالية . وكانا يتمتعان بخيال خصب في وضع التصاميم والمخططات؛ وبالقدرة على وضع تلك التصاميم والمخططات موضع التنفيذ . ولقد أصبح لدى الجيش الألماني ــ اعتباراً من سنة ١٩٣٨ ــ قوات محمولة جواً مكونة من فرقة المظليين الثانية ولواء الهجوم المنقول جواً ، وكلاهما ملحق بقيادة القوات الجوية . بالإضافة إلى الفرقة الجوية الثانية والعشرين والتي كانت من المظليين أيضاً . ولكنها كانت من تنظيمات الجيش البري (الأرضي) .

لقد تم تنفيذ أول إنزال للمظليين من الجو فوق أراضي إقليم فرودنتال وذلك في أثناء احتلال

★ القوات المحمولة جواً : Fliegerkorps .

أراضي **السوديت** في خريف عام ١٩٣٨ . وقد تم استخدام المظليين والقوات المنقولة جواً في وقت واحد . وبذلك أصبحت فكرة إجراء التحرك في العمليات عن طريق الجو أمراً واقعاً . وقد حقق استخدام المظليين عن طريق المباغتة انتصاراً حاسماً . وأمكن استخدام القوات المحمولة جواً (المظليين) بسهولة كبيرة في معركة **بولونيا** في ٢٢ أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٩٣٩ ، حيث تم نقل مجموعة تعبوية (تكتيكية) بقوة كتيبة من الفرقة ٢٢ وتحريكها جواً إلى أرض المعركة . ثم أعيد استخدام المظليين من جديد أثناء معركة **النروج** في ١٩ نيسان ـــ ابريل ـــ ١٩٤١ . إذ تم تنفيذ العملية بتشكيلات واسعة ، وذلك للقيام بمهمة الاستيلاء على النقاط الرئيسة الموصلة إلى أوسلو العاصمة . وتضمن مخطط هذه العملية ما يلي :

١ ـــ تقوم سرية من المظليين بالهبوط فوق أرض المطار مباشرة ؛ ومعها مجموعة من الفنيين ، وذلك لإحتلال أرض المطار ؛ وإعداده لاستقبال القوات الرئيسة لجيش الغزو ؛ والاتصال بعد ذلك بالقوات الأرضية التي يتم إنزالها عن طريق البحر .

٢ ـــ تقوم سرية من المظليين أيضاً بالهبوط قرب نامسوس ، بمهمة قطع طرق مواصلات الحلفاء ؛ وتطويق حامية نارفيك ؛ ومنع الإمدادات من الوصول إليها . وقد تم اتخاذ التدابير لنقل متطلبات هذه المعركة من أشخاص ومعدات ، وتحريكها جواً .

كان اشتيودنت قد وضع المخططات لعمليتي غزو **بلجيكا وهولندا** منذ يوم ١٠ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٤٠ . ونفذت العمليتان وفقاً لما كان مخططاً لهما ؛ وكان دور المظليين فيهما حاسماً .

كانت العملية الأولى ذات طابع تعبوي (تكتيكي) بينما كانت الثانية ذات مضمون استراتيجي . وتم تنفيذ العملية الأولى بواسطة مجموعة مكونة من مئة وخمسين مظلياً تقريباً . وتم نقل أكثرهم بالطائرات الشراعية . وكانت مهمتهم احتلال الجسور القائمة فوق قناة ألبرت ثم المحافظة عليها وحمايتها ؛ وإبطال المواقع الدفاعية المجهزة تجهيزاً حديثاً ، مع العمل في الوقت ذاته لاحتلال قلعة ابين اميل ، التي كان يدافع عنها ألف ومئتا مقاتل بلجيكي .

أما العملية الثانية ؛ فقد اشترك فيها فيلق اشتيودنت المنقول جواً . وقد ضم هذا الفيلق قوة فرقة المظليين السابعة ؛ وفرقة المشاة ٢٢ . وقامت بحمل هذه القوة ونقلها مجموعة خمسمائة طائرة من طائرات جونكرز ـــ ٥٢ . وكانت مهمة الفيلق الهبوط جواً لتطويق الجيش الهولندي المكوّن من أربعة فيالق ؛ بالإضافة إلى عدد من التشكيلات الاحتياطية العامة . وكان هذا الجيش مستنفراً ومستعداً للقتال قبل ثلاثة أيام من يوم الغزو . وكانت قواته تحتل المواقع الدفاعية المحصنة . وقد أرغمت هذه القوات على إلقاء السلاح ؛ والاستسلام ؛ بعد أربعة أيام فقط من الغزو ؛ وذلك قبل أن تتاح لها الفرصة حتى تقاتل بجدارة . ولقد ارتكبت قوات الغزو الألمانية ، بعض الأخطاء التعبوية

(التكتيكية)، ولكن على الرغم من ذلك؛ فقد تم تنفيذ المهمة بمجموعها تنفيذاً ناجحاً، وأمكن الوصول إلى نتيجة استراتيجية رائعة.

سجل المظليون الألمان بعدئذ نجاحاً رائعاً خلال **حرب البلقان** سنة ١٩٤١ عندما قاموا بغزو جزيرة من الجزر التي كانت تدافع عنها بحزم قوات من البحرية الملكية اليونانية. وكانت هذه هي العملية الوحيدة من معارك المظليين التي عرفها المؤرخون العسكريون معرفة جيدة، نظراً لما توافر لها من الصفات الهامة والميزات الخاصة. ولعل أكثر ما ميزها عن سواها هو أنها حدثت فوق مسرح عمليات محدد الأبعاد؛ وكان لها هدف استراتيجي.

أخذت القيادة الألمانية بعد ذلك؛ واعتباراً من ٢٦ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤١؛ باستخدام مجموعات ألوية المظليين وإنزالها في مواقع مختلفة ــ **كاليونان مثلاً** ــ وذلك لقطع طريق انسحاب القوات البريطانية.

وعلى الرغم من النجاح التعبوي الموضعي (المحدود) الذي حققته تلك العمليات؛ إلا أنها أخفقت من الناحية الاستراتيجية. ولم تؤدِ إلى أية نتيجة إيجابية. ويعود السبب في ذلك إلى أن تنفيذها قد جاء متأخراً ــ بعد فوات الأوان ــ حيث كان القسم الأكبر من القوات البريطانية قد تجاوز الجسر القائم على قناة كورينث، وغادر مسرح العمليات اليوناني إلى مصر.

دخلت **معركة كريت** مرحلتها الحاسمة يوم ٢٠ آذار ــ مارس ــ ١٩٤١. وكان الفيلق الجوي الحادي عشر بقيادة الجنرال اشتيودنت قد تشكل من فرقة المظليين السابعة؛ ولواء الهجوم المنقول جواً والذي كان يتم نقله بالطائرات الشراعية؛ وفرقة المظليين الجبلية الخامسة. وخصص لعمليات هذه القوات مجموعة من خمسمئة طائرة جونكرز ــ ٥٢، ومئة طائرة شراعية. وقامت هذه الفرقة بإنزال وحداتها فوق ماليم؛ وتيمور؛ وهيراكليون، وتمكنت من الانتصار في عملياتها بعد أن تكبدت الخسائر الفادحة؛ إذ لم يبق على قيد الحياة من الأفواج التسعة التي ضمتها الفرقة السابعة إلا ثلاثة أفواج ونصف الفوج. كما وصل مجموع قتلى لواء الهجوم المنقول جواً إلى ٥٠ ضابطاً وألف جندي. وكانت هذه هي النهاية المحزنة لتلك البدايات الرائعة لأعمال المظليين الألمان.

لقد كان امتداد أفق الحرب إلى مساحات شاسعة من أقاليم الاتحاد السوفييتي؛ وغياب السيطرة الجوية في كثير من الأحيان؛ وضياع المبادأة الاستراتيجية؛ من العوامل التي تضافرت لتمنع القيادة الألمانية العليا من الإقدام على تنفيذ عمليات هامة لقوات المظليين؛ على هذا المسرح من مسارح العمليات. ولقد تم وضع عدد من المخططات في الفترة من العام ١٩٤١ وحتى العام ١٩٤٥، بهدف إعادة تنظيم أقسام الجيش الجوي الألماني؛ وتطويره. غير أن ظروف الحرب؛ والاستنزاف المستمر لهيئات الأركان؛ قد أرغم القيادة العليا على إجراء تغييرات عميقة في خصائص

هذه القوات وميزاتها ومجال عملياتها أيضاً. وهكذا؛ ومنذ العام ١٩٤١؛ لم يبقَ للمظليين الألمان إلا ظلالاً باهتة من أمجاد العمليات الحاسمة التي سبق تنفيذها مع بداية الحرب ١٩٤٠ — ١٩٤١.

كانت القيادة الألمانية العليا تعتقد في شهر نيسان — ابريل — ١٩٤١، بأن معركة روسيا ستنتهي في فصل الخريف من السنة ذاتها؛ وكان المخطط العام لإعادة تنظيم القوات الأرضية يتضمن تشكيل ٢٤ فرقة مدرعة؛ ٦ فرق منها محمولة جواً، مع ٢٤ فرقة خفيفة وعشر فرق جبلية؛ بالإضافة إلى تشكيل مجموعتين من طائرات النقل؛ تستطيع كل مجموعة منها نقل فرقة كاملة. وكان قد تم في شهر شباط — فبراير — ١٩٤١ إعداد المخططات للمرة الثانية، من أجل القيام بعملية كبرى على نطاق واسع للإستيلاء على مالطا؛ وجبل طارق؛ وقناة السويس؛ ولينينغراد. ووضع اشتيودنت مخطط العمليات؛ واتخذ الإستعدادات لهذه العملية التي لم تنجز على الصعيد الفني ما تحتاجه من إنجازات. فقد كانت وسائل النقل الجوي تعتمد بصورة أساسية على طائرات الجونكرز — ٥٢ القادرة على حمل ١٥ جندياً فقط؛ وعلى الطائرة الشراعية د. ف. س — ٣٠٠، التي تستطيع بدورها نقل ١٢ جندياً فقط. وكان لا بد من تطوير هذه الوسائل وزيادتها. وقد جاء هذا التطوير باعتماد النموذج الذي كان يحمل اسم (العملاق. م و ٣٢٣) وهي طائرة نقل ذات ست محركات؛ قادرة على حمل مئة جندي. كما تم اعتماد الطائرة الشراعية القادرة على نقل مدفع مضاد للدبابات من عيار ٧٥مم مع سدنته. أما بالنسبة للمدفع عديم الإرتداد من عيار ٧٥مم و ١٠٠مم فقد كان من الأسلحة الملائمة جداً للمظليين؛ وكذلك الأمر بالنسبة للأسلحة الآلية. وقد تم تصميم عبوات يمكن تحويلها فوق أرض المعركة إلى عربات صغيرة يستطيع الرجال جرها. كما أن عبوات الإمداد بالذخيرة كانت بسيطة وعملية؛ لا تشكل أية صعوبات أمام تحرك الوحدات في ميدان القتال. وبذلك أمكن الوصول إلى نتائج إيجابية في مجال الإستعدادات الفنية. ولكن الوضع العام لم يعد يتيح تنفيذ العمليات على نطاق واسع؛ ومرت فترة أصاب فيها الشلل القسم الأكبر من تشكيلات المظليين التي كان قد تم تنظيمها وإعدادها.

بدأ الجيش الألماني بتشكيل ٢١ فرقة إلى جانب فرق المظليين التسع؛ ولكن الجهود المبذولة لهذه الغاية لم تصل في النهاية سنة ١٩٤٣، إلى إعداد أكثر من فرقتين: الفرقة الأولى والفرقة الثانية؛ اللتين أصبحتا على درجة من الإستعداد النسبي للقتال. ولكن الفرقة الأولى لم تكن تضم أكثر من خمسين بالمئة من أصل تعدادها ممن تم تأهيلهم للقفز؛ كما أن نسبة المؤهلين للقفز في الفرقة الثانية لم تتجاوز الثلاثين بالمئة. إلا أنه مع نهاية هذه السنة ذاتها ١٩٤٣، أمكن إنجاز تنظيم الفرق الأربع الأولى. أما الفرق الخمس الباقية فقد تم تنظيمها في عام ١٩٤٤؛ ولم تقم أي منها بعملية من عمليات المظليين.

نظمت هذه الفرق ضمن تشكيلات قتالية أكبر ؛ على مراحل ؛ ففي العام ١٩٤٣ ؛ تم تنظيم فيلق المظليين الأول . وفي العام ١٩٤٤ ؛ تم إعداد تنظيم فيلق المظليين الثاني . وتم تعيين أو تسمية الجنرال اشتيودنت قائداً لجيش المظليين الأول ؛ الذي لم يوجد إلا اسمياً فقط .

لقد كان مجرد إطلاق تسمية (مظلي) على وحدة عسكرية ؛ كافياً ليجعل منها وحدة ممتازة . وعلى هذا تم في ربيع سنة ١٩٤٤ م ، إنشاء فرقة مظلية مدرعة ؛ أطلق عليها اسم هيرمان غورنغ ، ثم تحولت هذه الفرقة إلى فيلق في نهاية العام ذاته . وكانت هذه التشكيلات الكبرى التي استهلكتها المعارك الأرضية ؛ قسماً من أقسام سلاح الجو الألماني . كما كانت قيادتها تابعة لقيادة سلاح الجو . وكان يتم اختيار ضباطها من ضباط الجيش البري . وقد اعتمد هذا الأسلوب على أساس الفكرتين أو المبدأين ـــ الخاطئين ـــ التاليين :

١ ـــ اعتبار النقل الجوي هدفاً في حد ذاته ؛ لا وسيلة لتحقيق هدف .

٢ ـــ بما أن القوات الجوية تنفرد بإمكانات كبرى ومتطورة ؛ فإنها تستطيع القيام بتشكيل وحدات القتال الأرضي بنفسها .

لقد بدأ الإضطراب واضحاً في تفكير الجيش الألماني وآرائه في القوات المحمولة جواً ، وما كان يعلقه عليها من الآمال . مع أنها ليست أكثر من قوات برية محمولة جواً ، وهو الجيش الذي كان رائداً في عمليات هذه القوات .

قام المظليون بتنفيذ مجموعة من العمليات الخاصة والمستقلة ؛ غير أن هذه العمليات كانت ذات أهمية قليلة وذات نتائج ثانوية ؛ على الأغلب ؛ وكان من بين هذه العمليات :

ـــ قام أحد ألوية المظليين بالهبوط في صقلية في شهر تموز ـــ يوليو ـــ ١٩٤٣ لدعم القوات الألمانية المقاتلة في الجزيرة .

ـــ قامت قوة من المظليين بقيادة اسكورزيني باستخدام الطائرات الشراعية في ١٧ أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٩٤٣ ، حيث عملت هذه القوة على اختطاف موسوليني من معتقله .

ـــ تم إنزال كتيبة من المظليين في جزيرة ليروس في الدوديكانيز ، في ١٧ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ١٩٤٣ .

ـــ هبطت سبع طائرات شراعية فوق أرض فيليكي ـــ لالي في الاتحاد السوفييتي ، حاملة معها للحامية المحاصرة الإمداد بالسلاح والمدافع المضادة للدبابات من عيار ٧٥ مم .

وجاء العام ١٩٤٤ ليحمل معه المزيد من التجارب القتالية ؛ فقد تم تحميل عدد من الطائرات الشراعية بالعناصر اللازمة لدعم الهجوم ضد رجال المقاومة الفرنسية في قلعة فيركو .

— وفي يوغسلافيا؛ قامت كتيبة من المظليين بالهبوط فوق مقر القيادة العسكرية للجنرال تيتو آنذاك.

— وأخيراً؛ وفي شهر كانون الأول ـــديسمبرـــ ١٩٤٤؛ قامت مجموعة مكونـــة من ١٢٠٠ مظلي ألماني بالهبوط بمظلاتها في ظروف سيئة؛ عند بزوغ الفجر؛ وذلك لتنفيذ مهمة طلائع هجوم الجيش البري الألماني في الأردين؛ وكانت هذه العملية من العمليات الفاشلة بسبب الأسلوب الخاطىء الذي تم فيه زج المظليين؛ وإنزالهم على أرض غير صالحة للإنزال وشديدة الوعورة؛ وكانت هذه العملية العقيمة هي آخر عمليات المظليين في الحرب العالمية الثانية.

ولكن مع ذلك كله؛ فقد أصبحت تلك التجارب؛ وما رافقها من تضحيات؛ هي المناورات التي أضاءت الطريق الصحيح لاستخدام المظليين.

لقد عملت القيادة الألمانية العليا على الإفادة من قدرة المظليين الحركية؛ لاستخدامهم على المستوى الاستراتيجي؛ والقيام بعملية اختراق عميقة؛ للوصول إلى قلب بلاد العدو. وقد ظهر ذلك واضحاً في النظرية التي تم الإستناد إليها في تنفيذ ثلاث من العمليات كان مسرحها في **النروج وهولندا**. وإنها لميزة كبرى؛ وخاصة أساسية من خصائص قوات المظليين والقوات المحمولة جواً؛ هي قدرتها على الوصول إلى مقر الحكم؛ واحتلال مقر الحكومة. مما يمكن من دحر العدو وتوجيه الضربة إلى قلبه مباشرة. وقد يبدو للوهلة الأولى أنه من المحال بلوغ هذا الهدف؛ إلا أن ظهور القوات وعملها في قلب مراكز دفاع العدو؛ يفقد المواقع الدفاعية كل ما لها من أهمية؛ ويعجل في انهيار المقاومة. كما أن عملية **كريت** قد حققت فكرة احتلال بلد بالهجوم عليه من الجو؛ وكان عملاً استراتيجياً جديداً حمل في جذوره أصالة عميقة.

كان الأسلوب التعبوي (التكتيكي) الذي استخدمته الوحدات الألمانية من قوات المظليين أسلوباً جديداً فعالاً وناجحاً؛ بسبب التعاون الوثيق بين المظليين وسلاح الجو خلال مرحلة التحضير للعملية؛ وقيام هذا الأخير بتقديم الدعم اللازم في مرحلة الإنزال (الهبوط) وخلال المعركة الأرضية. وذلك على أساس أن وحدات المظليين كانت تعاني من نقص الإمكانات اللازمة خلال مرحلة التحضير. وقد يكون السبب في ذلك هو الافتقار إلى التجارب والخبرات السابقة؛ وإلى عدم معرفة متطلبات المعركة الأرضية في أوساط القوات الجوية وأوساط أركان الوحدات، وقد ظهر ذلك واضحاً؛ على سبيل المثال؛ في معركة كريت. إذ كانت الخسائر الفادحة التي نزلت بالمظليين نتيجة طبيعية لنقص المعلومات عن طبيعة الأرض، وعن العدو؛ مما أدى إلى اختيار مناطق رديئة للهبوط؛ كما نتج عنها زج ثلاث مجموعات متعادلة من القوات، للعمل فوق مساحة واسعة من الأرض؛ وانفراد كل واحدة منها بالعمل وهي بمعزل عن الآخرين؛ دون تحديد واضح للمهام والواجبات، ودون

أي تنسيق للتعاون. ولو أن قيادة هذه القوات كانت تابعة لقيادة الجيوش الأرضية؛ وليست ملحقة بسلاح الجو؛ لكان من المحتمل أن تتعرض لنسبة أقل من الخسائر التي تنقص كثيراً عما تعرضت له خلال مرحلة قتالها الأرضي (البري).

أما في مجال التطور الفني (التقني) فإن مخططات تطوير المعدات والتجهيزات؛ قد أصبحت بعد العام ١٩٤١؛ غير قادرة على اللحاق بمتطلبات الحرب الحديثة؛ فحتى ذلك التاريخ؛ بقيت طائرة الجونكرز ـــ ٥٢ هي المركبة المستخدمة في عمليات النقل الجوي. وكانت هذه الطائرة تتميز بسرعتها البطيئة؛ مما كان يجعلها هدفاً تسّهل إصابته بنيران العدو الأرضية. كما كان من الصعب السيطرة على المظلة الألمانية بسبب كبر زاوية أرجحتها؛ من طرف إلى ما يقابله في الطرف الآخر؛ وكان قصر أحزمتها سبباً في صعوبة فكها، وتخلص الجندي منها فور وصوله إلى الأرض. ومن الممكن الإشارة هنا إلى أن الجنرال فون دير هايدت، كان قائداً للقوات التي قامت بتنفيذ آخر عملية من عمليات المظليين الألمان في شهر كانون الثاني ـــ يناير ـــ ١٩٤٤ في الأردين. ولما كانت ذراع هذا القائد مصابة بجراح؛ فقد استخدم مظلة روسية مثلثة الشكل؛ قليلة التأرجح؛ مما ساعده على القفز وحماية ذراعه الجريح. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد كان السبب في كثير من الكوارث؛ على نحو ما سبقت الإشارة إليه؛ هو ضعف مستوى المسؤولين عن التخطيط؛ وسوء اختيار هؤلاء؛ علاوة على قلة خبراتهم وتجاربهم. ففي كريت مثلاً؛ هبط عدد كبير من المظليين على مقربة من ماليم بسبب انطلاقهم من الطائرات في وقت مبكر. كما حدث أثناء هجوم الأردين، أن قامت سرية من المظليين بالقفز فوق الراين شمال بون. في حين كان يجب إنزالها فوق منطقة الهبوط الواقعة إلى الجنوب من أوين. وعلى كل حال؛ فإن النقاط الهامة التي يجدر تذكرها؛ تتركز حول الفكرة الرائعة لاستخدام المظليين الألمان في المجال الاستراتيجي؛ وأسلوبهم الناجح والفعال في تنفيذ عملياتهم ضمن إطار من التعاون الوثيق مع سلاح الجو؛ مما كان يغطي على نقاط الضعف التي كانت تظهر على مستوى التنفيذ التعبوي (التكتيكي) أو ضعف الوسائط الفنية. ويعود الفضل فيما أمكن تحقيقه من نتائج رائعة إلى الإمكانات التي تم توفيرها لممارسة هذا النوع من الأنواع القتالية؛ كما يعود إلى المستوى الرائع للوحدات؛ وما توافر لها من المزايا خلال تلك الحقبة التاريخية.

○

لقد كان من أبرز ميزات الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية؛ استخدامه للخيال المبدع؛ مع تنفيذه الجيد في مرحلتي التحضير للعمليات وتنفيذها. وقد ساعده على ذلك عاملان أساسيان هما:

١ ــ وجود جهاز ضخم من العناصر الممتازة بصلابتها وانضباطها الصارم والتي حملت اسم (جيش المئة ألف؛ أو الجيش الألماني المحترف للرايخ) وهو الجيش الذي شكله فون سيكت والذين جاءوا بعده.

٢ ــ توفير المناخ الملائم للعمل؛ وتأمين القدرة لمعالجة مشكلات الحرب الحديثة بعقلية متفتحة على الابتكار؛ ومتحررة من قيود الروتين التي تتعارض مع مصلحة القوات المقاتلة، والعاملة على تنظيم ذاتها؛ وتجهيز قواتها، دون الالتزام باستخدام المعدات القديمة؛ والوسائط القتالية المتخلفة.

ولذا فلم يعد هناك مجال للدهشة في أن تعمل القيادة الألمانية العليا للجيش بحثاً وتدقيقاً، من أجل إبداع وسيلة أفضل من وسائط الطرق والخطوط الحديدية؛ وذلك لحل مشكلة الحركة على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى العمليات في قتال الوحدات ضمن آفاق بعيدة. وكان من الطبيعي أن يتوجه التفكير نحو استخدام الفضاء. وهكذا؛ أصبحت الطائرة والمظلة والوحدات المحمولة جواً؛ موضوع التجارب الدقيقة؛ للإرتفاع بها إلى مستوى التشكيلات الكبرى. وقد جاءت ولادة هذه التشكيلات من أصل القوات الجوية (مثل فرقة المظليين السابعة) كما جاء البعض الآخر من صلب تنظيم القوات الأرضية (مثل فرقة المشاة المحمولة جواً ٢٢).

كانت القيادة الألمانية تبدأ بالنظرية؛ وتضعها تحت التجربة؛ مع تركيز الاهتمام واليقظة على النتائج المستخلصة والدروس المستفادة من التجربة؛ عبر استخدام الوسائط الجديدة (المبتكرة) وعبر قيام الوحدات بالتنفيذ وما يظهر فيه من نظام وانضباط؛ ويتم خلال ذلك استكمال جهاز الضباط الأعوان الملائم. ويتطلب الإلمام بالصورة الشاملة لهذه المراحل؛ البدء باستقراء المراحل التنظيمية، والفنية؛ التي عاشتها (فرقة المشاة المحمولة جواً ٢٢) خلال الفترة ما بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٠، للوصول بعد ذلك إلى أعمال هذه الفرقة المقاتلة في هولندا وكريت وسواها من المناطق. مع متابعة ما تعرضت له هذه الفرقة من التجارب والتطورات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

ب ـ تجارب الفرقة ٢٢ في هولندا وكريت

كانت فرقة المشاة ٢٢ تتكون بصورة أساسية من ألوية المشاة : ١٦ و ٤٧ و ٦٥ ، وكان كل لواء من هذه الألوية الثلاثة يضم ثلاثة أفواج . كما كانت الفرقة تضم فوج المدفعية ٢٢ المكون من أربع بطاريات . ولما كان الهدف من تشكيل هذه الفرقة هو الاضطلاع بواجب تشكيل رؤوس جسور جوية خلف خطوط العدو ، فقد بدأت التجارب على ذلك منذ العام ١٩٣٧ . وكان العمل مستمراً بإشراف اشتيودنت ، لوضع أسس العمل ، وتعديل الأساليب والمعدات على ضوء التجارب ؛ وما تحققه هذه التجارب من نتائج . وقد تم إعداد الوحدات وتنظيمها وتطويرها ، بعد تنفيذ عدد من تجارب الإنزال التي بدأت على مستوى الفوج ؛ ثم انتقلت إلى أفق أوسع عندما أجريت التجارب على مستوى اللواء . وقد عملت المصانع على انتاج المعدات اللازمة للأسلحة ؛ فقدمت معامل سكودا الأسلحة الثقيلة ؛ وجهزت الوحدات بالمدفعية من عيار ٧٥ مم . أما طائرة النقل فقد كانت الجونكرز ـ ٥٢ ، وقد تم تثبيت حجم الحمولة القادرة على نقلها كالتالي :

ـ ١٦ إلى ١٨ جندياً من جنود المشاة مع أسلحتهم الخفيفة وذخيرتهم الفردية .
ـ أو مدفع من عيار ٧٥ مم وحصان وسائق ورامٍ .
ـ أو مقطورة ذخيرة للمدفع ٧٥ مم والسدنة البالغ عددهم خمسة جنود .
ـ أو مدفع مضاد للطائرات من عيار ٢٠ مم مع سدنته وذخيرته .

تمت التجربة الأولى على مسرح العمليات في خريف العام ١٩٣٨ وذلك في أثناء احتلال **السوديت**[(١)] فقام لواء المشاة ١٦ ومعه وحدات من مظليي الفرقة السابعة ، بإعداد منطقة الهبوط في فرورنتال وليس من المعروف ما إذا كانت هذه العملية قد استرعت نظر القيادة العليا لقوات الحلفاء .

(١) السوديت : Sudètes منطقة جبلية في تشيكوسلوفاكيا ؛ تقع بين بوهيميا وسيليزيا وتمتد حتى تتصل بجبال الكاربات على ضفة نهر ألبا . ويبلغ طولها مئتي كيلو متر ؛ وتشتهر بغاباتها الجميلة وثروتها الباطنية (المناجم) الضخمة . وقد استوطنها الشعب الألماني ، مما دفع هتلر ـ والحزب النازي ـ إلى ضمها لألمانيا من سنة ١٩٣٨ حتى سنة ١٩٤٥ ثم أعيدت إلى تشيكوسلوفاكيا . وأعقب ذلك حركة نزوح واسعة للألمان نحو ألمانيا . وتبلغ مساحة المنطقة ٢٨٫٩٧٠ كيلو متراً مربعاً .

وعلى كل حال؛ فإن هذه العملية كانت مفيدة جداً بالنسبة للعملية التي تلت ذلك وهي **احتلال هولندا**.

لقد تطورت معركة هولندا بسرعة كبيرة؛ ولذا لم تتوافر الفرصة أمام فرقة المشاة المظليين ٢٢ للعمل بتنظيمها الكامل في المعركة؛ وذلك وفقاً لما كان مقرراً لها من قبل. وإنما اشتركت فيها بإرسال وحداتها مجزأة؛ فتشكلت مجموعة تعبوية مؤلفة من لواء مشاة المظليين ١٦، ومعه بطارية مدفعية، ومفرزة طبية، وفصيلة شؤون إدارية. وقد تم حمل هذه المجموعة جواً في يوم ٢٢ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩؛ وتم وضعها في منطقة ويغزبتشو. وقد ساهم ذلك في الاختراق الذي جاء عن طريق بورزا والذي تم كالتالي:

ــ اتخذت الفرقة لها مكاناً للتمركز يقع في ويستفاليا منذ شهر كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٣٩، وتلقت الأوامر بإجراء الاستعدادات للإنزال فوق أراضي هولندا.

ــ تلقى قادة مجموعات العمليات التعبوية الثلاث، أوامر العمليات في يوم ٨ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠.

ووفقاً لهذه الأوامر؛ كان على الفرقة ٢٢ أن تقوم بإنزال الألوية ٤٧ و ٦٥ فوق ثلاثة مناطق تحيط بمدينة لاهاي، وذلك إلى الشمال من التحصينات الهولندية. وتصبح مهمة الفرقة بعد أن يتم احتلال هذه المناطق على أيدي الفوجين الأول والثاني من اللواء الثالث؛ **التوجه إلى العاصمة واحتلالها؛ وعزل الحكومة؛ وأخذ الملكة أسيرة**.

تولى اشتيودنت بنفسه قيادة فرقة المظليين السابعة التي ألحق بها لواء المشاة المظليين ١٦ من الفرقة ٢٢ للعمل في جنوب التحصينات الهولندية. وحددت مهمة هذا اللواء بالعمل مع مظليي الفرقة السابعة لاحتلال روتردام والاستيلاء على جسور دوردريخت[٢] وحمايتها؛ والدفاع عنها؛ إلى أن تصل الوحدات المدرعة المنطلقة من آخن. ولكن العملية التي تم الإعداد لها بدقة تامة؛ وبتفاصيلها الكاملة؛ لم يقدر لها أن تنفذ بحسب ما كان مخططاً لها. فقد كانت الوحدات الهولندية في حالة استنفار. ولم يعد هناك مجال للمباغتة. ونتيجة لذلك؛ فإن هبوط ألوية المشاة المظليين ٤٧ و ٦٥ ونزولهم إلى الأرض؛ جاء فوق منطقة مزروعة ــ جزئياً ــ بالألغام؛ وتم الدفاع عنها بضراوة؛ حتى أن الإغارات الجوية التي مهدت للعملية؛ وجهود الموجة الأولى من المظليين؛ لم تتمكنا من إزالة المقاومة وإبطالها. كما أن النيران الكثيفة من أسلحة المشاة والمدفعية كانت في استقبال الموجة الأولى من فرقة المظليين ٢٢؛ لدى وصول هذه الموجة إلى الأرض؛ وبذلك ضاع الحلم الجميل بتحقيق المباغتة عن

---

(٢) دوردريخت: Dordrecht مدينة في البلاد المنخفضة (هولندا) ولها خليج (مرفأ) على نهر الموز، وقاعدة بحرية هامة. وهي مدينة تاريخية قديمة، تحتفظ بآثار هامة؛ وتشتهر بعدد من الصناعات الغذائية والكيميائية (الصيدلانية).

طريق التحرك الجوي. أما بالنسبة للطائرات الشراعية؛ فقد التهمت النيران بعضها لمجرد وصولها إلى الأرض. بينما اضطر البعض الآخر إلى العودة بحمولته ليهبط من جديد فوق أرض المطار الذي تم الإنطلاق منه؛ ذاته. في حين هبطت بعض الطائرات الأخرى مصادفة؛ وعلى غير هدى؛ ونزلت وسط الأقليم؛ أو فوق التلال؛ أو حتى فوق الدروب والخطوط الحديدية؛ وقد تحطم عدد من هذه الطائرات الشراعية ــ هذا كله ــ علاوة على اختلاط الطائرات بعضها ببعض؛ وهي لا تزال في الجو؛ وعلى محاور الإقتراب من الأهداف.

كان من نتيجة نقل وحمل القوات؛ ووصولها إلى مسرح العمليات على مثل هذه الصورة؛ أن تناثر المظليون فوق مساحة تقدر بثلاثين ميلاً مربعاً؛ وبذلك أصبح الغموض والاضطراب ووقوع ما هو غير متوقع أمراً محتملاً. وقد تميزت الظواهر الخاصة بعمليات هؤلاء المظليين؛ بانعزال الوحدات الملتحمة وضياعها وعجزها عن تنفيذ مهامها بحسب ما كان مخططاً لها؛ بالإضافة إلى نقص التجهيزات والإمدادات. وعلى سبيل المثال؛ فقد وجدت قيادة الفرقة ذاتها وهي عاجزة عن مزاولة إدارة معركة الفرقة بسبب ضياع الأجهزة اللاسلكية ذات القدرة العالية. ولم يبق أمامها إلا أن تقاتل باعتبارها قوة من قوات المشاة العادية. وقد انضم إليها بعض العناصر من وحدات راكبي الدراجات وأفراد من الفصيلة الجبلية؛ وعناصر من وحدات الاستطلاع والمظليين ورجال المدفعية، بدون مدافعهم.

قام الضابط؛ رئيس الخدمات الطبية للفرقة؛ بجمع مفرزة من مئتي رجل من مختلف الوحدات وانطلق بهم للقتال. أما قائد لواء المدفعية ٢٢؛ وكان برتبة عقيد؛ فقد استطاع احتلال جسر دوردريخت ونظم الدفاع عنه، بمدفع واحد، بينما كان قائد الشرطة العسكرية يقاتل مع عناصر المشاة.

وهكذا؛ فإن الفرقة ٢٢ التي قامت بإنزال ألفي مقاتل من قواتها؛ تمزقت على شكل أربع عشرة مجموعة؛ بينما بقي هناك خمسة آلاف مقاتل مع أسلحتهم الثقيلة بعيدين عن المعركة. كما عجزت عناصر الخدمات الطبية عن اللحاق بالمعركة. وفي هذا الموقف؛ لم يكن باستطاعة لواء المشاة المظليين ٤٧؛ الذي تم إنزاله إلى الشمال من الهاغ، أن يمارس معركته بحسب ما كان مخططاً له؛ وكذلك الأمر بالنسبة للواء المشاة المظليين ٦٥؛ الذي تم إنزاله إلى الغرب من الهاغ[٣] وإلى الجنوب منها.

بذلت القيادة الألمانية العليا أفضل ما يمكن بذله من الجهود خلال ليلتي ١٠ و ١١ أيار

---

(٣) الهاغ: La-Hague عاصمة الشمال الغربي من اقليم كوتنتان Cotentin وهو الاقليم الذي يشكل شبه جزيرة في حوض النورماندي والذي يتقدم داخل بحر المانش.

ـــ مايو ـــ من أجل تنفيذ المهمة التي بدأت بالفشل؛ فتخلت نهائياً عن محاولاتها للاستيلاء على العاصمة. وأصدرت أوامرها إلى كافة وحدات الفرقة ٢٢ للتوجه إلى روتردام والهجوم على المدينة من الشمال؛ والعمل لدعم مظليي الفرقة السابعة الذين كانوا يحاصرون المدينة من الجنوب بقيادة اشتيودنت. وهكذا كان الإنزال الوحيد الذي تم تنفيذه بدقة؛ ووفقاً لما كان مخططاً له؛ هو ذلك الذي قامت به وحدات لواء المشاة المظليين السادس عشر؛ والذي تم قرب وولهافن الواقعة إلى الجنوب من روتردام والتي تم احتلالها مع أول ضوء.

قامت مجموعة تعبوية مؤلفة من لواء المشاة المظليين السادس عشر؛ بأوامر المقدم فون غوليتز، وكان مع اللواء بطارية مدفعية، وسريتا مهندسين، وبطارية مدفعية مضادة للطائرات، وفصيلة طبية. وقد هبطت هذه القوة بطائراتها الهيدرولية، فوق سطح مياه نهر الموز ـــ في قلب روتردام ذاتها ـــ وتمكنت وحدات المظليين من احتلال منطقة طولها عشرة أميال وعرضها ستة أميال؛ ثم دافعت عن هذه المنطقة لمدة ثلاثة أيام ضد الهجمات الهولندية التي كانت هجمات غير منسقة؛ تفتقر للتعاون؛ وتبرز منها الروح المعنوية اليائسة. **ولقد اتصلت مجموعة المظليين الألمان هذه، بقوات فرقة مدرعات البانزر التاسعة في يوم ١٣ أيار ـــ مايو ـــ وفي اليوم التالي تمت عملية الاستيلاء على روتردام وبذلك انتهت عملية احتلال هولندا؛ وبدأت القيادة الألمانية بإخلاء قواتها وسحبها**. كانت الخسائر التي نزلت بالمظليين فادحة؛ إذ وصلت حتى ٤٢ بالمئة في الضباط و٢٨ بالمئة بين صفوف الضباط والجنود. هذا بالنسبة لمجموع الألفين التابعين للفرقة ٢٢؛ أما بالنسبة للطائرات فإن تسعين بالمئة من أصل طائرات الجونكر؛ التي اشتركت في حمل الموجة الأولى من المظليين؛ قد ذهبت ولم تعد إلى قواعدها.

لقد استطاعت عملية المظليين؛ على الرغم من كل ذلك؛ أن تحقق فائدة كبرى؛ إذ أنها تمكنت من تجميد ثلاث فرق هولندية؛ وتثبيتها في مواقعها خلال تلك الأيام الحاسمة؛ كما أنها أوقعت القيادة الهولندية العليا؛ في حالة من الحيرة والإرتباك؛ بالإضافة لما أصاب الروح المعنوية من الانهيار.

إن غزو هولندا؛ واندحارها خلال خمسة أيام ١٠ ـــ ١٥ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٤٠، قد جاء نتيجة لمخطط استند في أساسه على الحركة الجوية أو النقل الجوي. ذلك لأن عملية النقل الجوي هي التي وضعت الحل المناسب والناجح لعدد من المشكلات الصعبة؛ مثل إرسال الدعم بسرعة إلى القوات؛ ونقل الحد الأدنى من القوات ـــ بصورة عامة ـــ وزجها ضد قوات الحلفاء (الانكلو ـــ فرنسية ـــ البلجيكية). وبهذه الوسيلة أمكن تحقيق نصر كامل؛ فوق أراضي إقليم كان من الصعب التحرك فوقه بأي وسيلة من وسائل النقل العادية السهلة؛ وذلك بسبب كثرة القنوات المائية؛ والعوائق الطبيعية؛ ووفرة الفيضانات على أرضه.

كانت القوات الهولندية تتكون من أربعة ألوية قوية؛ ومن عدد آخر من التشكيلات الصغرى؛ وكان لهذه القوات ميزة هامة هي قدرتها على استخدام المواقع الدفاعية المجهزة والحصينة. ولكن القيادة الألمانية قررت تجاوز هذه المواقع؛ ووجهت ضربتها الحاسمة إلى قلب المواقع الدفاعية الهولندية مباشرة وذلك بالهجوم على القلعة الهولندية؛ وهي المركز القومي للدفاع؛ ولهذه الغاية، تم تشكيل الفيلق المظلي الذي ضم فرقة المظليين السابعة؛ وفرقة المشاة المظليين ٢٢ .

كانت أهداف الهجوم في هولندا مزدوجة: فكان الهدف الأول استراتيجياً ـــ سوقياً، وكان الهدف الثاني سياسياً. وقد تقرر أن يتم احتلال النقاط الهامة والمسيطرة على موردجيك؛ ودوردريخت؛ وجسور روتردام، بواسطة القوات المنقولة جواً؛ وبذلك يتم تحقيق الهدف الأول. أما الهدف الثاني فهو اعتقال الملك والعائلة المالكة وأعضاء الحكومة وأفراد القيادة الهولندية العليا؛ وعزلهم عن العمل، وكانت هذه هي مهمة المظليين. ولقد تمت دراسة هذه العملية بدقة وبصورة تفصيلية ـــ على نحو ما سبق ذكره ـــ وإن الهدف من إعادة الإشارة إليها وذكرها من جديد؛ هو من أجل إعادة النظر في العمليات الفاشلة التي قامت بها فرقة المظليين ٢٢ وتقويمها بصورة صحيحة. وفي الواقع؛ فإن الألفي رجل فقط والذين تمكنوا من الهبوط بالقرب من الهاغ، كانوا لا يستطيعون القيام بتنفيذ هذه المهمة؛ والاستيلاء على العاصمة التي كانت تدافع عنها قوات ضخمة تزيد كثيراً على حجم مجموعة المظليين. ولكن هذه العملية لم ينظر إليها بصورة كافية من زاوية النظر الاستراتيجية ـــ السوقية. ولو تم ذلك لكانت نتائجها الهامة قد ظهرت مباشرة وبصورة واضحة للعيان. ولقد عمل فرع التاريخ العسكري للجيش الهولندي على إيضاح هذه الصورة؛ فسجل ما يلي: «**لقد انهار الفيلق الهولندي الأول بفرقتيه؛ مع الوحدات الاحتياطية الأرضية التابعة للقيادة الهولندية. وكان ذلك بنتيجة المباغتة؛ كما تبددت الهجمات فوق المواقع الدفاعية القريبة. وانسحبت ثلاثة ألوية من خطوطها الدفاعية في الجنوب، بينما كان بقاء تلك القوات في خطوطها ومواقعها أمراً أساسياً وهاماً. هذا بالإضافة إلى الفوضى التي هيمنت على أوساط القيادة؛ والرعب النفسي والشلل الذي أصاب الحكومة**». وقد يكون هناك فشل تعبوي (تكتيكي)، ولكن مما لا جدال فيه؛ فقد كان هناك نصر استراتيجي حاسم؛ وأن الفضل في ذلك يعود للمباغتة الناتجة عن استخدام النقل الجوي.

إنه لأمر مؤسف من الناحية الأكاديمية (المدرسية) ألا تتوافر دقائق تفصيلية عن يوميات عمليات المظليين؛ وألا يكون هناك سجل أوامر العمليات، ولكن ما أمكن معرفته قد يكون كافياً لتحديد واستخلاص النتيجة التالية: «بما أن الهدف الأساسي من الحرب هو قهر العدو؛ أينما كان؛ وإلحاق الهزيمة به؛ فإن هذه الوحدات المدربة على ممارسة القتال الهجومي، بدرجة عالية من الكفاءة؛ قد استطاعت أن تتلاءم بسرعة مع المواقف غير المتوقعة التي برزت أثناء تنفيذ العمليات،

وتمكنت من تحويل الفشل في المخططات إلى نصر ساحق على أرض المعركة. وتبقى الحقيقة المستخلصة من ذلك، هي أن القوة الأولى في الحرب؛ والمعين الأساسي لها؛ هو في أيدي الرجل؛ فهو الذي يقاتل وهو الذي ينتصر».

لم تشترك فرقة المظليين ٢٢ أبداً بعد معركة هولندا؛ في أية مهمة من مهام المظليين؛ على أساس أنها وحدة كاملة يجب لها أن تعمل ضمن تشكيل أكبر. ولكن استعداداتها للقتال؛ وتجاربها من أجل تنفيذ ذلك بقيت مستمرة. ففي نهاية شهر أيار ــ مايو ــ ١٩٤١؛ صدر الأمر إلى لواء المشاة المظلي السادس عشر؛ بالاستعداد للهبوط في نارفيك[٤] ولكن هذه المهمة لم تنفذ. ثم تمركزت فرقة المظليين ٢٢، بعد شهر تموز، في هولندا، وأخذت بالاستعداد للإنزال على أرض انكلترا؛ وتركزت التعليمات على توجيه التدريب نحو استخدام كافة الأسلحة الانكليزية، وإجراء الرمي عليها بالذخيرة الحية ضد كافة الأهداف الأرضية؛ وممارسة ذلك في الليل والنهار. ثم نقلت الفرقة في شهر شباط ــ فبراير ــ ١٩٤٢ إلى منطقة مغدبورغ[٥] بألمانيا، من أجل إكمال دورتها التدريبية؛ وذلك بالتعاون مع فرقة المظليين السابعة. وخلال هذه الفترة تم تسليح لواء مدفعية فرقة المظليين بالمدافع من عيار ١٠٥ مم، والقادرة على إجراء رماياتها ضد الأهداف التي تبعد حتى مسافة خمسة آلاف وخمسمئة ياردة. وكان يتم قطر هذه المدافع بقاطرات صغيرة مجهزة بصندوق للتوابع وأدوات لفك المدافع وتركيبها. كما تم استبدال الخيول بقاطرات عادية من أجل حمل الذخائر ونقلها على أرض المعركة.

إن قيام ألمانيا باحتلال قارة أوروبا؛ بمساحتها الواسعة؛ وما تبع ذلك من ضرورة المراقبة لها؛ والسيطرة عليها، قد حمل القيادة الألمانية على استخدام قوات المظليين وزيادة الاعتماد عليها. وكان ذلك الاستخدام على جانب كبير من الأهمية. وعلى سبيل المثال: فقد قامت مجموعة تعبوية من الفرقة ٢٢، مكونة من لواء المشاة ١٦، والفوج الثاني من لواء المشاة ٦٥، وفصيلة استطلاع، وتحركت إلى **رومانيا** بالطائرات في نهاية شهر آذار ــ مارس ــ ١٩٤٤. كما تم وضع المخططات لإنزال المظليين فوق إقليم اسكوبلج في يوغوسلافيا. ولكن هذه المهمة لم تنفذ بسبب وعورة الأرض، وكثرة تضاريسها؛ ثم لتوافر إمكانات نقل القوات بالآليات على الطرق الجبلية؛ ووصولها بالسرعة المطلوبة ذاتها للتدخل.

لقد كان من الطبيعي استخدام الفرقة ٢٢ في عملية إنزال عن طريق الجو للهبوط فوق أراضي

(٤) نارفيك: Narvik مدينة لها خليج (ميناء) على نهر اوفتنفجورد في النروج Ofotenfjord واشتهرت بالمعارك الضارية التي وقعت فيها بين الحلفاء والألمان في الأسبوع الثاني من معركة النروج سنة ١٩٤٠.

(٥) مغدبورغ: Magdebourg وبالألمانية Magdeburg مدينة في ألمانيا وهي عاصمة اقليم الساكس؛ على نهر ألبا: Elbe ولها خليج كبير على النهر.

كريت، وذلك في شهر أيار ــ مايو ــ ١٩٤٤؛ ذلك لأن هذه الفرقة كانت في الأصل فرقة جبلية. وهكذا أقلعت طائرات الجونكرز ــ ٥٢ حاملة معها هذه الفرقة دون أي تدريب أو إعداد مسبق، وذلك بمهمة دعم المظليين والوحدات المنقولة جواً بالطائرات الشراعية. وقد تم تخصيص مجهود الفرقة للمهمة الخطرة؛ وهي الدفاع عن حقول البترول في بلودستي، ضد أي عمل تخريبي، قد تقوم به قوات العدو من المظليين.

أما بالنسبة للحرب ضد الاتحاد السوفييتي، فقد تم استخدام الفرقة ٢٢ ضمن إطار عمليات مجموعة جيوش الجنوب، وذلك للإفادة من قوة هذا التشكيل القتالي الكبير، لتشكيل رأس حربة (قوة متقدمة) في أوكرانيا. وقد تم تنفيذ هذه المهمة بنجاح إلى أن تم الاستيلاء على سيباستوبول[٦] في الأول من تموز ــ يوليو ــ ١٩٤٢. واضطلعت الفرقة بتنفيذ الأعمال القتالية التي كلفت بها بشكل رائع. وقد تم سحب هذه الفرقة في نهاية شهر تموز ــ يوليو ــ بسبب ما تعرضت له من الخسائر الفادحة والتي لم تتعرض لها أية فرقة من فرق الجيش الألماني حتى نهاية الحرب؛ ونقلت من الجبهة الشرقية إلى اليونان؛ من أجل إعادة تنظيمها؛ وإكمال تجهيزها بمختلف التجهيزات المتنوعة؛ استعداداً للقيام بتنفيذ المهام المختلفة؛ أي للعمل إما باعتبارها فرقة من فرق المظليين؛ وإما للعمل على أساس أنها فرقة من فرق المشاة الميكانيكية (الآلية) للقتال على مسرح العمليات المحتمل من أرض أفريقيا الشمالية.

كانت النية متجهة بشكل طبيعي لاستخدام الفرقة على أرض مسرح عمليات أفريقيا الشمالية؛ وإنزالها على مقربة من مواقع القتال في العلمين. وقد عكفت الفرقة على إجراء دراسة خاصة للمشكلات الرئيسة التي تلازم تنفيذ مثل هذه العملية مثل: نقل الأسلحة والتجهيزات الثقيلة، وعربات النقل الكبيرة؛ والجرارات؛ ومدافع الميدان القذافة ــ الهاوتزر ــ من عيار ١٠٥ مم؛ وعربات الاستطلاع المدرعة؛ وقد تمت تجربة نموذج الطائرة الجديدة ج ــ م ــ أو ٣٢٣، التي كانت تستطيع حمل ونقل مئة جندي؛ وكان باستطاعة هذه الطائرة ذات ستة المحركات؛ أن تقوم بالهبوط على الأرض مثلها كمثل طائرة الهجوم؛ وذلك بفضل تجهيزها بالمعدات والأدوات اللازمة؛ وكان باستطاعتها أن تنقص من سرعتها بوساطة المكابح (الشكائم) وعن طريق عجلاتها البالغ عددها عشر عجلات. كما تم اعتماد نموذج الطائرة الشراعية المعدلة القادرة على نقل الحمولة ذاتها؛ وكان بالمستطاع سحب هذه الطائرة وجرها بوساطة طائرة هينكل ١١١ ــ ز، ذات المحركات الخمسة. هكذا ابتدأت الفرقة ٢٢ عملياتها باستخدام الطائرة القديمة والمتينة وهي الجونكرز ــ ٥٢، ذات حمولة ٢ طن. وانتهت باستخدام طائرة النقل الثقيلة الهينكل ١١١ ــ ز، والتي تستطيع حمل

(٦) سيباستوبول: Sébastopol مدينة من مدن الاتحاد السوفييتي حالياً، تقع على البحر الأسود؛ وكانت لقرون عديدة تابعة للدولة العثمانية وتحمل اسم الأخيار Akhiar.

١٠ ــ ١٣ طن من الأعتدة الثقيلة . وكان من أكثر ميزات هذه الطائرة أهمية هي قدرتها على الهبوط فوق مهبط أرضي لا يزيد طوله على بضع مئات من الياردات .

كانت هيئة أركان حرب الفرقة ٢٢ تتابع في الوقت ذاته وضع المخططات للعملية ، وكانت آخر مهمة طلب منها إجراء التحضير لتنفيذها ؛ هي الاستعداد للهبوط فوق أرض منطقة قناة السويس . ولكن الواقع الذي كان من الصعب تفسيره أو إيجاد مسوّغ له في ظروف الحرب العالمية الثانية ؛ والذي أصبح الآن واضحاً ؛ هو أن ألمانيا كانت تعاني من الخسائر الفادحة التي تعرضت لها ، ولذا عملت القيادة الألمانية العليا على إيقاف مخططاتها التوسعية ؛ والاقتصاد في استخدام فرقة المشاة المظليين ٢٢ ، وذلك حتى نهاية سنة ١٩٤٤ ، حيث تم وضع الفرقة بعد ذلك في كريت ، من أجل إعادة تنظيم الفرقة على كافة المستويات ؛ مما يسمح باستخدامها كفرقة مشاة ميكانيكية (آلية) وبقيت هناك في انتظار أية بادرة لاحتمال نزول الحلفاء فيها . وهكذا بقيت الفرقة طوال فترة كبيرة ؛ دون أن تقوم بأي دور فعّال ؛ وبدون أية فائدة ؛ فيما عدا مساهمة بعض عناصرها في عمليتي إنزال للمظليين ؛ وفي عملية إنزال برمائي واحدة . وكانت العملية الأولى من أصل العمليتين اللتين سبق ذكرهما ؛ هي تلك التي تم تنفيذها في نهاية شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ــ من العام ١٩٤٢ . وقام بتنفيذها الفوج الثالث من لواء المظليين السابع ؛ فأقلعت طائرات الجونكرز ــ ٥٢ وهي تحمل هذا الفوج ، وتم إنزال مظلييه في طبرق بمهمة الاشتراك في حماية انسحاب القوات الألمانية نحو تونس . أما العملية الثانية ؛ والتي اعتبرت من عمليات الاقتحام البالغة الأهمية بالنسبة لمجموعات المظليين التعبوية (التكتيكية) ، فقد قام بتنفيذها فوجان من لواء مشاة المظليين ٤٧ ، ومعهما بطارية مدفعية من لواء المدفعية ٢٢ المضاد للطائرات ، والمسلح بالمدافع الرباعية ؛ بالإضافة للمدافع المضادة للدبابات من عيار ٧٥ مم ؛ ومدافع الهاوتزر ؛ وكلها وحدات ميكانيكية . وقد تم تحريك هذه المجموعة مع كامل أسلحتها ووسائطها ، وذلك في منتصف شهر تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ من العام ١٩٤٢ . وقد تم تنفيذ هذا التحرك على مرحلتين ؛ المرحلة الأولى من أثينا إلى أوجينو في إيطاليا ، وتم في هذه المرحلة استخدام طائرات الجونكرز ــ ٥٢ وطائرات ام ــ أو ــ ٣٢٣ . أما المرحلة الثانية فكانت من أوجينو إلى تونس ، حيث قامت طائرات الجونكرز ــ ٥٢ بنقل الأفراد ؛ بينما تم نقل الأعتدة والوسائط القتالية الثقيلة عن طريق البحر . وقد وقعت هذه القوات في قبضة الحلفاء عند رأس بونة ــ عنابة ، وتم أسر عناصرها يوم ٩ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٣ .

شهدت نهاية العام ١٩٤٣ عملية مشتركة ؛ قامت بها مجموعة تعبوية من المظليين بالمساهمة في عمليات الاستيلاء على عدد من جزر الدوديكانيز [٧] في كوس وكاليمنوس وليروس وساموس .

---

(٧) الدوديكانيز : Dodécanèse اسم يطلق على مجموعة الجزر الاثنتي عشرة في البرزخ الواقع بين ايطاليا واليونان . كانت تحت

وعودة إلى يوم ٢ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ ١٩٤٣ ؛ ففي هذا اليوم تم احتلال جزيرة كوس بهجوم مباغت ؛ حيث هبطت سرية من لواء المظليين الثاني ؛ وقامت بهجومها في الوقت الذي كان يتم فيه إنزال برمائي لقوات المجموعة التعبوية (التكتيكية) المكونة من وحدات لواءي المشاة ١٦ و ٦٥ ومعها بطاريتا مدفعية. كما كان يدعم هذه المجموعة فوج من لواء براندنبورغ. وفي يوم ١٢ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ابتدأ الهجوم على ليروس، وقام المظليون من الفوج الأول من لواء المظليين الثاني بالقفز مع أول ضوء فوق أرض الجزيرة. أما لواءي المظليين ١١ و ١٦ ، فقد عملا على تنفيذ عملية إنزال برمائية خلال فترة الصباح. ووقعت معركة عنيفة ؛ ضارية ؛ استمرت حتى يوم ١٦ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ حيث انتهت العمليات بسقوط القوات الانكليزية وقائدها الجنرال تيلني في قبضة القوات الألمانية. وكان هذا النجاح الأخير في الجزر النائية للبحر الأبيض المتوسط، نهاية ما وصلت إليه الأحلام العظيمة عن القيام بإنزال كبير يتم بواسطته إقفال قناة السويس؛ وشطر الامبراطورية البريطانية إلى شطرين.

هكذا ؛ قاتلت فرقة المشاة المظليين ٢٢ على أنها فرقة من فرق المشاة الراجلة خلال الفترة من نهاية العام ١٩٤٣ حتى شهر آب ـــ اغسطس ـــ ١٩٤٤ ، ثم أخذت في الانسحاب والتراجع عن طريق اليونان ـــ يوغوسلافيا في الفترة ما بين نهاية العام ١٩٤٤ وبداية العام ١٩٤٥ ، إلى أن نجح الحلفاء في أسر هذه الفرقة في ١١ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٤٥ .

لقد أكدت مجموعة التجارب التي عاشتها فرقة المشاة المظليين ٢٢ مجموعة من الحقائق والدروس المستخلصة من أعمال المظليين ؛ ومن هذه الحقائق والدروس ما هو تعبوي (تكتيكي)، ومنها ما هو فني (تقني)، ومنها ما هو بالروح المعنوية التي هي أساس عمل هذه القوات المختارة. ويتلخص الدرس التعبوي (التكتيكي) في أن إجراء التجارب باستمرار ؛ وعلى كافة المستويات ؛ وإعادة التجارب والتمارين في أكثر المواقف تبدلاً ؛ وأشدها تعقيداً ؛ وفوق جميع الأنواع من الأراضي ؛ هو الذي يسمح بانتقاء ـــ وليس بفرض ـــ مجموعة القواعد والأسس والأساليب التي يمكن اللجوء إليها واستخدامها في العمليات. وقد كان التفكير المبرمج (المنهجي) وإجراء التماس مع الواقع ؛ هو الذي يبعث الحياة من جديد في المواقف اليائسة ؛ والمآزق الصعبة التي هي من طبيعة الحرب ذاتها ؛ وكان هذا هو المنقذ من الخطر ، خطر الفشل بالاصطدام على صخور العقلية النظرية الصرفة. ولقد وجدت الفرقة ذاتها مجبرة على تعديل واجباتها ومهامها ؛ في مناسبات كثيرة ؛ بسبب ظهور بعض الضرورات القاهرة. ولكن هذا التعديل كان يأتي عرضياً ؛ إذ كانت الفرقة تحاول دائماً أن تبقى على استعداد للإضطلاع بمهامها الخاصة وواجباتها الأساسية.

حكم الأتراك العثمانيين ؛ ثم احتلتها ايطاليا سنه ١٩١٢ وتخلت تركيا عنها لايطاليا بموجب معاهدة لوزان ١٩٢٣ ، ثم أعيدت إلى اليونان سنة ١٩٤٦ فشكلت منها ومن جزيرة رودس (مجموعة جزر بحر ايجه).

أما من الناحية التقنية (الفنية) فإن المشكلة الرئيسة التي كانت تعترض أعمال المظليين هي ضرورة توفير الإمدادات بالأسلحة الثقيلة والمركبات (الآليات) والعربات المدرعة والمواد التموينية؛ وغير ذلك مما كانت تحتاجه الوحدات بعد القفز والوصول إلى أرض المعركة؛ ومما يعتبر توافره شرطاً أساسياً لنجاح المعركة. وقد أمكن حل هذه المشكلة عندما أمكن استخدام طائرات الجونكرز ـــ ٥٢ في البداية، ثم طائرات م ـــ أو ـــ ٣٢٣ بعد ذلك؛ وكان للألمان دور الريادة؛ وإحراز قصب السبق؛ في مجال تحرك القوات المسلحة.

ويبقى الدرس الأساسي الذي أكدته عمليات المظليين الرئيسة، والتي قامت بتنفيذها الفرقة ٢٢، هو أن الروح المعنوية يجب أن تكون عالية، وعلى أرفع مستوياتها؛ ذلك أنه إذا لم تتوافر مثل هذه الروح؛ فإن أفضل المخططات إعداداً؛ وأدقها إحكاماً؛ تبقى مجرد قصاصات ورقية؛ ولو تم الاعتماد على هذه المخططات فقط، والاستسلام لها؛ لكان أمر الوقوع في مواقف شديدة الخطورة ـــ من حيث النتائج ـــ أمراً محتملاً. لقد كان إعداد المخططات يتم طبقاً للنظرية قدر المستطاع؛ كما كان يتم استخلاص أوامر العمليات؛ من هذه المخططات، بشكل منطقي، مع مراعاة أكثر التفاصيل دقة؛ وكانت هيئات الأركان تعتبر أن الاضطلاع بهذا العمل هو واجب من أقدس واجباتها. ولكن؛ سيبقى من الأمور الثابتة؛ بأن أسباب نجاح المعركة مع العدو، إنما يعتمد أولاً، وإلى حد كبير على قدرة الرجال وعلى روحهم المعنوية وإرادتهم القتالية. وتبقى القدرة الكبرى في العمليات كافة في قلب الوحدات؛ وما تمتلكه من إرادة هجومية؛ كما تبقى رهناً لإمكانات الضباط وقدرتهم على المبادأة، وما يتوافر لهم من الفضائل الحربية والخيال المبدع. كل ذلك إلى جانب الإنضباط وروح الإقدام والاستعداد الدائم للتضحية؛ مما يجب توافره دائماً في القوات المقاتلة؛ وعلى كافة المستويات.

○

ج ـ القوات المحمولة جواً في النروج

لم يكن إبداع اشتيودنت والقيادة الألمانية في استخدام الفضاء لنقل القوات؛ والوصول مباشرة إلى قلب المعركة؛ إلا تعبيراً عن طموح القيادة الألمانية للوصول إلى هدفها بأقصر الطرق وأسهلها. مما أبرز القيمة الحقيقية لمجموعة من مبادىء الحرب؛ مثل المباغتة والإمساك بالمبادأة وحرمان العدو من حرية العمل العسكري الخ... وقد تحقق ذلك كله بفضل (استراتيجية التقرب غير المباشر) التي جاءت بديلاً عن (استراتيجية التقرب المباشر، والهجمات الجبهية العقيمة والباهظة التكاليف). ولقد أبرز الهجوم الألماني على النروج في شهر نيسان ـ ابريل ـ ١٩٤٠ هذه الحقائق جميعها بفضل استخدام النقل الجوي للقوات الأرضية. ولقد كان حجم القوات التي تم نقلها جواً؛ محدوداً وصغيراً؛ ولكن مجرد ظهور القوات المنقولة جواً على مقربة من مواقع العدو، كان كافياً لتمكينها من احتلال النقاط الهامة؛ والاستيلاء على التحصينات القوية بسهولة. وبذلك تم إحراز نصر حاسم وسريع على عدو كان يمتلك التفوق العددي، فوق أرض مسرح العمليات. ولقد كان لهذه الظاهرة أبعادها الشاسعة؛ فعن طريق استخدام هذا الأسلوب الجديد في القتال؛ أصبح بالمستطاع زج قوات يتم نقلها من مسافة بعيدة عن أرض المعركة؛ وذلك لتوجيه ضربة مادية (جسدية) ونفسية إلى قلب العدو. ومثل ذلك كمثل الملاكم الذي تلقى ضربة على كليته أو قلبه فانهار مباشرة وسقط على الأرض. وهذا هو ما حدث بدقة في اجتياح النروج التي تميزت بالروح الهجومية العالية للقوات الألمانية؛ والتي كانت باكورة عمليات النقل الجوي في الأعمال القتالية. لقد وضع احتلال النروج في العام ١٩٤٠؛ القيادة الألمانية العليا أمام مشكلة ذات صعوبة خاصة؛ وهي مشكلة فرضت ذاتها على الصناعة وعلى الاقتصاد؛ كما فرضت ذاتها على البحرية وعلى الاعتبارات السوقية (الاستراتيجية). وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد تسبب في التورط بغزو الدانمارك وذلك للإفادة من مطاراتها. وكان يجب القيام بتنفيذ عملية غزو النروج بأقل حجم ممكن من القوات؛ وإنجاز المعركة خلال أقصر فترة زمنية ممكنة؛ وذلك لأنه على الرغم من طبيعة هذه المعركة، وكونها معركة ثانوية؛ إلا أنه كان يجب حساب نتائجها واتخاذ قراراتها بسرعة. وكان هناك هدف هام يكمن وراء ذلك؛ وهو عدم التورط بحرب طويلة الأمد؛ قد تستنزف الكثير من الجهود والإمكانات في إقليم يتميز باتساعه

الكبير، وبجباله الكثيرة الوعرة. ولقد ظهرت الخطورة الكبرى لتلك المشكلة بشكل واضح للغاية، ويمكن إدراك أبعادها من خلال التصريح الذي نطق به قائد القوات البحرية الألمانية في يوم ٩ آذار ــ مارس ــ ١٩٤٠ والذي جاء فيه: «إن من واجبي أن أوضح ميزات هذه العملية البحرية وخصائصها؛ ذلك لأنها تسير مخالفة لكل الدروس البحرية المستخلصة عبر التاريخ. ونتيجة لذلك؛ فإنه يجب أن تكون لنا السيادة المطلقة على البحر. وإننا لم نحصل على السيادة بعد...» وبالإضافة إلى هذه الكلمات المحذرة المنذرة؛ فقد ذكر قائد القوات البحرية الأميرال ريدر، الملاحظة القوية التالية: «إن تاريخ الحرب يشتمل على الكثير من الأمثلة التي كانت مخططاتها ومشاريعها تتحدى جميع أنظمة الحرب؛ وترفض قواعدها؛ وهي مع ذلك تمكنت من إحراز النصر؛ ذلك لأنها برهنت على امتلاكها للعناصر التي تضمن تحقيق المباغتة». وقد جاء تنفيذ العملية بعدئذ؛ مطابقاً لأصل مفهوم هذه النظرية التي تم الاستناد إليها. كان على مخطط غزو النروج أن يجابه تنفيذ عمليتين اثنتين في اليوم الأول. وتهدف الأولى إلى إنزال جوي مباغت، للإستيلاء على موقعين يمكن بواسطتهما القيام باحتلال أوسلو و ستافانجر ثم العمل بعد ذلك على دعم هذه القوات بإنزال بحري؛ وكانت هذه هي العملية الثانية.

لقد كانت أوسلو هي الهدف الرئيسي؛ ولم يكن ذلك بسبب أهميتها العسكرية فحسب؛ وإنما أيضاً بسبب أهميتها السياسية. فبحرها ومطاراتها وخطوطها الحديدية وطرق مواصلاتها كل ذلك جعل منها أكثر القواعد قرباً من ألمانيا؛ وأكثرها تهديداً لها. كما أنها كانت تضم مقر الحكومة النروجية، ومركز قيادتها العليا؛ ومقر الملك هاكن. وقد جاءت مخططات العمليات بالوسائل لتحقيق المباغتة اللازمة لاعتقال أعضاء الحكومة والقادة العسكريين وحاشية الملك؛ وذلك بهدف ضمان الغرض لعدم قيام أية مقاومة أمام عملية احتلال النروج. أما ستافانجر فقد كانت تضم الميناء اللازم والضروري لإنزال القوات الرئيسة المخصصة لغزو جنوبي النروج؛ وكان مخطط احتلالها يهدف إلى توفير سلامة إنزال القوات البحرية من جهة؛ وعزلها عن أي تدخل قد يأتي عن طريق تنظيمات وقوات العدو البعيدة جداً؛ من جهة أخرى. **وكان مخطط الإنزال الجوي واحداً بالنسبة للمدينتين:**

تقوم سرية من المظليين بالهبوط مع أول ضوء؛ وبعد أن يتم الإنزال فوق أرض المطار؛ ويتم للمظليين احتلاله؛ تأتي الموجة الثانية بعد ذلك، وتتألف هذه من مجموعة تعبوية مكونة من فوجين من أفواج المشاة، ومعهم سرية مهندسين، ومجموعة مدفعية مضادة للطائرات؛ ومجموعة مدفعية؛ ومفارز لمراقبة المطار. وقد تم وضع عدد كبير من تشكيلات طائرات النقل تحت تصرف المجموعة ٢١ المكلفة باحتلال النروج؛ والتي كانت بقيادة الجنرال هولكن هورست، وكانت هذه التشكيلات تضم: ٧ مجموعات من طائرات النقل تحمل الأرقام من ٧٠١ إلى ٧٠٧ وتشمل

بمجموعها على ٥٥٠ طائرة جونكرز ــ ٥٢ س، ذات محركين وتستطيع كل واحدة منها حمل ٢٥ مظلياً؛ بالاضافة إلى ٢٠ طائرة جونكرز ٩٠ ــ س، ذات أربع محركات وتستطيع كل واحدة منها حمل ٤٠ مظلياً.

غادرت القوافل البحرية المحملة بالأعتدة الموانىء الألمانية يوم ٣ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤٠؛ وفي الوقت ذاته كانت المراكب البحرية ــ الحربية المحملة بالجنود تستعد لمغادرة الموانىء الألمانية يوم ٦ نيسان ــ ابريل ــ بينما كان على التشكيلات الجوية لطائرات النقل أن تقلع من المطارات في الساعة الواحدة من صباح يوم ٩ نيسان ــ ابريل.

كانت عملية الهجوم على ستافانجر ناجحة؛ وقد بدأت العملية بتمهيد من قنابل الطائرات التي قامت بإلقائها طائرات الشتوكا. ثم قامت سرية المظليين الثالثة من اللواء الأول باحتلال مطار سولا، وقد تم لها ذلك؛ دون أن تضطر لإطلاق ولو طلقة واحدة. وبعد ذلك بفترة قصيرة قامت المجموعة التعبوية من لواء المظليين ١٩٣؛ بالهبوط فوق أرض المطار؛ وفي نهاية فترة الصباح من ذلك اليوم؛ تم إجراء التماس مع القوات الرئيسة القادمة من طريق البحر.

ولكن العملية الرئيسة ذات الأهمية الخاصة من الناحية السياسية؛ والتي كانت تهدف إلى احتلال وارسو لم تلق من النجاح؛ ما لقيته العملية الأولى. وذلك على الرغم من أنه في اليوم السابق للعملية، وهو يوم ٨ نيسان ــ ابريل، كان رئيس أركان المجموعة ٢١ العقيد برهلمان قد وصل إلى اوسلو بواسطة مركب صغير (لنش) وهو متنكر بثياب مدنية؛ وذلك لتوجيه وحدات المظليين؛ هذا بالإضافة إلى ضابط آخر كان يعمل في السفارة الألمانية في اوسلو. وقد استخدم مركباً آخراً في فجورد ومكث ينتظر وصول القافلة البحرية؛ ولكن ظهرت مجموعة من العوامل أعاقت تنفيذ العملية بشكل دقيق؛ بحسب ما كان مخططاً لها.

لقد جاءت موجة من الضباب الكثيف فغطت أرض المطار مع أول ضوء من يوم ٩ نيسان ــ ابريل ــ ولهذا فإن سرية المظليين لم تتمكن من إجراء القفز. وعندما وصلت الطائرات الأولى من مجموعات طائرات النقل؛ كان في استقبالها نيران كثيفة من الأسلحة المضادة للطائرات. وهكذا أصبح لزاماً على طائرات الهجوم المقاتلة أن تتدخل لإبطال عمل الأسلحة المدافعة عن مطار فورنبو. وبنتيجة ذلك، لم تتمكن المجموعة التعبوية من قوات اللواء ٣٢٤ من الوصول إلى أرض المطار قبل الساعة ٨ر٤٠، أي بتأخير ثلاث ساعات عن الوقت المحدد من قبل. وكذلك لم يصل حتى الساعة ١٢ر٠٠ من القوات إلا ست سرايا فقط من المظليين الأول. ولم تكن هذه القوة بقيادة العقيد بوهلمان كافية لاقتحام أوسلو ولهذا أرسل طلباً لتحريك الاحتياط، ونقله بسرعة عن طريق الجو. أما الإنزال البحري؛ فقد جاء بدوره متأخراً عن موعده؛ وكان سبب التأخير هو تعرض الطراد

بلوخر للغرق في مياه خليج فجورد والذي كان يحمل على متنه هيئة أركان القوات البحرية؛ وهيئة أركان فرق المشاة ١٦٣ . وبنتيجة ذلك؛ كانت عملية الإنزال إلى الشاطىء في حالة من الاضطراب الشديد.

كانت هناك فرقتان نروجيتان تدافعان عن المحيط الخارجي للعاصمة اوسلو : الفرقة النروجية الأولى وواجبها الدفاع عن العاصمة من الشمال، والفرقة النروجية الثانية وواجبها الدفاع عن جنوب العاصمة. هذا بالإضافة إلى ٨ سرايا من قوات المظليين الخفيفة المكلفة بالدفاع داخل العاصمة. غير أن الهجوم المباغت على قلب القلعة النروجية قَلَبَ مخططات الدفاع رأساً على عقب؛ وأصيبت القيادة النروجية بصدمة عنيفة لم تتمكن من الإفاقة منها بسهولة، فساد جو من الحيرة والتردد على أعمالها؛ مما ساعد الألمان على متابعة تنفيذ مخططهم؛ وتطوير هجومهم. ووصل فوجان من الأفواج الألمانية إلى العاصمة اوسلو يوم ١٠ نيسان ــ ابريل ــ وقاما بإجراء عرض عسكري في شوارع المدينة. وتبع ذلك نقل فوج ثالث إلى العاصمة يومي ١١ و١٢ نيسان ــ ابريل ــ عن طريق الجو. بينما كانت آخر وحدات الكتلة الرئيسة للهجوم تغادر رصيف الميناء الألماني؛ وتركب البحر في طريقها إلى النروج.

لقد جاءت الضربة الحاسمة عن طريق الصدمة التي وجهتها قوات المظليين والقوات المنقولة جواً؛ خلال الساعات الأولى من العملية. كما اضطلع النقل الجوي بدور كبير في نقل قوات الدعم وإرسال الإمدادات؛ وبذلك أمكن التغلب على الأزمة التي وقعت في اليوم الأول؛ ولكن فشل الهجوم المباغت في الوصول إلى العاصمة بهدف أسر الملك وأعضاء الحكومة، قد مكن هؤلاء من الفرار وتنظيم المقاومة. ولقد برهن النقل الجوي خلال هذه العملية على أهميته من جديد؛ عندما تطلب الأمر دعم الحامية الألمانية في نارفيك، والتي كانت مرغمة على التراجع في اتجاه الحدود السويدية؛ أمام هجمات القوات الانكلو ــ فرنسية المرسلة لدعم جبهة القتال في النروج. ولقد لخصت القيادة الألمانية العليا الموقف في يوم ١٩ أيار ــ مايو ــ بالكلمات التالية: « **بسبب تناقص القوة الألمانية في نارفيك وتعرضها للكثير من الخسائر؛ فقد أصبح كلُ شيء متوقفاً على إرسال الإمدادات بسرعة عن طريق الجو؛ وإيصالها إلى القوات** ».

وهكذا؛ فعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية؛ وعلى الرغم من تدخل سلاح الجو الملكي البريطاني؛ فقد تمكن الألمان من إرسال الإمدادات؛ وإنزالها بصورة خاصة بالمظلات. وبهذه الوسيلة ذاتها تم إرسال فوج من المظليين، وسريتين من القوات الجبلية إلى شمالي النروج. وقد تم تدريب السريتين الجبليتين على ممارسة القفز بالمظلات خلال فترة عشرة أيام فقط. وفي يوم ١٢ حزيران ــ يونيو ــ قامت سرية من المظليين بالقفز من طائراتها الجونكرز ــ ٥٢ س، وذلك فوق منطقة في أقصى الشمال من النروج؛ وتمكنت من احتلال ترومسو.

قام سلاح الجو الألماني خلال هذه المعركة ببذل جهود جبارة؛ أمكن بواسطتها تنفيذ ما يزيد على ثلاثة آلاف طلعة طيران؛ كان من أصلها ألف ومئتا طلعة لنقل التجهيزات والمعدات؛ أما الطلعات الباقية؛ فقد تم بواسطتها نقل القوات. فبالنسبة للجيش الأرضي؛ تم نقل ٢١ فوجاً من المشاة والمهندسين، و٩ وحدات من أركان قيادات الفرق والألوية؛ بالإضافة إلى عدد من بطاريات المدفعية الجبلية؛ وما يزيد على أربعمئة طن من المعدات والوسائط القتالية والإمدادات. أما بالنسبة للجيش الجوي؛ فقد تم نقل ألف ومئتي طن من الوقود، ومئات من رجال الخدمات الفنية وصيانة الطائرات.

لقد كانت عملية النروج؛ أول عملية تضمنت استخدام النقل الجوي على نطاق واسع في تاريخ الحرب. ولقد ساعد استخدام هذا الأسلوب الجديد في القتال القوات الألمانية على إحراز نصر سريع وحاسم. كانت تجربة حرب النروج تجربة رائدة؛ وعلى الرغم من قصر مدتها؛ وتسارع أحداثها؛ فقد عكف الباحثون والمؤرخون على دراستها في محاولة لاستخلاص الدروس الهامة منها؛ والتي كان من أبرزها:

١ ــ في ظروف الحرب الحديثة؛ وعندما تدور المعارك فوق مناطق واسعة؛ وضد خصم يتفوق عددياً؛ يكون من الأهمية بمكان؛ أن تصبح القوات الأرضية قادرة على استخدام وسائل النقل الجوي؛ ومستعدة للإفادة من مرونتها؛ وذلك بهدف تحقيق المباغتة في التدخل؛ والعمل من قلب المواقع الدفاعية للعدو؛ لأن من شأن ذلك أن يقلب موازين القوى لدى الخصم؛ وإن فوجاً واحداً يتم إنزاله مع الفجر، فوق النقاط الرئيسة؛ قد يستطيع القيام بعمل لا تستطيعه عشرة ألوية زاحفة عن طريق الأرض؛ ولا تستطيع الوصول إلى أهدافها قبل المساء.

٢ ــ تغاير الأهداف وتنوعها مما تطاله أيدي المظليين في ظروف الحرب الحديثة. مثل طرق المواصلات؛ والمطارات؛ والموانىء؛ والمصانع؛ ومناطق المناجم، بالإضافة إلى مراكز قيادات المقاومة والتنظيمات المسلحة المعادية ومقرات القيادات العسكرية؛ ومراكز الإدارات المدنية (الحكومات).

٣ ــ إمكانات الوحدات المحمولة جواً وقدراتها على حل المشكلات بقوة وسرعة وبالحد الأدنى من الخسائر. وهذا هو سبب تفوق وحدات المظليين والقوات المنقولة جواً على كل ما عداها من صنوف الأسلحة.

لقد أفادت قيادة الحلفاء من تجربة النروج ــ بصورة خاصة ــ وما تلاها من تجارب المظليين الألمان. وسرعان ما أخذت هذه القيادات في السير على هذا النهج ذاته وتطويره وفقاً لما توافر لها من القدرات والإمكانات. وقد يكون ذلك وحده كافياً لإعطاء تجربة النروج صفة (الريادة).

○

د ــ المظليون في مقدمة قوات اجتياح الغرب

جاء في مذكرات الجنرال غامَلان[8] الفقرة التالية: «إن احتلال الألمان للجسور القائمة على نهر الموز وماستريتش؛ صباح يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠، واحتلالهم قلعة بن أميل التي كانت جزءاً من تحصينات لييج، قد جاءَ بمثابة ضربة أذهلت العقول».

لقد كان احتلال المظليين الألمان للجسور القائمة فوق قناة ألبرت؛ واستيلاء وحداتهم على التحصينات الحديثة والقوية لقلعة بن أميل كان انتصاراً تعبوياً موضعياً؛ إلا أنه مكن القيادة الألمانية العليا من القيام بالتوسع الاستراتيجي لمعركة مايس ــ حزيران (أيار ــ يونيو) عام ١٩٤٠. وعلى كل فقد أحيط الهجوم المباغت للمظليين بالألغاز والأسرار. وأضيفت إليه هالة أبرزت الخيال المبدع والجريء الذي مكّن من التخطيط للعملية وتنفيذها. ولقد عملت القيادتان الألمانية والبلجيكية حديثاً على نشر الوثائق المتعلقة بهذه العملية؛ مما ساعد على تكوين فكرة حقيقية عنها.

واجه المخطط الألماني؛ في بداية الحرب العالمية الثانية؛ موضوع سحق التعاون الانكلو ــ فرنسي؛ وذلك عن طريق إحياء المخطط القديم المشهور باسم (مخطط شليفن) والموضوع لتلبية متطلبات الحرب العالمية الأولى؛ وهو المخطط الذي تضمن القيام بعملية التفاف واسعة عبر السهول الشمالية لبلجيكا وفرنسا من أجل تطويق قوات الحلفاء وتدميرها. وكان العيب الرئيسي في ذلك المخطط هو بعده عن الواقعية.

كانت فكرة هتلر التي دعمتها حسابات بعض عقول الضباط الخصبة مثل الجنرال مانشتاين تهدف إلى إجراء تغيير المبدأ الأساسي لمخطط الهجوم؛ وكانت النتيجة ظهور فكرة المناورة الاستراتيجية التي تميزت بإحداث ثغرة واسعة في المجنبة اليمنى، تكون بمثابة هجوم خادع (تضليلي) لخداع قيادة الحلفاء عن مكان الهجوم الحقيقي للقوات الرئيسة، والذي حدد موقعه ليكون في الوسط ــ أي في سيدان ــ مع اتخاذ الترتيبات اللازمة لإزالة العوائق التي تعترض محور الاختراق.

(٨) غاملان: Gamelin - Maurice Gustave قائد فرنسي من مواليد باريس سنة ١٨٧٩؛ وأصبح قائداً أعلى لقوات الحلفاء من أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩ حتى أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠ م.

وتقرر بعد ذلك إعطاء الثغرة اليمنى بعضاً من الإتساع؛ ومزيداً من القوة؛ لحمل القيادة العليا للحلفاء على الاعتقاد بأنها المحور الرئيسي للهجوم الألماني. فتعمل على دفع قواتها نحو هذا الاتجاه؛ وتتوغل في العمق؛ وبعد وقوعها في المصيدة المهيأة لها، يمكن الإطباق عليها (محاصرتها) وتدميرها.

كان على كتلة القوات الألمانية الرئيسة؛ أن تواجه بمجرد انطلاقها من كولونيا في اتجاه بروكسل مجموعة العوائق المتمثلة بقناة ألبرت وتحصينات لييج. فإذا ما نجحت التشكيلات الانكلو ــ فرنسية الضخمة باحتلال مواقعها الدفاعية، مقابل هذا المحور؛ فإن المعركة ستتحول إلى عملية إبادة؛ وتضيع فرصة المباغتة؛ ويصبح من المحال تنفيذ أية محاولة لاختراق الأردين عن طريق (الهجوم الجبهي). ولهذا كان العمل من أجل إبطال دور هذه العوائق أمراً أساسياً، لا بد من تنفيذه بأقصى سرعة ممكنة، أي خلال الأربع والعشرين ساعة من بداية الهجوم. ولم يكن باستطاعة الهجوم الجبهي المباشر أن ينجز ما يجب إنجازه؛ بأي شكل من الأشكال.

كان العمل في بناء قناة ألبرت قد انتهى منذ العام ١٩٣٠، وتم بذلك وصل ميناء أنتويرب بنهر الموز. وكانت هذه القناة لا تبعد عن الحدود الألمانية بأكثر من تسعين ميلاً. وقد شكلت فعلاً حاجزاً منيعاً أمام تقدم الدبابات، يتراوح عمقه بين ستين ومئة قدم. وكانت ضفة القناة الغربية تستند إلى عدد من التحصينات الصغيرة المجهزة بحقول رمي. وكانت هناك ثلاثة من الجسور القائمة فوق القناة، في كل من كاون وفرونهوفن وفيلدويزلت. وكانت هذه الجسور مجهزة بعبوات ناسفة؛ كما كانت تدعمها خنادق ومراكز محصنة؛ وكانت الحامية المدافعة عن الجسر مسلحة باستمرار بمدفع مضاد للدبابات من عيار ٤٧ ملم. بالإضافة لمدفع رشاش؛ غير المدفع الرشاش الآخر في الملجأ المبني بالأسمنت المسلح. كانت الحامية المدافعة عن كل جسر من هذه الجسور تتكون من مجموعة تعادل السرية؛ وهذه المجموعات مشكلة من وحدات تابعة إلى لواء المشاة الثاني؛ وإلى لواء الخطوط الثامن عشر؛ وجميع هذه الألوية من تنظيم فرقة المشاة البلجيكية السابعة. وعلاوة على ذلك؛ فقد كان وضع المياه في قناة ألبرت ونهر الموز؛ مماثلاً لما هو عليه اليوم؛ مما كان يضع محاور الإقتراب من هذه الجسور تحت سيطرة قلعة بن أميل القوية؛ وقد كانت هذه القلعة من أكثر تحصينات لييج قوة ومنعة. فهي تتربع على مرتفع يقارب المئة والثلاثين قدماً فوق مستوى قناة ألبرت. وكان وجه القلعة المقابل لاتجاه الشمال ــ الغربي يشكل منحدراً قوياً. كما كانت تشمل أعمالاً هندسية قد صممت وفقاً لأحدث الأساليب التي أمكن اختراعها؛ وتم تجهيزها بأحدث التجهيزات والوسائط القتالية. ولقد كانت قلعة بن أميل ذاتها؛ تشكل مستطيلاً يبلغ طوله ٩٢٠ متراً؛ أما عرضه فيبلغ ٧٣٠ متراً. وكانت الحامية المدافعة عن القلعة تضم ١٢٠٠ مقاتل؛ تم تسليحهم بمدفعين من عيار ١٢٠ ملم و١٦ مدفعاً من عيار ٧٥ ملم؛ بالإضافة إلى عدد كبير من المدافع الرشاشة للرمي ضد القوات الأرضية وضد الطائرات. هذا

علاوة على المدافع المضادة للدبابات ومدافع الهاون. وكان من المحتمل جداً أن تستطيع هذه القوة المحافظة على مواقعها؛ وأن تنجح في صد هجوم الألوية الألمانية؛ لو تركت لها الفرصة لاستخدام أسلحتها. إلا أن فترة التوتر التي رافقت فصل الربيع من العام ١٩٤٠؛ وما رافقها من استنفارات متتالية؛ قد جعلت من العسير الإلتزام بدقة بمتطلبات الدفاع من اليقظة المستمرة.

لم تكن تحصينات لييج تحتوي على العمق اللازم للدفاع؛ ولهذا فقد تم دفع فرقة المشاة البلجيكية السابعة لتنظيم عدد من المراكز الدفاعية. وقد كانت هذه العملية في واقعها عبارة عن عملية تشتيت لقوات هذه الفرقة، ونشرها على مساحة أرضية شاسعة وصلت جبهتها حتى أحد عشر ميلاً.

يمكن بعدئذ تصور موقف القيادة الألمانية العليا بصورة بدهية؛ فهي لن تتمكن من البدء بتنفيذ عملياتها الهجومية؛ وهي لن تحاول الإقتراب لمسافة تقل عن العشرين ميلاً من القناة؛ ما لم يتم لها احتلال الجسور القائمة فوق القناة؛ وما لم يتم تأمينها والمحافظة عليها بحالة سليمة قبل أربع وعشرين ساعة على الأقل. كما أن تدمير قلعة بن أميل الحصينة؛ يجب أن يتم قبل أربع وعشرين ساعة أيضاً من بدء الهجوم. **وعلى هذا؛ فإن تنفيذ المخطط الاستراتيجي بأكمله؛ وإخراجه إلى عالم الوجود؛ كان يعتمد اعتماداً كاملاً على إيجاد الحل المناسب لهذه المشكلة التعبوية (التكتيكية).**

لم يكن باستطاعة القوات الأرضية؛ الاضطلاع بأعباء هذه المهمة؛ لذلك استنجد هتلر بوحدات المظليين التي كانت تعيش شباب عمرها؛ والتي كانت تفوق في حماستها واندفاعها غيرها من القوات؛ وكانت هذه القوات تحت قيادة اشتيودنت الذي عمل على تنسيق التعاون بين فرقة المظليين السابعة وفرقة المشاة المظليين ٢٢، لإنتقاء العدد اللازم من العناصر ممن سيتم إنزالهم فوق التحصينات البلجيكية. وبعد أن تم اختيار وانتقاء هذا العدد القليل؛ أنيط بهم أمر حل مشكلة قناة ألبرت وتحصينات بن أميل.

وهكذا تقرر توجيه الضربة الجريئة والقوية عن طريق إنزال وحدات من الجو في قلب وحدات العدو؛ وفوق أراضيه؛ ولكن كانت هناك مجازفة خطيرة؛ إذ إن عملية الإنزال هذه ستتم في وسط الحامية اليقظة والمستنفرة والمستعدة لاستخدام أسلحتها ومعداتها القوية والفعالة. ولذا فإن فرص النجاح كانت تتوقف على مقدار ما يمكن تحقيقه من المباغتة؛ وما تخلفه هذه المباغتة من الذهول خلال الدقائق القليلة؛ واستغلال ذلك لإزالة العدو وتدميره؛ أو منعه ــ على الأقل ــ من القيام بأي عمل خلال المرحلة الأولى من العملية. ولما كانت طائرات نقل المظليين، تثير الكثير من الضجيج؛ فلم يكن استخدامها محتملاً أو مقبولاً في هذه المهمة. وهنا برزت فكرة استخدام الطائرات الشراعية لتحقيق هذه الغاية لأنها تستطيع الإقتراب بصمت من أهدافها. وعلاوة على

ذلك ؛ فقد كانت هناك حمولة كبيرة من المعدات الفنية الثقيلة ، والتي لا غنى عنها لتدمير المواقع وإبطال الملاجىء المحصنة ؛ ووضعها خارج العمل . ولم يكن بالمستطاع إنزال هذه المعدات بواسطة المظلات .

إن الاستخدام الجريء لاثنين من العناصر الجديدة في الحرب ؛ وهما : الطائرة الشراعية والحشوة الجوفاء ؛ واستثمارهما بشكل رائع ؛ هو الذي أتاح فرص النجاح أمام الألمان ؛ ولم يبق بعد ذلك إلا مرحلة واحدة وهي إعداد الفصائل التي ستقوم بالهجوم ، وإكسابها الخبرات والتجارب الضرورية ؛ وتدريبها على استخدام الوسائل اللازمة للعملية .

كانت طائرة الهجوم الشراعية الألمانية د ف . س ــ ٢٣ ، قادرة على نقل حمولة جيدة تعادل طناً واحداً . فإذا تم الطيران في الليل ؛ وإذا تم انفصال الطائرات الشراعية عن الطائرات التي تقطرها فوق الحدود الألمانية ــ البلجيكية ؛ وعلى ارتفاع ثمانية آلاف قدم ؛ فإنها تستطيع أن تبدأ الهبوط بزاوية قدرها ثماني درجات ؛ وتسبح في الفضاء بسرعة ثمانية أميال في الساعة ؛ وهكذا وعندما تصل إلى ما فوق الهدف ؛ تكون قد أصبحت على ارتفاع ألف قدم من أرضه ؛ وإن هذا الارتفاع يسمح للطيار بأن يختار منطقة جيدة للهبوط . وكان باستطاعة هذه الطائرة أن تحمل في جوفها جماعة انقضاض مكونة من ثمانية أو تسعة مقاتلين ؛ ومعهم حشوة جوفاء يبلغ ثقلها (وزنها) مقدار مئة ليبرة . أما بالنسبة للحشوة الجوفاء ؛ فكانت تنقسم إلى قسمين ؛ يبلغ ثقل كل منهما خمسين ليبرة . وكان يحيط بالمادة الشديدة الانفجار غلاف معدني . وكان شكل الحشوة كما يدل عليه اسمها (مجوفة) وعلى شكل هرمي مقعر . مما كان يعطيها قدرة تدميرية كبيرة قادرة على اختراق درع معدني بسمك ١٠ إنشات ؛ أما نصف الحشوة ؛ أو انبوب الخمسين ليبرة ؛ فقد كان باستطاعته اختراق مسطح معدني يتراوح سمكه فيما بين ٥ و ٦ إنشات .

وأخذ مخطط العملية ، اعتباراً من هذه اللحظة ؛ بالظهور على شكله الصحيح .

تقوم الطائرات الشراعية بالإقلاع من المطارات الألمانية في الليل ؛ وجميعها مقطورة بعضها إلى بعض بواسطة طائرتين ؛ وقبل وصول هذه القطارات الجوية إلى الحدود ؛ يتم انفصال الطائرتين القاطرتين عن رتل الطائرات الشراعية التي تبدأ بدورها في الإنضمام على شكل أربع مجموعات ؛ وذلك للهبوط بصمت ؛ ومع أول ضوء من أضواء الشفق فوق الجسور الثلاثة ؛ وفوق قلعة بن أميل . وعندها يبدأ الهجوم مباشرة بقوة وضراوة ؛ وتستخدم فيه القنابل اليدوية ؛ والمسدسات الرشاشة ؛ وقاذفات اللهب ، والحشوات الجوفاء . وكان يجب الانتهاء من تحقيق المهمة الرئيسة خلال فترة ربع ساعة فقط ؛ تتمركز بعدها جماعات الهجوم في أماكنها المخصصة لها ؛ وذلك في انتظار وصول القوات البرية .

أصدر الجنرال اشتيودنت أمره بتكليف السرية الأولى من لواء المظليين الأول ومعها فصيلة الاستطلاع التابعة لقيادة الفرقة السابعة بتنفيذ مهمة الهجوم هذه؛ وإخراج خطة العمليات إلى عالم الوجود. وقد وضع تحت تصرف هذه القوة ٥٠ طائرة شراعية نموذج د. ف. س ٢٣، وذات العدد من طائرات الجونكرز ـــ ٥٢. س، وتمت تسمية هذه القوة باسم قائد السرية المكلفة بالهجوم النقيب كوخ.

بدأت الاستعدادات لتنفيذ العملية مع نهاية العام ١٩٣٩ م، حيث أجريت دورة تدريبية على أرض مماثلة تماماً لأرض المعركة. وقد بذلت في هذه المرحلة الجهود الجبارة لحل المشكلات التي كانت تظهر خلال التمارين، بأسلوب ناجح وذهن متوقد. ولذا جاءت الحلول عملية وواقعية؛ وكان يتم تطويرها بعد ذلك للوصول بها إلى درجة الكمال؛ وذلك عن طريق إعادة التجارب والاختبارات. وتم خلال مرحلة التدريب هذه إعداد طياري الطائرات الشراعية وتدريبهم على ممارسة الطيران بمجموعات؛ أثناء الليل والنهار؛ وكانت الطائرات الشراعية تحلق وهي مقطورة إلى طائرة الجونكرز بواسطة حبل طوله ٢٣٠ قدماً. ثم جاءت مرحلة التدريب على الهبوط الدقيق في حالة الرؤية؛ وذلك بوضع الطائرة الشراعية عند الهبوط على مسافة لا تزيد على عشرين ياردة من النقطة المحددة لها. كما تم تدريب طياري الطائرات الشراعية جميعاً على مزاولة أعمال القتال الأرضي حتى يشتركوا في الهجوم على الأهداف. أما الحشوة الجوفاء ذاتها؛ فقد خضعت هي الأخرى للتجارب؛ وتم استخدامها لتدمير تحصينات كزيك في بوهيميا. كما تمت تجربتها في الخنادق البولونية؛ قرب ليبجنيتز. وفي شهر آذار ـــ مارس ـــ ١٩٤٠، أجريت تجربة الهجوم فوق منطقة تدريب دوسلدورف واستخدمت في هذه التجربة الذخيرة الحية؛ كما استخدمت الطائرات لنقل القوات؛ وأمكن بناء نموذج يماثل في شكله وأبعاده لما كانت عليه قلعة بن أميل واستخدم هذا النموذج لتدريب عناصر الاستطلاع. وفي الوقت ذاته؛ أعطيت الأوامر للوحدات التي ستقوم بدعم هذه العملية؛ وتم تلقينها واجباتها بالتفصيل؛ وكان مخطط دعم العملية كالتالي:

بعد ربع ساعة من وصول المظليين إلى الأرض؛ وبدء الهجوم؛ كان على تشكيلات من طائرات الإنقضاض الشتوكا ومن الطائرات المقاتلة؛ أن تقوم بالتحليق فوق مناطق الجسور الثلاثة وفوق القلعة؛ في الوقت الذي تكون فيه إحدى طائرات الاستطلاع تقوم بالتحليق ـــ باستمرار ـــ فوق أرض المعركة؛ وكان على المدفعية الثقيلة والبعيدة المدى؛ أن تقوم بتجهيز رماياتها وتحضيرها للتدخل بناء على طلب القوات والذي يتم إرساله باللاسلكي؛ وذلك اعتباراً من فترة الضحى وإلى ما بعد ذلك، وأخيراً تم تكليف فرق البانزر المدرعة الأربع؛ بتأمين الاتصال مع المظليين خلال فترة ما بعد الظهر؛ ثم ضمهم إلى قوتها؛ ووضعهم تحت قيادتها لتوجيههم نحو الأهداف الجديدة؛ وفي

مقدمتها: الإفادة من الجسور السليمة والتي لم يتمكن العدو من تدميرها؛ والاندفاع في التقدم نحو بروكسل.

اتخذت تدابير أمن مشددة للمحافظة على السر؛ وكان ذلك على جانب كبير من الأهمية لضمان نجاح العملية، وتحقيق المباغتة؛ وقد كانت هذه التدابير ذات طابع مسرحي. فخلال ستة أشهر من الانتظار والاستعداد ــ قبل العملية ــ تم عزل مجموعات الهجوم عزلاً كاملاً؛ وجرى حجزها في هيلدشيم، كما تم وضع الطائرات الشراعية في كولونيا في مستودعات (هنكارات) مموهة، وأغلقت هذه المستودعات؛ وتركت موصدة؛ فلم تثر أي شك؛ ولم تلفت إليها حتى أنظار قيادة المطار ذاته. ذلك لأنها كانت تحمل بصورة علنية وصفاً خادعاً: «أعتدة خاصة لتشكيل الستائر الدخانية». وأخيراً ظهرت المخططات النهائية للعملية:

يقوم النقيب كوخ، ومعه عناصر قيادته باستخدام طائرتين شراعيتين للهبوط فوق أرض منطقة الجسر الأوسط (جسر فرونهوفن)، ويعمل على تنظيم مركز قيادته هناك، بينما تقوم تسع طائرات شراعية بنقل المجموعة المكلفة بالهجوم على هذا الجسر والاستيلاء عليه. أما الجسران الآخران؛ وهما جسر كاون، وجسر فيلدويزلت، فقد تقرر أن تقوم باحتلال كل جسر منهما مجموعة مكونة من حمولة عشر طائرات شراعية.

يقوم الملازم ويتزيغ بالهبوط مع ١١ طائرة شراعية، فوق قمة قلعة بن أميل. على أن تلحق بها على الفور قوة مكونة من ١٠ ضباط و٣٥٥ صف ضابط وجندي. وخصصت ٤٢ طائرة شراعية لنقل هذه القوة ووضعها في قلب المواقع الدفاعية للعدو. وكان على مجموعة الملازم ويتزيغ أن تحمل معها كمية ٢٫٥ طن من المتفجرات لاستخدامها في تدمير تحصينات قلعة بن أميل وتنظيماتها الدفاعية.

تقرر إنزال فصيلة من أربعين مظلياً؛ يتم إنزالهم بالمظلات من طائرات الجونكرز ٥٢ ــ س ومعهم المدافع الرشاشة الثقيلة؛ وكان على مفارز هذه الفصيلة أن تقوم بالهبوط بعد وصول وحدات الهجوم إلى الجسور بمدة أربعين دقيقة؛ وذلك بمهمة دعم القوات المهاجمة، والدفاع عن الجسور بعد أن يكون قد تم احتلالها.

هكذا وصلت مرحلة التحضير للعملية بكاملها؛ إلى دراسة وإعداد أكثر التفاصيل دقة. وانتهى أمر تحديد الوسائل الواجب استخدامها؛ والإمكانات الواجب توافرها من خلال كل ما أمكن اكتشافه أثناء التجارب السابقة. وكانت كل فرضية ممكنة؛ وأي احتمال غير متوقع؛ موضعاً لدراسة دقيقة وعناية خاصة. فجاء المخطط بنتيجة ذلك بسيطاً بقدر ما كان جريئاً؛ وتميز بقدرته على تحقيق المباغتة فنياً وتعبوياً. ولكن؛ وحتى آخر لحظة قبل التنفيذ؛ فإن فرص النجاح أمام المخطط

كانت رهناً بقدرة الرجال الذين سيعملون على تنفيذه . إنهم يقيناً ؛ لم يكونوا يعرفون بأن لديهم ميزات كبرى سيضعونها في خدمة الهجوم الذي جاء مع فجر يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠ ، ولكنهم سيبرهنون على وجودها .

صدر الأمر الإنذاري لكل من هيلدهيم وكولونيا ؛ حوالي الساعة ١٤ر٢٠ من يوم ٩ أيار ــ مايو ــ وتحركت مجموعة الهجوم مباشرة فاستقلت الطائرات ؛ وانتقلت إلى مطارين ثانويين في كولونيا ؛ حيث وصلتهما في الساعة ١٨ر٣٠ . وكانت الأحوال الجوية مناسبة للغاية .

حدد موعد الهبوط وبداية الانقضاض ليكون في الساعة ٥ر٢٥ حسب التوقيت الألماني ؛ من صباح يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ أي قبل خمس دقائق فقط من الموعد المحدد لعبور الجيش الألماني الحدود الهولندية ، والبلجيكية ، واللوكسمبورغ . **فكيف كان الموقف على الطرف الآخر ــ في الجسور وقلعة بن أميل ؟**

تلقت قيادة قلعة بن أميل وقيادة سرية حرس الحدود (راكبي الدراجات) وهي المسؤولة عن الدفاع وحماية الجسور الثلاثة ؛ برقية بين الدقيقة العاشرة والدقيقة الثلاثين من فجر يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ وتضمنت ما يلي : « **استنفار ؛ اعتباراً من الدقيقة ١٠ صباحاً ، توقف كافة الإجازات** » . كما تلقت الوحدات المتمركزة في القطاع أمراً مماثلاً . وتم على أثر ذلك إعداد العبوات الناسفة المدمرة للجسور وتجهيزها للعمل . ووجه إلى السكان المدنيين إنذار بالابتعاد عن الحدود التي أصبحت منطقة حرب . واحتل المدافعون مواقعهم خلال نصف ساعة .

أقلعت مجموعات الطائرات الألمانية من قواعدها ؛ بحيث انفصلت آخر طائرة شراعية عن أرض المطار في الساعة ٤ر٤٠ . وكانت قد تمت إضاءة اثنين من الشوارع ما بين كولونيا وآخن لتوجيه الطائرات على الاتجاه الصحيح . كما استخدمت المنارات البحرية والأنوار الكاشفة المضادة للطائرات ، بهدف تأكيد الاتجاه الواجب اتباعه . وأخيراً ؛ فقد تم تحديد ألوانٍ خاصة من الأضواء لتحديد مكان النقطة التي يبدأ من فوقها انفصال الطائرات القاطرة عن الطائرات الشراعية المقطورة ؛ واعتباراً من هذه النقطة كانت تبدأ مرحلة الاقتراب الصامت من الهدف فوق أراضي الاقليم السابح في الظلام . وقد تم اختيار محور الاقتراب المناسب بحيث تصل الطائرات الشراعية إلى أهدافها وهي متقدمة من اتجاه الغرب ؛ أي وكأنها قادمة من داخل الاقليم البلجيكي ذاته .

شاهد الحرس البلجيكي هذه الأجسام الغريبة السابحة في الفضاء ؛ وتخيل بعضهم بأنها طائرات تعاني من خلل في أجهزتها ؛ وقامت بعض الأسلحة الآلية بفتح نيرانها على ضوء نور الفجر الباهت الذي يسبق طلوع النهار . ولكن مجموعات الطائرات الشراعية هبطت بصورة مباغتة عند النهاياتِ الجنوبية للجسور . كما هبط بعضها فوق قمة سطح قلعة بن أميل . ولم تلبث أن دارت معركة

عنيفة وحاسمة خلال الدقيقتين الأوليين اللتين تبعتا هبوط الطائرات عند الجسور. فقد اندفع أفراد مجموعات الهجوم عبر منافذ طائراتهم الشراعية؛ وذلك قبل أن تتمكن تلك من التوقف بصورة تامة؛ وأسرع الجنود إلى أهدافهم التي تم التدرب طويلاً على ما يماثلها؛ وشرعوا بقذف قنابلهم؛ وتكنيس الخنادق بقاذفات اللهب؛ في الوقت الذي كان يتم فيه وضع الحشوات الجوفاء في المواضع المحددة لها. ولقد أصيبت الحامية المدافعة عن الجسور بالذهول التام على أثر هذه المباغتة. ولقيت بذلك مصرعها؛ ولما تتمكن من تدمير الجسور؛ فيما عدا جسر كاون، إذ تمكنت الحامية المدافعة عنه من نسفه. أما جسرا فيلدويزلت و فرونكهوفن، فقد تم الاستيلاء عليهما وهما بحالة سليمة. وشرع المظليون على الفور بالهجوم على السرية المكلفة بدعم مراكز الدفاع عن الجسور. وكانت معركة عنيفة وقصيرة لم تستمر طويلاً؛ وبالنتيجة؛ فإن السرية السادسة من كتيبة الرماة البلجيكية الثانية قد خسرت في معركة جسر فيلدويزلت ٢٤ قتيلاً وسبعة جرحى من أصل قوتها البالغة ٤٤ رجلاً؛ أي أضاعت ما يعادل الفصيلة؛ وفي موقع آخر، سقط ١١ قتيلاً و١١ جريحاً من أصل سرية أخرى؛ والجميع قد سقطوا في فترة دقائق قليلة. وتمكنت قيادة مجموعات الهجوم على الجسور في فرونهوفن من تأمين اتصالاتها اللاسلكية مع وحداتها عند الجسور الأخرى اعتباراً من الساعة ٤٣ر٥. وكان الجميع بحالة جيدة، وعلى الطريق السليم الذي تم التدرب عليه. هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإن المظليين الذين قفزوا مع رشاشاتهم الثقيلة في الساعة ١٥ر٦ تعرضوا للخسائر الفادحة؛ غير أنه أمكن تأمين الاتصال اللاسلكي مع المدفعية الثقيلة ــ البعيدة المدى ــ اعتباراً من الساعة ٠٠ر٩، وقامت هذه المدفعية بتوجيه نيرانها لحماية المظليين. وعندما حل الظلام على نهاية يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ كانت مفارز الاستطلاع الأرضي المتقدمة لفرق البانزر المدرعة الأربع؛ قد وصلت إلى الجسور وقامت باستلامها من أيدي المظليين؛ واستطاعت القوات المدرعة والقوات الميكانيكية (الآلية) استخدام هذه الجسور والإفادة منها بشكل رائع للتدفق كالسيل نحو بروكسل.

كانت نتيجة معركة اليوم الأول كالتالي: «٣٨ قتيلاً ومئة جريح؛ من أصل الأربعمئة مظلي ممن تم نقلهم بالطائرات الشراعية أو إنزالهم بالمظلات. أما في صفوف البلجيكيين فتدل التقديرات على أن الخسائر قد وصلت إلى تسعمئة قتيل تقريباً؛ بمن فيهم أولئك الذين قتلوا بنتيجة الإغارات والهجمات الجوية».

لم يحاول البلجيكيون خلال يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ القيام بأي هجوم مضاد على أي مستوى، وبأية طريقة؛ من أجل استرداد الجسور. وكان النقص في وصول المعلومات للقيادة البلجيكية؛ والمباغتة مع ما أعقبها من ذهول لوقوع ما لم يكن متوقعاً؛ وتعدد الاتجاهات للتحركات الألمانية؛ كان ذلك كله سبباً في هيمنة الجمود على القيادة التي امتنعت عن القيام بأي رد فعل. وفي

الواقع؛ فبعد أن غادر المظليون طائراتهم الشراعية؛ وانطلقوا لتنفيذ واجباتهم؛ قامت طائرتان بالتحليق فوق المواقع القريبة التي كانت تحتلها الفرقة البلجيكية السابعة؛ وقامت بإلقاء الدمى المحشوة بالقش وإنزالها بالمظلات؛ في إطار أعمال الإنزال الخداعية؛ مما ساعد على نشر الذعر، وأسهم في تشتيت الجهود البلجيكية على كافة الاتجاهات. وكان من المفروض أن تتكرر العمليات ذاتها، وبالدقة ذاتها؛ وبالنسبة لمجموعة الهجوم المكلفة بالانقضاض على قلعة بن أميل والبالغ حجمها حمولة إحدى عشرة طائرة شراعية. ولكن حادثاً معترضاً جاء في بداية العملية، فأعاق انتظام العمل بالدقة المطلوبة. وكان هذا الحادث المعترض هو انقطاع الحبل لطائرتين من الطائرات الشراعية. وكان الملازم ويتزيغ قائد مجموعة الهجوم على القلعة في واحدة منهما؛ واضطرت الطائرات الشراعية هذه إلى الهبوط فوق أرض حقل يقع على مقربة من كولونيا، ولذا فقد وجدت الطائرات الأخرى التسع الباقية بأنها مرغمة على متابعة تنفيذ المهمة وحدها. وكان مجموع الأفراد يبلغ ٥٥ مقاتلاً؛ استلم قيادتهم المساعد ويتزل وسار بهم إلى الهدف. وقد هبطت الطائرات الشراعية التسع فوق سطح القلعة الذي ظهر واضحاً للرؤية؛ وفوق مستوى الغلاف الضبابي الذي كان ينشر أجنحته الصباحية على المنخفضات؛ وهنا ظهرت نتيجة التدريب المستمر؛ وحان موعد قطاف ثمار الجهد؛ إذ تم تدمير ثلاثة ملاجىء اسمنتية؛ وكان كل واحد منها يضم ثلاثة مدافع من عيار ٧٥ ملم. كما تم تدمير مساند المدافع من عيار ١٢٠ ملم؛ واقتلاعها من جذورها من المسطحات المدرعة التي كانت ترتكز إليها المدافع، كما تم تدمير سبعة مساند أخرى، علاوة على مواقع المدفعية المضادة للطائرات. وأمكن تنفيذ ذلك كله خلال عشر دقائق فقط.

كانت قلعة بن أميل قد أصبحت منذ الساعة ٥ر٤٠ وهي صماء عمياء؛ وفي حالة عزلة تامة عن كل ما يحيط بها؛ والتجأت حاميتها إلى أوكارها الاسمنتية ذات المنافذ والأبواب المصفحة بالدروع. إلا أن هذه القوات لم تعد قادرة على القيام بأي هجوم مضاد؛ وقد عمل المهاجمون على إعماء مداخل التحصينات والملاجىء الواقعة تحت مستوى الأرض؛ وذلك عن طريق نشر القنابل الدخانية؛ ووضع مولدات الدخان تحت فتحات التهوية المجهزة بالقصبات (الأنابيب) التي يتم عن طريقها تبديل الهواء. وقد بدأ البلجيكيون مع انتهاء فترة الصباح؛ بفتح نيران مدفعيتهم؛ والضرب على الملاجىء والتحصينات. وفي هذه الفترة؛ وصلت الطائرة الشراعية التي كانت تحمل الملازم ويتزيغ بعد أن تم إخراجه من الحقل الذي كان قد هبط فيه عند الفجر، بواسطة طائرة جونكرز ــ ٥٢.

لقد كان الحظ في خدمة المظليين الستين الذين كانوا فوق سطح القلعة؛ ذلك لأن الخنادق العميقة والحفر والقباب قد ضمنت لهم مساند جيدة، ضد قصف المدفعية البلجيكية، كما أعاقت في الوقت ذاته تحرك الحامية التي اعتصمت في ملاجئها؛ ومنعتها من الخروج إلى السطح.

استمرت بعض مجموعات الحامية البلجيكية؛ خلال ذلك؛ في فتح نيرانها عبر منافذ التحصينات؛ والرمي على محاور الاقتراب من فوق مياه قناة ألبرت، بهدف منع وصول النجدات وقوات الدعم إلى المظليين؛ وقد أمضى هؤلاء ليل ١٠ ـــ ١١ أيار ـــ مايو ـــ وهم في حالة من القلق الشديد والإرهاق؛ بسبب تعرضهم لنيران المدفعية البلجيكية، وقنابل الهاون؛ وهم ينتظرون قيام القوات البلجيكية بهجوم مضاد في كل لحظة. ثم نجحت مفرزة من مفارز فوج هجوم المهندسين ٥١ بإكمال تنفيذ مهمتها في فجر يوم ١١ أيار ـــ مايو ـــ إذ تمكنت من تدمير الملاجىء. كما استطاعت هذه المفرزة بفضل مساعدة رجال ويتزيغ أن تدمر آخر خندق من الخنادق البلجيكية؛ والذي بقي مستمراً في إطلاق نيرانه؛ وعند الظهيرة؛ كانت عملية الاستيلاء على القلعة قد انتهت. هذه القلعة التي كانت حتى فجر يرن ' أيار ـــ مايو ـــ فريدة في أهميتها ومميزة بقوتها؛ ومنيعة بتحصيناتها وأسلحتها؛ وتتفوق على كل ما عداها من الدفاعات البلجيكية.

تعرضت مجموعة الانقضاض على قلعة بن أميل إلى الخسائر التالية: «عشرة قتلى وخمسة عشر جريحاً، من أصل تعداد القوة التي اشتركت في العملية والتي بلغ عدد أفرادها ٨٥ مقاتلاً. أما الحامية البلجيكية فقد خسرت مئة قتيل. وذلك خلال فترة الصباح من يوم ١٠ أيار ـــ مايو».

بدأت الفرق المدرعة الألمانية؛ وفرق المشاة الآلية؛ في الاندفاع كالسيل الجارف لمهاجمة أفضل الوحدات الأنكلو ـــ فرنسية. والعبور من خلال الثغرة الواسعة فيما بين كولونيا وبروكسل؛ وعبر الحاجز الهام لقناة ألبرت. وكانت القيادة الفرنسية العليا؛ تعتمد على المقاومة البلجيكية عند قناة ألبرت. وتعتقد بأن هذه المقاومة قد تستمر لعدد من الأيام. ولكن سقوط قلعة بن أميل، وجسور القناة بمثل تلك السرعة؛ جاء وكأنه قيد ليمسك بأيدي القيادة؛ وانقلب كل شيء رأساً على عقب. وأصبح على القوات الفرنسية أن تقاتل على أرض السهول البلجيكية؛ بدون أن تكون مستعدة لحشد كل قواتها؛ ولم يكن ذلك إلا نتيجة لاستخدام استراتيجية جيدة وجديدة؛ إذ كانت تفرعات تلك الاستراتيجية ونتائجها؛ تتجاوز في أهميتها كل ما عداها. وفي الواقع؛ فإن الاحتلال غير المتوقع للجسور؛ والإمساك بها وهي في حالة سليمة، ثم تدمير القلعة المنظمة وفقاً لمعطيات أحدث الأساليب الدفاعية؛ وإنجاز ذلك كله خلال ساعات قليلة؛ قد صعق الأنساق العليا لقيادات الحلفاء وأذهلها. فلقد كانت يقظة هذه الأنساق وانتباهها موجه إلى المجنبة اليسرى للدفاع بصورة طبيعية، على أساس الدفاع عنها، وإيقاف الألمان أمامها؛ خلال الأيام الثلاثة الأولى من بداية المعركة. ولكن خلال هذه الأيام الثلاثة، كانت الفرق المدرعة للجنرال غودريان تنهب أرض الأردين نهباً بأرتالها الفولاذية الطويلة. وشرعت هذه الأرتال اعتباراً من يوم ١٣ أيار ـــ مايو ـــ بتوجيه ضربتها إلى وسط دفاعات الحلفاء بين الموز وسيدان. وبدأت بطي أجنحة المجنبات طياً؛ مدمرة في طريقها

أفضل الوحدات الأنكلو ــ فرنسية، وكامل القوات البلجيكية والهولندية تقريباً. وأصبح مصير معركة فرنسا ــ منذ هذه اللحظة ــ مقرراً ومعروفاً.

جرت بعد ذلك بعض المعارك العسكرية؛ قامت بها مجموعات قليلة من الرجال خلال فترة قصيرة من الزمن. وكان لزاماً عليها بعد ذلك أن تخضع لذلك التأثير الحاسم؛ وهو الخيال الخصب الذي تجلى في اجتياح الألمان للغرب. لقد كان للتحضير الجيد؛ والتنفيذ العنيف؛ واستخدام الوسائل الفنية الجديدة في أساليب القتال، الفضل الأول في تحقيق المباغتة في المجالين الفني والتعبوي. ولم يعد هناك مجال للدهشة بأن تسجل النتائج الاستراتيجية (السوقية) والنفسية تعادلاً يماثل تلك الوسائل والأساليب.

هـ ــ رجال اشتيودنت في كورينث

قد يكون من الطبيعي في ظروف الاحتلال والتوسع؛ ظهور أعمال تخريبية تأخذ شكل سلسلة من المعارك المحدودة؛ ولا سيما عندما تتوافر حرية العمل العسكري والسياسي في إقليم يعتبر الاتساع الجغرافي الكبير؛ والطبيعة الجغرافية الصعبة؛ من أهم خصائصه وميزاته. **وتلك هي الحالة النموذجية لما جابهه الألمان في اليونان عندما عملوا على إنزال مظلييهم فوق ضفتي قناة كورينث في يوم ٢٦ نيسان ــ ابريل ــ سنة ١٩٤١ م.** وقد اعتبرت هذه العملية بدورها نموذجاً للضربات التكتيكية (التعبوية) الناجحة، رغم أن حظها من الشهرة كان قليلاً، ولعل ما نتج عن العملية من فشل سوقي (استراتيجي)، هو السبب في حجب الأضواء عنها؛ ودفعها إلى زاوية مهملة من زوايا التاريخ المظلمة. وعلى كل حال، فإن بعضاً من الصور المميزة لتصرف القوات المنقولة جواً في هذه العملية قد برهن على إمكان تحقيق النجاح الحاسم عندما تتوافر لهذه القوات القدرة على معالجة المواقف الطارئة بصورة صحيحة. وقد برهنت هذه العملية أيضاً على ضرورة إدراك القيادات العليا لقدرات المظليين وإمكاناتهم القتالية؛ من أجل استخدامهم في الزمان والمكان المناسبين. وقد يكون من الضرورة بمكان؛ وضع هذه العملية في إطار مسيرة الأعمال القتالية التي أدت إلى تنفيذها.

كانت ألمانيا قد تمكنت من قهر فرنسا في نهاية سنة ١٩٤٠؛ غير أنها فشلت في إخضاع انكلترا بصورة مباشرة. ولهذا قررت القيادة العليا اجتياح الاتحاد السوفييتي واحتلالها في العام ١٩٤١. وكان هذا التحول نحو الشرق قد تركز في الأذهان بهدف الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية وعسكرية. وكان من بين هذه المكاسب التي ابتغتها القيادة الألمانية العليا هي السيطرة على أوروبا الوسطى؛ والاستيلاء على حقول النفط في رومانيا، مع تأمين الحماية بتغطية الجناح الجنوبي لقواتهم العاملة في روسيا؛ والهجوم على انكلترا هجوماً غير مباشر وذلك بنقل الحرب إلى منطقة العالم العربي (الشرق الأوسط). وهكذا؛ واعتباراً من نهاية العام ١٩٤٠؛ ابتدأت الاستعدادات العسكرية للتدخل في يوغوسلافيا واليونان. ولم تكن المناورات السياسية التي أخذت شكل ضغوط أحياناً؛ وشكل وعود وإغراءات في أحيان أخرى؛ إلى جانب تحرك القوات والجيوش

على امتداد هنغاريا، ورومانيا، وبلغاريا؛ إلا دليلاً على وجود مثل ذلك التصميم. ولكن مجموعة من الأحداث برزت في هذه الفترة؛ وكان أولها قيام إيطاليا بعمل منفرد؛ وهجومها على اليونان في يوم ٢٨ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤٠. وقيام المقاومة اليونانية على أثر ذلك بالنضال ضد العدوان العسكري الإيطالي؛ وضد الدعاية الألمانية؛ ثم الحركة اليوغوسلافية في ٢٧ آذار ــ مارس ــ ١٩٤١، والتي نقلت يوغوسلافيا من صفوف دول المحور لتضعها في الصف المقابل. فكان من نتيجة هذه الأحداث إقدام ألمانيا على اتخاذ قرار بغزو كل من يوغوسلافيا واليونان؛ وتم تحديد يوم ٢٦ نيسان ــ ابريل ــ موعداً لانطلاق هذا الغزو الذي حملت عملياته الاسم الاصطلاحي ــ الكودي ــ **مارينا**.

كانت بريطانيا العظمى قد وعدت اليونان بتقديم المساعدة؛ وتنفيذاً لهذا الوعد أرسلت فرقة المشاة النيوزيلاندية، وفرقة المشاة الأسترالية، واللواء المدرع البريطاني؛ وجميعها بقيادة الجنرال ويلسون. ولكن هذه القوات كانت لا تزال مستمرة في النزول من القطع البحرية؛ والتجمع فوق أرض الشاطىء اليوناني؛ عندما بدأ المظليون هجومهم. وهكذا اقتحم الجيش الألماني المعركة بأسلحته الحديثة وتجهيزاته الجيدة، وبما يمتلكه من التفوق الجوي. وجاء هجومه في الوقت المناسب. كانت القوات الألمانية تتكون من ثلاث فرق مدرعة وفرقة مشاة آلية وفرقتين جبليتين؛ وأربع فرق مشاة؛ هذا بالإضافة إلى عدد من التشكيلات الكبرى التي تم الاحتفاظ بها فوق الأراضي البلغارية والرومانية؛ لتكون احتياطاً عاماً للمعركة اليونانية.

عندما قام الجيش الايطالي بالهجوم على اليونان؛ كان الجيش اليوناني أقل من الجيش الايطالي عدداً وأضعف منه تسليحاً وتجهيزاً؛ وبالرغم من ذلك؛ فقد استطاع إيقاف الجيش الايطالي ورده. أما الآن؛ فإنه لم يعد باستطاعة الجيش اليوناني دخول المعركة ضد القوات الألمانية؛ باستثناء ما قامت به بعض الوحدات من اشتباكات ثانوية ومعارك يائسة. ولم يكن هناك شك في أن نتيجة معركة اليونان لن تتأخر في الظهور كثيراً؛ فأمام الهجوم الكثيف للمدرعات؛ وأمام الوحدات الجبلية المدربة تدريباً عالياً؛ لم يكن باستطاعة القوات البريطانية أن تمارس أكثر من مجرد عمليات تأخيرية يتم تنفيذها بعناد ومهارة.

اتخذت القيادة البريطانية العليا قراراً في وقت مبكر من يوم ١٩ نيسان ــ ابريل ــ بسحب قواتها من اليونان؛ ونقلها عن طريق البحر؛ وحدد ليل ٢٨ ــ ٢٩ نيسان ــ ابريل ــ موعداً لهذه العملية؛ كما تم تعيين الموانىء الرئيسة التي يمكن استخدامها للصعود إلى القطع البحرية وهي: رافينا وبورتوآفني وميجارا وتولوس ومونومغازيا وكالاماتا. ولكن موانىء شبه جزيرة بيلوبونيز وشواطئها كانت من أفضل الأماكن وأكثرها ملاءمة؛ لأنها كانت تبعد مسافة طويلة عن القوات الألمانية. كما أن استخدام هذه الموانىء ينقص من المسافة البحرية التي كان على المراكب والقطع البريطانية اجتيازها

للوصول إلى كريت أو مصر. ولم يكن هناك سوى طريق واحد يمكن بواسطته الوصول إلى تلك الموانىء، وهو يمر من فوق جسر يتم بواسطته عبور أرخبيل كورينث.

كان عرض أرخبيل كورينث يبلغ الثلاثة أميال؛ وكانت تقطعه قناة عرضها ثمانون قدماً وعمقها تسع أقدام؛ وتستطيع المراكب البالغة حمولتها خمسة آلاف طن العبور منها. ولما كانت هذه القناة تستقر في منهدم عميق؛ فقد تم صنع جسر فوقها يحمل الطريق والخط الحديدي. وبلغ طول هذا الجسر ٥٠ ياردة تقريباً. ونظراً لما ينفرد به موقع العبور هذا من الأهمية؛ فقد عملت القيادة البريطانية على تخصيص عدد مناسب من الوحدات لحمايته؛ وأطلقت عليها اسم (قوات الأرخبيل) وجعلت من كورينث مقراً لقيادتها. وكانت هذه القوات تتشكل من ثلاث وحدات مدرعة خفيفة؛ وفرقتي مشاة وفوجي مدرعات مجهزين بدبابات سريعة؛ بالاضافة إلى وحدات من المهندسين والمدفعية المضادة للطائرات والمسلحة بمدافع ٣٣ر٧ انش؛ ومدافع ٢٣ انشاً؛ هذا علاوة على ١٦ مدفعاً نموذج بوفور وتوزيعها على طول الطريق.

لم تكن أهمية نقطة العبور هذه بعيدة أو خافية على أنظار القيادة الألمانية العليا، وكان واضحاً أن الاستيلاء عليها بواسطة قوات من المظليين هو ما يجب عمله. وكانت الوسائل اللازمة لهذه العملية؛ من مظليين وطائرات؛ متوافرة وجاهزة. ولكن قيادة الجيش الأرضي لم تكن قادرة على استخدام هذه الوسائل؛ لأن المظليين وقيادتهم كانا تابعين للقوى الجوية وقيادتها. وزيادة على ذلك؛ فقد احتفظ هتلر لنفسه بحق اتخاذ أي قرار للقيام بعملية من هذا النوع. وقد سجل رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني الجنرال هايدلرُ تأثير ذلك على العملية، عندما كتب في مذكراته يوم ٢٢ نيسان - ابريل - ١٩٤٤ مايلي: «لقد ضاعت الفرصة التي جازفنا باغتنامها عندما ضاعت اللحظة المناسبة».

كانت فكرة العملية بسيطة وجريئة: تقلع الطائرات الشراعية المحملة بزمر المهندسين لتهبط عند نهايتي طرفي الجسر من الشمال ومن الجنوب؛ وذلك لتنفيذ مهمة رفع الحشوات المتفجرة؛ وإزالة مفعولها؛ حتى لا يتم تدمير الجسر. ويتم في الوقت ذاته إنزال فوج من المظليين، عند كل طرف من أطراف القناة بمهمة احتلال وتشكيل رأس جسر؛ وكان على القوات الجوية إجراء الاستعدادات اللازمة لنقل المظليين وإمدادهم ودعمهم. وأسندت هذه المهمة إلى لواء المظليين الثاني بقيادة العقيد ستورم. وقد تشكلت مجموعة هذا اللواء من هيئة أركان اللواء والفوجين الأول والثاني، ومفرزة إشارة، وسرية مهندسين، وسرية طبية، وبطارية مدفعية؛ ويتم إنزال هذه القوات بالمظلات؛ باستثناء فصيلتين تقرر نقلهما بالطائرات الشراعية؛ وحدد يوم ٢٦ نيسان - ابريل - موعداً للتنفيذ.

قامت الطائرات الألمانية بإغارات جوية تمهيداً للهجوم، .وذلك خلال الأيام القليلة التي سبقت العملية. حتى إذا ما كانت الساعة السادسة من يوم السبت ٢٦ نيسان ــ ابريل ــ قامت الطائرات بالتحليق فوق منطقة كورينث. كان الجو صحواً؛ والرؤية جيدة؛ فعملت الطائرات على إلقاء قنابلها الثقيلة من ارتفاعات عالية فوق مراكز المدفعية البريطانية المضادة للطائرات؛ مما اضطر هذه المدافع للانسحاب من المعركة. وظهرت بعد ذلك مئة طائرة تقريباً وقامت بالانقضاض على المواقع البريطانية المكشوفة وتمكنت من تدميرها خلال نصف ساعة. ثم أخذت تشكيلات طائرات النقل بالظهور اعتباراً من الساعة السابعة على شكل مجموعات ثلاثية، وهي قادمة من اتجاه خليج كورينث محلقة على ارتفاع منخفض جداً؛ وموازية في خط سيرها لامتداد القناة؛ حتى إذا ما وصلت هذه الطائرات إلى ارتفاع أربعمئة متر من فوق الهدف؛ ابتدأ المظليون بالقفز ومغادرة الطائرات من الأبواب الجانبية؛ بينما تم إنزال عبوات الأعتدة من فتحات في وسط الطائرات؛ وبذلك تم إنزال فوج المظليين الأول في الشمال؛ بينما تم إنزال فوج المظليين الثاني إلى الجنوب من كورينث وقد تمكنت هذه القوات من تشكيل رأسي الجسر بسرعة. وشرع المهندسون بالهجوم خلال الدقائق الأولى من بداية العملية؛ ونجحوا في احتلال الجسر؛ ثم انصرفوا بعدئذ إلى رفع الحشوات المتفجرة. وكان هناك اثنان من الضباط البريطانيين ــ برتبة نقيب ــ يرقدان على الأرض بثيابهما المموهة؛ وهما على بعد مئة ياردة وخمسين الياردة فقط من الجسر؛ وقد تمكنا من تفجير الحشوات بواسطة رشات من أسلحتهما الآلية؛ فتطاير الجسر في الهواء؛ وتطاير معه المظليون من جراء الانفجار الكبير. وعلى الرغم من ذلك؛ فإن عملية احتلال الجسر انتهت في الساعة الثامنة تقريباً؛ وبدأت سرية المظليين ببناء جسر جديد؛ وكان ينبغي إكماله في مساء اليوم ذاته. وتمكن المظليون بعد ذلك من استخدام الدبابات والمركبات (الآليات) التي تركها البريطانيون. وقاموا بالتحرك على اتجاه كورينث؛ فتم لهم احتلالها في فترة الصباح؛ كما تم لهم احتلال مطارها الذي قامت الطائرات الألمانية بالهبوط فوق أرضه بعد ذلك بفترة قصيرة.

بلغت خسائر المظليين الألمان في هذه العملية ٦٣ قتيلاً و١٥٨ جريحاً و١٦ مفقوداً. وتمكن المظليون بالمقابل من أسر ألف مقاتل بريطاني؛ بالإضافة إلى ألف وخمسمئة أسير يوناني. بالاضافة إلى نجاحهم في الاستيلاء على كمية كبيرة من الأعتدة. فكانت العملية من الناحية التكتيكية (التعبوية) ناجحة. وفي اليوم التالي ٢٧ نيسان ــ ابريل ــ وصل قسم من فرقة دبابات البانزر الخامسة؛ واتصلت بالمظليين؛ وعبرت من فوق الجسر المؤقت الذي تمت إقامته؛ وأخذت في مطاردة القوات البريطانية نحو الجنوب.

ترى هل حقق هذا النجاح التكتيكي (التعبوي) ما كانت تطمح العملية لتحقيقه من نصر سوقي (استراتيجي)؟

الإجابة: يقيناً لا! . ففي يوم ٢٤ نيسان ــ ابريل ــ كان قد تم انسحاب ربع القوة البريطانية تقريباً من اليونان؛ وفي يوم ٢٥ نيسان ــ ابريل ــ كان القسم الرئيسي من القوات؛ وأخصها بالذكر اللواءين الاستراليين ١٦ و ١٧ يقومان بالعبور من فوق جسر كورينث في طريقهما للجلاء عن شبه جزيرة البيلوبونيز وركوب البحر من موانئها. وبذلك تم سحب ٢٣٫٣٠٠ جندي عن هذا الطريق. كما قام قائد هذه القوات الجنرال ويلسون ذاته بعبور الجسر قبل بزوغ فجر يوم ٢٦ نيسان ــ ابريل ــ أي قبل ساعات قليلة من إنزال المظليين. ولم يتخلف عن الوصول إلى الموانىء وركوب البحر إلا بعض عناصر اللواء النيوزيلاندي الرابع؛ وبعض عناصر الألوية البريطانية. وإن جلاء القواتُ البريطانية عن اليونان في الوقت المناسب قد مكن من إنقاذ ٤٢ ألفاً من المقاتلين؛ وكانت خسائر الحلفاء في هذه العملية في حدود ١٦ ألف مقاتل؛ و٨ آلاف مركبة. ولو تم تنفيذ هجوم المظليين الألمان قبل يومين أو ثلاثة أيام من اليوم الذي تم فيه تنفيذ العملية؛ لكان من المحتمل أن ينقلب الموقف انقلاباً تاماً. وكان تنفيذ ذلك ممكناً بسبب وجود قائد فرقة المظليين السابعة مع هيئة أركان قيادته في بلغاريا منذ يوم ٢٦ آذار ــ مارس ــ كما كان لواء المظليين الثاني متمركزاً منذ يوم ٤ نيسان ــ ابريل ــ في بلوفديف وكان على استعداد للعمل؛ أما تشكيلات النقل الجوي فقد كانت أيضاً تتمركز في المطارات البلغارية بدون أي عمل.

كان البريطانيون قد أتموا الجلاء عن قاعدة لاريسا في اليونان منذ يوم ١٩ نيسان ــ ابريل ــ وتركوا فيها مخازن البترول ومستودعات التموين وهي بحالة سليمة. وقام الألمان باحتلال هذه القاعدة؛ ووضعوا أيديهم على موجوداتها؛ واستخدموا مطار لاريسا لانطلاق الطائرات التي نقلت المظليين في عملية كورينث يوم ٢٦ نيسان ــ ابريل ــ ولكن هذه العملية جاءت بعد فوات الأوان.

دفع الألمان ثمن هذا الفشل السوقي (الاستراتيجي) في كورينث؛ بعد شهر تقريباً؛ عندما تم غزو كريت، حيث تعرض المظليون للخسائر الفادحة. وكانت القوات البريطانية التي نجحت في الانسحاب من اليونان؛ هي التي أنزلت بهم تلك الخسائر. وقد أصابت تلك الخسائر؛ أكثر ما أصابت؛ وحدات لواء المظليين الثاني؛ إذ تمت إبادة فوجين من أفواجه إبادة تامة؛ بعد أن قفزوا على مقربة من روتيمور في فترة ما بعد الظهر من يوم ٢٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤١، حيث قتل ٤٠٠ جندي مظلي ووقع العقيد ستورم ذاته في أسر القوات البريطانية. وعلى هذا؛ فإن اللواء الذي حقق النصر التعبوي (التكتيكي) في كورينث، هو الذي دفع ثمن الفشل الاستراتيجي للعملية عندما نفذ عملية الإنزال في كريت. ولقد أكد هذا الفشل حقيقة ثابتة ومعروفة؛ وهي أن وحدات المظليين ليست في أساسها إلا قوات مقاتلة أرضية (برية) يتم نقلها عن طريق الجو. ولهذا فهناك ضرورة للتعاون الوثيق بين المقاتلين وبين وسائلهم. وأن وسائط النقل هذه لم توضع إلا لتكون في خدمة هؤلاء الذين يستفيدون منها للعمل في الوقت المناسب. هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى؛

فإن قدرة المظليين؛ وضرورة استخدامهم في الوقت الصحيح؛ تتطلب المعرفة العميقة لميزاتهم وقدراتهم؛ وهذا هو أول واجبات القيادات وهيئات الأركان التي تعمل على إعداد المظليين وتنظيمهم وتدريبهم لاستخدامهم من أجل حل (مآزق الحرب).

○

لقد استخدمت هنا كلمة المظليين، أو القوات المنقولة جواً ضمن معناها العام والمقبول. وأصبح بالمستطاع تعميم هذه التسمية لتشمل كافة أنواع التحركات التي يتم تنفيذها عن طريق الجو، القوات المحمولة جواً، والتي قد تشمل المظليين والقوات المحمولة بالطائرات الشراعية أو الطائرات العمودية (الهيليكوبتر)، أو سواها من الوسائط التي قد تظهر في المستقبل، والتي تهدف بصورة أساسية إلى نقل القوات من مسافات بعيدة عن مسرح العمليات؛ والوصول بها إلى قلب المعركة مباشرة؛ للإفادة من قدرة هذه القوات وإمكاناتها في تحقيق المباغتة؛ وضرب العدو إلى مؤخراته، وقواعده الخلفية، ونقاط ضعفه تطبيقاً لاستراتيجية (التقرب غير المباشر). ولقد أبدع الألمان إبداعاً كبيراً في هذا المضمار؛ غير أن بقية الدول الكبرى لم تتخلف عن اللحاق بهم، بل وتجاوزهم، بقدر ما توافر لهذه الدول من القدرات والإمكانات.

كانت الصعوبات الكبيرة؛ والأخطار الكثيرة؛ التي رافقت هبوط المظليين في عملياتهم المختلفة؛ قد حملت على الاعتقاد بأن نتيجة أعمال المظليين لا تعادل تلك الخسائر التي تنزل بالمظليين. ولهذا فإن عملياتهم ذات ثمن باهظ. ولكن؛ ومع التطور الكبير الذي أمكن بلوغه — في مجال تقنية وسائط نقل القوات جواً — جعل الظروف أكثر ملاءمة لتطوير استراتيجية استخدام القوات المنقولة جواً. لا سيما في عصر تكاثرت فيه تفجيرات الحروب المحدودة (الموضعية) وتنوعت أشكال الحروب التخريبية. وفي موقف استراتيجي (سوقي) ملائم للغاية؛ ومع امتلاك السيطرة الجوية والأرضية؛ ومع تأمين المتطلبات الأساسية حتى تكون عمليات القوات المنقولة جواً حاسمة وفعالة؛ إلى جانب وجود أهداف ذات أهمية خاصة؛ تصبح قضية ضرب مؤخرات الجيوش وقطع خطوط إمدادها وانسحابها من الأعمال العادية لهذه القوات.

تجدر الإشارة إلى أن الألمان الذين حملوا راية الريادة في تنظيم القوات المنقولة والمحمولة جواً؛ قد حاولوا الإفادة — قبل سواهم — من تجربتهم الذاتية. وهذا ما أكده رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني في أثناء فترة سنوات النصر؛ الجنرال هالدر؛ عندما كتب في مذكراته:

«إن الصراع بين الإيديولوجيات المتنافسة؛ وحركات المقاومة؛ والتنظيمات الثورية؛ وتنظيمات الأنصار؛ وأعمال التمرد والعصيان؛ في عصر القوميات السائرة نحو الضعف،

سيعمل على خلق انقسام في صفوف الدول الكبرى والأمم المتحضرة. ومن شأن هذا أن يخلق ظروفاً ملائمة لعمليات الإنزال الجوي داخل أراضي العدو؛ ومن شأنه أيضاً أن يدفع إلى المحافظة على قواعد العمليات التي تم احتلالها داخل بلاد العدو». وعلى هذا الأساس عكفت مجموعة من الضباط ــ بعد الحرب ــ على دراسة عمليات القوات المحمولة والقوات المنقولة جواً. مع دراسة ما وصلت إليه التطورات التقنية؛ واستخلصت منها ما يلي:

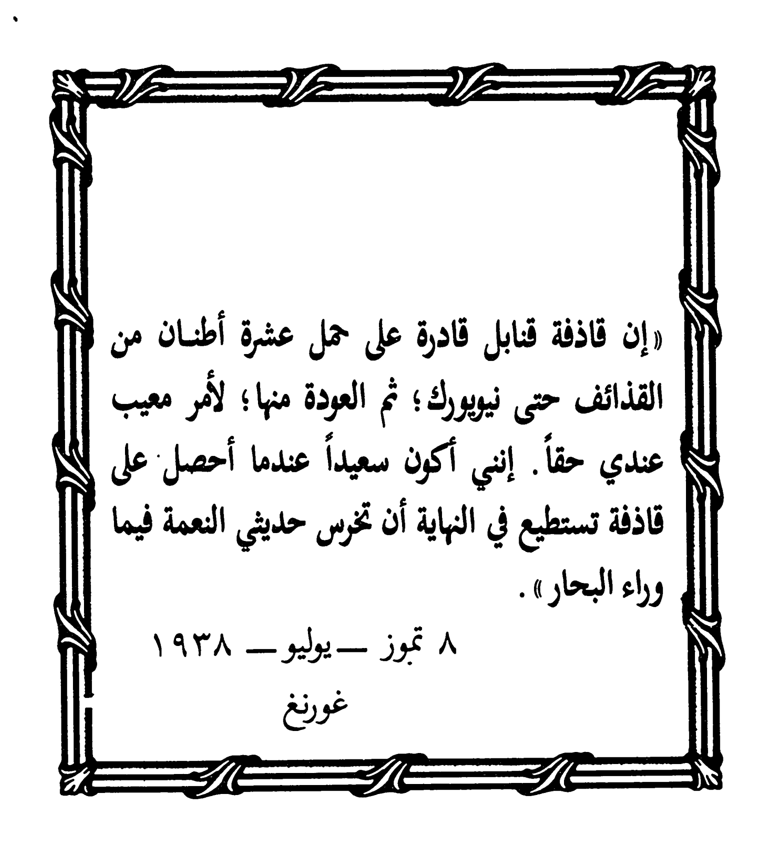
«كان لظهور الاستراتيجيات التي تم فيها استخدام المركبات المدرعة في بداية الحرب العالمية الثانية؛ دور كبير في تطوير أساليب الحرب التقليدية... ومن المحتمل جداً أن يكون لاستخدام تشكيلات القوات المنقولة جواً والمحمولة، التأثير ذاته في الحروب القادمة». وعلى هذا الأساس عملت القيادة الألمانية العليا ــ في ألمانيا الاتحادية ــ على تشكيل مجموعة تعبوية من الفرقة الألمانية الأولى للقوات المحمولة جواً، وألحقت هذه المجموعة سنة ١٩٥٨ بقوات حلف شمال الأطلسي. فكان هذا الإجراء بمثابة تطوير للتجربة الألمانية؛ في إطار جديد يتناسب مع متطلبات العصر.

الفصل الثالث

القوات الجوية

٣ ــ الماريشال غورنغ

آ ــ غورنغ والقوات الجوية الألمانية (لوفتووف)
ب ــ معركة بريطانيا



«إن قاذفة قنابل قادرة على حمل عشرة أطنـان من القذائف حتى نيويورك؛ ثم العودة منها؛ لأمر معيب عندي حقاً. إنني أكون سعيداً عندما أحصل على قاذفة تستطيع في النهاية أن تخرس حديثي النعمة فيما وراء البحار».

٨ تموز ــ يوليو ــ ١٩٣٨

غورنغ

الوجيز في حياة غورنغ هيرمان غليوم
١٨٩٣ ـــ ١٩٤٦ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٩٣	ولادة غورنغ ، وهو سليل أسرة دبلوماسية بروسية .
١٩١٤	اشترك في الحرب في جيش المشاة .
١٩١٦	نقل إلى سلاح الجو ، الذي كان في بداية مرحلة تنظيمه .
١٩١٨	سرح من الجيش .
١٩٢٢	انضم إلى الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) وعهد إليه بتدريب فتيان الحزب .
١٩٢٣	اشترك في عصيان ميونيخ الفاشل .
١٩٢٨	انضم إلى جيش الرايخ .
١٩٣٣	عين وزيراً للرايخ لشؤون الملاحة الجوية (في أول وزارة شكلها هتلر) .
١٩٣٣	عين وزيراً للجو وقائداً عاماً للقوات الجوية المسلحة ؛ ورفع لرتبة جنرال .
١٩٣٤	عين وزيراً للداخلية في بروسيا ؛ وكلف بتنظيم الشرطة السرية للدولة (الغستابو) .
١٩٤٠	قام غورنغ بإقناع هتلر أن باستطاعته إخضاع بريطانيا بالقوات الجوية .
١٩٤٣	تناقصت أهمية غورنغ بعد فشله في إخضاع بريطانيا .
١٩٤٥	٢٣ نيسان ـــ ابريل ـــ حاول الحصول على موافقة هتلر لإجراء مباحثات مع العدو فتمت إقالته .
١٩٤٥	ألقي عليه القبض وأحيل إلى محاكمة نورمبرغ (محاكمة مجرمي الحرب) .
١٩٤٦	تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ مات غورنغ في معتقله ؛ بعد أن انتحر بتناول السم .

Göring , Hermann William

آ ـــ غورنغ والقوات الجوية الألمانية (لوفتووف)

شغل هيرمان غورنغ أكبر عدد من المناصب في عهد الرايخ الثالث. وحمل صدره أكبر عدد من الأوسمة. لقد كان صورة عن هتلر؛ وقد تجمعت في وجهه صفات الرجل النازى وميزات القائد الألماني (البروسي). ذلك هو الرجل الذي لم ينافسه ايروستـرات[٩] في مناصبه وأمجاده. والـذي اضطلع بأعباء تنظيم القوات الجوية للرايخ الألماني؛ ومارس دور قائدها العام.

لقد انحدر غورنغ من أسرة بروسية عريقة في أصولها؛ وبدأ حياته في مدرسة المستجدين في ليشترفيلد والمخصصة لأبناء النبلاء؛ ولما كانت روح الجندية الحقة هي المهيمنة على الأسرة البروسية وعلى الوطن البروسي؛ فلا غرابة أن يكون غورنغ جندياً حقاً، بكل جارحة من جوارحه. وعلى هذا اشترك في الحرب العالمية الأولى في سلاح المشاة؛ ثم ما لبث أن تحول إلى سلاح الجو الذي كان يعيش مرحلة تأسيسه وتكوينه. ولكن سرعان ما جاءت نهاية الحرب حاملة معها لألمانيا (الثورة الاشتراكية وجمهورية الويمر). وأصيب غورنغ بالفزع لانهيار الامبراطورية؛ التي كانت ترمز لأمجاد ألمانيا وعظمتها؛ وزاد الأمر سوءاً بما فرض على ألمانيا من قيود لتمزيق وحدتها، وإضعاف قدرتها العسكرية؛ فانخرط في إحدى فرق (هيئة الضباط المتطوعين) التي أخذت على عاتقها مجابهة الحركة الثورية. وما لبث أن لجأ إلى السويد؛ فأقام فيها خلال السنوات التالية، وتزوج بسويدية ثرية؛ ثم عاد بعدها لألمانيا سنة ١٩٢٢، حيث كان الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) قد أخذ في شق طريقه للوجود؛ وسط التيارات المتصارعة؛ ومارس غورنغ عمله الـذي يتقنـه؛ وهـو تدريب فصائـل

---

(٩) ايروسترات: Erostrate رجل دولة يوناني؛ من مدينة ايغيز في جزر اليونان؛ أراد أن يتشبه بالغزاة الظافرين؛ وأن يخلد اسمه بعمل لاينساه التاريخ؛ فأحرق معبد آلهة الصيد والغابات (ديانا: Diane أو ارتميس: Artémis) الذي كان يقع في قلب مدينة الجزيرة، وقد كانت المدينة تشتهر بهذا المعبد الذي اعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع. وكان حريقه يوم ولادة الاسكندر الكبير المقدوني سنة ٣٥٦ ق.م. وقد أشير إلى ايروسترات في ذكر غورنغ نظراً للدور الذي اضطلع به في إحراق مجلس النواب الألماني (الرايخستاغ) سنة ١٩٣٤، عندما قاد غورنغ حملة القمع ضد الشيوعيين والاجتماعيين (الديموقراطيين). ويومها اطلق غورنغ مقولته الشهيرة:

«ليس من عملي إقرار العدل؛ إنما أنا جندي: أستأصل من الجذور وأدمر».

الانقضاض في الحزب. وكان الجيش الألماني يومها يعيد تنظيم قواته بقيادة الجنرال فون سيكت. وما لبث أن وجد غورنغ عملاً أفضل من عمله؛ يوم أن تم تكليفه للعمل (ضابط اتصال بين الحزب وكبار رجال الصناعة). وأصبح بيته في برلين ملتقى هتلر بقادة الجيش الألماني المحترف؛ وبرجال الصناعة وأصحاب المصارف. وأخذت أبواب المستقبل تنفتح أمامه؛ حتى إذا ما كانت سنة ١٩٣٣، عين غورنغ رئيساً لوزراء بروسيا؛ ورفع إلى رتبة جنرال بقفزة واحدة. وكانت تلك أثمن هدية قدمها هندنبورغ إلى هتلر. وقد يكون من طبيعة الأمور؛ وقد وجد غورنغ نفسه في وسط الأعمال والمشاريع، أن يندفع في غمرة هذا المضمار؛ فأخذ في البداية لنفسه احتكار صناعة سيوف المراسم لفرق الانقضاض والصاعقة. وأفاد من مناجم سالزجيتر المهملة؛ في الرور؛ ووظف فيها أموالاً ضخمة حتى أمكن له استغلالها على أفضل وجه ممكن. وحقق بذلك أرباحاً طائلة وضعته سنة ١٩٣٧ في مصاف أثرياء الرايخ. ثم عمل في السنة التالية ١٩٣٨، على توسيع مشاريعه بسرعة؛ فأسس شركة حملت اسمه (رايخفيركه هرمان غورنغ. آ. ج)، التي استطاعت في تلك السنة استخراج ٤٠٠ ألف طن من الحديد. مما حمله على وضع يده على مناجم لينيت ألمانيا الوسطى. ومن ثم أصبح مالكاً لثلث مناجم الفحم العائدة إلى (الاتحاد الاحتكاري للفولاذ). وأخذ يتدرج شيئاً فشيئاً حتى أصبح من كبار الاحتكاريين. وضم اتحاده المالي في نهاية الحرب ١٧٧ مصنعاً؛ و٦٦ مؤسسة معدنية وتعدينية؛ و١٥٦ شركة تجارية و٤٦ مؤسسة نقل؛ و١٥ مؤسسة بناء. وقد أفاد غورنغ من ذلك لتوثيق عرى التعاون بين جيش الرايخ وقياداته وبين المؤسسات الصناعية ــ الانتاجية، وتطوير عمل هذه المؤسسات في الانتاج الحربي.

لقد ارتبط ظهور سلاح الجو الألماني★ وتطوره، باسم الجنرال غورنغ، الذي عمل على تنظيم هذا السلاح بصورة مستقلة عن (الحزب النازي) وبقي مرتبطاً بشخص هتلر واستطاع خلال ٦ سنوات ١٩٣٣ ــ ١٩٣٩، أن يشكل جهازاً قوياً ضم ٢٦٠ ألف رجل و٢١ سرباً من الطائرات من نماذج مختلفة(١٠) وكان عددها سنة ١٩٣٩ كما يلي: ١١٨٠ طائرة قاذفة، و٣٦٦ طائرة

★ سلاح الجو الألماني: Luftwaffe.

(١٠) كان من أبرز هذه النماذج:

١ ــ مسرشميث: (Messerschmitt, Me - 109, Me 110) سرعتها القصوى ٣٥٧ و ٤٣٩ ميلاً في الساعة؛ ومجال عملها ٤١٢ و ٥٦٥ ميلاً؛ وهي طائرة مقاتلة.

٢ ــ الجونكرز ٨٧ شتوكا: (Junkers Ju - 87 Stuka) طائرة مقاتلة؛ سرعتها ١٩٩ ميلاً في الساعة، ومجال عملها ٦٢٠ ميلاً.

٣ ــ الجونكرز ٨٨: (Junkers - 88 - Ju) طائرة انقضاضية، قاذفة؛ ومقاتلة ليلية، وطائرة استطلاع؛ وقاذفة طوربيدات؛ وقاذفة قنابل، سرعتها ٢٨٦ ميلاً في الساعة؛ ومجال عملها ١٥٣٣ ميلاً.

٤ ــ هينكل: (Heinkel - He 111) قاذفة متوسطة المدى، سرعتها ٢٥٤ ميلاً في الساعة، ومجال عملها ١١٠٠ ميل. ←

انقضاضية قاذفة، و١١٧٩ طائرة مقاتلة، و٦٠٤ طائرة استطلاع، و٢٤٠ طائرة ساحلية، و٤٠ طائرة للهجوم الأرضي. فبلغ مجموعها ٣٦٠٩ طائرات. ولقد كان سلاح الجو الألماني يفتقر للطائرات القاذفة بعيدة المدى؛ وهذا ما أظهرته عمليات اجتياح الغرب ومعركة بريطانيا. وكان الواجب الأول الذي اضطلع به سلاح الجو بشكل رائع هو (دعم العمليات الأرضية) حيث أمكن له دعم كافة الأعمال الهجومية بنجاح مذهل. إلا أن سلاح الجو تحول إلى الدفاع اعتباراً من سنة ١٩٤٣؛ بسبب النقص الكبير في تأمين الإمدادات بالوقود؛ وبسبب الخسائر الكبيرة التي تعرض لها على كافة الجبهات. وبالرغم من ذلك؛ تابع سلاح الجو صراعه بكفاءة عالية وبتصميم عنيد؛ وأفاد من استخدام الطائرتين الحديثتين اللتين تم وضعهما في الخدمة اعتباراً من سنة ١٩٤٣ وهما فوك وولف ١٩٠، والطائرة النفاثة مي ٢٦٢، إذ كان باستطاعة الطائرتين الجديدتين الإنطلاق من مطارات سرية لإعاقة تقدم قوات الحلفاء داخل ألمانيا؛ خلال المرحلة الأخيرة من مراحل الحرب. وكان من الصعب على أجهزة كشف الحلفاء (الرادارات) كشف هذه الطائرات والتعامل معها؛ نظراً لأن سرعتها كانت أكبر من سرعة عمل أجهزة الكشف (الرادارات).

قد يكون من المناسب بعد التعريف بسلاح الجو الألماني وبقائده غورنغ، العودة بهذا السلاح إلى بداياته الأولى؛ ومتابعة تطوره وأعماله. ذلك أن سلاح الجو الألماني لم يظهر إلى الوجود مباغتة؛ ولم يبرز إلى الوجود من العدم؛ وفي الواقع؛ فقد تم الإعداد لانطلاقته طويلاً؛ وفقاً للمخططات التي كان فون سيكت قد وضعها للنهوض بألمانيا وصناعتها وجيشها من خلال وضع الأساس لبناء الجيش الألماني المحترف. ويذكر أن العمل قد بدأ لصنع النماذج الجديدة من الطائرات قبل سنة ١٩٣١، أي خلال حقبة تحريم الصناعة الألمانية الحربية تحريماً قاطعاً. وفي سنة ١٩٣٢ قام مندوب عن الجيش الألماني، وأجرى اتصالات بدور صناعة نماذج الطائرات (هاينكل ومسرشميدت وجونكرز) وأعلمهم عن (تنظيم دائرة سرية في وزارة الحرب ـــ للقوات الجوية). وأعلم أنه بالمستطاع «إعداد مخططات طائرات عسكرية في ألمانيا، على أن يتم صناعتها في الخارج، في السويد مثلاً». حتى إذا ما كانت سنة ١٩٣٤؛ باتت الصناعة الجوية الألمانية وهي تستند إلى قاعدة صلبة؛ مما دفع غورنغ إلى إنشاء وزارة الجو العسكرية في مفوضية الرايخ، وبشكل مموه أيضاً. حيث تم في هذه الفترة وضع التصاميم لطائرات حربية جديدة (هاينكل ٥١) و (دورنيه ١١١). وهنا لا بد من الإشارة إلى ذلك الاجتماع الذي عقده غورنغ بحضور هتلر، والذي استدعى فيه غورنغ

٥ ـــ دورنييه ـــ دو ١٧: (Dornier Do - 17) قاذفة متوسطة المدى؛ سرعتها ٢٦٥ ميلا في الساعة؛ ومجال عملها ٧٤٥ ميلاً.

٦ ـــ فوك ـــ وولف: (Focke - Wulf F.W. 190A) وضعت في الخدمة اعتباراً من سنة ١٩٤٣؛ فكانت من أفضل الطائرات المقاتلة الألمانية. زادت سرعتها على ٤٠٠ ميلاً في الساعة، وزاد مجال عملها على ٥٠٠ ميلاً.

٧ ـــ الطائرة النفاثة مي ٢٦٢: (Me - 262) زادت سرعتها على ٦٠٠ ميلاً في الساعة.

٢٥ رجلاً؛ من رجال الصناعة في ٢٠ شباط ــ فبراير ــ ١٩٣٣؛ والذي عرض فيه هتلر مخططاته للمستقبل؛ وأسهب في شرح أهدافه الجوهرية، إلى أن أعلن أمام الجميع:

آ ــ التخلي عن الدعوة إلى السلام أي (وضع برنامج الإعداد للحرب موضع التنفيذ).

ب ــ بناء الجيش الألماني (تجاوز شروط فرساي التي حددت جيش الرايخ بمئة ألف جندي).

ج ــ تصفية النظام البرلماني ــ النيابي (لحقبة المئة عام المقبلة).

وأقر المجتمعون هذا البرنامج؛ وأظهروا حماستهم له. فقد أصبح باستطاعة رجالات الصناعة الألمان؛ والذين استسلموا بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى؛ أن يعيدوا التفكير من جديد لبناء (الامبراطورية الجرمانية العظمى) ولو تحت أعلام جديدة، هي أعلام النازية الحمراء التي تحمل (الصليب المعقوف). وأعاد هتلر تنظيم القوات المسلحة ما بين آذار وأيار ــ مارس ومايو ــ ١٩٣٥. فكان الجيش البري بقيادة الفريق فون فرتيش، والبحرية بقيادة الأميرال رايدر، والقوات الجوية بقيادة الفريق غورنغ وتشكل (مجلس الدفاع) الذي ضم القادة الثلاثة؛ وقد حدد غورنغ مهمة هذا المجلس بقوله:

«**إن مهمة مجلس دفاع الرايخ؛ هي تنسيق قوى الأمة كافة بهدف تسلح ألمانيا المتسارع**».

عمل هتلر في شهر آب ــ اغسطس ــ ١٩٣٦ على توجيه التعليمات التالية:

١ ــ يجب أن يكون الجيش الألماني على أهبة القتال خلال أربعة أعوام.

٢ ــ يجب أن يوجه الاقتصاد الألماني إلى الحرب خلال أربعة أعوام.

وعلى أثر ذلك؛ تم تشكيل لجنة خاصة برئاسة غورنغ لحل المشكلات الاقتصادية في الخطة الرباعية. وانصرف غورنغ لدعم الصناعة الحربية عامة، ودعم الصناعة الجوية منها بصورة خاصة، وجاءت ظروف الحرب الاسبانية لتبرز أهمية سلاح الجو، ودوره الحاسم في الحرب القادمة. ففي يوم ١٨ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٣٦؛ أطلق راديو شوتا الشارة الإصطلاحية التالية: «**السماء في إسبانيا كلها خالية من الغيوم**». وكانت هذه الشارة إيذاناً بانطلاق الثورة الإسبانية بقيادة الجنرال فرانكو فرانسيسكو، ضد الجمهورية الشيوعية. واتفقت ألمانيا وإيطاليا على التدخل في إسبانيا: «على أساس أنها تجربة لحرب عظمى مقبلة». وأسرع غورنغ لنجدة فرانكو؛ ودعمه بالقوات الجوية (الطائرات المقاتلة والقاذفة)، بالإضافة إلى الدعم بالقوات (فرقة كوندور). وكانت طائرات النقل تقوم بنقل الدعم والإمدادات والقوات إلى جيش فرانكو في إسبانيا. ومقابل ذلك؛ اتفق غورنغ مع فرانكو على الإفادة من مناجم ريو ــ تينتو، لتصدير ما كانت تحتاجه ألمانيا من المعادن غير الحديدية. وأنشئت مؤسسة خاصة حملت الأحرف الأولى منها: (هـ. ي. س. م. آ). ولم يكن الدعم الألماني لإسبانيا دعماً عسكرياً واقتصادياً فحسب، بل كان هذا الدعم يشمل مضموناً

سياسياً؛ فوقوف أوروبا موقف المتفرج؛ قد شجع هتلر وغورنغ على المضي في سياستهما لبناء (ألمانيا العظمى). وكان هدف القيادة الألمانية النازية (هتلر وغورنغ)، هو ضم النمسا، ثم تشيكوسلوفاكيا. وبدأ هتلر العملية باستدعاء مستشار النمسا شوشلينج إلى مقره في بافاريا يوم ١١ شباط — فبراير — ١٩٣٨. وقدم إليه المطالب الآتية: **١ — منح الحرية المطلقة للنازيين النمساويين. ٢ — تكليف زعيم الحزب النازي النمساوي؛ سيس اينكارت؛ بمنصب وزير الشرطة والأمن**». وكان هذا معناه نهاية استقلال النمسا. فحاول شوشلينج الإحتجاج. وعندها لجأ هتلر إلى القادة. وتعرض شوشلينج ثانية لضغط فظيع؛ حيث عرض هتلر أمامه القوات المستعدة لغزو النمسا؛ مما حمل المستشار شوشلينج على الاستسلام لمطالب هتلر. ولكن شوشلينج أراد أن يبرىء نفسه أمام شعبه؛ فحدد يوم ١٣ آذار — مارس — موعداً لاستفتاء شعبي حول استقلال النمسا. مما أغضب هتلر؛ فقرر اجتياح النمسا؛ وقام غورنغ باتخاذ الإجراءات. فاتصل في الساعة السابعة عشرة من يوم ١١ آذار — مارس — ١٩٣٨ من مقره في برلين؛ مع السفير الألماني في فيينا؛ وأعلمه عن قرار الاجتياح؛ ثم اتصل بصنيعته زعيم الحزب النمساوي (سيس اينكارت) وقال له: «**شكل الوزارة في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الثلاثين. يجب أن تكون الوزارة نازية صرفة. ويجب أن يكون فيشبوك وزيراً للتجارة والاقتصاد. وكالتنبرونر؛ وزيراً للأمن. وسيس؛ وزيراً للحرب**».

لم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى اتصل الملحق العسكري الألماني في فيينا الجنرال موف وأعلم غورنغ هاتفياً عن استلامه لقائمة الوزارة النمساوية الجديدة؛ وعندها اتصل غورنغ برئيس الوزارة الجديد سيس اينكارت. وأصدر إليه الأمر التالي: «توجه مباشرة مع اللواء موف واجتمع بمستشار النمسا شوشلينج، وقل للمستشار إذا لم يسلم فوراً بالمطالب التي تعرفها؛ فسيزحف الجيش ويجتاح الحدود كلها هذه الليلة؛ وينتهي وجود النمسا. قل للقائد موف أن يصحبك؛ وأن يطلب استقباله. قل إن الوقت ليس وقت مماطلة». وأجاب سيس: حسناً. لكن غورنغ عاد للإتصال. وتحدث إلى سيس اينكارت وقال له: «**الوقت ضيق! نعد الدقائق! لن تجدي التنازلات شيئاً! وستسير الآلة..**». وأصدر غورنغ أمره، وانطلقت القوات لاجتياح النمسا. واستقال شوشلينج. واتصل غورنغ بفيينا، وتحدث إلى سيس، وقال له:

«**آه — أخيراً؛ شكلتم الحكومة؛ الآن اسمع؛ ابعث البرقية التالية — اكتب: ان الحكومة النمساوية المؤقتة؛ وبعد استقالة شوشلينج — والتزاماً منها بإقرار الأمن والهدوء. تطلب إلى الحكومة الألمانية مساعدتها العاجلة لإنجاز مهمتها. وتقديم العون لها لتجنب سفك الدماء. وتحقيقاً لهذه الغاية؛ ترجو الحكومة الألمانية إرسال جنودها دون إبطاء**».

واجتاحت القوات الألمانية النمسا يوم ١٢ اذار — مارس — ١٩٣٨؛ ويظهر أن المستشار النمساوي شوشلينج، قد تمكن من الإعلان عن ظروف اجتياح القوات الألمانية لبلاده. وأشار إلى

ما تعرض له من تهديد، لا سيما ذاك الذي حمله سيس بحضور الملحق العسكري الألماني موف، فأصدرت الحكومة الألمانية بياناً؛ جاء فيه:

«أولاً: إن الحكومة الألمانية لم تبلغ الحكومة النمساوية بأي إنذار نهائي. والذي قام بذلك هو سيس اينكارت النمساوي. ثانياً: لا صحة لما قيل من أن ألمانيا قد هددت مستشار النمسا. وإنما الذين هددوه هم أشخاص آخرون. ولقد كان الملحق العسكري الألماني موجوداً خلال ذلك بمحض المصادفة. وأخيراً: لم يدخل الجنود الألمان النمسا من تلقاء أنفسهم؛ وإنما بناء على طلب سيس اينكارت».

قام غورنغ بإبلاغ هذا البيان إلى وزير الخارجية الألمانية روبنتروب، الذي كان موجوداً يومها في لندن. والذي قام بدوره بتسليم البيان إلى الحكومة البريطانية. فأبدت هذه ارتياحها.

لقد أبرزت عملية ضم النمسا، وبصرف النظر عن تغطيتها السياسية ــ الدبلوماسية ــ التي لم تكن إلا تغطية هشة؛ أن غورنغ قد تجاوز في عمله (الحدود الاقتصادية)، و(الحدود العسكرية) المرتبطة بعمل وزير الدفاع. ولم يكن ذلك إلا ثمرة لسيطرته على السلاح الجديد الذي أظهر فاعليته القصوى حتى الآن (سلاح الجو الألماني). لقد جعل غورنغ من سلاح الجو؛ السلاح الأول للرايخ؛ فجعل هذا السلاح من غورنغ الرجل الأول في الدولة، بعد هتلر.

أصدر هتلر تعليمات جديدة برقم ٢٣٦/٣٨ تاريخ ٢١ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٨ بشأن خطة ألمانيا للمرحلة القادمة، من أجل: آ ــ احتلال تشيكوسلوفاكيا جميعها. ب ــ احتلال ميمل (في ليتوانيا). وبتاريخ ٢٣ أيار ــ مايو ــ ١٩٣٩؛ عقد هتلر مؤتمراً لقادته؛ وفي طليعتهم غورنغ، وقائد البحرية الأميرال ريدر، وتم فيه بحث الموقف، والعمل الديبلوماسي المطلوب حتى يبقى الغرب خارج المعركة. فانطلق ممثلو كبار رجالات الرور للتفاوض مع زملائهم البريطانيين، للوصول إلى اتحاد للمنتجين (كارتل) بهدف التخفيف من وطأة التنافس. وانتهت المفاوضات بالتوقيع على اتفاق في دوسلدورف بين اتحاد الصناعة البريطاني وتجمع الرايخ الصناعي. ولقد أقر هذا الاتفاق الانتاجي (الكارتل) السري إلى حد كبير؛ تثبيت الأسعار بصورة مشتركة، وحث على (ملاءمة الاتفاقات الثنائية الطرق والتي تستبعد كل منافسة)، وتضمن تهديدات مقنعة باتخاذ إجراءات مشتركة ضد أي بلد ثالث من جانب بريطانيا وألمانيا؛ وحتى بواسطة حكومتيهما. وكان ممثلو الحكومات الرسميون يعملون بالتوازي مع ممثلي رجال الصناعة. **وكان رئيس الشعبة الاقتصادية في وزارة الخارجية البريطانية آ. شتون جواتكن، موجوداً في برلين في نهاية سنة ١٩٣٨؛ فأجرى مباحثات مع غورنغ في موضوع القضايا الاقتصادية والمالية. واعترف الاثنان بضرورة (عقد اتفاقية اقتصادية واسعة النطاق).**

ما لبث مبعوث غورنغ وهو هلموت فوهلتات أن قام بزيارة إلى لندن في منتصف شهر حزيران ــ يونيو ــ ١٩٣٩ ؛ وقابل مستشار رئيس الوزراء تشمبرلن؛ ووزير التجارة لما وراء البحار روبرت هدسن؛ بالإضافة إلى مقابلات مع شخصيات أخرى. وجرى البحث في الموضوعات التالية: آ ــ عقد اتفاق سياسي (حلف عدم اعتداء). ب ــ تقاسم مناطق النفوذ. ج ــ المستعمرات. ودرست قضايا: الحد من التسلح؛ ومصادر المواد الأولية؛ والأسواق الصناعية؛ والديون؛ والتعاون المالي. وكان الهدف من ذلك هو: «إقامة تفاهم بريطاني ــ ألماني على أوسع نطاق ممكن حول المشكلات الهامة جميعاً».

تمكنت اتصالات غورنغ من تحقيق بعض النجاح؛ فقام عضو مجلس العموم البريطاني رودن بوكستن بزيارة لسفير ألمانيا في لندن ديركسن في يوم ٢٩ تموز ــ يوليو ــ ١٩٣٩، وأبلغه عن توافر إمكانية إبرام اتفاق مع ألمانيا؛ لاقتسام مناطق المصالح؛ وفقاً للشروط الآتية:

١ ــ أن تتعهد ألمانيا بعدم التدخل في شؤون الامبراطورية البريطانية.

٢ ــ أن تلتزم بريطانيا العظمى باحترام مناطق المصالح الألمانية احتراماً كاملاً في شرق أوروبا وفي جنوبها الشرقي.

وكان هذا الاقتراح البريطاني مثيراً؛ أعطى لدبلوماسية هرمان غورنغ قوة دفع جديدة. فاختار غورنغ رجلين من كبار رجال الأعمال لإجراء اتصالات مكثفة مع لندن. وبعد تبادل عدد من المذكرات بين لندن وبرلين. تم عقد اجتماع هام بين غورنغ، وسبعة من كبار رجال الصناعة البريطانيين، في يوم ٧ آب ــ اغسطس ــ ١٩٣٩ م. وأبدى البريطانيون معارضتهم لمخططات هتلر التوسعية في أوروبا (بولونيا وفرنسا والبلاد المنخفضة). في حين كان هتلر يريد السيطرة على هذه المناطق، قبل أن يدير وجهه نحو الشرق، ونحو الجنوب الشرقي من أوروبا. وإذا لم تنجح دبلوماسية غورنغ في إبقاء دول الغرب على الحياد بصورة نهائية. إلا أنها استطاعت تجميدها وإفقادها حرية عملها طوال الفترة الكافية التي كانت تحتاجها ألمانيا لإكمال استعداداتها.

لم يكن باستطاعة غورنغ الإضطلاع بدوره الديبلوماسي؛ إلى جانب دوره القيادي؛ بدون الاعتماد على جهاز استخبارات منظم ومحكم. وقد أفاد في هذا المجال على (معهد أبحاث سلاح الجو) المكلف بالتقاط المراسلات اللاسلكية والإذاعية وتحليلها؛ إلى جانب شبكته المنظمة في وسط دوائر الأعمال والصناعة. وكان باستطاعته أيضاً الاعتماد على شبكة استخبارات الجيش التي كان الجنرال كاناريس رئيساً لها؛ وعلى شبكات التجسس الأخرى (س. س وسواها). حيث كان غورنغ هو المثل الأعلى لرؤساء هذه الشبكات؛ وهو موضع الثقة. وبذلك كان غورنغ يستند إلى دعامات قوية؛ باستحواذه على ثقة هتلر من جهة؛ وباستحواذه على ثقة رؤساء مراكز القوى

الصناعية والأمنية (الجاسوسية) من جهة ثانية ؛ وباعتماده على القوى الجوية وقدرتها من جهة ثالثة .

عندما اجتاحت القوات البرية (مدرعات البانزر) أقاليم الغرب ؛ وأخذت القوات البريطانية وسواها من قوات الحلفاء في التجمع في دونكرك استعداداً للإنسحاب إلى انكلترا ؛ أصدر هتلر أمره الشهير : « **اترك دونكرك إلى الطيران** » . ولم يكن باستطاعة قائد البانزر غودريان إلا أن يحد من اندفاعة قواته . ولقد أمكن تحقيق الانتصارات الحاسمة بفضل الدروع والطائرات التي كانت تسدد إلى الخصم ضرباتها القوية والحاسمة . وإذن فلا غرابة إذا ما وجد هتلر في سلاح الجو أداة الحسم الأساسية . وانطلاقاً من هذا المفهوم ذاته ؛ أصدر هتلر أمره في يوم ٢ تموز ــ يوليو ــ ١٩٤٠ بتنفيذ عملية غزو بريطانيا ــ سيلوفه ــ وتلقى سلاح الجو في الوقت ذاته أمراً بتكثيف إغاراته على السفن البريطانية في بحر المانش ، وكان أولها تلك الإغارات التي وقعت في العاشر من تموز ــ يوليو ــ وكان من أهدافها : تدمير القوات الجوية البريطانية وقواعدها ، ثم بدأت وحدات الأسطولين الجويين الألمانيين الثاني والثالث بقصف الجزر البريطانية ، اعتباراً من يوم ١٥ آب ــ اغسطس ــ بهدف تدمير القواعد الجوية البريطانية ؛ ولما لم تحقق هذه العملية النجاح المطلوب ؛ بسبب مقاومة الطيران البريطاني الفعالة ، وجه غورنغ إغارات سلاح الجو على المدن ؛ بما فيها لندن . وكان أول قصف تعرضت له العاصمة البريطانية قد وقع في يوم ٧ أيلول ــ سبتمبر ــ وفي الرابع عشر منه ؛ تعرضت كوفنتري بصورة خاصة لقصف قاتل . وظل قصف الطيران الألماني للندن مستمراً على امتداد خمس وستين ليلة . ولقد صدم غورنغ قبل سواه بالنتيجة الفاشلة لمعركة بريطانيا ؛ فلا غرابة إن صدرت عنه في تلك الفترة تصرفات عصبية أبرزتها بعض مواقفه ؛ ومنها رسالته إلى أحد أصدقائه في البلد المحايد (السويد) والتي جاء فيها :

« **٢١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٤٠ ... لقد مسح طيراني مدينة كوفنتري من الوجود ... وهناك استياء لرؤية السويد وهي تستقبل الانتصارات الألمانية ببرود ــ ودون حماسة ــ وأخطر من ذلك ؛ أن فيها من يتعاطف مع بريطانيا ؛ فلا تندهش السويد فيما بعد إذا اتخذت ألمانيا إزاءها قراراً حاسماً ذات يوم ...** » .

لقد خاض سلاح الجو الألماني معاركه بنجاح طوال فترة الحرب ؛ وحقق الواجبات المطلوبة منه قدر المستطاع ؛ ووفقاً للإمكانات المتوافرة ؛ ولقد كانت معركة بريطانيا نقطة تحول حاسمة في قيادة غورنغ وفي خط سير سلاح الجو الألماني .

○

الوجيز في معركة بريطانيا

عام

١٩٤٠

٢٢ حزيران ــ يونيو ــ الهدنة الفرنسية .

٢ تموز ــ يوليو ــ إصدار أوامر العمليات لسلاح الجو الألماني .

١٠ تموز ــ يوليو ــ بدء معركة بريطانيا ؛ بالهجوم على قوافل السفن .

١٠ آب ــ اغسطس ــ أصدر هتلر تعليماته بتأجيل عملية (أسد البحار) .

٧ أيلول ــ سبتمبر ــ هجوم جوي شديد على لندن أثناء النهار .

١٥ أيلول ــ سبتمبر ــ أكبر هجوم جوي ألماني أثناء النهار ، سلاح الطيران الألماني يخسر ٥٦ طائرة .

٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ نهاية أعمال القصف النهاري .

١٢ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ إلغاء خطة (أسد البحار) .

٣ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ أول ليلة تمر على لندن ، دون أن تتعرض لإغارة جوية .

١٤ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ كوفنتري تتعرض للقصف الشديد .

٢ كانون الأول ــ ديسمبر ــ قصف بريستول .

٢٩ كانون الأول ــ ديسمبر ــ قصف مدينة لندن بالقنابل الحارقة ، وتدمير غيلدهول وثماني كنائس .

ب ـــ معركة بريطانيا

انهارت فرنسا يوم ١٤ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤٠؛ وفي يوم ٢٢ منه قبلت فرنسا شروط هتلر. وكانت بعض أوساط القيادة الألمانية العليا تتوقع أن تتقدم بريطانيا العظمى بطلب الصلح؛ في أثر استسلام فرنسا. لكن بريطانيا لم تستسلم؛ ولم تتقدم بطلب الصلح؛ فصدرت الأوامر إلى سلاح الجو الألماني بالتمهيد لغزو بريطانيا. وتقرر أن يتم تنفيذ هذا التمهيد على مرحلتين:

١ ـــ منع حركة النقل التجاري عبر القنال الانكليزي؛ على أن يتم ذلك بالتعاون مع القوى البحرية لمهاجمة قوافل السفن التجارية المعادية؛ وتدمير الموانىء في مناطق الموانىء، والطرق المؤدية إليها.

٢ ـــ تدمير سلاح الجو الملكي البريطاني؛ فتم تخصيص الأسطولين الجويين الثاني والثالث لعمليات الهجوم. وقد شملت قوات الأسطولين:

٣٠٠ طائرة مقاتلة (طراز مسرشميث ١٠٩).

١٨٠ طائرة قاذفة ـــ مقاتلة (طراز مسرشميث ١١٠).

١٣٥٠ طائر (طراز هنكل ١١١) و (جونكرز ٨٨) و (دورنيه ١٧).

٢٨٣٠ مجموع الطائرات.

وكان يقابل ذلك في قيادة المقاتلات البريطانية قوة مكونة من ٥٥ سرباً، بما في ذلك ٦ أسراب مقاتلة ليلية طراز بلينهايم، وكان القسم الأكبر من هذه الطائرات التي تراوح عددها بين ٦٠٠ ـــ ٧٠٠ طائرة هو من طراز هاريكنز. وقد تزايدت القوة البريطانية الجوية اعتباراً من ٢٩ أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٩٤٠ حتى بلغت ٥٩ سرباً، بما في ذلك أسراب المقاتلات الليلية الثمانية.

أكدت السنة الأولى من الحرب ـــ إلى حد ما ـــ صحة مفهوم استراتيجية سلاح الطيران الألماني؛ بحيث لم تكن أعداد الطائرات المقاتلة فيه تشكل نسبة كبرى من مجموع الطائرات القاذفة وسواها. ففي بولونيا كما في فرنسا؛ دمر القسم الأكبر من الطائرات المعادية وهي على الأرض؛ بينما لم يدمر منها في الاشتباكات الجوية سوى قسمٍ ضئيلٍ فقط. ولذا فقد ظهر واضحاً بأن سلاح الجو

الألماني لن يتمكن من إحراز نصر سهل وسريع في صراعه مع سلاح الجو الملكي البريطاني . وقد تبين بوضوح منذ بداية الصراع ـ إضافة لما كان قد ظهر أيضاً في المعارك الجوية السابقة في أثناء الحملة الألمانية على فرنسا ـ بأن لدى بريطانيا سلاحاً من الطائرات المقاتلة أكثر عدداً مما لدى منافسه سلاح الجو الألماني ـ علاوة على أن سلاح الجو البريطاني كان يتمتع بتوجيه جيد يتفوق على مثيله الألماني ؛ إذ كان البريطانيون يتفوقون بصورة خاصة في مجال الرادار ـ وكانت الروح القتالية ومهارة الملاّحين لدى البريطانيين تحتل المرتبة الأولى . وهنا لا بد من القول أيضاً بأنه قد أعطيت إلى المقاتلات الألمانية ؛ في المرحلة الثانية من معركة بريطانيا ؛ واجبات ومهام تجاوزت حدود العمليات المحددة لها ضمن سلاح الجو الألماني ؛ إذ أنه قد أسندت إليها مهمة إنزال الهزيمة بالمقاتلات البريطانية في معارك على نطاق واسع بهدف تحقيق السيطرة الجوية المطلقة ؛ مما يتطلبه عمل القاذفات التي تتبع هجوم المقاتلات .

تجمع الأسطولان الجويان الألمانيان الثاني والثالث في مطارات مموهة على ساحل القنال في منتصف صيف عام ١٩٤٠ . وأمكن حشد القوات والطائرات دون أي تدخل من جانب الطيران البريطاني ؛ خلافاً لما كان متوقعاً . وقد ظهر بأن البريطانيين كانوا خلال هذه الفترة يركزون قواتهم دفاعياً . ومقابل ذلك ؛ فقد انتهت المرحلة الأولى من معركة بريطانيا مع انتهاء القوات الجوية الألمانية من إعادة توزيع ونشر قواتها في القواعد الجديدة بتاريخ ٢٤ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤٠ . وكانت عمليات سلاح الجو الألماني حتى هذا التاريخ ؛ مقتصرة على مهاجمة البحرية البريطانية ؛ والسفن التجارية ؛ ورافق هذا النشاط وقوع هجمات جوية منعزلة ، دون أي دعم من المقاتلات ، وذلك منذ بداية الحرب مباشرة . وكانت هذه الهجمات تنطلق من شمالي ـ غرب ألمانيا ؛ ومن النروج بعد احتلالها . وقد جاءت هذه الأعمال والهجمات متوافقة مع إمكانات طائرات الجونكرز ـ ٨٨ القاذفة المقاتلة ذات المحركين . إلا أن هذه الطائرات لم تكن متوافرة بأعداد كافية ؛ بحيث جاء نجاحها في أداء واجباتها محدوداً . ولقد تم خلال هذه المرحلة إغراق حاملة الطائرات البريطانية آرك رويال . واستثمرت ألمانيا هذا العمل ـ دعائياً ـ على أوسع نطاق ممكن . إلا أن هتلر أصدر أوامره بعدم التعرض للبارجة البريطانية ريبلس والتي كانت لا تزال موجودة في حوض صناعة السفن . وكان هتلر يرغب في تلك الفترة تجنب إلقاء القنابل على الأرض الانكليزية مهما كانت الأسباب ، فكان على سلاح الجو الألماني ، بالتالي ، تركيز جهده لضرب الأهداف العسكرية والبحرية فقط ؛ مع العمل في الوقت ذاته على القيام باستطلاع مستمر للأهداف العسكرية الأساسية في الجزر البريطانية ؛ وجلب المعلومات الكافية عنها .

استمرت المرحلة الثانية من معركة بريطانيا ما بين ٢٤ تموز ـ يوليو ـ و ٨ آب ـ اغسطس ـ ١٩٤٠ ، وكانت معركة للطائرات المقاتلة بصورة أساسية . ففي اليوم الأول من هذه

المرحلة انطلق جناح من الطائرات المقاتلة الألمانية؛ وحلق للمرة الأولى فوق بريطانيا؛ واشتبك فوق مصب نهر التايمز بمعركة قتالية عنيفة مع طائرات السبيتفاير التي كانت تعمل على حراسة قافلة بريطانية بحرية. ولقد بوغتت الطائرات البريطانية بظهور الطائرات الألمانية؛ إلا أنها خاضت معركتها بكفاءة عالية.

كانت الطائرات البريطانية الحديثة فيكرز سوبر مارين سبيتفاير أقل سرعة من الطائرات الألمانية بعشرة حتى خمسة عشر ميلاً في الساعة؛ إلا أنها كانت أكثر قدرة من الطائرات الألمانية على القيام بدورانات حادة. أما الطائرات المقاتلة البريطانية هوكر ــ هاريكان فكانت طائرات قديمة ــ نسبياً ــ وكان البريطانيون يستخدمونها بأعداد كبيرة؛ وكان من الصعب مقارنتها بالطائرة الألمانية مي ١٠٩ لا من حيث السرعة؛ ولا من حيث القدرة على التسلق حتى المرتفعات العالية. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد كانت الأسلحة الألمانية وذخائرها أفضل من مثيلتها عند البريطانيين. كما كانت محركات الطائرات الألمانية مصممة على أساس الضخ أو البخ عوضاً عن المفحمات التي كانت مستخدمة في المحركات الانكليزية؛ مما كان يسمح للطيارين الألمان بزيادة التسارع بصورة مباغتة في اللحظات الحرجة من القتال. وقد عمل الطيارون الأنكليز على القيام بدوران نصفي؛ أو انقلاب نصفي؛ وهم في ذروة دورانهم؛ عندما كانوا يريدون التخلص من الاشتباك. في حين كان الطيارون الألمان ينطلقون في خط مستقيم؛ مع دفع ضخ الوقود حتى أقصاه؛ فكانوا يشعرون وكأن عيونهم تكاد تخرج من محاجرها. ولقد انتهت هذه المعركة بسقوط طائرتين ألمانيتين مقابل سقوط ثلاث طائرات بريطانية. وأيقن الطيارون الألمان، بنتيجة هذه التجربة القتالية؛ أن سلاح الجو الملكي البريطاني يشكل خصماً قوياً وعنيداً، وأنه من الصعب قهره.

أصبحت أسراب المقاتلات البريطانية تخوض منذ الآن فصاعداً عملياتها باستمرار فوق القنال؛ وأصبح من عادة الأسراب الألمانية المقاتلة القيام يومياً بطلعتين أو ثلاث طلعات؛ وكان الأمر يصدر دائماً كالتالي: «**صيد حر فوق جنوب ــ شرق انكلترا**». وانتهى ذلك بإجهاد الطيارين جسمياً ونفسياً؛ كما استنزفت قوة العناصر الأرضية والطائرات ذاتها حتى أقصى حدود الإستنزاف.

كانت تشكيلات الطائرات المقاتلة الألمانية؛ تنتظم بعد إقلاعها من قواعدها؛ فوق منطقة الساحل وعلى ارتفاع ١٥ ــ ١٨ ألف قدم بحيث يصل ارتفاعها عند عبور القنال ٢١ ــ ٢٤ ألف قدم؛ وذلك بهدف تسلق الأجواء والإرتفاعات حتى مسافات تزيد على ارتفاع الطائرات الانكليزية. وهذا مما جعل القتال يجري في أجواء متزايدة الإرتفاع باستمرار. وقد جرت بعض المعارك على ارتفاع ٢٥ ألف قدم. وكانت الطائرات الألمانية والانكليزية على السواء تشكل خلفها ذيلاً من البخار عندما كانت تبدأ في الإرتفاع لأكثر من ٢٧ ألف قدم؛ حيث الحدود الدنيا للطبقة الجوية العليا

(ستراتوسفير) . وكانت الطائرات الألمانية تحتاج لأكثر من نصف ساعة من الطيران ــ منذ لحظة إقلاعها ــ وحتى تجاوزها للساحل الانكليزي في أضيق نقطة من القنال . وبما أنه لم يكن باستطاعة الطيران التكتيكي (الطائرات المقاتلة) الاستمرار في الطيران لأكثر من ثمانين دقيقة . لذلك لم يكن لدى طياري الطائرات المقاتلة إلا عشرين دقيقة فقط لتنفيذ واجباتهم . وهذا في الواقع هو الذي أعاق طياري القتال عن اختراق الأجواء الانكليزية ، والتوغل في العمق الاستراتيجي داخل بريطانيا . فكانت أسراب المقاتلات الألمانية المنطلقة من بادوكاليه أو من شبه جزيرة كوتنتان لا تستطيع تغطية أكثر من الأجزاء الجنوبية ــ الشرقية من الجزر البريطانية ؛ وحتى حدود العاصمة لندن . فكان كل ما هو شمال لندن ؛ بعيداً عن مجال عمل المقاتلات الألمانية . وكانت هذه نقطة ضعف خطيرة في هجمات الطائرات المقاتلة التي لم يكن نصف قطر عملياتها يتجاوز ١٢٥ ميلاً . وقد كانت هذه المسافة كافية للدفاع المحلي ولتأمين واجبات الدعم ؛ غير أنها لم تكن كافية أبداً لتنفيذ واجبات كتلك التي طلب إلى الطيارين تنفيذها بطائراتهم المقاتلة .

كانت معركة بريطانيا تتطلب استخدام قوة جوية كبرى من (القاذفات الاستراتيجية) . يتم استخدامها على نطاق واسع للمرة الأولى في تاريخ الحرب . لذلك كان من الغريب حقاً عدم تكليفها منذ البداية بتنفيذ هذه العمليات . وتكليف الطائرات المقاتلة للاضطلاع بأداء هذا الواجب ؛ وهي الطائرات التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين من الأسلحة التكتيكية (التعبوية) . وكان السبب في ذلك ــ بحسب الاعتقاد الذي كان سائداً ــ هو أن ظهور المقاتلات الألمانية فوق انكلترا ؛ سيرغم المقاتلات الانكليزية على التقدم حتى المنطقة التي تقع ضمن حدود مجال عمل المقاتلات الألمانية ؛ مما يسمح بتدميرها ، أو تدمير قسم منها في معارك جوية على نطاق واسع ، الأمر الذي يؤدي إلى إحراز تفوق يسمح بتنفيذ هجمات القاذفات الألمانية . إلا أن هذا الإجراء أدى إلى نتيجة معاكسة . فقد عملت القيادة الجوية البريطانية على سحب طائراتها بعيداً عن مطاراتها وقواعدها المعرضة للتهديد ؛ ولم تعد تستخدم هذه المطارات والقواعد إلا في حالات الهبوط الاضطراري ؛ أو عند الحاجة للتزود بالوقود . وتجمعت الطائرات المقاتلة البريطانية ضمن حزام يحيط بلندن ؛ وهي على استعداد دائم للتصدي للقاذفات الألمانية ؛ ومهاجمتها . وبذلك تجنبت مهاجمة المقاتلات الألمانية حتى تتمكن من مهاجمة القاذفات بفعالية أكبر . ووجدت الطائرات المقاتلة الألمانية ذاتها أمام مأزق حرج ، مثله كمثل الكلب المقيد بسلسلة ؛ يريد الهجوم على خصمه ، إلا أنه عاجز عن إلحاق الأذى به ؛ أو الوصول إليه ؛ بسبب مجال عمله المحدود بطول السلسلة التي تقيده .

لم يعد باستطاعة الطائرة المقاتلة الألمانية تنفيذ واجبها ؛ مع استمرار بقاء الطائرة المعادية لها في قاعدتها الخلفية ، ولهذا فقد طلب قادة الطائرات المقاتلة ؛ من قيادتهم ؛ بأن ترافقهم الطائرات القاذفة ، لتنفيذ واجباتهم . ورد سلاح الجو الملكي البريطاني على هذا التطور الحاسم بأن عاد فزج

بطائراته المقاتلة لمجابهة المقاتلات الألمانية ؛ وفشل سلاح الجو الألماني مرة أخرى في اجتذاب الطائرات المقاتلة الانكليزية للمعركة .

كانت تشكيلات البريطانيين في الاشتباكات الجوية الأولى قريبة بعضها من بعض ؛ وكان ذلك أمراً سيئاً . في حين اعتمد الطيارون الألمان ؛ منذ أيام الحرب الاسبانية ؛ على تنظيم تشكيلات القتال المفتوحة ؛ فكانت هناك مسافات كافية تباعد بين التشكيلات الصغرى من جهة ، وبين المجموعات المختلفة من جهة أخرى ؛ والتي كان عليها أن تطير على ارتفاعات مختلفة ؛ مما حقق لها فوائد كثيرة : مثل تأمين تغطية جوية أكبر ؛ مع إعطاء حرية عمل أكبر للطيار الذي صار قادراً على تركيز انتباهه على العدو أكثر من تركيزه على حفظ مكانه في التشكيل ؛ كما توافرت بذلك حرية المبادأة حتى أصغر وحدة ، هذا مع المحافظة على القوة الإجماعية ؛ علاوة على أنها كانت توفر فرصاً أقل للتعرض مما كانت عليه التشكيلات المنضمة (والمتقاربة) . وكانت أهم ميزة لها هي أنها كانت تضمن إمكانية الرؤيا ؛ والمراقبة ؛ بشكل أفضل ؛ إذ كان من أول مبادىء الإشتباك الجوي هو أن تتمكن من رؤية عدوك قبل أن يراك ؛ على نحو ما يفعله الصياد عندما يسترق الخطى ، ويناور ، ويقترب من طريدته مختفياً حتى يصل إلى أفضل مكان يستطيع منه الرمي على هدفه وإصابته . ولقد عرف الطيارون الانكليز فائدة التشكيلات الألمانية ؛ وسرعان ما اقتبسوها واستخدموها في اشتباكاتهم .

أفاد البريطانيون منذ الأيام الأولى لبداية الحرب ؛ من ميزة لم يتمكن الألمان من التغلب عليها طوال فترة الحرب ؛ وهي امتلاك البريطانيين لأجهزة الكشف (الرادارات) واستخدامها لتوجيه طائراتهم . وكانت شبكة الكشف البريطانية دقيقة ؛ ومتوافقة مع أحدث التطورات التقنية ؛ فكان باستطاعتها تقديم أوفر المعلومات وأكثرها دقة ؛ وإيصالها إلى قيادة الطائرات المقاتلة . فكانت المقاتلات البريطانية نتيجة لذلك تحقق الإفادة من كامل الوقت للعمل ضد التشكيلات الألمانية المقاتلة ؛ ومتابعتها بداية من إقلاعها ؛ ونهاية بتنفيذ واجباتها ؛ وإنهاء المعركة . وقد أصاب ذلك طياري الطائرات المقاتلة الألمانية وقياداتهم بصدمة قاسية ؛ لأنهم وجدوا أنهم يفتقرون إلى ذلك كله . ولم يكن هذا يعني بدهياً أن البريطانيين كانوا خلال تلك المرحلة يتفوقون على الألمان علمياً أو تقنياً . وكانت ألمانيا قد سجلت أول نجاح في استخدام الرادار يوم ٤ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩ عندما قام سلاح الجو الملكي البريطاني بالإغارة على ولهلم شيغن وكان الفشل من نصيب هذه الإغارة التي كشفها الرادار قبل وقوعها . ثم عملت بريطانيا في اليوم التالي لإعلانها الحرب على ألمانيا ؛ فأرسلت تشكيلاً من القاذفات ؛ بدون حماية الطائرات المقاتلة . وعادت فأرسلت تشكيلاً آخر من القاذفات للإغارة على الهدف ذاته يوم ١٨ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٣٩ ؛ وعندما اقتربت هذه الطائرات القاذفة من برايت الألمانية ؛ اكتشف جهاز الرادار الألماني من طراز فريا ، كان قد وضع للتجربة ؛ أمر هذا

الإقتراب؛ وأتاح للمقاتلات الألمانية الفرصة المناسبة للهجوم على القاذفات البريطانية وتدميرها. وبعد ذلك النجاح الدفاعي الذي تم تحقيقه بفضل جهاز الرادار؛ لم تعد القاذفات البريطانية لتنفيذ إغاراتها بدون حماية الطائرة المقاتلة لها. وقد تكون هذه العمليات كافية للبرهان على أهمية الرادار للدفاع ضد الهجمات الجوية. ولكن نظراً لاهتمام القيادة الألمانية بالأعمال الهجومية ــ بالدرجة الأولى ــ ونظراً أيضاً لاستبعاد أي احتمال لوقوع هجوم جوي على الرايخ؛ من قبل طائرات الحلفاء؛ خلال تلك الفترة؛ فقد اقتصر الجهد على إقامة عدد من أجهزة رادار (فريا) على امتداد الحدود الألمانية؛ ثم وضع عدد آخر منها على السواحل الهولندية والبلجيكية والفرنسية؛ وكان مجال عملها يمتد إلى ٧٥ ميلاً؛ إلا أنها لم تكن قادرة على تحديد ارتفاع الطائرات المعادية. ومقابل ذلك؛ وبينما كانت القيادة البريطانية تستيقظ من ذهول الانتصار الألماني على فرنسا؛ أخذت في تركيز جهدها لتطوير أجهزة الرادار وتحسين قدرتها. وحققت في هذا المضمار نجاحاً رائعاً؛ وأصبحت خلال فترة قصيرة قادرة على كشف تحركات الطائرات الألمانية وهي لا تزال تقوم بتنظيم تشكيلاتها فوق بادوكاليه. ولم يكن باستطاعة المقاتلات والقاذفات الألمانية الهرب من عين الرادار؛ بعد أن أصبحت كل تحركاتها تنعكس دون أي خطأ على شبكة رادار مراكز توجيه المقاتلات البريطانية. ونتيجة لذلك؛ أصبح لدى قيادة المقاتلات البريطانية؛ إمكانات توجيه مقاتلاتها لمجابهة المقاتلات الألمانية في المكان المناسب والوقت المناسب.

كان على طياري المقاتلات الألمانية الاعتماد على أبصارهم وعلى عيونهم؛ في حين كان خصومهم من الطيارين البريطانيين يعتمدون على عين الرادار؛ بعيدة المدى؛ والتي يمكن الوثوق بها وبقدرتها أكثر مما يمكن الوثوق بتقديرات عين الانسان. وعندما كان يقع الاشتباك بين الطرفين؛ كان عمر معلومات طياري المقاتلات الألمانية في حدود ثلاث ساعات؛ بينما كان عمر معلومات الطيارين البريطانيين لا يزيد على ثوان معدودات؛ أي ما بين تحديد مواقع الطائرات المقاتلة الألمانية؛ وما بين تحويلها إلى أوامر قتال ترسل لاسلكياً من مراكز التوجيه والمراقبة إلى الطائرات المحلقة في الجو. وكانت هناك ميزة كبيرة أخرى أفاد منها الدفاع البريطاني؛ وهي أن الهجمات الجوية الألمانية؛ وخاصة منها هجمات الطائرات القاذفة؛ كانت موجهة بالضرورة نحو مراكز تجمع الدفاع البريطاني. ولم يكن هذا الموقف ليسمح للطيارين الألمان باختيار المراكز ذات الدفاع الضعيف؛ أو العمل على تغيير الاتجاه، بحيث يقوم الطيارون بهجومهم من اتجاهات مختلفة ــ خلافاً لما فعله الحلفاء بعد ذلك أثناء هجومهم على الرايخ ــ ولهذا لم يكن أمام الطيارين الألمان إلا فرصة واحدة للعمل؛ وهي القيام بالهجوم الجبهي على دفاع الجزر البريطانية؛ والذي كان منظماً تنظيماً رائعاً؛ كما كان يقوده ويوجهه رجال توافرت لهم الإرادة الصلبة لخوض الصراع. وبالإضافة إلى ذلك؛ كان سلاح الجو الملكي البريطاني يقاتل فوق أرضه؛ فكان الطيارون الذين يتركون في ظروف القتال الإضطرارية طائراتهم؛

ليهبطوا بالمظلات؛ يعودون مباشرة لمتابعة القتال. في حين كان رجال الطيران الألماني يقعون في أسر خصومهم عندما يواجهون ظروفاً مماثلة. وكانت الطائرات البريطانية المصابة تستطيع الهبوط هبوطاً اضطرارياً فوق منطقة مناسبة؛ بينما كانت إصابة الطائرات الألمانية بعطل في محركها؛ أو حتى في حال نفاذ وقودها؛ إنما كان يعني ضياع الطائرة والطيار معاً.

وهنا لا بد من الإشارة أيضاً إلى الدور الذي مارسته الروح المعنوية والمشاعر الغاضبة في هذه المعركة. **فالموقف الخطير والتحدي الثقيل اللذين فرضا على الشعب البريطاني؛ قد أثار هذا الشعب المدرك لأهدافه، والفخور بأصالته، والعارف لقدراته. فاتجهت كل أسلحته نحو هدف واحد هو صد الغزاة الألمان بأي ثمن؛ ومهما بلغت التضحيات**. ولقد استطاع الطيارون الألمان إسقاط عدد كبير من الطائرات الانكليزية خلال الأسابيع الأولى من الحرب؛ إلا أن هجمات الطائرات المقاتلة الألمانية لم تكن هي الطريقة المناسبة لضمان التفوق الجوي. وكان عدم وضوح الرؤية؛ أو عدم وضوح الهدف بتعبير أكثر دقة؛ هو نقطة ضعف خطيرة في تصميم القيادة الألمانية؛ ولهذا كانت أكثر تردداً في اتخاذ الإجراءات المناسبة؛ ومن ذلك إصدار أوامرها بتنفيذ الإغارات على قواعد المقاتلات البريطانية، من ارتفاعات منخفضة. وكان من الصعب جداً تنفيذ هذا الواجب؛ على مثل تلك الصورة؛ مما عرض المقاتلات الألمانية والقاذفات للخسائر الفادحة. ذلك أن القواعد البريطانية والمطارات كانت محمية جداً بمجموعة من المدفعية المضادة للطائرات، الثقيلة منها والخفيفة، كما جابه الطيارون الألمان سلاحاً دفاعياً مستحدثاً هو (الصاروخ)، والذي كان مجهزاً بأسلاك للهوائيات، حتى تعمل عملها إذا لم يصب الصاروخ هدفه بحيث يهبط الصاروخ بواسطة مظلة؛ ليصل إلى الأرض بسرعة بطيئة تمنعه من الإنفجار. وبذلك أمكن لبريطانيا حماية المناطق المعرضة من أرضها؛ فيما حول الأهداف. أما الطائرات ذاتها، فكانت مموهة بصورة رائعة؛ مما جعل من الصعب على الطيارين الألمان معرفة ما أمكن لهم تدميره من الطائرات البريطانية بصورة صحيحة.

استطاعت الطائرة المقاتلة الألمانية خلال هذه الفترة تأمين الحماية لتشكيلات الطائرات القاذفة، وطائرات الإنقضاض (البشتوكا)، التي كانت تعمل على مهاجمة السفن البريطانية. لقد كانت قوافل السفن البحرية تمثل ضرورة حياتية لبريطانيا. وكان الهجوم المستمر على هذه القوافل يمثل متعة رائعة لطياري القتال الذين باتوا خاضعين لرغبة عدم إضاعة هذه الفرصة.

كانت الطائرات المقاتلة الألمانية تنتشر في قواعدها على أرض شاطىء القنال؛ لتقوم بواجب حماية الطائرات القاذفة. وكانت سرعة طائرات جونكرز ـــ ٨٧ ـــ شتوكا بطيئة؛ وكان هذا هو عيبها الكبير؛ ثم تناقصت سرعتها أيضاً حتى أصبحت تقارب ١٥٠ ميلاً في الساعة بسبب تحميلها للقنابل الخارجية، التي كانت تتدلى منها، وكانت في حاجة للإرتفاع حتى ١٠ أو ١٥ ألف قدم

حتى تستطيع الإنقضاض على أهدافها. وكانت طائرات الشتوكا في أثناء هذا الإنقضاض تجتذب الطائرات البريطانية سبيتفاير و هاركينير لاقتناصها على نحو ما يجتذب العسل الذباب. وكانت أعداد الطائرات المقاتلة المطلوبة لحماية هذه الطلعات كبير جداً؛ كما كانت واجبات الطيارين محفوفة بالمصاعب الضخمة. وقد لاحظ الطيارون الانكليز بأنه عندما تترك طائرات الشتوكا تشكيلها للإنقضاض على أهدافها تصبح عملياً ضعيفة ما دامت منفردة عن تشكيلها وبعيدة عنه؛ بحيث أنها تبقى عاجزة حتى عن حماية نفسها، حتى تعود إلى تشكيلها من جديد. وقد بذل الطيارون المقاتلون الألمان جهداً كبيراً لتغطية هذا القصور. ولكن التفاوت بين سرعة الطائرات المقاتلة والطائرات القاذفة؛ جعل من الصعب على طياري الطائرات المقاتلة متابعة الطائرات القاذفة أثناء انقضاضها. وظهر أنه من المحال ضمان تغطية القاذفات وحمايتها خلال المراحل المختلفة ـــ بداية من مرحلة الإنقضاض وحتى نهايته ـــ فكان من نتيجة ذلك أن ارتفع معدل الخسائر بصورة مستمرة من طائرات الجونكرز ـــ ٨٧ في كل طلعة بعد أخرى؛ وكان على طياري الطائرات المقاتلة التعرض لتقريع قيادتهم؛ ولومهم؛ باعتبارهم المسؤولين.

كانت قيادة سلاح الجو الألماني تعتبر أن طائرة الشتوكا هي (بيضة كولومبوس). ذلك لأنها لم تكن قد ولدت في (وكر النسر الألماني). بل إن الخبراء الألمان قد جاءوا بها من العالم الجديد. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد طورت هذا النوع من القاذفات الصغيرة والخفيفة والمرنة في تحركاتها. وهي الصفات التي تسمح بإجراء هجمات دقيقة جداً. وتبنت ألمانيا فكرة صناعة (الشتوكا) بحماسة؛ نظراً لأنها تعطي أكبر مردود بأقل خسارة للعتاد والقدرة البشرية. وأصبح شعار استراتيجية القاذفات الألمانية هو القيام بالهجمات الإفرادية الدقيقة على أهداف معينة؛ بدلاً عن القيام بالهجمات الجماعية على المناطق الواسعة. **وكان وضع ألمانيا فيما يتعلق بالمواد الأولية قد فرض عليها بذل كل جهد للحصول على أكبر تأثير باستخدام الحد الأدنى من الوسائط؛ وهو مطلب حتمي بالنسبة لوضع المواد الأولية (الخام) في ألمانيا. وكان صاحب هذه الفكرة هو رئيس أركان حرب سلاح الجو الألماني اللواء جيسكونك عندما قال: «إن علينا تحقيق أكبر وفر، لا بالمال فقط بل بالمواد أيضاً»**.

لم تمتنع القيادة الألمانية عن التمسك بطائرة الشتوكا رغم فشل هذه الطائرة في معركة بريطانيا. ووقع اللوم على طياري المقاتلات، بسبب الخسائر الكبيرة في طائرات الشتوكا. علماً بأن مساوئها في العمليات كانت واضحة تماماً خلال تجربة معركة بريطانيا. ولم يقع اللوم على المصممين الذين تابعوا انتاج القاذفات المتوسطة والثقيلة على أساس تصميم الشتوكا. ولم يقفوا عند حد انتاج طائرة الشتوكا بمحركين؛ هي جو ٨٨ و دو ٢١٧ بل طالبوا بتنفيذ أعمال الإنقضاض كلها على جميع أنواع القاذفات التي ظهرت بعد ذلك؛ بما فيها هي ١٧٧ ذات المحركات الأربعة. وقد تطلبت هذه درجة

عالية من الثبات ؛ كما تطلبت تركيب مكابح (فرامل) للإنقضاض ؛ مع استخدام جهاز تسديد على الأهداف ، الخ ... وجهاز آلي (اوتوماتيكي) للخروج من الإنقضاض . ونتيجة لهذا الجمود العقلي ــ الذي لا يستطيع الانسان أن يصفه بغير ذلك ــ تأخر تطور القاذفات الألمانية الثقيلة ؛ وبعيدة المدى ؛ تأخراً كبيراً .

بدأت المرحلة التالية من معركة بريطانيا ؛ وهي المرحلة الثالثة ؛ اعتباراً من يوم ٨ آب ــ اغسطس ــ وكانت ذات أهداف متعددة . فبعد أن فشلت الطائرات المقاتلة في تأمين السيطرة الجوية ؛ صدرت الأوامر إلى الطائرات القاذفة بالهجوم على قواعد الطائرات المقاتلة البريطانية ؛ وعلى المراكز الصناعية لانتاج المحركات والطائرات . وهكذا ؛ وبينما اتجهت أعمال القصف نحو بورتسموث ، وبورتلاند ، وسواهما من الأهداف الساحلية ــ بصورة خاصة على الساحل الشرقي لبريطانيا ــ بقيت الهجمات على القوافل البحرية مستمرة ؛ وكان على الطائرات المقاتلة الألمانية متابعة أسلوبها في (الصيد الحر) .

لم تعط هجمات الطائرات القاذفة على قواعد الطائرات المقاتلة البريطانية ما كانت تتوقعه القيادة الألمانية من النتائج المثمرة . وكان وجود أسراب الطائرات المقاتلة على الأرض في أثناء هجوم القاذفات الألمانية ؛ مجرد مصادفة طارئة . كما أن كميات القنابل التي كان يتم إسقاطها على كل هدف من الأهداف ؛ لم تكن كافية بالتأكيد لتدمير المهابط والأبنية إلا بصورة جزئية ، بحيث كان يتم إصلاحها ــ على الأغلب ــ خلال ليلة واحدة . إلا أن ما كان يحدث في قيادة سلاح الجو الألماني هو كالتالي : « **تؤخذ تقارير القاذفات ؛ أو أسراب الشتوكا ؛ بيد ، وتنطلق اليد الأخرى لتشطب من على خارطة العمليات ــ بالقلم الأزرق ــ تلك القاعدة أو القوة الجوية التي تعرضت للهجوم . فتعتبر وكأنه لم يعد لها وجود . وهكذا كانت نتائج الهجمات لا تفعل أكثر من إزالة القواعد البريطانية وما تضمه من أسراب مقاتلة ، من على الخرائط فقط** » . ويحدث مثل ذلك غالباً لدى كل طرف من الأطراف المتحاربة ، لا سيما عندما تقع الهجمات على نطاق واسع ، بحيث أن حسابات برلين وصلت في أحد الأيام ؛ إلى افتراض بأنه لم يعد هناك وجود للطائرات المقاتلة البريطانية . وكان من المفروض أن تنجح القوات الجوية الألمانية بإحراز بعض التفوق فقط ؛ أما الحصول على التفوق الساحق فكان أمراً بعيد المنال . والسبب في ذلك هو المجال المحدود لعمل طائرات هينكل ــ هي ١٠٩ ، والذي لم يكن يسمح لها إلا باختراق قليل العمق ؛ مما كان يعيق عمل القاذفات ويحد من قدرتها .

كان باستطاعة الطائرات المقاتلة ؛ خلال تلك الفترة ؛ الإفادة من تجاربها خلال الحرب الأهلية الإسبانية ، لتطبيق الأسلوب الذي استخدمته بنجاح ؛ من أجل زيادة مجال عملها في اختراق حدود الجزيرة البريطانية ؛ وذلك باستخدام خزانات إضافية للوقود ، يتم التخلص منها بعد

استخدامها. ولقد استخدمت هذه الطريقة ذاتها بعدئذ من قبل الطرفين المتصارعين الألماني والبريطاني، ولكن الطائرات المقاتلة الألمانية لم تحقق ما كانت ترجوه من النجاح، باستخدامها لهذه الطريقة؛ وذلك لأنها كانت تصطدم يومياً بمقاومات متعاظمة؛ فقد نظم البريطانيون دفاعهم لحماية الأهداف التي يمكن أن تطالها الطائرات المقاتلة الألمانية؛ والتي باتت تتعرض للخسائر الكبيرة؛ دون أن تقترب عملياً من هدفها النهائي. وجاء هذا الفشل الجديد ليلقي بثقله على كاهل طياري القتال؛ الذين تعرضوا أكثر من قبل لغضب القيادة ولومها. وكان لهذا الموقف؛ بالإضافة إلى التغيير المستمر في الأوامر، مما كان يقدم غياب الهدف الصحيح عن أبصار القيادة؛ ثم إقدام القيادة الألمانية العليا على إصدار أحكامها الخاطئة في تقدير الموقف وتقويمه؛ مما أدى بهذه العوامل مجتمعة لإحباط الروح المعنوية لطياري القتال؛ ولإضافة مزيد من الإرهاق الجسدي والنفسي، مما كان يعانيه الطيارون المقاتلون؛ فارتفع تذمرهم وشكواهم ضد قيادتهم، وضد طائراتهم القاذفة الشتوكا. بل إن الـسخط امتد للطيارين الذين لم يعودوا راضين حتى عن أنفسهم.

كان الطيارون الألمان يشهدون في كل يوم إخوانهم من قدامى الطيارين المجربين؛ ورفاقهم من الطيارين الجدد؛ وهم يختفون في المعارك؛ ويغيبون عنهم واحداً بعد الآخر. وقلما مضى يوم عليهم دون أن يصبح مكان أحدهم شاغراً على طاولة الطعام في النادي؛ لتظهر بعدها وجوه جديدة؛ وما إن تصبح هذه الوجوه مألوفة ومحببة إلى قلوب الآخرين؛ حتى تختفي بدورها أيضاً في خضم معركة بريطانيا.

جابهت الطائرات المقاتلة مشكلات كثيرة خلال اضطلاعها بواجب حماية الطائرات القاذفة؛ وكان على طياري الطائرات المقاتلة إيجاد الحلول المناسبة لهذه المشكلات؛ على نحو ما كانوا قد فعلوه من قبل، خلال تجربة الحرب الأهلية الإسبانية. فقد كان قادة الطائرات القاذفة يفضلون التغطية القريبة، بحيث يحاط تشكيلهم بأزواج من الطائرات المقاتلة التي تطير في خطوط متعرجة (زيك زاك). إذ كانت مواكبة الطائرات المقاتلة للطائرات القاذفة؛ ومرافقتها لها؛ ووجودها ضمن مجال النظر؛ يعطي قادة القاذفات شعوراً بالأمن والطمأنينة. إلا أن ذلك الشعور لم يكن صحيحاً؛ ذلك أن طيار القتال لا يستطيع أداء واجب الحماية؛ والإضطلاع بالمهمة الدفاعية؛ إلا إذا تمكن من الحصول على المبادأة في الهجوم على الخصم؛ وكان عليه عدم الانتظار حتى يهاجمه هذا الخصم؛ لأنه سيفقد في هذه الحالة حرية العمل. ولهذا كان على طيار القتال أن يبحث عن المعركة في الجو، حتى يعثر على خصمه ويباغته بهجوميه فيرميه ويسقطه، بينما كان على طيار القاذفة أن يتجنب هذه المعارك؛ وعليه أن يتصرف بشكل دفاعي حتى ينجح في تنفيذ مهمته وهي (الحرب من الجو). فكان من طبيعة الأمور أن يحدث صدام بين العقليتين المختلفتين اختلافاً أساسياً؛ أثناء التعاون بين القاذفات والمقاتلات.

كان قادة الطائرات المقاتلة يفضلون بالتأكيد أسلوب (الصيد الحر) سواء أثناء اقترابهم من الهدف؛ أو عند وصولهم إلى منطقة الهدف؛ إذ أن ذلك يعطيهم قدراً أكبر من حرية العمل؛ كما أنه يضمن لهم فرصة أفضل لحماية القاذفات؛ ولو أن هذا الأسلوب لا يمنح طياري القاذفات شعوراً مباشراً بالأمن والطمأنينة. ولم يبق أمام طياري المقاتلات إلا اتباع؛ أو اختيار حل وسط للتوفيق بين وجهتي النظر المتباعدتين: وهو الحل الذي أطلق عليه اسم (الحماية الواسعة)، وهو الحل الذي يمكن تنفيذه بطيران الطائرات المقاتلة حتى حدود المراقبة بالنظر للطائرات القاذفة؛ مما يسمح للطائرات المقاتلة بمهاجمة كل طائرة مقاتلة معادية تحاول الإقتراب من القوة الرئيسة للطائرات القاذفة. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد طرح قادة الطائرات المقاتلة فكرة (القتال الاعتراضي) وذلك بإطلاق أسراب أو أجنحة الطائرات المقاتلة، وإرسالها إلى الشاطىء لاستقبال التشكيلات المتفرقة والممزقة في كثير من الأحيان، وتوفير الحماية لها من مطاردة المقاتلات الانكليزية لها. مع العمل في الوقت ذاته على إطلاق فرق الإنقاذ البحرية بقواربها وطائراتها المائية؛ لتعمل تحت حماية الطائرات المقاتلة، من أجل إنقاذ الطيارين والملاحين ممن يقفزون بالمظلات؛ أو ممن يضطرون للهبوط بطائراتهم في البحر. وكانت فرق الإنقاذ هذه في الواقع بمثابة فرق الرحمة. إذ استطاعت إنقاذ الطيارين الألمان ــ والانكليز أيضاً ــ من البحر؛ وحتى من مصب نهر التايمز ذاته.

كان يجب تكليف طائرات هي ــ ١١٠ بأداء دور حماية الطائرات القاذفة؛ ولا سيما أن هذه الطائرة كانت قد صممت وصنعت لتنفيذ الواجبات التي لا تستطيع الطائرات المقاتلة تنفيذها بسبب قصر مجال عملياتها. إلا أنه تبين أيضاً بأن طائرة هي ــ ١١٠ هي أقل ملاءمة لتلك العمليات من طائرات هي ــ ١٠٩، كما أنها لم تكن قادرة على الفرار من المقاتلات الانكليزية؛ إلا بعد أن تشكل دائرة دفاعية تستطيع الهرب بواسطتها؛ أو أن تصل الطائرات المقاتلة الصديقة لنجدتها ومساعدتها للخروج من المأزق الذي تواجهه ــ لقد كان موقفاً مضحكاً ومبكياً في آن واحد ــ وكان من الأفضل سحب طائرات هي ــ ١١٠ كلها من الخدمة؛ وعدم تكليفها بالواجبات القتالية. وكان اتخاذ هذا القرار صعباً؛ إلا أنه لم يكن هناك بد من اتخاذه؛ فتم إقراره في النهاية، وسحبت من الخدمة؛ إلا أن سحبها جاء في وقت متأخر؛ تعرض خلالها الطيارون والطائرات للخسائر الفادحة. ولقد مضى شهر تقريباً على بداية العمليات فوق شاطىء القنال؛ ظهر بعده الموقف وهو لا يحمل أية بارقة من الأمل بإمكان بلوغ الهدف. وكانت الحالة النفسية لطياري القتال تتزايد سوءاً لدى مقارنة ما يتعرضون له من ضغوط؛ وما يحتملونه من كره القتال؛ وبين ما كانت تعيشه ألمانيا من الأمن والرفاه.. **ففي تلك الفترة كانت البلاد تنعم بالسلم والهدوء؛ ولم يكن للحرب أي أثر على الحياة اليومية. كان الرجال الذين لم يطلب إليهم الإلتحاق بالخدمة العسكرية يكسبون أموالاً وفيرة. وكانت زوجات رجال الجيش يتقاضين تعويضات سخية،**

وكانت المسارح ودور السينما وأماكن اللهو مكتظة بالناس؛ فالحرب لم تلمس بعد حتى القشرة الخارجية للحياة في ألمانيا. ولا أحد يعرف هل كان ذلك فألاً حسناً؛ أم نذيراً بالشؤم؟ إلا أن الحقيقة هي أن ظواهر اللامبالاة هذه؛ وعدم الاهتمام بالحرب؛ كان ينعكس بصورة سلبية على الحالة النفسية لطياري القتال ـــ خاصة ـــ والذين كانوا يخوضون معركة حياة أو موت عبر معركة بريطانيا. وكانوا يدركون تماماً أن المعركة التي يضطلعون بأعبائها، هي معركة ذات أهمية حاسمة على استمرار الحرب، وعلى نتيجتها النهائية؛ مما كان يستدعي تركيز كل الجهود لتحقيق النصر فيها. كان هؤلاء الطيارون يشعرون أن قواهم قد استنزفت؛ وظهرت لهم الحرب العالمية الثانية وكأنها هرم مقلوب رأساً على عقب؛ بحيث أن ذروته هي التي تحمل التوازن مما يجعل من الصعب معرفة أية نقطة سيستقر عليها الهرم في النهاية. وكان ثقل الحرب بكامله يقع خلال تلك الفترة على كاهل طياري المقاتلات الألمانية، الذين يخوضون صراعهم المر فوق القنال. ولم تكن أعدادهم أكثر من نقطة في المحيط؛ بالمقارنة مع ملايين الرجال الموضوعين تحت السلاح في ألمانيا. ومعروف أن العواطف قد تتناقض مع المنطق في كثير من الأحيان؛ فليس باستطاعة فرق الجيش الألمانية التي تعيش حياة هادئة في المناطق المحتلة من أوروبا؛ أن تحمل لطياري القتال أية مساعدة؛ أو أن تقدم لهم أي عون. كما أنه قد يكون من المحال على تلك الحشود السعيدة من الناس؛ والمنصرفة إلى ملاذها ومسراتها؛ أن تشارك طياري القتال معاناتهم وهم يجابهون سلاح الجو الملكي البريطاني؛ إلا أن هذا التناقض بين ظروف حياة طياري القتال، وظروف الحياة العامة في ألمانيا؛ كان يثير شعوراً بالمرارة لدى الطيارين المقيمين على شاطىء القنال.

أقام الماريشال غورنغ مقر قيادته الفخم في كارنهول. وكان المحيط العقلي للقيادة العليا مشبعاً بروح التفاؤل في هذا الجو الراقي. وكان غورنـغ كثيراً ما يستدعـي لمقابلتـه قادة التشكيلات المقاتلة؛ فكان هؤلاء ينسون همومهم الصغيرة بين القادة الكبار؛ وضباط هيئة الأركان؛ الذين يظهرون استعدادهم لتقديم أية مساعدة؛ والذين يتفهمون كل القضايا فيشيعون الثقة التي تملؤها في نفوس الآخرين. وكان غورنغ يتابع بدقة جهود الطيارين؛ ويستدعي المتفوقين منهم لتقليدهم الأوسمة الذهبية؛ ويستفيد من هذه المناسبة ليجتذب إليه القادة، وليتحدث إليهم عن واجباتهم؛ ويظهر تقديره لجهودهم؛ ويعلمهم في الوقت ذاته عن استيائه من تقصير الطائرات المقاتلة عن حماية الطائرات القاذفة. ويطلب إليهم ـــ بحزم ـــ بذل جهد أكبر. وقد عمل خلال تلك الفترة على وضع خطة لإثارة الحماسة في صفوف الطيارين؛ عن طريق تسليمهم مراكز قيادية. فقد كان الضباط القادة في بداية الحرب، رجالاً قد تقدمت بهم سنوات العمر؛ ومعظمهم كانوا ممن خدموا في الحرب العالمية الأولى. وظهر واضحاً في أثناء الهجوم على جبهة الغرب، بأن الزمن قد تجاوزهم؛ فباتوا وهم يفتقرون للكفاءة الجسدية وللروح المعنوية التي يتطلبها التكيف مع المتطلبات الكبرى

للطيران. فعمل غورنغ على إخراج قسم كبير منهم من تشكيلات القتال. ثم أخذ يعمل خلال معركة بريطانيا على تسليم الشباب الناجحين قيادة هذه التشكيلات، مع ترفيعهم؛ على أن يتابعوا دورهم في قيادة التشكيلات المقاتلة، مما كان يفرض على القادة الجدد أن يكونوا دائماً في طليعة قواتهم؛ وقدوة لها؛ وبحيث لا يطلب قائد الطائرات المقاتلة من طياريه شيئاً لا يستطيع هو تنفيذه.

كان ماريشال الجو غورنغ يقوم ما بين فترة وأخرى بزيارة تفقدية لقوات سلاح جو في قواعدها. وقد قام بإحدى هذه الزيارات عندما كان هجوم قاذفات القنابل على انكلترا وشيك الوقوع؛ وكانت الطائرات المقاتلة قد أنزلت بالطائرات المقاتلة البريطانية خسائر فادحة، إلا أنها لم تتمكن من إبادتها وتدميرها تدميراً تاماً؛ وبذلك لم تكن الطائرات المقاتلة الألمانية قد حققت ما هو مطلوب منها؛ وهو تحقيق السيطرة الجوية اللازمة لحماية الطائرات القاذفة؛ كما أن الطائرات المقاتلة الألمانية قد تعرضت بدورها لخسائر فادحة في الرجال والطائرات، علاوة على ما نزل بها من إحباط معنوي. **وظن غورنغ أن السبب في ذلك يعود إلى ضياع الثقة بإمكان تحقيق النصر الكبير والحاسم؛ وضعف الروح القتالية؛ ولم يكن على استعداد للإعتراف أو لقبول فكرة أن سلاحه الجوي؛ وهو السيف الذي بقي ماضياً ومتألقاً حتى الآن؛ قد أصبح مهدداً بالتثلم بين يديه. وخيل إليه أن وجوده الشخصي مع طياريه سيسهم في تحويل الموقف؛ وأنه بذلك سيحصل من الطيارين على ما يريد. إلا أنه سار في الطريق الخاطىء عندما أنحى باللائمة ومرة بعد.أخرى على طياري القتال**. لقد نصب غورنغ نفسه للدفاع عن الطائرات القاذفة. ولم يحاول الأخذ بوجهة نظر طياري القتال واعتراضاتهم على استخدام الطائرة هي ــ ١٠٩. ولهذا لم يكن غريباً أن يتصدى أحد كبار قادة سلاح الجو للماريشال غورنغ ليطلب إليه تزويد الطائرات المقاتلة بنوع جديد مماثل للطائرة الانكليزية سبيتفاير حتى يحصل على النتيجة المطلوبة. وعندها أدرك غورنغ أن مواصفات الطائرات هي المسؤولة عن الفشل؛ وليست هي مسؤولية طياري القتال.

○

كانت مكبرات الصوت في تلك الفترة تنتشر في رايخ ألمانيا الكبرى بداية من آخن وحتى تيلستي. ومن فيلنسبورك حتى اينسبورك. وفي مراكز الجيش المنتشر على أرض البلاد المحتلة. وكانت مكبرات الصوت هذه تردد باستمرار (**قنابل على انكلترا**). وكانت كلمات هذه الأغنية تتردد مع الضربات الإيقاعية العسكرية على طبل ضخم؛ وترافقها أصوات هدير الطائرات. لقد كان الهدف من ذلك هو إحداث تأثير نفسي في كتلة الجماهير الألمانية. ولكن هذا التأثير انعكس بصورة سلبية على الصفحة النفسية لطياري القتال؛ حتى أنهم أعرضوا عن سماعها منذ البداية؛ وكان السبب

الأول في ذلك هو أن قضية (إلقاء القنابل على انكلترا) لم تطرح بصورة جادة وصادقة خلال المرحلتين الأولى والثانية من معركة بريطانيا. ولهذا لم تظهر القاذفات الثقيلة في سماء انكلترا إلا في المرحلة الثالثة؛ وكان ذلك بهدف دعم طائرات القتال لكسب السيطرة الجوية.

امتدت المرحلة الثالثة من معركة بريطانيا ما بين ٨ آب ــ اغسطس ــ و ٧ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٤٠، وقامت القاذفات الألمانية بمحاولة تنفيذ الواجب الذي حدد لها: «محو وإزالة قوة العدو الجوية؛ وهي جاثمة على الأرض». وقد أخذت الموجات المتتالية من القاذفات بالإنطلاق بأعداد كبيرة؛ أظلمت لها صفحة السماء. فماذا كانت نتيجة هذا القصف الاستراتيجي؟..

أفاد الدفاع الانكليزي مرة أخرى من المدى المحدود لمجال عمل القاذفات والمقاتلات الألمانية؛ ذلك أن قطاع المعركة فوق بريطانيا لم يتجاوز في الواقع مساحة عشر الجزيرة (واحد من عشرة). وبقي سلاح الجو الملكي البريطاني قادراً على العمل بكامل حريته فوق تسعة الأعشار الباقية؛ من أجل صناعة الطائرات وإنتاجها؛ ولتدريب الطيارين؛ ولتشكيل أسراب جديدة؛ ولجمع الاحتياط؛ وتنفيذ ذلك كله دون أي تدخل من جانب سلاح الجو الألماني. وكان باستطاعة سلاح الجو الملكي البريطاني بعد ذلك؛ زج هذه القوات ضمن حدود جبهة ضيقة؛ لا تتجاوز حدود الإطار المحيط بمدينة لندن؛ وقد وصف الرئيس البريطاني وينستون تشرشل في مذكراته موقف بريطانيا الصعب أثناء مجابهتها لقوة المقاتلات الألمانية المتفوقة، فقال:

«لقد أمكن إنقاذ الموقف عن طريق توجيه كل الإمكانات لتعويض الخسائر فقط. إلا أن هذه الجهود كلها لم تكن قادرة على إنتاج ثمارها لو أصبحت الجزيرة كلها ميداناً للمعركة؛ عوضاً عن ذلك العشر المحدود فقط».

كان بالمستطاع تغيير هذا الموقف تغييراً أساسياً لو كان لدى الألمان قاذفات بعيدة المدى؛ قادرة على نقل الحرب جواً حتى السواحل الشمالية؛ والشمالية الغربية؛ والغربية للجزيرة البريطانية. حيث يمكن عندها تدمير وإعاقة عملية التعويض عن الخسائر التي كان يتعرض لها سلاح الجو الملكي البريطاني. وعلاوة على ذلك؛ فقد كان بالمستطاع عندها إرغام الدفاع البريطاني على الانتشار فوق أرض الجزيرة كلها عوضاً عن تركيزه في قطاع ضيق؛ مما كان يدفع الطيارين الألمان لمهاجمته جبهياً. إلا أنه لم يكن لدى سلاح الجو الألماني يومها قاذفات استراتيجية ثقيلة. وقد عمل المسؤول عن عمليات الطائرات القاذفة الجنرال ويفر على طلب صناعة مثل هذه الطائرات؛ فأرسلت له مؤسسات صناعة الطائرات الألمانية مجموعة كاملة من التصاميم والمخططات الجيدة؛ فوقع الاختيار على نموذج هي ــ ١٧٧ وهي طائرة ذات أربعة محركات؛ وفيها محركان متحدان؛ يدير كل واحد منها

مروحة لها أربع شفرات. وقد أعلن هتلر شكه في موضوع اتحاد المحركين. وقد أصدر هتلر حكمه هذا بصورة صحيحة، وبطريقة مذهلة؛ كما كان شأنه في كثير من الأحيان عندما كان يناقش صناعة المحركات. وقد ثبت في النهاية أنه كان على حق في شكوكه. ذلك أن اتحاد المحركات هذا أصبح مصدراً لصعوبات تقنية كثيرة. وقد أدى هذا؛ بالإضافة إلى عدد من العوامل الأخرى، إلى إعاقة انتاج مجموعات طائرات هي ــ ١٧٧ وتأخيرها عن الظهور لمدة ثلاثة أعوام. ولقد كان الحافز القوي لظهورها في الواقع هو إلحاح الأميرال دونيتز على إنتاج قاذفات بعيدة المدى، لحماية الغواصات (زوارق ــ يو). فتم استخدام الطائرة هي ــ ١٧٧ للمرة الأولى في فصل الشتاء من سنة ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣؛ وذلك لإمداد القوات في ستالينغراد وتموينها؛ ولقد استخدمت هذه الطائرة هنا لنقل الجنود والأعتدة؛ وذلك خلافاً للهدف الأساسي الذي تم تصميمها وانتاجها من أجله. كان لزاماً على طياري القتال التلاؤم مع واقعهم والتكيف معه؛ بسبب غياب القاذفات الثقيلة؛ ومتابعة الهجوم على لندن؛ عاصمة المملكة المتحدة؛ وقلب الامبراطورية البريطانية؛ تلك المدينة الواقعة على ضفتي نهر التايمز، المكتظة بالسكان؛ وذات الأهمية العسكرية الكبرى؛ فهي مركز عقل وعصب القيادة البريطانية العليا، وهي أيضاً المرفأ؛ ومركز التسلح. ولما كانت لندن ضمن مدى هجمات الطائرات القاذفة اليومية؛ والتي كان يتم تنفيذها بحماية الطائرات المقاتلة؛ وعلى الرغم من عدم فاعلية الهجوم عليها، وضعف تأثيره؛ وعلى الرغم أيضاً من الخسائر الكبيرة التي كانت تتعرض لها الطائرات الألمانية أثناء هجومها؛ فإن وجود لندن ضمن مدى الهجوم؛ كان جانباً إيجابياً في فكرة (الهجوم العام على لندن). ولقد انتظر قادة الطائرات المقاتلة بشوق كبير وصبر نافذ؛ قيام الطائرات القاذفة بهجومها؛ بعد أن تسببت المهمة التي حددت لهم من قبل؛ والتي كانت تفوق طاقتهم؛ في إحباط عزائمهم وتثبيط هممهم. وكان الاعتقاد السائد هو أن المقاتلات البريطانية ستضطر لمغادرة جحورها أخيراً لمواجهة هجمات الطائرات القاذفة؛ مما يسمح لطياري الطائرات المقاتلة الألمانية بفرص الاشتباك معها.

كانت القيادة العليا تعلق أهمية كبرى على المرحلة الرابعة من معركة بريطانيا. وتأكيداً لهذه الحقيقة؛ فقد جاء القائد الأعلى ماريشال الجو غورنغ إلى منطقة القنال؛ ليعطي بنفسه أمر البدء بتنفيذ العملية؛ وتجمعت أسراب الطائرات الألمانية فوق القنال؛ بعد ظهر يوم ٧ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٤٠، حتى زاد عددها على ألف طائرة، ما بين طائرة قاذفة وطائرة مقاتلة وطائرة شتوكا؛ وشعر كل من اشترك في تلك الإغارة بأهمية تلك الساعة التاريخية.

قد يكون من السهل، في هذه الأيام، الابتسام عند ذكر ما كانت تتوقعه القيادة الألمانية في تلك الفترة؛ من تأثير مثل هذا الهجوم وفعاليته. وتكفي الإشارة إلى أن الحلفاء لم يتمكنوا من تدمير برلين، أو حتى شلها؛ على الرغم من أن عدد طائراتهم قد زاد بمعدل ضعفين وحتى ثلاثة أضعاف

عما كانت عليه أعداد الطائرات الألمانية. كما حملت كل طائرة من طائرات الحلفاء خمسة أضعاف وزن القنابل التي كانت تحملها تلك الطائرات الألمانية. هذا علاوة على تطوير أجهزة إلقاء القنابل في طائرات الحلفاء؛ واتقانهم لأساليب القتال. ولهذا كان من طبيعة الأمور أن تقود هذه العملية منفذيها الطيارين للرعب والخوف من المجهول.

في أثناء أول مجموعة من الإغارات الواسعة النطاق على لندن والتي بلغ عددها ٣٨ إغارة؛ تركزت الهجمات على المنشآت الصناعية؛ ومراكز توليد الطاقة في لندن؛ ومستودعات الوقود على ضفاف التايمز. ولم يتم توسيع نطاق الأهداف في منطقة لندن إلا في وقت متأخر. وكان ثقل القنابل التي ألقيت هي ١٥٠ و ٧٥٠ و ١٢٥٠ ليبرة. وقلما استخدمت القنابل التي زاد وزنها حتى ٢٥٠٠ ليبرة. وكانت حمولة كل طائرة من الطائرات الألمانية تتراوح بين ٢٥٠٠ و ٤٥٠٠ ليبرة، أي أن الوزن الكامل للقنابل التي كان يتم إسقاطها في كل إغارة هو في حدود ٥٠٠ طن تقريباً، في حين استخدم الحلفاء فيما بعد القنابل التي زاد ثقلها على ١٠ طن. ولم يكن باستطاعة الوسائل المتوافرة للألمان تنفيذ أحدث أساليب (القصف الساحق) على النحو الذي استخدمه الحلفاء في إغاراتهم على الرايخ؛ وعلاوة على ذلك؛ فقد كانت القنابل الألمانية تتناثر فوق عدد كبير من الأهداف المتفرقة.

كان الجناح الألماني هو وحدة الهجوم ــ بصورة عامة ــ وكان عدد طائرات الجناح يتراوح بين خمسين وثمانين طائرة. وكان يقوم بحماية كل إغارة جناح من الطائرات المقاتلة. وهكذا؛ ومع بداية المرحلة الرابعة؛ كان مجموع القوات الجوية يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ طائرة قاذفة؛ و ٢٠٠ طائرة شتوكا انقضاضية. كما كانت توفر الحماية لهذه القاذفات قوة مكونة من ٥٠٠ طائرة مقاتلة تقريباً، و ٢٠٠ طائرة مدمرة. أما إمكانات البريطانيين في تلك الفترة فقد كانت ــ وفقاً للتقديرات الألمانية ــ لا تزيد على ٣٠٠ طائرة في خط الجبهة.

كان يتم التقاء قاذفات القنابل الألمانية مع الطائرات المقاتلة المسؤولة عن حمايتها؛ على مقربة من قواعد المقاتلات الألمانية؛ وكان هذا الالتقاء يتم فوق العلامات أو الشارات الأرضية البارزة من منطقة الساحل؛ وعلى ارتفاعات متفق عليها سابقاً، في ساعة الصفر. وحدث أكثر من مرة أن وصلت الطائرات القاذفة في وقت متأخر عن الموعد المحدد لها. وكان ينتج عن ذلك انضمام الطائرات المقاتلة إلى تشكيل آخر من تشكيلات الطائرات القاذفة؛ يكون تحت حراسة مجموعة أخرى من الطائرات المقاتلة. وكان على تشكيل الطائرات القاذفة في مثل هذه الحالة، العمل تحت حماية الحراسة المضاعفة من طائرات القتال. بينما يصبح تشكيل الطائرات القاذفة الذي وصل متأخراً، مضطراً للعودة إلى قواعده التي كان قد انطلق منها؛ والامتناع عن تنفيذ العملية. وإما تنفيذ هذه العملية، وهو محروم من الحماية والحراسة؛ مما كان يجعله عرضة لاحتمال الخسائر في طائراته

القاذفة وطياريه. لم تكن الطائرات الألمانية في تلك الفترة مجهزة بأجهزة الاتصال اللاسلكية ؛ وأجهزة الرادار الموجهة. وكانت الشبكات اللاسلكية الأرضية عرضة للتوقف والأعطال في كثير من الأحيان. وكانت هذه المصاعب تتزايد بصورة نسبية مع سوء الأحوال الجوية لفصل الخريف. الأمر الذي كان يعيق عملية الالتقاء وتنظيم التعاون بين الطائرات القاذفة والطائرات المقاتلة.

كان على تشكيلات الطائرات الألمانية جميعها؛ أن تتبع أقصر الطرق للوصول إلى لندن؛ نظراً لأن الوقت الاحتياطي لطائرات الحماية المرافقة لم يكن يزيد على أكثر من معركة قتالية لمدة عشر دقائق فقط. فكان من المحال القيام بالمناورات الخداعية على نطاق واسع. كما كان من المحال أيضاً القيام باستدارات ملاحية حول نطاق الدفاع المضاد للطائرات. وكان سد الدفاع المضاد للطائرات حول لندن على درجة كبيرة من القوة والتركيز ؛ مما كان يعيق إعاقة تامة كل اقتراب للطائرات القاذفة من أهدافها. وكانت المظلة الوقائية حول العاصمة وضواحيها؛ قد جعلت الهجمات على المرتفعات المنخفضة؛ وكذلك انقضاض الطائرات القاذفة؛ أمراً من المحال بلوغه. وكان يتم إرسال كتلة الطائرات المقاتلة البريطانية للإحاطة بالطائرات الألمانية المهاجمة، قبل وصولها تماماً إلى أهدافها. ولقد تعرضت الطائرات المقاتلة البريطانية للخسائر الفادحة؛ ولكنها تمكنت في الوقت ذاته من إنزال خسائر معادلة بسلاح الجو الألماني. وبرهن الطيارون الانكليز خلال هذه العملية على كفاءتهم القتالية العالية.

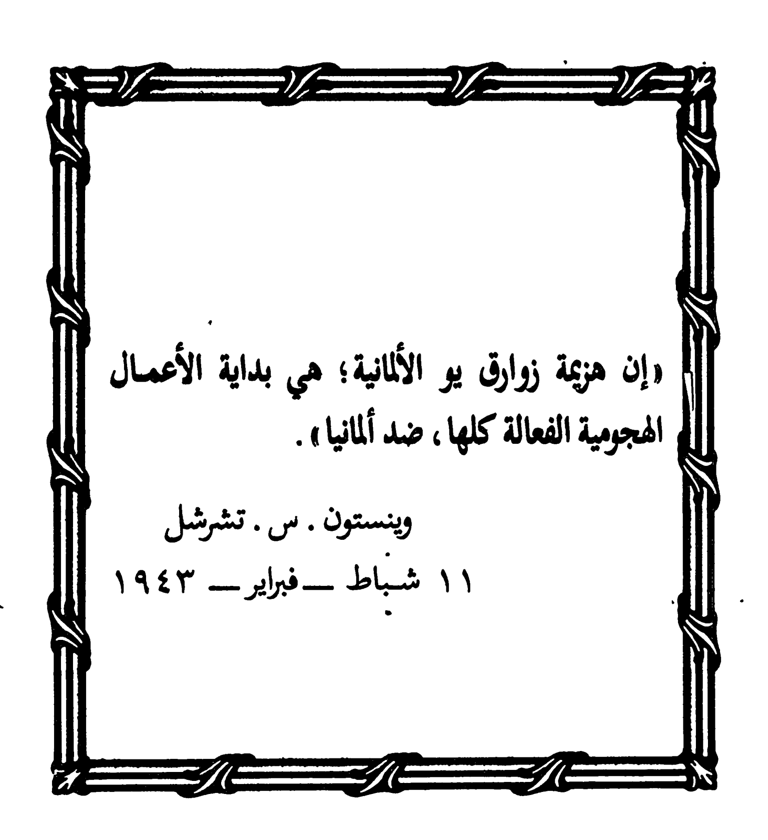
اعتمدت قيادة سلاح الجو الألماني على طائرات جو ــ ٨٨، بصورة أساسية في عمليات الهجوم على لندن، باعتبارها أفضل القاذفات الألمانية؛ ولكن بطاريات المدفعية المضادة للطائرات والتي انتشرت للدفاع عن لندن؛ تمكنت برماياتها الصحيحة ــ الدقيقة والمضبوطة ــ من إنزال أكبر الخسائر في هذه الطائرات؛ مما حمل القيادة الألمانية، على سحبها وتخصيصها لواجبات أخرى؛ مثل الهجوم على القوافل البحرية البريطانية. ولم يكن اتخاذ مثل هذا القرار سهلاً على قيادة سلاح الجو الألماني؛ انه اعتراف بالفشل. ولقد تلقى غورنغ صدمة الفشل القاسية التي تركت في نفسه أثراً عميقاً؛ إنه لم يتمكن ببساطة من إدراك سبب كل تلك الخسائر؛ وكان لا بد من انقضاء فترة غير قصيرة، حتى تظهر الأسباب الحقيقية للفشل. لقد استطاع البريطانيون حشد كل إمكاناتهم في معركة المصير، معركة الحياة أو الموت. وتوافرت لهم أسباب إحراز التفوق التقني، كما توافرت لهم الموارد الكافية والإمكانات لخوض الصراع بإرادة صلبة؛ وتصميم عنيد. وقد اعترف هتلر بهذه الحقيقة قبل أن يعترف بها سواه من القادة الألمان.

أصدر هتلر أمره يوم ١٢ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤٠ بإلغاء عملية (أسد البحار) ودفع سلاح الجو الألماني ثمناً باهظاً لهذه العملية، فقد خسر ١٧٣٣ طائرة من طائراته. بينما لم تتجاوز خسائر سلاح الجو الملكي البريطاني ٩١٥ طائرة. وقتل خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سكان لندن ١٢ر٢٩٦ بريطانياً.

الفصل الرابع

أسد البحار و حرب الغواصات

٤ ـ الأميرال زايدر



«إن هزيمة زوارق يو الألمانية؛ هي بداية الأعمال الهجومية الفعالة كلها، ضد ألمانيا».

وينستون . س . تشرشل

١١ شباط ـــ فبراير ـــ ١٩٤٣

الوجيز في حياة رايدر اريك

١٨٧٦ ــ ١٩٦٠ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٧٦	ولد رايدر في فاندسبيك .
١٩١٤	أصبح رئيساً لهيئة أركان حرب البحرية الألمانية .
١٩٣٥	عينه هتلر قائداً أعلى للقوات البحرية .
١٩٤٠	طالب القيادة الألمانية بإعطاء أفضلية العمل لمنطقة البحر الأبيض المتوسط .
١٩٤١	عارض في تطبيق خطة (أسد البحار) إلا أنه اشترك بتنفيذها .
١٩٤٣	أقيل من منصبه في كانون الثاني ــ يناير ــ وحل الأميرال دونيتز محله .
١٩٤٦	قبض الحلفاء عليه ؛ وأحالوه إلى محكمة نورمبرغ ، فحكم عليه بالسجن مدى الحياة .
١٩٥٥	أطلق الحلفاء سراحه .
١٩٦٠	وفاة رايدر ، بعيداً عن الأضواء والشهرة . وقد ترك مؤلفاته : (الحرب البحرية ١٩١٤ ــ ١٩١٨) و (حرب الطرادات في المياه الدولية) و (حياتي) .

Raeder Erich

الوجيز في الأعمال القتالية للبحرية الألمانية

١٩٣٩م

١٩ ــ ٣١	؛ آب ــ اغسطس ــ	تَوَجُّهُ ثلاثين زورقاً ألمانياً من طراز يو إلى مراكزها القتالية في عرض البحر.
٢١ ــ ٢٤	؛ آب ــ اغسطس ــ	إبحار البارجتين غراف سباي و دوتشلاند إلى المحيط الأطلسي.
٣	؛ أيلول ــ سبتمبر ــ	قيام زوارق يو ــ ٣٠ بإغراق الباخرة أثينا.
٥	؛ أيلول ــ سبتمبر ــ	الرئيس الأمريكي روزفلت يصدر أوامره بتنظيم حياد ناقلات البترول.
	؛ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ	الزوارق الألمانية تزرع الألغام المغناطيسية في القنال الانكليزي.

١٩٤٠م

١٢	؛ آذار ــ مارس ــ	قيام الزوارق البريطانية بإبطال عمل الساحات المغناطيسية للألغام.
	؛ أيار ــ مايو ــ	قيام البريطانيين باحتلال ايسلنده.
١٧	؛ آب ــ اغسطس ــ	هتلر يعلن الحصار العام ضد بريطانيا.
٢	؛ أيلول ــ سبتمبر ــ	الولايات المتحدة الأمريكية تحول ٥٠ مدمرة إلى بريطانيا.

١٩٤١م

٢٣	؛ كانون الثاني ــ يناير ــ	مغادرة البارجتين شارنهورست وجينسناو لميناء كييل الألماني.
٩	؛ أيار ــ مايو ــ	وقوع الزورق يو ــ ١١٠ في أسر البريطانيين.
٢٤	؛ أيار ــ مايو ــ	غرق الدارعة الألمانية هود.

٢٧ ؛ أيار ــ مايو ــ غرق البارجة الألمانية بسمارك .

٢٢ ؛ حزيران ــ يونيو ــ اجتياح القوات الألمانية للحدود السوفييتية .

٧ ؛ تموز ــ يوليو ــ إنزال قوات من الولايات المتحدة الأمريكية في ايسلنده .

١٢ ؛ آب ــ اغسطس ــ اشتراك تشرشل وروزفلت في التخطيط لاتفاقية الأطلسي .

٢٧ ؛ آب ــ اغسطس ــ البريطانيون يأسرون الزورق يو ــ ٥٧٠ .

٤ ؛ أيلول ــ سبتمبر ــ زورق يو يهاجم المدمرة الأمريكية غرير .

١٧ ؛ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ قذف المدمرة الأمريكية كيرني بالطوربيدات .

٧ ؛ كانون الأول ــ ديسمبر ــ بيرل هاربور ، وهجوم اليابانيين على الأسطول الأمريكي .

١٩٤٢ م

؛ منتصف كانون الثاني ــ يناير ــ وصول تريبيدز إلى توندهيم .

١١ ــ ١٢ ؛ شباط ــ فبراير ــ البارجتان الألمانيتان شارنهورست وجينسناو تهاجمان القنال الانكليزي .

١٨ ؛ آذار ــ مارس ــ إغارة الحلفاء على سانت نازير .

٨ ؛ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ إنزال الحلفاء في شمالي أفريقيا (عملية مشعل) .

١٩٤٣ م

٢٠ ؛ كانون الثاني ــ يناير ــ تعيين دونيتز قائداً أعلى للبحرية الألمانية خلفاً للأميرال رايدر .

؛ كانون الثاني ــ يناير ــ حتى أيار ــ مايو ــ إغارات فاشلة للحلفاء على قواعد زوارق يو الألمانية .

؛ شباط ــ فبراير ــ غرق بوارج تجارية ثقيلة للحلفاء في الأطلسي .

؛ أيار ــ مايو ــ غرق زوارق ألمانية يو ــ ٤١ .

١٩٤٤ م

٣ ؛ نيسان ــ ابريل ــ قصف تريبيدز في التنفيورد .

٦ ؛ حزيران ــ يونيو ــ إنزال الحلفاء في النورماندي (أوفرلورد) .

١٢ ؛ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني (لانكستر) تقوم بإغراق البارجة الألمانية تريبيدز .

١٩٤٥م

٧ ؛ أيار ـ مايو ـ قيادة البحرية البريطانية تصدر أوامرها بإيقاف العمليات الحربية كلها.

○

رايدر والقدرة البحرية الألمانية

لم تكن ألمانيا عبر تاريخها الطويل دولة بحرية؛ وقد يكون ذلك أحد أسباب توجيه حروبها لأعمال القتال البرية؛ وإبداعها في هذا المجال. إلا أنها لم تستدر بظهرها نهائياً، فتعرض عن ركوب البحر؛ وتعزف عن اقتحام مغامراته. ولقد حاولت الإفادة من موانئها المحدودة؛ ونوافذها الضيقة على البحر لتصنع لنفسها قدرة بحرية، مارست دوراً كبيراً خلال الحرب العالمية الثانية. ولقد توافر لألمانيا رجال حرب أكفاء في كافة مجالات صناعة الحرب وإدارتها؛ ولم يكن حظ البحرية الألمانية من هؤلاء الرجال أقل من حظ الأسلحة الأخرى؛ ولم يكن الأميرال رايدر والأميرال دونيتز إلا نماذج متألقة على جبين البحرية الألمانية.

ولد الأميرال رايدر اريك في ٢٤/٤/١٨٧٦ في فاندسبيك (ألمانيا الغربية حالياً). والتحق سنة ١٨٩٧ بالقوى البحرية الألمانية. وانضم إلى هيئة الأركان الامبراطورية (هوهنزوليرن) وتولى قيادة اليخت الامبراطوري للامبراطور غليوم الثاني.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى (الحرب العظمى). واشترك فيها رايدر بصفته رئيساً لهيئة أركان حرب البحرية. وخاض غمار معركة دوغربانك سنة ١٩١٥؛ ثم اشتهر دوره في معركة جوتلاند[١١]، ثم عين مفتشاً للبحرية سنة ١٩٢٢؛ حتى إذا ما كانت سنة ١٩٢٨، تم تعيينه قائداً للبحرية الألمانية في بحر الشمال. ولما كانت بنود معاهدة فرساي ١٩١٩، قد فرضت على ألمانيا تجميد قدرتها البحرية، فقد عمل رايدر هنا على اتباع نهج فون سيكت في (تنظيم جيش الرايخ المحترف) وما فعله غورنغ أيضاً في بناء القوات الجوية؛ ولكن بأسلوب مختلف. فقد احتفظ في كييل[١٢] بهياكل الغواصات وأجزائها جاهزة للتجميع عندما تسمح الظروف بذلك؛ وعمل على

(١١) جوتلاند: Jutland شبه جزيرة في الدانمارك؛ تقع إلى الشمال من سليسفيك Slesvic ووقعت بقربها معركة بحرية حاسمة بين قطع الأسطول البريطاني وبين الأسطول الألماني في يوم ٣١ أيار — مايو — ١٩١٦.

(١٢) كييل: Kiel مدينة ألمانية تقع على بحر البلطيق؛ عند مصب نهر ألبا Elbe وهي عاصمة إقليم شليزويغ هولشتاين: Schleswig - Holstin وتشتهر كييل بقناتها التي تصل بين بحر البلطيق وبحر الشمال.

تقوية القدرة البحرية الألمانية ودعمها؛ وتدريبها؛ حتى إذا ما كانت سنة ١٩٣٤؛ أجرت البحرية مناوراتها السنوية يوم ١١ نيسان ــ ابريل ــ والتي حضرها هتلر وكبار قادة الجيش الألماني. وأمضى هتلر ومرافقوه بضعة أيام على متن الدارعة دوتشلاند. وأعجب هتلر والقادة بالتنظيم الرائع للقدرة البحرية الألمانية، بالرغم من ضعف الإمكانات المتوافرة لها؛ فقرر دعمها وتطويرها. وفي السنة التالية ١٩٣٥ أصدر هتلر أمره بتعيين رايدر قائداً أعلى للقوى البحرية الألمانية، مع ترفيعه إلى رتبة (الأميرال الأكبر للرايخ الثالث). واستخدم رايدر نفوذه الشخصي للابتعاد بالأسطول الحربي عن الصراعات السياسية؛ والنزاعات الشخصية؛ والمحافظة على وحدته المعنوية.

كانت القيادة البحرية الألمانية؛ بتوجيه رايدر؛ قد أنجزت صنع نماذج الغواصات في فيغو باسبانيا، وفي كرونستاد و سيباستبوبول؛ في الاتحاد السوفييتي. كما كانت تصنع الغواصات في كرونستاد بناء على توجيهات مهندسي كييل. كما كانت تصنع في كييل أيضاً كافة الأجزاء الالية (الميكانيكية) الدقيقة؛ والتصفيح الذي كان يصنع من الفولاذ النقي. وبذل رايدر وهيئة أركان البحرية كل جهد ممكن لزيادة عدد وحدات الأسطول؛ وتجديدها. فبدأ العمل سنة ١٩٣٤ لبناء بارجة من حمولة ١٠ آلاف طن؛ وبارجتين حمولة ٢٤ ألف طن. وطراد ٦ آلاف طن. و٤ زوارق طوربيد. بالإضافة إلى ١١ غواصة. وقد شمل تنظيم القوى البحرية على ما يلي: «١ ــ القيادة المركزية للأسطول ــ فلوتن كوماندو ــ في كييل. ٢ ــ قاعدة البلطيق في كييل. ٣ ــ قاعدة بحر الشمال في ويلهلمهافن». ولكن هذا الجهد جميعه لم يكن إلا المقدمة؛ أو التمهيد؛ للتطور الحاسم. ولما كانت بريطانيا العظمى قد احتكرت منذ أجيال (سيادة البحار)، وأظهرت تفوقها في هذا المضمار؛ فقد كان من الطبيعي أن تحاول البحرية الألمانية الإفادة من التقنيات الانكليزية البحرية؛ كما أن تعاونها مع بريطانيا في هذا المجال يتيح لها الفرصة للالتفاف من حول نصوص معاهدة فرساي؛ والقضاء على معارضة فرنسا في إعادة تسليح ألمانيا. وهكذا بدأت الاتصالات السرية البريطانية ــ الألمانية في خريف سنة ١٩٣٤ ضمن إطار فكرة: «**منح ألمانيا القدرة للتفوق على الاتحاد السوفييتي في بحر البلطيق**». ووافقت انكلترا على الفكرة؛ وشجعتها. فأرسل رئيس مجلس الوزراء البريطاني ماكدونالد مبعوثاً خاصاً هو عضو حزب العمال اللورد آلن هارتوود الذي وصل إلى برلين في كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٣٥، وقابل هتلر حيث طرح هتلر طلبه بوضوح تام:
«**يجب أن تكون نسبة الأسطول الألماني معادلة ٣٥ بالمئة من الأسطول البريطاني**».

وتبع ذلك قيام وفد ألماني برئاسة وزير الخارجية روبينتروب، وعضويه الأميرال شوستر وعدد من المسؤولين الكبار بزيارة لندن، حيث أجريت مفاوضات في مبنى وزارة البحرية البريطانية؛ وعرض روبينتروب المطالب الألمانية. وبعد بضعة أيام، تم قبول شروط هتلر كلها. ووقع الاتفاق يوم ١٨ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٣٥. وحصلت ألمانيا على حق امتلاك اسطول حربي تعادل حمولته

٣٥ بالمئة من قدرة أسطول الامبراطورية البريطانية. وهكذا ضاعفت ألمانيا أسطولها أربع مرات؛ واستطاعت بناء الغواصات. وامتلكت بذلك حرية العمل السياسي والعسكري؛ فلم تعد ألمانيا وحدها هي التي تخرق بنود معاهدة فرساي وإنما شاركتها بريطانيا في مسؤولية هذا الخرق. ولقد أدى تعاظم القدرة البحرية الألمانية إلى تعاظم مكانة قائد البحرية الأميرال رايدر الذي بات واحداً من المسؤولين عن تحديد السياسة العسكرية للرايخ؛ وأحد مستشاري هتلر؛ وقد ظهر ذلك خلال المؤتمرين الرئيسين اللذين عقدهما هتلر لوضع خطة التوسع وإدارة الحرب في ١٩٣٧/١١/٥ و ١٩٣٩/٥/٢٣. وانصرف رايدر وهيئة أركان حربه لوضع مخططات الحرب. وأصدر رايدر أمره يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٩ (أي خلال الحملة البولونية) بتدوين الخطوط التالية؛ في سجل الأركان العامة البحرية:

«يحرص رئيس العمليات الحربية البحرية رايدر، على أن ينقل إلى الفوهرر رأي الأركان العامة البحرية المتعلق بإمكانية توسيع قواعد العمليات حتى الشمال». وتضمنت خطة رايدر القيام بغزو القواعد البحرية في النروج. وفي التاسع من تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٩؛ وجه القائد العام لأسطول الغواصات الألمانية الأميرال دونيتز مذكرة سرية إلى الأميرال رايدر؛ اقترح فيها خطة الاستيلاء على تروندهايم[١٣] ونارفيك. واجتمع الأميرال رايدر بهتلر يوم ١٢ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٣٩؛ وأطلعه على خطة الهجوم على النروج والدانمارك. ووافق هتلر على هذه الخطة التي حملت اسم (خطة فيزير وبونج).

اجتاحت الجيوش الألمانية بلاد الدانمارك؛ يوم ٩ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤٠؛ وفي صباح اليوم ذاته ظهرت العشرات من زوارق الإنزال الألمانية أمام شواطىء النروج. وأعلن سفراء ألمانيا في كوبنهاغن وأوسلو أن ألمانيا قد تعهدت منذ الآن ــ بالدفاع ــ عن هذين الاقليمين. واستسلمت الحكومة الدانماركية بعد وقت قصير. وقاومت النروج لمدة أطول؛ ونزلت جيوش الحملة البريطانية أخيراً في نارفيك ونامسوس وموانىء أخرى في يوم ١٤ نيسان ــ ابريل ــ ولكنها كانت أضعف من أن تعدل شيئاً في الموقف؛ ولم يلبث البريطانيون أن غادروا جميع الموانىء في شهر أيار ــ مايو ــ (باستثناء نارفيك التي لم يتم الجلاء عنها إلا في يوم ٨ حزيران ــ يونيو). ولقد امتنعت بريطانيا وفرنسا عن مد يد العون إلى النروج؛ ودعمها؛ في مواجهتها للغزو الألماني؛ فلما أرادتا ذلك؛ عجزتا عن القيام بتقديم المساعدة بشكل صحيح؛ مما حمل وزير البحرية البريطانية آنذاك وينستون تشرشل على أن يسجل في مذكراته عن هذه الحملة المخزية ما يلي:

«من لا يريد العمل حين يستطيع ذلك؛ فإنه يعجز عن القيام به عندما يريد».

---

(١٣) تروندهايم: Trondhjem وكان اسمها قديماً نيداروس Nidaros وهي مدينة في النروج؛ لها خليج على المحيط؛ قام الألمان بإنزال قواتهم فيها لاجتياح النروج في نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤٠.

على كل حال؛ أدت مسيرة الأحداث إلى قيام انكلترا بإعلان الحرب على ألمانيا منذ ٣ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩، على أثر قيام ألمانيا باجتياح بولونيا. ويومها كان الأميرال رايدر أكثر الناس حزناً في برلين. ذلك لأن هذه الحرب قد باغتته قبل الموعد المحدد لها بأربع أو خمس سنوات؛ وكان يتوقع إكمال خطة بناء الأسطول الألماني الجديد في العام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ م. تلك الخطة التي توخت أن يكون لدى ألمانيا أسطول بحري ضخم تستطيع أن تواجه به الأسطول البريطاني وتدمره؛ وتغزو الجزر البريطانية. وقد كتب رايدر في يومياته: «**لقد نشبت الحرب اليوم مع فرنسا وانكلترا؛ على الرغم من وعود الفوهرر السابقة لنا بأن لا نتوقع نشوبها قبل العام ١٩٤٤. وقد اعتقد الفوهرر حتى اللحظة الأخيرة أن بإمكانه تجنبها؛ حتى ولو عني ذلك تأجيل التسوية النهائية للمشكلة البولونية**».

أصدر هتلر تعليماته رقم ١٧ ببدء الحرب البحرية والجوية ضد بريطانيا في شهر آب ــ اغسطس ــ ١٩٤٠. وكان كل ما لدى رايدر من السفن لا يتجاوز ٤٠٠ سفينة. ولم يكن هذا العدد كافياً للقيام بعملية ضخمة على نحو ما خططت لها وأرادتها القيادة العليا؛ وأعطتها اسم: (خطة سيلوفه). ولهذا عارض رايدر مشروع غزو بريطانيا وفق خطة (أسد البحار). واقترح بديلاً عن ذلك محاولة خنق بريطانيا بالاستيلاء على مستعمراتها؛ وحث هتلر على نقل المسرح الرئيسي للحرب إلى البحر الأبيض المتوسط؛ وعدم القيام بغزو الاتحاد السوفييتي. واعتبر أن القيام بغزو إحدى الدولتين الكبيرتين (بريطانيا العظمى) أو (الاتحاد السوفييتي) إنما هو عمل أحمق وطائش. ولكن هتلر لم يظهر أي اهتمام باقتراحات رايدر، ووجهات نظره الاستراتيجية؛ والتي أيده فيها ودعمه ماريشال الجو غورنغ. وكانت هيئة الأركان العامة؛ قد وضعت المخططات للعمليات التالية:

١ ــ الاستيلاء على جبل طارق (عملية فيليكس).
٢ ــ غزو البرتغال؛ واحتلاله (عملية ايزابيل).
٣ ــ غزو أفريقيا الشمالية (ما بين الدار البيضاء وحتى قناة السويس والبحر الأحمر ــ عملية أتيلا).

وفي الوقت ذاته؛ أعدت هيئة أركان حرب البحرية؛ بتوجيه رايدر وبإشرافه؛ مخططات للاستيلاء على مالطا وأفريقيا والسويس. ولكن هذه المخططات لم تظهر أبداً للوجود؛ بسبب تصميم هتلر على توجيه الجهود كلها لغزو الاتحاد السوفييتي (خطة بربروسيا).

لقد كان على سلاح البحرية الألماني الاضطلاع بأعباء تزيد كثيراً على قدراته وإمكاناته؛ من

أجل تلبية طموح القيادة النازية؛ وتحقيق أهدافها. وتبعاً لذلك؛ كان لزاماً إعداد المخططات باستمرار، لمجابهة كافة الاحتمالات. وليس غريباً أن تنطلق القيادة الألمانية بقيادة هتلر لوضع المخططات من أجل مرحلة ما بعد فتح الاتحاد السوفييتي والسيطرة عليه، على أساس أن نجاح العمليات في الاتحاد السوفييتي هو من الأمور المضمونة. وقد يكون أمراً مثيراً ملاحظة تلك الثقة غير المحدودة التي كانت مهيمنة على القيادة الألمانية العليا؛ خلال تلك الحقبة التاريخية. ونظراً لأن أعباء الواجبات لما بعد فتح الاتحاد السوفييتي؛ وفقاً (لخطة بربروسيا) قد وقعت على سلاح البحرية وسلاح الجو بالدرجة الأولى؛ ونظراً لأن أهداف هذه المرحلة قد تركزت بالدرجة الأولى أيضاً على منطقة العالم العربي ــ بمشرقه ومغربه ــ فإنه من المناسب التعرض لهذه الخطة:

الفوهرر والقائد الأعلى للقوات المسلحة

المقر العام ١١/٦/١٩٤١

القيادة العليا للقوات المسلحة، هيئة أركان إدارة العمليات.

مكتب (د). شعبة العمليات الأولى ــ رقم ٤٤٨٨٦/٤١ ــ سري.

وثيقة القيادة ــ مطبوعة على تسع نسخ ــ تسلم باليد عن طريق ضابط فقط.

تعليمات رقم ٣٢ ــ النسخة الثانية ــ استعداداً لما بعد تنفيذ (خطة بربروسيا).

آ ــ بعدُ سحق القوات المسلحة السوفييتية؛ سوف تسيطر ألمانيا وايطاليا عسكرياً على البر الأوروبي؛ يستثنى من ذلك في الوقت الراهن شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا و البرتغال). وفيما يتعلق بالأرض الصلبة؛ فليس هناك من خطر جدي ولو قليلاً يهدد البر الأوروبي. وان حمايته والقيام بعمليات هجومية مرتقبة؛ تحتمان بالضرورة وجود قوات برية أقل بكثير مما هو موجود في الوقت الراهن.

يمكن أن ينصب ثقل التسلح بكامله على البحرية الحربية والقوات الجوية.

يجب دعم التعاون الألماني ــ الفرنسي حتى يتمكن من تجميد؛ وسيجمد؛ القوات البريطانية التي ما زالت تشكل قوة خطيرة؛ وحتى يستطيع إبعاد خطر التهديد المهيمن على مسرح الحرب في الشمال الإفريقي؛ وحتى يعيق أيضاً حركة الأسطول البريطاني في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط؛ ويحمي الجناح البعيد في الجنوب الغربي من مسرح العمليات الحربية الأوروبية؛ بما فيها شواطىء الأطلسي لإفريقيا الشمالية والغربية من كل تدخل انكلو ــ ساكسوني.

ستقول اسبانيا كلمتها قريباً؛ فيما إذا كانت مستعدة للمساهمة في طرد البريطانيين من جبل طارق. إن ممارسة ضغط شديد على تركيا وإيران، سيعدل من التوقعات لجني فائدة مباشرة أو غير مباشرة في مجابهة بريطانيا.

ب ـــ إن التطورات المتسارعة للحملة الظافرة في الشرق؛ ستلقي على الجيش الألماني أعباء المشكلات الاستراتيجية الآتية؛ حتى فصل الخريف من سنة ١٩٤١؛ وفصل الشتاء ١٩٤١ ـــ ١٩٤٢:

١ ـــ يجب تنظيم المجال المحتل في الشرق؛ ويحمي ويستثمر اقتصادياً بالمساهمة الكاملة للجيش الألماني. لا يمكن تحديد حجم القوات الضرورية لحماية المجال الروسي إلا فيما بعد. وإن ستين فِرقة وأسطولاً جوياً واحداً؛ إضافة لجيوش البلدان الحليفة والصديقة؛ قد تكون كافية بحسب التقديرات كلها؛ لإنجاز الواجبات المقبلة في الشرق.

٢ ـــ تقرر القيام بهجوم مركز في ليبيا ومصر وبلغاريا وتركيا؛ مع تحريك الموقف في القوقاز عبر إيران؛ بهدف مكافحة المواقع البريطانية في البحر الأبيض المتوسط؛ وآسيا الصغرى؛ وفقاً لما يلي:

(آ) في أفريقيا الشمالية: تعتمد المهمة على احتلال طبرق وإنشاء قاعدة فيها لتطوير الهجوم الألماني ـــ الايطالي على قناة السويس. ويجب إعداد هذا الهجوم خلال شهر تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ تقريباً. وبعد أن يتم ذلك؛ يجب تنظيم الفيلق الافريقي وتأمين عتاده بأسرع ما يمكن؛ وأن يكون تحت تصرفه احتياطات كافية من كل الأنواع ـــ بما فيها الفرقة الخامسة التي أعيد تنظيمها بشكل فرقة مدرعة ـــ ويجب ألا تنقل الوحدات الألمانية الكبيرة الأخرى (التشكيلات الكبرى) إلى إفريقية بأية حال. ولإعداد الهجوم؛ يجب استخدام كافة الوسائل لمضاعفة معدل نقل القوافل؛ مما يحتم استخدام الموانىء الفرنسية وموانىء إفريقيا الشمالية، واستخدام طرق بحرية جديدة ـــ حيثما أمكن ـــ في منطقة اليونان الجنوبية. **وتعتمد مهمة البحرية ـــ الحربية؛ بالتعاون مع البحرية الايطالية؛ على إعداد قطع الأسطول بعناية وبأعداد كافية؛ واستئجار السفن الفرنسية والسفن المحايدة، ودراسة مشكلة النقل المقبل لزوارق الطوربيد الألمانية إلى البحر الأبيض المتوسط، وتقديم كل مساعدة ممكنة إلى البحرية الحربية الايطالية؛ من أجل مضاعفة قدرة التفريغ في موانىء افريقيا الشمالية، وتنظيم هيئة أركان نقل بحري تتبع تعليمات القيادة العامة؛ بالتعاون مع الممثل الألماني الملحق بالمقر العام الايطالي؛ ومع القيادة العليا للجيوش الألمانية في الجنوب ـــ الشرقي، وذلك من أجل الإعداد لعملية نقل القوات، وجعلها تابعة لقيادة واحدة.**

على قيادة القوات الجوية أن ترسل؛ لمتابعة العمليات؛ الوحدات الجوية المتفرغة في الشرق؛ والمدافع المضادة للطائرات؛ وتعزز تغطية القوافل الايطالية بوحدات ألمانية.

(ب) بالنظر إلى توقع تعاظم القوات البريطانية في الشرقين الأدنى والأوسط؛ بهدف حماية قناة السويس. ولهذا يجب دراسة إمكانية إجراء عمليات ألمانية مسرحها بلغاريا ـــ تركيا بهدف مهاجمة المواقع البريطانية في قناة السويس والضفة الشرقية. ولا بد من أن يتقرر في أقرب وقت ممكن

حشد قوات هامة في بلغاريا؛ تكون كافية لجعل تركيا راضخة سياسياً؛ أو تحطيم مقاومتها بقوة السلاح.

(ج) عندما تتوافر الشروط الضرورية لهذا الهدف؛ وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي؛ تعد عمليات لحملة عسكرية آلية ــ ميكانيكية عبر القوقاز ــ وهذه العملية مرتبطة بالعمليات الواردة في الفقرة (ب).

(د) استغلال الحركة العربية: إن موقف البريطانيين في الشرق الأوسط؛ عند القيام بالعمليات الألمانية الهامة؛ سيكون وخيماً جداً إلى حد يمكن من تجميد القوات البريطانية في اللحظة المطلوبة؛ عن طريق الاضطرابات والثورات. ولهذا يجب تنسيق كافة الإجراءات العسكرية والسياسية والدعائية خلال المرحلة التمهيدية لبلوغ هذا الهدف. إنني أوجه أمري إلى هيئة الأركان الخاصة (ف) لتأمين مناصب المنظمة المركزية التي ستطلع على سائر الخطط والإجراءات المتعلقة بالقطاع العربي. والتي سيكون مقرها في القيادة العليا لجيوش الشرق. ويوضع تحت تصرفها أفضل الخبراء وضباط الارتباط. ويحدد رئيس القيادة العامة بالتعاون مع وزارة خارجية الرايخ واجبات هيئة الأركان الخاصة ومهامها، لا سيما في معالجة المشكلات السياسية.

٣ ــ إغلاق المنفذ في البحر الأبيض المتوسط للاستيلاء على جبل طارق. وتستأنف الاستعدادات على نطاق واسع خلال العمليات في الشرق. ويجب استغلال القطاع الفرنسي الحر؛ مع هذا الإجراء؛ إن لم يكن لمرور الجنود الألمان؛ فلنقل المواد التموينية على أية حال. إن مساهمة القوات البحرية والجوية الفرنسية ممكنة في الوقت الراهن. وبعد الاستيلاء على جبل طارق؛ فإنه لا ينقل إلى مراكش الاسبانية إلا العدد الضروري من الوحدات لحماية المضيق.

على الفرنسيين تأمين الدفاع عن شواطىء الأطلسي من افريقيا الشمالية والغربية؛ والاستيلاء على المستعمرات البريطانية في افريقيا الغربية والأراضي التابعة لديغول. وستقدم إليهم خلال العمليات المتوقعة الإمدادات اللازمة. **وسيكون من السهل جداً بعد الاستيلاءِ على مضيق جبل طارق، على البحرية ــ الحربية والطيران؛ استخدام القواعد الواقعة في غربي ــ افريقيا. ويتم الاستيلاء أيضاً على جزر الأطلسي إذا ما توافرت بعض الشروط.**

٤ ــ على البحرية والطيران استئناف حصار بريطانيا بأقصى جهد ممكن؛ وذلك بعد الانتهاء من حملة الشرق، وبالتوازي مع عملياتها المحتملة ضد المواقع البريطانية في البحر الأبيض المتوسط.

تعتبر سائر الإجراءات الرامية إلى تحقيق هذا الهدف من الضرورات الملحة والتي لها الأسبقية في مجال الإنتاج الحربي. ومن المناسب في الوقت ذاته دعم المدفعية المضادة للطيران إلى أقصى حد.

أما الاستعداد للإنزال في بريطانيا؛ فسيتبع هدفاً مزدوجاً: تجميد القوات البريطانية في العاصمة؛ وتصفية انهيار بريطانيا الذي أخذ يتبلور.

٥ ـــ لا يمكن منذ الآن تقرير الوقت الذي تبدأ فيه العمليات في قطاع البحر الأبيض والشرق الأدنى. ويمكن تحقيق الهدف المطلوب بشن الهجوم في آن واحد على جبل طارق ومصر وفلسطين. وقد يكون من المحال توقع جميع العوامل حتى الآن؛ إلا أن مقياس النجاح يتوقف على قدرة القوات الجوية في تأمين الدعم للعمليات كلها بالوسائل الضرورية.

٦ ـــ أطلب إلى السادة؛ كبار القادة؛ بعد أن يأخذوا علماً بهذه التوقعات الأولية؛ أن يتخذوا إجراءات الأمر العام والتنظيم؛ ويقدموا إلي تقاريرهم بشأن النتائج الأولية؛ بصورة أستطيع معها أن أصدر أوامري النهائية؛ حتى خلال الحملة على الشرق (الاتحاد السوفييتي).

○

لقد كان طموح هتلر كبيراً لإقامة (امبراطورية عالمية) تشاركه فيها حليفتاه ايطاليا واليابان. وكان على سلاح الجو وسلاح البحرية؛ تحويل هذا الطموح إلى واقع عملي. ولقد عبر هتلر عن طموحه هذا فيما كتبه في حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤١: «استناداً إلى النوايا التي أعلنت عنها بصدد سير الحرب، فإنني أوضح بما يلي: إن غزو المجال العسكري الأوروبي ـــ بعد سحق روسيا ـــ سوف يتيح بصورة محسوسة تخفيض عناصر القوات البرية؛ وفي نطاق جيش منخفض العناصر؛ ستكون الجيوش المدرعة معززة بصورة متفوقة، ولسوف يقتصر تسلح البحرية الحربية على الإجراءات الموضوعة مباشرة في مكتب العمليات ضد بريطانيا؛ وضد أمريكا عند الضرورة». وفي ربيع سنة ١٩٤١؛ أيضاً؛ كتب إلى رئيس وزراء اليابان ماتسووكا: «**ستؤدي الحرب التي تخوضها ألمانيا إلى إضعاف بريطانيا وإلى إضعاف أمريكا في آن واحد. ولن يستطيع أي أمريكي النزول في أوروبا؛ فبغواصات ألمانيا وقواتها الجوية ستخوض الحزب ضد أمريكا بكل حزم**».

صحيح أن معظم هذه المخططات لم تأخذ طريقها للتنفيذ؛ ولم تظهر للنور؛ وإنما بقيت حبيسة في الخزائن السرية في مكاتب هيئات الأركان؛ إلا أن اتساع مجال الحرب كان أكبر من قدرة الأسلحة التي أعدها هتلر للحرب. وكما عجز سلاح الجو عن إخضاع بريطانيا؛ فكذلك عجز الأسطول الحربي ـــ البحري الألماني عن بلوغ هدفه؛ وكان عليه العمل ما بين بحر البلطيق وبحر الشمال والمحيط الأطلسي؛ إضافة إلى البحر الأبيض المتوسط. وقد استطاع رايدر استثمار الإمكانات المتوافرة له حتى أبعد الحدود؛ إلا أنه لم يتمكن من تدمير جميع قوافل الحلفاء التي كانت تحمل

الإمدادات عبر المنطقة القطبية إلى الاتحاد السوفييتي؛ مما أغضب هتلر؛ ولما كان لا بد لكل فشل من ضحية؛ فكان من الطبيعي أن يضحي هتلر بالأميرال رايدر وأن يتهمه بالتقصير، وبافتقار أسطوله إلى (روح القتال) و (تجنب المخاطر). وكان رايدر يطالب باستمرار بدعم (**اسطول السطح**) في حين كان هتلر يفضل دعم (**اسطول الغواصات**). وحدث نقاش حاد بين هتلر والأميرال رايدر. وانتابت هتلر نوبة من الهياج والغضب؛ فأصدر أمره بتسريح أسطول أعالي البحار؛ وتفكيك قطعه؛ والإفادة من حديدها في الصناعة. فما كان من رايدر إلا أن قدم استقالته التي قبلها هتلر؛ ووافق عليها في يوم ٣٠/١/١٩٤٣؛ وأصبح الأميرال دونيتز قائد أسطول الغواصات هو القائد الأعلى للقوات البحرية الألمانية؛ وحل محل رايدر في منصبه.

لقد كان هتلر على بعض من الحق عندما دعم (أسطول الغواصات). فقد استطاع هذا الأسطول في الواقع أن يعمل تحت قيادة دونيتز[١٤] بفاعلية مذهلة، خلال السنوات الأولى من الحرب؛ وفقاً للسياسة العسكرية التي حددها دونيتز بقوله في أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩. «**تكمن النقطة الحاسمة في الحرب ضد انكلترا بالهجوم على بواخرها التجارية أثناء عبورها المحيط الأطلسي**». غير أن الموقف كان قد تغير في غير مصلحة ألمانيا، ولم يعد باستطاعة دونتيز إعادة العجلة إلى الخلف؛ وتحقيق انتصارات باهرة مثل تلك التي حققها في بداية الحرب. وقد استطاعت بريطانيا بفضل صمودها؛ وبما توافر لها من الدعم الأمريكي؛ أن تدمر ذلك الخطر الذي كان يتهددها. ولقد خاضت بريطانيا معارك كثيرة؛ وعلى كافة الجبهات طوال الفترة المظلمة التي غطت السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. غير أنه ما من معركة كانت أكثر أهمية لانكلترا من معركة الأطلسي. فحرب الغواصات سببت لبريطانيا كثيراً من المحن والكوارث التي كادت تنتهي بانكلترا إلى الهزيمة سنة ١٩١٧ م. ثم ظهرت زوارق يو لتبرهن على أنها من أقوى الأسلحة الألمانية؛ ولكن لحسن حظ انكلترا فإن هذا السلاح لم يستخدم منذ الأيام الأولى لبداية الحرب العالمية الثانية. وربما كان من الغريب حقاً أن تبدأ ألمانيا حربها، وهي لا تملك أكثر من ٥٦ غواصة؛ أي أقل مما كانت بريطانيا قد وضعته في خدمة قواتها البحرية. وخسرت ألمانيا في الأشهر الأولى من الحرب ٣١ زورق ــ يو، ولم يتم التعويض عنها. بحيث لم يبق لدى هتلر وقائده دونتيز أكثر من ٢٢ زورق ــ يو. كما أن بريطانيا أضاعت قسطاً كبيراً من جهدها في اقتناص الغواصات عبر

---

(١٤) دونتيز ــ كارل: Doenitz - Karl أميرال ألماني؛ ولد سنة ١٨٩١ والتحق سنة ١٩١٦ بقوة الغواصات؛ واشترك في العمليات ضد سفن الشحن البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. وانصرف خلال الحربين العالميتين لدراسة تقنية حرب الغواصات؛ ووضع نظريته لهذه الحرب في سنة ١٩٣٩ موضع التطبيق عندما تولى قيادة اسطول زوارق ــ يو واستمر في ذلك حتى كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٣، حيث عمل على تجديد الهجمات في المحيط الأطلسي؛ وأمكن له إنزال خسائر فادحة في سفن الحلفاء. وأصدر هتلر أمره بتعيين دونيتز خلفاً له يوم ٢٩ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤٥. ولم يلبث أن استسلم للبريطانيين بعد ذلك بخمسة أيام.

المحيط الواسع؛ وذلك عوضاً عن تركيز جهدها وذلك بحشد أكبر عدد ممكن من القطع البحرية لحماية قوافلها، وتأمين واجبات الحراسة.

عادت زوارق ـــ يو من جديد لممارسة فعالياتها وأنشطتها في ربيع العام ١٩٤١. فأمكن لها إغراق ٤١ باخرة في شهر آذار ـــ مارس ـــ وأصبحت الحراسة البريطانية أكثر قوة وأشد فاعلية في منتصف فصل الصيف. كما نجحت بريطانيا في تطوير استراتيجية (مجموعات الدعم). وما إن أقبل شهر أيلول ـــ سبتمبر ـــ حتى ارتفع عدد زوارق ـــ يو الألمانية إلى ١٥٠ زورقاً. وكانت خسائر البريطانيين في البواخر فادحة جداً. ولكن هذه الخسائر أخذت في التناقص خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام ١٩٤١. وذلك بفضل تنسيق التعاون مع أمريكا؛ وانتقال عدد من الزوارق ـــ يو إلى حوض البحر الأبيض المتوسط؛ وزيادة قوة القيادة الساحلية؛ والارتفاع بفاعليتها.

كان لدخول اليابان الحرب دوره في إرغام الولايات المتحدة الأمريكية على إرسال عدد كبير من أقوى قطعها الحربية إلى المحيط الهادي (الباسيفيكي). ونتيجة لذلك؛ استطاعت الغواصات الألمانية يو أن تفرض ضريبة مرعبة على البواخر البريطانية والأمريكية التي لا تتوافر لها الحماية وهي في عرض البحر ـــ شرقي الولايات المتحدة ـــ وذلك خلال الأشهر الستة الأولى من العام ١٩٤٢. ونجحت زوارق ـــ يو خلال هذه الفترة في إغراق ٥٨٥ باخرة تجارية زادت حمولتها على ثلاثة ملايين طن من البضائع المشحونة. إلا أن بحرية الحلفاء تمكنت في خريف العام ١٩٤٢ من إحراز التفوق؛ وأخذت خسائرهم في التناقص بدرجة كبيرة؛ وأمكن لهم إغراق ٤١ زورق ـــ يو ألمانياً مقابل خسارتهم لخمسين باخرة تجارية.

استمر الألمان في صناعة الغواصات بمعدل ٤٠ زورق ـــ يو في الشهر. ولكن بما أن دونيتز كان يبحث عن انتصارات سهلة؛ فقد ابتعد بقطعه البحرية عن شمالي الأطلسي. حتى أنه لم تتعرض ولو قافلة واحدة للهجوم طوال شهر حزيران ـــ يونيو ـــ ثم عاد دونيتز فأرسل ٢٨ زورق ـــ يو إلى شمال الأطلسي. غير أن هذه لم تنجح في إغراق أكثر من تسع بواخر من أصل ٢٤٦٨ باخرة تجارية عبرت كلها الأطلسي خلال الشهرين التاليين.

جاءت الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٤ فأسدلت ستارة قاتمة على ألمانيا كلها؛ وليس على سلاح البحرية فقط؛ ولقد نجحت البحرية الألمانية في إغراق ثلاث بواخر تجارية للحلفاء ما بين كانون الثاني ـــ يناير ـــ و آذار ـــ مارس ـــ إلا أن البحرية الألمانية خسرت بالمقابل ٢٩ زورق ـــ يو. ثم استمر هذا المأزق في تطوره حتى نهاية العام ١٩٤٤. ولقد عملت ألمانيا على تجهيز زوارق ـــ يو بأجهزة شنوركل حتى تستطيع الغوص والبقاء تحت سطح الماء لمدة طويلة؛ مما يجعل من الصعب جداً اقتناصها وإغراقها؛ إلا أن هذه الزوارق باتت عاجزة بدورها عن القيام بهجوم ناجح.

كان لتقدم قوات الاتحاد السوفييتي على امتداد ساحل البلطيق دوره في إرغام دونيتز على سحب ما بقي من الغواصات (زوارق ــ يو) إلى النروج. حيث كان يتم إعداد الخطط، وتدريب القوات في قاعدة أوسلو. ووصلت قوة زوارق ــ يو حتى ذروتها في شهر آذار ــ مارس ــ ١٩٤٥؛ فكان لدى البحرية الألمانية ٤٦٣ زورق ــ يو جاهزة للعمل.

كان مجموع ما صنعته ألمانيا بذلك؛ ما بين بداية الحرب ونهايتها؛ ما مجموعه ١١٦٢ زورق ــ يو. أمكن للحلفاء تدمير ٧٨٥ زورقاً منها؛ كان من بينها ٥٠٠ زورق مما دمرته الطائرات والقطع البحرية البريطانية. وبالمقابل؛ فإنهم أغرقوا للحلفاء وللدول الحيادية ٢٨٢٨ باخرة تجارية؛ بلغ مجموع حمولة بضائعها ١٤ر٦٨٧ر٢٣١ طناً. كما أغرقوا للحلفاء ١٤٥ قطعة بحرية؛ كان القسم الأكبر منها لبريطانيا.

خسرت البحرية التجارية في هذه الحرب ٣٠ر٢٨٤ بحاراً؛ كما خسرت البحرية الملكية البريطانية ٥١ر٥٧٨ بحاراً ما بين قتيل ومفقود. ووقعت معظم هذه الخسائر خلال صراع بريطانيا ضد زوارق ــ يو. وهو الصراع الذي خاضه رجال البحر البريطانيون بتصميم مذهل؛ وعناد مثير؛ دفاعاً عن إقليمهم ومصالحهم، في صراع مصيري لطالما وصفوه بأنه (صراع حياة أو موت).

الفصل الخامس

القائـد الاستراتيجي

٥ ـ فون رونشتد كارل رودولف جيرد


« كان فون رونشتد الممثل الأخير للعصر الذهبي الذي
عاشته ألمانيا » .

الوجيز في حياة فون رونشتد كارل رودولف جيرد
١٨٧٥ ـــ ١٩٥٣ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٧٥	ولادة رونشتد في أشرسلبين في بروسيا الشرقية من أسرة ارستقراطية .
١٨٨٨	التحاقه في مدرسة الطلاب الضباط المبتدئين في اورانين شتاين .
١٨٩٠	نقله إلى مدرسة الطلاب الضباط العليا ؛ وتخرجه منها برتبة صف ضابط .
١٨٩٢	التحاقه بالكلية العسكرية في هانوفر وتخرجه برتبة ملازم .
١٨٩٣	خدمته في الكتيبة ٨٣ بمدينة كاسل .
١٩٠٣	التحاقه في كلية الأركان ببرلين .
١٩١٤	اشتراكه في معركة المارن ، وهو في هيئة أركان فرقة المشاة ٢٢ .
١٩١٥	نقله إلى هيئة أركان الاتصال مع بولونيا .
١٩١٦	تعيينه رئيساً لهيئة أركان فيلق في جبال الكاربات في المجر برتبة رائد .
١٩١٧	تعيينه رئيساً لهيئة أركان الفيلق ٥٣ في الجبهة الشرقية .
١٩١٨	تعيينه رئيساً لهيئة أركان الفيلق ١٥ في الجبهة الغربية ، ثم في رئاسة هيئة الأركان التركية .
١٩١٩	تعيينه قائداً للمنطقة العسكرية الثالثة برتبة مقدم؛ وتنقل في عدد من المراكز مع حصوله على الترفيع .
١٩٣٣	عين قائداً لفرقة الخيالة الثانية برتبة لواء .
١٩٣٣	عين قائداً لمجموعة الجيوش الأولى في برلين .
١٩٣٨	رفع لرتبة فريق وأحيل إلى التقاعد .
١٩٣٩	إعادته للخدمة وتعيينه قائداً لمجموعة الجيوش ٨ و ١٠ و ١٤ في غزو بولندا .
١٩٣٩	تعيينه قائداً لمجموعة الجيوش أ (الجيشين ١٢ و ١٦) في اجتياح الغرب .
١٩٤٠	قيادته لمجموعة الجيوش في اجتياح بلجيكا وفرنسا ، ثم ترفيعه لرتبة مشير (ماريشال) .
١٩٤١	تعيينه قائداً لمجموعة الجنوب في سيليزيا ، للهجوم على الاتحاد السوفييتي .

١٩٤١ ٣٠ / ١١ استقال رونشتد من منصبه بسبب تدخل هتلر في إدارة الحرب .
١٩٤٢ استدعاء رونشتد مرة أخرى وتعيينه قائداً للغرب (حاكماً عاماً لفرنسا) .
١٩٤٤ استقالة رونشتد لخلافه من جديد مع هتلر ، ثم استدعاؤه مرة أخرى .
١٩٤٥ اعتقله الحلفاء ، ثم أطلقوا سراحه بسبب سوء حالته الصحية .

Von Rundstedt , Karl Rudolf Gerd

٥ ــ فون رونشتد ــ القائد الاستراتيجي

يتصف الماريشال فون رونشتد بصفات ما يمكن أن يطلق عليه اسم (الرجل الشريف أو الرجل النبيل) وقد تخرج من المدرسة القديمة؛ ورعيلها السابق الذي مضى وانقضى ولم يبق منه إلا قلة ندر وجودهم. كان على درجة من اللطف والبشاشة والود؛ أثرت في هتلر ذاته؛ فبقي متعلقاً به على الرغم من أنه أقصاه مرتين. ولا شك أن هتلر كان يرى في فون رونشتد وبصورة لا شعورية؛ الممثل الأخير للعصر الذهبي الذي مضى؛ والذي لم يستطع أن يفهمه؛ فبقي هتلر بعيداً عن البيئة الداخلية والخارجية لذلك العصر.

ذاك هو القائد الذي كان قد أنهى حياته العسكرية؛ وأحيل على التقاعد سنة ١٩٣٨ وهو برتبة فريق وقد بلغ الثالثة والستين من عمره. وكان من المفروض أن يخلد إلى الراحة؛ ويعيش ما بقي له من سنوات العمر على ذكريات الأمجاد التي عاشها في سنوات عمره التي كانت حافلة بجلائل الأعمال. ولكن أنى للسيوف أن تستقر في أغمادها؛ وألمانيا كانت تعيش في أوج هيجانها العسكري؟ وكيف يمكن لقائد مفكر مثل رونشتد أن يبقى في عزلته؛ والحرب تحتاج للفكر المبدع؟ ثم ألم يكن اسم رونشتد وحده كافياً لإعطاء التشكيل المقاتل الذي يتولى قيادته زخماً معنوياً، يتجاوز كل تقدير؟ لقد وضع هتلر ذلك في اعتباره؛ عندما قرر إعادة فون رونشتد للخدمة؛ وأسند إليه قيادة مجموعة جيوش الجنوب. ولم يكن باستطاعة فون رونشتد التخلف عن أداء الواجب أو التنكر لنداء الوطن. فتوجه إلى نيوهامر في سيليزيا، ووصلها في يوم ١٢ آب ــ اغسطس ــ ١٩٣٩. حيث كانت مجموعة الجيوش تقوم بمناوراتها السنوية؛ استعداداً للعمليات المحتملة في بولونيا. وأدرك على الفور كل ما هو أساسي وجوهري؛ وترك الأمور الثانوية ولم يلق إليها بالاً. واستمرت القوات في مناوراتها خلال اليومين التاليين؛ وفي يوم ١٥ آب ــ اغسطس ــ جرت تمارين مشتركة بين المدفعية والطيران. وختم رونشتد المناورات فاستعرض القوات وأصدر إليها توجيهاته وتعليماته؛ وانصرفت القوات إلى معسكراتها ومناطق تمركزها.

حضر فون رونشتد بعد ذلك المؤتمر الذي عقده هتلر في اوبر ــ سالسبورغ

يوم ٢١ آب ـــ اغسطس ـــ وهو المؤتمر الذي حضره قادة مجموعات الجيوش ورؤساء هيئات أركانهم وكبار القادة في الطيران والبحرية. وألقى هتلر خطاباً أعلن فيه تصميمه على تسوية المسألة البولونية ـــ الألمانية تسوية نهائية، حتى لو أدى ذلك إلى الحرب. وعاد فون رونشتد إلى مقر قيادته في نايسه. وأخذ في الإعداد لمواجهة احتمالات الحرب؛ ولم يطل به الانتظار فقد تلقىٰ في الساعة ٢٥ر١٥ من يوم ٢٥ آب ـــ اغسطس ـــ البرقية التالية:

الحالة البيضاء. أ. ي = يوم = ٢٦ / ٨ ـــ الساعة ٤٣٠.

وهكذا فإن الحرب التي لم يكن يصدق أحد بوقوعها قد تقررت. وفي مساء اليوم ذاته (٢٥ / ٨)، وبينما كان رونشتد يتناول طعام العشاء مع رئيس هيئة أركانه مانشتاين تلقى أمراً هاتفياً: «**يحظر المباشرة بالأعمال الحربية؛ أوقفوا القطعات حالاً، تستمر التعبئة. تتابع القطعات تمركزها للحالة البيضاء؛ وللضرب كالمعتاد**».

يدرك كل عسكري بالتأكيد ما ينجم عن مثل هذا الأمر المعاكس الذي يصدر في الدقيقة الأخيرة؛ إذ كانت تتحرك في تلك الفترة ثلاثة جيوش في منطقة تمتد من سيليزيا السفلى حتى سلوفاكيا الشرقية؛ وكان الأمر يتطلب إيقافها خلال بضع ساعات؛ مع الأخذ بعين الاعتبار أن كل هيئات الأركان حتى مستوى الفرقة، كانت تتحرك أيضاً؛ وكان الاتصال اللاسلكي محظوراً لإخفاء الحركة عن العدو وتمويهها. ورغم ذلك؛ أمكن إصدار الأوامر إلى كل الجهات وتنفيذها في الوقت المناسب. ولقد اقتضى الموقف إنزال ضابط في ظلمة الليل، وأمام الأرتال المتحركة؛ من أجل إيقاف لواء ميكانيكي (آلي) يتحرك في سلوفاكيا الشرقية؛ كما بذلت أجهزة الإشارة جهداً رائعاً لإيصال الأوامر بأقصى سرعة ممكنة.

لقد اهتاج القادة على كافة المستويات لهذا التصرف الذي لم يستطيعوا له إيضاحاً أو تفسيراً، وكان فون رونشتد أكثرهم غضباً؛ غير أنه لم يكن بالمستطاع تفسير ما حدث إلا بمحاولة استخدام القدرة العسكرية الألمانية لممارسة (ضغط سياسي)، لإخضاع بولونيا. وعلى كل حال؛ فإذا ما ظهر احتمال استخدام هذه القدرة بصورة عملية؛ فإنه لن يكون هناك أي دور لعامل المباغتة. إذ أن تلك التحركات التي جرت ليلاً ستظهر واضحة في اليوم التالي.

تلقى فون رونشتد أمراً جديداً في الساعة ٠٠ر١٧ من يوم ٣١ آب ـــ اغسطس ـــ جاء فيه: «**ي = ١ / ٩ الساعة ٤٥ر٤**»

وأصدر رونشتد أوامره بالإعداد لتنفيذ (الخطة البيضاء) في الموعد؛ إلا أنه اتخذ بعض التدابير الضرورية ليتسنى له إيقاف التنفيذ مرة أخرى، وفي اللحظة الأخيرة؛ إذا ما اقتضى الموقف.

وبقي يقظاً حتى ما بعد منتصف الليل. وأدرك عندها أنه لم يعد بالمستطاع إيقاف التحركات العسكرية؛ وأصبح الاحتكام للسلاح أمراً واقعاً.

كان هتلر قد طلب منذ ٢ آذار ــ مارس ــ ١٩٣٩ بإعادة ميمل[١٥] إلى ألمانيا؛ ثم قام باحتلالها. وقدم في الوقت ذاته اقتراحاً إلى بولونيا لإعادة دانتزيغ[١٦] إلى ألمانيا. وبناء خط حديدي؛ وطريق بري دولي عبر الممر البولوني. وقد أعلن رئيس الوزراء البريطاني عندئذ؛ مدهوشاً؛ في مجلس العموم: «إن حكومة جلالته تعتبر نفسها ملزمة بتقديم الدعم المستطاع للحكومة البولونية؛ فيما لو تم أي عمل يهدد بصورة واضحة استقلال بولونيا؛ وتقرر الحكومة البولونية لأسباب حيوية مقاومته بكل قواها الوطنية. وقد أعطت حكومة جلالته إلى الحكومة البولونية تأكيدات في هذا المجال». وانضمت فرنسا إلى بريطانيا العظمى؛ وفي ١٣ نيسان ــ ابريل ــ توسعت الضمانات غير المقيدة بالشروط الممنوحة إلى بولونيا فشملت رومانيا واليونان. وكان ذلك يعني ببساطة أن اعتداء ألمانيا على بولونيا؛ إنما يعني اندلاع الحرب؛ ولما كان هتلر يخشى قيام حرب على جبهتيه الشرقية والغربية؛ فقد أخذ في تحسين علاقاته مع الاتحاد السوفييتي، حتى إذا ما كان يوم ٢١ آب ــ اغسطس؛ وبحسب تعبير السير وينستون تشرشل؛ «انفجر الخبر المشؤوم في العالم كقنبلة». فقد أعلنت وكالة تاس السوفييتية أن مبعوثاً خاصاً لهتلر، هو وزير خارجيته روبينتروب، قد طار إلى موسكو لتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتي. وقد وقع الحلف في ٢٣ آب ــ اغسطس ــ وحصل ستالين على ما كان يريده، وهو: (الحرب في أوروبا الغربية والسلم في الاتحاد السوفييتي). وأعلنت الحكومة البريطانية؛ فور إعلان النبأ؛ عن تصميمها على الوفاء بالتزاماتها تجاه بولونيا. وفي يوم ٢٥ آب ــ اغسطس ــ نشرت معاهدة قانونية مع بولونيا.

هكذا تداخلت ثلاثة عناصر حاسمة في خوض حملة بولونيا.

أولاً: تفوق القوات الألمانية؛ مع استعداد القيادة لمجابهة الاحتمالات الخطرة على جبهة الغرب، بقذف الكتلة الضخمة من قواتها ضد بولونيا.

(١٥) ميمل: Memel وباللغة الليتوانية Klaipeda مدينة في ليتوانيا (الاتحاد السوفييتي) ولها خليج يقع على بحر البلطيق. وكانت من مدن ألمانيا حتى سنة ١٩١٩؛ ثم حكمتها فرنسا حتى سنة ١٩٢٣ ثم ألحقت بليتوانيا بعد ذلك، وضمها هتلر إلى ألمانيا سنة ١٩٣٩؛ وأعيدت إلى ليتوانيا بعد هزيمة ألمانيا ١٩٤٥.

(١٦) دانتزيغ: Dantzig أو Danzig وباللغة البولونية Gansk مدينة بولونية لها خليج يحمل اسم خليج دانتزيغ يشكله بحر البلطيق على مقربة من مصب نهر الفيستول، Vistuls؛ استولى عليها الفرنسيون سنة ١٨٠٧ وكانت من مدن بروسيا الشرقية، ثم أصبحت مدينة حرة سنة ١٩١٩، وأعيدت فألحقت بالرايخ سنة ١٩٣٩، ثم ألحقت ببولونيا سنة ١٩٤٥. وكان احتلال الألمان للممر البولوني المؤدي إلى دانتزيغ هو السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الثانية.

ثانياً: الوضع الجيواستراتيجي الذي كان يسمح للألمان بتطويق الجيش البولوني من الجانبين معاً؛ سواء من بروسيا الشرقية؛ أو من بوميرانيا(١٧) وسيليزيا وسلوفاكيا.

ثالثاً: التهديد الكامن الذي كان يمارسه الاتحاد السوفييتي على مؤخرات البولونيين.

انطلق سلاح الجو الألماني لقصف النقاط الاستراتيجية في بولونيا قبل فجر اليوم الأول من شهر أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩. وكان عدد أفراد القوات المسلحة البولونية ٨٠٠ ألف جندي تقريباً؛ نظموا في ستة جيوش. أما قوات الهجوم الألماني فكانت بقيادة الجنرال براوختش وبلغ مجموع أفرادها ٠٠٠ر٢٥٠ر١ جندي؛ وقد نظموا في خمسة جيوش ضمتها مجموعتان: مجموعة جيوش الشمال، وتكونت من الجيشين الثالث والرابع بقيادة الجنرال فيدور فون بوك، ومجموعة جيوش الجنوب، وتكونت من الجيوش الثامن والعاشر والرابع عشر، بقيادة فون رونشتد. وقد دعمت قوات المجموعتين بحوالي ١٦٠٠ طائرة. وتقدمت القوات المدرعة أمام قوات الهجوم. فكانت الحرب البولونية هي أول نموذج كامل (للحرب الصاعقة). ففي يوم ٣ أيلول ــ سبتمبر ــ كان سلاح الجو البولوني قد أصبح معدوماً. وفي يوم ٨ أيلول ــ سبتمبر ــ تعرضت وارسو لقصف المدفعية الثقيلة وهجوم دبابات رونشتد. ثم انطلقت القوات السوفييتية في هجومها يوم ١٧ أيلول ــ سبتمبر ــ واستسلمت وارسو يوم ٢٧ منه، وانتهت عملية احتلال بولونيا يوم ٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وخسر البولونيون ٦٦ ألف قتيل و٢٠٠ ألف جريح و٧٠٠ ألف أسير. ومقابل ذلك؛ فقد خسر الألمان ٥٠٠ر١٠ قتيل و٣٠٠ر٣٠ جريح ونحو ٣٥٠٠ مفقود. وبات باستطاعة ألمانيا بعد ذلك غزو النروج واجتياح فرنسا.

تلك هي بإيجاز قصة اجتياح بولونيا؛ وهي قصة تحتاج للمزيد من التفاصيل.

لقد كانت مجموعة فون رونشتد هي المجموعة الرئيسة في الحرب البولونية؛ وقد ضمت ٣٦ فرقة، تقدمت؛ وفي طليعتها الجيش الرابع عشر؛ عبر المنطقة الصناعية في سيليزيا العليا، وفي القسم الشرقي من مورافيا، وفي المنطقة الغربية من سلوفاكيا. ثم سارت المجموعة أيضاً يتقدمها الجيش العاشر نحو سيليزيا العليا (حول كروزبورغ) ثم انطلقت المجموعة أخيراً وأمامها الجيش الثامن في سيليزيا الوسطى (إلى الشرق من اولس). وكانت مهمة مجموعة جيوش رونشتد هي **دحر العدو في المنحنى الكبير من نهر الفستولا؛ وفي غاليسيا؛ ثم الاندفاع باتجاه العاصمة فارصوفيا (وارسو) بقطعات آلية قوية؛ واحتلال أماكن العبور على نهر فستولا بأسرع ما يمكن وعلى جبهة واسعة لإبادة ما يتبقى من الجيش البولوني؛ وبالارتباط والاتصال مع مجموعة جيوش الشمال.**

(١٧) بوميرانيا: Poméranie اقليم بولوني؛ يحده من الشمال بحر البلطيق؛ ويفصله نهر الفستولا إلى قسمين مميزين: بوميرانيا الغربية (Voïvodie De Szazecin) وبوميرانيا الشرقية ــ مازونيين (Voïvodie D'olstyn).

كانت خطة الدفاع البولونية تعتمد على نشر القوات للدفاع على كافة الجبهات، وفي كل المناطق؛ مما تسبب في بعثرة القوات وتشتيتها. ومقابل ذلك؛ اعتمدت الخطة الألمانية على الهجوم من جهتين، ثم من ثلاث جهات (بعد تدخل القوات السوفييتية). مما يحرم القوات البولونية من حرية العمل. وكان البولونيون يعتمدون على إطالة أمد الحرب قدر المستطاع؛ لإتاحة الفرصة أمام جيوش الحلفاء (الفرنسيون والبريطانيون) للتدخل؛ غير أن سرعة تطور العمليات حرمت هذه الجيوش من التدخل.

ما إن اجتازت القوات الألمانية حدود بولونيا؛ حتى أقام فون رونشتد مقر القيادة لمجموعة جيوشه في دير الصليب المقدس، الذي كان يقع خارج مدينة نيسا[١٨] والذي كان في منطقة معزولة؛ يعمل في إعداد المبشرين وتخريجهم؛ ويتسع بدرجة كافية لاستيعاب هيئة الأركان الكبيرة. ولما لم تكن هناك ضرورة عملية للنهوض باكراً للعمل، نظراً لأنه لم يكن بالمستطاع الحصول على المعلومات عن الأعمال القتالية للقوات، قبل مضي ساعات على الأقل؛ فقد كان باستطاعة رونشتد وضباط هيئة أركانه؛ أخذ قسط من الراحة؛ بعد تلك الفترة الشاقة التي سبقت انطلاقة القوات؛ ورافقتها.

كان على مجموعة جيوش الشمال بقيادة فون بوك تنفيذ مناورة التطويق الكبرى التي حددتها القيادة العليا؛ وأن تنطلق من بروسيا الشرقية وسيليزيا؛ وأن تكون في وضع تستطيع معه مهاجمة القوات البولونية الرئيسة المتمركزة في منحنى نهر الفيستول الكبير، وبلوغ مؤخرتها؛ وذلك ما إن يتسنى لها تحقيق الاتصال بين وحداتها في بروسيا الشرقية وبوميرانيا؛ من أجل طرد القطعات البولونية من الممر. ومقابل ذلك؛ كانت مهمة مجموعة جيوش الجنوب بقيادة فون رونشتد الاعتماد على جيشيها المنطلقين من سيليزيا (الجيش العاشر والجيش الثامن)، وتثبيت هذه القوات المعادية في مواضعها؛ والاشتباك معها؛ لمنعها من الانتشار وراء خط الفيستول ــ السان. وتنفيذاً لذلك؛ كان لزاماً على مجموعة جيوش رونشتد أن تعمل في البداية على دفع فرق المشاة أمامها بأقصى سرعة ممكنة؛ وذلك بهدف تمزيق التجمع المعادي المنتشر على مقربة من الحدود؛ ودحره، ومن ثم الوصول قبل العدو إلى المعابر على نهر الفيستول (ما بين وارسو ودامبلين)، وذلك بالاعتماد على زج الكتلة المدرعة للجيش العاشر، بحزم وتصميم. وكان على الجيش العاشر بالتالي أن يصل، بعد عبوره لغاليسيا، إلى نهر السان؛ وعبوره بأسرع ما يمكن. أما إذا ما حاول البولونيون إبداء مقاومة نهائية وراء نهر السان ونهر الفيستول؛ فإن باستطاعة الجيش العاشر إحباط نوايا العدو، وذلك بشن هجوم من

---

(١٨) نيسا: Neisse وباللغة البولونية Nysa مدينة بولونية في سيليزيا؛ تقع على نهر نيسا الشرقي Nysa De Klodzko وهناك نهر نيسا الغربي أيضاً Nysa De Lusace. وطول الأول ١٩٥ كم، والثاني ٢٢٥ كم. وهو الذي يشكل حالياً الحدود البولونية الألمانية، ويصب النهران في نهر الاودر.

الجنوب والاتصال بالجناح الأيمن لمجموعة جيوش الشمال؛ التي ستكون في ذلك الوقت؛ قد توغلت بعيداً خلف خطوط القوات البولونية ومؤخراتها. وينبغي أن يتدخل الجيش الرابع؛ بحيث يتسنى مباشرة لجناحه الأيمن الزاحف بعيداً إلى الشرق في سلوفاكيا؛ أن يهدد من الجانب؛ القوات المعادية خلال تجمعها في منطقة كراكوفي بحيث يصبح من المحال على القوات البولونية الدفاع عن غاليسيا. **ولقد عمل فون رونشتد ومعه قيادة مجموعة جيوش الجنوب على إدارة الحرب؛ ضمن حدود هذا الإطار من التخطيط؛ وبذلت جهدها باستمرار لإرغام كتلة القوات البولونية على القتال أمام نهر الفيستول وتدميرها. مع الأخذ بعين الاعتبار احتمال قيام القوات البولونية على خوض المعركة الحاسمة وراء خط فستول ــ سان. وقد جرت مسيرة الأعمال القتالية وفقاً لما هو مخطط لها؛ فمرت بالمراحل التالية:**

أولاً: القتال العنيف على الحدود؛ ثم المطاردة العنيفة والمستمرة للقوات البولونية؛ والتي وصلت بالجيش الرابع عشر الألماني عبر غاليسيا حتى مدينة لفوف، وما وراء نهر السان.

ثانياً: الاختراق الذي قام به الجيش العاشر حتى نهر فيستول، ومعركة التطويق في رادوم.

ثالثاً: معركة بزورا التي قام بها الجيش الثامن والجيش العاشر؛ وتم بها تدمير أكبر تجمع للقوات البولونية.

رابعاً: معركة فارصوفيا ــ وارسو. وفي النهاية القتال الأخير الذي كان من نتائج التقلبات التي سببها الاتفاق الألماني ــ السوفييتي.

لقد عمل رونشتد وهيئة أركانه؛ على تنسيق التعاون على مستوى القيادات؛ وجرت الأمور بصورة طبيعية؛ إلا أن القتال العنيف في المرحلة الثالثة (معركة بزورا)، اضطر رونشتد إلى تولي قيادة هذه المعركة بصورة مباشرة؛ إلى أن تم حسمها (وقد حضر هتلر هذه المعركة وراقب تطوراتها عن كثب). وبانتهاء المعركة أصبح الباب مفتوحاً للوصول إلى العاصمة. فقامت الطائرات الألمانية بإلقاء نشرات في يوم ٢٦ أيلول ــ سبتمبر ــ أعلمت فيها السكان عن قرب موعد قصف وارسو وطلبت إلى السكان ــ وإلى القوات ــ الاستسلام. وتسلم رونشتد طلب الاستسلام من القيادة البولونية، ظهر اليوم التالي.

تم التوقيع على وثيقة الاستسلام يوم ٢٨ أيلول ــ سبتمبر ــ وتضمنت الاتفاقية تقديم المساعدة الفورية إلى السكان؛ وإسعاف الجرحى؛ كما قدمت القوات التحية العسكرية للقوات البولونية اعترافاً بدفاعها العنيد ومقاومتها الباسلة. وتضمنت الاتفاقية أن يحتفظ الضباط البولونيون بسيوفهم؛ وأن يعتبر صف الضباط والجنود أسرى حرب، وأن تتم إعادتهم إلى منازلهم فور انتهاء الإجراءات التقليدية المعتادة.

استمر القتال؛ رغم توقيع وثيقة الاستسلام في وارسو. لكن القيادة الألمانية العليا أصدرت أمرها إلى رونشتد بسحب الجيش الرابع عشر من مدينة لفوف وتسليمها للقوات السوفييتية. وسحب بقية قوات مجموعة الجيوش إلى ما وراء خط الحدود المتفق عليه بين وزير الخارجية الألمانية روبينتروب والقيادة السوفييتية. وامتد القتال من ممر اوزوك إلى بريزميسل ليصل إلى السان والفيستول ثم إلى شمال وارسو (فارصوفيا). وقد جرى القتال إلى الشرق من هذه الأنهار لمصلحة القوات السوفييتية. وأمكن السيطرة على الموقف بعد اشتباكات عنيفة.

جرى استعراض عسكري كبير في وارسو يوم ٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٩ بناء على أوامر هتلر. فمرت الفرق المنتصرة المعسكرة في المدينة؛ وحولها؛ في الشارع الذي يسير من المرقب إلى القصر. وقد أثارت القطعات التي اشتركت في العرض انطباعاً مهيباً في النفوس؛ وكانت نظرات الجنود تشع بالقوة والعزة، نتيجة ما حققته من نصر في (الحرب الصاعقة).

لقد كانت الحملة البولونية في الواقع حدثاً مثيراً في تاريخ فن الحرب؛ بسبب تطوراتها السريعة، ونتائجها الهامة. ولقد كانت القوات البولونية تمتلك قدرات قتالية لها ثقلها في ميزان القوى؛ إلا أن الأخطاء التي ارتكبتها القيادة البولونية، في مجال انتشار قواتها، وفي طريقة إدارة الحرب، قد ساعدت القوات الألمانية على تحقيق نصرها الحاسم؛ فكان ذلك تصديقاً بمقولة فون مولتكه الشهيرة: «إن إدارة المغلوب للحرب كثيراً ما تساعد المنتصر على تحقيق انتصاره». إلا أن ذلك لا ينتقص من أهمية ما توافر للقوات الألمانية من قدرة قتالية عالية؛ وما توافر لقيادتها من كفاءة في إدارة الحرب مما ساعد على تحقيق النصر بسرعة وبطريقة حاسمة؛ هذا إلى جانب الظروف والشروط الملائمة التي جرت في إطارها الأعمال القتالية.

لقد كان للاستخدام الجديد كل الجدة للتشكيلات المدرعة الكبرى، والعاملة بصورة مستقلة؛ ولدعم الطيران المتفوق على العدو بصورة ساحقة؛ دور أساسي ورئيسي في إنجاز ذلك الظفر السريع. إلا أن العامل الحاسم قد توافر، في الوقت ذاته، في شجاعة الجندي الألماني؛ واستعداده الدائم للقتال والتضحية؛ ثم للروح المعنوية العالية في وسط القادة وجنودهم على السواء.

كان الأمر الجوهري في ذلك كله هو أن جيش ألمانيا الصغير المنبثق عن هزيمة ١٩١٨؛ والذي ضيق عليه كثيراً؛ قد استطاع المحافظة على مستوى التدريب الألماني؛ والتمسك بالتقاليد العظيمة للقيادة، وبعثها من جديد. فنجح الجيش الألماني الجديد ــ وحده ــ والذي كان الابن البار للجيش القديم؛ في الخلاص من التردي في حرب المواقع الثابتة؛ واستخدام وسائل القتال الجديدة؛ لإحياء فن القيادة الحقيقي، وتجديدها في (حرب الحركة). وكان سر الانتصار يكمن في مفهوم

(المبادهة) الذي سيطر على الجيش الألماني إلى درجة لا مثيل لها في أي جيش آخر؛ وممارستها حتى في أنساق التسلسل الصغرى؛ وحتى على مستوى الأفراد المقاتلين. لقد جمع الجيش القديم هذا الارث الضخم ونقله إلى الجيش الألماني الجديد، الذي اضطلع بتجربته الأولى في بولونيا؛ وكانت تجربة مشرفة. واستطاعت القيادة الألمانية العليا أن تتصرف إجمالاً دون أي تدخل خارجي. وكان في حوزة القادة وبين أيديهم كل السلطة؛ وكان على الجنود أن يخوضوا قتالاً عسكرياً صرفاً؛ اتخذ بسبب ذلك طابع الفروسية.

أصدرت القيادة الألمانية العليا أمرها يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ بتسمية الجنرال فون رونشتد قائداً عاماً في الشرق. وكان إلى جانبه المدير العام للإدارة المدنية في بولونيا المحتلة الوزير فرانك. وبقيت أركان مجموعة جيوش فون رونشتد تحت تصرف القائد العام الجديد من أجل مساعدته على الاضطلاع بأعبائه العسكرية؛ وأضيفت إلى هيئة الأركان شعبة للتموين. أما هيئة أركان مجموعة جيوش الشمال؛ فقد نقلت إلى الجبهة الغربية.

أثارت هذه التدابير الجديدة شعوراً بالمرارة في نفس الجنرال فون رونشتد وهيئة أركانه. فقد كانت مجموعته هي التي اضطلعت بالدور الرئيسي في الحرب البولونية؛ وها هو وهيئة أركانه يتركون بلا عمل؛ في حين كان على رفاقهم في مجموعة جيوش الشمال، الاستعداد لتنفيذ واجبات عسكرية جديدة وهامة. وبالاضافة إلى ذلك؛ فإنه لم يكن من الأمور المغرية ــ بالنسبة لرونشتد على الأقل ــ ممارسة دور قائد قوات الاحتلال مع إدارة يرأسها قائد كبير من الحزب الوطني ــ الاشتراكي (النازي).

كان رونشتد قد أقام مع هيئة أركان حربه في قصر هيلينو إلى الغرب من المدينة؛ عندما وقع الهجوم على وارسو. وبعد ذلك ببضعة أيام؛ جاء رئيس الإدارة الجديد الوزير فرانك بنفسه لتناول الغداء في ذلك القصر؛ متزيناً بالذهب؛ ومصطحباً معه حاشية كبيرة؛ وقد وصل متأخراً عدة ساعات عن الموعد الذي كان قد حدده لوصوله؛ ثم أخذ صوراً مع الجنرال فون رونشتد؛ وحاول في هذه الصور أخذ أوضاع مميزة؛ وأعلن بعدها أن سيعود إلى برلين لمقابلة الفوهرر؛ ثم صعد إلى سيارته؛ دون أن يذكر ولو كلمة واحدة عن واجباته وأعماله المقبلة. وانتقل بعد ذلك فون رونشتد إلى لودز ومعه القادة في هيئة أركانه؛ دون أن يعلم شيئاً عن الوزير فرانك فأرسل الجنرال كريديل للبحث عنه؛ فوجده في أملاكه قرب بحيرة في بافاريا، وأقنعه بالسفر إلى لودز، ومقابلة الجنرال رونشتد. وتم اللقاء بين الرجلين؛ ودار بينهما حديث فاتر، وقال رونشتد: «بأنه لن يسمح أبداً بوجود حكم مواز لسلطاته يمارسه رئيس وحدات الصاعقة. س. س» ووافق فرانك على ما قاله رونشتد، دون تحفظ وصاح: «أيها الجنرال إنني رجل قانون كما تعرف». ثم قال بعد قليل إن عليه العودة، إلى برلين

لمقابلة الفوهرر. وغادر المكان ــ كالمرة السابقة ــ واختفى؛ ولم يرجع أبداً طوال فترة إقامة رونشتد في بولونيا.

لقد اعتبر فون رونشتد أن تعيينه قائداً عاماً في الشرق ــ دون عمل عسكري ــ هو عقوبة له؛ وليس مكافأة؛ وكان يتحرق شوقاً للخلاص من هذا الوضع؛ ولم يطل انتظاره؛ فقد صدر الأمر بنقله إلى الجبهة الغربية، في منتصف شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ليبدأ عملاً جديداً.

وصل رونشتد وهيئة أركانه إلى الجبهة الغربية يوم ٢٤ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٩ لاستلام قيادة مجموعة الجيوش (آ) التي شكلت حديثاً. كانت فرق الجيشين السادس والثاني عشر لمجموعة الجيوش، منتشرة في الخطوط الأولى أمام الحدود الجنوبية البلجيكية؛ وحدود لوكسمبورغ؛ مع عناصر المؤخرة التي كانت تنتشر على امتداد الضفة اليمنى لنهر الراين. وأقام رونشتد مقر قيادته في فندق رايزن ــ نيرستنهوف، الواقع على شاطىء النهر في مدينة كوبلنتز. واستقرت المكاتب في بناء قديم؛ كان فيما مضى جميلاً؛ بالقرب من دوتيش ــ آيك.

كان على رونشتد الإقامة في حالة توتر؛ خلال شهور الشتاء؛ فقد كان بالمستطاع احتمال تلك الأيام لو كان هناك موعد محدّد للهجوم على الغرب في فصل الربيع. مما كان يتيح الفرصة للقيادة لتدريب القطعات بصورة منظمة ومنهجية (مبرمجة). إلا أن هتلر كان يرغب في شن الهجوم في نهاية فصل الخريف؛ إذ كان من المحال شن مثل هذا الهجوم في فصل الشتاء. وكلما كان رجال الأرصاد الجوية في الطيران يعلنون عن تحسن حالة الجو لمدة؛ كان هتلر يوعز للقوات أن تتخذ مواقعها للانطلاق؛ غير أن سقوط الأمطار بعدها كان يجعل الأرض طينية موحلة؛ كما أن تساقط الثلوج واشتداد حدة البرد؛ كان يجعل من المتعذر عمل الدبابات والطيران. وقد شكلت هذه الأوامر؛ وما كان يتبعها من أوامر مضادة؛ حالة شديدة الإزعاج للجنود؛ وأشد إزعاجاً لقادتهم. **وكان الجنرال فون رونشتد أشد القادة تأثراً من هذه الحالة؛ ونفد صبره؛ فكان يتجول كل صباح على امتداد نهر الراين؛ دون أن يظهر اهتماماً بسيل الأوراق والمراسلات التي كانت تنهال على مقر قيادته. ولم يكن يرتدي إلا معطفاً رقيقاً واقياً من المطر. وقد نصحه أحد قادته يوماً بارتداء معطف يحميه من البرد ــ خوفاً على صحته ــ فأجاب: «بأنه لم يكن لديه معطف للشتاء؛ وأنه في هذا العمر ليس عازماً على شراء ما يتدثر به».**

○

كانت القيادة الألمانية العليا خلال ذلك قد أنجزت عملها في وضع (**الخطة**

الصفراء ــ رقم ١) في شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٩ . وتطلبت هذه الخطة استخدام ثلاث مجموعات من الجيوش تضم ٩٥ فرقة للهجوم على الغرب . المجموعة (ب) بقيادة الجنرال فون بوك وتضم ٤٢ فرقة مدرعة وآلية (ميكانيكية) واجبها التقدم عبر فجوة ليبج ، واجتياح امتداد ماستروتيش إلى الشمال تماماً من امتداد الأراضي الهولندية جنوباً ، بين بلجيكا وألمانيا حيث أعاقت الأرض كثيراً انتشار القوات الألمانية سنة ١٩١٤ . وبعد ذلك تحتل من هولندا وبلجيكا القدر الذي يسمح به الحلفاء . **مجموعة الجيوش (آ) بقيادة الجنرال فون رونشتد ، وتضم ٢٣ فرقة مشاة . مهمتها الهجوم عبر الآردين لبلجيكا الجنوبية ، وتهديد دفاعات نهر الموز ؛ وتوجيه ضغط قوي يرغم القوات المتحالفة على التوجه لمجابهته ، مما يبعدها عن الهدف الرئيسي الذي تضطلع بتنفيذه مجموعة الجيوش (ب)** . ثم مجموعة الجيوش (ج) بقيادة الجنرال وليم ديترليب وتضم ٢٠ فرقة مشاة ، وواجبها تجميد القوات الفرنسية المدافعة عن خط ماجينو ؛ والاحتفاظ بعشر فرق للاحتياط العام .

لم تكن هذه الخطة في الواقع إلا نموذجاً عن خطة شليفن القديمة ؛ ولهذا فقد اصطدمت بتفكير القادة المبدعين ؛ وفي مقدمتهم فون رونشتد ، ورئيس هيئة أركانه مانشتاين . وقائد المدرعات غودريان . واستطاعت جهود هؤلاء أن تدخل تعديلات على الخطة ؛ وأمكن إقناع هتلر ؛ فتم تعديلها ؛ وظهرت للوجود (**الخطة الصفراء ــ رقم ٢)** . وشملت التعديلات وفقاً لهذه الخطة على ما يلي :

نقل مركز الثقل إلى الأردين : مما اقتضى حشد ٤٥ فرقة ؛ منها ٧ فرق مدرعة و٣ فرق مشاة محمولة ؛ على أن تزج عند الانتهاء من الأردين ٥ فرق ثلاثة منها في النسق الأول وفرقتين في النسق الثاني ؛ ونظمت كل مجموعة الفرق المدرعة والمشاة المحمولة في فيلقين ضمن مجموعة الجيوش (آ) ؛ فيلق منها تحت قيادة غودريان ، وفيلق تحت قيادة رينهاردت . ووضعت المجموعتان تحت قيادة فون كليست . وكان على هذه القوة التقدم أمام مجموعة الجيوش (آ) . وعلى جبهة ممتدة جنوباً من مونتشو حتى اللوكسمبورغ مركزة جهدها لاختراق جنوب الأردين وتدمير موانع نهر الموز حول سيدان . ثم تتجه مجموعة الجيوش (آ) ، بعد عبور نهر الموز على اتجاه آميان وآبفيل ، للوصول إلى الجناح الشمالي للحلفاء ؛ الذي يفترض أن يتقدم إلى السهل البلجيكي ؛ لمواجهة هجوم مجموعة الجيوش في هولندا وشمال بلجيكا .

خصصت لمجموعة الجيوش (ب) وفقاً للخطة الصفراء ــ رقم ٢ مجموعة من ٢٩ فرقة ؛ غير أن ثلاثاً منها فقط كانت مدرعة ؛ واثنتان من المشاة المحمولة . وكانت قوات هذه المجموعة مقسمة بين الجيش الثامن عشر (المواجه للبلاد المنخفضة) والجيش السادس (المواجه لمدينة ليبج وجسور ماستروتش) . وكان على هذه المجموعة التقدم على جبهة ممتدة من آخن شمالاً ، حتى ونترسويجك ،

لتجتاح جنوبي هولندا وشمالي بلجيكا، عن طريق اجتذاب جناح الحلفاء الشمالي باتجاه الشمال لمواجهة هجومه.

أما مجموعة الجيوش (ج) فإن واجبها لم يتغير؛ وقد ضمت ١٠ فرق في جيشين (الجيش الأول والجيش السابع) للهجوم محلياً؛ والقيام بهجمات خداعية؛ هدفها تثبيت الفرق الفرنسية العاملة في خط ماجينو. وشكلت القيادة الألمانية العليا ٤١ فرقة من المشاة؛ وفرقة مشاة محمولة ولواء محمول، وخصصتها للاحتياط العام. فكان مجموع القوات التي خصصت لاجتياح الغرب (بحسب الخطة الصفراء ــ رقم ٢)، وهي القوات التي تم حشدها يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠، في حدود ١٣٦ فرقة؛ منها ١٦ فرقة آلية (ميكانيكية).

أنهت القوات الألمانية استعداداتها؛ وأجرت التجارب الضرورية؛ ولم يبق إلا تحديد ساعة الانطلاق للهجوم؛ وكانت هذه الساعة مرتبطة بالأحوال الجوية. ولقد جاءت التقارير في مطلع شهر أيار ــ مايو ــ لتبشر بتحسن ثابت في حالة الطقس؛ وأصدر هتلر الأمر الرمزي ببدء تنفيذ العملية دانتزيغ. ليكون في الساعة ٣٥ر٥ من يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠. وفي هذا الموعد؛ انطلقت شرارة الحرب؛ وانطلقت القوات الألمانية لتنفيذ واجباتها؛ مبتدئة بالإنزال على قناة ألبرت، ونهر الموز، وبن أميل (وفقاً لما سبق عرضه في أعمال اشتيودنت). وذهل الجنود الهولنديون، كما ذهل المقاتلون البلجيكيون؛ من شدة المباغتة.

كانت قيادة قوات الحلفاء مقتنعة أن مخطط العمليات الألماني سيكون مشابهاً لخطة شليفن في الحرب العالمية الأولى. وجاءت التقارير الأولى لتؤكد هذه القناعة. ولهذا لم تركز قيادة قوات الحلفاء انتباهها على ما كان يحدث في الأردين. وحققت القيادة الألمانية العليا نجاحاً كبيراً في خداع القيادة الفرنسية ــ خاصة ــ وتضليلها عن اتجاه الضربة الرئيسة للقوات الألمانية؛ كما أخطأ الفرنسيون الحكم تماماً في تثمين قدرة المدرعات الألمانية؛ وطريقة استخدامها بكتل كبيرة.

استطاعت فرق البانزر أن تندفع في تقدمها؛ متعاونة مع سلاح الجو، فأمكن لها إحباط الهجمات المتتالية لقوات الحلفاء؛ واضطر الجناح الشمالي للحلفاء؛ إلى التراجع بسرعة في محاولة لإنشاء جبهة مستمرة، وقوية، لإيقاف تقدم مجموعة الجيوش (آ)، التي كان يقودها فون رونشتد. ولكن الموقف بعد أسبوع القتال الأول وفي صباح يوم ١٨ أيار ــ مايو ــ كان قد خرج من قبضة قيادة الحلفاء. وبالرغم من ذلك؛ فقد بقيت بعض الأوساط القيادية الألمانية تتوجس خيفة من هذا التقدم السريع؛ حتى أن هتلر ذاته؛ شكل قناعة بأن الاختراق الألماني يسير نحو فخ نصبه الحلفاء، وأن توجيه ضربة من الجنوب قد تفصل قوات فون كليست في أية لحظة؛ وتعزلها عن بقية القوات. وعقد هتلر ومستشاروه العسكريون مؤتمراً لمناقشة الموقف صباح يوم ١٨ أيار ــ مايو ــ وبينما كان

الجدل على أشده لمواجهة الاحتمالات المختلفة؛ كان التقدم الألماني في منطقتي مجموعتي الجيوش (آ) و(ب) يسير نحو أهدافه. وتلقت القيادة العليا للجيش ــ عند الظهيرة ــ إعلاماً يفيد بأن مجموعة جيوش فون بوك أو (المجموعة ب)، قد استولت على انتويرب، وأن الأرتال المدرعة لمجموعة جيوش فون رونشتد (المجموعة آ)، قد وصلت إلى كامبري، وسانت كوانتان. وغير هتلر موقفه بشكل مفاجيء؛ وأصدر أمره إلى رونشتد بتوجيه ضربته فوراً ما بين كامبري وسانت كوانتان. فتقدمت القوات حتى آراس حيث خاضت معركة ضارية، وصلت ذروتها يوم ٢١ أيار ــ مايو ــ واضطرت القوات البريطانية؛ رغم ما أظهرته من التصميم ومن الشجاعة؛ إلى الانسحاب نحو دونكرك. وظهر واضحاً أنه سيتم تطويق كافة قوات الحلفاء ــ في الشمال ــ وأسرها؛ خلال فترة أيام قليلة (إن لم يكن إبادتها).

انتقل هتلر إلى مقر قيادة فون رونشتد يوم ٢٤ أيار ــ مايو ــ في شارل فيليه. ثم عقد اجتماعاً مع قادته في مقر رونشتد في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم ذاته، وأصدر قراره بأنه سيتولى بنفسه إدارة الحرب في المعركة النهائية منها. وكلف سلاح الجو بالقضاء على قوات الحلفاء في دونكرك، كما أصدر أمره بإيقاف تحرك المدرعات لإحكام الطوق حول دونكرك. ولقد تلقى غودريان وقادة المدرعات؛ هذا الأمر بذهول تام. وتضاربت تفسيرات المؤرخين في أسباب قرار يوم ٢٤ أيار ــ مايو ــ وما من إجابة يمكن لها أن تكون عذراً مقبولاً؛ أو تفسيراً منطقياً لما حدث.

كان فون رونشتد يرغب يقيناً في إعطاء قواته المدرعة استراحة قصيرة لإعادة التنظيم وتأمين الإمدادات قبل الإنقضاض الأخير على دونكرك؛ ولقد أصدر أمره إلى هذه القوات بالتوقف يوم ٢٣ أيار ــ مايو ــ ولكن القوات لم تتقيد به. وصادق هتلر على الأمر الذي أصدره رونشتد صباح يوم ٢٤ أيار ــ مايو ــ وعندما أصدر هتلر أمره بإيقاف كل تحرك للمدرعات؛ لم يحتمل رونشتد هذا الوضع، وأسرع لاستطلاع الموقف شخصياً على جبهة فون كليست، من أجل التحرك التالي للمدرعات. فأدرك أنه ما من سبب يدعو إلى التوقف؛ وأن قوات الحملة البريطانية كانت على وشك الرحيل. وأخيراً؛ وتحت ضغط الأحداث؛ وإلحاح القادة؛ عاد هتلر فأصدر أمره بعد يومين، يوم ٢٦ أيار ــ مايو ــ باستئناف تقدم الدبابات. غير أن الفرصة الذهبية كانت قد ضاعت؛ فقد استطاعت قوات الحلفاء تنظيم الدفاع بقوة؛ ورافق ذلك هطول أمطار غزيرة، أعاقت تحرك الدبابات؛ فيما كانت بريطانيا قد استنفرت كل إمكاناتها لسحب قوات الحلفاء من أوروبا. وعندما وصلت معركة دونكرك إلى نهايتها في اليوم الأول من حزيران ــ يونيو ــ كانت بريطانيا قد نجحت بإخلاء ٣٦٦ ألف جندي؛ ثلثهم تقريباً من الفرنسيين والبلجيكيين.

أصبحت القوات الفرنسية وهي في وضع يائس تماماً؛ نتيجة للضربات الألمانية المتلاحقة،

وبعد أن غادرت تقريباً كل القوات البريطانية البرية أرض القارة الأوروبية ؛ بات لزاماً على ما بقي من الجيش الفرنسي أن يخوض المعركة وحده. لقد خسر الحلفاء تقريباً مليون ونصف المليون من المقاتلين، (بما في ذلك كل الجيوش الهولندية والبلجيكية)، واستولى الألمان على ما يكفي لتجهيز سبعين فرقة. وبالاستيلاء على مثل هذه التجهيزات الكثيرة؛ وخاصة العربات الميكانيكية من كل الأنواع؛ كسبت القوات الألمانية قدرة إضافية هائلة إلى قواتها الميكانيكية والمدرعة. ورغم ذلك كله؛ حاولت القوات الفرنسية تنظيم مقاومات جديدة بقيادة الجنرال ويغان[١٩]. ولكن ويغان كان يفتقر للقوى والوسائط اللازمة لتنظيم دفاعه بالعمق؛ وفقاً لما كان يريده. كما أن القيادة الألمانية لم تترك له الفرصة، فعملت على إعادة تنظيم قواتها، ونقلت ثقل العمليات إلى مجموعة الجيوش (ب) بقيادة فون بوك للتقدم جنوباً عبر نهر السوم ونهر السين واحتلال موانىء ساحل الأطلسي، فيما كان على مجموعة الجيوش (آ) بقيادة فون رونشتد التقدم نحو المارن؛ بين فردان وباريس؛ لتطويق القوات الفرنسية من الغرب بإحكام الطوق مع قوات مجموعة الجيوش (آ). وأثناء ذلك تتحرك مجموعة الجيوش (ج) بقيادة الجنرال فون ليب للهجوم على خط ماجينو؛ عندما يكون زحف رونشتد، قد وصل إلى مؤخرة المواقع الدفاعية الفرنسية. ولقد خاضت القوات الفرنسية معركتها بشجاعة؛ إلا أنها لم تتمكن من احتمال ثقل هجمة القوات الألمانية التي انطلقت يوم ٥ حزيران — يونيو — فانهارت القوات الفرنسية يوم ١٥ حزيران — يونيو — وشكل الماريشال بيتان الحكومة الفرنسية في اليوم التالي. وبدأت المفاوضات مع ألمانيا. وقبل الفرنسيون شروط هتلر يوم ٢٢ حزيران — يونيو — وتم التوقيع على الهدنة في غابة كومبيين.

كان هتلر قد عقد اجتماعاً مع كبار القادة العسكريين في ٣١ تموز — يوليو — ١٩٤٠؛ لمناقشة مخططات العمل للمستقبل؛ وأعلن في هذا الاجتماع عن قراره بالهجوم على الاتحاد السوفييتي في ربيع السنة التالية (١٩٤١). وأن هدفه من هذه العملية هو فتح بولندا (بولونيا) الشرقية، وولايات البلطيق وروسيا البيضاء وأوكرانيا؛ وإقامة خط دفاعي في روسيا؛ من ارخانجل حتى الفولغا لفصل روسيا الأوروبية عن روسيا الآسيوية. وبدأت هيئات الأركان في وضع مخططات بربروسا وأصبحت القيادة الألمانية العليا؛ في تشرين الثاني — نوفمبر — ١٩٤٠، قادرة على تنفيذ مناورات على الخرائط لاختبار احتمالات العمليات؛ وحل المشكلات الإدارية. وأوضحت نتائج هذه التمارين أنه يجب تدمير الجيوش الروسية الرئيسة غربي خط دفينا — دنيبر، حتى تبقى ضمن مجال الهجوم

(١٩) ويغان ماكسيم: Weygand - Maxime جنرال فرنسي؛ ولد في بروكسل سنة ١٨٦٧م. كان مساعداً للماريشال فوش خلال الحرب العالمية الأولى؛ دمر الهجوم البولشفي في بولونيا سنة ١٩٢٠. عين مندوباً سامياً لفرنسا في سوريا سنة ١٩٢٣. وأصبح رئيساً لهيئة الأركان الفرنسية سنة ١٩٣٠م. وعين قائداً أعلى للقوات الفرنسية سنة ١٩٤٠. ثم وزيراً للدفاع الوطني ١٩٤٠ — ١٩٤١ ثم ممثلاً عاماً للماريشال بيتان في افريقيا الشمالية. اعتقل سنة ١٩٤٢ ونقل إلى ألمانيا. وتم تحريره من الأسر سنة ١٩٤٥. فكتب مذكرات رائعة بدقتها.

الأكثر فاعلية للجيش الألماني؛ ولا سيما أن المسافات الشاسعة بعد خط دفينا ــ دنيبر بالإضافة إلى قلة الطرق والخطوط الحديدية؛ يجعل من الصعب جداً تأمين الإمداد الإداري لقوات كبيرة، تقاتل ضد مقاومة قوية.

أجرت القيادة الألمانية العليا في شهر تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ دراسات اقتصادية عن الصناعة السوفييتية؛ واستنتجت أن ٧٥ بالمئة منها موجود في روسيا الأوروبية؛ وعلى الأخص في حوض دونيتس وحول موسكو ولينينغراد. وأنه سوف يكون من المحتمل أن تتوازن مصاريف الحملة الألمانية القصيرة من الوقود والآلات بالاستيلاء عليها من العدو. لكنه من الضروري الاستيلاء على المنتجات الصناعية والغذائية الروسية؛ لصالح حملة ذات مدة زمنية أطول؛ ويجب الاستيلاء على حقول البترول الحيوية في القوقاز؛ إذا كان ذلك بالمستطاع. وإنه لأمر محتمل جداً أن تكون التقارير عن الصناعة السوفييتية؛ هي التي وجهت هتلر نحو تحديد هدف الحملة؛ وجعله اقتصادياً أكثر منه عسكرياً صرفاً. وهي أيضاً حملته على الاعتقاد بأنه ليس من الضروري الاستيلاء على موسكو في المرحلة الأولى؛ وإنما الاستيلاء على حوض دونيتس، حيث تتمركز نسبة ٣٦ بالمئة من الصناعة السوفييتية. وإلى الشمال لينينغراد حيث ١٦ بالمئة منها. وربما تكون العوامل الايديولوجية قد مارست دورها فجعلته يفضل الوصول إلى لينينغراد في البداية بدلاً من موسكو؛ رغم أنها تضم ٢٨ بالمئة من الصناعة السوفييتية.

أصدرت القيادة الألمانية العليا توجيهاً لقيادات القوات المسلحة في ١٨ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٤٠، بشأن الحملة القادمة على روسيا (خطة بربروسا). وتضمنت الخطة العامة مرحلتين: الأولى؛ وفيها يجب تدمير معظم الجيوش السوفييتية المرابطة في روسيا الغربية؛ بمجموعة من عمليات الطلائع المدرعة؛ على أن تضمن هذه العمليات تطويق القوات السوفييتية، وتدميرها وعدم السماح لها بالانسحاب إلى داخل روسيا. وفي المرحلة الثانية: القيام بمطاردة سريعة للوصول إلى خط جغرافي يضع قوات سلاح الجو السوفييتي عاجزة عن الوصول إلى مجال منطقة العمليات الألمانية؛ مع تأمين القواعد لإطلاق الطائرات الألمانية للهجوم على أهدافها في الأورال؛ إذا ظهرت ضرورة لذلك؛ لتدمير آخر منطقة صناعية تبقى في قبضة القوات السوفييتية، وتحقيق هدف الحملة، وهو فصل روسيا الأوروبية عن روسيا الآسيوية. وقد حدد توجيه القيادة العليا يوم ١٥ أيار ــ مايو ــ ١٩٤١ موعداً لإنهاء الاستعدادات لتنفيذ العملية.

بدأت القيادة الألمانية بحشد قواتها على جبهة الشرق بداية من شهر شباط ــ فبراير ــ ١٩٤١. وفي بداية شهر حزيران ــ يونيو ــ كانت قد انتهت من حشد ٧٥ بالمئة من مجموع القوات المخصصة للهجوم على روسيا، وتنفيذ خطة بربروسا. وبلغ التعداد العام لهذه القوات

٣٫٣٠٠٫٠٠٠ نظمت في ١٤٢ فرقة مقاتلة ضد ٢١٣ فرقة سوفييتية. وتضمن الحشد ٦٢٥ ألف حصان و٦٠٠ ألف عربة ميكانيكية و٣٫٣٥٠ دبابة؛ وأكثر من ٧ آلاف قطعة مدفعية. وقد نظمت القوات الألمانية في ثلاث مجموعات للجيوش: **مجموعة جيوش الشمال**: بقيادة الماريشال فون ليب تنطلق من بولندا (بولونيا) وتضم الجيش الثامن عشر بقيادة العميد فون كوشلر والمكون من ٨ فرق مشاة والجيش السادس عشر بقيادة العميد آرنست بوش والمكون من ١٢ فرقة مشاة ومجموعة الدبابات الرابعة بقيادة العميد أريخ هوبز والمكونة من ٦ فرق مشاة ميكانيكية ودبابات. وواجب مجموعة جيوش الشمال هو تطويق القوات السوفييتية في البلطيق (غربي دفينا) وتدميرها والاستيلاء على لينينغراد. **مجموعة جيوش الوسط**: بقيادة الماريشال فون بوك تنطلق من شرقي بروسيا وتضم الجيش التاسع بقيادة العميد أدولف شتراوس، والمكون من ٩ فرق مشاة، والجيش الرابع بقيادة المشير فون كلوغه، والمكون من ١٦ فرقة مشاة، والمجموعة الثالثة للدبابات بقيادة العميد هوت، وتتكون من ٧ فرق مشاة ميكانيكية ودبابات، والمجموعة الثانية للدبابات بقيادة العميد هانز غودريان، وتتكون من ٩ فرق مشاة ميكانيكية ودبابات، وواجب هذه المجموعة هو تطويق القوات السوفييتية بين الحدود ومينسك؛ على الطريق الرئيسي إلى موسكو، وتدميرها. **مجموعة جيوش الجنوب: بقيادة الماريشال فون رونشتد، تنطلق من شمال رومانيا**. وتضم الجيش السادس بقيادة المشير فون رايخين والمكون من ٦ فرق مشاة، والجيش السابع عشر بقيادة العميد شتويلبناجل، والمكون من ١٣ فرقة مشاة، والجيش الحادي عشر بقيادة العميد ايوجن شوبيرت، والمكون من ٧ فرق مشاة، والمجموعة الأولى للدبابات بقيادة المشير فون كلايست، وتضم ٩ فرق مشاة ميكانيكية ودبابات. وكان واجب هذه المجموعة هو تطويق القوات السوفييتية في أوكرانيا غربي الدنيبر. وفيما عدا مجموعة جيش الجنوب؛ كان من المقرر أن يتم تطويق القوات السوفييتية على مسافة مئتي ميل عن الجبهة الألمانية؛ أي ضمن قطر الضرب لجيش الحرب الخاطفة. ولقد طلبت الخطة الأصلية للقيادة العليا؛ إجراء تجميع الجيش الثاني عشر على الجناح الجنوبي للجبهة ليهاجم من مولدافيا حتى يتيح المجال أمام مجموعة جيوش الجنوب لتطويق القوات السوفييتية في أوكرانيا تطويقاً مزدوجاً (حركة كماشة). **إلا أن هتلر قرر في آذار ــ مارس ــ ١٩٤١ إجراء الالتفاف حول نيستر من الشمال؛ بحركة دورانية من قوات رونشتد (ويقوم بتنفيذها الجيش السادس ومجموعة دبابات كليست). وذلك بسبب قلة الطرق والخطوط الحديدية في رومانيا؛ فكان على مجموعة فون رونشتد الالتفاف بجناحها الأيسر ــ بصورة أساسية ــ وذلك بالزحف إلى كييف، ثم إلى المنعطف الكبير عند أسفل نهر الدنيبر؛ أي على بعد ٤٠٠ ميل من قواعد الإنطلاق في بولندا (بولونيا). ومن اتجاه تعجز القوات السوفييتية عن مجابهته أو صده. وكان على مجموعة جيوش فون رونشتد مواجهة أضخم الحشود السوفييتية؛ وأكثرها قوة؛ إضافة إلى ما توافر لهذه الحشود من قيادة ضمت أكثر القادة السوفييت كفاءة وخبرة.**

خصص ماريشال الجو غورنغ ٢١٥٠ طائرة لدعم العمليات البرية. فكان الأسطول الجوي الأول بقيادة العميد الفريد كيلر لدعم مجموعة جيوش الشمال. وكان واجب الأسطول الجوي الثاني بقيادة الفيلدمارشال ألبيرت كيسيل رنغ هو دعم جيوش الوسط. أما دعم مجموعة جيوش الجنوب فقد وقع على كاهل الأسطول الجوي الرابع بقيادة العميد الكسندر لوير[٢٠]. وكان لدى الاتحاد السوفييتي ٩ آلاف طائرة، إلا أن ألفي طائرة منها كانت منتشرة في آسيا؛ كما كان هناك ألفا طائرة حديثة فقط من أصل السبعة آلاف الباقية؛ وكان معظم هذه الطائرات قد حشد في المطارات المتاخمة للحدود الغربية. وكان الدفاع السوفييتي عن هذه المطارات ضعيفاً؛ كما كانت المطارات محرومة من أجهزة الإنذار المبكر (الرادارات). فكانت قيادة سلاح الجو الألماني تأمل بأن تتمكن من تدمير القوة الجوية السوفييتية في روسيا الأوروبية؛ بنفس الطريقة التي تمكنت بها من تدمير القوات البرية البولندية والنروجية والهولندية والبلجيكية والفرنسية.

بدأت في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ٢٢ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٤١؛ أكبر حرب على الأرض، والتي لم يشهد لها العالم مثيلاً. فقبل بزوغ الفجر بقليل؛ بدأت آلاف المدافع الألمانية بقصف كثيف على معسكرات القوات السوفييتية على امتداد الجبهات؛ ثم صعدت مع بزوغ الفجر مئات من الطائرات الألمانية من مهابطها؛ وتوجهت شرقاً نحو المطارات السوفييتية. ولما وصلت الطائرات الألمانية إلى أهدافها؛ وجدت الطائرات الروسية على مهابطها وقد انتظمت على أنساق، يلامس جناح الطائرة منها جناح الطائرة الأخرى؛ فكانت جميعها هدفاً ثميناً للقاذفات والمقاتلات الألمانية. واستطاعت مراكز قيادة سلاح الجو الألماني أن تعلم القيادة العليا للجيش؛ عند الظهر؛ أنه قد تم تدمير ٨٠٠ طائرة سوفييتية؛ ومعظمها على الأرض. وبعد يومين؛ ارتفع عدد الطائرات السوفييتية المدمرة إلى ألفي طائرة.

لم تكن المباغتة التي تعرض لها (الجيش الأحمر) أقل هولاً أو أخف وطأة من مباغتة القوات الجوية السوفييتية. إلا أن قوات الجيش الأحمر أفاقت من ذهول المباغتة بعد يوم واحد؛ وأخذت في إبداء مقاومة ضارية في كل مكان من الجبهة. وقد استطاعت القوات الألمانية استثمار تأثير الصدمة، حتى أبعد الحدود؛ ومضت لتطوير عمليات (الحرب الخاطفة)، فحققت نجاحاً كبيراً؛ وكان أكبر نجاح أمكن تحقيقه من نصيب مجموعة **جيوش الوسط**؛ إذ استطاعت مجموعتي مدرعات هوت وغودريان اختراق المواقع السوفييتية في موضعين؛ واندفعتا في تقدمها للإلتقاء في مينسك حيث تم في

(٢٠) كان الأسطول الجوي الأول يضم ٢٧٠ قاذفة قنابل و١١٠ طائرة مقاتلة و٣٠ طائرة نقل و١٦٠ طائرة استطلاع و٥٠ طائرة ارتباط. أما الأسطول الجوي الثاني فكان يضم ٢٤٠ قاذفة قنابل و٢٥٠ قاذفة انقضاضية و٣٣٠ طائرة هجومية و٦٠ طائرة نقل و١٨٠ طائرة استطلاع و٦٠ طائرة ارتباط. وقد ضم الأسطول الجوي الرابع ٣٦٠ قاذفة قنابل و٢١٠ طائرات مقاتلة و٦٠ طائرة نقل و٢٢٠ طائرة استطلاع و٨٠ طائرة ارتباط.

يوم ٢٧ حزيران ــ يونيو ــ حصار ٣٢ فرقة مشاة سوفييتية. وانتهى الأمر بأسر ٢٩٠ ألف جندي و٢٥٠٠ دبابة و١٤٠٠ مدفع. ثم استدار غودريان لبلوغ هدفه التالي، وهو سمولنسك، وذلك خلافاً لرغبة هتلر وتوجيهاته. ولقيت القوات الألمانية مقاومة ضارية هنا، إلا أنها تمكنت في يوم ٨ آب ــ اغسطس ــ من تحقيق نصرها الثاني، فاستولت على سمولنسك. وأسرت ١٨٥ ألف جندي و٢٠٣٠ دبابة؛ وألفي مدفع. فابتعدت بذلك مجموعة جيوش الوسط عن قاعدتها مسافة ٤٠٠ ميل تقريباً، خلال شهرين من الأعمال القتالية.

كانت **مجموعة الشمال** خلال ذلك قد نجحت في الوصول إلى خط دفينا غير أن القوات السوفييتية بقيادة كوزنتسوف نجحت في تنظيم القتال التراجعي والانسحاب؛ وشكلت خطاً دفاعياً صلباً خلف نهر دفينا لحماية لينينغراد. وشعرت القيادة الألمانية العليا بالإحباط نتيجة عدم تمكنها من تدمير القوات. **أما في جبهة مجموعة جيوش الجنوب بقيادة فون رونشتد فقد كان التقدم متعثراً، إذ تمكن القائد السوفييتي كيربونوس من تنظيم دفاع شرس في أوكرانيا وقاده بكفاءة عالية؛ وكان لديه ٤٨ فرقة سوفييتية مقابل ٤٣ فرقة ألمانية. وكانت قلة الطرق تعيق انتشار القوات الألمانية وتقدمها.**

وأمام هذا الموقف؛ وجدت القيادة الألمانية العليا في يوم ٨ تموز ــ يوليو ــ أن الحل المناسب، أو الحل الصائب، هو أن تنفصل مجموعة دبابات غودريان عن مجموعة جيوش الوسط، وتستدير حتى مؤخرة قوات بودغورني في أوكرانيا؛ حيث يمتد البروز السوفييتي غربي كييف، مما يفتح الطريق أمام مجموعة جيوش رونشتد للوصول إلى حوض دونيس وحتى القوقاز، إذا أمكن. وفي الوقت ذاته؛ تنفصل مجموعة دبابات هوت عن مجموعة جيوش الوسط أيضاً؛ لتقطع الاتصال بين لينينغراد وبين موسكو، مما يساعد مجموعة جيوش الشمال على التقدم.

لقي هذا الحل المناسب؛ أو الحل الصائب معارضة شديدة في وسط القيادة الألمانية العليا؛ وحتى على مستوى قادة مجموعات الجيوش. حتى إذا ما انتهت معركة سمولنسك صار باستطاعة هتلر اتخاذ قراره الحاسم يوم ٢٠ آب ــ اغسطس ــ ١٩٤١. وأصدر أمره بوضع المخططات التفصيلية للبدء بالزحف في الجنوب. **وأصدرت القيادة الألمانية العليا أمرها رقم ٣٥ يوم ٦ أيلول ــ سبتمبر ــ لتنفيذ العملية التي حدد هدفها: «بتدمير القوات السوفييتية في مثلث كريمنشوغ وكييف وكانوتوب». على أن تتحرك مجموعة جيوش الجنوب بعد تنفيذ هذه المهمة لمتابعة الزحف شرقاً في نهاية شهر أيلول ــ سبتمبر ــ لتدمير القوات السوفييتية في منطقة فيازما بعد تطويقها من الجانبين (حركة كماشة). وبعد عدة أيام أخرى؛ استدارت مجموعة دبابات غودريان جنوباً في أوكرانيا ــ بعد أن انفصلت عن مجموعة جيوش الوسط ــ وبلغت مناورة التطويق هذه ذروتها في**

معركة كييف وحققت أكبر نصر في عمليات التطويق والإبادة خلال عمليات الهجوم الألماني كلها. إذ أسر الألمان ٦٦٥ ألف جندي سوفييتي.

على الرغم من هذا النجاح الذي حققه رونشتد ومجموعته في كييف إلا أن تقدمه نحو هدفه التالي روستوف لم يكن سهلاً. فقد استطاع القائد السوفييتي تيموشنكو تنظيم خطوط دفاعية متتالية. ولقد استنزفت عملية حصار روستوف[21] قدرة القوات الألمانية؛ وفي الوقت ذاته؛ أعاد تيموشنكو تنظيم القوات السوفييتية في أوكرانيا؛ وتلقى دعماً جديداً مكنه من القيام بهجوم كبير يوم ٢٩ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ١٩٤١، وتشكيل تهديد بعزل القوات الألمانية القائمة على حصار روستوف. فطلب رونشتد إلى هتلر السماح له برفع الحصار عن روستوف والانسحاب إلى مَا وراء نهر ميوس. لكن هتلر رفض طلب رونشتد، وأصر على التمسك بروستوف. مما اضطر رونشتد لتقديم طلب بإعفائه من منصبه. ووافق هتلر على الفور؛ غير أن القائد الجديد رايخين عاد فأكد تنفيذ ما طلبه رونشتد، مما اضطر هتلر لإعطاء أمره بالانسحاب في اليوم التالي، ٣٠ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ وذلك بعد أن تعرضت القوات الألمانية للخسائر الفادحة. ولم يكن صرف قائد كبير مثل رونشتد عن عمله هو آخر أخطاء هتلر القاتلة.

○

نقل رونشتد إلى منصب القائد الأعلى للغرب فجعل من باريس عاصمة له. ولم يكن عمله إدارياً؛ بل كان عملاً إدارياً عسكرياً. فقد كان عليه إعداد جبهة الغرب لمواجهة احتمال غزو الحلفاء؛ غير أنه لم يكن يتمتع بحرية العمل العسكري. فقد كان هتلر يتدخل في السياسة الاستراتيجية وفي إدارة الحرب؛ استناداً لنصيحة مستشاريه العسكريين. ولكنه رغم ذلك لم يمتنع عن إعطاء رأيه الصحيح؛ كلما طلب إليه ذلك؛ وعلى سبيل المثال؛ فعندما قام الحلفاء بإنزال قواتهم في النورماندي (٦ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤٤) نصح بزج كل القوات المدرعة المتوافرة لمجابهة قوات الغزو. وعندما قرر هتلر القيام بهجوم عام ضد قوات الغزو (عملية الأردين التي نفذت في ١٦ كانون الأول ـــ ديسمبر ـــ ١٩٤٤) نصح رونشتد بجعل هدف هذه العملية محدوداً؛ اعتماداً على تقديره الصحيح لموازين القوى. إلا أن هتلر ظن أن بإمكانه إحراز نصر حاسم بأسلوب (الحرب الخاطفة). وجاءت النتائج مطابقة لتوقعات رونشتد.

لم تكن الصفحة الأخيرة من حياة المشير فون رونشتد مشرقة؛ فقد اعتقله الحلفاء. وكان

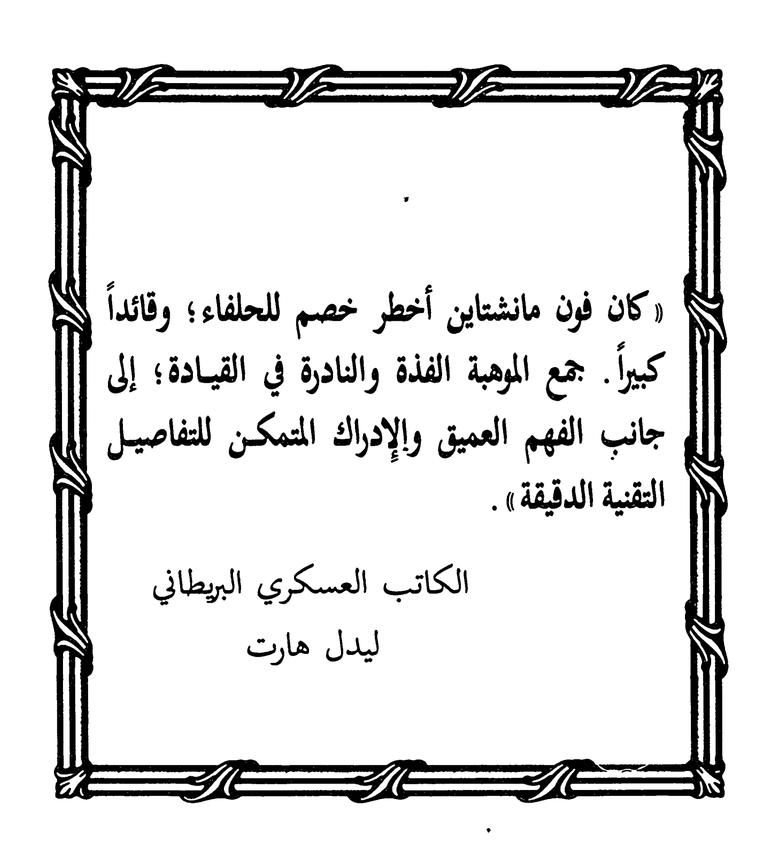
(٢١) روستوف: Rostov مدينة تقع في الاتحاد السوفييتي (روسيا) تقع على نهر الدون قريباً من بحر آزوف. وهي مركز صناعي كبير وهام.

كبار قادة الجيش الألماني يعتقدون أنه بالمستطاع تنصيب رونشتد رئيساً للدولة الألمانية ؛ حتى يعيد بناء ما هدمته الحرب ؛ وذلك على نحو ما فعل سلفه هندنبورغ ، إلا أن عجلة الأحداث دارت في منحى جديد ؛ فتمزقت ألمانيا . ولم تعد صحة رونشتد تساعده على احتمال وطأة السجن ؛ فأطلق الحلفاء سراحه وقد تجاوز السبعين من عمره . ولم يبق له إلا أن يعيش السنوات الثمانية الأخيرة من حياته في عزلته ؛ بعيداً عن الأضواء والشهرة .

الفصل السادس

التخطيط للعمليات وإدارة الحرب

٦ ـ اريك فون مانشتاين



«كان فون مانشتاين أخطر خصم للحلفاء؛ وقائداً كبيراً. جمع الموهبة الفذة والنادرة في القيادة؛ إلى جانب الفهم العميق والإدراك المتمكن للتفاصيل التقنية الدقيقة».

الكاتب العسكري البريطاني
ليدل هارت

وجيز الأحداث التي شارك فيها مانشتاين

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٨٧	٢٤ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ولادة مانشتاين .
١٩٣٦	كان مانشتاين نائباً لرئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني .
١٩٣٨	تعيينه قائداً للفرقة ١٨ في ليبزيغ .
١٩٣٩	نيسان ـــ ابريل ـــ تعيينه رئيساً لهيئة أركان مجموعة جيوش الجنوب ، تحت قيادة فون رونشتد .
١٩٣٩	١ أيلول ـــ سبتمبر ـــ اشتراكه في اجتياح بولونيا مع مجموعة جيوش الجنوب .
١٩٣٩	٢٢ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ نقله إلى الجبهة الغربية وتعيينه رئيساً لهيئة أركان مجموعة الجيوش (آ) ، تحت قيادة فون رونشتد أيضاً .
١٩٤٠	تعيينه قائداً للفيلق ٣٨ ؛ وإبعاده عن مجموعة الجيوش (آ) ، بسبب اعتراضه على خطة اجتياح الغرب (الخطة الصفراء) .
١٩٤٠	١٧ شباط ـــ فبراير ـــ مقابلته لهتلر ؛ وشرح مقترحاته لتعديل خطة الهجوم ، وتبني هتلر لاقتراحاته ؛ وتعديل الخطة .
١٩٤٠	١٦ أيار ـــ مايو ـــ إلحاقه وفيلقه ٣٨ بمجموعة جيوش فون رونشتد ، واشتراكه في احتلال فرنسا .
١٩٤١	نهاية شباط ـــ فبراير ـــ إعادته إلى ألمانيا وتعيينه قائداً للفيلق المدرع ٥٦ .
١٩٤١	٢١ حزيران ـــ يونيو ـــ اشتراك مانشتاين وفيلقه في اجتياح روسيا مع مجموعة جيوش الشمال تحت قيادة فون ليب .
١٩٤١	١٢ أيلول ـــ سبتمبر ـــ تعيينه قائداً للجيش ١١ للعمل مع مجموعة جيوش الجنوب .
١٩٤٢	تموز ـــ يوليو ـــ الاستيلاء على سيباستوبول .
١٩٤٢	٢٥ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ ترفيعه لرتبة مشير ؛ وتقليده عصا الماريشالية ؛ وتعيينه قائداً لمجموعة جيوش الدون .

١٩٤٣ ٣١ كانون الثاني ـــ يناير ـــ قيام القوات السوفييتية بتحرير ستالينغراد ؛ وأسر ما بقي من الجيش الألماني السادس مع قائده فون باولوس .

١٩٤٣ تنظيم انسحاب القوات الألمانية حتى حدود ألمانيا ؛ والدفاع عن ألمانيا .

١٩٤٤ ٣ نيسان ـــ ابريل ـــ مغادرة مانشتاين لمقر القيادة في لامبرغ إلى منزله .

١٩٤٤ وقوعه في أسر الحلفاء؛ وانصرافه لكتابة مذكراته التي صدرت تحت عنوان (الانتصارات الضائعة) .

Von Manstein Erick

٦ ــ اريك فون مانشتاين والتخطيط للحرب

لم يكن مغموراً بين القادة من وصل إلى منصب نائب رئيس هيئة الأركان؛ ولم يكن محروماً من الكفاءة وقد اسندت إليه قيادة فرقة. غير أن العمل في هيئات الأركان عامة؛ وفي هيئات الأركان الألمانية بصورة خاصة؛ يضع العاملين في الظل وبعيداً عن الأضواء والشهرة؛ حتى إذا ما جاءت فرصة مناسبة؛ انطلق العامل في هيئة الأركان إلى بؤرة الضوء مباشرة؛ فاستأثر بأكبر قسط من المجد والشهرة؛ هكذا كان فون مولتكه الكبير، وهكذا عمل من بعده لودندورف، وهكذا سار على أثرهما مانشتاين، وكثير غيرهم ممن كان لهم نصيب أقل من الشهرة؛ أو ممن حرموا حرماناً تاماً من هذه الشهرة. وقد اعترف مانشتاين بهذه الحقيقة؛ وأقرها؛ عندما كتب في مقدمة مذكراته: (الانتصارات الضائعة) إذ قال: «**لقد ذكر الجنرال فون سيكت: بأن أسماء ضباط هيئة الأركان تبقى مغفلة. واعتقدت أنني استطيع الالتزام بذلك؛ عندما قدمت مشروع الهجوم الألماني سنة ١٩٤٠؛ إلا أن الكاتب العسكري البريطاني ليدل هارت علم بقصة هذه الخطة من الماريشال فون رونشتد الذي كان رئيسي في ذلك الوقت. ثم من رئيس هيئة أركاننا الجنرال فون بلومنتريت**».

هكذا؛ كانت حياة فون مانشتاين سجلاً من النجاحات العسكرية المتتالية التي أوصلته إلى إشغال مناصب حساسة؛ غير أنها بقيت مختلطة بعضها ببعض في إطار من الظلال المعتمة التي تسدلها الستائر على مكاتب القيادات العسكرية وهيئات الأركان، فتحيلها إلى نوع من الغموض؛ والسرية التي يحظر كشف النقاب عنها. ومن هنا فقد يكون من الصعب تمييز دور فون مانشتاين، خلال حملة بولونيا عندما عمل رئيساً لهيئة أركان فون رونشتد. ولكن ما إن نقل، مع فون رونشتد أيضاً، إلى الجبهة الغربية في ٢٤ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٩ حتى بدأت مرحلة حاسمة ومميزة من حياته القيادية. إذ لم يكد يستقر في مقر قيادته الجديد؛ حتى باغتته خطة الهجوم على الغرب (خطة الحملة الصفراء). فعكف على دراستها؛ وتبين له وجود ثغرات لا يمكن السكوت عنها؛ ولما رجع إلى قائده فون رونشتد، ظهر له أن قائده متفق معه كل الاتفاق في وجهات نظره.

كانت هذه الخطة قد أخذت بتوجيهات هتلر في ٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٣٩ فتضمنت الاعتماد في الهجوم على الجناح الأيمن القوي، للتقدم به عبر هولندا وشمال بلجيكا؛ بهدف دحر القوات الفرنسية والبريطانية المتوقع مواجهتها في بلجيكا؛ وتدمير القوات البلجيكية الهولندية أيضاً. فكان لزاماً على قوات هذا الجناح تحقيق (الحسم) في المعركة. وكان هذا الجناح مشكلاً من تجريدة الجيش (ن) ومن مجموعة الجيوش (ب) بقيادة الجنرال فون بوك، والتي كانت محتشدة على المجرى الأدنى لنهر الراين؛ وفي القسم الشمالي من منطقة ايفل. وكانت مجموعة الجيوش (ب) تضم ثلاثة جيوش، ويضم جناحها الشمالي ثلاثين فرقة مشاة وكتلة الوحدات السريعة (٩ فرق مدرعة و٤ فرق مشاة آلية ـ ميكانيكية). أي ما يقرب من نصف مجموع الفرق الجاهزة في الجبهة الغربية، وعددها ١٠٢ فرقة. وكانت مهمة تجريدة الجيش (ن) إزالة هولندا ـ من ميزان القوى العسكرية ـ في حين تزحف الجيوش الثلاثة من مجموعة الجيوش (ب) باتجاه بلجيكا ومن جنوب مدينة ليبج. وكان على القوات المدرعة أن تضطلع بالدور الحاسم؛ عن طريق خرق الجبهة المعادية.

أصدرت القيادة الألمانية العليا في يوم ٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ تعديلات على خطتها السابقة. فأبعدت عمليات هولندا عن هذه الخطة. وبات لزاماً على مجموعة الجيوش أن تتقدم على طرفي ليبج بقوات جيشين في النسق الأول (الجيش الرابع والجيش السادس) ويتبعهما في النسق الثاني جيشان آخران (الجيش الثامن عشر؛ والجيش الثاني). ثم أدخلت هولندا مجدداً في الخطة، ووقع على الجيش الثامن عشر إخضاعها.

كان على مجموعة الجيوش (آ) المكونة من الجيشين ١٢ و ١٦ أن تغطي من جنوب مجموعة الجيوش (ب) التي كان يقع عليها واجب (الحسم في الصراع المسلح). وتنفيذاً لذلك؛ كان عليها أن تزحف من جنوبي بلجيكا واللوكسمبورغ؛ بقوة ٢٢ فرقة مشاة، دون أية وحدات آلية سريعة، وكان على الجيش ١٢ أن يتحرك على يسار المجموعة (ب) لتغطية مجنبتها في أثناء التقدم. كما كان على الجيش ١٦ الإنحراف نحو الجنوب بعد عبور اللوكسمبورغ، لحماية العملية بمجموعها؛ وذلك بالتمركز في وضع دفاعي يمتد تقريباً من الطرف الغربي لخط ماجينو؛ وشرقي مدينة سيدان؛ ما بين نهر الموز ومنطقة السار؛ في حين تقوم المجموعة (ج) بجيشين و١٨ فرقة مشاة بتأمين سلامة السور الغربي الألماني (ما بين حدود اللوكسمبورغ وسويسرا). ويبقى في الاحتياط ١٧ فرقة مشاة؛ وفرقتين آليتين.

كانت الفقرة الأولى من تعليمات ١٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ المبنية على توجيهات هتلر في ٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ قد حددت الهدف العام للقيادة؛ بما يلي: «القضاء على أكبر قسم ممكن من الجيش الفرنسي وحلفائه؛ واحتلال أكبر مساحة ممكنة من هولندا وبلجيكا

وشمالي فرنسا بآن واحد؛ استعداداً لشن هجوم جوي وبحري ناجح على انكلترا؛ وإقامة منطقة عازلة واسعة أمام حوض الرور». أما الفقرة الثانية فكانت تحدد مهمة الجيشين المكلفين بتنفيذ المهمة ــ بإدارة القيادة العليا للجيش ــ بما يلي: «القضاء على أكبر قسم ممكن من الجيش البلجيكي في منطقة تحصينات الحدود؛ وذلك بالتعجيل في جمع التشكيلات القوية والسريعة؛ خاصة؛ وتهيئة الإمكانات والظروف لمتابعة الهجوم فوراً بالجناح الشمالي على الشاطىء البلجيكي، لاحتلاله بأقرب فرصة ممكنة؛ فضلاً عن إزالة القوات الهولندية». **ثم توسعت القيادة الألمانية العليا؛ إلى حد ما؛ في تعديلها بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ بشأن هدف المجموعة (ب)، وصاغت الفقرة المتضمنة للهدف العام بما يلي: «الاشتباك مع أكبر قسم ممكن من القوات الفرنسية في بلجيكا وفي شمالي فرنسا، والقضاء عليها؛ لتهيئة الظروف والشروط الملائمة لمتابعة الحرب البرية والجوية ضد انكلترا وفرنسا». وعينت القيادة العليا في الفقرة الخاصة بالواجبات؛ مهمة المجموعة (ب) أو واجبها: «بتدمير القوات الحليفة شمال نهر السوم؛ والاندفاع حتى شاطىء بحر المانش».** وهكذا؛ بقي هدف المجموعة (ب) دفاعياً على نحو ما كان في السابق؛ ولكنه توسع فيما يتعلق بجيشها الأيمن (الجيش ١٢) الذي بات لزاماً عليه الآن عبور نهر الموز بسرعة؛ والتقدم عبر المنطقة الفرنسية المحصنة. ويمكن تلخيص الفكرة الموجهة في التعليمات الأولى والثانية بما يأتي: «القضاء على القوات الفرنسية والبريطانية المتوقع مواجهتها في بلجيكا بالاعتماد على الجناح الأيمن القوي؛ في حين يقوم الجناح الأيسر، وهو الجناح الأضعف بتغطية العملية وحمايتها. وكان الهدف الأرضي هو احتلال ساحل بحر المانش؛ مع أنه لم يذكر شيئاً عما ينبغي عمله بعد ذلك». **كان رد الفعل الشخصي للجنرال مانشتاين تجاه هذه الخطة؛ هو رد فعل عاطفي اعتمد في جوهره على الرفض لفكرة تكرار خطة فون شليفن الشهيرة لعام ١٩١٤. وشعر بخيبة أمل مريرة، عندما لاحظ قصور جيله ورفاقه من القادة؛ وعجزهم عن الإبداع، واللجوء إلى تكرار إنتاج عمل مبدع قديم؛ حتى لو كان هذا العمل قد صدر عن رجل عظيم مثل الجنرال فون شليفن.**

لقد كان واضحاً في ذهن كل خبير عسكري أن الألمان لا يريدون؛ ولا يمكنهم أبداً أن ينقضوا على خط ماجينو على نحو ما فعلوه في العام ١٩١٤ ضد الجبهة المحصنة في فردان ــ تول ــ نانسي ــ ابينال. وكان لا بد من مراعاة الاختلاف بين ما كان عليه الوضع العام سنة ١٩١٤؛ وبين ما أصبح عليه سنة ١٩٣٩. إذ كان من المحال في سنة ١٩٣٩ إخفاء حشد القوات في الجناح الشمالي عن مراقبة العدو؛ مما يحرم القوات من إمكانات تحقيق المباغتة؛ والإفادة منها. وكان بالمستطاع في سنة ١٩١٤ توقع هجوم الفرنسيين فوراً باتجاه اللورين. أما في العام ١٩٣٩ فإنه لم يكن من المنتظر أن يقدم الفرنسيون لأعدائهم الألمان مثل هذه الخدمة المجانية. وسيقوم الفرنسيون

حتماً بزج قوات ضخمة؛ وبصورة فورية؛ لمجابهة التقدم الألماني عبر بلجيكا أو هولندا. فكان لزاماً على الألمان مجابهة الأعداء جبهياً؛ والاعتماد على إمكانات صد الهجمات الجانبية التي قد يقوم بها الفرنسيون في بلجيكا. وعلى هذا فقد كان من المحال تكرار خطة شليفن. ولم تكن القضية هي مجرد تكرار للخطة؛ بل كان هناك ما هو أخطر من التكرار؛ إذ أن هذا التكرار جاء مشوهاً لخطة شليفن الأساسية. ولاحظ مانشتاين أن شليفن كان يريد دفع ذراعه الأيمن بشكل واسع للحصول على الحسم الكامل والنهائي على مجموعة الجيوش الفرنسية؛ عن طريق الالتفاف خولها من الشمال؛ والانتقال إلى غرب باريس؛ بعد تطهير شمال فرنسا كلها؛ ثم إرغام بقية القوات الفرنسية في النهاية على الاستسلام في جبهة متز ـــ الفـوج ـــ حدود سويسرا. في حين جاءت الخطـة الجديـدة لسنة ١٩٣٩ وهي خالية من التصميم على الحسم؛ وكل ما هدفت إليه هو تحقيق نصر محدود على قوات الحلفاء التي قد تحتشد في بلجيكا الشمالية؛ مع احتلال شريط أرضي يمكن من جعل ساحل بحر المانش قاعدة لمتابعة الحرب وتطوير عملياتها.

كان مانشتاين كلما أمعن النظر في خطة القيادة العليا؛ كلما كشف فيها المزيد من الأخطاء والنقاط الضعيفة؛ فلا هي قادرة على تحقيق الحسم؛ ولا هي قادرة على مجابهة ردود الفعل المحتملة للعدو؛ بسبب سوء توزيع القوى على مجموعات الجيوش؛ فوضع اعتراضاته، ورفعها إلى القيادة العليا؛ وكان في جملة تلك الاعتراضات:

أولاً: يجب أن يكون هدف الهجوم في الغرب هو الحصول على الحسم في الحرب البرية. وان احتمالات التعقيدات السياسية؛ والإنغماس فيها؛ لا تبرر الاكتفاء بتحديد أهداف جزئية وفقاً لما جاء في تعليمات القيادة العليا للجيش. كما أن هذه الأهداف الجزئية لا تتناسب مع القوى والوسائط العسكرية المخصصة لهذا العمل؛ إذ أن قوة الجيش الألماني تشكل بالنسبة لنا جميعاً العامل الحاسم في القارة، ولا يمكن استخدامه لتحقيق أهداف جزئية (محدودة) فحسب.

ثانياً: **ينبغي أن يكون مركز ثقل الهجوم في جبهة مجموعة الجيوش (آ) وليس في مجموعة الجيوش (ب)**. إذ سيؤدي العمل الذي ستقوم به هذه المجموعة الأخيرة إلى الاصطدام الجبهي مع عدو يتوقع ذلك؛ وقد يسفر هذا العمل الحربي عن انتصار أولي، ولكنه لن يوصل القوات إلى أبعد من نهر السوم على الأكثر. هذا وإن انتصارنا الحقيقي يكمن في تقدم مجموعة الجيوش (آ) عبر منطقة الأردين؛ ومباغتتها للعدو فيها؛ إذ لا يتوقع العدو أبداً زج قوات مدرعة فيها بسبب طبيعة الأرض. ثم إن اندفاع مجموعة الجيوش (آ) نحو المجرى الأسفل لنهر السوم، وعزل القوات المعادية الموجهة لمساعدة بلجيكا، وقطعها لشمال ذاك النهر؛ هو الأسلوب المناسب لإبادة الجناح الشمالي للعدو؛ ولتشكيل وضع يسمح لنا بالوصول إلى الحسم النهائي للحملة في الأراضي الفرنسية.

ثالثاً : **إن مجموعة الجيوش (آ) هي التي تواجه أيضاً الخطر الرئيسي أثناء الهجوم** . إذ لو قام العدو بمناورة صحيحة لمنع القوات الألمانية من حسم الصراع على أرض بلجيكا ؛ وذلك بإنسحابه إلى ما وراء نهر السوم عندما تتوافر له هذه الفرصة ؛ فإنه يستطيع في الوقت ذاته حشد كل قواته الجاهزة للقيام بهجوم مضاد ، على نطاق واسع ، لضرب الجناح الجنوبي للقوات الألمانية ، وبالتالي تأمين الشروط المناسبة لتطويق الجيش الألماني بكامله في بلجيكا ، أو أمام المجرى الأسفل لنهر الراين . وقد لا يعتقد البعض بإمكان لجوء القيادة الفرنسية لمثل هذا الحل الجريء بسبب احتمال معارضة حلفائها لها ؛ إلا أنه لا ينبغي استبعاد هذا الاحتمال مسبقاً . وعلى كل حال ؛ وإذا ما توقف الهجوم الألماني عبر بلجيكا الشمالية ؛ عند المجرى الأسفل لنهر السوم ؛ فإن قوات الحلفاء قد تستفيد مما هو متوافر لها من قوات احتياطية ضخمة ، لإقامة جبهة دفاعيه قوية ، تبدأ من أقصى الشمال الغربي لخط ماجينو ـــ إلى الشرق من مدينة سيدان ـــ وتمتد حتى بحر المانش على امتداد نهري الآين والموز . ولا بد من منع إقامة مثل هذه الجبهة ، وذلك بالقضاء المبكر على كل تدخل لقوات الحلفاء المعادية ضد المجنبة الجنوبية للقوات الألمانية . ومن الضروري العمل منذ البداية لتدمير القوات المعادية في هذه الجبهة وتمزيقها ، من أجل إعداد الظروف الملائمة لإسقاط خط ماجينو من الخلف والاستيلاء عليه .

رابعاً : **ينبغي أن تتألف مجموعة الجيوش (آ) من ثلاثة جيوش ؛ بدلاً من جيشين** ؛ لأنها ستكون عندئذ مركز ثقل كل العملية ؛ مع أنه كان بالمستطاع زج عدد أكبر من الفرق في مجموعة الجيوش (ب) ، وذلك لاعتبارات تتعلق بالمجال الأرضي . ويكون على أحد جيوش المجموعة (آ) في هذه الحالة التقدم ـــ كما هو منظور ـــ عبر الجنوب من بلجيكا ؛ واجتياز نهر الموز ؛ ثم الاندفاع بعد ذلك باتجاه المجرى الأسفل لنهر السوم ، لمهاجمة مؤخرة القوات المعادية المشتبكة مع مجموعة الجيوش (ب) ، وتطويقها من الخلف . كما يزج جيش آخر نحو الجنوب الغربي ، لشن الهجمات على كل التجمعات المعادية التي تحاول القيام بالهجمات المعاكسة على المجنبات الجنوبية للقوات الألمانية ؛ في المنطقة الواقعة إلى الغرب من نهر الموز . أما الجيش الثالث ؛ فدوره كما هو منظور له باستمرار ؛ هو اتخاذ موقف دفاعي ؛ وتأمين حماية المجنبة العميقة للعملية العامة إلى الشمال من خط ماجينو بداية من سيرك ، وحتى موسوف إلى الشرق من سيدان . وأن ينقل مركز ثقل الهجوم من جبهة مجموعة الجيوش (ب) إلى جبهة مجموعة الجيوش (آ) وهذا ما يتطلب : إضافة جيش جديد ؛ قد يزج فقط أثناء تطوير الهجوم ؛ وذلك لاعتبارات تتعلق بالمجال الأرضي ؛ مع بقائه مستعداً منذ البداية ، وتوفير قوات مدرعة قوية .

لم يضع مانشتاين خطته بتفاصيلها الكاملة منذ شهر تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ ١٩٣٩ ، إلا أنه عرض كل أفكاره الرئيسة في مذكرته الأولى التي رفعها إلى القيادة في يوم ٣١ تشرين الأول

ــ اكتوبر ــ غير أن هذه المذكرة لم تلق قبولاً عندما زار القائد الأعلى براوختش[٢٢] قيادة مجموعة الجيوش (آ) يوم ٣ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٣٩ . كما حاول مانشتاين الإفادة من الاجتماع الذي دعت إليه القيادة العليا للجيش في ٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ لعرض أفكاره واقتراحاته . غير أنه لم يتلق أي رد إيجابي .

لقد شعر مانشتاين بنوع من الإحباط ؛ لأن اقتراحاته لم تلق ما كان يتوقعه من الاهتمام ؛ ولهذا فقد بوغت مباغتة كبيرة عندما تلقى من القيادة العليا برقية في يوم ١٢ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ تضمنت ما يلي : « بأمر من الفوهرر ؛ تشكل مجموعة ثالثة من القطعات السريعة ؛ لتعمل على الجناح الجنوبي للجيش الثاني عشر ؛ أو في منطقة الجيش السادس عشر ؛ أو من أجل زجها باتجاه سيدان وبعيداً إلى شرقها ، وتستخدم هذه المجموعة المناطق الجرداء على جانبي مدن ؛ أرلون وتانيتني وفلورانفيل ، وتتكون من : ١ ــ أركان الفيلق التاسع عشر . ٢ ــ الفرقة المدرعة الثانية والفرقة المدرعة العاشرة . ٣ ــ فرقة آلية (ميكانيكية) من حملة العلم . ٤ ــ لواء ألمانيا الكبرى ــ غروس دوتشلاند ــ » . وتكون مهمتها :

آ ــ القضاء على الوحدات السريعة المعادية المشتبكة في بلجيكا الجنوبية ؛ ودعم الجيشين ١٢ و ١٦ في تنفيذ مهامهما .

ب ــ الاستيلاء على الضفة الغربية لنهر الموز في مدينة سيدان ، أو إلى الجنوب الشرقي من هذه المدينة ؛ بهجوم مباغت ؛ وخلق الظروف الملائمة لمتابعة الهجوم ؛ وعلى الأخص عندما لا يتسنى للوحدات المدرعة التي زجت مع الجيش الرابع ، والجيش السادس أن تعمل بفعالية واقتدار .

ج ــ يعين الفيلق التاسع عشر للعمل مع مجموعة الجيوش (آ) .

لقد شعر مانشتاين بحلاوة النجاح ؛ فلقد استجابت القيادة العليا بعض الاستجابة وليس كلها ، لما كان يراه ويعتقده . إلا أن ما تحقق هو جزء مما يريده ؛ وكان لا بد له من متابعة الصراع لإجراء تغيير شامل في خطة الحملة ؛ بداية من تحشد قواتها ، ومروراً بأعمالها القتالية خلال المراحل المختلفة ؛ ونهاية بالحسم على أرض المعارك . ولم يكن وحده في هذا الصراع فقد وقف إلى جانبه ودعمه

(٢٢) فون براوخــتش : Von Brauchitsch , Heinrich Alfred Hermann ماريشال ألماني ١٨٨١ ــ ١٩٤٨ كان في سنة ١٩٣٣ قائداً للمدفعية الألمانية . Walther ثم أصبح في سنة ١٩٣٩ قائداً أعلى للجيوش الألمانية ؛ وهو المسؤول عن التخطيط لاحتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا (بولونيا) وفرنسا . عارض هتلر في حملة روسيا ، وحاول مقاومة هتلر في إعطاء احتلال أوكرانيا الأفضلية على احتلال موسكو سنة ١٩٤١ ؛ وكان براوختش يعاني من اعتلال في صحته ، مما حمله على التفكير في الاستقالة من منصبه ؛ وقبل هتلر هذه الاستقالة في أواخر سنة ١٩٤١ . ألقى الحلفاء عليه القبض سنة ١٩٤٥ ؛ ومات في أسر البريطانيين سنة ١٩٤٨ . وقد وصفه مانشتاين بقوله : « كان الماريشال براوختش جندياً عظيم الكفاءة ... ناضل في بعض الظروف بشجاعة في سبيل مصالح الجيش . لم تنتقص ارستقراطيته من وقاره وكرامته ، كان دوماً مؤدباً ومحبوباً ... » .

بكل ثقله المعنوي قائده فون رونشتد. كما وقف إلى جانبه قائد المدرعات غودريان، إلى جانب عدد من القادة في هيئة القيادة العليا.

رفع مانشتاين مذكرة شخصية إلى رئيس هيئة الأركان العامة في ٦ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٣٩؛ عرض فيها من جديد كل الاعتبارات التي تؤيد خطته؛ وقدم (الخطة الجديدة) على شكل مقترحات كاملة للعمليات؛ ولما لم يتلق أي رد على مذكرته حتى يوم ١٥ كانون الأول ــ ديسمبر ــ اتصل هاتفياً بالقيادة، فأعلمه رئيس هيئة الأركان أنه يؤيد وجهة نظره تماماً؛ إلا أنه تلقى أمراً قاطعاً من الفوهرر، بالمحافظة على مركز ثقل الهجوم في جبهة مجموعة الجيوش (ب)، مع مراعاة إمكانية نقله خلال الهجوم. ولما كان من رأي مانشتاين أنه من الضروري حشد القوات قبل الانطلاق؛ وفقاً لمتطلبات (مركز ثقل الهجوم)، وليس على أساس احتمال نقل هذا المركز أثناء العمليات؛ فقد وضع (مشروع توجيه الانتشار المبدئي) وقدمه إلى القائد الأعلى الجنرال براوختش يوم ١٨ كانون الأول ــ ديسمبر ــ وتبع ذلك إجراء عرض للموقف وللخطة الجديدة للانتشار يوم ٢٢ كانون الأول ــ ديسمبر ــ أمام براوختش أيضاً. وتبنى قائد مجموعة الجيوش (آ) الجنرال فون رونشتد خطة رئيس هيئة أركانه مانشتاين. فرفع خطته إلى قيادة الجيش العليا بتاريخ ١٢ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٠، وهي الخطة التي حملت عنوان (الهجوم في الغرب). وطلب رونشتد رفعها إلى الفوهرر مباشرة؛ وفقاً للمذكرة التالية: «**بعد أن اطلعت مجموعة الجيوش؛ وعرفت من الأمر الذي أصدرته القيادة العليا للقوات المسلحة؛ أن الفوهرر القائد الأعلى؛ قد احتفظ لنفسه شخصياً بحق تحديد محور الجهد الرئيسي خلال العمليات؛ وبالأحرى قيادتها ذاتها، مما يسلب القيادة العليا للجيش حريتها في اتخاذ قراراتها الميدانية؛ لذلك أرجو؛ وأطلب أن ترفعوا إلى الفوهرر الوثيقة المرفقة طياً: الهجوم في الغرب**».

فون رونشتد

تلقى مانشتاين صدمة عندما علم يوم ٢٧ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٠ بتعيينه قائداً للفيلق ٣٨ الذي كان قيد التشكيل؛ والذي كان مقره في لينيتز. وكان ذلك يعني انفصاله عن قائده فون رونشتد وعن مجموعة الجيوش (آ). إلا أنه كان ملزماً على البقاء لبضعة أيام أخرى لإنجاز الأعمال التي كان مكلفاً بإنجازها. وفي ٣٠ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٠، أكملت قيادة مجموعة الجيوش (آ) التقرير الذي كان قد وضعه مانشتاين في يوم ٢٥ كانون الثاني ــ يناير ــ على ضوء التحركات الفرنسية الجديدة على جبهة الغرب؛ وهي التحركات التي جاءت لتدعم وجهة نظر مانشتاين بضرورة نقل ثقل الهجوم إلى جبهة مجموعة الجيوش (آ). وفي يوم ٧ شباط ــ فبراير ــ جرى تمرين على الخرائط في كوبلنتز أكد هذه الفكرة. وكان موضوع مشروع التمرين هو تقدم

الفيلق المدرع ١٩ ومعه جيشان من مجموعة الجيوش. وظهر نتيجة هذا التمرين إلى أية درجة خطيرة سيكون تقدم هذا الفيلق وحده صعباً.

وفي نهاية التمرين الذي أشرف عليه مانشتاين عبر الجنرال فون رونشتد عن شكره للجهود التي بذلها مانشتاين تحت قيادته. ونمّت أقوال هذا القائد الكبير عن كرم وسمو في النظرة. كما كان لكلمتي قائدي الجيشين في المجموعة الجنرال بوش والجنرال ليست، وكلمة قائد المدرعات الجنرال غودريان وقع عميق في نفس مانشتاين الذي غادر كوبلنتز يوم ٩ شباط ـ فبراير ـ ١٩٤٠.

كان الضابط المرافق الرئيسي لهتلر واسمه شموندت يتابع الموقف؛ فعمل على تأمين مقابلة شخصية لمانشتاين. وحدث ذلك يوم ١٧ شباط ـ فبراير ـ عندما تم استدعاء الضباط الأمراء الكبار الذين أسندت إليهم قيادات جديدة، لمقابلة هتلر، وكان مانشتاين معهم. وقد أعقب اللقاء طعام الغداء. وعندما همّ مانشتاين بمغادرة المكان في برلين طلب إليه هتلر أن يتبعه إلى مكتبه، وهناك دعاه لعرض أفكاره عن الهجوم. وشرع مانشتاين في شرح خطته؛ ولاحظ أن هتلر كان يتجاوب معه بسرعة مدهشة؛ ويتفهم وجهة نظره بطريقة مذهلة؛ ووافق كلياً على ما عرضه عليه. وتأكد مانشتاين بأن هتلر كان على اطلاع كامل على كافة المذكرات والمقترحات التي رفعت إليه. وعندما خرج من المقابلة؛ كتب مذكرة على شكل محضر، ووجهها لقائده السابق فون رونشتد جاء فيها: «أتيحت لرئيس هيئة أركان مجموعة الجيوش (آ) فرصة مقابلة الفوهرر يوم ١٧ شباط ـ فبراير ـ بمناسبة تقديمه لقيادة الفيلق ٣٨، فعرض أفكاره على الفوهرر في موضوع قيادة الهجوم على الغرب». وأعلمكم بما يلي:

١ ـ ينبغي أن يكون هدف الهجوم هو الحصول على الحسم في مسرح العمليات البري؛ إذ أن الرهان السياسي والعسكري هو أكثر ضخامة؛ بحيث لا يكتفي بأهداف جزئية؛ مثلما هو منظور في التعليمات الحالية: كهزيمة أكبر قوات معادية في بلجيكا؛ واحتلال جزء من ساحل بحر المانش. لذا ينبغي أن يكون الهدف هو تحقيق النصر النهائي في البر؛ وقيادة العمليات دفعة واحدة للحصول على الحسم الكامل في فرنسا؛ ولتدمير مقاومة الجيوش الفرنسية.

٢ ـ ويتطلب ذلك؛ وخلافاً للتعليمات الحالية؛ أن يحدد بشكل واضح محور الجهد الرئيسي على الجناح الجنوبي؛ أي في مجموعة الجيوش (آ) وليس في مجموعة الجيوش (ب). ويتسنى في الظروف الحالية والشروط الراهنة دحر القوات الفرنسية والانكليزية على الأغلب؛ تلك القوات الموجهة إلى بلجيكا؛ وقذفها نحو نهر السوم، حيث يخشى بعدها من ركود العمليات وتجميدها. إلا أنه عندما ننقل محور الجهد إلى الجناح الجنوبي، وندفع مجموعة الجيوش (آ) عبر الجنوب البلجيكي؛ باتجاه المجرى الأسفل لنهر السوم؛ فسترتد القوات الكبيرة المعادية المتوقع ملاقاتها في شمال بلجيكا؛

وتتراجع بصدمة مجموعة الجيوش (ب) لهذه القوات جبهياً؛ وتقطع خطوط مواصلات هذه القوات ويتم تدميرها. ولا يمكن تحقيق هذه النتيجة إلا بزحف مجموعة الجيوش (آ) السريع حتى المجرى الأسفل لنهر السوم؛ وذلك هو القسم الأول من الحملة؛ حيث يعقبه القسم الثاني؛ وهدفه تطويق الجيش الفرنسي بجناح أيمن قوي.

٣ ـــ يجب أن تضم مجموعة الجيوش (آ) ثلاثة جيوش حتى تستطيع القيام بمهمتها؛ ولذا فإنه يقتضي إدخال جيش جديد يعمل على جناحها الشمالي؛ وتكون مهمة هذا الجيش هي عبور نهر الموز؛ والوصول إلى نهر السوم الأسفل؛ لقطع الطريق على القوات المعادية المتراجعة أمام مجموعة الجيوش (ب). وسيعبر أيضاً وبصورة فورية جيش آخر (الجيش الثاني عشر) نهر الموز؛ على جانبي مدينة سيدان؛ ويسير منحرفاً بعد ذلك نحو الجنوب الغربي؛ ويتصدى هجومياً لكل محاولة يقوم بها الفرنسيون للتحشد في غربي نهر الموز؛ والتجمع لشن هجوم معاكس على قواتنا. أما الجيش الثالث الآخر (الجيش السادس عشر) فستكون مهمته تغطية العملية دفاعياً على مجنبتها الجنوبية؛ وذلك ما بين نهر الموز ونهر الموزيل. وتعتبر هجمات الطيران لتشتيت التحشدات الفرنسية في وقت مبكر؛ ومنعها من فرصة شن هجوم معاكس على نطاق واسع في غربي نهر الموز؛ أو على جانبيه؛ واندفاعاتها باتجاه نهر الموزيل؛ من الأعمال الرئيسة.

٤ ـــ لن يكون زج الفيلق التاسع عشر المدرع وحده على نهر الموز، في منطقة سيدان، إلا نصف تدبير. إذ عندما نصطدم بقوات العدو الكبيرة والآلية ـــ في جنوب بلجيكا ـــ فإن هذا الفيلق سيغدو ضعيفاً، ولا يستطيع توجيه ضربة مدمرة وسريعة لها، كما لا يستطيع عبور نهر الموز في نفس الوقت مع بقايا قوات العدو. ولن يتمكن هذا الفيلق وحده أيضاً من اقتحام نهر الموز عنوة إذا ما اكتفى العدو بالدفاع عن المعابر القائمة على هذا النهر بقوات كبيرة. وينبغي أن تتضمن القوات الآلية التي قد نزجها، وخاصة في المنطقة الحالية لمجموعة الجيوش؛ قوات فيلقين على الأقل لعبور نهر الموز بآن واحد، في مدينتي شارل فيل وسيدان بصرف النظر عن زج قوات مدرعة على نهر الموز؛ في مدينة جيفت لصالح الجيش الرابع. ولذا؛ فمن الضروري زج الفيلق الرابع عشر منذ البداية إلى جانب فيلق غودريان ١٩ وعدم إبقائه في الاحتياط؛ ليعمل إما مع مجموعة الجيوش (آ)، أو مع مجموعة الجيوش (ب).

ولقد وافق الفوهرر على هذا العرض. ولم يلبث أن أصدر تعليماته يوم ٢٠ شباط ـــ فبراير ـــ ١٩٤٠، بتنفيذ خطة مانشتاين، التي استندت في أساسها إلى خطة شليفن ثم طورت في إطار مفاهيم (الحرب الخاطفة) وفي إطار المتطلبات الجديدة لمسرح العمليات؛ ومع الأخذ بالتطورات التقنية الحديثة (الطائرات والدبابات).

○

انصرف مانشتاين لتنظيم قوات فيلقه؛ وتفقدها؛ في مواضع تشكيلها في بوميرانيا وبوسناني وكان يمضي إجازة قصيرة في مدينة لينيتز عندما سمع من المذياع يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠ أخبار بدء الهجوم. ويمكن تصور معاناة قائد أجهد نفسه لوضع خطة الهجوم؛ ثم وجد نفسه بعيداً في المنطقة الخلفية؛ وهو لا يعرف هل سيتم تطبيق خطته بنجاح أم لا ؟ ولم يطل انتظار القائد مانشتاين، فقد تلقى في مساء اليوم ذاته أمراً بنقل مقر قيادة فيلقه (**الفيلق ٣٨**) من شتيتن إلى برونزويك. وتابع بعد ذلك تنقله مع فيلقه؛ فوصل يوم ١٣ أيار ــ مايو ــ إلى دوسلدورف وتم وضعه وفيلقه يوم ١٦ أيار ــ مايو ــ تحت قيادة مجموعة الجيوش (آ). وتقدم في اليوم التالي لمقابلة قائده السابق فون رونشتد الذي استقبله بود خاص، وأعلمه أن مهمته هي الالتحاق بالجيش الثاني عشر المكلف بمتابعة الهجوم نحو الغرب، أي نحو المجرى الأسفل لنهر السوم. في حين كان على الجيش الثاني المتجه نحو الجنوب الغربي؛ أن يدخل ما بين الجيش الثاني عشر والجيش السادس عشر؛ لمتابعة التقدم بسرعة.

وشعر مانشتاين بسعادة لا توصف، فقد عرف أن جهوده لم تذهب عبثاً؛ فقد تم تنفيذ خطته بدقة وإحكام؛ وليس من المهم بعد ذلك إن هو شارك في تنفيذها منذ البداية؛ ما دام أن الفرصة ستتوافر له للإشتراك ــ ولو على نطاق ضيق ــ بمتابعة التنفيذ. ولكن ما إن وصل إلى مقر الجيش الثاني؛ حتى بوغت بمباغتة لم يكن يتوقعها. فقد أصدرت القيادة العليا بتوجيه من هتلر أمرها إلى مجموعة فون كلايست المدرعة بالتوقف عند نهر الواز. وأن يتوجه الجيش الثاني عشر نحو الجنوب الغربي؛ واتخاذ مواقع دفاعية؛ فيما ينطلق الجيش الثاني لمتابعة الهجوم باتجاه الغرب، بعد أن يدخل ما بين الجيش الرابع والجيش الثاني عشر. وكان تدخل القيادة هذا خطراً؛ لأنه كان تدخلاً مباشراً يتنافى مع ما هو مطلوب لقيادات الجيوش من (حرية العمل العسكري). كما أن هذا التدخل جاء مخالفاً لمخطط العمليات.

تلقى مانشتاين أمراً في يوم ٢٥ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠ بتبديل الفيلق المدرع الرابع عشر الذي خلفه فون كلايست مع الفرقة المدرعة التاسعة؛ والفرقة الثانية في قطاع آبفيل ــ أميان، لحماية مؤخرته وتغطيتها في المجرى الأسفل لنهر السوم. وأصبحت تلك المنطقة تحت قيادة مانشتاين وفيلقه. وكان على قوات الفيلق ٣٨ حماية رأس جسر في آبفيل، ورأس جسر آخر عند أميان. وقد تعرضت قوات الفيلق لهجمات مضادة قوية قام بها البريطانيون والفرنسيون. إلا أنه أمكن السيطرة على الموقف يوم ٢٩ أيار ــ مايو ــ ثم أخذ الفيلق بالاستعداد للمشاركة في هجوم الجيش الرابع، وهو الهجوم الذي انطلق يوم ٥ حزيران ــ يونيو ــ فأمكن عبور نهر السوم بهجوم مباغت. وكان التقدم بعد ذلك بمثابة مطاردة سريعة، فوصل الفيلق إلى غرب باريس يوم ١٠ حزيران ــ يونيو ــ ثم استمرت القوات في مطاردتها، ووقعت بعض المعارك الصغرى، حتى إذا ما كان يوم ٢٢ حزيران

ـــ يونيو ـــ انهارت كل مقاومة فرنسية. ووقعت الهدنة في اليوم التالي في غابة كومبيين. وانتهت بذلك (حملة الغرب).

لقد تأكد مانشتاين الآن أنه كان على حق عندما اقترح متابعة التقدم باستمرار ودون توقف إلى أن يتم حسم الصراع المسلح على أرض المعركة. إذ أن المطاردة الحاسمة والسريعة في المرحلة الأخيرة من الحرب، قد حرمت الفرنسيين من تنظيم مقاومات جديدة؛ أو الاستناد إلى خطوط دفاعية قوية. ولم تكن هذه النتيجة بدورها إلا ثمرة طبيعية لتدمير الكتلة الرئيسة من القوات المعادية، خلال المرحلة الأولى من الحرب.

لقد كان انتصار القوات الألمانية على جبهة الغرب هو انتصار لأفكار مانشتاين وآرائه. ومن حقه إذن أن يكون أكثر القادة سعادة بهذا النصر؛ ولو أنه لم يكن أكثرهم نصيباً من الشهرة والمجد، فقد وقعت هذه الشهرة، على كاهل قادة التشكيلات الكبرى؛ وعلى قادة الأسلحة؛ ثم على المقربين من الفوهرر والذين لم يكن لبعضهم دور بارز في الإعداد للحرب وإدارتها. وإذا كان وقوع مثل هذه الظاهرة أمراً محتملاً في كثير من الدول والجيوش؛ فإن باستطاعة مانشتاين انتظار فرصته على جبهة أخرى، وكانت هذه الجبهة هي جبهة الشرق.

○

أمضى مانشتاين فترة في فرنسا؛ أعيد بعدها إلى ألمانيا في نهاية شهر شباط ـــ فبراير ـــ ١٩٤١، حيث أسندت إليه قيادة الفيلق المدرع ٥٦ الذي كان قيد التشكيل؛ فاتيحت له بذلك تحقيق رغبة طالما راودته، وهي قيادة فيلق سريع. وكان على فيلق مانشتاين العمل مع المجموعة المدرعة الرابعة بقيادة الجنرال هوبنر التي ألحقت على مجموعة جيوش الشمال بقيادة فون ليب. وقد حددت لمجموعة جيوش الشمال مهمة تدمير القوات السوفييتية المنتشرة في دول البلطيق، ثم الزحف باتجاه لينينغراد. أما المجموعة المدرعة الرابعة، فقد حددت مهمتها تبعاً لذلك التقدم نحو الدون؛ والاندفاع حتى دينابورغ أو دونيسك للسيطرة على الممرات؛ وتأمين التقدم التالي نحو اوبوتشكا.

وصل مانشتاين وفيلقه إلى منطقة التجمع في بروسيا الشرقية يوم ١٦ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤١ فتلقى فور وصوله الأمر التالي ـــ من قائد المجموعة المدرعة الرابعة ـــ وفيه:

«على الفيلق المدرع ٥٦ ـــ المكون من الفرقة المدرعة الثامنة؛ والفرقة الآلية الثالثة وفرقة المشاة ٢٩٠ ـــ الإنطلاق باتجاه الشرق من منطقة الغابات الكائنة في شمالي ميمل، وإلى الشرق من تلسيت، والوصول إلى طريق دينابورغ في الشمال الشرقي من كوفنو».

لقد كانت مهمة الفيلق المدرع ٥٦ تقضي بأن تندفع فرق هذا الفيلق بأقصى سرعة لها، في مقدمة مجموعة الجيوش العاملة معها (مجموعة جيوش الشمال)، وتدمير كل مقاومة محتملة.

تلقى مانشتاين برقية (شيفره) في الساعة ١٣٫٠٠ من يوم ٢١ حزيران — يونيو — ١٩٤١ تضمنت: «الهجوم غداً في الساعة الثالثة».

اهتزت الأرض بالقصف المدفعي الكثيف؛ وانطلقت القوات الألمانية إلى أهدافها. وكان على الفيلق المدرع ٥٦ أن يستولي على جسور نهر الدون وهي بحالة سليمة؛ فكان تنفيذ هذه المهمة يتطلب الاندفاع حتى عمق ٨٠ كيلو متراً؛ في اليوم الأول؛ للسيطرة على ممرات العبور على نهر دوبيسا في ايروغورا. وكان مانشتاين يعرف هذا القطاع منذ أيام الحرب العالمية الأولى، والذي كان يتشكل من واد عميق منخفض، له انحدارات وعرة لا تستطيع الدبابات أن تسلكها؛ فإذا ما أتيح للقوات السوفييتية فرصة تدمير جسر الطريق المرتفع في ايروغولا، فإن الفيلق سيتوقف أمام هذا المقطع الطبيعي الكبير، الأمر الذي يضمن للقوات السوفييتية متسعاً كافياً من الوقت لتنظيم دفاعها على الضفة المواجهة؛ مما يجعل من المتعذر القضاء عليها. وعلى الرغم من صعوبة المهمة؛ فقد اندفعت الفرقة المدرعة الثامنة، ومعها مانشتاين في مقدمة الفيلق. وأمكن تدمير المقاومات المتتالية بعد اختراق مواقع الحدود. وأمكن لها في نهاية يوم ٢٢ حزيران — يونيو — الاستيلاء على جسر ايروغورا. ولحقت بها فرقة المشاة ٢٩٠، ثم تحركت الفرقة الآلية الثالثة؛ فاستولت على معبر آخر إلى الجنوب من ايراغور وبذلك تمكنت الفرقة من تحقيق الواجب الأول بنجاح كامل.

كان الواجب الثاني للفيلق هو الوصول إلى مدينة دينابورغ والاستيلاء عليها؛ وكانت القوات على جانبي الفيلق قد باتت بعيدة إلى الخلف بسبب اصطدامها بمقاومات ضارية، فكان لزاماً على الفيلق التقدم دون الاهتمام بمن يجاوره من القوات. وهكذا سبق الفيلق ٥٦ المدرع كل جيرانه، وتوغل منذ يوم ٢٤ حزيران — يونيو — على طريق دونابورغ في الأراضي السوفييتية؛ وهو في تقدمه هذا لم يترك جيرانه فحسب؛ بل خلف وراءه أيضاً القوات النسوفييتية التي كانت منتشرة على الحدود. وأصبح على بعد لا يزيد بأكثر من ١٣٠ كيلو متراً عن جسور دينابورغ وهي هدفه الثاني. وكان لا بد لفرق الفيلق ٥٦ من القضاء على المقاومات الضارية التي كانت تجابهه، وأمكن له تدمير أكثر من ٧٠ دبابة؛ أي ما يعادل نصف قوته؛ بالإضافة إلى عدد من بطاريات المدفعية؛ ولم يحاول الفيلق إشغال نفسه بالأسرى؛ أو التفرغ لهم، فترك أمرهم للأنساق التالية؛ ومضى مسرعاً نحو هدفه؛ فوصلت فرقة المدرعات الثامنة إلى دينابورغ في صبيحة يوم ٢٦ حزيران — يونيو — واستولت على الجسرين الكبيرين؛ ثم انتقلت للقتال في المدينة؛ والقضاء على المقاومات فيها. وفي اليوم التالي؛ عبرت الفرقة الآلية الثالثة النهر عند أعلى المدينة. وبذلك أمكن أيضاً إنجاز الواجب

الثاني للفيلق بنجاح . **كان مانشتاين قد أعلن قبل الهجوم أنه ينبغي الوصول إلى دينابورغ في أقل من أربعة أيام حتى يتم إنجاز الواجب بنجاح ؛ وحتى يتم الاستيلاء على الجسور سالمة ؛ وقد أمكن إنجاز الواجب بعد أربعة أيام وخمس ساعات (أي بتأخير خمس ساعات فقط) .**

واجه مانشتاين موقفاً صعباً ؛ فقد بات متقدماً على القوات الألمانية المجاورة (الصديقة) مسافة ١٠٠ ــ ١٥٠ كيلو متراً . وكانت وراءه فيالق سوفييتية قوية تهدد مؤخراته ؛ ولم يكن يعرف ما هو هدفه التالي : هل هو الهجوم على موسكو ؟ أم الهجوم على لينينغراد ؟ وكان من المتوقع أن تزج القيادة السوفييتية ضده قوات يتم نقلها من بلسكو ، وحتى من مينسك وموسكو . وكان يؤمن بأن سلامة الوحدات الكبرى والسريعة إنما تعتمد على قدرتها الحركية العالية ، عندما تعمل خلف خطوط العدو ؛ وفي العمق الاستراتيجي ؛ فإذا ما توقفت ، هاجمتها على الفور القوات الاحتياطية المعادية . ولهذا فقد رغب بالتحرك فوراً على اتجاه بلسكو . ولكن القيادة عارضت رغبة مانشتاين ، وأمرته بالتوقف ؛ وتنظيم الدفاع ؛ وتعرض أثناء هذا التوقف لإغارات الطائرات السوفييتية المتتالية (حتى أن وسائط الدفاع الجوي أسقطت في يوم واحد ٦٤ طائرة سوفييتية ، كانت تحاول تدمير جسور دينابورغ) .

استأنف الفيلق ٥٦ تحركه يوم ٢ تموز ــ يوليو ــ ١٩٤١ بعد أن التحقت به فرقة س . س (رأس الموت) . وتحرك في الوقت ذاته الفيلق المدرع ٤١ . وحددت القيادة محور تقدم مجموعة المدرعات الرابعة (الفيلق ٥٦ والفيلق ٤١) باتجاه روزيتن واوستروف ؛ وظهر واضحاً أن الهدف المطلوب هو الوصول إلى لينينغراد .

ظهر خطأ التوقف عند دينابورغ لمدة ستة أيام ؛ فقد التقطت القوات السوفييتية خلال هذه الفترة أنفاسها ؛ وبدأت في تنظيم مقاومات متزايدة في قوتها وعنفها .

انطلق الفيلق ٥٦ على الطريق الرئيسي دينابورغ ــ روزتين ــ لوستروف ــ بلسكو ، فيما كان الفيلق المدرع ٤١ يتقدم إلى يساره وفي أقصى الشرق . ولم يلبث الفيلق ٥٦ أن وجد نفسه أمام (خط ستالين) . وهو خط دفاعي يختلف في عمقه وعرضه من منطقة إلى منطقة أخرى . ويمتد هذا الخط على طول الحدود الروسية القديمة بداية من الطرف الجنوبي لبحيرة بيبوس ومارا من غربي بلسكو ونهاية بقلعة الحدود الصغيرة في سبتش .

دفع الفيلق ٥٦ أمامه الفرقة المدرعة الثامنة ؛ عبر مستنقع يخترقه مسلك من جذوع الأشجار ، وسرعان ما تبين أن هذا المسلك قد سد تماماً بعربات فرقة آلية سوفييتية ؛ تعثرت فيه وتوقفت وسط المراغة الموحلة ؛ واقتضى بذل الجهد طوال أيام متتالية لفتح الطريق وإصلاح الجسور . وعندما خرجت الفرقة المدرعة الثامنة من المستنقع ؛ اصطدمت بمقاومة كبيرة ، وجرت معركة عنيفة

انتهت بسحق المقاومة. وفي الوقت ذاته كانت الفرقة الآلية الثالثة تحاول التقدم؛ إلا أنها لم تجد في قطاعها إلا مسلكاً صغيراً ورصيفاً ضيقاً من الحجارة لا يتيح عبور عرباتها عليه؛ فاضطرت إلى العودة إلى الخلف. ثم وجهت نحو اوستروف وراء الفيلق المدرع ٤١. أما فرقة س. س (رأس الموت) فقد وجهت نحو سيتش فصادفت أرضاً ملائمة يمتد فوقها خط دفاعي محصن. فدارت معارك طاحنة، وكان على مانشتاين التدخل باستمرار لإدارة معركة هذه الفرقة في محاولة لإنقاص حجم الخسائر التي كانت تنزل بها. وبعد عشرة أيام من القتال العنيف أعيد تنظيم الفرقة التي لم يبق منها إلا كتيبتان فقط.

استطاع الفيلق ٥٦ خلال هذه المعارك؛ أن يلحق الهزيمة — منذ مغادرته دينابورغ — بخمس فرق من المشاة المعادية وبفرقة آلية؛ أي بعدد يزيد كثيراً على مجموع تعداده. واستولى الفيلق أيضاً منذ بدأ الهجوم على ٦٠ طائرة؛ و٣١٦ مدفعاً؛ منها مدافع ضد الدبابات والطائرات؛ و٢٠٥ دبابات و٦٠٠ عربة؛ بالإضافة إلى عدة آلاف من الأسرى؛ غير أن القوات السوفييتية بقيت قوية؛ ولم تسحق على نحو ما كانت تتوقعه القيادة الألمانية العليا.

كان من نتيجة المقاومة السوفييتية الضارية؛ وبسبب وعورة الطريق؛ أن اضطرت المجموعة المدرعة إلى تغيير اتجاهها. فكان على الفيلق المدرع ٥٦ أو فيلق مانشتاين أن ينحرف نحو الشرق من جديد، ويسير من بوركوف إلى نوفغورد ليسير بأسرع ما يمكن إلى تشودوفو، وقطع الخط الحديدي ما بين لينينغراد وموسكو. هذا فيما ينطلق الفيلق المدرع ٤١ في مسيره عبر الطريق الكبير من مدينة بلسكو إلى لوغا، ثم إلى لينينغراد. ولم يكن قد بقي في حوزة الفيلق المدرع ٥٦ إلا فرقة مدرعة واحدة؛ وفرقة آلية. وبالرغم من هذا الضعف الواضح؛ فقد استولت الفرقة الألمانية الثالثة على بوركوف بعد قتال عنيف؛ في يوم ١٠ تموز — يوليو — ثم وجهت بعد ذلك إلى طريق ثانوية؛ بينما كانت فرقة المدرعات الثامنة تتقدم من سولستي بمهمة الاستيلاء بأسرع ما يمكن على نقطة عبور لها أهمية حاسمة من أجل العمليات المقبلة في مشاكا، وذلك بعد انطلاقها من بحيرة ايلمن. وتقدم الفيلق خلال الأيام التالية؛ وهو يخوض قتالاً قاسياً وثابتاً ومستمراً. ولكن تقدم الفيلق وضعه أمام مأزق حرج؛ فقد وجدت فرق الفيلق نفسها، اعتباراً من يوم ١٥ تموز — يوليو — وهي معزولة، ومطوقة؛ وكان لا بد من إمداد فرقة المدرعات الثامنة عن طريق الجو. وأمكن التغلب على هذا المأزق يوم ١٨ تموز — يوليو — فأعيد تجميع فرق الفيلق؛ إلا أنه تمكن خلال المأزق من صد هجمات القوات السوفييتية، واستطاع إلحاق الهزيمة بمعظم القوات السوفييتية حول سولتسي.

علم مانشتاين يوم ١٩ تموز — يوليو — أن القيادة تعتزم دفع فيلقه (الفيلق ٥٦) باتجاه لينينغراد عن طريق لوغا. ووضع فرقة المشاة ٢٦٩ التي كانت تعمل على هذا الطريق؛ تحت قيادته. ورفضت القيادة اقتراح مانشتاين بحشد كل قوات المجموعة المدرعة إلى الشرق من نارفا، وتوجيهها

بمجموعها إلى لينينغراد ، حيث كانت هناك أربعة طرق ملائمة ؛ في حين لم يكن طريق لوغا ملائماً ؛ لأنه كان يجتاز مناطق مشجرة ؛ كثيرة الغابات .

استقبل مانشتاين في مقر قيادته يوم ٢٦ تموز ــ يوليو ــ ١٩٤١ رئيس الأركان المعاون في القيادة العليا للجيش الجنرال فون باولوس . فقام مانشتاين بشرح ما يجابهه من عقبات وصعوبات ، وبين المساوىء الناجمة عن تشتيت المجموعة المدرعة ، والإستنزاف الكبير لقوة الفيلق ٥٦ في هذه المنطقة التي لا تلائم عمليات القوات المدرعة ؛ بحيث وصلت خسائر الفيلق في الرجال إلى ٦ آلاف رجل . ثم طرح مانشتاين رأيه في العملية القادمة ، إذ قال : «إنه من الأفضل سحب المجموعة المدرعة بكاملها من منطقة تجعل من المحال إحراز تقدم سريع للقوات لزجها على اتجاه موسكو . وإنه إذا ما أصرت القيادة على التوجه نحو لينينغراد ؛ والقيام بحركة التفاف من تشودوفو فينبغي على الأخص استخدام المشاة ، وتوفير الفيالق المدرعة للهجمة الأخيرة على المدينة ؛ بعد السيطرة على المناطق المشجرة ؛ وإلا فإن الوحدات المدرعة ستصل إلى لينينغراد ؛ وقد فقدت كل قدرتها القتالية . وفي الحالات كلها ؛ فإن هذا الأمر يتطلب وقتاً طويلاً ؛ وإنه من أجل سرعة الاستيلاء على الساحل وعلى المدينة ؛ فإن السبيل الوحيد والحل الأمثل هو حشد الفيلق المدرع بكامله إلى الشرق من النارفا لمهاجمة لينينغراد مباشرة » . وقد أيد الجنرال فون باولوس كل ما عرضه مانشتاين ؛ ووافق عليه موافقة تامة ؛ ومع ذلك فقد جرت الأمور بخلاف ما كان يريده مانشتاين .

واجهت الفيلق ٥٦ صعوبات كثيرة ؛ بسبب المعارك الضارية التي خاضها حول لوغا . ولم يتمكن من التحرك نحو لينينغراد قبل يوم ١٠ آب ــ اغسطس ــ وكان يوم ١٥ آب ــ اغسطس ــ هو أسوأ يوم في هذا التحرك ؛ إذ اضطر للسير ثماني ساعات على طريق وعر لقطع مسافة ٢٠٠ كيلو متر ؛ وعندما وصل الفيلق إلى هدفه ، طلب إليه العودة فوراً إلى دنو لدعم الجيش السادس عشر الذي تعرض لهجوم الجيش السوفييتي ٣٨ ، والمدعم بثماني فرق وبوحدات من الفرسان . ووجد الفيلق نفسه يوم ١٦ آب ــ اغسطس ــ وهو يسير على الطريق الذي اجتازه بالأمس ؛ ولكن على الاتجاه المضاد . واستطاع الفيلق ٥٦ على كل حال ؛ الوصول في الوقت المناسب ، وخوض معركة ضارية استمرت حتى يوم ١٩ آب ــ اغسطس ــ حيث أمكن إلحاق الهزيمة بالجيش السوفييتي ٣٨ . واستطاع الفيلق ٥٦ وحده أن يأسر ١٢ ألف رجل ؛ وأن يستولي على ٢٤٦ مدفعاً ، وبضع مئات من الرشاشات وسيارات النقل وعربات أخرى ؛ وكان في جملة غنائم الفيلق بطارية ألمانية مضادة للطائرات جديدة من عيار ٨٨ مم (صنعت عام ١٩٤١) . وأول قاذف صاروخي روسي .

كان على الفيلق ٥٦ بعد ذلك أخذ قسط من الراحة ؛ لمتابعة الصراع الذي تزايد تعقيداً ؛ بسبب إقدام القيادة السوفييتية على زج قواتها الاحتياطية الضخمة ؛ وزاد الأمر سوءاً هطول الأمطار

المبكر مع نهاية شهر آب ــ اغسطس ــ هذا بالإضافة إلى الإرتباك الناجم عن عدم وضوح الهدف؛ والذي برز من خلال الأوامر والأوامر المضادة التي كان يتلقاها باستمرار مانشتاين. مما جعل فيلقه في حالة حركة مستمرة في ذهاب وأياب. حتى إذا ما كان مساء يوم ١٢ أيلول ــ سبتمبر ــ وبينما كان مانشتاين يقضي الوقت مع هيئة أركان حربه في خيمته؛ والمطر ينهمر غزيراً في الخارج؛ وصلته برقية من القيادة العليا، فقرأ فيها:

«يسير الجنرال فون مانشتاين حالاً إلى مجموعة جيوش الجنوب، لتولي قيادة الجيش الحادي عشر».

لم تتح الفرصة للجنرال مانشتاين لوداع ضباطه؛ وقادة فرقه؛ فاكتفى بوداعهم عن طريق الهاتف؛ وانتابه الحزن لوداع فيلقه الذي عاش معه أحلى الانتصارات؛ غير أن السعادة بقيادة تشكيل أكبر تبقى هي الهدف الذي يبحث عنه كل قائد في ظروف الحرب. وهكذا مضى مانشتاين إلى مقر قيادته الجديد، فوصله يوم ١٧ أيلول ــ سبتمبر ــ حيث كان مقر قيادة الجيش الحادي عشر متمركزاً في مرفأ نيكولايف العسكري عند مصب نهر بوغ. وكان على مانشتاين تولي قيادة هذا الجيش (التابع لقيادة مجموعة جيوش فون رونشتد) بالإضافة إلى إشرافه على الجيشين الرومانيين الثالث والرابع.

كانت الجبهة المخصصة لعمليات جيش مانشتاين؛ تشكل أقصى الجنوب في روسيا؛ وتشمل بصورة رئيسة سهوباً بين نهر البوغ الأدنى والبحر الأسود أو بحر آزوف وقوس نهر الدنيبر إلى الجنوب من زابروجه؛ بما في ذلك شبه جزيرة القرم. ولم يكن ثمة اتصال مباشر بين هذه الجبهة وبين معظم مجموعة جيوش الجنوب العاملة في شمال الدنيبر؛ مما أتاح للجيش الحادي عشر حرية العمل العسكري بصورة كاملة.

كانت الطبيعة الجغرافية لمسرح العمليات هنا مختلفة عن السابق، فبعد الغابات في شمال روسيا أصبحت السهوب الفسيحة ممتدة حتى الأفق، ولا تعترضها أية موانع طبيعية؛ ولا تتخللها أيضاً أية مساتر؛ فكانت من أمثل الأراضي وأكثرها ملاءمة لعمل القوات المدرعة، إلا أن الجيش الحادي عشر لم يكن يملك أياً منها. وكانت مجاري المياه الصغيرة تجف صيفاً؛ فتشكل مقاطع عميقة ذات جوانب منحدرة وعسيرة. وكانت شبه جزيرة القرم تقع عند نهاية القارة، وتنفصل عنها بما يسمى سيفاش أو البحر المنتن، وهو نوع من المستنقعات المالحة التي تجعل من المحال على المشاة السير فيها أو عبورها؛ فكانت تعتبر حاجزاً منيعاً أمام قوارب الهجوم بسبب قلة عمقها. وكان يخترق القرم طريقان ترابيان: في الغرب مضيق بيريكوب؛ وفي الشرق طريق العربات؛ أو القرباط؛ وهو من أضيق المسالك؛ ويكاد لا يستوعب طريقاً مرصوفاً وخط السكة الحديدية معاً. وأما مضيق

بيريكوب فلم يكن عرضه يتجاوز سبعة كيلو مترات؛ وكانت أرضه محرومة من أي ساتر. ويشق تلك الأرض ويساير عرضها خندق التتار وهو خندق محفور منذ أزمنة قديمة؛ وكان يليه مضيق آخر هو مضيق ايشون ببحيراته المالحة التي تقلل من عرضه حتى ٣ أو ٤ كيلو مترات.

حددت القيادة العليا مهمة الجيش الحادي عشر بما يلي:

أولاً: مطاردة القوات السوفييتية المنسحبة نحو الشرق؛ وحماية الجناح الأيمن لمجموعة جيوش الجنوب (مجموعة فون رونشتد). وذلك بتوجيه الكتلة الرئيسة لهذا الجيش على الساحل الشمالي لبحر آزوف، والتقدم على اتجاه روستوف.

ثانياً: الاستيلاء على شبه جزيرة القرم.

كانت القيادة الألمانية العليا تعتقد أن الاستيلاء على شبه جزيرة القرم؛ والسيطرة على الميناء العسكري فيها (ميناء سيفاستوبول) سيؤثر بصورة إيجابية وملائمة على موقف تركيا. كما أن إزالة القواعد الجوية الكبرى للقوات السوفييتية، والتي تهدد بصورة خطيرة حقول النفط في رومانيا؛ سيضمن لألمانيا فائدة كبرى. ومن أجل ذلك كان على الفيلق الجبلي الملحق على الجيش ١١ أن يتقدم بعد الاستيلاء على شبه جزيرة القرم؛ وعبور مضيق كرتش باتجاه القوقاز استعداداً لتطوير الهجوم إلى ما وراء روستوف.

كان الجيش الحادي عشر قد استولى عنوة في مستهل شهر أيلول — سبتمبر — على معابر نهر الدنيبر الأدنى في بريسلاف. وعندما تولى مانشتاين قيادة هذا الجيش؛ كان فيلقان منه يطاردان القوات السوفييتية المنسحبة على اتجاه الدنيبر، ويقتربان من خط مليتوبول ومنحنى الدنيبر إلى جنوب زبروجه:

١ — الفيلق ٣٠ بقيادة الجنرال فون سالموت ويتكون من فرقتي المشاة ٧٢ و ٢٢.

٢ — الفيلق الجبلي ٥٩ بقيادة الجنرال كوبلر ويتكون من فرقة المشاة ١٧٠ والفرقة الأولى والجبلية الرابعة.

٣ — الفيلق ٥٤ بقيادة الجنرال هانس ومعه الفرقة ٤٦ وفرقة المشاة ٧٣. وكان يتقدم باتجاه بريكوب.

٤ — فرقة المشاة الرومانية ٥٠. وقد نقلت من اليونان في إطار الجيش الروماني الرابع؛ وقد انتشرت أمام أوديسا ودفعت بعض قواتها لتطهير ساحل البحر الأسود (بحر آزوف).

٥ — الجيش الروماني الثالث؛ وقد ضم الفيلق الجبلي (الألوية ١ و ٢ و ٣) وفيلق الفرسان (الألوية ٥ و ٦ و ٢) وقد انتشر إلى الغرب من نهر الدنيبر، بانتظار فرصة متابعة التقدم إلى الشرق.

أدرك مانشتاين على الفور؛ بأنه من المحال تحقيق كل الواجبات في آن واحد؛ فعمل على إعادة تجميع قوات الجيش؛ وتنظيمها؛ وقرر إعطاء الأفضلية لاحتلال شبه جزيرة القرم، فدعم الفيلق ٥٤ بكل المدفعية المتوافرة لديه؛ وبوحدات الهندسة ووسائط الدفاع الجوي ودفعه للعمل في مقدمة الجيش.

انطلق الفيلق ٥٤ للهجوم يوم ٢٤ أيلول ـــ سبتمبر ـــ للاستيلاء على **بيريكوب**. وصادفت فرق الفيلق صعوبات ضخمة أثناء تحركها، وأمكن لها تحقيق النجاح في التعامل مع المناطق المحصنة التي بلغ عمقها خمسة عشر كيلو متراً، وصدت الهجمات المضادة العنيفة؛ وأمكن لها الاستيلاء على مدينة بيريكوب في يوم ٢٦ أيلول ـــ سبتمبر ـــ ثم عبرت خندق التتار. وأعقب ذلك ثلاثة أيام من المعارك الضارية التي انتهت بالاستيلاء على مدينة **أوريانسك** المحصنة والقوية. وبذلك توافر للقوات الألمانية المجال الأرضي للعمل. وانسحبت القوات السوفييتية إلى برزخ **ايشون** بعد أن تركت في قبضة القوات الألمانية ١٠ آلاف أسير و١١٢ دبابة و٣١٥ مدفعاً.

تحركت القيادة السوفييتية بسرعة؛ فزجت بالجيشين الثاني والتاسع، واللذين كانا يضمان ١٢ فرقة جديدة أو أعيد تنظيمها. واستطاعت القوات السوفييتية إحراز بعض النجاح في المرحلة الأولى من الهجوم، وأوقعت ـــ بالقوات الرومانية خاصة ـــ خسائر كبيرة؛ ولكن مانشتاين استطاع معالجة الموقف بكفاءة عالية. وأمكن له إعادة التوازن؛ ثم دفع الفيلق العاشر والجيش الروماني الثالث للهجوم. ودارت معارك ضارية على ضفاف بحر آزوف؛ انتهت بانتصار القوات الألمانية التي دمرت قوات الجيشين السوفييتيين الثاني والتاسع؛ وأسرت ٦٥ ألف مقاتل؛ وغنمت ١٢٥ دبابة وأكثر من ٥٠٠ مدفعاً.

أعاد مانشتاين تنظيم جيشه بسرعة؛ واستطاع بعد إلحاح الحصول على دعم جديد؛ فقد ألحقت به قوات الفيلق ٥٢ الذي كان يضم الفرق ٤٢ و ١٣٢ و ٢٤. وقرر مانشتاين أن يجعل هدفه الأول هو الاستيلاء على **برزخ ايشون**. وكانت القوات السوفييتية قد انسحبت من أوديسا إلى الطرف الآخر من البحر حيث مدينة سيفاستوبول وميناءها الكبير. ولما كانت الجبهة ضيقة؛ فقد كان من الصعب زج قوات الجيش الألماني ١١ بكاملها؛ كما كان على القوات الألمانية القيام بهجمات جبهية ضد تحصينات ميدانية قوية تدعمها البطاريات الساحلية الروسية الضخمة من الساحل الشمالي الغربي ومن ضفة سيواش الجنوبية.

انطلقت فيالق مانشتاين في هجماتها؛ وخاضت معاركها بعناد ضد عدو شرس؛ وتميزت الأيام العشرة الأخيرة بالعناد والإستنزاف، وأخيراً ظهرت تباشير النصر يوم ٢٧ أيلول ـــ سبتمبر ـــ واستطاع الجيش الحادي عشر أن ينتقل إلى مطاردة القوات السوفييتية التي كانت تنسحب نحو

الجنوب، على الطريق الآتي من أوديسا إلى سيمغيروبول عاصمة الجزيرة. وكانت المدينة تعتبر تقاطع الطرق الوحيدة والجيدة الواصلة بين أدنى منحدر مرتفعات ايبلا وحتى سيفاستوبول أو شبه جزيرة كرتش أو تقاطع الطرق التي تجتاز هذه المرتفعات للوصول إلى مرافىء الشاطىء الجنوبي. وكانت القوات المنسحبة على هذا الطريق هي قوات جيش الشاطىء، وكان يضم ٥ فرق مشاة وفرقتي فرسان. وفي الوقت ذاته؛ كانت مجموعة سوفييتية أخرى تنسحب نحو الجنوب الشرقي، أي باتجاه كرتش، وهي تضم فيلق الرماة التاسع؛ ومعه فرقة الرماة الرابعة وفرقة الفرسان الثانية؛ وكانت هناك ثلاث فرق سوفييتية احتياطية تنتشر للدفاع عن سيمغيروبول، وسيفاستوبول.

أعاد مانشتاين تنظيم القوات بسرعة؛ وكلف الفيالق والفرق بواجباتها الجديدة؛ ودفعها لسبق القوات السوفييتية حتى لا تتمكن من تنظيم مقاومات جديدة؛ ودارت مجموعة من المعارك انتهت في ٢٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٤١؛ حيث أمكن الاستيلاء على القرم، باستثناء سيفاستوبول، وأمكن خلال ذلك احتلال فيؤودوزيا، وسيمغيروبول، وطريق ألوشتا ــ مالطا ــ سيفاستوبول، وسواها من المدن الحصينة؛ وخسرت القوات السوفييتية ١٢ فرقة رماة وأربع فرق فرسان. وبلغت مجموع خسائرها ٢٠٠ ألف رجل تقريباً و١٠٠ ألف أسير و٧٠٠ مدفع و١٦٠ دبابة.

انصرف مانشتاين إلى تنظيم الحصار على سيفاستوبول، وحشد القوى حولها، وتكديس الذخائر؛ واستغرق ذلك وقتاً طويلاً بسبب سوء الأحوال الجوية؛ ورداءة طرق المواصلات؛ والهجمات المتتالية لقوات الأنصار؛ وأخيراً؛ بدأت المدفعية الثقيلة رماياتها التمهيدية في يوم ١٧ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٤١، وبينما كانت قوات الهجوم تحاول السيطرة على المرتفعات الجنوبية لقلعة سيفاستوبول، قامت القوات السوفييتية بالإنزال في **كرتش و فيؤودوزيا**. ولم يكن لدى الجيش الألماني الحادي عشر قوات ضخمة لمجابهة قوى الإنزال (فرقتين وبعض الوحدات الأخرى). مما اضطر مانشتاين لسحب بعض القوى؛ وتخفيف الضغط عن سيفاستوبول. وأثناء ذلك كان الجيش السوفييتي ٤٤ النازل في فيؤودوزيا يعمل على توسيع دائرة عملياته؛ وأمكن له إلحاق الهزيمة بالقوات الألمانية والرومانية، ودفع فرقه الست من المشاة إلى الغرب والشمال الغربي من ستاري كريم حتى ٤ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٢ ثم تمركز دفاعياً؛ وبدأت حدة الاشتباكات بينه وبين القوات الألمانية تتزايد حدة وقوة. ولكن حدث في يوم ٥ كانون الثاني ــ يناير ــ أن قامت القوات السوفييتية بإنزال آخر في مرفأ **ايباتوريا** ودعمتها البحرية السوفييتية بهذا الإنزال الذي رافقته انتفاضة في المدينة؛ واشترك فيها قسم من السكان؛ وبعض مفارز الأنصار الوافدين من الخارج. وأسرع مانشتاين للعمل خوفاً من امتداد لهيب الحريق إلى بقية المناطق. فدفع كتيبة المشاة ١٠٥ مع وحدات دعم مختلفة إلى مدينة ايباتوريا حيث دارت معركة ضارية حتى يوم ٧ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٢، حيث أمكن إبادة قوات الإنزال والمقاومة، ومنهم ١٢٠٠ من الأنصار المسلحين، وفي أثناء ذلك؛

صمدت جبهة فيؤودوزيا في وجه الهجمات السوفييتية المتتالية. إلا أن القوات الألمانية لم تتمكن من القيام بالهجوم المضاد على القوات السوفييتية في فيؤودوزيا حتى يوم ١٥ كانون الثاني ــ يناير ــ حيث انطلق الفيلق ٣٠ والفيلق ٥٢ للهجوم. وأمكن بعد صراع مرّ، في ظروف قاسية وطوال يومين متتالين تمزيق القوات السوفييتية، وقتل ٦٧٠٠ جندي؛ وأسر ١٠ آلاف آخر، والاستيلاء على ١٧٧ مدفعاً و٨٥ دبابة. وكان لزاماً على مانشتاين استثمار هذا النصر لإخراج بقية القوات السوفييتية من شبه جزيرة كرتش، إلا أن قواته كانت قد وصلت إلى مرحلة الاستنزاف الكامل، وباتت بحاجة إلى إعادة التنظيم؛ فاكتفت بدفع القوات السوفييتية حتى **برزخ باربارتش** وتوقفت عنده.

كانت القيادة السوفييتية خلال ذلك تزج بقوات جديدة في شبه جزيرة كرتش. وتوافرت المعلومات لدى مانشتاين عن وجود ٩ فرق جديدة ولواءين من الرماة ولواءين مدرعين على جبهة باربارتش بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ــ يناير ــ وفي الوقت ذاته تزايد نشاط المدفعية السوفييتية على جبهة سيفاستوبول، ولكن مانشتاين فضل عدم القيام بأي هجوم، وترك الفرصة للقوات السوفييتية حتى تبدأ هي بالهجوم. والعمل خلال ذلك؛ على اتخاذ التدابير الدفاعية الضرورية لمجابهة الاحتمالات المختلفة؛ ولم يطل انتظار مانشتاين. فقد انطلقت القوات السوفييتية لتنفيذ هجومها الكبير في يوم ٢٧ شباط ــ فبراير ــ ١٩٤٢. وتلقت القوات الألمانية والرومانية صدمة قوية؛ وحدث بعض التخلخل (الانهيار) في وسط القوات الرومانية؛ وفي الوقت ذاته اندلع قتال عنيف على جبهة سيفاستوبول. واستمر الصراع بعنف وقسوة حتى يوم ٣ آذار ــ مارس ــ اضطرت القوات المتصارعة بعدها للتوقف نتيجة لما تعرضت له من الخسائر؛ وأفادت القوات الألمانية من الهدوء النسبي لسد الثغرات على جبهتها. ولكن القوات السوفييتية استأنفت هجومها يوم ١٣ آذار ــ مارس ــ ١٩٤٢ ومعها في هذه المرة ٨ فرق من الرماة ولواء مدرعات في الخط الأول. فدمرت القوات الألمانية منها ١٣٦ دبابة في الأيام الثلاثة الأولى؛ وجابهت كثير من النقاط أزمة حادة؛ ويكفي لإبراز ضراوة المعركة؛ وعنفها؛ الإشارة إلى أن كتائب فرقة المشاة ٤٦ قد صدت خلال الأيام الثلاثة الأولى من ١٠ حتى ٢٢ هجوماً سوفييتياً. وقد وصلت بعض القوات الألمانية إلى مرحلة الانهيار؛ عندما وصلت الفرقة المدرعة ٢٢ التي تم تشكيلها حديثاً؛ والتي وضعتها القيادة الألمانية العليا تحت تصرف مانشتاين. فأمكن بذلك تحقيق بعض التوازن؛ الأمر الذي ساعد على إحباط الهجوم السوفييتي يوم ٢٦ آذار ــ مارس ــ والهجوم التالي له يوم ٩ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤٢. وبإحباط هذين الهجومين؛ ونتيجة ما لحق بالقوات السوفييتية من خسائر كبيرة؛ توقفت هذه القوات عن القيام بأعمال هجومية جديدة؛ مما أتاح الفرصة أمام مانشتاين لإعادة تنظيم قواته، والانطلاق بها لاستعادة السيطرة على شبه جزيرة كرتش حيث كانت تنتشر فيها قوات الجيشين السوفييتيين ٤٤ و ٥١ واللذين بلغ مجموع قوتهما في نهاية شهر نيسان ــ ابريل ــ ما يقارب ١٧ فرقة و ٣ ألوية

رماة وفرقتي فرسان وأربعة ألوية مدرعة. وهي قوات تزيد على حجم القوات الألمانية. إلا أن مانشتاين وضع خطة أفاد فيها من طبيعة الأرض، ومن نقاط ضعف التنظيم الدفاعي للقوات السوفييتية، ثم أطلق فيالقه بهجوم مباغت يوم ٨ أيار ــ مايو ــ ودارت معارك ضارية استمرت حتى يوم ١٨ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٢، حيث وصلت **معركة شبه جزيرة كرتش** حتى نهايتها؛ فتم أسر ١٧٠ ألف مقاتل سوفييتي، وغنمت القوات الألمانية ١١٣٣ مدفعاً و٢٥٨ دبابة. وصار باستطاعة مانشتاين التفرغ لتحقيق هدفه السابق وهو الاستيلاء على **سيفاستوبول**.

اشتهر الروس منذ القدم بفنهم ومهارتهم في إقامة التحصينات الميدانية؛ وتنظيمها؛ وتمويهها. وساعدتهم الطبيعة الجغرافية؛ والموقع الاستراتيجي لسيفاسوبول؛ فجعلوا منها قلعة لا مثيل لها. وقد تمثلت قوة هذه القلعة قبل كل شيء؛ في الصعوبات الخارقة للأرض المحيطة بها، وفي الشبكة المتراصة من المواقع الصغيرة المتعددة التي كانت تغطي وتحمي كل المنطقة الواقعة بين وادي بليك وساحل البحر الأسود. وقد دعمت القيادة السوفييتية هذه الطبيعة الجغرافية الصعبة بشبكة محكمة من التحصينات الإسمنتية؛ وعلى عمق كيلو مترين؛ تأتي بعدها مجموعة من المعاقل الإسمنتية والمتصلة بتحصينات ميدانية قوية. وأفادت القوات السوفييتية من الجروف الصخرية حول ضفة النهر، فجعلت منها مخابىء تحت الأرض بعمق ٣٠ متراً؛ لتكديس الذخائر والمواد التموينية؛ وإقامة القوات الاحتياطية. وقد يكون من الصعب الإحاطة بوصف الميزات الطبيعية، والخصائص التنظيمية الدفاعية التي توافرت لقلعة سيفاستوبول؛ والتي كلفت بالدفاع عنها قوات تعادل قوات الجيش الألماني الحادي عشر. ولكن؛ يبقى لكل تنظيم دفاعي نقاط ضعفه ونقاط قوته؛ وقد عمل مانشتاين طوال أشهر متتالية على دراسة هذه النقاط؛ ووضع خطته لمهاجمتها. وهكذا، ما إن انتهت معركة شبه جزيرة كرتش حتى أعاد مانشتاين تنظيم فيالقه وفرقه، وأسند إلى الفيلق ٥٢ مهمة تأمين سلامة شبه الجزيرة وساحل القرم الجنوبي، وحشد بقية القوات للهجوم على القلعة. وحدد للفيالق والفرق واجباتها بدقة؛ وزج بأقوى مدفعية توافرت لمعركة من المعارك؛ وأفاد من دعم الفيلق الجوي الثامن. حتى إذا **ما كان فجر السابع من حزيران ــ يونيو ــ ١٩٤٢** يشع بضيائه الأرجواني؛ شرعت المدفعية بالقصف بكل عنفها وقوتها، في حين كانت الطائرات تنقض على أهدافها؛ وانطلقت القوات للهجوم. وقد يكون من المحال سرد تفاصيل ذلك الصراع الذي دام شهراً كاملاً في جو خانق؛ وفي إطار من الحوار العنيد بين الإرادات المتصارعة على كافة الصعد والمستويات؛ فكان القتال يدور في كل قدم من الأرض وفي كل مخبأ وموقع. وبدأت المعاقل والقلاع والتحصينات تنهار تباعاً. حتى إذا ما كان يوم ٢٦ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٤٢، سيطرت القوات الألمانية على كل مشارف القلعة، وحوصرت بقايا القوات السوفييتية في منطقة تحدها الجروف الصخرية في جنوبي خليج سفرنايا ومرتفعات انكرمان ومرتفعات سابون المتصلة بمرتفعات بالاكلافا. وقامت القوات

الألمانية بهجوم عام يوم ٢٩ حزيران ــ يونيو ــ للاستيلاء على المحيط الداخلي للقلعة ؛ غير أن المقاومة الضارية اضطرت القوات الألمانية للتوقف . وبدأ القصف الكثيف في اليوم الأول من تموز ــ يوليو ــ وتبعه هجوم عنيف ؛ إلا أن القتال لم يتوقف حتى يوم **٤ تموز ــ يوليو ــ ١٩٤٢ ؛ حيث استسلم ٩٠ ألف جندي سوفييتي .**

كان مانشتاين يتناول طعام العشاء مع بعض ضباط هيئة أركانه ؛ في مقر قيادته في بيت تتري من قرية يوتشاري كاراليس . وفجأة انطلق من المذياع (الراديو) نشيد النصر الذي كان يسبق كل بلاغ هام . وتبع ذلك إذاعة البرقية التالية :

إلى الجنرال فون مانشتاين

قائـد جيـش القرم

في سبيل ما تستحقونه من مكافأة على جدارتكم الفريدة خلال القتال الظافر في القرم ؛ والتي توجتها معركة الإبادة في كرتش والاستيلاء على سيفاستوبول والتي منحتها الطبيعة والفن أعظم تحصين . فإني أرفعك إلى مرتبة ماريشال . وأود بهذا الترفيع ؛ وبإنشاء الوسام الخاص لمقاتلي القرم ، أن أنوه باحترام وأمام كل الشعب الألماني ؛ بالمآثر البطولية للقطعات التي كانت بأمرتكم .

أدولف هتلر

○

كان لا بد من إعادة التنظيم الشامل للجيش الحادي عشر بعد الانتهاء من معارك القرم وذلك استعداداً لعبور مضيق كرتش والاشتراك في الهجوم الكبير الذي كان متوقعاً حدوثه على الجبهة الشرقية بكاملها . إلا أن مباغتة مذهلة كانت تنتظر مانشتاين الذي تلقى في يوم ١٢ آب ــ اغسطس ــ ١٩٤٢ ، تعليمات تقضي بألا يعبر المضيق إلا أركان الفيلق ٥٢ وفرقة المشاة ٤٦ وقطعات رومانية أخرى . أما الجيش الحادي عشر ؛ فكان عليه أن يشترك في الاستيلاء على لينينغراد . وأثناء ذلك سحبت المدفعية الثقيلة من الجيش الحادي عشر ؛ كما سحبت منه ثلاث فرق أخرى . ولم يبق في القرم إلا فرقة المشاة ٥٠ . وحولت فرقة المشاة ٢٢ وكانت إحدى الفرق الممتازة ؛ إلى فرقة محمولة جواً ؛ وأرسلت إلى جزيرة كريت وبقيت عاطلة عن العمل تقريباً حتى نهاية الحرب . وخلاصة القول ؛ لم يبق لدى مانشتاين من جيشه الحادي عشر ؛ سوى هيئات أركان الفيلق ٥٤ والفيلق ٣٠ وفرق المشاة ٢٤ و ١٣٢ و ١٧٠ والفرقة الخفيفة القناصة ٢٨ . وكان أمراً محزناً لمانشتاين خاصة ؛ ذلك التشتت الذي نزل بجيشه ؛ والذي كان مدمراً للثقة والتلاحم الذي صهر تشكيلات الجيش ووحداته عبر التجارب القاسية المشتركة . ليس ذلك فحسب ؛ بل إن الأمر

الأخطر من ذلك هو توجيه الجيش للاستيلاء على لينينغراد في وقت باتت فيه جميع الظروف تؤكد صعوبة تحقيق هذا الهدف. فلقد كان بالمستطاع الاستيلاء على لينينغراد بهجوم مباغت وقوي في سنة ١٩٤١؛ غير أن عدم تحقيق هذا الهدف في تلك الفترة، جعل من المحال بلوغه في وقت لاحق. واعتقد هتلر؛ بعدئذ؛ أنه بالمستطاع تحقيق السيطرة على المدينة (بالتجويع) إلا أن القيادة السوفييتية أحبطت هذه الخطة؛ وتمكنت من إمداد المدينة وتموينها بالسفن خلال فصل الصيف؛ وعلى السكك الحديدية القائمة على جليد بحيرة لادوكا في فصل الشتاء. وأثناء ذلك نظمت القيادة السوفييتية جبهة قوية ومتماسكة بين بحيرة لادوكا وبين غربي اورانينياوم. وكانت هذه الجبهة قادرة على التهام كل القوى الألمانية التي تتعرض لها.

وصل مانشتاين وبقية جيشه إلى جبهة لينينغراد يوم ٢٧ آب ــ اغسطس ــ ١٩٤٢، وشرع على الفور باستطلاع الجبهة المخصصة له، إذ كان عليه الهجوم في قطاع الجيش الثامن عشر؛ بعد أن يتم تبديل هذا الجيش في قسم من جبهته المقابل للاتجاه الشمالي؛ مع احتفاظه بالقسم الشرقي من جبهته في فولكوف. فكانت جبهة الجيش الحادي عشر تمتد من قطاع نيفا عابرة بحيرة لادوكا أو لادوغا حتى الجنوب الشرقي من لينينغراد. وما إن أنجز مانشتاين استعداداته للهجوم؛ حتى كانت القيادة السوفييتية التي كانت تتابع تحرك القوات الألمانية بدقة؛ قد أطلقت هجومها لإجهاض الهجوم الألماني. ونشأ وضع خطير بلغ من خطورته أن اتصل هتلر شخصياً بمانشتاين يوم ٤ أيلول ــ سبتمبر ــ وطلب إليه التدخل فوراً على جبهة فولكوف لتجنب وقوع كارثة عسكرية. وأن يتولى قيادة الأعمال القتالية فيها إلى أن تتم السيطرة على الموقف. وظهر لمانشتاين لدى معالجة الموقف أن القوات السوفييتية قد نجحت في فتح ثغرة واسعة بعرض ٨ كيلو مترات وبعمق ١٢ كم، إلى الجنوب من بحيرة لادوكا أو لادوغا. فأسرع مانشتاين لزج القوات المتوافرة من أجل إيقاف تقدم القوات السوفييتية. وأمكن السيطرة على الموقف بعد قتال عنيف ومستمر طوال أيام متتالية. ثم نظم مانشتاين هجوماً مضاداً، استطاع بواسطته تطويق القوات السوفييتية وحصرها في الثغرة التي فتحتها؛ وذلك يوم ٢١ أيلول ــ سبتمبر ــ ولكن جيش لينينغراد زج قوة من ثماني فرق لتحرير القوات المحاصرة في الجيب؛ واستمر القتال العنيف حتى يوم ٢ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ حيث نجحت القوات الألمانية في تدمير ٧ فرق و٦ ألوية رماة و٤ ألوية مدرعة؛ وأسرت ١٢ ألف مقاتل؛ وغنمت أكثر من ٣٠٠ مدفع و٥٠٠ هاون و٢٤٤ دبابة. وأعيدت السيطرة على الموقف؛ إلا أن القوات الألمانية تعرضت بالمقابل لخسائر فادحة؛ **وأظهرت هذه التجربة القتالية أنه بات من المحال احتلال لينينغراد بالقوات المتوافرة في الجبهة؛ وأنه إذا كانت القيادة العليا مصممة على تحقيق هذه النتيجة؛ فلابد من زج قوات جديدة وبتشكيلات ضخمة. فهل كان لدى ألمانيا مثل تلك القوات في تلك الفترة؟ هذا ما كان يفكر به مانشتاين عندما كان في الطائرة يوم**

٢٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤٢ في طريقه إلى مقر هتلر لتسلم عصا الماريشالية. وقد أفاد مانشتاين من هذه المناسبة؛ فشرح لهتلر الموقف بدقة؛ وحالة القوات؛ وقدراتها القتالية، ووافقه هتلر على وجهات نظره، إلا أن هتلر كان متأثراً بوجهات نظر غورنغ من حيث إمكان حسم الصراع بالقوات الجوية.

ما إن رجع مانشتاين إلى مقر قيادته حتى تلقى نبأ مفجعاً بمصرع ابنه البكر جيرو اريك سيلفستر فون مانشتاين الذي كان برتبة ملازم أول في كتيبة المدرعات ٥١، والذي أصابته قنبلة طائرة في ليل ٣٠ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ فأردته قتيلاً. وكان عزاء مانشتاين أن ابنه مات وهو (الشاب المسيحي) ميتة مشرفة؛ مثله كمثل غيره من الشبان الذين التهمتهم نار الحرب.

تلقى مانشتاين أمراً يوم ٢٠ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ بتولي قيادة (مجموعة الدون) والتي كان يتم تشكيلها على جانبي مدينة ستالينغراد، لمجابهة الموقف الصعب التي كانت تعيشه القوات الألمانية على هذه الجبهة منذ مدة طويلة؛ والذي نجم عن مجموعة التطورات المتتالية.

كانت الجيوش الألمانية قد شنت هجومها عام ١٩٤٢ على اتجاهين متباعدين: القوقاز و ستالينغراد، لأن هتلر حدد أهدافهما وعينها بناء على اعتبارات ذات طابع اقتصادي قبل كل شيء. ولما أخفق ذلك الهجوم نشأت جبهة كانت القوى الألمانية المخصصة لها؛ أعجز من أن تضطلع بحمايتها والدفاع عنها. وجاء بعد ذلك تشتيت الجيش الحادي عشر في كل الاتجاهات؛ والذي أصبح طليقاً عند إنهاء حملة القرم؛ على نحو ما سبقت الإشارة إليه؛ فلم يبق تحت تصرف القيادة أي قوة احتياطية في هذا الجزء من الجبهة. وأصبحت مجموعة الجيوش (آ) بعد ذلك متجهة نحو الجنوب؛ ما بين البحر الأسود وبحر الخزر. أما مجموعة الجيوش (ب) فكانت تدافع باتجاه الشرق والشمال الشرقي عن جبهة تمتد من الفولغا في جنوبي ستالينغراد، ثم تنعطف بعدئذ نحو الدون الأوسط إلى الشمال من مدينة ستالينغراد؛ ثم تسير مع ذلك النهر حتى فورونيج. وكان في حوزة مجموعتي الجيوش قوات غير كافية للدفاع عن جبهات في مثل ذلك الاتساع؛ ولا سيما أن جناح السوفييت الجنوبي لم يهزم هزيمة ساحقة. كما بقي لدى السوفييت احتياطي هائل من القوى والوسائط؛ خلف القطعات الأخرى في الجبهة؛ وفي عمق البلاد. وأخيراً؛ كانت هناك ثغرة واسعة بين مجموعتي الجيوش يبلغ طولها ٣٠٠ كم، وهي ثغرة كلفت بمراقبتها وحمايتها الفرقة الآلية ١٦. ولم يكن باستطاعة هذه الفرقة بدهياً تأمين حماية هذه الثغرة الواسعة. كما كانت محاولة الدفاع عن جبهة ستالينغراد الممتدة، هي محاولة فاشلة ومقضي عليها مسبقاً.

لقد كان هذا هو الوضع ــ بصورة عامة ــ يوم تولى مانشتاين قيادة مجموعة جيوش الدون يوم ٢١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٤٢، وكانت هذه المجموعة تضم الجيش الرابع

المدرع؛ والجيش السادس، والجيش الروماني الثالث؛ وقد حددت مهمة المجموعة بإيقاف هجمات العدو واستعادة الأراضي التي فقدت منذ بداية الهجوم، وذلك بتنسيق التعاون في المعارك العنيفة الدفاعية المحتدمة إلى الشمال وإلى الجنوب من ستالينغراد.

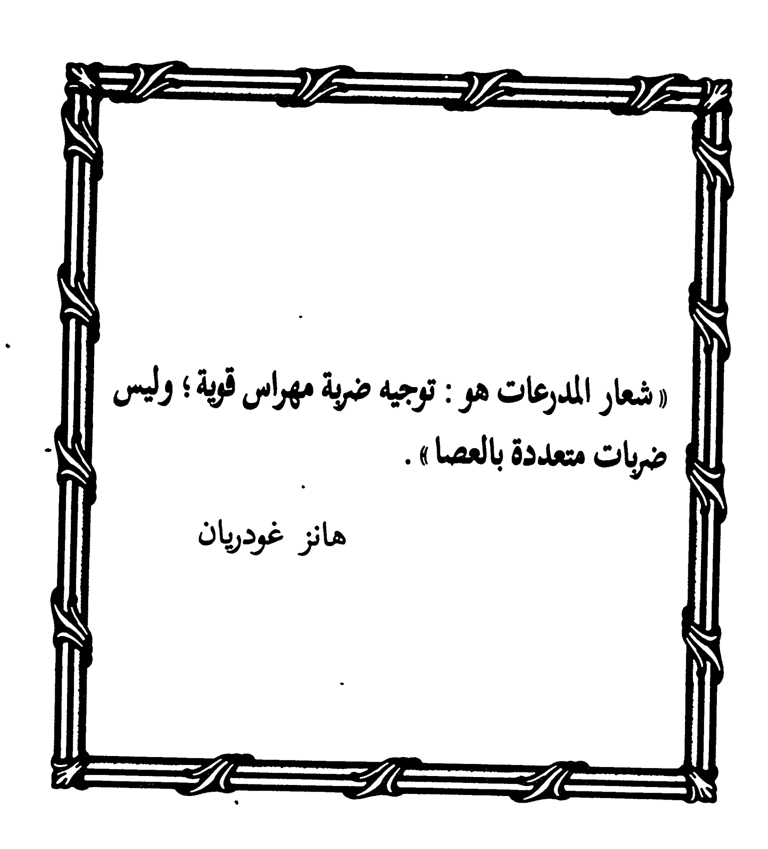
تبين لمانشتاين لدى دراسته للموقف أنه لا يستطيع إنقاذ الحالة المتردية والخطيرة، بما هو متوافر له من القوى والوسائط؛ فقد قامت القوات السوفييتية بأعنف هجوم لها في فجر يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢. وبعد يومين من القتال العنيف، تمكنت من تطويق الجيش الألماني السادس الذي كان يتولى قيادته فون باولوس والذي كان عدد مقاتليه يتراوح بين ٢٠٠ ألف و٢٧٠ ألفاً. ثم تابعت القوات السوفييتية تدفقها؛ فحشدت في مواجهة مجموعة جيوش الدون أكثر من ١٤٣ تشكيلاً مقاتلاً (فرقة مشاة ولواء مدرع) أي أكثر من ثلاثة أضعاف قوة مجموعة جيوش الدون. فكان من المحال والحالة هذه إجراء أية محاولة لفك الحصار عن الجيش السادس. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد أصدر هتلر أمره بعدم انسحاب أي جندي؛ وقد بذلت محاولات لدعم الجيش السادس عن طريق الجو، وتأمين الإمدادات له؛ غير أن الدعم لم يكن كافياً؛ والإمدادات لم تكن كثيرة؛ وخاض الجيش السادس صراعه بضراوة وعناد؛ طوال شهرين كاملين، إلى أن اضطر قائده فون باولوس وما بقي من وحداته للاستسلام يوم ٣١ كانون الثاني — يناير — ١٩٤٣. وكان مانشتاين خلال هذه الفترة؛ يحاول بذل كل الجهود الممكنة لإنقاذ ما يمكن انقاذه غير أن كافة طلباته اصطدمت برفض هتلر؛ وعندما حلت الكارثة بالجيش السادس؛ تم استدعاء مانشتاين لمقابلة هتلر يوم ٦ شباط — فبراير — ١٩٤٣. فبادأه هتلر بقوله:

«إنني وحدي أحمل مسؤولية ما وقع في ستالينغراد؛ وبوسعي القول أن غورنغ قد أعطاني صورة غير صحيحة عن إمكانات سلاح الطيران؛ فيما يتعلق بالإمداد الجوي والتموين؛ وقد يكون من السهل والحالة هذه أن ألقي جزءاً من التبعات عليه؛ غير أني جعلته خليفة لي؛ ولذا فإني أحمل كامل التبعات في هذا الأمر». وأفاد مانشتاين من هذه المقابلة؛ فطرح تصوراته للأعمال القتالية القادمة؛ وضرورة الإنسحاب وشن هجمات مضادة بقوات أكبر؛ واستطاع بذلك منع انهيار القوات الألمانية وتطوير المقاومة على جبهة خاركوف وكورسك وتنفيذ مخطط القلعة. غير أن هذه الجهود لم تمنع المدَّ من التحول؛ لقد رسمت ستالينغراد نقطة التحول؛ وبرهنت على التفوق الساحق الذي يمتلكه الاتحاد السوفييتي في القوى والوسائط؛ أما بالنسبة لخطط الحرب، فلقد كان لدى السوفييت قادتهم الذين تعلموا من تجارب الحرب، وبرهنوا على أنهم أكفاء وأنداد لمانشتاين في (حوار الإرادات المتصارعة).

الفصل السابع

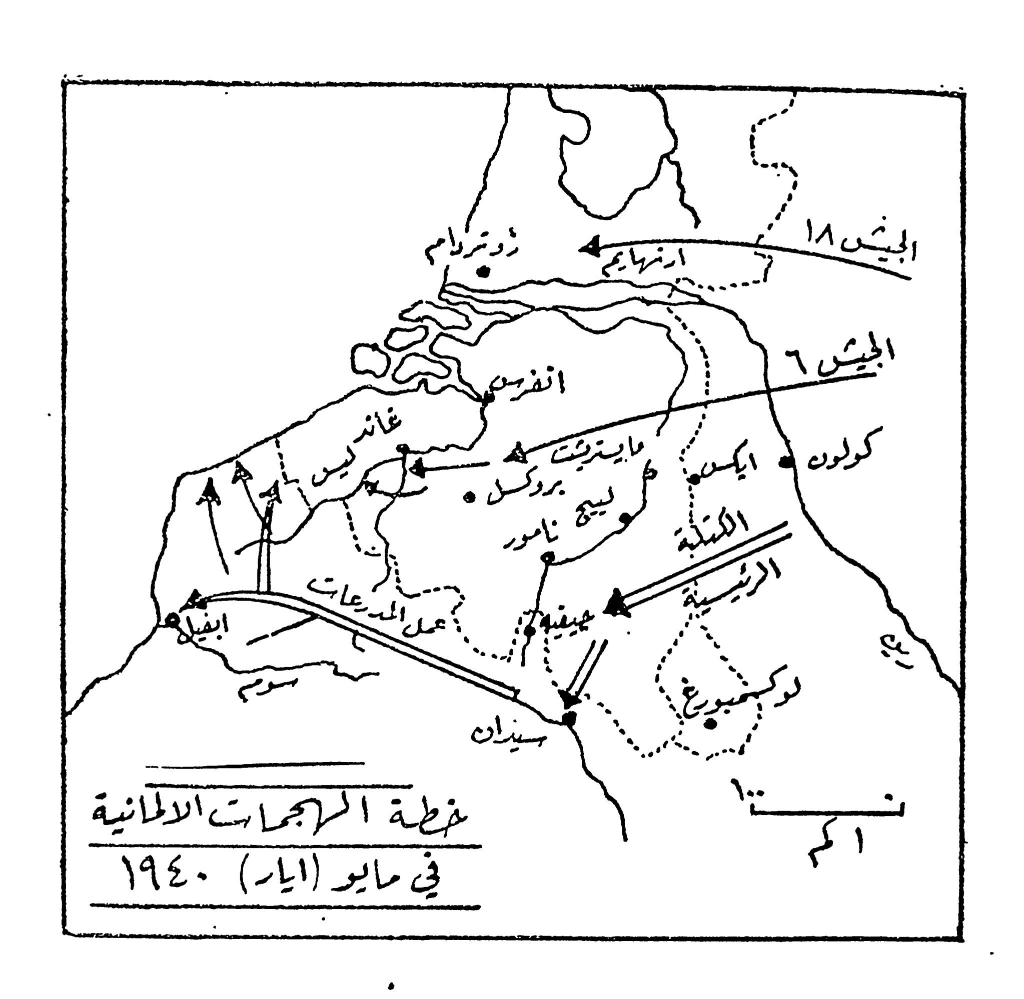
حرب الحركة وقتال المدرعات

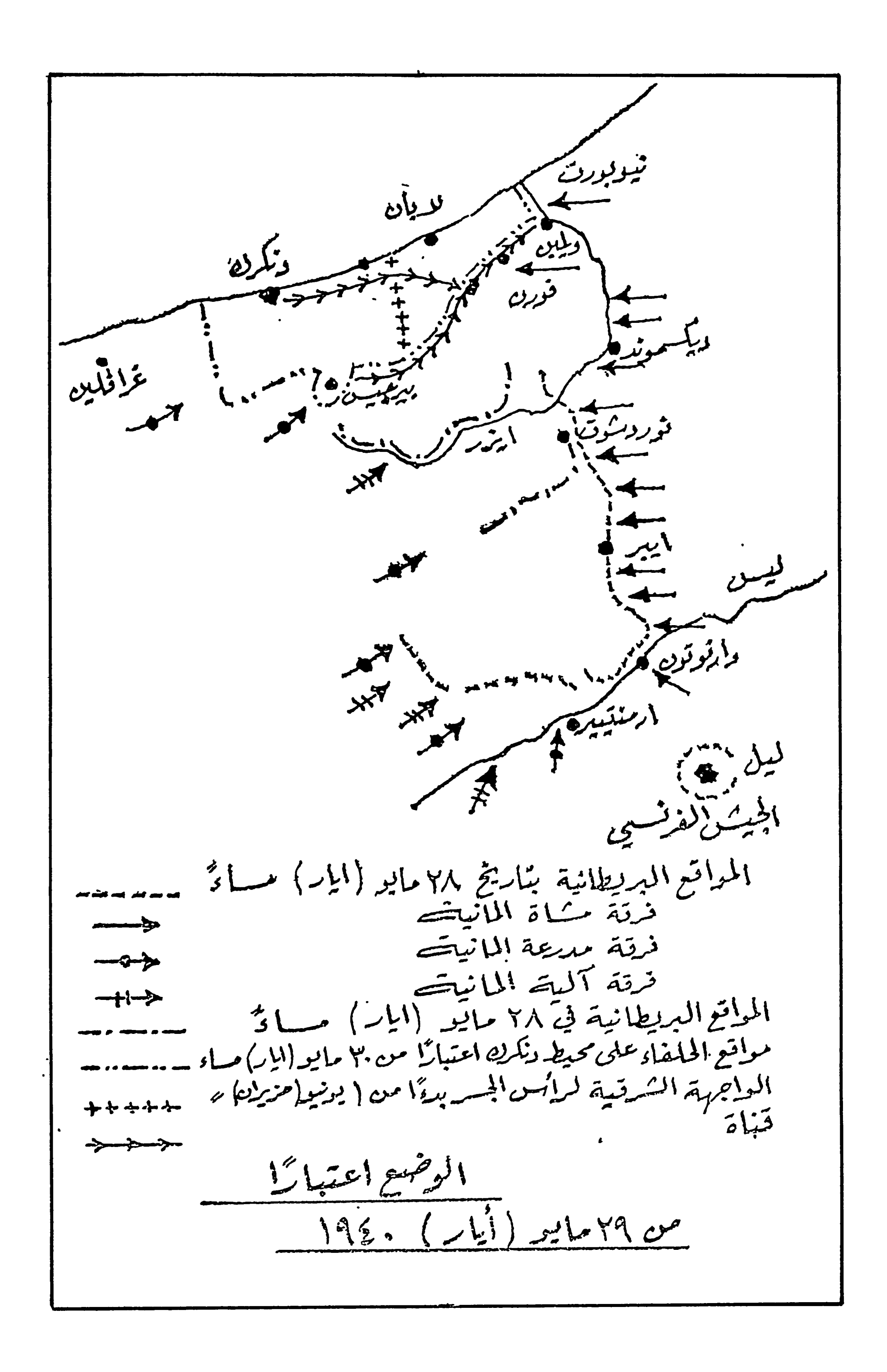
٧ ـــ الماريشال غودريان



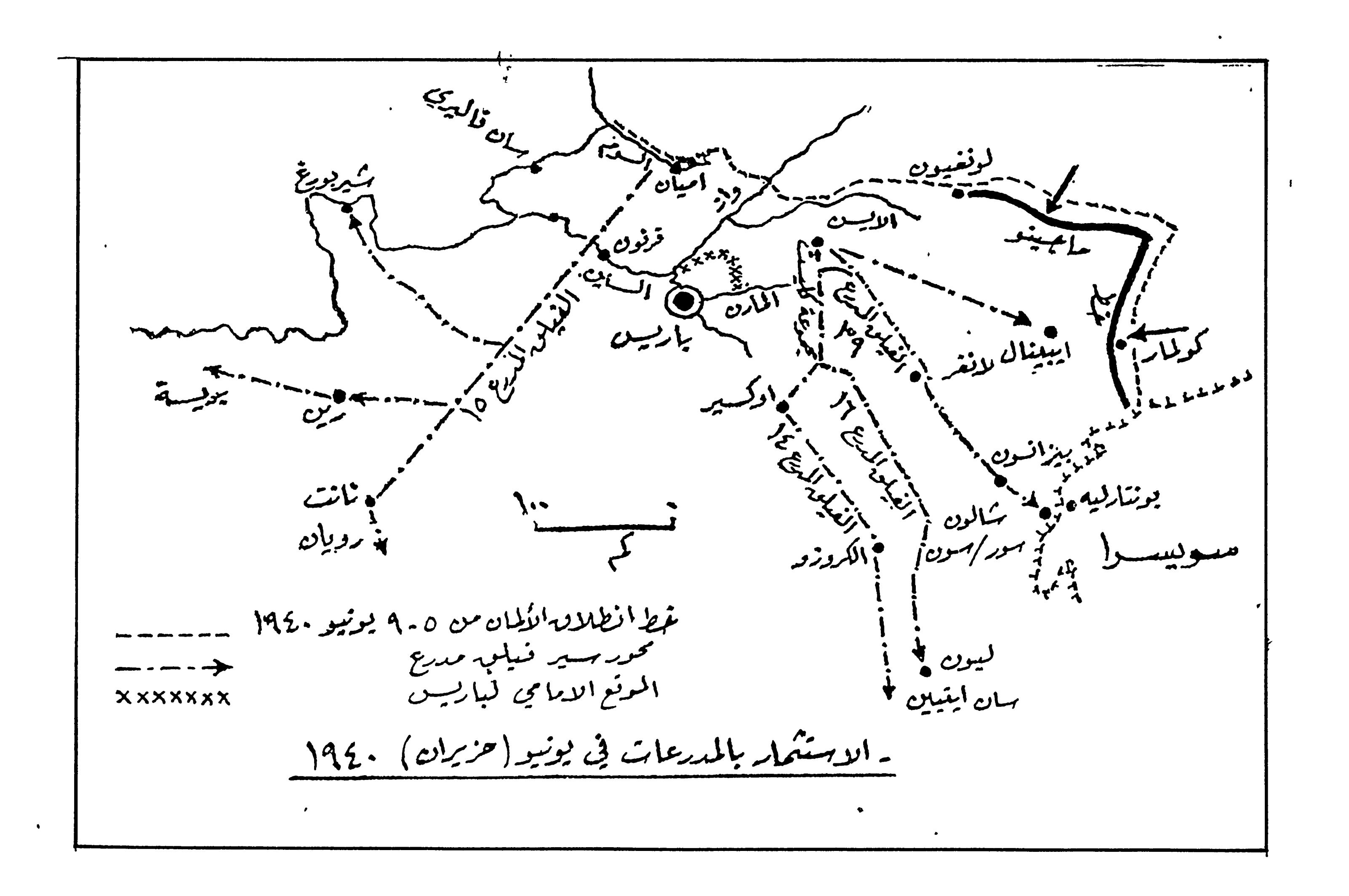
«شعار المدرعات هو : توجيه ضربة مهراس قوية ؛ وليس ضربات متعددة بالعصا » .

هانز غودريان

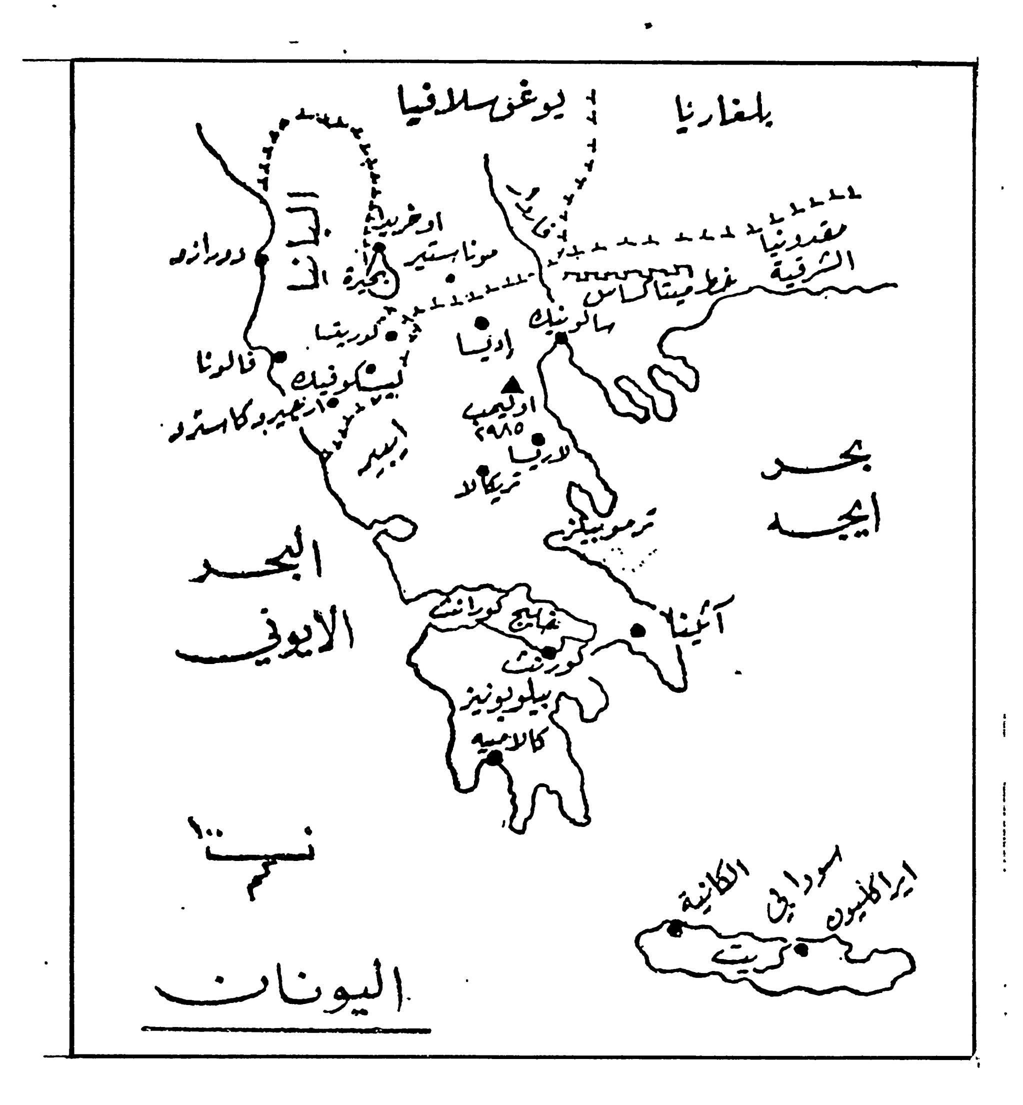

الجيش ١٨
روتردام
ارنهايم
الجيش ٦
انفرس
غاند
ليس
ماستريخت
بروكسل
كولون
ايكس
ليج
نامور
الكتلة
الرئيسية
ابفيل
عمل المدرعات
سوم
سيدان
لوكسمبورغ
١٠٠ كم
خطة الهجمات الالمانية
في مايو (ايار) ١٩٤٠



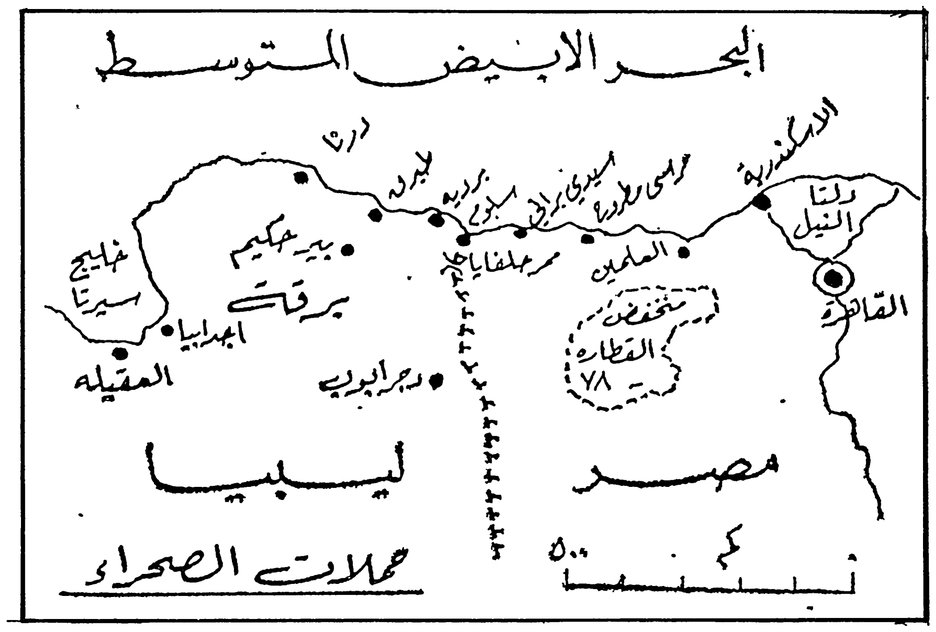
نيوبورت
لاپان
دنكرك
غرافلين
فورن
نيكسموند
بيرغيس
ايزر
ايبر
ليس
ارمنتيير
ليل
الجيش الفرنسي
المواقع البريطانية بتاريخ ٢٨ مايو (ايار) مساءً
فرقة مشاة المانية
فرقة مدرعة المانية
فرقة آلية المانية
المواقع البريطانية في ٢٨ مايو (ايار) مساءً
مواقع الحلفاء على محيط دنكرك اعتباراً من ٣٠ مايو (ايار) مساء
الواجهة الشرقية لرأس الجسر بدءاً من ١ يونيو (حزيران) ٢
قناة
الوضع اعتباراً
من ٢٩ مايو (أيار) ١٩٤٠



- الاستثمار بالمدرعات في يونيو (حزيران) ١٩٤٠



يوغوسلافيا
بلغاريا
مقدونيا
الشرقية
دورازو
مونابستير
اوخريدة
سالونيك
ادوسا
فالونا
كوريتسا
اوليمب
٢٩٨٥
لاريسا
تريكالا
ترموبيلي
ابيبر
بحر
ايجه
البحر
الايوني
خليج كورانث
كورنث
آثينا
بيلوبونيز
كالاميه
كالانية
سودا
ايراكليون
كريت
اليونان



البحر الابيض المتوسط
درنا
طبرق
بردية
سلوم
سيدي براني
مرسى مطروح
الاسكندرية
دلتا
النيل
القاهرة
خليج
سيرتا
بير حكيم
برقة
اجدابيا
العقيله
جغبوب
مرسى مطروح
العلمين
منخفض
القطارة
٧٨
مصر
ليبيا
كم
٥٠٠
حملات الصحراء

الوجيز في حياة غودريان هانز

١٨٨٨ ــ ١٩٥٤ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٨٨	ولادة غودريان هانز في كولم على نهر الفيستول .
١٩٠١	دخوله مدرسة المرشحين في كارلسروش .
١٩٠٣	إلتحاقه بمدرسة المرشحين الرئيسة في غروس ليسستر فيلد قرب برلين .
١٩٠٧	تعيينه في كتّيبة القناصة الهانوفرية العاشرة برتبة مرشح.
١٩٠٨	ترفيعه لرتبة ملازم بعد تخرجه من دورة في الكلية الحربية .
١٩١٣	إلحاقه في الكلية الحربية (مدرساً) .
١٩١٤	ترفيعه لرتبة ملازم أول ؛ وتعيينه قائداً لمركز لاسلكي في منطقة الفلاندر .
١٩١٥	ترفيعه لرتبة نقيب ؛ وتعيينه ضابط معاون في إشارة هيئة أركان الجيش الرابع .
١٩١٦	ضابط إشارة هيئة أركان الجيش الرابع .
١٩١٧	في هيئة أركان فرقة المشاة الرابعة ثم في فرقة الاحتياط ٥٢ .
١٩١٧	تعيينه قائداً للواء الثاني من فرقة المشاة الرابعة عشرة .
١٩١٨	دورة ضباط الأركان في مدينة سيدان .
١٩١٩	قائد عام حرس الحدود الجنوبي في برسلاو .
١٩٢٢	نقله إلى مجموعة النقل بالعربات في ميونيخ ــ بافاريا .
١٩٢٧	ترفيعه ونقله إلى وزارة (الحرب الرايخ) .
١٩٣١	ترفيعه إلى رتبة مقدم ، وتعيينه رئيساً لهيئة أركان تفتيش وحدات النقل بالعربات .
١٩٣٥	تعيينه قائداً لفرقة البانزر الثانية في وورزبورغ .
١٩٣٨	ترفيعه لرتبة جنرال ، وتعيينه قائداً للفيلق ١٦ في برلين .

١٩٣٩ اشتراكه في حملة بولونيا .

١٩٤٠ اشتراكه في اجتياح الغرب (قائد مجموعة بانزر غودريان) .

١٩٤١ تعيينه قائداً للجيش المدرع الثاني .

١٩٤٣ تعيينه مفتشاً عاماً للوحدات المدرعة .

١٩٤٤ تعيينه رئيساً لهيئة أركان حرب القوات البرية .

١٩٤٥ إنهاء الخدمة ، وانصرافه لكتابة (مذكرات جندي) .

Gen Guderian Heinz

٧ ــ قائد المدرعات هانز غودريان

ليست فكرة استخدام الدبابة في الحروب، هي فكرة جديدة؛ فقد عرفت الدبابة والدرع للوقاية منذ أقدم العصور. وقد جاء المحرك الإنفجاري ليعطي الدبابة قدرة دافعة جديدة، وظهر النموذج البدائي للدبابة الحديثة في الحرب الأولى؛ حيث ظهرت للمرة الأولى وبأعداد قليلة أثناء معركة السوم[٢٣] في أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩١٦. وقد استخدمت الدبابات على نطاق أكبر بعدئذ في معركة كامبري في ٢٠ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٧. غير أن أكبر استخدام للدبابات حدث في معركة أميان[٢٤] الحاسمة؛ والتي زج فيها الحلفاء بقوة ٤٦٢ دبابة لدعم الهجوم. ولقد تطورت الدبابة بعد ذلك؛ وتعاظم انتاجها؛ وظهرت منها نماذج مختلفة في دول العالم الصناعي كافة؛ وبصورة خاصة فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية واليابان؛ وحتى ايطاليا. إلا أن ألمانيا أظهرت تفوقاً واضحاً في بداية الحرب العالمية الثانية؛ سواء في نوع الدبابة أو في طريقة استخدامها. ويعود ذلك إلى قائد ارتبط اسمه بالدبابات؛ وارتبط عملها باسمه، فكان (هانز غودريان) هو قائد البانزر؛ وكانت البانزر هي (دبابات غودريان). واعترف (عالم الحرب) بما يشبه الإجماع للجنرال غودريان؛ بالريادة والتفوق في هذا المضمار. وتعود قصة غودريان ومدرعاته في بدايتها إلى شهر كانون الثاني ــ يناير ــ سنة ١٩٢٢ عندما نقل غودريان إلى المجموعة السابعة للنقل في السيارات، والتي كانت متمركزة في بافاريا ومقرها ميونيخ، وذلك تمهيداً لنقله إلى مفتشية وحدات النقل ــ فرع النقل بالسيارات. وكان على غودريان أن يدرس (تنظيم النقل في السيارات واستخدامها)، بما في ذلك عمل رحبات السيارات، وصهاريج الوقود، والأبنية التابعة للرحبات،

(٢٣) السوم: Somme مدينة حصينة في اقليم بيكاردي Picardie وهي بحكم موقعها تحمي نهر السوم والمدن القائمة على ضفافه مثل: آبفيل؛ وأميان؛ وبيرون؛ ورري؛ وكوربي. وقد أعطت السوم اسمها لمعركة السوم التي استمرت من شهر تموز ــ يوليو ــ وحتى تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩١٦ حيث قام الفرنسيون والبريطانيون بهجوم على اتجاه بابوم Bapaume وبيرون Péronne من أجل دعم فردان واستخدمت الدبابة فيه للمرة الأولى.

(٢٤) أميان: Amiens العاصمة القديمة لاقليم بيكاردي؛ وهي مدينة رئيسة من مدن إقليم السوم. وتقع على نهر السوم على بعد ١٣٠ كيلو متراً من باريس. وتشتهر بأنها تضم أضخم كاتدرائية تعود إلى أيام القوط. وقد شهدت عبر تاريخها أحداثاً سياسية وعسكرية هامة بحكم موقعها.

والأعمال الفنية، وقضايا الطرق والمرور. ولم تكن هناك ثمة مراجع منظمة، أو دراسات متكاملة في هذه المواضيع الفنية؛ فعكف غودريان على التعلم من الموظفين والخبراء ممن اكتسبوا معرفة علمية عميقة بالممارسة الطويلة. ثم أخذ في تطوير تعلمه عبر التمارين والمناورات. وأظهر اهتماماً خاصاً بالعربات المدرعة؛ وما توافر من المعلومات عنها من خلال تجارب الحرب العالمية الأولى. ولما كان الانكليز والفرنسيون قد سبقوا الألمان في هذا المضمار، فقد مضى لجمع وقراءة أبحاثهم وكتاباتهم؛ وأفاد بصورة خاصة من كتابات الكتّاب العسكريين البريطانيين: فوللر وليدل هارت ومارتـل؛ وما كانوا ينشرونه من أبحاث ودراسات عن (حرب الحركة). وما يمكن للدبابة أن تقوم به من الأعمال في الحرب؛ وأنها أكثر من أن تكون سلاحاً مرافقاً للمشاة. وسرعان ما اكتسب غودريان شهرة (الاختصاصي) في سلاح المدرعات، عن طريق الأبحاث والمقالات التي كان ينشرها في مجلة الجيش. وعن طريق التمارين والمناورات التي كان يضعها على الخرائط لاستخدام الآليات المدرعة أثناء عمليات الاستطلاع، وبالتعاون مع الفرسان. وجاءت الفرصة المناسبة لتطبيق هذه الأفكار عملياً؛ عندما تم تكليفه في شتاء سنة ١٩٢٣ ــ ١٩٢٤ بقيادة مناورة توضح استخدام الوحدات الآلية بالتعاون مع الطيران. ولم يكن في ألمانيا يومها سوى عربات النقل المخصصة لنقل الأفراد، وهي عربات مصفحة قديمة تسير على أربعة عجلات ولا تستطيع التحرك خارج الطرق. وبالرغم من ذلك؛ فقد كانت نتيجة التمرين ناجحة؛ واتيحت لغودريان فرصة التعليق على هذا التمرين في نهايته؛ فعبر عن أمله بأن تتيح مثل هذه التمارين المجال للتخلي عن نظام القوافل؛ لتصبح وحدات مقاتلة. ويمكن تصور مدى الصدمة التي أصابت غودريان عندما علق المفتش العام للنقل بالسيارات على كلمة غودريان بقوله: «دعنا من الوحدات المقاتلة؛ وعليك أن تنقل الطحين». ولكن؛ وإذا كان هناك من لم يتطلع ببصره نحو أفق المستقبل لتطوير عمل الوحدات الآلية؛ فقد كان هناك أيضاً من أعطوها حق قدرها؛ فتم تعيين غودريان (مدرباً للتكتيك والتاريخ العسكري) للضباط المنتمين إلى هيئة الأركان في مدينة ستيتن. وانصرف غودريان انصرافاً كاملاً لإعداد الأبحاث والمحاضرات لهؤلاء المستمعين الراغبين في الجدل والمناقشة. وكثيراً ما كان يلح على طلابه بالتفكير في الحل المناسب للمشكلات الدقيقة؛ والعودة إلى مناقشتها. ووجه اهتماماً خاصاً في مجال التاريخ العسكري إلى الحروب النابوليونية؛ وخاصة منها المعارك التي تميزت بالحسم والتي تضمنت مناورات هامة وكبيرة بالقوات. كما درس الأعمال القتالية الكبرى لقوات الفرسان من الجيوش الألمانية والفرنسية في خريف سنة ١٩١٤ م. وقد أفاد غودريان من هذه الدراسة العميقة لمناورات الفرسان من أجل تطوير أفكاره التكتيكية (التعبوية)؛ وخلال التمارين والمناورات. ومضت عليه ثلاث سنوات وهو يقوم بالتعليم في ستيتن، عندما تم نقله إلى وزارة الدفاع ــ فرع النقل ــ المرتبط بفرع العمليات. وكان عمل هذا الفرع هو نقل الوحدات بالسيارات؛ وكانت فكرة القيادة العليا عن هذا العمل كما يلي: «تأمين نقل الوحدات بالسيارات المدنية» ولم يكن لدى الجيش الألماني في تلك الفترة سيارات نقل؛ وظهرت في

أثناء الدراسة الصعوبات-التي تنتظر هذا النوع من أنواع النقل. ولقد نجح الفرنسيون نجاحاً باهراً عندما استخدموه خلال معركة فردان في الحرب العالمية الأولى؛ غير أن عملية النقل تمت وراء جبهة دفاعية ثابتة؛ ولم تكن هناك ضرورة لتجميع الآليات ولا الخيول ولا مدفعية الفرقة في مكان واحد وبصورة فورية. في حين ظهر أنه من الضروري زيادة عدد الآليات بنسب معقولة، من أجل نقل فرق بكاملها وآلياتها وسياراتها وخيولها في (حرب الحركة). وقد أثار هذا الموضوع جدلاً عنيفاً. وكان المتشككون في إمكان حل المشكلة بزيادة عدد الآليات؛ أكثر من أولئك المقتنعين بها.

عهدت (هيئة التدريب على السيارات) إلى غودريان بتدريب طلابها على تكتيك المدرعات؛ في فصل الخريف من سنة ١٩٢٨. ولم يكن غودريان قد امتطى من قبل دبابة قط. فكان مضطراً لتحضير دروسه تحضيراً دقيقاً جداً؛ والحصول على معرفة واسعة من خلال المطالعة المستمرة على المصادر. وكانت الدراسة النظرية قد أصبحت آنذاك أسهل بكثير مما كانت عليه عندما عمل للمرة الأولى في وزارة الدفاع. فقد توافرت لدى وزارة الحرب مراجع ضخمة عن الحرب العالمية الأولى. وتطورت في أثناء ذلك أيضاً الجيوش الأجنبية تطوراً واضحاً بنتيجة الأبحاث والدراسات في هذه الحرب؛ وتم وضع (أنظمة الخدمة). وأفاد غودريان من ذلك عندما انتقل من الدراسة النظرية إلى التطبيق العملي؛ وإجراء التمارين على دبابات هيكلية؛ وقد تم تطوير هذه الدبابات لأنها باتت تصنع من صفائح معدنية مجهزة بمحرك بدلاً من سابقاتها التي كانت تغطى بقماش ويقوم بدفعها الرجال. وأتاحت هذه الدبابات الهيكلية تنظيم المناورات التي اشتركت فيها الكتيبة الثالثة من لواء المشاة التاسع. وتعاون غودريان مع عدد من زملائه لوضع مخطط عمل منتظم؛ فتم البحث لاستخدام الدبابة استخداماً مستقلاً على مستوى الفصيلة والسرية والكتيبة. ومع أن إمكانات التدريب كانت متواضعة وبدائية؛ إلا أنها كانت كافية لتشكيل بعض المفاهيم الدقيقة عن المجالات المتاحة أو المتوافرة أمام الدبابة في الحرب الحديثة. وتفتحت مخيلة غودريان عندما أرسل إلى السويد لمدة أربع أسابيع حيث توافرت له الفرصة ليرى على الأرض الدبابة الأخيرة للحرب العالمية الأولى (ل. ك ـــ ٢) وأن يتولى قيادتها. وقد أظهر الضباط السويديون خلال هذه الزيارة إخلاصهم للصداقة مع الألمان؛ ورغبتهم الصادقة في تقديم كل دعم ممكن. وأيقن غودريان بعد كل ما استوعبه من الخبرة؛ أنه لن تكون للدبابة أية أهمية حاسمة إذا ما استخدمتْ لدعم المشاة؛ أو إذا ما استخدمت استخداماً مستقلاً عن كل صنوف الأسلحة الأخرى. **وأن الحصول على المردود الأقصى للدبابات يتطلب زيادة سرعة بقية الأسلحة وقدراتها حتى تستطيع العمل مع الدبابات في جميع أنواع الأراضي. وعلى الدبابات أن تقوم بالدور الرئيسي في معركة الأسلحة المشتركة؛ كما يجب على بقية الأسلحة أن تتوافق معها. فكان من الأفضل تشكيل فرقة مدرعة تجمع كل صنوف الأسلحة التي تحتاج إليها الدبابات لخوض المعركة؛ وذلك بدلاً من إضاعة الدبابات في**

فرق المشاة. وقرر غودريان أن يكون موضوع الفرقة المدرعة هو أحد فصول دراسته، وذلك بعد جدال جرى على أرض المناورة في صيف العام ١٩٢٩ . ونجحت المناورة. وازداد غودريان يقيناً بأنه على صواب؛ إلا أن مفتش وحدات النقل منع استخدام الدبابات النظري فوق مستوى اللواء؛ لأنه اعتبر بأن الفرق المدرعة هي ضرب من الخيال.

تسلم غودريان قيادة المجموعة البروسية الثالثة للنقل الآلي في ١ شباط — فبراير — ١٩٣٠. فعمل على تزويد السرية الأولى بآليات استطلاع مسلحة بالرشاشات، كما جهزت السرية الثانية بدبابات هيكلية؛ وحولت السرية الثالثة إلى سرية دفاع مضاد للدبابات وسلحت بمدافع خشبية. وجهزت السرية الرابعة بالدراجات النارية والرشاشات؛ واعتبرت من وحدات الاستطلاع المدرعة، فكانت هي السرية الوحيدة التي جهزت بالعتاد الحقيقي. وقام غودريان بقيادة هذه الوحدة البسيطة، ونفذ بها مناورة حقيقية؛ وغمرت الجنود حماسة مثيرة، فقد عصفت بحياتهم اليومية ريح جديدة. ولقد لقي غودريان ما كان متوقعاً؛ فقد شجعه بعض رؤسائه فيما لقي احباطاً من رؤساء آخرين. ولم يلبث غودريان أن نقل من برلين إلى ميونيخ للعمل رئيساً لهيئة أركان مفتش وحدات النقل في خريف ١٩٣١، وانطلق غودريان من موقعه هذا لتشكيل وحدات المدرعات. وكانت فكرته واضحة كل الوضوح: «إن التنظيم المقبل للسلاح المدرع سيتيح لألمانيا فرصة إحراز النصر الحاسم على مستوى العمليات. وهذا التنظيم لا يمكن أن يتم إذا ما اتخذ شكل الفرقة المدرعة؛ أو حتى الفيلق المدرع بعد ذلك. فكان لا بد من إقناع بقية صنوف الأسلحة؛ وخاصة قائد سلاح المشاة؛ بأن هذا هو الطريق الصحيح. وكان ذلك عملاً شاقاً؛ ذلك لأنه لم يكن هناك من يرى أن جماعة قوافل السيارات ووحدات الإمداد والتموين هي جماعة قادرة على إنضاج الأفكار الجديدة والخصبة في المجال التكتيكي (التعبوي) أو على مستوى العمليات. وكانت تعتبر أن صنوف الأسلحة القديمة: مثل المشاة والفرسان؛ هي الأسلحة الهامة والأساسية. وما دام هناك اعتراف بأن المشاة هي (ملكة ساحة المعارك)، وما دامت المدرعات محرمة على الجيش الألماني بموجب معاهدة فرساي، فإنه لم يبق ثمة من يملك سلاح القتال الذي تم تصميمه. وكانت دبابات الصاج الزائفة تتخذ في المناورات شكلاً هزلياً (كاريكاتورياً) أمام مقاتلي الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى) حتى إنهم كانوا يشفقون على وحدات المدرعات؛ دون أن يحاولوا فهم غودريان ونواياه. فكانوا يقبلون اعتبار الدبابات على أنه سلاح مساعد للمشاة؛ إلا أنهم كانوا يرفضون الإعتراف بقيمة هذا السلاح الهام والجديد».

نشب صراع قوي بلغ ذروته عندما نشأ الخلاف بين غودريان وجماعة المدرعات من جهة وبين قيادة سلاح الفرسان من جهة ثانية؛ فقد أصر سلاح الفرسان على التمسك بالواجبات القتالية، وترك للوحدات المحمولة بالسيارات مهمة (الاستطلاع في العمليات). وقبل رجال المدرعات بهذا الواجب المتواضع، وانطلقوا منه لتدريب مجموعاتهم على أعمال الاستطلاع. كما أخذوا في تشكيل

مجموعات آلية للدفاع ضد المدرعات في جميع فرق المشاة. وكان بعضها يتمتع بسرعة الدبابات ذاتها، وذلك لضمان النجاح في ظروف القتال الحقيقي. ولم يلبث قائد الفرسان كونشنهاور الذي كان في الأصل من سلاح المشاة، أن عمل على تنظيم فيلق من الفرسان يضم ثلاث فرق — في جيش تعداده لا يتجاوز مئة ألف رجل— وحاول أن يعيد لسلاح الفرسان مهمته الاستطلاعية؛ وذلك بإعادة ضم التشكيل المدرع الأول إلى قواته. فكان من نتيجة ذلك أن انضم عدد كبير من الضباط الفرسان إلى التشكيل المدرع؛ وأدى ذلك إلى تصاعد حدة النقاش والجدل حتى بلغ درجة لا تطاق. واستطاع أنصار الأفكار الجديدة وباعثيها التغلب على أنصار الفكر المحافظ (التقليدي) وانتصر المحرك على الحصان؛ كما انتصر المدفع على الرمح.

كان للعتاد أهميته في تطبيق الأفكار الجديدة، مثله كمثل التنظيم والاستخدام. وكانت ألمانيا قد قطعت مجالاً في مضمار التقدم الفني؛ وذلك منذ أن أقامت مركزاً للتجارب سنة ١٩٢٦ في قازان من الاتحاد السوفييتي. وكانت قيادة الجيش الألماني قد أوصت بصنع نموذجين من الدبابات المتوسطة وثلاثة نماذج من الدبابات الخفيفة. فكان مجموع نماذج الدبابات عشراً. وقد سلحت الدبابات المتوسطة بمدافع من عيار ٧٥؛ في حين سلحت الدبابات الخفيفة بمدافع من عيار ٣٧. ولم تصنع النماذج من الفولاذ الخاص بالدروع؛ وإنما صنعت من الفونت. وكانت سرعة هذه النماذج في حدود ٢٠ / كم — ساعة وحتى ٣٥ — ٤٠ كم ساعة عند السير على الطرق أو في الأراضي المنبسطة. ولقد حرص المسؤولون عن التصنيع بأن تكون هذه النماذج مطابقة لمختلف المتطلبات الحديثة: محكمة السد ضد الغازات؛ وتمتلك قدرة فائقة على عبور المخاضات واجتيازها؛ وأن يستطيع رشاش البرج والمدفع الرمي في جميع الاتجاهات؛ وأن تكون الدبابة ذات ارتكاز جيد على الأرض؛ وتوافر إمكانية المناورة بسهولة. إلا أنه ظهرت لدى التجربة بعض الأخطاء؛ فقد كان مكان قائد الدبابة بالقرب من مكان السائق في مقدمة الدبابة؛ مما كان يحرم القائد من إلقاء أية نظرة إلى الخلف. كما كان اهتزاز السلاسل وعمق المقعد لا يسمحان بأكثر من مراقبة محدودة للجانب. ولم تكن الدبابة مجهزة باللاسلكي. فكان لا بد من صنع نماذج جديدة تعالج هذه الأخطاء.

كان رجال الدبابات، وعلى رأسهم غودريان، يفكرون خلال تلك الفترة بأن التجهيز النهائي للفرق المدرعة يتطلب توافر نوعين من الدبابات: دبابة خفيفة مسلحة بمدفع مضاد للدبابات، وبرشاش مركب على البرج وبرشاش مركب على الجسم. ودبابة متوسطة مسلحة بمدفع أكبر، وبرشاش مركب على البرج وبرشاش آخر مركب على الجهسم. وينبغي وضع الدبابة الخفيفة في تنظيم ثلاث سرايا خفيفة للمجموعة المدرعة؛ ووضع الدبابة الثانية —المتوسطة— في بقية السرايا من كل مجموعة، حتى تستخدم في أثناء القتال لدعم الدبابات الخفيفة؛ والرمي على الأهداف التي يتم

اكتشافها. وكان على الدبابة أن لا تزن في مجموعها أكثر من ٢٤ طناً. وهو الحد المقرر لاستطاعة حمولة الجسور الألمانية. وحددت السرعة المطلوبة بأربعين كيلو متراً في الساعة.

لاحظ غودريان أن العدد النموذجيّ لسدنة الدبابة يجب أن يضم خمسة رجال هم: السائق وعامل اللاسلكي ومكانهما في المقدمة؛ ثم قائد الدبابة والرامي والملقم وأمكنتهم في البرج. وطلب إلى صانعي الدبابة بأن يكون مقعد قائد الدبابة هو فوق مقعد الرامي وتحت بريج القيادة المجهز بفتحات أو نوافذ من جميع الاتجاهات. وأن يتوافر للدبابة مذياع حلقي لمساعدة قائد الدبابة في توجيه السدنة مع تأمين الاتصال اللاسلكي بين الدبابات لقيادتها وتنسيق التعاون بعضها مع بعض. ولاحظ غودريان من خلال تجاربه ذلك الارتباط العميق بين التطورات الفنية (التقنية) المطلوبة؛ وبين ما تؤثره هذه التطورات في استخدام الدبابات على المستوى التكتيكي؛ وعلى مستوى العمليات.

أدرك غودريان أن الوصول إلى صناعة النماذج المطلوبة من الدبابات الحديثة قد يتطلب سنوات عديدة، فكان لا بد من تأمين (آلية) للتدريب. وتم شراء (آلية غاردن لويد) من انكلترا. وتم تركيب مدفع مضاد للطائرات من عيار ٢٠ مم على هذا الهيكل الذي كان من المفروض أن يسلح برشاش فقط. ودخل هذا العتاد في الخدمة باسم (المدرع ١). وتم بعدئذ صنع (المدرع ٢) في معمل مان بألمانيا وسلح بمدفع ٢٠ مم وبمدفع رشاش أيضاً. وجربت ألوية المشاة المدعومة بمفارز مدرعة ومجهزة بهذا العتاد المزيف في مناورات سنة ١٩٣٢. فكانت هي المرة الأولى ــ منذ معاهدة فرساي ــ التي ظهرت فيها آليات مصفحة ألمانية مجهزة بالرشاشات. وكان ذلك تدبيراً مؤقتاً؛ لأن المصنع ركب للصفائح الفولاذية الواقية على هياكل عربات النقل ذات الدواليب (العجلات) الستة. وشعر طلاب المدارس بخيبة أمل؛ لأنهم لم يتمكنوا من ثقب الدبابات الكاذبة بأقلامهم ليروا ما بداخلها؛ على نحو ما كانوا يفعلونه من قبل. كما أصيب جند المشاة بخيبة الأمل ذاتها؛ إذ لم تتمكن حجارتهم التي كانوا يقذفونها على الدبابات من وضع هذه الدبابات خارج القتال؛ مثلما كان يحدث من قبل. وأصبح للمدرعات قدرة جديدة لدخول الحرب. والأهم من ذلك هو أنها اكتسبت المزيد من الأنصار في وسط الضباط الشباب؛ وفي وسط القادة. وكانت مناورات سنة ١٩٣٢ هي المناورات الأخيرة التي اشترك فيها الماريشال فون هندنبورغ. وقد تدخل في توجيه النقد النهائي للأخطاء المرتكبة. وقد أبدى القائد العجوز ملاحظة عن قيادة فيلق الفرسان؛ فقال: «**تؤدي البساطة وحدها إلى النجاح في الحرب؛ كنت في هيئة أركان فيلق الفرسان؛ وما لاحظته لم يكن سهلاً**». وكان في قوله هذا عين الصواب؛ وكان إطراء غير مباشر لجهود غودريان.

تمت تسمية هتلر قائداً عاماً في سنة ١٩٣٣؛ فانقلبت سياسة الرايخ داخلياً وخارجياً رأساً

على عقب؛ وتبع ذلك تغيير في المجال العسكري؛ فتم تعيين فون بلومبرغ[٢٥] وزيراً للدفاع؛ مع إجراء تغييرات في قيادة القوات البرية والبحرية والجوية. وكان لذلك أثره الكبير في تطوير مشاريع غودريان وأعماله. فقد اكتسب ثقة بأن طلباته من القيادة ستجد من يدعمها ويتفهمها. كما أظهر هتلر ذاته اهتماماً خاصاً بتطوير آليات الوحدات المدرعة؛ وبرهن لغودريان على ذلك خلال عرض العتاد الجديد في كومرسدورف حيث خصص له نصف ساعة لتقديم عناصر وحدة النقل. وقام غودريان بعرض فصيلة من الرماة راكبي الدراجات النارية؛ وفصيلة من العناصر المضادة للدروع؛ وجماعة مدرعات ونموذجاً قيد التجربة؛ وجماعة من عناصر الآليات الخفيفة المسلحة بالرشاشات وجماعة أخرى من عناصر الآليات الثقيلة المسلحة بالرشاشات أيضاً. وتأثر هتلر بحركات هذه الوحدات ودقتها؛ فصرخ مرات متتالية: «**هذا ما يلزمنا ! هذا ما أريده !**».

اقتنع غودريان بأن هتلر سيدعم مفهومه بتشكيل جيش حديث؛ إذا ما استطاع أن يجد الطريقة المناسبة لعرضه عليه. ولكن كيف السبيل في ظل نظام التسلسل العسكري؛ والنظام الألماني بصورة خاصة؟. وكان لا بد من انتظار الفرصة المناسبة. فاستمر غودريان في تشكيل الوحدات المدرعة بجد ومثابرة؛ وأظهرت المناورات التجريبية والتدريبية في العام ١٩٣٣؛ وبعتاد زائف؛ المعطيات الواضحة عن تعاون الصنوف. فزاد غودريان اعتقاداً راسخاً ــ من خلال هذا السلاح الجديد ــ بأنه سيكون للدبابات مردود عظيم، إذا ما استخدمت سلاحاً رئيساً؛ وتكونت منها فرق تشترك معها الأسلحة الإضافية الأخرى؛ على أن تكون هذه الأسلحة بدورها آلية. كان التطور التعبوي (التكتيكي) يلقى بعض الإرتياح؛ في حين كان تطور العتاد المدرع مثيراً لشيء من التشاؤم؛ ذلك أن معاهدة فرساي؛ والتي فرضت قيوداً على الصناعة الألمانية، قد عملت على تجميد الانتاج الحربي لأكثر من عشر سنين؛ وباتت هذه الصناعة تفتقر إلى الاختصاصيين؛ ولا سيما في إنتاج الوسائط التي كان يحتاجها رجال المدرعات؛ والاستجابة لرغباتهم بسرعة؛ واعترضتهم صعوبات جمة لم يكن أقلها تحديد مواصفات الفولاذ المناسب للتصفيح؛ والذي يتمتع بقوة كافية. ولقد انكسرت الصفائح الأولى التي انتجت كما يتكسر الزجاج. وكان لا بد من انتظار فترة غير قصيرة قبل تأمين المتطلبات التي كان يصر غودريان على وضعها في الدبابة وأولها الأجهزة اللاسلكية ووسائط الرصد والمراقبة.

(٢٥) بلومبرغ: Von Werner Blomberg جنرال ألماني ١٨٧٨ ــ ١٩٤٦ وأصبح وزيراً للحرب ١٩٣٣ ــ ١٩٣٨ دعم هتلر بحماسة لتسليمه السلطة يوم وفاة الماريشال هندنبورغ في ٢ آب ــ اغسطس ــ ١٩٣٤؛ ووضع الجيش الألماني بكامله خلف زعيم الرايخ الجديد هتلر الذي تولى سلطات القيادة العليا للقوات المسلحة؛ وما لبث هتلر أن أطاح بالجنرال بلومبرغ في يوم ٤ شباط ــ فبراير ــ ١٩٣٨، بحجة زواجه من بغي (عاهرة). وأخذ هتلر على عاتقه سلطات بلومبرغ وأعماله.

عين الجنرال البارون فريتش[٢٦] قائداً للقوات المسلحة البرية في خريف عام ١٩٣٣ ؛ وأصبح على رأس الجيش الآن رجل يثق به الضباط جميعاً. وكان يتحلى بخلق نبيل؛ يقدر التكتيك والاستراتيجية حق قدرهما؛ ويعالج مشكلاتهما بمنطق سليم. لم يكن موهوباً من الناحية الفنية؛ إلا أنه كان على استعداد دائم لقبول الأفكار الجديدة؛ بدون حكم مسبق؛ ويتبناها إذا ما اقتنع بها. وقد وجد فيه غودريان مدافعاً عن آرائه ومفاهيمه. وعندما تسلم فريتش عمله الجديد؛ قابله من جديد غودريان فوجد أنه لا زال كعهده، من حيث استعداده لدعم المدرعات، وعرض عليه مسألة تخص التطور الفني؛ فقال فريتش ولا زال الشك يراوده: «**يكذب الفنيون جميعاً؛ ألا تعلم ذلك ؟**» **فأجابه غودريان: «هذا صحيح؛ إنهم يكذبون أحياناً؛ ولا يمكن ملاحظة ذلك قبل مضي سنة أو سنتين؛ حيث تصبح أفكارهم غير سارية المفعول؛ وقد تجاوزها الزمن. والتكتيكيون يكذبون أيضاً؛ ولكن في هذه الحال؛ فإنه لا يمكن إدراك ذلك إلا بعد خسارة الحرب الآتية؛ ويكون ذلك بعد فوات الأوان»**. **وأجاب فريتش: «قد تكون على صواب»**.

لقد استطاع غودريان اكتساب فريتش إلى جانبه؛ غير أنه كانت هناك عقبة أخرى لا بد له من التعامل معها؛ فقد كان رئيس هيئة الأركان الجنرال بك على ما عرف عنه من القدرة والكفاءة؛ رجلاً صلباً. فتقدم إليه غودريان من أجل مناقشته في قضية تشكيل الفرق المدرعة؛ ووضع أنظمة القتال للوحدات المدرعة. واستطاع غودريان إقناعه بتشكيل فرقتين — في حين كان غودريان يطالب من قبل بتشكيل ثلاث فرق — ووصف له غودريان ميزات الوحدات الجديدة، بعبارات جذابة ومثيرة؛ وشرح أهميتها على مستوى العمليات؛ فأجابه بك: «كلا ! كلا ! لا أريدك أنت؛ إنك تسير بسرعة كما أرى». فبين له غودريان أن تطور الأجهزة اللاسلكية سيساعد على عمل القيادة؛ على الرغم من سرعة الوحدات الكبيرة. ولكن الجنرال بك لم يقتنع؛ كما رفض فكرة اندفاع قادة التشكيلات المدرعة إلى الأمام؛ وحتى إلى خطوط التماس مع العدو.

شكلت قيادة الوحدات الآلية في ربيع العام ١٩٣٤؛ وعين غودريان رئيساً لهيئة أركانها؛ وفي هذه الفترة كانت ألمانيا تعيش على فوهة بركان متفجر في أعقاب تسلم هتلر وحزبه للسلطة. وفي تلك المرحلة الصعبة، نزلت الكارثة بألمانيا؛ فقد توفي الفيلدماريشال فون هندنبورغ في

(٢٦) الجنرال فريتش: Baron Werner Von Fritsch قائد ألماني ١٨٨٠ — ١٩٣٩ تسلم رئاسة هيئة الأركان العامة الألمانية سنة ١٩٣٣. اصطدم مع وزير الدفاع بلومبرغ بسبب الأسلوب الوحشي الذي استخدمه هتلر في القضاء على خصومه ليلة السكاكين الطويلة في ٣٠ حزيران — يونيو — ١٩٣٤. وأسهم في إقالة بلومبرغ وكان هو أقرب المرشحين لخلافته. إلا أن هتلر ورئيس الوحدات الخاصة س. س هملر؛ ابتدعا تهمة ضده، وهي انحرافه الجنسي (تعاطي اللواط). وأعلن عن إقالته مع إقالة بلومبرغ يوم ٤ شباط — فبراير — ١٩٣٨. حيث تم تعيين الجنرال براوختش قائداً للجيش. وقتل فريتش. ولعله مات منتحراً.

٢ آب ـــ اغسطس ـــ ١٩٣٤ . وترك شعبه في مرحلة ثورة داخلية ذات نتائج مجهولة . وكتب غودريان إلى زوجته في ذلك اليوم : « **توفي قائدنا العجوز ؛ وقد أحزنتنا هذه الخسارة التي لا يمكن تعويضها . كان في الحقيقة أباً لهذا البلد ؛ ولا سيما لجيشنا ؛ ولا يمكن إملاء الفراغ الكبير الذي يتركه زواله في نفوس شعبنا . وسنلقى صعوبات في التعويض عنه . إن وجوده فقط كان ثميناً جداً في نظر الأجنبي أكثر من الكلمات الطيبة والمعاهدات المكتوبة . لقد وثق العالم به . ونحن الذين أحببناه ومجدناه ؛ نفتقده الآن كثيراً ... إننا سنقوم غداً بأداء القسم أمام هتلر ؛ ونتيجة القسم خطيرة ؛ فأدعو أن يتقيد به الطرفان لصالح ألمانيا . لقد تعود الجيش على التمسك بقسمه ؛ وأرجو أن يتقيد بشرفه ! ... إن على الناطقين باسم المنظمات الإفادة من هذه المناسبة للتخلي عن كل تكبر ؛ والتخلي عن خطبهم . ويكفي الوفاء بالواجب والعمل بصمت** » .

لقد عبر غودريان ، بكلماته هذه ، عن مشاعره ومشاعر زملائه في القيادة ؛ بل عن مشاعر قسم كبير من شعبه . ووقف بحزن يوم ٧ آب ـــ اغسطس ـــ ليشهد دفن الماريشال قائد الرايخ في نصب تننبرغ التذكاري . واستمع إلى هتلر وهو يلقي الكلمات التأبينية التالية :

« **والآن ادخل إلى الفردوس أيها القائد الحربي الراحل** » .

أصبح هتلر اعتباراً من يوم ٢ آب ـــ اغسطس ـــ هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ؛ إلى جانب سلطات رئيس الرايخ . فقامت بذلك دكتاتورية ذات صلاحيات لا حدود لها .

أمضى غودريان ما بقي من العام ١٩٣٤ وهو يبذل أقصى جهد ممكن . وتلقى كل عسكري في الجيش الألماني قرار هتلر بإلغاء (معاهدة فرساي) بفرحة غامرة ، وفي ١٦ آذار ـــ مارس ـــ ١٩٣٥ ؛ أصدر هتلر قراراً جديداً أكد فيه سيادة ألمانيا (بإعادة الخدمة العسكرية الإجبارية في ألمانيا) . واندفع غودريان لتطوير (السلاح المدرع) وركز جهده على تدريب القيادات . وسرعان ما أثمرت جهوده ؛ وظهر ذلك واضحاً في مناورات صيف ١٩٣٥ ، والتي دامت أربعة أسابيع ، واشتركت فيها فرقة مدرعة ـــ بوحدات رمزية ـــ وحضر المناورة بلومبرغ وفريتش . وكانت النتائج مثيرة للغاية ؛ حتى أن الجنرال فريتش علق مازحاً عندما تم إلقاء المنطاد الكروي الأصفر ، إيذاناً بانتهاء المناورات ، فقال : « **لم يبق سوى الكتابة على المنطاد : دبابات غودريان هي الأحسن والأفضل** » .

تم تشكيل ثلاث فرق مدرعة ؛ واسندت إلى غودريان قيادة فرقة منها في وورسبورغ . فغادر مكتبه في الوزارة ؛ بتاريخ ١٥ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ ١٩٣٥ ، ليتولى قيادة فعلية ؛ وخيل إليه أن الأمور قد استقامت ؛ وأنه باستطاعة السلاح المدرع المضي قدماً على الطريق الذي أراده له . غير أن الأمور سارت على منحى آخر ؛ فقد عملت القيادة على تلبية طلبات الفرسان القديم ؛ فشكلت مجموعة من الوحدات التي أطلق عليها اسم (الفرق الخفيفة) وكانت تضم كل منها لواءي رماة آلية

ولواء استطلاع ولواء مدفعية ومجموعة دبابات وعناصر أخرى من أسلحة أخرى. كما شكلت أربع فرق آلية يتم نقل جنودها على عربات نقل عادية؛ وكان في ذلك تبديد للجهد؛ وبعثرة للإمكانات. وكان لزاماً على غودريان تصحيح هذا الاتجاه. ولكن؛ وبانتظار الظروف المناسبة لإجراء مثل هذا التصحيح؛ مضى غودريان لمتابعة الجهد في تشكيل الوحدات الجديدة، من مختلف صنوف الأسلحة المرافقة للفرق المدرعة. وقد رفع غودريان إلى رتبة عميد في ١ آب ــ اغسطس ــ ١٩٣٦؛ وكان في أثناء ذلك يعد لإصدار كتابه: (انتبه! الدبابات) والذي أنجزه وأصدره في شتاء ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧. فأبرز فيه طرائق هجوم الدبابات في مجال (حرب الحركة)، كما حلل عوامل القوة في الأسلحة الحديثة (المدرعات) وهي: التصفيح؛ والحركة؛ والقدرة النارية. وقد جاءت المناورات المتتالية لتؤكد مفاهيم غودريان؛ ولتثبت صحتها. ولكن بالرغم مما أمكن تحقيقه من نجاحات متتالية؛ فقد بقي هناك من يراوده الشك بقدرة السلاح المدرع على العمل بصورة مستقلة؛ إلا أن أصوات المعارضة بدأت في التراجع التدريجي.

○

ما إن أطل عام ١٩٣٨ حتى بدأت الأحداث في التسارع؛ في حياة ألمانيا بصورة عامة؛ وفي حياة غودريان بصورة خاصة؛ فقد تم ترفيعه ترفيعاً استثنائياً وغير متوقع في ليل ٢ ــ ٣ شباط ــ فبراير ــ وطلب إليه التقدم لمقابلة هتلر في يوم ٤ منه؛ وأبلغ وهو في طريقه للمقابلة بتعيينه قائداً للفيلق ١٦. ولما وصل إلى مقر القيادة؛ علم بإقالة بلومبرغ وفريتش، وتعيين كيتل[٢٧] بمنصب وزير الدفاع، وعين جودل[٢٨] رئيساً لهيئة الأركان العامة؛ ومساعداً لكيتل. وكانت مقابلة غودريان للفوهرر، بمثابة مقابلة رتيبة (روتينية) لم يتخللها ما هو مثير.

تم استدعاء غودريان لمقابلة رئيس هيئة أركان الجيش يوم ١٠ آذار ــ مارس ــ حيث تم إعلامه بقرار الفوهرر بضم النمسا إلى الرايخ؛ ضماً عسكرياً إذا اقتضى الأمر. ولهذه الغاية؛ يجب على بعض الفرق أن تنتظر تلقي أمراً بالتحرك. وقيل له: «**يجب عليك أن تتسلم فرقتك القديمة، فرقة البانزر الثانية، وقيادة الوحدات الآلية في هذه العملية**».

(٢٧) كيتل: Keitel, Wilhelm جنرال ألماني ١٨٨٢ ــ ١٩٤٦ أصبح رئيساً لدائرة وزارة الحرب سنة ١٩٣٥؛ ثم أصبح وزيراً للدفاع في شباط ــ فبراير ــ ١٩٣٨ بعد أن أقال هتلر وزير الدفاع بلومبرغ واضطلع هو بأعماله؛ وهو الذي وقع وثيقة الاستسلام للحلفاء في ٩ أيار ــ مايو ــ وحكمت عليه محكمة نورمبورغ بالموت فأعدم في ١٦ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤٦.

(٢٨) جودل: Jodl, Alfred ١٨٩٠ ــ ١٩٤٦ قائد ألماني، عمل رئيساً لهيئة الأركان العامة الألمانية طوال الحرب العالمية الثانية. وهو الذي وقع وثيقة الاستسلام غير المشروط للحلفاء، حكمت عليه محكمة نورمبورغ بالموت، ونفذ الحكم في ٢٣ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٦.

عاد غودريان إلى مكتبه ؛ في الساعة ١٦ر٠٠ تقريباً ؛ وشرع في اتخاذ الإجراءات الملائمة ، حتى إذا ما كانت الساعة ٢٠ر٠٠ طلب إليه العودة إلى رئاسة هيئة الأركان العامة من جديد ؛ حيث أبلغ الأمر باستنفار فرقة البانزر الثانية ؛ ولواء أدولف هتلر وجمعهما قرب باسو حيث كان على جميع القوات التي ستجتاح النمسا أن تحتشد . وعاد غودريان إلى مقر قيادته ؛ وأصدر أمره باستنفار فرقة البانزر الثانية ولواء أدولف هتلر . ولما كان قائد الفرقة الثانية وضباط هيئة أركانها قد انتقلوا إلى مدينة تريف على وادي الموزل بمهمة دراسية ؛ فقد اضطر غودريان لنقل الضباط إلى منطقة الحشد بالسيارات ؛ واستطاع رغم كافة العوائق إطلاق القوات للتحرك في الوقت المحدد وبدون أية إضاعة للوقت . وكانت المسافة التقريبية بين مكان تمركز فرقة البانزر الثانية في منطقة ورزبورغ وبين مدينة باسو زهاء ٤٠٠ كم . والمسافة بين باسو وبين فيينا زهاء ٢٨٠ كم . بينما كانت المسافة بين برلين وبين فيينا ٩٦٢ كم . وكان غودريان يأمل في تحقيق ضم النمسا بطريقة سلمية ؛ وبدون قتال . فقد تقدم بطلب إلى الفوهرر أن يسمح له بتزيين الدبابات بالأعلام وأغصان الأشجار الخضراء ؛ ووافق الفوهرر بعد نصف ساعة فقط من إرسال الطلب . وانتقل غودريان إلى مقر هيئة أركان فيلقه (الفيلق ١٦) في باسو في الساعة ٢٠ر٠٠ من يوم ١١ آذار — مارس — وكان أمر التحرك قد حدد الساعة ٨ر٠٠ من صباح يوم ١٢ آذار — مارس — موعداً لبدء المسير نحو الحدود النمساوية . ودفع غودريان قوة من مجموعة الاستطلاع الخامسة والسابعة ومن كتيبة الرماة الثانية (راكبي الدراجات) للتحرك أمام فرقته ؛ ولدى الوصول إلى الحدود ، قام الجنود النمساويون برفع الحاجز ؛ واستقبلوا القوات بالتحية والترحاب . ووجه غودريان قوة المقدمة نحو سان بولتن ومضى على رأس الكتلة الرئيسة لقوات فرقة البانزر الثانية ؛ وبقي لواء أدولف هتلر في مؤخرة الرتل . وكانت جماهير الشعب النمساوي تستقبل قوات غودريان في كل مكان بالزهور والترحاب . وخرج جنود الحرب العالمية الأولى القدامى ؛ واستقبلوا القوات استقبالاً ودياً ؛ وقد زينوا صدورهم بالأوسمة . فيما كان السكان يسرعون لتقديم المؤن والطعام للجنود ، ويشدون على أيديهم ، ودموع الفرح تنهمر على وجنات الكثيرين من أبناء الشعب ، الذي تحقق حلمه بتحقيق وحدة (الشعب الواحد) .

تقدم غودريان على محور واحد ، هو المحور الذي يمر بمدينة لينز . ووصلها بعد الظهر بقليل ، حيث استقبلته السلطة المحلية استقبالاً ودياً . وبعد تناول طعام الغداء ؛ وبينما كان يهم بمغادرة المدينة إلى سان بولتن التقى بقائد الوحدات الخاصة س . س هملر ومعه وزيران نمساويان ؛ فأعلموه أن الفوهرر سيصل إلى المدينة في الساعة ١٥ر٠٠ تقريباً ؛ وطلبوا إليه إقامة الحواجز في طرق لينز وسوقها . واشتركت حامية الجيش الفيديرالي النمساوي في الاستقبال . وازدحمت الطرقات والساحات بأكثر من ستين ألف مواطن نمساوي . ووصل هتلر في المساء . فاستقبله غودريان عند مدخل المدينة ، وشاهد — مما شاهده وسمعه — في ذلك اليوم التاريخي ؛ دخول هتلر الظافر إلى المدينة ،

والخطاب الذي ألقاه في شرفة دار الحكومة. إنه لم يشاهد قط قبل ذلك ولا بعده حماسة مثل حماسة ذلك اللقاء. وتأثر هتلر، حتى انهمرت الدموع من عينيه. وتوجه غودريان بعد ذلك إلى الفندق الذي خصص لإقامة الفوهرر؛ حيث استأذنه في استئناف التحرك نحو العاصمة فيينا.

غادر غودريان مدينة لينز في الساعة ٢١ر٠٠؛ ووصل إلى سان بولتن عند منتصف الليل؛ ووصل إلى مدينة فيينا وسط عاصفة من الثلوج في الساعة الواحدة من فجر يوم ١٣ آذار ــ مارس ــ ١٩٣٨. وكانت التظاهرات الكبيرة بالمشاعل احتفالاً بالإنضمام إلى ألمانيا قد انتهت. إلا أن الشوارع بقيت مكتظة بالسكان. وقد استثار ظهور الوحدات الألمانية حماسة الجماهير؛ فقامت مقدمة قوات غودريان بإجراء عرض أمام دار الأوبرا ــ على وقع موسيقى الفرق العسكرية الفيديرالية ــ وأخذ غودريان بعضاً من الراحة، وفي الصباح قام بزيارة لقادة الجيش النمساوي الذين استقبلوه بحفاوة بالغة. ثم شرع باتخاذ الترتيبات لإجراء العرض العسكري الكبير الذي حدد موعده في يوم ١٥ آذار ــ مارس ــ والذي تقرر أن تشترك فيه القوات النمساوية الفيديرالية إلى جانب القوات الألمانية. وبعد إجراء العرض؛ قام غودريان بزيارة الوحدات النمساوية المختلفة، لمعرفة قواتها وقدراتها، ودمجها بالقوات الألمانية. وفي أثناء ذلك؛ قام غودريان بإجراء تقويم موضوعي لعملية التحرك نحو فيينا؛ واستخلص بعض الدروس الهامة التي كان منها:

أولاً: لقد تحركت القوات دون إعداد مسبق للعملية؛ مما أظهر أهمية التدريب النظري لضباط هيئة الأركان والذين استطاعوا قيادة قواتهم بكفاءة، رغم أن المسير كان مغامرة بالنسبة للفرق المدرعة.

ثانياً: قامت فرقة البانزر الثانية بمسير ٧٠٠ كم؛ كما سار لواء أدولف هتلر مسافة ١٠٠٠ كم؛ وذلك خلال أقل من ٤٨ ساعة. وأمكن تنفيذ الواجبات بدقة.

ثالثاً: أظهر هذا التحرك عجز ورشات الإصلاح والصيانة ــ ولا سيما ورشات إصلاح الدبابات ــ عن إجراء الإصلاحات الطارئة بصورة سريعة. فكان لا بد من الإسراع باستدراك هذا الضعف.

رابعاً: أظهر هذا التحرك أن التموين بالوقود كان بدائياً؛ كما أنه لم يتم أي إمداد بالذخائر، نظراً لعدم استخدام الأسلحة؛ إلا أنه كان لا بد من إعادة النظر بنظام الإمداد بالوقود والذخائر.

خامساً: بالرغم من ذلك كله؛ فقد برهن التحرك على صحة الأسس النظرية لاستخدام الفرق المدرعة في العمليات. وتعلمت القيادة من هذا التحرك كثيراً من الدروس في مجال قيادة القوات المدرعة.

بقيت فرقة البانزر الثانية في منطقة فيينا. ووجه إليها بداية من فصل الخريف مجندون نمساويون. وعاد غودريان إلى برلين في شهر نيسان ــ ابريل ــ ومعه هيئة أركان الفيلق ١٦ والفرقة

الخاصة؛ أما فرقة البانزر الرابعة فقد شكلت في خريف العام ١٩٣٨ . وأمضى غودريان فصل الصيف لعام ١٩٣٨ في العمل الذي فرضته عليه واجبات قائد الفيلق في ظروف السلم. وقد تطلب هذا العمل منه صرف وقته الكامل بين تفتيش الوحدات الموضوعة تحت قيادته؛ وبين متابعة استعداداتها القتالية والإشراف على تمارينها ومناوراتها. وتلقى خلال هذه الفترات زيارات من قبل المسؤولين؛ وزاره هتلر أيضاً؛ وأفاد من هذه الزيارات للتحدث بشأن المدرعات ومتطلباتها واستخدامها. وكان في الوقت ذاته؛ يتابع عن كثب النشاط السياسي الذي كان يبذله هتلر على المستوى السياسي؛ وعلى المستوى الداخلي؛ لتحقيق ما كانت تتطلع إليه جماهير الشعب الألماني لاكتساب المزيد من القدرة الذاتية؛ وإيجاد المجال (الحيوي لألمانيا).

○

التفت هتلر بعد ضم النمسا إلى ضم السوديت(٢٩) فأجرى اتصالات مع التشيك على أمل حل المشكلة سلمياً؛ غير أن الاتصالات لم تسفر عن نتيجة إيجابية؛ وظهر أنه لا بد من الاحتكام للسلاح. فتم وضع فرقة البانزر الأولى؛ وفرقتي المشاة الآليتين الثالثة عشر والعشرين ووضعت تحت تصرف الفيلق السادس عشر بقيادة غودريان الذي نقل مقر قيادته إلى بلون في مقاطعة فوجتلاند.

رافق هتلر الفيلق ١٦ خلال اليومين الأوليين من تحركه؛ حيث بدأت الفرقة الأولى للبانزر مسيرها من شام إلى إبنتسوك في مقاطعة ساكس. فقطعت مسافة ٢٧٣ كم. ثم اشترك مع فرقة المشاة الآلية ١٣ في ليلتي ٣٠ أيلول ــ سبتمبر ــ و ١ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وبعد ذلك، من ١ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ إلى ٢ منه، قامتا بالمسير من ضواحي كرافنوهير نحو الشمال؛ استعداداً للدخول إلى إيجرلاند بدون قتال. وكان مسيراً رائعاً. **وتوقف غودريان يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ على خط الحدود قرب آش وأعلم هتلر أن فرقته قد دخلت إلى المنطقة**. ومن ثم ذهب نحو بحر إيجر لتناول فطوره؛ وسرعان ما لحق به هتلر؛ حيث قدم له حساء بلحم البقر مما كان يتناوله جنود غودريان. فاكتفى هتلر بتناول بعض قطع البطاطا، ولم يتناول الحساء، وطلب إحضار فطوره للنهار التالي بدون لحم. وجرى بعد ذلك استقبال فخم لهتلر في إيجر؛ حيث قدم المواطنون

---

(٢٩) السوديت: Sudètes منطقة جبلية في تشيكوسلوفاكيا، تقع بين بوهيميا وسيليزيا؛ وتمتد من جبال الكاربات حتى ضفاف نهر ألبا لمسافة ٢٠٠ كيلو متراً. وتشتهر المنطقة بغاباتها الجميلة؛ وثرواتها الباطنية الهامة (المناجم). وقد استقر الألمان في هذه المنطقة؛ إلا أن السلاف (التشيك) عاملوهم بقسوة لتهجيرهم؛ فتدخل هتلر وضم السوديت لألمانيا ١٩٣٨ ــ ١٩٤٥. وقد أعيدت إلى تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الثانية، فتعرضت لحركة هجرة واسعة، حيث غادر الألمان منطقة السوديت التي تبلغ مساحتها ٢٨٩٧٠ كم إلى ألمانيا؛ وحل محلهم سكان سلاف.

الألمان لتحيته وهم في زيهم الشعبي. وفي اليوم التالي ٤ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ انتظر غودريان ضيفه هتلر في عربة هيئة الأركان التابعة لفرقة البانزر الأولى. وجرى في أثناء تناول طعام الغداء حديث عبر فيه كل واحد عن سروره العظيم بتجنب القتال. وكان هتلر يحيي الوحدات المتوقفة على امتداد الطريق التي سلكها؛ والبهجة بادية على محياه. وقامت جماهير الشعب باستقبال الوحدات الألمانية استقبالاً حاراً فنثرت عليها الزهور؛ وقدمت لها الأغصان الخضراء. وتقدم غودريان إلى كارلسباد فسبق هتلر إلى المنصة، ونظم سرايا الحراسة (حرس الشرف). وعندما وصل هتلر سار بين صفي الحراسة؛ حتى وصل إلى المكان المخصص له. واستقبلته الجماهير تحت سيول الأمطار المنهمرة بغزارة. وجرت حوادث مؤثرة في بهو مسرح الأوبرا. **كانت النساء والفتيات المرتديات للزي التقليدي الجميل؛ يبكين؛ وقد جثون على الأرض لشدة الفرح. لقد عانى الألمان في مقاطعة السوديت عذاباً كبيراً، وعاشوا حياة البؤس والفقر المدقع. وفرضت عليهم البطالة؛ وتعرضوا للاضطهاد. وفقد الكثيرون منهم الأمل، أما الآن، فقد أصبح الإزدهار ممكناً**. وبدأت مطابخ الفيلق المتنقلة بإعداد الحساء للفقراء؛ إلى أن استطاع الفرع الاجتماعي القيام بعمله. فيما تابع غودريان عمله لاحتلال البلاد الأخرى في المنطقة بين ٧ و ١٠ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ ولهذه الغاية ذهب إلى تبليدز شينو ومر من كادن و ساز حيث استقبلته جماهير الشعب في كل مكان استقبالاً رائعاً ومثيراً. وعاد آلاف الجنود الألمان المسرحين من الجيش التشيكي إلى وطنهم سيراً على الأقدام: وهم يحملون على ظهورهم ما بقي لهم من متاع الدنيا؛ وقد ارتدى معظمهم الزي التشيكي.

انتهت مهمة غودريان بوصول قواته إلى الحدود التشيكية؛ فرجع إلى برلين؛ وعاود اندفاعه للعمل بحماسة؛ حتى إذا ما أشرف شهر تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ على نهايته؛ أقام الحزب الاشتراكي الألماني (النازي) حفلاً لافتتاح بناء فندق هيل في الويمر(٣٠) وحضر هتلر هذا الحفل، ودعي إليه غودريان لأنه كان هو قائد الفيلق ١٦، ورئيس القوات المتمركزة في الويمر. وافتتح هتلر الحفل؛ فتهجم على انكلترا ورئيس وزرائها تشرشل؛ ثم أقيم بعدها حفل شاي؛ ودعي غودريان للجلوس إلى مائدة هتلر حيث جرت بينهما أحاديث عامة في القضايا الدولية. وعندما عاد غودريان إلى برلين بوغت بتعيينه في منصب تم إحداثه جديداً هو (قيادة الوحدات الآلية) يكون بمثابة هيئة تفتيش للوحدات السريعة (الآلية) ورفض غودريان هذا المنصب الذي يبعده عن قيادة فيلقه، رغم معرفته بأن هتلر هو الذي أمر بإحداث هذا المنصب؛ وهو الذي عينه لإشغاله. ومضت أيام عمل

(٣٠) الويمر: Weimar مدينة ألمانية، وهي عاصمة اقليم تورينغ Thuringe وشهدت الويمر أحداثاً تاريخية هامة منذ أيام القوط؛ وكان آخرها إقامة النظام الجمهوري (جمهورية الويمر) والتي بدلت نظام الحكم في ألمانيا سنة ١٩١٩ من الملكي إلى الجمهوري.

بعدها هتلر على استدعاء غودريان، وسأله عن سبب رفضه. فشرح غودريان السبب؛ أو الأسباب؛ مثل القيود التي يفرضها نظام التسلسل والتي تشكل عوائق أمام تطوير السلاح المدرع؛ ومثل الواجبات المحدودة للمنصب الجديد، مقابل ما يتمتع به قائد الفيلق من حرية العمل، ومثل الحاجة لتطوير الفيالق المدرعة مما يجعله في منصبه الجديد على جبهة الصراع مع قادة سلاح الفرسان. وختم حججه بقوله: «**إن السلطات الممنوحة لي لن تتيح لي فرصة التغلب على هذه المقاومات؛ وستقوم اعتراضات ومناقشات عديدة ودائمة؛ ولذلك أرجو إبقائي في منصبي الحالي**». **ورد عليه هتلر بقوله: «كان لا بد من تشكيل هذا المنصب، لأن الجيش يحتاج إلى قيادة مشتركة لتحويل جميع الوحدات الآلية وقوات الفرسان إلى قوات مدرعة. ولا بد لك من إشغال هذا المنصب. وإذا أدت المقاومات التي ذكرتها إلى شل مهام المنصب؛ فستعلمني مباشرة؛ وعندئذ سندخل التجديدات المطلوبة. إني أصدر إليك أمراً عسكرياً بقبول هذا المنصب**».

هكذا؛ رفع غودريان إلى رتبة جنرال قائد فيلق في القوات المدرعة، وعين مفتشاً (للوحدات السريعة). وانتقل إلى مبنى وزارة الدفاع. وأعطيت إليه عناصر هيئة الأركان التي يحتاجها. وما إن شرع غودريان بممارسة أعماله؛ حتى وقع له ما كان يخشاه؛ وما كان يحذره؛ فقد اصطدم بمقاومات لا نهاية لها. وعلى سبيل المثال؛ فعندما كتب (أنظمة تدريب المدرعات) وأرسله إلى هيئة التدريب، أعادتها هيئة التدريب له ومع التعليق التالي: «لا يشبه انتشار الدبابات انتشار المشاة؛ المشروع مرفوض». وجاء تسارع الأحداث مرة أخرى ليسهم في دعم غودريان من أجل تحقيق ما يريده.

لقد بدأت المسيرة نحو الحرب؛ ففي شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٣٩، انضمت بوهيميا ـ مورافيا[٣١] إلى الرايخ؛ وأصبحت تحت حماية ألمانيا. ولم تلبث أن وقعت ميمل بدون مقاومة في أيدي الرايخ. ومضى غودريان بسرعة إلى براغ للاتصال بالوحدات المدرعة؛ بتكليف من القيادة العليا؛ بهدف جمع الدروس المستفادة من هذه التجربة الجديدة. وانصرف غودريان خلال فصل الصيف من العام ١٩٣٩ في الإعداد لمناورات الخريف الكبرى للوحدات الآلية، والتي تقرر اجراؤها في جبال اوزغيبرغ باتجاه منطقة السوديت؛ على مستوى الجيش. ثم جاء إلى معسكر

---

(٣١) بوهيميا: Bohéme الاقليم الأكثر أهمية في تشيكوسلوفاكيا. وهو إقليم غرانيتي تحيط به الجبال العالية؛ وتكسوه الغابات ويرويه نهر لاب أو ألبا Labe = Elbe وروافده، وعاصمته براغ أو براها. وتشتهر بوهيميا بخصبها؛ وثرواتها الصناعية؛ ومناجمها. تناوبتها أيدي السلاف والجرمانيين عهوداً طويلة؛ ودخلتها المسيحية في القرن التاسع الميلادي. وأصبحت مملكة مستقلة منذ سنة ١٥٤٥ ثم انضمت الى العرش النمساوي حتى سنة ١٩١٩، حيث أصبحت جزءاً من تشيكوسلوفاكيا.
ـ مورافيا: Moravie اقليم في تشيكوسلوفاكيا يكمل مسطح بوهيميا ويشكل قسماً منه. وعاصمته برنو: Brno = Brunn. ضمته ألمانيا إليها بدون قتال، فكان ذلك سبباً مباشراً لتصعيد التوتر الدولي سنة ١٩٣٩. غير أن الدول الغربية لم تلبث أن تجاوزت هذه المشكلة التي اكسبت هتلر قوة دفع سياسي وعسكري، وأغرته على مهاجمة بولونيا.

غروسبورن في بوميرانيا يوم ٢٢ آب ـــ اغسطس ـــ بهدف إقامة منشآت ميدانية على حدود الرايخ، لوقايتها من هجوم بولوني. وأسهم بالعمل مع هيئة أركان الفيلق التاسع عشر، المشكل حديثاً، والتي دعيت باسم (هيئة أركان تحصينات بوميرانيا). **وكان الفيلق التاسع عشر يضم فرقة البانزر الثالثة؛ وفرقة المشاة الآلية الثانية؛ وفرقة المشاة الآلية العشرين؛ ووحدات من الفيلق لم تدخل في تشكيل الفرق. وقد دعمت فرقة البانزر الثالثة بمجموعة التدريب المدرعة، وسلحت بنوعي الدبابات الجديدين (رقم ٣ ـــ ورقم ٤)**. كما انضمت إلى وحدات الفيلق مجموعة الاستطلاع التدريبية التابعة لدوبرتز ـــ كرامبنتيز. وقد نقلت وحدات التدريب هذه بناء على طلب غودريان حتى تكون أول من يكتسب الخبرات العملية التي يمكن الإفادة منها في المستقبل.

لم يكد غودريان يستقر في معسكر غروسبورن حتى أعلمه قائد الجيش الرابع الجنرال فون كلوك بأن قوات الجيش الرابع ستتجه نحو الجنوب، وأن فيلق غودريان وهو الفيلق ١٩، سيضطلع بمهمة توجيه الضربة الرئيسة في الوسط؛ حيث ستتقدم على يمينه قوات الفيلق الثاني؛ وعلى يساره وحدات حماية الحدود. وحددت مهمة غودريان وفيلقه بما يلي:

«**التقدم بين مدينة زمبولنو ـــ نحو اليمين ـــ ومدينة كونتز ـــ نحو اليسار ـــ واجتياز براه والوصول بسرعة إلى نهر الفيستول لقطع طريق انسحاب الوحدات البولونية الموجودة في الممر البولوني، كما يسمونه، وتدميرها**». وأعلم فون كلوك الجنرال غودريان بأنه ستصدر إليه أوامر لاحقة، لمتابعة التحرك نحو الأهداف التالية. وحدد يوم (ي) بتاريخ ٢٦ آب ـــ اغسطس ـــ صباحاً، وأجل هذا الموعد في اللحظة الأخيرة، ثم صدر الأمر بالإنطلاق للهجوم في يوم ٣١ آب ـــ اغسطس ـــ ١٩٣٩ وفي هذه المرة؛ كان الأمر للإستنفار حقيقياً؛ وحدد غودريان للفرق واجباتها. ووضع فرقة مدرعات البانزر الثالثة على مركز ثقل الهجوم. وانطلقت فرق البانزر في الساعة ٤٫٤٥ من فجر اليوم الأول من أيلول ـــ سبتمبر ـــ ١٩٣٩؛ وعبرت الحدود وسط الضباب الكثيف الذي كان يخيم على المنطقة.

وقعت اشتباكات صغرى مع القوات البولونية؛ أمكن القضاء عليها وتجاوزها بسرعة؛ إلا أن الاشتباك الكبير الأول وقع في غروس ـــ كلونيا شمال زمبلبورغ. وقد انكشف الضباب فجأة بينما كانت الدبابات تتقدم في تشكيل القتال لتصطدم بالجبهة الدفاعية البولونية والتي أصابت مدافعها المضادة للدبابات أهدافها، فقتل ضابط مرشح وثمانية جنود. غير أن القوات المدرعة تابعت تقدمها.

كانت غروس ـــ كلونيا من أملاك البارون هلير فون كايرترنجن وهو من أجداد غودريان. وفيها دفن جده غودريان. وفيها ولد والده. وها هو في موطن آبائه وأجداده للمرة الأولى في حياته.

كانت مقدمة فرقة البانزر الثالثة قد وصلت إلى مدينة براه. وكان عليها وفقاً لأمر العمليات أن تعبر نهر براه منذ اليوم الأول للهجوم. إلا أنها توقفت عنده. فتولى غودريان قيادة الهجوم بنفسه، واختار طريقاً ضيقاً ورملياً حتى وصل مسافة مئة متر من النهر، وأصدر أمره إلى كتيبة راكبي الدراجات النارية الثالثة ــ التي لم تكن قد اشتركت بعد في القتال ــ بعبور النهر بواسطة المراكب المطاطية؛ بعيداً عن المنطقة المضروبة بنار البولونيين، وعندما انتهت هذه الكتيبة من العبور، أصدر أمره إلى الدبابات بالهجوم على الجسر، فتم أسر سرية راكبي الدراجات البولونية التي كانت تدافع عنه. ولم تقع خسائر تذكر. ثم تابعت بقية القوات عبور نهر براه. واندفعت بتدفقها حتى وصلت نهر الفيستول. وعاد غودريان إلى مقر قيادته، وقد تم تحقيق الواجب الأول بنجاح. غير أن هذا النجاح لم يلبث أن جابه عقبات جديدة؛ فقد أعلنت فرقة المشاة المحمولة الثانية في منتصف الليل تقريباً؛ أنها مضطرة للإنسحاب أمام هجمات الفرسان البولونيين. وجابه غودريان هذا الإجراء بالرفض. وتوجه في الساعة الخامسة تقريباً من صباح اليوم التالي، واستلم قيادة فوج كان قد انسحب في أثناء الليل؛ وقاده حتى تمر كاميونكا إلى الشمال من تقاطع غروس ــ كلونيا، وزجه للقيام بعملية تطويق باتجاه توشولسكا. ووصلت مجموعة الاستطلاع المدرعة الثانية إلى نهر الفيستول ليلاً. وتعرضت لخسائر فادحة ــ بالضباط ــ نتيجة التقصير في اتخاذ تدابير الأمن والحيطة. وقامت فرقة البانزر الثالثة بإحباط هجمات البولونيين، ثم خاضت معارك ضارية في الغابات، فيما كانت بقية الفرق تندفع بسرعة في منطقة توشولسكا. واستمر الصراع في اليوم الثالث بعنف، حيث حاولت قوات الفرسان التي كانت تجهل إمكانات الدبابات وقدراتها، الانقضاض بالسلاح الأبيض على الدبابات؛ فارتدت بعد أن تعرضت لخسائر كبيرة. وفي يوم ٤ أيلول ــ سبتمبر ــ أشرفت معركة الممر البولوني على نهايتها؛ وتم تضييق الحصار على القوات البولونية المطوقة. وقام غودريان بتفقد الوحدات، وزار فرقة المشاة الثالثة والعشرون، وفرقة البانزر الثالثة (وقابل ابنه كورت). وشعر بالبهجة عندما وقع بصره على أبراج بلدته كولم ــ شلمنو التي كانت تقع على الضفة المقابلة لنهر الفيستول. ثم قام يوم ٥ أيلول ــ سبتمبر ــ بزيارة فرقتي المشاة المحمولتين الثانية؛ والعشرين.

اخترقت قوات غودريان الممر البولوني من جهة إلى الجهة الأخرى. وكانت الروح المعنوية للقوات عالية جداً؛ وأظهرت القوات استعدادها للاضطلاع بأية مهمة أخرى؛ وذلك بالرغم مما نالها من التعب والإجهاد. وفي أثناء ذلك اتخذ الموقف السياسي مظهراً جديداً ومحبطاً للآمال الألمانية؛ فقد أعلنت انكلترا الحرب على الرايخ؛ وتبعتها فرنسا؛ فزال الأمل بتحقيق الأهداف الألمانية في ظل السلام. وبدأت الحرب العالمية الثانية.

بوغت غودريان بزيارة أدولف هتلر لفيلقه؛ فاستقبله في بلفنو، على طريق توشولسكا في منطقة سوسي؛ وركب معه في عربته التي مرت على مقربة من محطومات المدفعية البولونية؛ ثم

وصلت إلى أول خطوط التطويق عند كرودزيازد؛ حيث توقفت لبعض الوقت بالقرب من الجسر المتهدم على نهر الفيستول. فقال هتلر عندما شاهد المدفعية المدمرة: «هذا من عمل طائراتنا الشتوكا بالتأكيد» وأجابه غودريان: «كلا! هذا عمل دباباتنا». وأظهر هتلر تعجبه. وجرى الحديث خلال السير على الطريق عن مجرى الأحداث في قطاع فيلق غودريان. وسأل هتلر عن الخسائر؛ فأعطاه غودريان الأرقام التي كان قد أعلن عنها: «١٥٠ قتيلاً و٧٠٠ جريحاً». فدهش لهذه الأرقام القليلة؛ وذكر هتلر على سبيل المقارنة خسائر فوج ليست في الحرب العالمية الأولى، وفي نهاية اليوم الأول من القتال؛ حيث بلغت الخسائر آنذاك ألفي قتيل وجريح في فوج واحد. فكان ذلك برهاناً أمسك به غودريان للتأكيد بأن قلة الخسائر إنما تعود إلى فاعلية الدبابات الألمانية؛ وإلى طابع المعارك ضد عدو شجاع وعنيد. وقال غودريان: «إن الدبابات سلاح يوفر الدماء؛ وقد زاد انتصار معركة الممر البولوني من ثقة الطواقم بنفسها؛ وبتفوق سلاحها. فقد خسر الخصم ٣ فرق مشاة ولواء فرسان، وحصلنا على آلاف الأسرى ومئات المدافع». عندما كانت عربة أدولف هتلر تقترب من نهر الفيستول؛ ظهرت في الأفق معالم مدينة كبيرة، **وسأل هتلر: «أليست هذه هي مدينة كولم شلمنو»؟ وأجابه غودريان: «نعم؛ هي كولم شلمنو؛ وقد استقبلتك في شهر آذار ـــ مارس من العام الماضي على أرض مسقط رأسك؛ واليوم أستقبلك على أرض وطني»**. وظل هتلر يتذكر هذه الحادثة؛ ويرويها؛ حتى بعد مضي بضع سنين.

اتجه الحديث بعد ذلك نحو المسائل الفنية؛ وأظهر هتلر حرصه على معرفة المجالات التي ظهرت فيها الدبابات بالمظهر الجيد؛ والمجالات التي تحتاج للتطوير، فعرض عليه غودريان ضرورة الإسراع بإيصال الدبابات رقم ٣ ورقم ٤ إلى الجبهة وزيادة انتاجها. أما فيما يتعلق بالصناعة المقبلة؛ فالسرعة الحالية كافية؛ ولكن من الضروري زيادة التصفيح؛ لا سيما التصفيح الجبهي؛ وزيادة مدى الأسلحة وقوة اختراقها؛ أي زيادة طول السبطانات وأغلفة القنابل وحجم الحشوات. ولا بد أيضاً من القيام بالعمل ذاته في المدافع المضادة للدبابات. وعبر هتلر عن اعترافه ببطولة الوحدات؛ ثم عاد إلى مقر قيادته العام؛ عند حلول الظلام. وكانت الجماهير قد تشجعت بعد انتهاء القتال؛ فخرجت من ملاجئها لتحية أدولف هتلر وفرشت أمامه الزهور؛ وزين السكان مدينة سوسي بالأعلام السوداء والبيضاء والحمراء. وأحدثت هذه الزيارة أثراً طيباً في الوحدات.

عبرت مقدمة الفرق وهيئة أركان الفيلق نهر الفيستول يوم ٦ أيلول ـــ سبتمبر ـــ وتابعت تقدمها. ونزل غودريان وهيئة أركانه في قصر الأمراء في فنكتستين. حتى إذا ما كان يوم ٨ أيلول ـــ سبتمبر ـــ وأنهت الفرق اجتياز النهر في نييف وكيسيمارك، تلقى تعليمات جديدة في الساعة ٢٢ر٣٠ عمل على مناقشتها مع القيادة؛ وجرى تعديلها بناء على اقتراحات غودريان،

فأصبح لزاماً عليه زج فرقة مدرعة إلى الشرق من بوغ باتجاه برست ــ ليتوفسك مروراً بمدينة بوزنا، بهدف حرمان القوات البولونية من إقامة خط دفاعي جديد في فرصوفيا ــ وارسو.

قام غودريان بتكليف فرقه بواجباتها؛ وقام بزيارة قائد جاره الأيمن الفيلق ٢٢ لتنسيق التعاون معه؛ ثم انطلق إلى قواته يوم ٩ أيلول ــ سبتمبر ــ ليراقبها، وهي تنفذ واجباتها. وكان لا بد له من التدخل كلما شعر بضعف في التنفيذ، أو تقصير في تنظيم التعاون بين القوات، أو سوء فهم في تحديد الواجبات (المهمات). وكان ذلك يقتضي منه أن يكون دائماً في المقدمة. وقد تمكنت قواته من تطويق البولونيين في أندرزجيفو يوم ١٢ أيلول ــ سبتمبر ــ واضطرتهم للاستسلام في اليوم التالي. هذا فيما دارت معركة حاسمة أخرى مع قوات بولونية أخرى، في اليوم ذاته، بين مدينتي برانسك و بييلسك، وتمكنت القوات المدرعة من القضاء على المقاومة، وتابعت تقدمها فوصلت إلى الخطوط الدفاعية البولونية المحصنة في برست يوم ١٤ أيلول ــ سبتمبر ــ وشرعت قوات غودريان بتطويق برست في اليوم التالي. وتم الاستيلاء على برست يوم ١٧ أيلول ــ سبتمبر ــ فزالت بذلك آخر مقاومة، ونفذت قوات فيلق غودريان واجباتها الكاملة. فأعاد غودريان تنظيم قواته؛ ونشرها على الأرض؛ واتخذ تدابير الأمن والحيطة؛ وتفقد الوحدات، ونظم قيادته. وبوغت يوم ٢٢ أيلول ــ سبتمبر ــ بزيارة ضابط روسي؛ طلب إليه تسليم حصن برست للقوات الروسية تنفيذاً لشروط المعاهدة الروسية ــ الألمانية. فقام بإجراء الاتصالات؛ وتباحث مع القائد الروسي العميد كريووشسيين بشأن خط الحدود الجديد. وانسحبت القوات الألمانية من برست. وشعر غودريان بالحزن لخسارة هذا الحصن الذي كلف القوات الألمانية غالياً.

أفاد غودريان مما كان يتوافر له من أوقات الفراغ، لزيارة عائلته في بروسيا الشرقية. والتقى بابن أخيه من بروسيا الغربية، والذي كان يرغب في أن يصبح جندياً بولونياً، وها هو الآن يصر بعد تحرره من الأسر على أن يخدم وطنه الحقيقي. وتلقى غودريان أمراً يوم ٩ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ بنقله وهيئة أركان حربه إلى برلين، بينما وضعت قوات فيلقه تحت تصرف مجموعة جيوش فون رونشتد. وفي أثناء عودة غودريان زار مرة أخرى أفراد أسرته في بروسيا الغربية وعلم منهم ما تعرضوا له من أيام عصيبة خلال الفترة المشؤومة التي دعيت باسم الأحد المشؤوم أو الدامي في مدينة برومبرغ أو بيدغورس[٣٢] ثم قام بزيارة مدينة كولم ــ شلمنو مسقط رأسه؛ وودع منزل أهله

(٣٢) برومبرغ: Bromberg بالألمانية وتسمى بالبولونية بيدغورس Bydgoszcz وهي مدينة في الشمال الشرقي من بوزنان في بولونيا. تعرضت لأحداث دامية يوم ٣ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٣٩ حيث قام بعض المدنيين بالهجوم على الجنود البولونيين المنهزمين. فقاومهم الجنود وتطور الصراع، فتدخلت القوات الألمانية. ويدل عدد الضحايا على ضراوة هذه المعارك التي بلغت ضحاياها ٢٣٨ جندياً بولونياً و٢٢٣ جندياً ألمانياً. وعندما احتلت القوات الألمانية المدينة، ودخلتها الوحدات الخاصة والغستابو استبيحت المدينة، فقتل ١٠٥٠٠ بولوني؛ وأسر ١٣ ألف حسب تحقيقات اللجنة البولونية بعد الحرب.

وجدته. ولم يكن يعرف أنه ينظر إلى وطنه الصغير للمرة الأخيرة في حياته. وشعر غودريان بسعادة غامرة عندما وصل برلين فقد وجد أن ابنه البكر قد حصل على وسام الصليب الحديدي بمرتبتيه الثانية والأولى، نتيجة ماأظهره من البطولة في أثناء المعارك الضارية التي دارت حول فارصوفيا ـــ وارسو.

استدعي غودريان إلى مقر وزارة الرايخ يوم ٢٧ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ حيث جرى تقليد ٢٤ قائداً وسام الصليب الحديدي من رتبة فارس.

نظمت القيادة مجموعة من المحاضرات بهدف تثبيت العقيدة السياسية لدى الضباط ـــ لا سيما الجنرالات (القادة) منهم ـــ وكان من المحاضرين في هذا المؤتمر غوبلز، وغورنغ، وهتلر ذاته؛ وذلك بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ١٩٣٩. وكان أغلب الحضور جنرالات وأميرالات، بينهم أساتذة الكليات الحربية وضباطها، حتى رتبة ملازم أول. وقد لاحظ غودريان تشابه الأفكار في حديث تلك الشخصيات الثلاث: «**بقيادة الرفيق غورنغ، استطعنا أن نستنتج بأن جنرالات الطيران يتمتعون سياسياً بثقة مطلقة؛ كما أن الأميرالات ينقادون أيضاً للفكر الهتلري وتحت قيادة أمينة؛ إلا أن الحزب لا يمنح أية ثقة لجنرالات الجيش البري**». وشعر غودريان بأن مثل هذا التوبيخ؛ أو هذه الاستهانة؛ بقادة الجيش البري، هو أمر لا يجوز السكوت عنه؛ وأنه غير منطقي بعد ما حققه الجيش البري من انتصارات في حملة بولونيا. وأن الإهانة التي وجهت إلى قيادة الجيش، إنما تطال كل قائد وكل جندي في القوات البرية. وكان الأسوأ من ذلك هو توجيه الإهانة بحضور قائد الجيش ذاته. فاتصل غودريان بالقادة الذين يعرفهم؛ ويثق بهم؛ من أمثال مانشتاين وفون رونشتد وسواهما للإحتجاج لدى هتلر؛ غير أن أحداً لم يقبل بهذه المهمة؛ ثقة منهم بعقمها وعدم فائدتها. فتطوع غودريان لهذه المهمة؛ وتقدم بطلب لمقابلة هتلر، فاستدعاه هتلر في اليوم الثاني؛ واستقبله على انفراد، وتركه يتحدث أكثر من عشرين دقيقة بدون أن يقاطعه؛ فذكر غودريان ما قيل في المؤتمرات الثلاثة التي حضرها في برلين، وكيف وجهت الإهانات إلى قادة (جنرالات) الجيش البري، إلى أن قال: «لقد أبدى جميع القادة (الجنرالات) الذين التقيت بهم؛ دهشتهم وغضبهم؛ لأن المسؤولين في قيادة الرايخ يتخذون منهم موقف الحذر الشديد؛ لقد نذروا علمهم وحياتهم لألمانيا في حملة بولونيا؛ وحققوا النصر في أقل من ثلاثة أسابيع. ولا زالت تنتظرنا حرب قاسية ضد القوات الغربية. وأرى أنه من المحال المبادرة بالهجوم، مع وجود هذا الإنشقاق الكبير في القيادة العليا. وقد تعجب لمجيئي إليك؛ يحدوني هذا الهدف؛ وأنا أحدث قادة الفيالق رتبة. لقد رجوت بعض الزملاء الأقدم مني رتبة للقيام بهذه المهمة. فلم يقبل أحد. ولكن يجب أن لا تقول في المستقبل: لقد أظهرت لقادة الجيش حذري؛ فلم يقوموا بعمل ما؛ ولم يحتج على ذلك أحد منهم. لذلك أتيت لأقدم احتجاجي ضد هذه التحذيرات. إننا نراها غير عادلة؛ ومهينة. وإذا

كانت لديك شكوك تجاه بعض القادة (الجنرالات) وإذا كان الشك في محله تجاه قلة ضئيلة منهم؛ فافصلهم عنك. إن هذه الحرب قد تدوم طويلاً. ولا نستطيع قبول انشقاق كهذا في القيادة العسكرية العليا. يرجى إعادة الثقة ما دام القتال لم يصل إلى المرحلة الحاسمة». وأعقب ذلك نقاش بين غودريان وهتلر. وشكر هتلر لغودريان صراحته؛ غير أن غودريان خرج من المقابلة دون الحصول على النتيجة التي كان يرجوها.

○

أفاد غودريان من الدروس المستخلصة من حملة بولونيا لإعادة التنظيم والتدريب والتسليح استعداداً لما بات متوقعاً من هجوم على جبهة الغرب. فتم تحويل (الفرق الخفيفة) إلى الفرقتين المدرعتين ٦ و ٩. ولوحظ أن فرق المشاة الآلية كانت ثقيلة جداً؛ فخفض ملاكها بإنقاص لواء مشاة. وكان من الضروري جداً تجهيز ألوية الدبابات بالنماذج الجديدة من دبابات ٣ و ٤. لكن الأمر سار بصورة بطيئة نتيجة لضعف مسيرة الانتاج الصناعي؛ ولأن القيادة العليا للجيش البري كانت تحتفظ بالمدرعات الجديدة. ولم يبق لغودريان إلا أن يصرف جهده في تدريب بعض الفرق المدرعة ولواء المشاة غروس — دوتشلاند التي بقيت تحت قيادته المباشرة. وكان لديه ما يكفي من الوقت للتفكير في تخطيط الملاكات، ومتابعة العمليات في الغرب. وكانت القيادة العليا تعد مخططات عملياتها على أساس (خطة شليفن). إلا أن مانشتاين كان يعد ما هو ضروري من التعديلات لإحياء (خطة شليفن) في إطار جديد. واستدعى في يوم من أيام تشرين الثاني — نوفمبر — ١٩٣٩ غودريان لمقابلته؛ وشرح له خطته الجديدة. وقام غودريان بدراستها على الخرائط؛ وعلى أساس معرفته لطبيعة الأرض خلال الحرب العالمية الأولى. وأعلم مانشتاين موافقته على الخطة، وأبدى حماسته لتنفيذها بالقوات المدرعة. ومضى مانشتاين لإقناع القيادة العليا بخطته الجديدة؛ فيما كان غودريان يعد لتنفيذها، وذلك على نحو ما سبق عرضه في فصل مانشتاين. وتقرر أن يضطلع فيلق غودريان بواجب توجيه ضربة الصدمة عبر منطقة الأردين؛ ووضعت تحت قيادته ألوية البانزر الأول والثاني والعاشر ولواء المشاة الآلي (غروس دوتشلاند) ومجموعة مدفعية قذافة ذات عيار كبير؛ علاوة على وحدات مساعدة أخرى. وبذل غودريان كل جهده لتدريب قادته (الجنرالات) وضباط هيئة أركانه على المهمة، وأصبحت ثقته في قدرتهم القيادية والقتالية ثقة مطلقة. وكان خلال ذلك يحضر المؤتمرات التي كانت تعقدها القيادة لمناقشة الخطة. فكان يصطدم في كل مرة بالمعارضة، إلى أن كان المؤتمر الذي عقده قادة الجيوش في مجموعة رونشتد، أو المجموعة آ، وذلك بتاريخ ١٥ آذار — مارس — ١٩٤٠ وحضرها هتلر، وتمت فيها مناقشة عبور نهر الموز ومراحل تقدم القوات. **ووجه هتلر سؤاله بصورة مباغتة لغودريان: «وأنت ما الذي تنوي**

عمله ؟» **غير أن غودريان لم يباغت؛ إذ كان المخطط واضحاً تماماً في ذهنه؛ فأجاب على الفور: «آمل احتلال رأس جسر على نهر الموز في الليلة الأولى للهجوم ذاته. وأتابع في اليوم الثاني التقدم نحو الغرب؛ وستحدد القيادة العليا اتجاه الاختراق؛ وهل سيكون نحو أميان أم نحو باريس ؟ والأفضل كما أرى متابعة الاختراق إلى أميان؛ ثم إلى المانش»**. ووافق هتلر بإشارة من رأسه بدون أن يضيف شيئاً. إلا أن قائد الجيش ١٦ الجنرال بوش، والذي كان جالساً على يسار غودريان، صرخ قائلاً: «**لا أعتقد أن بإمكانك اجتياز النهر !**». وبدت على هتلر إمارات الاهتمام؛ وكأنه كان ينتظر إجابة غودريان بفارغ الصبر. ولم يتأخر غودريان عن الرد بقوله: «**لا تتعب نفسك بهذا الاعتقاد**». وظهرت إمارات الإرتياح على وجه هتلر؛ إلا أنه امتنع عن التعليق؛ أو إبداء الرأي.

كان نجاح الهجوم على جبهة الغرب مرتبطاً بنجاح فيلق غودريان أو الفيلق ١٦ في تنفيذ مهمته. وقد عني غودريان عناية خاصة بتنسيق التعاون مع طيران الدعم؛ فوجه الدعوة لطياري الفيلق الجوي المخصص لدعمه، لحضور التمارين على الخرائط، بهدف زيادة فعالية التعاون. كما اشترك في إجراء تمرين حربي أعدته القيادة الجوية لهذه الغاية. وكان هدف التمرين هو تنظيم عملية عبور نهر الموز. وتقرر نتيجة للأبحاث والتجارب؛ زيادة توسيع مجال عمل الطيران؛ واستمرار عمله طوال فترة العبور؛ بدلاً من توجيه ضربة وحيدة ومركزة تقوم بها القاذفات وطائرات الإنقضاض الشتوكا.

أصدرت القيادة العليا أمرها باستنفار القوات المسلحة في الساعة ١٣ر٣٠ من يوم ٩ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠. فغادر غودريان مدينة كوبلانس ووصل مساء إلى مقر قيادة فيلقه ١٩ في مدينة سونهوف القريبة من بيتبورغ. وحشد قواته على امتداد الجبهة، واجتاز حدود اللوكسمبورغ في الساعة ٥ر٣٥ من يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ فوصل بعد ظهر اليوم ذاته إلى الحدود البلجيكية قرب مدينة مارتيلانج. وكانت مقدمة فرقة البانزر الأولى قد اخترقت التحصينات البلجيكية، واتصلت بالقوات المنقولة جواً ــ التابعة للواء المشاة غروس دوتشلاند ــ واندفعت بقية فرق البانزر للقضاء على المقاومات البلجيكية والفرنسية، واجتياز التخريبات وحقول الألغام. واستولت في اليوم الأول من الهجوم على مدن نوفشاتو، وبرتركس، وبويون. حتى إذا ما كان الليل؛ أصدر غودريان أمره إلى فرقة البانزر العاشرة بالتقدم نحو مدينة رول. وتابع معركتها في اليوم التالي ضد القوات البلجيكية. حتى إذا ما كان المساء عاد إلى مدينة بويون، وجعلها مقراً لقيادته. ومضى لوضع خطة تنسيق التعاون بين الفرق لعمليات اليوم التالي. وقامت فرقتا البانزر الأولى والعاشرة في ليل ١٢ أيار ــ مايو ــ بالاستيلاء على ضفة نهر الموز الشمالية، واحتلتا مدينة سيدان التاريخية المحصنة. وأفادت مدفعية الفيلق من ظلمة الليل لاحتلال مرابضها؛ ونقل غودريان مقر قيادته في اليوم التالي ١٣ أيار ــ مايو ــ إلى مدينة لاشابيل. وانطلق في جولته لتفقد مسيرة تقدم

فرق البانزر؛ وهجومها على خطوط التحصينات الفرنسية؛ حيث دارت معركة عنيفة بالمدفعية وبالطيران، وفي نهاية اليوم كانت القوات المدرعة قد نجحت في اختراق ثغرة جنوب خط ماجينو. ونجحت فرقة البانزر الأولى خلال الليل في توسيع الثغرة؛ والاستيلاء على مدينة شيمري. فقام غودريان بدفع فرقة البانزر الثانية يوم ١٤ أيار ـ مايو ـ للتقدم، إلا أنها اصطدمت بمقاومات قوية. وفي المساء، عاد غودريان إلى مقر قيادته، بعد أن قدم تقريره عن سير العمليات لقائد مجموعة الجيوش فون رونشتد. وأمضى قسماً من الليل في وضع خطة تنسيق التعاون بين الفرق لليوم التالي، ١٥ أيار ـ مايو ـ لعبور قناة الأردين والالتفاف من حولها. وحدد للفرق واجباتها وأهدافها. ثم انطلق إلى مقرات قيادات الفرق لمتابعة أعمالها القتالية. وشهد المعركة الضارية التي دارت حول مدينة ستون، والتي تناوبت السيطرة عليها القوات الفرنسية والألمانية، إلى أن تم القضاء على المقاومة الفرنسية. وتلقى غودريان يوم ١٥ أيار ـ مايو ـ أمراً من قائد المجموعة المدرعة فون كليست بالتوقف عن متابعة التقدم؛ حتى تتاح فرصة إعادة تنظيم القوى على كافة قطاعات الهجوم. إلا أن غودريان استطاع إقناع فون كليست بضرورة متابعة التقدم، للإفادة من المباغتة واستثمارها قدر المستطاع. وكانت الوحدات متعبة؛ والذخائر بين أيدي الجنود محدودة؛ إلا أن غودريان أفاد من ورقة في يده لإثارة الحماسة فقد جمع قادة السرايا، وأبلغهم نص الأمر الذي صدر عن القيادة الفرنسية إلى قواتها؛ والذي جاء فيه «**يجب أخيراً إيقاف تدفق الدبابات الألمانية**». وأعلمهم أن كل توقف سيزيد من حجم المقاومة. فاندفعت القوات للتقدم ـ وفي طليعتها أرتال فرقة البانزر الأولى ـ ونجح الاختراق؛ ووصلت القوات إلى الأراضي المكشوفة في فرنسا يوم ١٦ أيار ـ مايو ـ وكان غودريان يسمع تعليقات جنوده عندما كان يمر بهم، فيشعر بنشوة الظفر؛ وكان من هذه العليقات: «**إلى الأمام يا صديقي**» و «**ها هو شيخنا**» و «**هل رأيت هانز السريع**».

التقى غودريان في ساحة سوق مونكورنييه بقائد فرقة البانزر السادسة التابعة لفيلق رينهارد المجاور، وقد وصلت فرقته بعد اجتياز نهر الموز إلى هذه القرية، في وقت واحد مع فرق غودريان. فكان لزاماً على غودريان إعادة توزيع محاور التقدم، بين هذه الفرق المدرعة الثلاث ٦ و ٢ و ١ والتي وصلت جميعها إلى هذه القرية نتيجة تقدمها السريع نحو الشرق؛ والتي لم تحدد لها قيادة مجموعة المدرعات خطوطاً واضحة للفصل بين الفيالق. فقام غودريان بتحديد خطوط الفصل بين الفرق؛ على الأرض؛ وتابعت الدبابات تقدمها حتى آخر قطرة لديها من الوقود. ووصلت العناصر المتقدمة لفرق بانزر غودريان حتى مارل ـ ودريسي.

كان غودريان قد أمر ضباطه بتفتيش منازل سوق مونكورنييه فتم في وقت قصير جمع مئات الأسرى الفرنسيين الذين ينتمون إلى وحدات مختلفة؛ وقد تجلى في نظراتهم ذهول المباغتة لظهور القوات الألمانية بينهم. **كما تم أسر فصيلة دبابات فرنسية كانت تحاول الفرار من**

الجنوب ــ الغربي ؛ وظهر أنها كانت تابعة للجنرال ديغول الذي كان قد اتخذ مقره إلى الشمال من مدينة لاوون. واتخذ غودريان مقر قيادته في قرية سواز الصغيرة، شرقي مونكورنييه. وأمن الاتصال بهيئتي أركان الفرقتين الأولى والثانية ؛ ثم اتصل لاسلكياً بقيادة مجموعة البانزر، وقدم لها تقريره عن الأعمال القتالية اليومية ؛ وأعلمها عن عزمه لمتابعة التقدم في اليوم التالي ١٧ أيار ــ مايو.

كانت هناك مباغتة تنتظر غودريان : ففي صباح يوم ١٧ أيار ــ مايو ــ وصله أمر من قيادة مجموعة البانزر بالتوقف؛ وطلب إليه الحضور في الساعة ٧٫٠٠ إلى مطار ستورش لمقابلة قائد مجموعة البانزر الجنرال فون كليست. **ووصل فون كليست في الوقت المحدد، وقابل غودريان وبدأ حديثه ــ بدون تحية ــ فوجه اللوم الشديد لغودريان بحجة أنه تجاوز في تقدمه نية القيادة العليا ؛ ولم يذكر شيئاً عما قامت به قوات غودريان من أعمال رائعة، وما بذلته من جهود مضنية. فلما هدأت العاصفة الأولى ؛ طلب غودريان إقالته من قيادته. وارتجف الجنرال فون كليست ووافق على ذلك ؛ وكلفه بتسليم القيادة إلى القائد الأقدم في فيلقه ؛ وانتهت المقابلة على هذا الشكل ؛ وعاد غودريان إلى مقر قيادة فيلقه (الفيلق ١٩)، واستدعى الجنرال فيل ليعهد إليه بتسلم القيادة.**

اتصل غودريان لاسلكياً بمجموعة جيوش فون رونشتد (المجموعة آ) وأعلمها أنه سيصل عند الظهيرة لتقديم تقريره ؛ بعد تسليم القيادة. وجاءه الرد بسرعة مذهلة. فقد طلب إليه فون رونشتد البقاء في مقر قيادته إلى أن تصله أوامر جديدة ؛ وأن ينتظر وصول قائد الجيش الثاني عشر الفريق فون ليست الذي صدر إليه الأمر بحل القضية. وفي أثناء ذلك ؛ أصدر غودريان أوامره إلى جميع الوحدات بالتوقف. ووصل فون ليست بعد الظهر ؛ واستفسر عما جرى، فأعلمه غودريان عن كل شيء بتفاصيله. فأصدر بأمر فون رونشتد إلغاء لأمر النقل. وأعلن أن أمر إيقاف التقدم قد صدر عن القيادة العليا ؛ فينبغي التقيد به ؛ وأضاف فون ليست بأنه يقدر لغودريان موقفه في قضية متابعة التقدم ؛ وسمح له باسم قائد مجموعة الجيوش فون رونشتد، بمتابعة دفع مجموعات قتال استطلاعية قوية إلى الأمام ؛ على أن لا يتحرك مقر قيادة فيلق غودريان عن مقره أو مركزه الحالي. وأفاد غودريان من حرية العمل الجزئية التي منحت له لتحسين مواقف قواته ؛ فدفعها لإقامة رأس جسر على نهر الموز. وفي اليوم التالي ١٨ أيار ــ مايو ــ وصلت القوات إلى سانت كوانتان وأقامت رأس جسر على نهر السوم في اليوم التالي ؛ إلا أن غودريان واجه موقفاً خطيراً يوم ١٩ أيار ــ مايو ــ فقد تقدمت الفرقة المدرعة الفرنسية الرابعة بقيادة الجنرال ديغول ووصلت حتى مسافة ٢ كم من مقر قيادة غودريان في مدينة سوار. وكان هذا المقر محروماً من وسائط الدفاع المضاد للدبابات. إلا أن الأزمة انتهت بتراجع ديغول ودباباته ؛ دونما قتال. **وفي مساء هذا اليوم ١٩ أيار ــ مايو ــ أعيدت حرية العمل للفيلق التاسع عشر ؛ وسمح له بالمسير ابتداء من تاريخ ٢٠ أيار ــ مايو ــ باتجاه**

أميان. وأسرع غودريان للعمل، فحدد للفرق اتجاهاتها، وأهدافها، وخطوط الفصل بينها؛ وانطلقت الدبابات بأقصى سرعة لها في فجر اليوم التالي؛ وتمكنت حتى الظهر من احتلال مدينة أميان وشكلت رأس جسر على نهر السوم بعمق ٧ كيلو مترات، ثم استولت على مدينة ألبرت. وأخذت مجموعات كبيرة من الأسرى من كل الجنسيات؛ ثم استولت على مدينة آبفيل. ولم يعكر من صفو هذه الانتصارات إلا وقوع بعض الأخطاء التي ارتكبها الطيارون الألمان عندما قصفوا الدبابات الألمانية؛ وأنزلوا بها بعض الخسائر، فردت المدفعية المضادة للطائرات بدورها؛ وأسقطت طائرتين ألمانيتين صديقتين. وتابعت القوات المتقدمة اندفاعتها، فوصلت إلى بحر المانش.

أقبل مساء هذا اليوم المجيد ــ في حياة غودريان خاصة ــ وهو يجهل ما يجب عمله لليوم التالي. فهو لم يتلق أي أمر يتعلق بالواجبات الجديدة؛ فأمضى اليوم التالي ٢١ أيار ــ مايو ــ لتفقد الوحدات، وتفتيش الدفاع عن رأس الجسور لحماية السوم. وقام بزيارة مدينة آبفيل.

تلقى غودريان أمراً من قيادة مجموعة البانزر في يوم ٢١ أيار ــ مايو ــ بمتابعة التقدم للاستيلاء على مرافىء المانش. وانطلقت القوات للهجوم يوم ٢٢ أيار ــ مايو ــ فتم اجتياز نهر أوتي. وتبع ذلك وقوع اشتباكات عنيفة في دوفر وسامر وجنوب بولوني؛ وانتصرت القوات المدرعة على القوات الفرنسية والانكليزية والبلجيكية والهولندية. كما أحبطت هجوماً مضاداً قامت به المدرعات الانكليزية في مدينة آراس.

تابعت القوات تقدمها. ووصلت فرقة البانزر الأولى يوم ٢٤ أيار ــ مايو ــ إلى قناة نهر (آ) بين مدينة هولك والساحل. واستولت على رؤوس جسور في هولك، وسانت بيير وبروك، وسان نيقولا، وبوربورغ فيل. في حين أنجزت فرقة البانزر الثانية تطهير بولوني من القوات المعادية. ووصلت فرقة البانزر العاشرة إلى خط دوفر ــ سامر ثم طوقت مدينة كاليه. وبينما كانت قوات غودريان تستعد للهجوم على دونكرك يوم ٢٥ أيار ــ مايو ــ تلقت أمراً من هتلر:

«ستتولى القوى الجوية أمر مدينة دونكرك، وإذا بدت أية صعوبة في الاستيلاء على مدينة كاليه: فستتولى القوى الجوية أمرها أيضاً». وكان لزاماً على قوات غودريان أن تتوقف على نهر (آ) وذهل غودريان لهذا التدخل من جانب القيادة العليا؛ والذي جاء في وقت غير مناسب. إلا أن قوات غودريان شددت قبضتها على كاليه واستولت عليها يوم ٢٦ أيار ــ مايو ــ ووقع عشرون ألف أسير ــ بينهم ثلاثة أو أربعة آلاف انكليزي والباقون من جنسيات أوروبية مختلفة ــ وفي كاليه؛ التقى غودريان لأول مرة منذ ١٧ أيار ــ مايو ــ بالجنرال فون كليست الذي هنأ غودريان على انتصاراته، وأشاد بالأعمال البطولية لقواته. وقد حاول غودريان استئناف الهجوم باتجاه دونكرك لإغلاق الحلقة حول الحصن البحري. غير أن الأوامر الجديدة قد أكدت على التوقف أمام دونكرك.

أنجز فيلق غودريان واجباته الكاملة في فترة قياسية من الزمن؛ وبذل جند هذا الفيلق جهوداً أذهلت العالم الذي كان يتابع ـــ لاهثاً ـــ تسارع الأحداث. وأفاد غودريان من هذه المناسبة فوجه إلى جنده رسالة يوم ١٦ أيار ـــ مايو ـــ ١٩٤٠ جاء فيها :

يا جنود الفيلق التاسع عشر

لقد أمضينا سبعة عشر يوماً من المعارك في بلجيكا وفرنسا؛ وابتعدنا مسافة ستمئة كيلو متراً عن حدود الرايخ. لقد وصلنا إلى شواطىء المانش والمحيط الأطلسي. ولقد اخترقتم خلال هذا العبور التحصينات البلجيكية؛ وعبرتم نهر الموز؛ واخترقتم خط ماجينو في أثناء معركة سيدان الشهيرة. لقد استوليتم على مرتفعات ستون الاستراتيجية الهامة، ثم قمتم بعمل حاسم وسريع باتجاه سانت كوانتان وبيرون. فاستوليتم على منطقة السوم السفلى في أميان وآبفيل وتوجتم انتصاراتكم بالاستيلاء على شواطىء المانش والتحصينات البحرية في بولوني وكاليه.

لقد طلبت منكم التخلي عن النوم خلال ٤٨ ساعة؛ فتخليتم عنه لمدة سبعة عشر يوماً. لقد أجبرتكم على أن تقبلوا التهديد على جوانبكم ومؤخراتكم؛ فلم تظهروا أي ضعف على الإطلاق. إنكم تتمتعون بثقة عالية بأنفسكم؛ وأنتم مقتنعون بإمكان تنفيذ مهمتكم. لقد نفذتم كل أمر بنكران ذات وتفان؛ وإن ألمانيا فخورة بفرقها المدرعة؛ وأنا فخور بكوني قائداً لكم. سنذكر باحترام الزملاء الذين استشهدوا؛ مؤمنين أن تضحيتهم لم تذهب سدى.

فلنستعد للقيام بمآثر جديدة؛ من أجل ألمانيا ومن أجل قائدنا أدولف هتلر.

التوقيع : غودريان

أصدر هتلر أمراً يوم ٢٨ أيار ـــ مايو ـــ بتشكيل مجموعة بانزر بقيادة غودريان أطلق عليها اسم (مجموعة بانزر غودريان)، وضمت الفيلق التاسع والثلاثين والفيلق الواحد والأربعين؛ وبعض الوحدات المرتبطة مباشرة بالفيلق. وحددت منطقة شارل فيل لتجميع قوات المجموعة وحشدها لمتابعة اجتياح فرنسا. وكان على قوات مجموعة الفيالق السير لمسافة ٢٥٠ ـــ ٣٥٠ كم للوصول إلى منطقة الحشد؛ وظهر التعب على القوات، كما كانت المدرعات والآليات بحاجة للصيانة والإصلاح. فحصلت القوات على بضعة أيام من الراحة؛ قبل أن تنطلق لتنفيذ المرحلة الثانية من عملياتها (وبقيت قيادة هذه المجموعة تابعة لقائد الجيش الثاني عشر فون ليست، في إطار مجموعة الجيوش آ بقيادة فون رونشتد).

قام غودريان بنشر فيالقه وفرقه على الجناح الأيمن من أنهار السوم والسير والآين. وحدد لها أهدافها؛ وخطوط الفصل بينها؛ ونقل غودريان مقر قيادة مجموعته إلى مدينة بنبيه يوم ٨ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤٠. وانطلق غودريان بقواته في الساعة ٦٫٣٠ من صباح يوم ١٠ حزيران ـــ يونيو ـــ وسرعان ما اجتازت القوات مدينتي آفانسون وتانيون بعد معركة عاصفة، ثم تابعت

تقدمها على اتجاه نوفليز ـــ سور ريتون. وأمكن لدبابات البانزر سحق المقاومات التي حاولت التصدي لها، ووقعت معركة ضارية لمدة ساعتين في جنوبي جونفيل عند الظهر، ثم تابعت الدبابات تقدمها؛ وأحبطت الهجمات المضادة دون أن تتوقف، خلال فترة ما بعد الظهر. وأمكن في المساء الوصول إلى هوديلكورت ـــ سانت اتيين؛ وسارت الأعمال القتالية في اليومين التاليين بصورة مشابهة؛ لقد اكتسبت القوات وقياداتها خبرة رائعة في تنسيق التعاون فيما بينها؛ وفي مجابهة الظروف المختلفة. ودخلت الوحدات الألمانية العاصمة باريس في الساعة التاسعة من يوم ١٤ حزيران ـــ يونيو ـــ فيما كانت بقية فرق غودريان تتابع تقدمها ملتفة حول باريس. وانتقل غودريان في ساعة مبكرة من يوم ١٥ حزيران ـــ يونيو ـــ إلى لونغر، فوصلها ظهراً؛ ودفع فرقة البانزر الأولى باتجاه غراي سور سون، ودفع فرقة المشاة الآلية التاسعة والعشرين باتجاه نهر السون ـــ غربي غراي ـــ كما دفع فرقة البانزر الثانية باتجاه تيل شاتيل، فيما كان الفيلق الواحد والأربعون يتابع تقدمه بسرعة نحو الجنوب ـــ الشرقي من نهر المارن.

وكانت متابعة تقدم الفرق متعبة للغاية؛ فنقل غودريان مقر قيادته في المساء إلى لونغر وأمضى ليله فيها؛ وحدد للقوات أهدافها في التقدم خلال اليوم التالي، نحو الحدود السويسرية. **وأمكن تحقيق هذا في ظهر يوم ١٧ حزيران ـــ يونيو ـــ وعندما أعلم هتلر بوصول قوات غودريان إلى الحدود السويسرية، أرسل برقية استيضاحية؛ جاء فيها:**

«يستند تقريرك على خطأ. هل تريد أن تذكر بونتارلييه ـــ سور سون ؟» وأجاب غودريان: «لا خطأ هناك؛ إنني موجود شخصياً في بونتارلييه، على الحدود السويسرية».

انهارت المقاومة الفرنسية، واستطاعت مجموعة غودريان أن تأسر وحدها ـــ منذ اجتيازها نهر الآين ـــ ما يقارب ٢٥٠ ألف أسير. مع الاستيلاء على كميات ضخمة من الأعتدة المتنوعة والوسائط القتالية. ووقعت الحكومة الفرنسية الهدنة بتاريخ ٢٢ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤٠.

نقل غودريان مقر قيادته إلى مدينة بوزانسون. ووجه رسالة إلى قواته بمناسبة انتهاء القتال.

المجموعة غودريان　　　　بوزانسون ٣٠ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٤٠

أمر إداري

الآن؛ إذ يتبدل تشكيل مجموعة بانزر غودريان؛ أود أن أعبر عن وداعي الودي لهيئات الأركان والتشكيلات المنقولة إلى قيادات أخرى. إن التاريخ سيسجل المسيرة الظافرة من نهر الآين حتى الحدود السويسرية وحتى جبال الفوج، وهي المسيرة التي ستظل نموذجاً بطولياً للاختراق الذي قامت به هذه الوحدات السريعة. أشكركم لهذا العمل العظيم الذي كان تتويجاً رائعاً للقتال وللجهود التي بذلتها منذ أكثر من عشر سنوات. فإلى الأمام من أجل تنفيذ واجبات

جديدة؛ ولتحقيق المزيد من الانتصارات إلى أن يتم النصر النهائي لألمانيا العظمى. عاش الفوهرر.

التوقيع: غودريان

أصدرت القيادة الألمانية العليا أمرها بحل مجموعة بانزر غودريان في بداية شهر تموز — يوليو — ونقلت بعض فرقها إلى ألمانيا، كما نقلت فرقاً أخرى إلى منطقة باريس، وأفاد غودريان من هذه الفترة لزيارة معالم فرنسا الأثرية وقصورها التاريخية. وفي ١٧ تموز — يوليو — عقد مؤتمر الرايخستاغ، واستدعي غودريان لحضوره وسائر الجنرالات. وأعلن هتلر في أثناء المؤتمر ترفيع غودريان إلى رتبة جنرال قائد جيش. ولما لم يبق لغودريان ما يفعله، فقد عاد إلى برلين مع بداية شهر آب — اغسطس — حيث تم تكليفه بالإشراف على تشكيل الفرق المدرعة الجديدة، وفرق المشاة الآلية وتدريبها. فانصرف لعمله الجديد بكل طاقته مستفيداً من خبرته المكتسبة؛ ومن الدعم الذي كان يتلقاه من القيادة؛ للمضي في مشاريعه لتطوير السلاح المدرع.

كم تبدلت الأمور؟ لقد كان غودريان يصطدم في كل مرحلة بمقاومات لا نهاية لها؛ أما الآن؛ وعلى ضوء تجارب الحرب؛ فقد أخذت القيادات في التنافس لدعم هذا السلاح الجديد؛ بداية من السلطة العليا؛ ونهاية بكافة الأنساق القيادية والتنفيذية. وكان هتلر هو الأكثر حماسة في هذا المضمار؛ فقد طلب على ضوء التجارب التي تم الحصول عليها؛ زيادة انتاج الدبابات من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ دبابة في الشهر. كما طلب تركيب المدفع عيار ٥٠ مم (المدفع ل ٦٠ — ٦٠ وحدة طولاً) على الدبابات نموذج ٣ بدلاً من المدفع عيار ٣٧ مم.

لم يكن غودريان يعير اهتماماً كبيراً للسياسة؛ إلا أنه علم في تشرين الأول — اكتوبر — ١٩٤٠ أن وزير الخارجية السوفييتي مولوتوف قد زار برلين؛ وقدم طلبات استثار بها هتلر وهي:

١ — إدخال فنلندا في فلك النفوذ السوفييتي.

٢ — الاتفاق على حدود بولونيا المقبلة.

٣ — الإعتراف بالمصالح السوفييتية في رومانيا وبلغاريا.

وعلى أثر ذلك تم استدعاء غودريان إلى القيادة لمناقشة خطة الهجوم على روسيا (خطة بربروسا). وظهر له أن حجم القوات التي خصصت للعملية هو أمر لا يتناسب مع متطلبات مسرح العمليات الواسع؛ كما ظهر له عدم وضوح الهدف من العمليات، فأعلن رأيه صراحة. ومضى لإعداد قواته بما يتناسب والاحتمالات المتوقعة.

○

تشكلت لاجتياح الاتحاد السوفييتي ثلاث مجموعات جيوش: ١ ــ مجموعة جيوش الجنوب؛ بقيادة فون رونشتد؛ وتمركزت في جنوبي مستنقعات بريبيت. ٢ ــ مجموعة جيوش الوسط بقيادة الماريشال فون بوك؛ وتمركزت بين مستنقعات بريبيت وجيب سوفالكي. ٣ ــ مجموعة جيوش الشمال، بقيادة فون ليب؛ وتمركزت في بروسيا الشرقية. وشكلت أيضاً مجموعات دبابات البانزر، ألحقت مجموعة منها مع مجموعة جيوش الجنوب وثانية مع مجموعة جيوش الشمال، بينما خصصت مجموعتان للعمل مع جيوش الوسط. **كانت إحداهما بقيادة غودريان، وحملت اسم (مجموعة البانزر الثانية)، وضمت: فيلق البانزر ٢٤، وفيلق البانزر ٤٧، واللواء المدرع ١٦، وفرقة البانزر العاشرة؛ وفرقة المشاة الآلية (داس رايخ) ودعمت مجموعة غودريان بمجموعة طيران ولواء مدفعية؛ ولواء مدفعية مضادة للطائرات. وكلفت مجموعة غودريان بمهمة: اجتياز نهر بوغ في يومي الهجوم؛ من جانبي حصن برست ليتوفسك، واختراق الجبهة الروسية، ثم استثمار النصر للوصول إلى منطقة روسلافل ــ بيلنا ــ سمولنسك.**

اتخذ غودريان التدابير الضرورية لحماية قواته، من المجنبات والمؤخرة، نظراً لاضطرارها للعمل بعيداً عن القوات الصديقة. وحدد للفرق أهدافها وواجباتها وخطوط الفصل بينها؛ وقام بتفقدها للتأكد من استعداد وسائطها القتالية، ثم انطلق بها في الساعة ٦٫٥٠ من يوم ٢٢ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٤١. فاجتاز نهر بوغ؛ واندفعت المدرعات في تقدمها. وفي مساء هذا اليوم كانت مجموعة البانزر تخوض حربها على تخوم مدن مالوريتا؛ وكوبرين؛ وبرست ليتوفسك وبريزنيا. وكان على غودريان في كل يوم التنقل ما بين الفرق والألوية المتقدمة، لمساعدتها على حل مشكلاتها؛ ولتنسيق التعاون فيما بينها للقضاء على المقاومات والهجمات المضادة المتتالية. ووصلت فرقة البانزر ١٧ في يوم ٢٧ حزيران ــ يونيو ــ إلى التخوم الجنوبية لمدينة **مينسك**. وأجرت اتصالها بمجموعة البانزر الثالثة التي دخلت المدينة في اليوم السابق، بعد أن دمرها الروس، وأسرت جميع القوات الروسية في **بياليستوك** وهي تحاول عبثاً الإفلات من التطويق الكامل؛ ولم تنجح سوى عناصر قليلة جداً من الهرب نحو الشرق؛ قبل إنهاء التطويق. وكان ذلك أول انتصار كبير في هذه الحملة. وقد استسلمت القوات الروسية المحاصرة في جيب بياليستوك؛ وانتقل اهتمام غودريان إلى متابعة الحركة باتجاه نهر الدنيبر يوم ٣ تموز ــ يوليو ــ فقام بتنسيق التعاون مع مجموعة المدرعات المجاورة. ودفع فرقة للحصول على رؤوس جسور على هذا النهر. وأمكن عبور نهر الدنيبر يومي ١٠ و ١١ تموز ــ يوليو ــ وأصدر أوامره بالتقدم نحو **سمولنسك**. ثم نقل مقر قيادته يوم ١٣ تموز ــ يوليو ــ إلى الضفة الشرقية من نهر الدنيبر (في مدينة سياخودي الواقعة على بعد ٦ كم إلى الشمال الشرقي من سكلوف). ودارت معارك طاحنة، إلى أن تم الاستيلاء على سمولنسك يوم ١٦ تموز ــ يوليو ــ وبذلك حققت مجموعة مدرعات غودريان الهدف الاستراتيجي الأول الذي حدد لها. وتلقى غودريان

على أثر ذلك؛ وفي اليوم ذاته؛ وسام الفارس؛ فكان الخامس الذي تم تقليده هذا الوسام من الجيش البري؛ والرابع والعشرين من القوات الألمانية البرية والبحرية والجوية.

عقدت القيادة الألمانية العليا مؤتمراً في نوفيج بوريسوف يوم ٤ آب ــ اغسطس ــ بهدف اطلاع هتلر على الموقف؛ وكان ذلك للمرة الأولى منذ بداية الحملة على روسيا؛ والتي وصلت إلى منعطف حاسم في مجرى الحرب. واستدعي غودريان لحضور المؤتمر. واتفق القادة على تحديد الهدف الأول باحتلال موسكو. في حين كان هتلر قد حدد الهدف بالاستيلاء على لينينغراد وأوكرانيا قبل التوجه إلى موسكو. وبالرغم من ذلك؛ فقد انصرف غودريان منذ عودته إلى إعداد المخططات للإنطلاق من بيلنا إلى موسكو. وتم استدعاء غودريان مرة أخرى إلى المؤتمر الذي عقد في مقر قيادة مجموعة الوسط يوم ٢٣ آب ــ اغسطس ــ وأعلن هتلر أنه عازم على عدم تنفيذ أي تحرك باتجاه لينينغراد أو موسكو؛ وأن هدفه هو الاستيلاء على أوكرانيا وشبه جزيرة القرم قبل كل شيء. وعندما جاء دور غودريان لإعطاء رأيه؛ وقف وحده في مواجهة هتلر؛ وأظهر له أهمية حسم المعركة على جبهة ستالينغراد وموسكو قبل كل شيء. وبعد مناقشة عقيمة؛ أعرض هتلر عن قبول حجج غودريان العسكرية؛ وأنهى المناقشة بقوله: «**لا يفهم قادتي (جنرالاتي) معنى الاقتصاد الحربي**». وكان لزاماً على غودريان قيادة مجموعته المدرعة؛ والانتقال بها إلى قطاع مجموعة جيوش الجنوب لدعم الهجوم على **كييف**. وقد بدأ غودريان هجومه يوم ٢٥ آب ــ اغسطس ــ فدارت معارك طاحنة؛ حيث كانت القوات السوفييتية تتدفق باستمرار، وجابه غودريان مآزق حرجة إلى أن تم الاستيلاء على كييف يوم ١٩ أيلول ــ سبتمبر ــ ١٩٤١، أي بعد ثلاثة أسابيع من القتال العنيف، وتم أسر ١٣٠ ألف جندي سوفييتي، (وبلغ مجموع الأسرى في معركة كييف ٢٩٠ ألفاً) غير أن القيادة السوفييتية، تابعت زج قوات احتياطية جديدة؛ فاستمر القتال (٢٦ أيلول ــ سبتمبر) وارتفع عدد أسرى القوات السوفييتية إلى ٦٦٥ ألف جندي. ويظهر ذلك مدى الصراع العنيف الذي احتدم على هذا القطاع من الجبهة.

أصبح باستطاعة غودريان العودة إلى تنفيذ مخططه السابق للهجوم على موسكو. وكان التقدم على اتجاه **اورل ــ بريانسك** هو المرحلة الأولية. فنقل مقر قيادته إلى مدينة روسلافل. وقد خاضت قوات غودريان صراعاً مرّاً طوال تحركها إلى أن وصلت اورل يوم ٣ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وقام غودريان على الفور بدفع الفيلق المدرع ٢٤ للاستيلاء على موين، على طريق تولا. وتم تنفيذ هذا الواجب بنجاح في اليوم التالي. وأطلق على مجموعة البانزر الثانية، التي كان يقودها غودريان، اسم (الجيش المدرع الثاني) يوم ٦ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤١. وفي هذا اليوم ذاته، نقل غودريان مقر قيادته إلى مدينة سييفسك. وجاء هجوم الشتاء مبكراً؛ فقد سقطت الثلوج في ليل ٦ ــ ٧ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ لتعيق تحرك قوات غودريان. ثم جاءت الهجمات المضادة

السوفييتية لتخلق المزيد من المتاعب، التي زاد من حدتها افتقار القوات الألمانية للثياب والوسائط الضرورية للوقاية من البرد الشديد. وبالرغم من ذلك؛ تابعت قوات غودريان تقدمها؛ واستطاعت تطويق قوات سوفييتية هامة، في جنوبي برنيسك. ولم تلبث هذه القوات أن استسلمت يوم ١٧ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وأسرت قوات غودريان ٥٠ ألف مقاتل، واستولت على ٤٠٠ مدفع.

وتابع الجيش المدرع الثاني (جيش غودريان) تقدمه على اتجاه اورل ــ تولا. ولم يكن التقدم سهلاً. فقد تحولت البلاد إلى محيط من الجليد؛ وأظهرت القوات السوفييتية كفاءة عالية في تفجير الجسور وتنظيم العوائق على الطرق. وبعد مسيرة شاقة، وصلت قوات غودريان إلى اوكا. يوم ٢٦ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ وبعد ثلاثة أيام وصلت حتى مسافة ٤ كم من تولا، حيث بدأت مرحلة من الصراع المر لإيقاف كل تقدم ألماني نحو موسكو. وتمركزت القوات الألمانية ــ دفاعياً ــ وأخذت في صد الهجمات المضادة المستمرة؛ والقيام بهجمات محدودة. وقام غودريان بجولة تفقدية لقواته يوم ٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٤١. وكتب على أثرها رسالة جاء فيها:

«تعيش الوحدات في الألم؛ وقضيتنا تسوء؛ لأن العدو يكسب الوقت ويتقدم أكثر فأكثر في فصل الشتاء. ولقد انتابني حزن شديد؛ فأقوى الإرادات تتحطم أمام هذه العوائق. وتتلاشى المناسبات الملائمة للقيام بضربة قوية يوماً بعد يوم. ولا أعرف إذا كانت ستتاح لنا مناسبة مماثلة. والله وحده يعرف ما قد يحصل. ينبغي ألا نفقد الأمل؛ وألا ندع الشجاعة تتحطم. لكن التجربة الحالية صعبة جداً. أتمنى أن أتخذ عما قريب لهجة أكثر تفاؤلاً ومرحاً. ليس اليأس من صفاتي، إنما من الصعب التظاهر بالسرور».

كانت درجة الحرارة تنقص عن ٢٢ درجة مئوية (سنتيغراد) وحتى ٢٥ درجة أحياناً. وكان من المحال القيام بأعمال حاسمة. لقد توقفت قوات غودريان على بعد ٢٢ كم عن موسكو يوم ٥ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٤١. وفي اليوم ذاته، كان الجيش المدرع الرابع بقيادة هوبنر والجيش الثالث بقيادة رينهاردت، قد توقفا على بعد ٣٥ كم من الكريملين؛ وإلى الشمال منه. وفي هذا الوقت ذاته تعاونت القوات السوفييتية مع الطبيعة الصعبة؛ فشنت هجوماً كبيراً على جبهة كالينين. فرأى غودريان أن الحل الأفضل والأمثل؛ هو سحب القوات الألمانية وتجميعها في مناطق مناسبة؛ وترك قوات خفيفة في المناطق ذات الأهمية، استعداداً لمتابعة الهجوم في فصل الربيع. غير أن هتلر لم يكن على استعداد لقبول فكرة سحب القوات، أو التخلي عن شبر واحد من الأرض. وظهر ذلك واضحاً خلال مناقشة غودريان لهتلر يوم ٢٠ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٤١. وعندما ألح غودريان على شرح بؤس حالة الجنود، وتدهور الموقف؛ والاستنزاف الخطير للقوى والوسائط؛ قال له هتلر:

« انني أعلم أنك عملت بجد ونشاط ؛ وأنك رافقت الوحدات . أعترف بذلك ؛ لكنك قريب من الحوادث وتتأثر بآلام الجندي ؛ وأنت تشفق عليه . فعليك أن تبتعد قليلاً عن الوحدات . صدقني ؛ سترى الأشياء من بعيد بوضوح أكثر » . ورد غودريان : « إن واجبي يدعوني للتخفيف من آلام جنودي قدر المستطاع . وهذا بدهي . لكن ذلك صعب ؛ لأن الرجال لا يملكون آلألبسة الشتوية وتسير المشاة بأكملها بألبسة العمل . أما الأحذية والألبسة الداخلية والقفازات والقبعات الشتوية فهي كلها مفقودة » . وعاد غودريان ، وهو يحمل شعوراً مراً بخيبة الأمل ، وتذكر ما كان يقوله له زملاؤه : « أيها الكاهن ؛ أيها الكاهن الصغير ؛ إنك تسير في طريق وعر » . أجل ؛ إنه طريق وعر ؛ لكنه لن يتوقف في وسط الطريق ، وسيتابع الصراع من أجل جنوده . إلا أن القيادة العليا لن تعجز عن إيجاد الحل ، فأصدر هتلر أمره يوم ٢٦ كانون الأول ــ ديسمبر ــ بنقل غودريان إلى احتياط قيادة الجيش البري العليا . وغادر غودريان مقر قيادته . ووجه رسالة إلى قواته :

الجنرال قائد الجيش المدرع الثاني العام

مقر قيادة الجيش ٢٦ / ١٢ / ١٩٤١

أمر إداري

يا جنود الجيش الثاني المدرع

إن الفوهرر القائد العام للقوات الألمانية قد فصلني عن قيادتي .

في اللحظة التي أفترق بها عنكم أتذكر الأشهر الستة الماضية التي قضيناها في المعارك المشتركة التي خضناها من أجل شرف بلادنا وانتصار سلاحنا . وأذكر بخشوع من ضحوا بدمهم وحياتهم من أجل ألمانيا .

يا رفاق القتال ! أشكركم من أعماق قلبي لوفائكم وانكاركم للذات وصداقتكم الحقيقية التي برهنتم عليها طوال هذه الفترة . لقد ارتبط مصيرنا في جميع الأحوال . وكان سروري كبيراً عندما كنت أضحي في سبيلكم أو أساعدكم قدر إمكاناتي .

إلى الوداع ! انني أعلم أنكم ستقاتلون بالشجاعة التي قاتلتم بها دائماً . وستنتصرون على الرغم من شدة الشتاء وتعداد الخصم . سترافقكم أفكاري في طريقكم الشاقة . وتذكروا أنكم تسيرون عليها من أجل مجد ألمانيا ــ يحيا هتلر

التوقيع : غودريان

○

* وصل غودريان إلى برلين في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤٢ ؛ وقد حمل في نفسه ثورة غاضبة على المعاملة التي عومل بها ؛ وبلغه ما تردد في وسط القيادة العليا بشأنه ، حيث

قيل: «لقد عومل هذا الرجل معاملة غير عادلة؛ إن جيشه يقف إلى جانبه ويرتبط به ارتباطاً شديداً. وعلينا السعي إلى طريقة تعيد الأمور إلى نصابها». وعلى هذا الأساس تقدم غودريان بطلب لإحالته إلى مجلس حربي؛ وفتح تحقيق معه. إلا أن هتلر رفض الطلب. وعلى كل حال؛ فلم يكن غودريان وحده الذي تعرض للنقل من قيادته؛ بل صدرت عن القيادة أوامر نقل شملت عدداً كبيراً من القادة الأكفاء؛ من أمثال فون رونشتد، وفون ليب، وسواهما كثير.

أمضى غودريان سنة ١٩٤٢ متنقلاً بين عزلته في منزله وبين المصحات والمستشفيات بسبب تفاقم مرض قلبه. ولم يستعد بعض صحته إلا في نهاية العام ١٩٤٢. وبينما كان غودريان يتخذ الإجراءات للانتقال إلى منزل صغير في جنوبي ألمانيا، وصله أمر استدعائه لمقابلة هتلر يوم ٢٠ شباط ــ فبراير ــ ١٩٤٣. ولاحظ غودريان فوراً مدى التغيير الذي طرأ على هتلر منذ آخر لقاء له معه في ٢٠ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٤١. لقد بدت عليه ملامح الشيخوخة؛ خلال هذه الفترة القصيرة؛ ولم يعد حازماً كعهده سابقاً. بل أصبح يتكلم بتردد؛ ويده اليسرى ترتجف. وبدأ هتلر حديثه بالقول:

«لقد افترقت طرقنا منذ العام ١٩٤١؛ وحدث في هذه الفترة كثير من سوء التفاهم يؤسفني وقوعه. إنني أحتاج إليك». ووافق غودريان على بذل كل جهد ممكن على أن تمنح له حرية العمل الكاملة في إعادة تنظيم السلاح المدرع. وأصدر هتلر (توجيهاً ــ إلى مفتش الوحدات المدرعة العام ــ غودريان) في يوم ٢٨ شباط ــ فبراير ــ منحه فيه سلطات واسعة. وعاد غودريان للعمل بحماسته المعهودة، وأمكن له دفع عجلة الانتاج الحربي بقوة، كما أمكن له تشكيل فرق مدرعة جديدة، وتسليحها بالدبابات الجديدة (التايغر ــ والبانتر). إلا أن الحرب كانت تستهلك أضعاف ما كان يتم إنتاجه. وعاد الخلاف ليظهر من جديد في مناسبات عديدة، مثل التوقف عن دعم الجبهة الشرقية، والتركيز على جبهة الغرب؛ وفقاً لما كان يراه هتلر وحاشيته؛ في حين كان رأي غودريان يتلخص بضرورة دعم جبهة الشرق بكل جهد مستطاع؛ ولو كان ذلك على حساب جبهة الغرب. كما كان يحدث خلاف بشأن مواقف هتلر من قادة الجيوش وضباط هيئات الأركان، حيث كان يريد هتلر، باستمرار، تحميلهم أسباب الفشل والهزائم. وكان غودريان يتخذ الموقف المضاد شعوراً منه ببراءة المتهمين مما ينسب إليهم من اتهامات. ووصلت الأمور إلى نهايتها في المقابلة العاصفة التي جرت بين هتلر وغودريان يوم ٢٩ آذار ــ مارس ــ ١٩٤٥، حيث دافع غودريان عن مواقف بعض القادة. فما كان من هتلر في النهاية إلا أن ختم المقابلة بقوله: «يا أيها الجنرال غودريان؛ تتطلب صحتك إجازة نقاهة لمدة ستة أسابيع... أرجو أن تهتم بصحتك؛ بعد ستة أسابيع سيصبح الموقف حرجاً، وسأحتاج إليك بصورة ملحة. أين تريد قضاء نقاهتك؟».

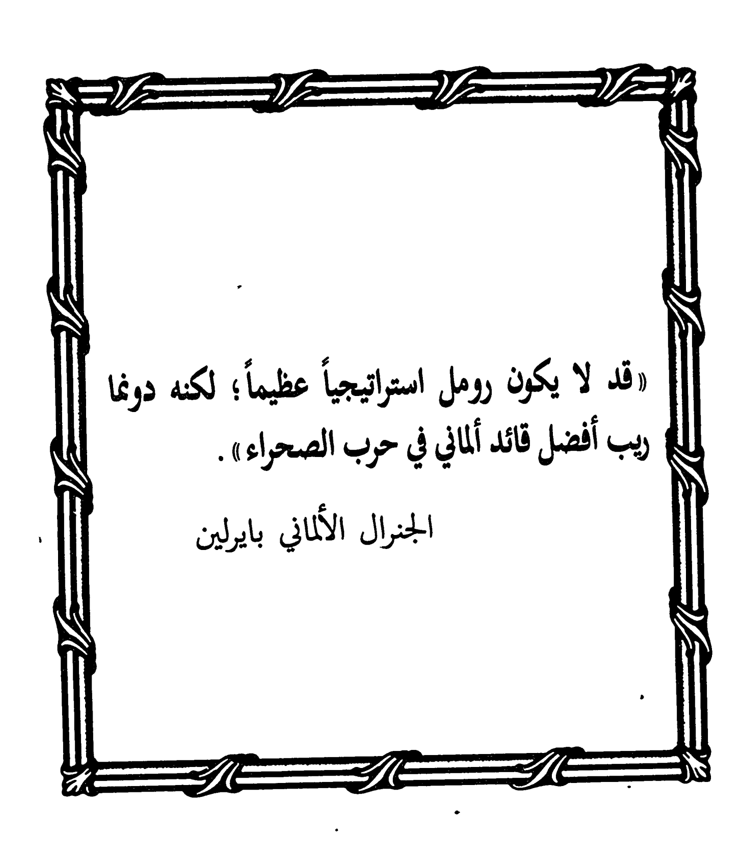
كانت قوات الحلفاء تطرق أبواب برلين من الغرب ؛ فيما كانت القوات السوفييتية تطرقها من الشرق . واستأذن غودريان هتلر أن يترك له حرية اختيار مقر إقامته .

ومضى غودريان إلى منزله . وأمضى فترة في مصح اينهوش ، قرب ميونيخ ، وما لبثت القوات الأمريكية أن ألقت عليه القبض في مقاطعة التيرول يوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٥ . وانتهت بذلك « حياة جندي » .

الفصل الثامن

قائد حرب الصحراء

٨ ــ الماريشال رومل



«قد لا يكون رومل استراتيجياً عظيماً ؛ لكنه دونما ريب أفضل قائد ألماني في حرب الصحراء» .

الجنرال الألماني بايرلين

الوجيز في حياة رومل

١٨٩١ ـــ ١٩٤٤ م

التاريخ	وجيز الأحداث
١٨٩١	١٥ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ـــ ولادة اروين رومل في مدينة هايدن هايم
١٩١٤	تخرج من الكلية الحربية برتبة ملازم ؛ وعين في كتيبة المشاة السادسة .
١٩١٥	خدم في فوج جبلي في منطقة جبال الفوج .
١٩١٨	في كتائب المشاة (قائد سرية) .
١٩٢٩	تعيينه مدرساً في الكلية الحربية في شتوتغارت .
١٩٣٣	قائد كتيبة مشاة .
١٩٣٥	نقله إلى وزارة الحرب .
١٩٣٥	تعيينه مدرساً في كلية الحرب بوتسدام .
١٩٣٨	تعيينه مديراً للكلية الحربية نويشتاد .
١٩٣٩	نقله إلى وزارة الحرب .
١٩٤٠	تعيينه قائداً لفرقة المدرعات السابعة (الفرقة الشبح) .
١٩٤١	تعيينه قائداً للفيلق الافريقي .
١٩٤٢	تعيينه قائداً أعلى للقوات الألمانية ـــ الايطالية .
١٩٤٣	نقل الفيلد ماريشال رومل إلى هيئة الأركان العامة .
١٩٤٣	تعيينه قائداً أعلى لمجموعة الجيوش (ب) في فرنسا وهولندا وبلجيكا .
١٩٤٤	قائد احتياطي في القيادة العامة .
١٩٤٤	١٣ تشرين الأول ـــ اكتوبر ـــ ١٩٤٤ وفاة رومل منتحراً بالسم الذي قدمه له مبعوث خاص بأمر هتلر .

Erwin - Rommel

٨ ـ الماريشال رومل

ما ذكرت حرب الصحراء؛ إلا وجاء اسمها مقترناً باسم قائد حرب الصحراء اروين رومل. وما جاء ذكر رومل إلا واقترن بتلك الخيـالات المثيرة والأعمـال القتاليـة المبدعـة التـي شملتها حرب الصحراء. ولم يكن ذلك الارتباط ظاهرة غير طبيعية في صنع الأحداث التاريخية؛ بل إنه جاء تعبيراً عن نموذج واضح للحدث التاريخي الذي التقت فيه شخصية القائد البطل رومل، بتطور معين في صناعة الحرب، وإدارتها (حرب الحركة أو الحرب الخاطفة) على مسرح محدد للأعمال القتالية (الشمال الافريقي). وإذن فلا بد من التعرض لهذه العوامل الثلاثة عند اقتران اسم رومل بحرب الصحراء.

لم يكن رومل ضابطاً مغموراً وصل في غفلة من الزمن إلى تسلم قيادة عليا في مسرح عمليات منفصل؛ ولو كان الأمر كذلك؛ لسقط بأسرع مما ارتقى؛ ولفشل من قبل أن ينجح؛ فالحرب لا تحتمل أشباه الرجال وأنصاف القادة؛ وعلى هذا فقد كان رومل يتمتع بكفاءات مميزة؛ وقدرات ذاتية خاصة؛ ساعدته، عندما توافرت له الظروف المناسبة؛ للتعبير عن وجودها. ومع تجاوز مراحل الطفولة المبكرة والمرحلة الأولى من شباب العمر؛ وفترة الإعداد العسكري التي قلما تفتح المجال بصورة صحيحة ودقيقة للكشف عن إمكانات (قائد المستقبل).

لقد عرف رومل طوال حياته العسكرية بأنه (رجل الفضائل)، فهو لا يدخن، ولا يشرب، ولا تسير به قدماه إلى مربعات اللهو الليلي؛ معتد بنفسه وواثق بإمكاناته، محب للناس؛ يستمتع بالدعابة اللطيفة والنكتة الحلوة. على استعداد دائم لمشاركة الآخرين في حمل أعبائهم، وتقديم المساعدة لهم عندما يحتاجونها ويطلبوها؛ مستقل بأفكاره؛ لا يحب الجدل؛ يحب الاستماع أكثر مما يحب الحديث، يجمع بين المرونة والقوة؛ حسن المظهر دائماً؛ واقعي وعملي، وحذر، وقوي الانتباه.

قد تكون هذه الفضائل متوافرة لدى عدد كبير من الناس؛ وهي فضائل من المفروض توافرها دائماً؛ غير أن الحياة الاجتماعية ــ المشتركة ــ للجنود، تبرز أهميتها بوضوح أكبر؛ حيث تتجلى هذه الفضائل بالايثار؛ والغيرية؛ والشجاعة؛ والاستعداد الدائم للتضحية؛ والقدرة على تحمل

المشاق؛ والصبر على احتمال كره القتال؛ وسوى ذلك مما هو موصوف تحت اسم (الفضائل الحربية). لقد كانت حياة الجندي اروين روميل قصة لهذه الفضائل؛ والتي برزت منذ الأيام الأولى لحياته في الميدان.

ذهب روميل في مهمة استطلاعية، ليجوس خلال المواقع الفرنسية في قرية بليد قرب لونغوي. واستغرق تنفيذ المهمة يوماً وليلة؛ تناول خلالها طعاماً فاسداً، فظهرت عليه أعراض التسمم؛ وأرهقه المرض والتعب؛ ومن عجب كيف استطاع البقاء ثابتاً على صهوة جواده. ثم طلب إليه أن يتوغل في الضباب وهو في هذا الحال؛ فمضى مع فصيلته لتوه. وما إن ارتاب الفرنسيون بوجود قوة غريبة تعمل في خطوطهم حتى فتحوا النار نحوهم. فأوقف فصيله؛ ومضى إلى الأمام ومعه رقيب وجنديين. وظهر له من خلال الضباب سياج مرتفع يحيط بكوخ في مزرعة. ثم رأى ممراً يصل هذه المزرعة بمزرعة أخرى، فسار فيه؛ وما إن وصل إلى المنعطف حتى بوغت بوجود خمسة عشر أو عشرين جندياً فرنسياً يقفون في عرض الطريق. ووقف روميل وهو في حيرة من أمره؛ هل يعود أدراجه لإحضار بقية أفراد فصيلته؟ أم ماعساه أن يفعله؟ إن اتخاذ قرار في موقف كهذا للمرة الأولى هو من أصعب الأمور في الحرب. ولقد أدرك روميل ما سوف يقوم به؛ المرة بعد المرة؛ في المستقبل. فهو وقد عرف قيمة المباغتة. فجمع رجاله الثلاثة؛ وأخذوا جميعاً في إطلاق النار من مكانهم؛ وسرعان ما تشتت أفراد العدو؛ ولجأ الأحياء منهم إلى مساتر تحميهم من النار المباغتة؛ ثم أخذوا هم أيضاً بإطلاق النار. وفي تلك الآونة؛ كان رجال فصيلة روميل يتقدمون، فقسمهم روميل إلى جماعتين. قامت المجموعة الأولى منهم بجمع القش والأخشاب تحت حماية المجموعة الثانية. ثم تقدم بالمجموعة الأولى واقتحم الأبواب؛ وأشعل النار في البيوت وعنابر (مستودعات) الحبوب. وطهر القرية بيتاً بيتاً. واختفى ورجاله بسرعة مثل سرعة ظهورهم المباغت في قلب خطوط العدو. وقد تكون هذه الحادثة مجرد عملية صغيرة لا أهمية لها، ولكنها وهي عمليته الأولى؛ كانت نموذجاً لجرأته واستقلاله في التفكير اللذين كانا طابعه في حياته العسكرية كلها. وعلى الرغم من مرضه؛ ومن المجهود الجبار الذي اقتضته (حرب الحركة) في تلك الحقبة؛ فقد مضى بعزم ثابت، فكان يغمى عليه أحياناً وهو يرفض الإعلان عن مرضه. ولقد كانت تدفعه الحماسة للعمل على ضوء النجاح الذي حققته عمليته السابقة (والتي نفذت يوم ٢٢ آب ــ اغسطس ــ ١٩١٤). إلا أنه أصيب بجرح في فخذه يوم ٢٤ أيلول ــ سبتمبر ــ بينما كان يهاجم ثلاثة من الفرنسيين في غابة قرب فارين. وأخذ قائد فوجه منذ ذلك الحين في زيادة الاعتماد عليه، لتنفيذ كل مهمة صعبة. واقترح منحه وسام الصليب الحديدي ــ من الدرجة الثانية. وما كاد جرحه يلتئم بعد ثلاثة أشهر حتى التحق بفوجه الأرغون، وهو يحمل وسامه على صدره. وما لبث أن استبدله بوسام الصليب الحديدي ــ من الدرجة الأولى يوم ٢٩ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩١٥. وذلك على أثر قيادته لفصيلة، تسلل بها

عبر ثغرة تمكن من فتحها عبر الأسلاك الشائكة، بعمق مئة متر، ووصل إلى المواقع الفرنسية الرئيسة، واحتل أربعة حصون؛ وأحبط هجوماً مضاداً قوته فوج؛ ورده على أعقابه. ثم انسحب إلى خطوطه؛ ولم تتجاوز خسارته ١٢ رجلاً. وكانت هذه العملية بدورها صغيرة أيضاً، إلا أنها أبرزت الاستعداد الكامن لدى رومل لاستثمار الموقف حتى أقصى الحدود؛ وهو غير عابىء بما يتضمنه عمله من المخاطرة والمجازفة.

- نقل رومل إلى فوج جبلي، بعد ترفيعه إلى رتبة ملازم أول. وقد تم تدريب هذا الفوج الذي كان قيد التشكيل؛ تدريباً ممتازاً طوال العام ١٩١٥ في جبال الفوسك. ولم يلبث أن نقل هذا الفوج لدعم فيلق الألب في جبهة رومانيا، وعهد إلى رومل قيادة إحدى وحداته. وقام رومل ببعض الأعمال التي يصعب تصديقها لو لم يتوافر شهود على تنفيذها. من ذلك، تسلله مع عدد قليل من الأفراد عبر خطوط العدو؛ ومد خط هاتفي في مناطق وعرة؛ يصعب السير في وديانها وحتى تمم جبالها. وكان يعمل أحياناً على جرف منحدرات سحيقة؛ وكان يتنقل فوق القمم بخفة، ولا يتوقف عن العمل لا في الليل ولا في النهار؛ سواء في الضباب الكثيف، أو البرد القارس، أو تحت أشعة الشمس الحارقة؛ وليس معه إلا قليل من الطعام والماء. وقد استطاع في شهر آب —اغسطس— ١٩١٧، أن يستولي على موقع روماني قوي التحصين؛ فتولى قيادة أربع سرايا، نظمها على طريقة الهنود الواحد تلو الآخر في رتل طويل. ومر خلال الغابات بين مخفرين عدوين يفصل بينهما الواحد عن الآخر ١٢٠ متراً لا أكثر. ولم يستطع أحد أن يكشف وجوده، هو وجنوده. وأمضى هو وجنوده أسبوعاً، لم يذق فيه طعم النوم حتى وصل إلى القمة (الهدف). وكان يمدد خطاً هاتفياً خلال تقدمه، ويحمل معه جرحاً عميقاً في ذراعه من رصاصة جاءته من الخلف، قبل أيام من هجومه هذا على الموقع الروماني.

كلف رومل بالاستيلاء على قرية غاجيتسي في شهر كانون الثاني —يناير— من السنة ذاتها واضطرته هذه المهمة أن يبقى ممدداً على الجليد في خطوط المخافر الأمامية الرومانية حتى الساعة العاشرة ليلاً. وكانت درجة الحرارة العاشرة تحت الصفر. وعندما جزم بأن الرومانيين كانوا يغطون في نومهم، فتح نيران أسلحته (الرشاشات والبنادق) على القرية؛ ثم أغار ببقية عناصره على المنازل، وقد شقوا بصراخهم عنان السماء. وأفاق الأعداء مذعورين، وخرجوا من منازلهم وهم يتعثرون ويتهافتون كالأنعام؛ حتى أحاط بهم من كل جانب؛ وأسر أربعمئة منهم؛ حشرهم في الكنيسة؛ وأوصد الباب من دونهم؛ وعاد من مهمته بخسائر لا تذكر.

بلغ رومل قمة حياته العسكرية في الحرب العالمية الأولى عندما احتل جبل ماتاجور في ٢٦ تشرين الأول —اكتوبر— ١٩١٧ الواقع جنوبي — غرب كاوريتو. فقد شن الايطاليون على النمساويين مجموعة من الهجمات المضادة التي أرهقت النمساويين وحملتهم على طلب الدعم من

حلفائهم الألمان. واستجابت القيادة الألمانية للطلب رغم انشغال قواتها على كافة الجبهات. فأرسلت الجيش الرابع عشر المكون من سبع فرق ممتازة للهجوم على المواقع الايطالية في وادي ايزونزو. وألحق الفوج الجبلي بفيلق الألب؛ للقيام بهجومه في المنطقة الوسطى باتجاه ماتاجور. وأسند إلى الفوج الجبلي في اليوم الأول مهمة حماية الجناح الأيمن لكتيبة بافارية أسندت إليها مهمة قيادة الهجوم؛ ثم يسير الفوج بعد ذلك خلف الكتيبة البافارية. ولكن رومل لم يرغب في السير وراء الكتيبة البافارية؛ وتمكن من إقناع قائد فوجه بالسماح له للسير على يمين الكتيبة؛ ليقوم بالهجوم على المواقع الايطالية وحده؛ وبصورة مستقلة عن الفيلق البافاري. وحصل على الموافقة لتنفيذ إقتراحه. وبينما كانت القوات النمساوية متوقفة؛ لتعذر تقدمها؛ قاد رومل جنوده قبيل الفجر؛ عبر الجبهة الايطالية؛ دون أن يستثير انتباه العدو؛ وتمكن مع جماعة من قوته أن يتوغل مع الفجر داخل الخطوط الايطالية، وأسر بطارية مدفعية باستخدام الانقضاض بالحراب، قبل أن تتمكن هذه من إطلاق ولو طلقة واحدة؛ ثم ترك سرية من قوته للتمسك بالأرض وتوسيع الثغرة. ومضى قدماً وهو يتوغل في مؤخرة الايطاليين. وعاد أدراجه بعد برهة لمساعدة السرية الأولى التي تعرضت لهجوم فوج ايطالي كامل. وقد باغت رومل الايطاليين من خلفهم، فاستسلموا له جميعهم. فبعث برسالة لقائد فوجه ومعها أكثر من ألف أسير ـــ تحت الحراسة ـــ فما كان من قائد فوجه؛ إلا أن تقدم ومعه أربع سرايا أخرى؛ أضافها إلى قوة رومل؛ وطلب إليه متابعة اختراق خطوط العدو حتى الوصول إلى المناطق الخلفية. ووجد رومل أثناء تقدمه طريقاً محجوباً عن الأنظار، فسلكه بعد أن أخذ رجاله تنظيم الرتل الأحادي؛ وساروا فيه مسافة أربع كيلو مترات تقريباً؛ في حين كان الايطاليون منصرفين إلى المعركة الرئيسة وإلى مجابهة الإغارات الجوية التي كانت تزداد عنفاً عليهم؛ فتصرفهم عن الانتباه لما كان يحدث خلف خطوطهم.

وأفاد رومل من ذلك؛ فعمل بهدوء؛ ونشر قواته على الطريق الرئيسي الممتد في العراء؛ خلف خطوط العدو؛ وأسر رتلاً من سيارات التموين؛ وسيارة هيئة أركان؛ و ٥٠ ضابطاً وألفي مقاتل؛ من رجال لواء برزاغليري الرابع. وركب في سيارة هيئة الأركان التي أسرها؛ وقام بعملية استطلاع سريعة؛ ثم قرر المضي إلى جبل ماتاجور مفتاح مواقع العدو؛ ضارباً في عرض الريف في خط مستقيم نحو الجبل. وقد أمضى بقية نهاره وسواد ليله وهو يسير برجال أنهكهم التعب وطول المسير. ووجد رومل نفسه عند الفجر وهو أمام مخيم سالبرنو فأخذ ضابطين وبعضاً من المشاة، وتقدم إلى جماعة من الجنود الايطاليين المسلحين، وأمرهم بالاستسلام. فاستسلم له بعد برهة وجيزة ٤٣ ضابطاً و ١٥٠٠ جندي؛ وقد صعقتهم المباغتة. واحتل رومل قمة جبل ماتاجور بعد أن قضى خمسين ساعة لم يتوقف خلالها عن المسير؛ وقطع عشرين كيلو متراً في الجبال؛ يطير فوقها كما يطير العقاب على قمم الجبال؛ وصعد جبالاً زاد ارتفاعها على ألفي متر. وقد منح رومل على إثر نجاحه المذهب في هذه العملية (وسام الاستحقاق) الذي لم يكن يمنح إلا لكبار القادة؛ ورفع إلى رتبة نقيب.

كان رومل يتجنب أعمال القتال الجبهية، ولكنه كان إذا ما اضطر للهجوم الجبهي؛ يعمل على تركيز نار شديدة على كافة قطاع الخرق مع التركيز بدرجة أكبر على مركز الخرق، ثم يندفع بهجوم حاسم على جبهة ضيقة. ويعمل بعد ذلك على توسيع الثغرة باستخدام النار الجانبية على خطوط العدو، فيما يندفع باستمرار للأمام لضرب مؤخرة العدو. وبذلك يكون رومل قد تبنى بدقة، ومنذ أيام الحرب العالمية الأولى خطط الاختراق والتوغل بعمق؛ والتي سيعمل على تطويرها وتطبيقها على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية؛ عندما تتوافر له قوات الصدمة ممثلة (بدبابات البانزر).

تلك هي بعض الفضائل الحربية التي توافرت للضابط رومل. وكان لا بد لهذه الفضائل من أن تنمو وتكبر؛ كلما تقدم رومل في مجال الخدمة العسكرية، وكلما كبرت رتبته وتزايدت مسؤولياته واتسع نطاق عمله. غير أن بروز هذه الفضائل كان يحتاج للمجال الذي يسمح ببروزها. وقد جاء هذا المجال طوعاً في شمال أفريقيا؛ وهو يحمل صورة مناقضة تماماً لما كان متوافراً لدى رومل من الإمكانات والقدرات؛ وكان ذلك برهاناً جديداً في التاريخ على تناقض الأضداد. إذ لو كانت القيادة الايطالية؛ على هذا المسرح من مسارح العمليات؛ على درجة من الكفاءة والقدرة؛ لما كانت هناك حاجة لتدخل رومل. ولو كانت القيادة الايطالية تمتلك فضائل رومل، لما برزت فضائل رومل في ميدان كان يفتقر كل الافتقار للفضائل.

كان الماريشال الايطالي غرازياني[٣٣] قد حقق أمجاده على حساب العرب في طرابلس وبرقة (ليبيا) ثم على الحبشة (اثيوبيا). فقد تصدت ايطاليا بكل ثقلها لجيش عمر المختار المعزول عن كل دعم خارجي؛ والمحروم من كل وسائط القتال. ثم على جيش الحبشة الهزيل. غير أن غرازياني لم يكن ذلك القائد الذي يستطيع إدارة الحرب الحقيقية.

كان الماريشال الايطالي غرازياني قد اجتاز الحدود الليبية ـ المصرية يوم ١٨ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٠. فطرد القوات البريطانية منها. واحتل في اليوم التالي سيدي براني. وكانت بريطانيا لا تمتلك آنئذ سوى قوات ضعيفة بقيادة الجنرال ويفل[٣٤]. وكانت هذه القوات على ضعفها

(٣٣) غرازياني: Graziani - Rodolfo ماريشال ايطالي، ولد في فيلينتو سنة ١٨٨٢؛ أصبح نائب ملك اثيوبيا (الحبشة) سنة ١٩٣٦؛ ثم رئيساً لهيئة أركان الجيش الايطالي ١٩٣٩ ـ ١٩٤١.

(٣٤) الجنرال ويفل: Sir Archibald Percival Wavell ١٨٨٣ ـ ١٩٥٠ فيلد ماريشال بريطاني؛ خدم في جنوبي أفريقيا والهند قبل الحرب العالمية الأولى؛ وحارب في البلاد العربية بصورة رئيسة فأصبح قائداً أعلى للقوات البريطانية في المنطقة العربية ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ وخاض خلال هذه الفترة حروباً كثيرة في مناطق متباعدة بقوات قليلة في: اليونان وكريت والحبشة وكينيا وسوريا والعراق. وكانت أكبر معاركه ضد الايطاليين في حرب الصحراء. لم تكن علاقته جيدة برئيس الوزراء البريطاني تشرشل الذي نقله إلى الهند في ١ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤١. وسرعان ما اتسع مسرح عملياته فشمل الملايو وشبه جزيرة سنغافورة ثم الهند الشرقية. وكانت مهمته ايقاف تقدم اليابانيين. وحقق نجاحات مذهلة. فتمت تسميته نائب ملك الهند ١٩٤٣ ـ ١٩٤٧ من أشهر مؤلفاته (حملات فلسطين) و(اللنبي) و(القائد والقيادة).

وقلة أعدادها؛ منتشرة على جبهة تمتد مسافة ثلاثمئة كيلو متراً، ما بين واحة سيوه في الداخل وخليج السلوم على البحر. وقد حاول ويفل خديعة عدوه؛ وتضليله؛ طوال أسابيع؛ ليتركه في جهل تام عن حجم قواته وقدراتها الدفاعية؛ وليعطيه فكرة خاطئة عن الموقف الحقيقي للقوات البريطانية. ويظهر أن مناورات ويفل حققت هدفها. فتوقف غرازياني عند سيدي براني، الأمر الذي أذهل المراقبين العسكريين في العالم، لأنهم لم يستطيعوا تفسيراً لهذا التوقف؛ حيث أخذ غرازياني في تنظيم الأرض دفاعياً وتحصينها، وإقامة نقاط قوية في الجنوب من أجل إقامة قاعدة انطلاق قوية ومأمونة، تسمح له باستئناف الهجوم. كما أخذ أيضاً في إقامة معسكرات ومستودعات عديدة للذخائر والمواد التموينية؛ وفتح الآبار؛ وبناء المواقع الحصينة. وهكذا سمح للجنرال ويفل باستثمار عامل الوقت، لتنظيم الهجوم المضاد. حيث انطلقت القوات البريطانية المدرعة يوم ٩ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٩٤٠؛ وتسللت من بين الثغرات حتى وصلت إلى مؤخرة القوات الايطالية. فانهارت المقاومة بسرعة؛ ودخل البريطانيون مدينة سيدي براني يوم ١١ كانون الأول ــ ديسمبر ــ وتبعتها مدينة البردية يوم ٥ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤١. ووقع في الأسر حوالي ٣٠ ألف ايطالي. ثم قامت فرقتان مدرعتان بريطانيتان مع ثلاث فرق مشاة بالهجوم على طبرق يوم ٢٠ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٤١. وتبعد طبرق ــ على ما هو معروف ــ عن الحدود الليبية ــ المصرية مسافة ١٥٠ كيلو متراً؛ وهي تشكل قاعدة بحرية هامة ونقطة استناد برية، ورغم أهميتها فقد انسحبت القوات الايطالية منها؛ بدون قتال؛ ودخلها البريطانيون يوم ٢٣ كانون الثاني ــ يناير ــ وتبعتها مدينة درنة. واندفعت القوات البريطانية حتى وصلت الجبل الأخضر (جبل سرت). ولم يبق في قبضة غرازياني سوى فلول قوات ممزقة، وسوى بعض القوات التي تبعد حوالي ٥٠٠ كم بعيداً عن الجبل الأخضر. وكان باستطاعة ويفل طرد القوات الايطالية من ليبيا كلها؛ لو توافرت له قوات إضافية. وعندما توقف ويفل كان قد تجاوز مسافة ٨٠٠ كم وأسر ١٣٠ ألف جندي وغنم ٤٠٠ دبابة و١٢٩٠ مدفعاً؛ بالاضافة إلى كميات هائلة من العتاد؛ بما في ذلك أغطية الفرش النظيفة والأسرة الوثيرة؛ والقمصان الحريرية، وأدوات الزينة المركبة الموضوعة في حافظات من الجلد الفلورنسي النفيس؛ وكثيراً من العطور ومعاطف الخيالة الزرقاء، والخمور والمشروبات المختلفة؛ يضاف إلى ذلك كله قافلة آلية تحمل الغيد الحسان (المخصصة للضباط فقط). وكان ذلك بعض عدة غرازياني للحرب.

قصور في إدارة الحرب؛ وعدم استعداد للقتال؛ وانعدام في إرادة القتال؛ وتحلل من الفضائل، (وفضائل الحرب خاصة) تلك هي بعض الثغرات التي برزت في قيادة غرازياني، وفي القيادة الايطالية عامة، ويقابلها صفات ومميزات مضادة تماماً لدى روسل ولدى القيادة الألمانية عامة. فهل كان أمراً غريباً أن يظهر روسل وقيادته ظهوراً رائعاً، حتى في مجال المقارنة

للفضائل ؟. هذان عاملان فقط، أولهما (فضائل رومل الحربية) وثانيهما (طبيعة مسرح العمليات) والموقف المتدهور، يوم طلب إلى رومل الإسراع لنجدة حليف يحتضر وهو في حالة الانهيار. أما العامل الثالث فهو الإنجاز الألماني في تطوير وسائط (حرب الحركة)، على نحو ما سبق عرضه في قصة غودريان وقصة غورنغ من قبله. ويتطلب هذا العامل العودة برومل وقصته إلى بداية الحرب العالمية الثانية.

أمضى رومل فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ وهو يتجرع مرارة الهزيمة، ويعد للحرب ويستعد لها، شأنه في ذلك شأن معظم الضباط الألمان الذين عانوا من قسوة الظروف التي انتهت إليها الحرب العالمية الأولى؛ وما أعقبها من اضطراب وفوضى واضطهاد؛ حتى إذا ما أخذ الحزب الاشتراكي الألماني (النازي) في شق طريقه للسلطة؛ وقد تمثل طموحات الشعب الألماني وأهدافه في الثأر والانتقام، وبناء (ألمانيا العظمى). كان رومل في جملة من ساروا في ركب الحزب. وكان أول لقاء له مع هتلر في كزلار سنة ١٩٣٥؛ حيث كان رومل قائداً للفوج الجبلي فيها، وحيث تقرر أن يقيم الحزب مهرجاناً فيها. وفي الموعد المحدد، اتخذت الترتيبات؛ ورفعت الأعلام، وزينت أماكن الاحتفال؛ وعزفت الموسيقى؛ وتدفق أبناء القرى المجاورة بلباسهم الوطني (الشعبي). وكان من الطبيعي أن يستعرض هتلر فوج رومل. فلما اتخذت الاستعدادات لعرض الفوج، جاء أحد قادة الوحدات س. س وأخبر رومل أن نسقاً من الوحدات سيسير في مقدمة الفوج، ليقوم بحماية الفوهرر. فأجاب رومل بأن فوجه لن يشترك في هذه الحالة في العرض. وسرعان ما تمت تسوية المشكلة بتدخل هملر وغوبلز. وقام فوج رومل بتأمين الحماية، والتقى رومل بهتلر، فكان لقاؤهما رسمياً للغاية؛ فحياه رومل؛ ثم تقدم إليه وتصافحا؛ ولاحظ هتلر وسام الاستحقاق على صدر رومل وهنأه على أعمال فوجه.

عين رومل بعد ذلك مدرباً في الأكاديمية الحربية ببوتسدام؛ وهو برتبة عقيد؛ في ١٥ تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٣٥. وبقي فيها حتى ٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٣٨ حيث عين مديراً للأكاديمية الحربية في وينرنوستادت، بعد أن أصبح يحمل رتبة عميد، منذ سنة، وكان هتلر قد قرأ كتاب (هجوم المشاة) فأعجب بمؤلفه رومل؛ وعينه قائداً للفوج المسؤول عن حمايته خلال اجتياح إقليم السوديت، في تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ثم عهد هتلر إلى رومل مرة أخرى بقيادة الفوج المسؤول عن حمايته في أثناء دخوله إلى براغ يوم ١٣ آذار ــ مارس ــ ١٩٣٩. ويومها سأل هتلر رئيس حرسه رومل: «لو كنت مكاني ماذا كنت تصنع أيها العميد ؟». وأجاب رومل على الفور: «كنت أركب سيارة مكشوفة، وأجتاز الشوارع إلى هرادشين بدون حراسة». وأخذ هتلر بنصيحة رومل. وكان وجود رومل في القيادة وفي الكلية الحربية؛ عاملاً هاماً ساعده على تكوين فكرة واضحة عن (الحرب الخاطفة) التي كان يؤمن بفاعليتها ويتقن أساليبها. غير أنه كان

يشعر بالأسف ؛ إذ لم تتح له فرصة ممارسة قيادة فعلية في الميدان . ولهذا لم يكن غريباً أن يرد على هتلر يوم سأله : « ماذا تريد ؟ » فأجاب : « أن تعهد إلي بقيادة فرقة مدرعة » . وكان أن تسلم رومل قيادة الفرقة المدرعة السابعة في غويسبرغ على نهر الراين ؛ وذلك في يوم ١٥ شباط ــ فبراير ــ ١٩٤٠ ، حيث كانت القوات الألمانية تستعد لاجتياح الغرب . ووجد رومل قبل أن تتحرك فرقته متسعاً كافياً من الوقت للتعرف على ضباط فرقته وجنودها ؛ وإخضاع الفرقة لتدريب شديد ؛ وعمل مع غودريان على دراسة كتب الجنرال الانكليزي المختص بقتال الدبابات فولر والكاتب العسكري الانكليزي ليدل هارت . مع الإفادة من الدروس المستخلصة من تجربة الحرب البولونية . ولما صدرت الأوامر باجتياح بلجيكا ؛ كانت الفرقة على أهبة القتال . وكان رجالها يعلمون حق العلم أن قائدهم رومل مهما ارتكب من أخطاء ، فهو معصوم من خطأ التردد للمضي قدماً إلى الأمام . وجاء يوم الهجوم ١٠ أيار ــ مايو ــ ١٩٤٠ ، وفي يوم ١٣ منه كان على فرقة رومل أن تعبر نهر الموز . كان البلجيكيون يقاتلون بضراوة من البيوت التي حولوها إلى مواقع محصنة ، واستخدموا ملاجئها لاستخدام مدافعهم المضادة للدبابات . كما عملوا على نشر مدافعهم الثقيلة في مرابض منيعة مبنية من الاسمنت المسلح . وكان على رومل أن يغوص في الماء حتى وسطه لمساعدة رجاله في نقل العمد الثقيلة ، وإقامة الجسور ، وهو يردد « سأساعدكم بيدي » . وبقي معهم حتى أشرف العمل على نهايته . وسرعان ما انتشرت هذه القصة بين أفراد الفرقة . لقد استعاد رومل شهرته القديمة بأنه لا يكلف أحداً للاضطلاع بعمل لا يقوم به هو ذاته . وقام الفرنسيون عند المساء بهجوم معاكس بالدبابات والمشاة ؛ ولكنهم دحروا وردوا على أعقابهم . ولما جن الليل ؛ كانت الفرقة السابعة تعبر النهر ؛ ودبابة رومل تمشي في المقدمة .

تجاوزت الفرقة المدرعة السابعة في يوم ١٥ أيار ــ مايو ــ مسافة بعيدة وحدات الفرقة الخامسة التي كانت تسير على ميمنتها ، وأسر رومل في الليل بطارية مدفعية فرنسية ، كانت تتقدم لتحتل مرابضها من أجل دعم قوات المشاة .

اقتحمت فرقة رومل في الليل التالي امتداد خط ماجينو في المنطقة المحصنة إلى الغرب من كليرفي . وخنقت بنار مدفعيتها وبالضباب الاصطناعي الذي نشرته ؛ المواقع الخلفية من خط ماجينو ؛ فدمر المدفعية المضادة للدبابات والتي كانت محصنة بأبراج اسمنتية مسلحة . كما عزلت القرى الواقعة على جناحيها بالستار ذاته . ثم بدأت هجومها في الساعة الحادية عشرة ؛ مستفيدة من ضوء القمر ؛ وكانت تعليمات القيادة تقضي بألا تقوم الدبابات باستخدام مدافعها للرمي أثناء المسير . إلا أن رومل خالف هذه التعليمات ؛ وطلب إلى سدنة الدبابات الرمي أثناء المسير ؛ وقال : **« إن انعدام الدقة ؛ وما ينجم عنه من التبذير في الذخيرة ؛ يعوض عنه كثيراً بالنتائج المعنوية في مثل هذه الأحوال . وسنفعل كالبحرية ؛ حين تطلق رشقات نارها على الساحل والسفن »** .

وتجاوزت دبابات رومل في منتصف الليل مدينة أفيسن وتركتها والجنود الفرنسيون ما زالوا يحتلونها؛ والمدرعات الفرنسية تطلق نيرانها فيها على غير هدى؛ وفي كافة الاتجاهات؛ كما كان قتال الشوارع مستمراً على أشده؛ فيما كانت مدرعات رومل تطلق نيران مدافعها في أثناء سيرها على البطاريات المعادية المنتشرة على طرفي طريق تقدمها. وقد تخطت فرقة رومل فرقة آلية (ميكانيكية) فرنسية، كانت تتراجع على امتداد الطريق المكتظ بحشود اللاجئين. كما تخطت حشداً للمدرعات الفرنسية على جانبي الطريق؛ وذلك قبل أن تتاح الفرصة للفرنسيين الاشتباك مع المدرعات الزاحفة التي كانت تتبع دبابات رومل عبر آفيسن. وولى المشاة الفرنسيون الأدبار بعد أن ألقوا أسلحتهم؛ وهم ينشرون الذعر أمامهم. ولو أن القوات الفرنسية قد صمدت، لوضعت قوات رومل أمام مأزق صعب؛ ولا سيما أن مدافع الدبابات الألمانية؛ والمدافع المضادة للدبابات المحمولة مع فوج الدراجات النارية؛ لم يكن لها في البدء أي مفعول ضد الدروع الثقيلة للدبابات الفرنسية التي كانت منتشرة في آفيسن. وقد نجحت كتيبة مدفعية من قوات رومل في أسر ٤٨ دبابة فرنسية؛ لم يمسها سوء.

انقطع الاتصال في تلك الفترة مع لواء المشاة الذي كان يتحرك على مؤخرة الفرقة؛ والذي لم يكن يعرف شيئاً عن الثغرة التي أحدثتها ألوية الدبابات في خط الدفاع الفرنسي؛ ورغم ذلك؛ فقد زج رومل بكل ما هو متوافر له من الدبابات؛ وتابع تقدمه نحو الغرب في محاولة للوصول إلى نهر السامبر واحتلال رؤوس جسور عليه. ولقد استمر القتال طوال الليل؛ ثم شرع في الهجوم في الساعة ٣٠ر٥ صباحاً؛ واندفعت كتيبة الدبابات ٢٥ نحو لاندريس. وجابهت قوات رومل المتقدمة لهجوم من الجانبين بقوات آلية (ميكانيكية) على أن المشاة الفرنسيين وقد روعتهم المباغتة بظهور الدبابات الألمانية؛ استسلموا بسرعة؛ وتم الاستيلاء على لاندريس في الساعة ٠٠ر٦ صباحاً، وتم أسر عدد كبير من المحاربين الفرنسيين وهم بعد في ثكناتهم. واستولت قوات رومل على جسر على نهر السامبر، وذلك قبل أن يتمكن الفرنسيون من تدميره. وأمر رومل بجمع الأسلحة؛ فجمعت؛ ومرت الدبابات الألمانية فوقها فسحقتها. ومضت في تقدمها نحو لوكاتو، حيث أمرها رومل بالتوقف لفترة قصيرة؛ ريثما رجع إلى المؤخرة وتولى قيادة لواء المشاة وبقية القوات لإعادة تنظيم الفرقة؛ واستئناف التقدم بمجموع ألوية الفرقة. وفي أثناء ذلك؛ تعرضت كتيبة الدبابات ٢٥ لهجوم مضاد شنته قوة من الدبابات الثقيلة الفرنسية. ونجح الفرنسيون في استعادة بومروي. غير أن قوات رومل المتقدمة من الخلف طردت القوات الفرنسية؛ وتقدمت مدفعية الفرقة فاحتلت مرابض لها في مواقع متقدمة مساء يوم ١٧ أيار — مايو — وأمكن الاستيلاء على جسر آخر على نهر السامبر في بيرليمون، مما أتاح لفرقة البانزر الخامسة؛ التي تركت بعيداً في الخلف؛ أن تتقدم وتعبر النهر على يمين رومل.

لقد اندفع رومل بفرقته إلى الأمام على شكل سهم ضيق بلغ طوله خمسين كيلو متراً؛ ولم

يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات؛ وكأنه أصبع مسدد إلى قلب فرنسا. وكان هذا الاندفاع بمثابة مجازفة خطيرة؛ لا سيما مع وجود قوات فرنسية على جانبيه. إلا أن اندفاع رومل وفرقته قد مكن من اختراق منطقة الحدود المحصنة بسرعة؛ وضمن السيطرة على نقطتي العبور الهامتين على نهر السامبر. مما أسهم في تطوير معركة فرنسا. وقد منح رومل صليب الفروسية مكافأة له على نجاحه الرائع. وبرهنت عمليات رومل على الأهمية الكبرى للتحرك السريع؛ والذي يتم تنفيذه بجرأة وتصميم. وانعكس ذلك على انقاص الخسائر في الأفراد والمعدات. إذ لم تخسر فرقة رومل حتى هذه المرحلة أكثر من ٣٥ قتيلاً و٥٩ جريحاً. مقابل أسر ١٠ آلاف مقاتل من قوات الحلفاء، والاستيلاء أو تدمير ١٠٠ دبابة و٣٠ مدرعة و٢٧ مدفعاً.

تابعت فرقة رومل تقدمها السريع؛ رغم الصعوبات التي تعرضت لها في تأمين الإمداد بالوقود؛ ورغم الإعاقة التي سببتها الهجمات المضادة؛ إلى أن تجاوزت كامبري في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٠ أيار ــ مايو ــ وعبرت قنال الشمال في ماركوانغ ثم تمركزت جنوب آراس. وأسرت في طريقها كثيراً من جند الفرنسيين الذين كانوا في ثكناتهم. وتخلفت بعض قوات الفرقة مما اضطر رومل للعودة مرة أخرى لقيادتها؛ وعندما وصل إلى المنطقة ما بين آراس و كامبري اصطدم بقوات معادية، حيث دارت معركة عنيفة استمرت عدة ساعات. ولقد كان للقتال الذي دار حول آراس أهمية خاصة، بالنسبة لرومل على الأقل، ذلك لأنه التقى بالبريطانيين في هذا المكان بالذات، خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ غير أنهم كانوا في الثانية أصلب عناداً وأشد تصميماً مما كانوا عليه في الحرب العالمية الأولى. وقد اندفع نحوه لواء المدرعات الأول التابع لفرقة المدرعات الأولى، وهو ينطلق من اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي؛ وهاجمه حول أشيكور وأغني ومزقوا فوج مدفعيته المضاد للمدرعات؛ وقتلوا أكثر سدنة مدافعه. وكان مما أذهل جنود رومل هو أن قذائف مدافعهم المضادة للدبابات لم تكن تؤثر في الدبابات البريطانية (١) حتى لو تم الرمي عليها من مسافة قريبة. إلا أن كتيبة مدفعية الميدان تمكنت من إيقاف هجوم الدبابات البريطانية، كما استخدمت بطارية المدفعية المضادة للطائرات من عيار ٨٨، وباغتت البريطانيين بفاعلية هذا السلاح الذي لم يحسبوا له حساباً. وأسهمت طائرات الشتوكا مساهمة كبيرة؛ مما حمل البريطانيين في النهاية على الانسحاب إلى آراس. وكانت كتيبة البانزر ٢٥ في تلك الآونة؛ تندفع كعهدها دائماً حتى وصلت إلى المرتفعات الواقعة جنوبي نهر السكارب في آك. وهنا أصدر إليها رومل أمراً بالاستدارة، ومهاجمة الدبابات البريطانية من الخلف. وخسر البريطانيون في معركة الدبابات التي تلت قرب أغني سبع دبابات؛ وستة مدافع مضادة للدبابات. في حين خسرت كتيبة دبابات البانزر ثلاث دبابات مارك ٤، وست دبابات مارك ٣، وبعض المدرعات الخفيفة؛ فكانت خسائرهم تزيد على خسائر البريطانيين. وكان هذا يوماً عصيباً خسرت فيه فرقة رومل ٢٥٠ مقاتلاً بين قتيل وجريح وأسير. ولكنها أسرت من البريطانيين ٥٠ جندياً.

استمر الصراع العنيف بعد ذلك حول سانت لو والتي تداولتها أيدي البريطانيين والألمان مرات متتالية؛ ورغم ذلك استطاعت قوات رومل تأمين رؤوس جسور لها على ضفتي غينشي ما بين ٢٦ و ٢٨ أيار ــ مايو ــ واحتلت الفرقة خطاً مقابل مدينة ليل نحو الشرق؛ ثم صدر أمر إلى الفرقة بالاستراحة غربي آراس. ولم تلبث أن صدرت إلى فرقة رومل الأوامر بالتحرك إلى فيكامب وسانت فاليري بمهمة تدمير أو أسر الفرقة البريطانية ايقوسيا والتي كان قد تم إنزالها إلى البر مؤخراً. وأسرع رومل يسابق الزمن؛ فعبر نهر السوم يوم ٦ حزيران ــ يونيو ــ وتمكن من القضاء على المقاومات الضارية التي حاولت إيقاف تقدمه. واستمر في تقدمه ليلاً ونهاراً؛ فوصل إلى نهر السين في ليل ٩ حزيران ــ يونيو ــ ثم وصل إلى البحر بين فيكامب وسانت فاليري في ظهر اليوم التالي. ودارت معارك استخدمت فيها كافة الأسلحة؛ حتى استسلمت سانت فاليري يوم ١٢ حزيران ــ يونيو ــ وأسرت قوات رومل في سانت فاليري ١٢ ألف أسير منهم ثمانية آلاف من البريطانيين، بالإضافة إلى الغنائم التي شملت ٥٨ مدرعة و٤٦ مدفعاً و١٧ مدفعاً مضاداً للطائرات و٢٢ مدفعاً مضاداً للطائرات و٣٦٨ رشاشاً و ٣٥٥٠ بندقية و١٣٣ سيارة نقل. ثم تابع رومل وفرقته التقدم إلى شيربورغ حيث وقعت اشتباكات عنيفة؛ اضطرت بعدها الحامية الفرنسية للاستسلام دون قيد ولا شرط يوم ١٩ حزيران ــ يونيو ــ ١٩٤٠ وانتهت بذلك مهمة فرقة رومل التي أطلق عليها اسم (الفرقة الشبح)، بسبب تحركها السريع وظهورها المباغت باستمرار في أماكن يصعب تصور وصولها إليها.

○

لم تتوقف الحرب باجتياح القوات الألمانية للغرب؛ واستمرت بريطانيا في مقاومتها؛ فأحبطت خطة (أسد البحار) وصمدت للقصف الجوي وزجت قواتها في مصر فهاجمت القوات الايطالية في ليبيا. ووصل الموقف إلى درجة خطيرة. مما حمل هتلر على القول:

«لقد آلى الفوهرر على نفسه أن يدعم الايطاليين؛ وستنقل وحدات ألمانية إلى أفريقيا بأقرب وقت ممكن؛ مجهزة بالمدافع المضادة للدبابات والألغام والدبابات الثقيلة والمدافع المضادة للطائرات الثقيلة والخفيفة وستنقل المواد والعتاد عبر البحر. وينقل المحاربون جواً. ولا يمكن نقل الوحدات قبل منتصف شهر شباط ــ فبراير ــ كما أنها تتطلب ما يقارب خمسة أسابيع من تاريخ شحنها حتى تصل الجبهة».

تبع ذلك عقد مؤتمر قمة بين هتلر وموسوليني ورؤساء هيئات أركانهما يومي ١٩ و ٢٠ كانون الثاني ــ يناير ــ ١٩٢١. وأعلن الايطاليون أنهم يعملون على إكمال قوة فرقهم

الثلاث الموجودة في طرابلس، وأنهم سيعملون على إرسال فرقة مدرعة وفرقة آلية من ايطاليا قبل ٢٠ شباط ــ فبراير ــ وأعلن الألمان من جانبهم أنهم سيرسلون الفرقة الآلية الخفيفة الخامسة لدعم حلفائهم الايطاليين ما بين ١٥ و ٢٠ شباط ــ فبراير ــ على أن يتم شحن معدات هذه الفرقة ووسائطها القتالية بحراً. ورحب الايطاليون بهذا الدعم.

عقد هتلر بعد ذلك مؤتمراً مع رؤساء هيئة أركانه؛ أعلن فيه: «قد لا يكون لضياع أفريقيا في حد ذاتها أهمية عسكرية بالنسبة لألمانيا؛ إلا أن نتائج ذلك ستكون شديدة الخطر على الايطاليين. إذ تستطيع بريطانيا عندها أن تسدد مسدسها إلى رأس ايطاليا. ولا يمكن عندها تقييد حرية عمل القوات البريطانية في البحر الأبيض المتوسط، وستتاح لبريطانيا الفرصة لتتصرف بحرية بعدد من الفرق قد تستخدمها بصورة خطرة جداً في سوريا. وعلينا أن نبذل كل جهد للحيلولة دون هذا. يجب أن نقدم مساعدة فعالة لانقاذ شمال أفريقيا. على سلاح الطيران الألماني الذي سبق أن صدرت له الأوامر بمساعدة الايطاليين؛ أن يضاعف من تدخله، بقوة أشد ليسدد ضربة قاتلة للقوات البريطانية في برقة. وعليه أن يتعاون مع سلاح الجو الايطالي لحماية طرق التموين؛ ووسائط النقل؛ وقطع الإمدادات البريطانية في البر والبحر؛ ومحاربة الأسطول البريطاني؛ ولكن يجب قبل كل شيء أن نحاول قهر القاعدة الجوية في مالطا... وقد تستطيع الفرقة الجاهزة ــ وهي الفرقة الخامسة الخفيفة ــ إيقاف تقدم البريطانيين. إلا أن هذه الفرقة غير كافية أبداً. ولا بد من دعمها بفرقة مدرعة قوية. يجب الإسراع بإرسال القوات الألمانية؛ واستخدام النقل الجوي إذا ما دعت الحاجة» هذا ما قاله هتلر. ولكن من ذا الذي سيعهد إليه بقيادة هذه القوات؟ **وصدر الأمر إلى رومل يوم ٦ شباط ــ فبراير ــ بتولي قيادة ما أطلق عليه اسم الفيلق الافريقي. ووصل رومل إلى برقة يوم ١٢ شباط ــ فبراير ــ ١٩٤١ ومعه خمسة من الضباط ــ هيئة أركانه ــ** واقترح هتلر على موسوليني وضع القوات الإيطالية تحت قيادة رومل. ووافق موسوليني. فكتب هتلر إلى موسوليني رسالة يوم ٢٨ شباط ــ فبراير ــ جاء فيها:

«إذا صبرنا خمسة أيام أخرى، فأنا على ثقة بحتمية فشل كل محاولة جديدة يقوم بها البريطانيون للاستيلاء على طرابلس. أنا شاكر لك يا دوتشي وضع وحداتك الآلية تحت تصرف الجنرال رومل؛ وسوف لا يخذلك؛ وأنا مقتنع بأنه سيكسب ولاء جنودك في فترة قصيرة. وآمل أن يستحوذ على محبتهم. وأعتقد أن مجرد وصول فرقة البانزر الأولى سيعزز موقفكم ويدعمه بقوة».

لقد كان رومل جديراً بهذه الثقة؛ وأهلاً لها؛ وبرهنت مسيرة الأعمال القتالية على هذه الحقيقة وأكدتها. غير أن قيادة رومل لحرب الصحراء؛ لم تتجه على منحى ثابت؛ ولم تأخذ شكل الخط البياني المتصاعد والمستمر. وإنما أخذت شكل خط بياني متأرجح في صعوده وهبوطه. (وهو

ما يبرزه الجدول الزمني المرفق لأعمال رومل في قتال الصحراء). فهل كان ذلك نتيجة لقصور في رؤية رومل لحقيقة الموقف ؟ أم كان ذلك نتيجة لتقصير في إدارة الحرب ؟ أم كان ذلك بسبب عوامل خارجية ــ سياسية وعسكرية ــ فرضت ذاتها على مسرح العمليات وحرمت رومل من حرية العمل العسكري ؟ أم هناك عوامل أخرى تخرج على إرادة رومل ؟ لا بد قبل كل شيء من القول بأن حرب رومل في الصحراء؛ كانت مثلها مثل كل حرب؛ رهناً بحوار الإرادات المتصارعة. وإذا لم تتوافر هذه الإرادة في صف القيادة الايطالية؛ فإنها كانت متوافرة وحتى أبعد الحدود لدى رومل وقادته وجنوده. ولكن مقابل ذلك؛ كانت هناك إرادة أخرى لدى الخصم، لا تقل تصميماً ولا عناداً منها عند رومل وقيادته؛ وكان لهذا العامل/ثقله في إدارة حرب الصحراء؛ غير أن هناك بقية العوامل التي كانت تمارس دورها في دعم هذه الإرادة أو إحباطها.

الجدول الزمني
لأبرز الأعمال القتالية في حرب الصحراء

٩ / ١٢ / ١٩٤٠	قيادة الجنرال الانكليزي ويفل للقوات البريطانية في الهجوم على الايطاليين في ليبيا .
٣ / ١ / ١٩٤١	نقل الفيلق الجوي الألماني العاشر إلى صقليا .
٦ / ٢ / ١٩٤١	تعيين رومل لقيادة الفيلق الافريقي .
١٢ / ٢ / ١٩٤١	وصول رومل إلى طرابلس الغرب .
٢٢ / ٣ / ١.٩٤١	قيام رومل بقيادة الهجوم على العقيلة (العجيلة) .
٢ / ٤ / ١٩٤١	نجاح قوات رومل في احتلال أجدابيه .
٨ / ٤ / ١٩٤١	الهجوم الألماني الأول على طبرق واحتلال البردية والسلوم .
١٨ / ١١ / ١٩٤١	بدء الهجوم البريطاني المعاكس بقيادة اوكنلك وكوننغهام .
٢٣ / ١١ / ١٩٤١	موقعة سيدي رزق .
٧ / ١٢ / ١٩٤١	تراجع القوات الألمانية عن خط الغزالة ؛ ورفع الحصار عن طبرق .
٢٠ / ١ / ١٩٤٢	استسلام حامية حلفايا للألمان .
٢١ / ١ / ١٩٤٢	قيادة رومل للهجوم لاحتلال برقة ، ثم احتلال بنغازي .
٢٦ / ٥ / ١٩٤٢	هجوم رومل الثالث على جبهة الغزالة .
٢ / ٦ / ١٩٤٢	موقعة بئر حكيم وانتصار قوات رومل .
٢٠ / ٦ / ١٩٤٢	احتلال طبرق ، والهجوم على مصر واحتلال مرسى مطروح .
١ / ٧ / ١٩٤٢	فشل هجوم رومل الأول على جبهة العلمين .
٩ / ٧ / ١٩٤٢	فشل هجوم رومل الثاني على القطاع الجنوبي من جبهة العلمين .
٣٠ / ٨ / ١٩٤٢	اختراق جبهة العلمين ، وإيقاف الأعمال القتالية أمام جبهة دلتا النيل
٢٣ / ١٠ / ١٩٤٢	بداية هجوم البريطانيين بقيادة مونتغومري على جبهة العلمين .
٢ / ١١ / ١٩٤٢	اختراق الجيش البريطاني الثامن لجبهة العلمين .

٧ / ١١ / ١٩٤٢	الإنزال الأمريكي ــ البريطاني في المغرب والجزائر (عملية مشعل).
١٤ / ١١ / ١٩٤٢	سحب رومل لقواته إلى خط فوكه الدفاعي.
٢٠ / ١١ / ١٩٤٢	سحب رومل لقواته إلى خط مرسى البريغا.
٢٢ / ١ / ١٩٤٣	إخلاء منطقة طرابلس الغرب.
١٢ / ٢ / ١٩٤٣	وصول جيش رومل إلى خط ماريت والالتقاء مع الجيش الخامس.
٢ / ٤ / ١٩٤٣	قيام الجيش الثامن بقيادة مونتغومري بالهجوم على خط انفيدا فيل.
٧ / ٥ / ١٩٤٣	سقوط تونس في قبضة الحلفاء.
١٢ / ٥ / ١٩٤٣	استسلام الجيوش الألمانية ــ الايطالية في افريقيا (تونس).

كانت القيادة الألمانية قد زجت بكل ثقل قواتها المسلحة على مسرح عمليات الاتحاد السوفييتي. واعتبرت أن مسرح عمليات شمال افريقيا هو مسرح عمليات ثانوي. ومقابل ذلك، فقد اعتبر رومل أن مسرح عملياته في ليبيا هو مسرح رئيسي وأساسي في تقرير النتيجة النهائية للحرب، ولهذا فقد عمل في شهر تموز ــ يوليو ــ سنة ١٩٤١؛ وعندما دفع بقواته إلى أبواب مصر؛ على وضع خطة شاملة كان الواجب الأول فيها هو الاستيلاء على قناة السويس؛ أما الواجب التالي؛ فهو الوصول إلى البصرة والاستيلاء عليها من أجل إيقاف سيل الإمدادات الأمريكية التي كان يتم إرسالها إلى الاتحاد السوفييتي ــ عبر الخليج العربي ــ ومن ثم السيطرة على بلاد الشام؛ وتأمين إمداداته عن طريقها؛ مما يحمل تركيا على الإنحياز إلى جانب ألمانيا. وكان بلوغ هذا الهدف يسمح للقوات الألمانية بفتح جبهة جديدة ضد الاتحاد السوفييتي، جبهة القوقاز، مما يضع القوات السوفييتية في دائرة حصار محكمة، ويساعد على تدميرها والقضاء عليها.

لقد كان من نتيجة الاختلاف بين وجهة نظر القيادة الألمانية العليا للموقف؛ وبين وجهة نظر رومل؛ أن حرم مسرح عمليات افريقيا من الدعم الحقيقي؛ فلم تتجاوز قوات رومل فرقتين أو ثلاث فرق ألمانية، ومثلها تقريباً من القوات الايطالية، وكان رومل يطلب باستمرار زيادة حجم قواته لتنفيذ أهدافه؛ وكانت القيادة الألمانية تصر باستمرار على عدم زيادة حجم قوات رومل. ومقابل ذلك؛ كانت القيادة البريطانية العليا تقدر تقديراً صحيحاً أهمية مسرح عمليات افريقيا؛ ودوره الخطير في التأثير على كافة الأوضاع في العالم العربي (الشرق الأوسط). ولهذا فقد عملت على زج قوات كافية لمجابهة تحديات رومل. واستطاعت زيادة معدل قواتها حتى شكلت جيشاً كاملاً (الجيش الثامن بقيادة مونتغومري). ثم دعمت من قدرة الجيش بالإنزال الذي تم تنفيذه في المغرب والجزائر؛ فوضعت قوات رومل بين فكي كماشة. ولقد حاولت القيادة الألمانية ــ الايطالية استدراك ما فاتها من قصور وتقصير؛ والتعويض عن أخطائها بزج قوات جديدة؛ غير أن من لا يفعل ما يجب عليه

أن يفعله عندما يكون قادراً؛ فإنه لا يستطيع أن يفعل ما يريده بعد فوات الأوان. وهكذا كان على رومل أن يخوض صراعه المرّ في ظروف غير متكافئة باستمرار. فكان ميزان القوى ضده دائماً وبمعدل واحد إلى سبعة حتى واحد إلى عشرة؛ ومن عجب أن يستطيع رومل رغم ذلك أن يحقق ما حققه من انتصارات؛ وأن ينجز ما استطاع إنجازه من أعمال. يضاف إلى ذلك ضعف السيطرة الجوية والبحرية لدول المحور (ألمانيا وايطاليا) في منطقة البحر الأبيض المتوسط؛ مما أنقص بصورة محسوسة حجم الإمدادات التي كان يتم إرسالها إلى رومل. وعلى سبيل المثال؛ فقد تم إرسال إمدادات إلى الفيلق الأفريقي في شهر تشرين الأول ــ اكتوبر ــ ١٩٤١؛ شملت ١٥٨٨٤ طناً من المواد التموينية؛ و٥٥ مدفعاً؛ و٩٤٢ سيارة، غير أن قاع البحر استقبل منها ٧٥٣٦ طناً من المواد التموينية؛ و١٨ مدفعاً؛ و٥٠٣ سيارات. وكانت الخسائر في الشهر السابق أيلول ــ سبتمبر ــ قد قدرت بنسبة ٥٠ بالمئة في المواد التموينية و٥٠ بالمئة بالمدافع و٧٥ بالمئة في السيارات؛ ولم يصل من الدعم سوى ٢٦٤٠ جندياً بطريق الجو؛ و٥١٨٠ عن طريق البحر. وإذن، فلم يكن بالمستطاع تعويض النقص في أعداد الجنود وصف الضباط؛ الذي بلغ في شهر آب ــ اغسطس ــ ١٩٤١ ما يقارب ١٥٩٥٨ مقاتلاً؛ وكان ينقص المشاة ٧٦٧٠ جندياً؛ وبطاريات المدافع ٢٣٠٥ جندياً؛ والمدرعات ٩١١ جندياً.

لم يتحسن الوضع التمويني وموقف الإمداد بعد سنة؛ ففي الفترة من ١ إلى ٢٠ آب ــ اغسطس ــ ١٩٤٢، تلقى الايطاليون، العاملون مع قوات رومل، أكثر من ١٥ ألف طن؛ وتلقى الطيران الألماني ٣٢١٦ طناً؛ كما تلقت وحدات الجيش المدرع ٥٢٧١ طناً؛ كان منها ٢٨٥٤ طناً من الوقود و٨٤٢ طناً من الذخائر، وهذه نسبة تعادل ثلاثة أخماس ما كان تحتاجه القوات؛ وكان الفيلق الألماني يحتاج يومياً إلى ٤٩٠ طناً؛ أي أنه كان يحتاج في هذه الفترة إلى ٩٨٠٠ طن. ولم يكن باستطاعة رومل والحالة هذه أن يحتفظ بأي احتياطي؛ بل إن الأمر على النقيض من ذلك؛ فقد كانت مستودعاته تتناقص يوماً بعد يوم؛ في فترة كان من المتوقع فيها أن تقوم القوات البريطانية بالهجوم في كل وقت.

وكان هناك عامل آخر أضعف من قدرات رومل وإمكاناته؛ وهو التناقض بين القيادتين الألمانية والايطالية؛ في رؤيتهما للأمور؛ فقد كانت القيادة الايطالية تعتبر أن مسرح عمليات ليبيا هو (موطنها) وأن مساعدة الألمان لهم هي مساعدة اقتضتها الضرورات. فكان هناك من يقاوم هذا التدخل الألماني، بشكل أو بآخر، وكان هناك أيضاً من لم تعجبه قيادة رومل وطريقة إدارته للحرب؛ إذ كان يرى فيها تهوراً، وخروجاً على المألوف، وإهمالاً لتدابير الحيطة والحذر. وانعكس ذلك بصورة طبيعية على رومل وعلى قواته؛ وامتد ذلك إلى مجال الإمداد والتموين؛ وكانت البحرية الايطالية قد أخذت على عاتقها قضية نقل القوات والإمدادات. وتم الاتفاق على أن يتم هذا النقل بصورة

مناصفة؛ وكان في ذلك إجحاف للقوات الألمانية؛ وبالرغم من ذلك؛ فقد كان يتم إهمال هذا المبدأ لمصلحة الايطاليين؛ وعلى سبيل المثال؛ فقد تم في مطلع شهر آب ــ اغسطس ــ ١٩٤٢ نقل الفرقة الايطالية بيستويا إلى طرابلس ومعها ٣٠٠ سيارة؛ في حين كان يجب نقلها في النصف الثاني من هذا الشهر؛ وفي أثناء ذلك كانت الفرقة الألمانية ١٤٦ تخوض معركة ضارية على حدود مصر؛ وكانت تنتظر نقل سياراتها الموقوفة في إيطاليا؛ ولكنه لم يتم شحن أية سيارة منها. وكان عدد أفراد القوات الايطالية في صيف سنة ١٩٤٢، على المسرح الافريقي ١٢٢ ألفاً. ألحق منهم في جيش رومل ٥٤ ألفاً فقط، بينما بقي ٧٧ ألفاً منهم تحت القيادة الايطالية مباشرة بمهمة حماية المدن برقة البيضاء وطرابلس الغرب وغيرهما. فكان من المفروض أن يخصص ثلاثة أرباع المواد المنقولة إلى قوات رومل؛ إذ أن الحاميات الثابتة؛ والقوات المقيمة في الثكنات؛ لم تكن تحتاج ما تحتاجه قوات رومل من الوقود والذخائر.

كانت تلك هي بعض العقبات التي جابهها رومل في إدارته لحرب الصحراء. وهي صعوبات كافية لإحباط عزيمة أشد الرجال مضاء؛ وأكثرهم تصميماً وعناداً؛ إلا أن رومل تجاوز ذلك كله، ومضى للعمل بما هو متوافر له من القدرات والإمكانات؛ وكثيراً ما ساعدته الغنائم التي حصل عليها من العدو (البريطانيين) لرفد قواته ببعض ما كانت تحتاجه من القدرة، لا سيما في الوقود والذخائر، ويضاف إلى ذلك الصعوبات الخاصة بمسرح العمليات؛ فقد كان طريق الإمداد الرئيسي هو الطريق الساحلي. وكان هذا الطريق يمتد لمسافة ثمانمئة كيلو متراً من طرابلس ــ إلى الشرق ــ ماراً بمدينة الخمس؛ وأراضيها الغضارية؛ ثم إلى وليده ذات الآثار الرومانية القديمة؛ ثم إلى مصراطه أو مسراطه، ليجتاز بعدها مسافة ٥٠٠ كم عبر أراض قاحلة جرداء؛ في منطقة السرت الكبير ــ حيث حرارة الشمس اللاهبة ــ والتي ترتفع صيفاً لأكثر من ٤٢ درجة سنتيغراد، وحيث الأرض المجدبة التي لا ينبت فيها سوى نبات الحلفا، وبعض أنواع الشجيرات الشائكة. وكان المنظر متشابهاً؛ حيث السهول الرملية تمتد حتى أفق لا نهاية له؛ وترتسم عليه الأطراف الوردية لجبل لا يمكن تمييزه إلا تحت السماء الصافية، عندما تنعكس الأشعة على ألواح زجاجية، في فترة ما قبل الغروب. في حين كانت الرمال الساحلية البيضاء تعكس أنوار الشمس الباهرة. أما في الداخل، وعلى امتداد الصحراء، فليس هناك إلا السراب المتماوج على أرض يابسة، حيث يرسم تحت نسمات الريح الهادئة بحيرات ذات مياه زرقاء؛ ذات ظلال عجيبة، تبتعد عن الأنظار كلما ظن الانسان أنه زاد منها اقتراباً. إنها طبيعة قاسية؛ تمثل عالماً غريباً لم تعرفه مخيلة الأوروبيين عامة.

هذا هو المحيط الذي وجد رومل نفسه فيه؛ يوم وصل إلى طرابلس حيث استقبله القائد العام للقوات الايطالية غاريبولدي. وشرع في بحث الموقف المتدهور معه؛ وانصرف رومل وهيئة أركانه للبحث في خرائطهم، وسرعان ما اتخذ رومل أول قرار له: «يجب دفع الجبهة إلى الأمام». وذهل

القائد الايطالي لهذا القرار؛ وسأل رومل: «ولكن! ماذا يحدث لو افترضنا وصول البريطانيين، بقيادة ويفل، إلى أجدابية؟ إننا سنتعرض للخسائر الفادحة فيما إذا اضطررنا إلى خوض معارك شديدة؛ **فكيف سينتهي أمرنا بعد ذلك؟**». وابتسم رومل ابتسامته المعهودة وأجاب: «**إن كل ما أوده هو أن أرى ويفل متقدماً إلى أجدابية؛ وسنرده على أعقابه؛ وندحره حتماً؛ وسنلقي به وبجيشه إلى خارج برقة**».

لقد كان رومل يرغب اغتنام الوقت الملائم لضرب ويفل وقواته؛ قبل أن تصل إليه النجدات وقوات الدعم الجديدة التي سترفد فرقه الخمس والعاملة تحت قيادته. فإذا قبل ويفل الدخول في المعركة، وهو ما كان يرجوه رومل ويأمله؛ فإنه سيتغلب عليه. وإذا ما تراجع، فإن رومل يكون قد حقق هدفه، وهو دحر القوات البريطانية؛ وإرغامها على التراجع، ومطاردتها. وهكذا أخذ رومل في زج القوات التي كانت تصله عن طريق البحر إلى طرابلس، وعمل على قذفها تباعاً إلى الخطوط الدفاعية الجديدة؛ دونما انتظار لتجمعها وإعادة تنظيمها. ثم شرع في استطلاع المواقع الدفاعية البريطانية ــ براً وجواً ــ في محاولة لاكتشاف نقطة أو نقاط الضعف، في تنظيماته الدفاعية. وأخذت الأعمال القتالية في السير عبر طريق متصاعد.

بدأت قوات رومل تقدمهامع نهاية شهر شباط ــ فبراير ــ ١٩٤١، فاستولت على **آبار النوفلية** وأتبعتها بالاستيلاء على **العقيلة** في ٢٢ آذار ــ مارس ــ بعد معركة ضارية وقصيرة. وتابعت تقدمها بسرعة؛ الأمر الذي أذهل القوات البريطانية؛ مما دفع الجنرال الانكليزي غامبيير باري إلى توجيه نداء لقواته في محاولة لرفع روحها المعنوية المتداعية. وتضمن هذا النداء الذي صدر يوم ٢٥ آذار ــ مارس ــ ما يلي: «... يجب على كل منا ألا يتأثر بالواقع الذي سنواجهه؛ وهو أننا سنقاتل بعد قليل قوات وفرقاً مدرعة ألمانية؛ بل على العكس من ذلك، يجب أن نسر ونغتبط باغتنام هذه الفرصة الجديدة. ويجب ألا يذهب بنا الظن والاعتقاد بأن الألمان هم أناس فوق البشر ــ كما يدعون ــ بل إنهم على النقيض من ذلك، فهم جنود من الدرجة الدنيا». ولكن هذا النداء لم يتمكن من إنقاذ الموقف المتدهور، وقد سقط الجنرال غامبيير، ذاته أسيراً في قبضة القوات الألمانية بعد عشرة أيام فقط من إصداره لهذا النداء. فقد انطلقت القوات الألمانية يوم ٣١ آذار ــ مارس ــ نحو الجنوب في اتجاه **الصويره** على الطريق الساحلي الذي كان يحمل اسم طريق بالبو متقدماً نحو الحدود المصرية؛ وجابهت هذه القوات صعوبات لا نهاية لها في أثناء تقدمها؛ غير أنها تمكنت من التغلب عليها تباعاً؛ إلا أن هناك صعوبة لم يكن باستطاعتها التغلب عليها؛ وهي الطبيعة القاسية للصحراء. فقد ارتفعت درجة الحرارة عند الظهيرة حتى أربعين درجة سنتيغراد، وأخذ الحر الشديد يطغى بفيضه ولفحاته الحارقة. وظل الحر الشديد هذا رفيقاً للقوات الألمانية، بعد ذلك، طوال أيام الصيف..وعند المساء، كانت القوات الألمانية قد دمرت المقاومات في **مرسى البريغا** بعد

صراع مرّ وعنيف. وأصدر رومل أمره: «**سنحتل غداً أجدابيا ونظراً لاستمرار العدو في التقهقر والتراجع؛ فإنه ليس هناك ما يخيفنا البتة من قيامه بهجوم مضاد. فإذا انطلقنا متقدمين في منطقة برقة ــ على اتجاه برتا ــ فقد يسعدنا الحظ في أن نقطع عليه خط تراجعه**».

وهكذا تابعت قوات رومل اندفاعها اعتماداً منها على عاملين أساسيين: **اتخاذ القرار الجريء والحازم؛ والسرعة في تنفيذه**.

وصلت قوات رومل في ظهر اليوم التالي إلى أجدابيا. ودارت معركة حاسمة؛ وتم احتلال القرية وغنمت القوات الألمانية كميات وفيرة من الأسلحة والذخائر والسيارات والمؤن والمعدات. وتبين أن القوات البريطانية قد انسحبت على عجل مستفيدة من طبيعة الأرض المتموجة. فأصدر رومل أمره: «**يجب ملاحقة العدو فوراً حتى لا تترك له فرصة للراحة أو الهرب. ويجب إثارة عواصف هائلة من الغبار وراءه؛ فالغبار يستر تحركاتنا؛ ويوفر علينا من استهلاك الذخائر قدر المستطاع**». وهكذا، تقدمت جمهرة استطلاع؛ ولم تتوقف إلا عندما وصلت إلى مسافة ثلاثين كيلو متراً إلى الشرق من أجدابيا.

إن تقدم رومل السريع إلى أجدابيا قد وضع طرابلس في مأمن من كل هجوم، إذ باتت تبعد عن خط الجبهة مسافة ألف كيلو متر تقريباً. كما أصبح باستطاعته تأمين ما يحتاجه من المياه. تابعت قوات رومل المتقدمة اندفاعها؛ حتى إذا ما وصلت إلى الحجر الكيلو متري بنغازي ٤٠ كيلو متر، تبدل المنظر الطبيعي؛ فبدت الأرض وقد اكتست بغطاء من العشب اليابس؛ واختفى منظر الرمال والتلال الصحراوية الجرداء. فيما كانت أشجار الزيتون الدائمة الخضرة تلوح في الأفق. وهنا؛ وهناك؛ كانت قطعان من الجمال ترتع في مرابع العشب؛ والأعراب من الرجال والنساء يردون ينابيع المياه العذبة للتزود بالمياه. وجاءت نسمات حلوة حملت أريج الزعتر فملأت صدور المحاربين بالهواء المنعش.

دخلت قوات رومل **بنغازي** فوجدت أن القوات البريطانية قد انسحبت منها؛ وشعر رومل بالضيق؛ فقال: «**إن سوق الانكليز أمامنا لا يفيدنا شيئاً، بل يجب القضاء عليهم نهائياً**». ونظراً إلى الخارطة؛ فوجد أن هناك طريقاً (درباً) ينطلق من أجدابيا ليسير عبر الصحراء ماراً بمروس والمخيلي ليصل إلى الساحل؛ على خليج بامبا؛ عند الطرف الآخر من مدينة درنة. فقرر دفع قوة على هذا الطريق ليقطع على الانكليز خط التراجع عن برقة. وجزع الايطاليون الذين يعرفون البلاد من هذه المغامرة، وأسرع قائد القوات الايطالية لمقابلة رومل. وأظهر له خطورة مغامرته، غير أن رومل أقنع غاريبولدي بصحة مشروعه؛ ولم يبق أمام القائد الايطالي غاريبولدي إلا النزول عند قرار رومل. وأمضى رومل اليوم التالي في متابعة تحرك قواته عبر الطريق الصحراوي، وضاعت بعض وحداته في

متاهات الصحراء. وأسرع رومل لاستخدام الطائرة، من أجل توجيه الوحدات؛ وتجميعها؛ وقيادتها إلى الهدف؛ وتعرض خلال ذلك لمآزق صعبة، إذ كادت طائرته تهبط في وسط معسكر بريطاني؛ ومرة أخرى كاد يقع أسيراً في قبضة القوات البريطانية. وعندما وجه النقد إلى رومل لمغامرته الخطرة قال: «**الصراع في حرب الصحراء؛ مثله كمثل الصراع في البحر. وإني لم أسمع قط بأن أميراً للبحر قد ربح ولو معركة بحرية واحدة وهو جالس في قاعدة برية على الساحل**».

التقت قوات رومل في المساء، هذه التي سارت على الطريق الساحلي وتلك التي اخترقت الصحراء، وتوجه رتل منها نحو **درنة و تميمي**. فيما قام رتل آخر بإحكام الطوق على **المخيلي**. وقد طلب رومل إلى القوات البريطانية في المخيلي بالاستسلام؛ وأعاد الطلب المرة بعد المرة، فلم يصله إلا الرفض. ولما لم يبق إلا المعركة لحسم الموقف، انطلقت قوات رومل للهجوم في فجر يوم ٨ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٤١. وبعد معركة قصيرة وحاسمة، تم أسر ألفي جندي. وفي الوقت ذاته؛ كانت القوات البريطانية في درنة قد استسلمت ووقع في قبضة الجنود الألمان عدد من كبار القادة البريطانيين بالاضافة إلى كميات كبيرة من الغنائم التي شملت مختلف أنواع الأسلحة والاعتدة. **ووصف رومل نتيجة هذه المعركة بقوله: «لم يكن لدينا شيء يذكر نعتمد عليه؛ أو نستعين به. لقد** انسقنا إلى هذه الموقعة في المخيلي، وقد دفعنا العدو إليها دفعاً. وأصبح لزاماً أن نخوضها بما تستحقه؛ ولكن المعركة لم تصل إلى نهايتها بعد؛ وقد تبقى علينا ما هو أصعب، وما يجب إكماله؛ إننا لا نزال في البداية».

اصطدمت قوات رومل لدى متابعة تقدمها بمقاومة ضارية ومنظمة في **محيط طبرق**. وظهر واضحاً أن البريطانيين لن ينسحبوا هذه المرة من قاعدتهم البحرية ــ البرية الهامة. فنظم هجمات متتالية استطاع البريطانيون إحباطها. وبينما كان الصراع محتدماً ومستمراً حول طبرق. كانت أرتال رومل المتقدمة قد استولت على **البردية و السلوم**، وطرقت بعنف أبواب مصر. غير أنه كان من المحال أن يندفع رومل لأبعد مما وصلته قواته. فلقد استنزفت المسيرات الشاقة، والأعمال القتالية المتتالية، والاستنزاف في الوسائط القتالية؛ قدرة القوات الألمانية والايطالية؛ ولم يبق لرومل ما يعمله سوى تنظيم الدفاع عند خط السلوم ــ سيدي براني، مع متابعة حصار طبرق؛ في محاولة للاستيلاء عليها قبل استئناف التقدم.

توافر لرومل الوقت لتأمل تجاربه القتالية في الصحراء؛ واستخلص منها بعض النتائج؛ منها:

١ ــ ضرورة توافر قيادة متحركة؛ ونشطة، ومندفعة، وتتوافر لها حرية العمل العسكري.

٢ ــ توافر القدرة للتدخل فوراً من أجل توجيه وتعديل أي تحرك للقوات.

٣ ــ اتخاذ القرارات المناسبة؛ وتنفيذها بسرعة؛ على ضوء المواقف المتجددة.

٤ ــ تأمين (المباغتة)، وزيادة الاعتماد على الخطط الخداعية.

٥ ــ بذل كل جهد مستطاع لإرغام العدو على القتال؛ وتهديد خطوط تراجعه وانسحابه.

لقد أذهلت انتصارات رومل ــ والتي يصعب وصفها في سطور ــ قيادة البريطانيين، بقدر ما كانت مباغتة للقيادتين الألمانية والايطالية. فوقف رئيس الوزراء البريطاني تشرشل مدافعاً عن هزيمة قواته وقادته في شمال افريقيا؛ ومعللاً سبب هذه الهزيمة بقوله: «إننا أمام قائد كبير». وهذا يعني أن جميع القيادات على طرفي الصراع من بريطانيين وايطاليين، كانوا صغاراً وأقزاماً أمام العملاق رومل. وليس غريباً أن يقترن اسم هذا القائد الكبير بهالة من الإعجاب مما حمل القائد البريطاني الجنرال اوكنلك على إصدار تعميم لقادته وقواته؛ جاء فيه:

إلى جميع القادة ورؤساء هيئات الأركان

من القيادة العامة للجيش البريطاني في مصر وقوات الشرق الأوسط.

إن خطراً حقيقياً يكمن في أن صديقنا رومل أصبح ساحراً مستحوذاً على مخيلة جنودنا الذين يتحدثون عنه كثيراً وبصورة مستمرة. إنه ليس على أي حال إنساناً أعلى (سوبرمان) وإن كان مقتدراً وذا كفاءة عالية. وحتى لو كان رومل إنساناً أعلى؛ فمن المستغرب أن يضفي عليه رجالنا قدرات خارقة. وإني لآمل أن تتذرعوا بكل الوسائل الممكنة من أجل إزالة هذه الفكرة؛ وهي أن لا نتفوه باسم رومل عندما نعني في حديثنا العدو في ليبيا؛ بل يجب أن نشير إلى الألمان أو قوات المحور أو العدو وألا نذكر اسم رومل بعد الآن. ورجائي أن تضعوا هذا الأمر موضع التنفيذ حالاً؛ بحيث تظهر نتائجه؛ وأن تؤكدوا لجميع القادة بأن هذه القضية بالغة الخطورة من وجهة نظر (الحرب النفسية).

الجنرال اوكنلك

القائد العام لقوات الشرق الأوسط

وقد ذيل اوكنلك تعميمه هذا الملاحظة التالية: «**إنني لست غيوراً من رومل**».

لقد حقق رومل انتصاراته بثمن لا يكاد يذكر؛ وبقدرات عسكرية متواضعة؛ وكان يأمل في أن تقدر القيادة الألمانية العليا أهمية هذا المسرح من مسارح العمليات؛ فتقدم له من القوى والوسائط القتالية، ما يمكنه من حسم الصراع المسلح في منطقة الشرق الأوسط بكاملها؛ وربما بما يتجاوز حدود الشرق الأوسط، مع الاتحاد السوفييتي. لكن قيادة المحور (ألمانيا ــ ايطاليا) نامت على انتصارات رومل؛ في حين كانت القيادة البريطانية تحشد كل ما هو متوافر لها من القوى والوسائط حتى أصبح الجيش الثامن بعد عام؛ من أقوى الجيوش البريطانية وأسندت قيادته إلى قائد كبير أيضاً هو الجنرال مونتغومري. حتى إذا ما كان يوم ٢٣ / ١٠ / ١٩٤٢، انطلق الجيش البريطاني بهجومه، ولم تتمكن القوات الألمانية ــ الايطالية من الصمود طويلاً؛ فأخذت في التراجع

نحو خطوط دفاعية مناسبة. وأفاقت القيادة الألمانية ــ الايطالية وهي في حالة من الذعر. وأرسل هتلر برقية إلى الماريشال روميل جاء فيها:

«**إن الشعب الألماني بكامله يتابع معي بطولتكم في هذه الموقعة الدفاعية التي تخوضون غمارها في مصر. وهو يثق بصفاتكم الحربية قائداً؛ وبالجيوش الألمانية الايطالية التي تقودونها كفاءة واقتداراً؛ ويجب ألا تعتريكم في الموقف الذي تعيشونه وتجابهونه إلا فكرة واحدة هي المقاومة العنيدة؛ وعدم التراجع ولو خطوة واحدة؛ وزج كافة القوى والوسائط المتوافرة لديكم في دائرة الصراع**. لقد أرسلت إليكم قوات دعم كافية من الطائرات؛ بواسطة القائد العام للجبهة الحربية الجنوبية. وإن الدوتشي (موسوليني) والقيادة الايطالية العليا، سيبذلون أقصى الجهود الممكنة لتقديم كافة الوسائل التي تساعدكم على متابعة القتال.

إن العدو هو اليوم في ذروة قوته؛ ولكن وبالرغم من ذلك؛ فهي ليست المرة الأولى في التاريخ والتي تنتصر فيها الإرادة الأقوى على الأفواج الأكثر عدداً؛ وليس أمامكم سوى طريق واحد تسيرون به إلى جنودكم، **وهو طريق النصر أو الموت**».

وأعطى روميل على الفور أمره التالي: «بموجب الأمر السامي، يجب الدفاع عن المواضع الحالية حتى النهاية؛ ومنع إجراء أي انسحاب بدون موافقتي النهائية. إن التدابير التي اتخذت من أجل التراجع تصبح ملغاة؛ بموجب البرقية تاريخ ٣/١١/١٩٤٢ ــ الساعة ٤٠ر١٣».

لم تعد القضية هي قضية إرادة للصراع في ظروف من التوازن المقبول أو المعقول، وإنما باتت رهناً بموازين مختلفة تماماً. فهنا وعلى جانب الحلفاء؛ انطلقت قوات البريطانيين مجتاحة العلمين ومواقعها الدفاعية، في ظل من التفوق الساحق. وفي الغرب أخذت قوات أخرى للحلفاء بقيادة ايزنهاور تجتاح الأقاليم لوضع قوات روميل بين المطرقة والسندان.

وإقراراً بالواقع؛ لقد حاولت القيادتان الألمانية والايطالية إنقاذ الموقف؛ بزج قوات جديدة وإرسال دعم قوي؛ غير أن اللحظة المناسبة كانت قد ابتعدت كثيراً، فلم تتح لقوات الدعم فرصة العمل؛ حتى إن بعضها قد وقع في الأسر، قبل أن يشترك في المعركة. ووقف القائد الألماني كيتل يندب الفرصة الضائعة فقال:

«**لقد كانت العلمين من أعظم الفرص التي فقدناها؛ وإني أود أن أقول أنه حينما كانت الحرب في أوجها هناك، كنا أقرب ما نكون إلى النصر من أي وقت آخر قبله أو بعده. ولم يكن ينقصنا سوى القليل حتى نستولي على الاسكندرية ونمضي من هناك إلى السويس وفلسطين**».

لقد أدركت القيادة الألمانية العليا أن روميل قد بذل كل ما يستطيعه لتحذير القيادة، وإنذارها، وأنه بذل أكثر مما هو مستطاع من جهد لاستثمار القوى والوسائط المتوافرة له للدفاع عن

افريقيا . ولم تكن خسارة افريقيا على كل حال ؛ سوى البداية ؛ فقد انتقلت قوات الحلفاء إلى غزو صقليا . وأخذت في الهجوم على ايطاليا . فتم تعيين رومل في أواخر صيف ١٩٤٣ قائداً لمجموعة الجيوش (ب) في شمال ايطاليا . غير أن الخطر الأكبر الذي كان يتهدد ألمانيا هو ذاك القادم من الشمال (عبر جدار الأطلسي) . فتم تعيين رومل قائداً لمجموعة الجيوش (آ) في فرنسا . ولقد اصطدم رومل هنا أيضاً بتقييد حرية عمله العسكري . وبالرغم من ذلك ؛ فقد بذل جهوداً مضنية لتنظيم الدفاع عن جبهة الأطلسي (ما بين هولندا ونهر اللوار في فرنسا) . ومرة أخرى ؛ كان للتفوق الحاسم في القوى والوسائط دوره في تقرير نتيجة الصراع . فعندما قام الحلفاء بإنزال قواتهم في النورماندي . كانوا يمتلكون من القدرات قدراً لا قبل لألمانيا بمجابهته . وفي هذا الصراع ؛ أصيب رومل بجراح جديدة اضطرته للابتعاد عن جبهة القتال . ثم تتابعت الأحداث بسرعة ؛ فقد أراد نفر من القادة إيقاف الحرب والاتصال بحلفاء الغرب على أمل إجراء تسوية سلمية تجنب ألمانيا كارثة الدمار وذل الاحتلال . غير أن هتلر اكتشف أمر هؤلاء ، الذين حملت مجموعتهم اسم المتآمرين في مؤامرة ٢٠ تموز — يوليو — ١٩٤٤ . وكان هؤلاء يبحثون عن قائد له شعبية ورصيده المعنوي الهائل في داخل ألمانيا ؛ وله سمعته الطيبة في خارج ألمانيا ؛ فوجدوا في رومل الشخص المناسب . وكان لدى رومل الاستعداد لعمل كل شيء من أجل إنقاذ وطنه وأمته . غير أن انكشاف أمر (المؤامرة) وضع رومل أمام موقف صعب . وقد وجد هتلر الحل لهذا الموقف فأرغم رومل على تناول السم ، مقابل عدم التعرض لأهله ؛ ومقابل وعده بتشييعه بصورة رسمية . واحتفلت ألمانيا بوداع رومل وتشييعه ، وهي تعتقد أنه مات — كما جاء في البيان الرسمي — متأثراً بجراحه . غير أن نهاية الحرب لم تتأخر ، وظهرت الحقائق كلها . لقد مات رومل منتحراً . بعد أن قدم لأهله ووطنه كل ما يستطيع إنسان تقديمه .

المراجع الرئيسة للقسم الثاني

آ ــ المراجع العربية

١ ــ تاريخ الجيش الألماني (بينوا ــ ميشان) ترجمة العميد الركن محمد سميح السيد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ــ ١٩٧٦.

٢ ــ عهد الحرب الخاطفة (آري. آش. أرنكتون) ترجمة رياض شاهر التقي، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ــ ١٩٨١.

٣ ــ حرب المباغتة (العقيد البرت ميرغلن) ترجمة المقدم بسام العسلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨٢.

٤ ــ المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية (بيتر يانغ) ترجمة المقدم المتقاعد بسام العسلي، الإدارة السياسية، فرع الثقافة والتوجيه، دمشق ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٣ م.

٥ ــ القادة الألمان في عهد هتلر وبعده، الإدارة السياسية، فرع الثقافة ــ الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م. دمشق ــ الجمهورية العربية السورية.

٦ ــ الانتصارات الضائعة (اريك فون مانشتاين) ترجمة أمين النفوري. مطبوعات هيئة التدريب في القوات المسلحة للجمهورية العربية السورية ــ دمشق ١٩٧٧.

٧ ــ مذكرات جندي (الجنرال هانز غودريان) ترجمة العميد الركن كاستون فاتول. دمشق ــ ١٩٧٣.

٨ ــ إدارة الحرب (الجنرال ف. س. فوللر) ترجمة أكرم ديري، دار اليقظة العربية بيروت ــ ١٩٧١.

٩ ــ تطور فن الحرب (الجنرال جيلين) ترجمة محمد حسن حافظ. مركز الدراسات العسكرية دمشق ــ ١٩٨١.

١٠ ــ صانعو الاستراتيجية الحديثة (ادوارد ميدايرل) ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مركز الدراسات والأبحاث العسكرية ــ دمشق ١٩٨١.

١١ ــ سنوات المصير (هـ. ج. فون ايزييك) الملازم الأول رضا استنبولي، دار اليقظة العربية، دمشق ــ ١٩٥٥.

١٢ ــ العمليات الحربية في شمال افريقيا في الحرب العالمية الثانية (١ ــ ٤) الجيش المصري ، وزارة الحربية ، مطبعة القوات المسلحة ــ ١٩٥٧ .
١٣ ــ رومل (البريغادير ديزموندديونغ) ترجمة الملازم الأول بشير صادق ، مطبعة الجمهورية السورية ــ دمشق .

ب ــ المراجع الأجنبية

1 - The Décisive Battles Of The Western World. (J.F.C. Fuller) Granada Publishing Limited. 1970
2 - The War Lords (Field Maréchal Sir. Michael Carver) Wéidenfeld. And Nicolson-London 1976
3 - La Guerre Sàns Haine (Maréchal-Rommel) Amiot. Dumont

الفهرس

القسم الأول
١٧٥٠ ــ ١٩١٩ م

الفصل الأول
بناء الدولة البروسية القوية

الفصل الثاني

الفكر العسكري البروسي

الفصل الثالث

رائد الفكر العسكري البروسي

الفصل الرابع

عمل هيئة الأركان

الفصل الخامس

مخطط الحرب

الفصل السادس

إدارة الحرب

الفصل السابع

ما بين عهدين

القسم الثاني

١٩١٩ ــ ١٩٤٥ م

الفصل الأول

إعادة بناء الجيش الألماني

الفصل الثاني

المظليون ــ واقتحام البعد الثالث

الفصل الثالث

القوات الجوية

الفصل الرابع

أسد البحار وحرب الغواصات

الفصل الخامس

القائد الاستراتيجي

الفصل السادس

التخطيط للعمليات وإدارة الحرب

الفصل السابع

حرب الحركة وقتال المدرعات

الفصل الثامن

قائد حرب الصحراء

المذهب العسكري الألماني/ بسام العسلي.ـــ ط. ١ .ـــ
دمشق: دار طلاس، ١٩٨٦ .ـــ ٥٤٦ ص. : موضح؛
٢٨ سم.

تقديم مصطفى طلاس.

١ ـــ ٩٤٣ ع س ل م ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ العسلي
مكتبة الأسد

رقم الايداع ـــ ٧٧٠/ ٩/ ١٩٨٦

عام ١٩٨٦



مطبعة الاسكان العسكرية